كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الأول)

٣٤-٦٣٤م

أسد رستم

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الأول)

٣٤–٦٣٤م

تأليف
أسد رستم

هنداوي

المحتويات

مقدمة ٧

الباب الأول: ظهور النصرانية وانتشارها ١٩

١- كنيسة أوروشليم أمُّ الكنائس ٢١

٢- حيث دُعِي المؤمنون مسيحيين أولًا ٣٣

٣- البِدَع والفِرق والهرطقة في القرن الأول ٤٧

٤- النُّظُم والعقائد في القرن الأول ٥٥

٥- أغناطيوس ثيوفوروس ٦٩

٦- الدفاع الأول عن العقيدة ٨١

٧- مشكلة عيد الفصح ١٠٣

٨- الكنيسة والدولة ١٠٩

٩- الاضطهادات الكبرى ١٢٣

١٠- وهنٌ وضعف وارتداد وانشقاق ١٣٥

١١- قانون الإيمان الأنطاكي قبل نيقية ١٦٣

١٢- لوقيانوس المعلِّم الأنطاكي ١٦٧

١٣- المقاومة الوثنية ١٧٥

١٤- روابط الكنيسة ونُظمها في القرن الثالث ١٨٣

١٥- الاضطهاد العظيم ١٩٣

١٦- ليكينيوس وقسطنطين ٢٠٩

الباب الثاني: انتصار النصرانية وانقسامها ٢١٧
١٧- آريوس والآريوسية ٢١٩
١٨- ملاتيوس الشريف ٢٦٣
١٩- يوحنَّا الذهبيُّ الفم ٢٨٧
٢٠- الرُّهبان في القرنين الثالث والرابع ٣١٥
٢١- كنيسة أنطاكية في الربع الأول من القرن الخامس ٣٢٧
٢٢- نسطوريوس والمجمع المسكوني الثالث ٣٣٧
٢٣- أوطيخة والمجمع المسكوني الرابع ٣٥٩
٢٤- النزاع الخريستولوجي ٣٧٧
٢٥- يوستينوس ويوستنيانوس ٣٩٣
٢٦- تنصُّر العرب ٤٢٣
٢٧- القوانين والنظم والطقوس والأعمال الخيرية في القرن السادس ٤٣٧
٢٨- فوقاس وهرقل ٤٥٥

الفهارس ٤٧٩
سلسلة البطاركة ٤٨١

مقدمة

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد
آمين

أومن بإله واحد آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرَى وما لا يرى؛ وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس، وصُلِب عنَّا على عهد بيلاطس البنطي، وتألَّمَ وقُبِر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وأيضًا يأتي بمجد ليدين الأحياءَ والأموات، الذي لا فناء لملكه.

وبالروح القدس الرب المحيي، المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن، مسجود له وممجَّد، الناطق بالأنبياء.

وبكنيسة واحدة جامعة مقدَّسة رسولية، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين.

«ودينا لا يقتصر على ما يثبته العقل بدليل منه، ولو اقتصر على ذلك لما شعرنا بحاجة إليه، ولكنه لا يعلم ما يراه العقل محالًا، ولو فعل لَكان ضربًا من الضلال والتضليل، وليس كل معقول قابلًا للإثبات بحجج العقل؛ فحقائق الوجود أعمق من أن يسبر غورَها عقلٌ محدودٌ، وحقائق الوحي كالشمس تبهر ولكنها تنير السبيل.»

وقد أقام العلماء حججًا كثيرةً على وجود الله، منها: حجة الحركة والقول إن الكون سلسلة أحداث، وإن كل حادث مفعول، وكل مفعول يفترض فاعلًا، ومنها الاستناد إلى قضية الإمكان والوجوب، والقول إن في الموجودات حاجات وكمالات، وإن الله وحده كامل بذاته لا يتأتى له الكمال من غيره، وإنما هو كامل بحكم طبعه، والقول أيضًا بتدبير الكون، وبأن الله عقل ما لا يعقل وقصد ما لا يقصد، وأنه قد طبع في كل طبع ما أراده إليه، وهيَّأ لكل طبع فعلًا ملائمًا له محققًا لغايته.

ولكن أهم من هذا كله وأشد أثرًا في النفس دليل الخبرة الشخصية، فالرسل والأنبياء والقديسون والمؤمنون جميعهم خبروا الله يومًا بعد يوم، ولمسوا عنايته لمسًا، فعلموا أنه عالم بكل معلوم.

ولكم دجا ليلُ الخطوب، وأظلمت سبلُ الخلاص، فصلوا مع داود: «إلى الرب صرخت في ضيقي، يا رب أنقذ نفسي، إني ولو سلكتُ في وادي ظل الموت لا أخشى سوءًا؛ لأنك معي، عصاك وعكازك هما يعزيانني.» فأتاهم من ألطافه فرجٌ لم يحتسبوه. وكم أثقلت الذنوب ظهورَهم، وسوَّدت العيوب صحفهم، فصرخوا مع باسيليوس الكبير: «يا رب، يا رب، يا مَن أنقَذنا من كل سهم يطير في النهار، أنقِذنا أيضًا من كل عائق يسري في الدجى.» فستر عفوُه وشمل لطفه، فكانت صلاتهم نورًا لهم وبرهانًا.

وندموا واستغفروا وتقدَّموا من جسد الرب ودمه الكريم للتطهير والتقديس والإنارة والحراسة، وللنمو في الفضيلة والكمال، فخرجوا شاكرين واثقين من شفاء النفس والجسد، وإنارة العين وسلامة القوى، ممتلئين حكمةً، عاملين بالوصايا، عائشين بالبر والطهارة للسيد له المجد.

وميزة ديننا أن الكلمة صار جسدًا، فكان إلهًا كاملًا في إنسان كامل، فالشرقي كان قد أذعن لله، ولكنه لم يكن حرًّا طلقًا، فجاء إذعانه سلبيًّا؛ وكان الغربي قد نشط وتحرَّر، وحاوَلَ جهد المستطاع أن يصل بالإنسان إلى درجة الكمال، ولكنه كان لا يزال يجهل الله، فجاء المسيح إلهًا كاملًا في إنسان كامل، فأوجَدَ للشرق ضالته، وأعطى الغربَ ما طلب واستقصى، وأظهر الحقيقة وهو الحقيقة المتجسدة، فأبان للشرق الإلهَ الكامل متَّحِدًا بالإنسان الكامل، وأكَّد للغرب أن الإنسان الكامل إنما هو مظهر من مظاهر الإله الكامل، ومن هنا سجود مجوس الشرق لـ «الإله المولود»، ومن هنا أيضًا قول ممثِّل الغرب بيلاطس البنطي: «ها هو ذا الرجل.»

ولم يَبْقَ بعد هذا أيُّ مجال لثقافة شرقية وثقافة غربية، فالمولود الجديد أوجَدَ ثقافةً إنسانيةً شاملةً ثقافةَ الشرقِ والغرب معًا، وأوجب على الخلق أجمعين أن يجعلوا من أنفسهم بشرًا أقوياء طلقاء كاملين قدر المستطاع؛ لينصرفوا إلى تطبيق مشيئة الله على أكمل وجه.

والكنيسة في العالم هي جماعة المقدسين في المسيح وبنعمة الروح القدس، المدعوين ليكونوا قديسين بشرًا أحرارًا كاملين قدر المستطاع، منصرفين إلى تطبيق مشيئة الله على أكمل وجه، والكنيسة فوق العالم هي سر الله المكنون، ولولا هذا لما عاشت في العالم.

والهرطقة على ممر العصور هي تفريق ما جمعه المسيح في شخصه، فالإبيونيون Ebionites لم يروا في المسيح إلا نبيًّا عظيمًا، خصَّه الله بشرط وافر من الحكمة، والمشبهون Docetistes لم يروا فيه إنسانًا، فقالوا وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، والآريوسيون جعلوه مخلوقًا وسطًا بين الله والإنسان، والنساطرة قالوا إنه وُلِدَ إنسانًا ثم حلَّ فيه روح الله، وبالتالي فالعذراء أم يسوع لا والدة الإله، والمونوفيسيون قالوا بطبيعة واحدة إلهية لا بطبيعتين إلهية وبشرية، والمونوتيليون قالوا بمشيئة واحدة إلهية لا بمشيئتين إلهية وبشرية، ولم تكن حرب الأيقونات نزاعًا سطحيًّا حول طقس معين من طقوس الكنيسة، وإنما كانت بحثًا في سر التجسُّد نفسه، فمَن حارَبَ الأيقونات أنكَرَ حرمةَ شكلِ الإله المنظور، وهدَّدَ سرَّ التجسُّد بالانهيار، وإنكارُ الأسرار المقدسة عند الإنجيليين، ولا سيما سر الاستحالة، هو في حد ذاته خروجٌ على اتحاد الإله الكامل بالإنسان الكامل. «ففي المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسديًّا وفيه نحن نمتلئ» (كولوسي، ٢: ٩).

وكنيستنا واحدة جامعة مقدسة رسولية؛ فإننا جميعنا قد اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد، يهودًا كنَّا أم يونانيين، عبيدًا أم أحرارًا، وسقينا جميعًا من روح واحد، ونحن جسد واحد هو جسد المسيح وأعضاء كلٌّ بمقدار، ومكانة كنيستنا في تاريخ البشر أنها أذعنت لله وسعَتْ لتطبيق مشيئته، وطلبت من المؤمنين إيمانًا وعملًا في آنٍ واحد.

والكنيسة تتألَّف من عنصرين: إلهي وبشري، من الحقيقة الإلهية المعطاة لها ومن سعيها البشري لتنفيذ المشيئة، وقد يسهو البعض عن أن النعمة الإلهية لا تقسر الناس قسرًا، وإنما تعمل فيهم عمل النور في الهواء، فتخترق نفوسهم لتعطيهم حرارةً وإشعاعًا، ونحن أعضاء هذه الكنيسة الجامعة بشرٌ، وكبشر نستبق التطوُّر أحيانًا، فنلجأ إلى الإكراه والقسر، وإكليروسنا قد يستكن أو يتحرك، فبينما يستكن الإكليروس الشرقي في بعض الأحيان، يتحرك الغربي أحيانًا إلى أن يمسي متهجِّمًا صلفًا؛ وهكذا فإنه نشأ

— على ممرِّ العصور — شيء من الاختلاف في تطبيق العقائد الواحدة، ولم يخلُ حقلُ الرب في فرعَيْه الغربي والشرقي من الزوان من حب السيطرة والمجد الفارغ، ومن الطمع والحسد وسوء الظن والحقد، فكان انشقاق مؤلم مخيف.

ويتوجب على المؤمنين والحالة هذه، أن يصلُّوا بحرارةٍ لأجل زوال هذا الشقاق، وأن يبتهلوا بقلب منكسر ونفس منسحقة لأجل التقارب والوحدة، وألا ينسوا قول الذهبي الفم: «إن الذي يشق كنيسة الله يعمل عملًا أفظع من إنكار الإيمان؛ لأن الذي يُنكِر الإيمانَ يُهلِك نفسًا واحدة، وأما الذي يشقُّ الكنيسة فإنه يُهلِك نفوسًا كثيرة.» وعلى كلِّ مؤمن أن يلاحظ هؤلاء الذين يحدثون الشكوك والشقاق، وأن يعرض عنهم؛ لأنهم على حدِّ قول بولس الرسول: «لا يخدمون ربنا يسوع المسيح بل بطونهم.»

وإذا ما صلَّينا وابتهلنا لوحدة الصفوف، فإنما نفعل ذلك لأجل متابعة العمل في حقل الرب بعد جمودٍ دامَ طويلًا، وحقلُ الرب واسعٌ جدًّا يشمل العالَمَ بأسره، والعمل فيه لا يثمر إلا إذا اقترن بظروف صالحة معينة، وأهم هذه الظروف التجدُّد الداخلي الذي يتحلَّى بإنكار الذات، وإنكارُ الذات يبدأ باعترافٍ داخلي بالعيوب وعدم الوصول إلى الكمال، ويفرض تنازلًا حقيقيًّا عمَّا نسمِّيه كرامةً شخصيةً، وهو يتطلَّب استعدادًا للتعاون مع الغير في سبيل مبدأ صحيح عام كلي المفعول؛ والمبادئ الأدبية الروحية كثيرة لا يخلو منها فؤاد، ولكن المقصود هنا هي تلك التي يعترف جمهور المؤمنين بصحتها، وتوجب الكنيسة الجامعة تطبيقها، وإذا كان الشرقيون منَّا قد أخطئوا في مجرد التمادي في التأمُّل والتعبُّد والمحافظة على قدسية الإيمان والوقوف عند هذا القدر، فالغربيون منَّا أخطئوا أيضًا في التشديد على نواحٍ معينة من العمل وإعطائها المرتبة الأولى؛ وهكذا فإنه يحقُّ للأرثوذكسي الشرقي أن يفاخر بشدة حرصه على استقامة الإيمان، ولكنه ينسى في بعض الأحيان قول الرسول بولس: «ولو كانت لي النبوة، وكنتُ أعلم جميعَ الأسرار والعلم كله، ولو كان لي الإيمان كله حتى لأنقل الجبال، ولم تكن فيَّ المحبة؛ فلستُ بشيء!» ويحق للكاثوليكي أن يفاخر بدوره بأعماله الكثيرة، ولكنه ينسى في بعض الأحيان قول هذا الرسول نفسه: «ولو بذلتُ جميعَ أموالي إحسانًا، ولو أسلمتُ جسدي لأُحرَق، ولم تكن فيَّ المحبة؛ فلا أنتفع شيئًا!» والواقع أن عيب الكاثوليكيين والأرثوذكسيين كان ولا يزال منذ الانشقاق إغفال المحبة. «والمحبة تتأنَّى وترفق ولا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة، ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتد ولا تظن السوء، ولا تفرح بالظلم بل بالحق، تتغاضى عن كل شيء، وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء!»

وقد أزمن الداء وتعسَّرَ برؤه، ولكنه ليس من النوع الذي لا ينجع فيه دواء، ورأينا أن نبتعد عن سياسة القسر والإكراه، فلا نستغل ظرفًا سياسيًّا، ولا نستعين بسلطة زمنية مسيطرة، فقد جرَّبنا هذا النوع من العلاج مرارًا وتكرارًا؛ فأخفقنا وتباعدنا.

وعلينا أيضًا أن نقلع عن التشويق إلى طقس معيَّن، أرثوذكسيًّا كان أم كاثوليكيًّا؛ فكنيسة المسيح غربية وشرقية في آنٍ واحد، ويجب أن تظل هكذا؛ لأن السيد المخلص إلهٌ كامل في إنسان كامل، ولأن هذه الصفة الشاملة التي تضم الشرق والغرب صفةٌ لازمة للكنيسة على ممر العصور، وكفانا نحن الاثنين — إلى أن يتم اتحادنا — أن هيرارخيتينا رسوليتان، وأن دستور إيماننا إلهي بشري واحد لا غشَّ فيه، وأننا نمارس أسرارًا إلهية مقدَّسة واحدة، تُنشِئ فينا بنعمة الله عندما نصبح مستعدين، ظرفًا روحيًّا طاهرًا يتطلَّب الاتحاد.

وإذا ما تمَّتْ هذه المهادنة بيسوع وله وتابعنا الصلاة المخلصة الحارة، «من أجل ثبات كنائس الله المقدَّسة واتحاد الجميع»، زال من نفوسنا مركب الشقاق والانشقاق، وحلَّ محله مركب المحبة، وعندئذٍ نجلس معًا ونتبادل الرأي بإلهام الروح القدس إلى ما فيه مشيئة الله وخير البشر.

وكنيستنا الأنطاكية يونانية سريانية عربية؛ فقد كانت يونانيةً برجالها في المدن، وبفكرها ولغتها وطقوسها، وكانت سريانية وعربية بشعبها في القرى والأرياف، ولا يخفى أن الأرياف السورية اللبنانية الفلسطينية الأردنية استعربت قبل الفتح الإسلامي بتسعمائة سنة، وأن السريانية تقلَّصت تدريجيًّا، فانحصرت في القرى والمدن، ثم في التلال النائية في لبنان والقلمون مثلًا، وأخبار العرب والعروبة ثابتة في المراجع الهلينية، وفي سِفْر الأعمال، وفي أخبار القديسين ولا سيما أفثيميوس العظيم (٣٧٧–٤٧٣) وسمعان العمودي (٣٩٠–٤٦٠).

ولا نرى مبررًا للضجة التي يثيرها بعضُ إخواننا من رجال الكنائس السريانية، كلما وجدوا مخطوطةً من مخطوطات كنائسنا الأرثوذكسية مكتوبةً باللغة السريانية؛ فمجرد العثور على هذه المخطوطات لا يجيز الاستنتاج أن كنيسة أنطاكية كانت سريانيةً بلغتها وطقوسها ثم تهلنت؛ فالواقع الذي لا مفرَّ من الاعتراف به هو أن هذه الكنيسة التي نتشرف بالانتماء إليها جمعت في جميع عصورها يونانيين وسريانيين وعربًا، وأن لغتها الرسمية وطقوسها وقوانينها وثقافتها كانت يونانيةً قبل أن تكون سريانيةً أو عربيةً.

وقد يفيد أن نذكِّر إخواننا السريانيين أن مثل اجتهادهم هذا لا يصحُّ إلا في أحوال منطقية معيَّنة؛ فلا بد من كلية مُعترَف بصحتها، كأنْ نقول مثلًا إن اللغة التي كُتِب بها كتاب كنسي هي وحدها لغة الكنيسة التي استعملت هذا الكتاب. ولا بد من جزئية صحيحة أيضًا، كأنْ يُقال إن هذا السواعي الأرثوذكسي كتب بهذه اللغة؛ فتلزم النتيجة بطبيعة الحال، فكل ما صدق على حدٍّ صدق على كلِّ ما يصدق عليه ذلك الحدُّ إيجابًا وسلبًا، وأنَّى لنا أن تكون هذه الكلية صحيحة! وكنيستنا الأرثوذكسية كانت ولا تزال تعمل بوصية الرسول، فتجعل الصلاةَ بلغةٍ يفهمها الشعب، وقد رأينا بأم عيننا كتابًا طقسيًّا أرثوذكسيًّا يعود إلى السنة ١٦٨٠ مكتوبًا باللغة الثلاث معًا: اليونانية والعربية والسريانية، وإذا جاز استنتاج إخواننا، فماذا نقول عن اللغة الكرجية في كنائس فلسطين؟ فالرقوق الكنسية الكرجية والكتب القديمة الكرجية كثيرةٌ في ديري المصلبة والقديس سابا.

وندرس ماضي كنيستنا لفهم حاضرها وإعداد العدة لمستقبلها، ولا سبيلَ لفهم الحاضر فهمًا تامًّا كاملًا شاملًا إلا بالطريقة العلمية المثلى، والطريقة العلمية المثلى تستوجب جَمْع جميع مخلفات الآباء، بالإضافة إلى الأناجيل الطاهرة والرسائل المقدَّسة وفهمها فهمًا دقيقًا كاملًا؛ وفهم هذه المخلفات فهمًا علميًّا كاملًا يُوجِب التدرُّع بما يسمِّيه المؤرخون العلومَ الموصلة، والعلومُ الموصلة لتاريخ كنيستنا تشمل إجادة اللغات التي كُتِبَتْ بها الأناجيل والرسائل ومخلفات الآباء، وهي بترتيب أهميتها: اليونانية واللاتينية والسريانية والعربية، ولما كان لا بد من الاطِّلاع على أبحاث المؤرخين الزملاء، وجب علينا أن نجيد الألمانية والإفرنسية والروسية والإنكليزية وغيرها.

وقد جُمِعتْ مخلفاتُ الآباء ونُشِرت بنصوصها الأصلية، ونُقِلت إلى اللاتينية وبعض اللغات الحديثة، وأكملُ هذه المجموعات مجموعةُ الأب جاك بول مين الإفرنسي (١٨٠٠–١٨٧٥)؛ فإنه أصدر ما بين السنة ١٨٤٤ والسنة ١٨٥٥ أكثر من مائتَيْ مجلد، شملت مخلفات الآباء اللاتينيين حتى السنة ١٢١٦،[١] ثم نشر ما بين السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ مائة وواحدًا وستين مجلدًا من مخلفات الآباء اليونانيين حتى السنة ١٤٣٩.[٢] ويُعْنَى الآباء البنديكتيون في بلجيكة بجمع نصوص الآباء، ومقررات المجامع، وسِيَر القديسين،

[١] Migne, j. P., Patrologiae Cursus Completus, Series Latina.

[٢] Migne, j. P., Patrologiae Cursus Completus, Series Graeca.

والنقوش الكتابية المسيحية؛ لنشرها نشرًا علميًّا في سلاسل ثلاث لاتينية ويونانية وشرقية،[٣] وقد ظهر مجلد في برنامج هذا المشروع العظيم في السنة ١٩٥١،[٤] وظهر بعده في السنة ١٩٥٣ الجزءُ الأول من المجلد الأول، وتعاونَتْ أكاديمية برلين مع أكاديمية فينة في نشر نصوص الآباء نشرًا دقيقًا كاملًا، فنشرت برلين منذ السنة ١٨٩٧ ثلاثة وأربعين مجلدًا من النصوص اليونانية،[٥] ونشرت فينة ثلاثة وسبعين مجلدًا من النصوص اللاتينية،[٦] وكرَّس شابو وغويدي وهيبرنا وكراديفو وفورجي أوقاتهم لنَشْر النصوص التي جاءت باللغات الشرقية، فنشروا منذ السنة ١٩٠٣ مائة وسبعة وأربعين مجلدًا في سلاسل أربع سريانية وقبطية وعربية وحبشية،[٧] ونشر غرافان ونو منذ السنة ١٩٠٧ سبعة وعشرين مجلدًا من النصوص الشرقية،[٨] وهنالك مقررات المجامع المسكونية والمحلية، وقد نشرها دومينيكوس منسي ما بين السنة ١٧٥٩ والسنة ١٧٩٨ في فينة في واحد وثلاثين مجلدًا،[٩] وقام بعده العلَّامة الألماني شفارتز فبدأ في السنة ١٩١٤ بنشر أعمال المجامع المسكونية نشرًا عمليًّا دقيقًا،[١٠] ولا بد من التنويه هنا بفضل المونسنيور دوشان لعنايته بالمناشير الباباوية، وفضل الأب غرومل لاهتمامه بمحفوظات البطريركية المسكونية.[١١]

وينتقل المؤرخ المدقق في المرحلة الثانية من عمله إلى نقد هذه المراجع الأولية؛ ليتثبت من أصالتها وعدم تزويرها أو الدس فيها، ويعين تاريخها ومكان تدوينها، ثم يتحرى نصوصها، فيجيء بلفظها الأصلي، ويتذرع بالعلوم الموصلة إلى فهم ظاهرها وباطنها، ثم يدقِّق في أخبار رواتها، فيتعرَّف إلى أحوالهم ويتوصَّل إلى تقدير عدالتهم وضبطهم،

٣ Corpus Christianorum.

٤ Clavis Patrum Latinarum.

٥ Die Griechischen Christlichen Schriflsteller der Ersten Drei Jahrhunderte.

٦ Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum.

٧ Chabot, J. P., Guidi, J., Hyvernat, H., Carra de Vaux, B., Forget, J., Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium.

٨ Graffin, R., Nau, F., Patrologia Orientalis.

٩ Mansi, J. D., Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio.

١٠ Schwartz, E., Acta Conciliorum Oecumenicorum.

١١ Duchesne, Mgr., Liber Pontificalis; Grumel, V., Regestes des Actes du Patriarcat de Constantinople.

فيتمكَّن من المفاضلة بينهم، ويعين درجات متانة رواياتهم، فيجعلهم ثلاثة: راوٍ لا تُقبَل روايته، وآخَر ضعيف الرواية مجهول المكانة، وثالث هو أولاهم في انتباهه، ولكنه على هذا يظل موضوعًا للنظر والاختبار، ولا يصل المؤرخ في هذا النقد كله إلى نتيجة إيجابية يمكنه الاعتماد عليها للتثبُّت من حقيقة الماضي، ولا يقطع في شيء سوى أمر واحد هو إسقاط رواية مَن لا يعتمد عليه.

وأفضل ما يُرجَع إليه في نقد المراجع لتاريخ الكنيسة في القرون الأولى مصنَّفاتُ هرناك وبوخ ولابريول وبومشتارك وشابو.[١٢] ولا يُستغنَى في معالجة مراجع العصور الوسطى اليونانية عن مصنفي العلَّامة الألماني كارل كرومباخر،[١٣] وفي معالجة المراجع اليونانية الحديثة عن كتاب ثيودوري بابادوبولو.[١٤]

وتجيء المرحلة الثالثة في التأريخ، وهي دور إثبات الحقائق المفردة، فيتابع المؤرخ البحث والتنقيب للوصول إلى طمأنينة العقل وسلامة الاستنتاج؛ فيبتعد أولًا عن الروايات التي انفرد بها راوٍ واحد، فإذا كانت العلوم الطبيعية تتطلب المشاهدة والاستدلال القياسي والتحقيق بالمقابلة والتجربة؛ فتبتعد كل الابتعاد عن الإطلاق في النتيجة من مشاهدة واحدة، فالتأريخ أولى بذلك منها؛ لأنه بعيد عن المشاهدة، ضعيف الاستدلال بالقياس، عديم التجربة؛ فحري بنا أن نبتعد عن كل رواية تاريخية انفرد بها راوٍ واحد، فإذا قضت الظروف بتدوينها، فعلينا أن نصرِّح بأنها فريدة في بابها، وقد تتعدَّد الروايات التاريخية في أمر واحد فتتوافق أو تتناقض، وحيث تتناقض يجب على المؤرخ أن يترفَّع عن اتخاذ موقفٍ وسط بين الطرفين، فإذا ما وقع مثلًا على أصل من الأصول فيه أن عدد الشهداء كان أربعمائة، وآخَر فيه أنهم كانوا مائتين؛ فإنه من الخطأ الفاضح أن يوفِّق بين الطرفين، فيزعم أن العدد الحقيقي كان وسطًا بين الطرفين أيْ ثلاثمائة، فإذا جعل أحدهم حاصل الرقمين ٢ × ٢ أربعة، وجعل الآخَر الحاصل ستة، فهل يُقال إن الحاصل الحقيقي لا هذا

---

[١٢] Harnack, Ad., Geschichte der Altchristlichen Literatur; Puech, A., Histoire de la Litéra-ture Grecque Chrétienne; Labriolle, P., Hist. de la Lit. Chrét. Latine; Baumstarck, A., Gesch. der Syrischen Lit.; Chabot, J. B., La Lit. Syriaque.

[١٣] Krnmbacher, K., Gesch. der Byzantinischen Litteratur, (527–1453); Die Griechische Lit. des Mittelalters.

[١٤] Papadopoullos, Th. Hist. of Greck Church and People under Turkish Domination.

ولا ذاك، بل هو خمسة؟! وعلى المؤرخ أن يعيد النظر لعله يكشف الستار عن عيب في إحدى الروايتين لم يتنبه إليه أولًا، أو لعله يجد ما يجعله يثق بالواحدة أكثر من الأخرى، فيسقط ما قلَّتْ ثقتُه فيه ويرجِّح القولَ الآخَر.

وعليه أن يمتنع عن الحكم إذا عمَّ الشك وبانت قلة الثقة؛ فليس هنالك ما يضطره لإبداء رأيه وإصدار حكمه، والعالِم مَن يعلم أنه لا يعلم، والشك في الإيمان قبل اليقين، وشدة الانطباق بين الروايات المختلفة توجب الشك لا الثقة، وهنالك تآلف بين الحقائق التاريخية لا بد من الالتفات إليه، والاستعارة هنا من فن الموسيقى، فكما تتآلف الألحان فتؤلف مجموعًا شائقًا، كذلك الروايات التاريخية المختلفة، فإنها إذا ما عبرت عن الحقيقة الراهنة، تتآلف بعضها مع بعض، فتتناصر على البطل وتلمع لمعان الحق.

وقد تتوفَّر الحقائق المفردة في ناحية، وتعدم في الناحية الأخرى، فيجتهد المؤرخ في تلافي ما قد يقع من فراغ ويتذرع بالمنطق، فيعمل أحيانًا بما نسميه الاجتهاد السلبي، وأحيانًا أخرى بالاجتهاد الإيجابي؛ والاجتهاد السلبي هو ما عبَّر عنه المناطقة بقولهم: «السكوت حجة.» ومعناه أن يتمكَّن المؤرخ من القول بأن كذا وكذا حدث أو لم يحدث؛ لأن الأصول ساكتة خالية، وهو أمر خطر للغاية، فقد يكون السكوت حجة وقد لا يكون، ولا بد من التثبُّت من أمور ثلاثة قبل التذرُّع بمثل هذه الحجة، وهي أن يكون المؤرخ على يقين جازم من أمر اطلاعه على جميع الأصول، وألَّا يعتريه شك في أن ما لديه من هذه المراجع الأولية هو جميع ما دوَّنه السلف في الموضوع الذي يبحث، وأنه لم يضع منها شيء، وثالثًا أن يتأكَّد من استحالة سكوت الأصول عن الموضوع الذي يبحث؛ وهكذا فإن حجة السكوت لا تتم إلا إذا اقترن بالراوي حالتان لا تنفصلان: أولاهما أن تكون الوقائع التي يمكن أن يكون قد سكت عنها وقائع يهتم بها اهتمامًا شديدًا، والثانية أن يكون الراوي قد صمَّمَ على تدوين جميع الأخبار التي أحاط علمًا بها.

وسيتضح في تضاعيف هذا الكتاب أن بعض علماء الأوساط البروتستانتية وبعض علماء الكنيسة الكاثوليكية الغربية، لم يتقيَّدوا في بعض أبحاثهم بقواعد علم المصطلح؛ فدوَّنوا استنتاجات من هذا النوع لا يقرُّها المنطق.

وهنالك محاولات في بعض المصنفات الغربية للحطِّ من قدر رجالات الكنائس الأرثوذكسية، وللمبالغة في الاختلافات التي نشأت بين بعض كنائسنا، وهي أمور لا تخفى على كل ذي بصر.

وبعد هذا القدر كله من التحذير نوصي وننصح بمطالعة المصنفات التالية، أولاً الموسوعة والقواميس العامة: قاموس الدومين كابرول ولكلرك في الليتورجية والآثار المسيحية،[١٥] وقاموس بودريار وفوغت وروزيس في تاريخ الكنيسة وجغرافيتها،[١٦] وقاموس فاكان ومانغينو وأمان في اللاهوت الكاثوليكي،[١٧] وقاموس آليس في الإيمان والدفاع عنه،[١٨] وموسوعة هَوْك الفنية البروتستانتية في اللاهوت والكنيسة،[١٩] ومصنف غونكل وزشرنك في الدين في الماضي والحاضر،[٢٠] وموسوعة هايستنغس في الدين والفلسفة الأدبية،[٢١] ولا يخفى أن أهمية المقالات في الموسوعات والقواميس العامة تختلف باختلاف كُتَّابِها.

ثانيًا التواريخ العامة: ولا يستغني باحث في تاريخ الكنيسة عن الاطلاع على كتابَيْ هرنك ولوفس في تاريخ العقيدة،[٢٢] ويجب الرجوع من آنٍ إلى آخَر إلى مصنف تيكسيرون في الموضوع نفسه،[٢٣] وأفضلُ خلاصة لموقفنا من مشاكل العقيدة كتابُ فلاديمير لوسكي،[٢٤] ورسالة المطران سيرافيم،[٢٥] وكتاب الأنوار في الأسرار للمطران جراسيموس، وقد يفيد الرجوع إلى كتاب للعلَّامة مالتزيف للمقابلة والمقارنة بين العقيدة الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية.[٢٦]

---

[١٥] Dom F. Cabrol et dom H. Leclercq, Dictionnaire d'Archéologie Ghrétienne et de Liturgie.

[١٦] Baudrillart, A., Vogt, A., Rouziès, M., Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastiques.

[١٧] Vacant, A., Mangenot E., Amann, E., Dictionnaire de Théologie Catholique.

[١٨] Alés, A., Dictionnaire Apologétique de la foi Catholique.

[١٩] Hauck, A., Realencyclopadie fur protestantische Theologie und Kirche.

[٢٠] Gunkel, H., Zscharnack, L., Die Religion in Geschichte und Gegenwart.

[٢١] Hastings, J., Encyclopedia of Religion and Ethics.

[٢٢] Harnack, A., Lehrbuch der Dogmengeschichte; Loofs, F., Leitfaden zum Studium der Dogmengeschichte.

[٢٣] Tixeront, J., Histoire des Dogmes.

[٢٤] Lossky, V., Théologie Mystique de l'Eglise d'Orient.

[٢٥] Seraphim, l'Eglise Orthodoxe.

[٢٦] Moltzew, A., Dogmatische Erlauterungen zur Einfuhrung in das Verstandmis der Orthodox-Katholischen Auffassung in ihren Verhaltnis zur Romischen und Protestantischen.

ولا تزال مجلدات العلامة تيلمون الستة عشر على علاتها مرجعًا مفيدًا من حيث إحاطتها ووفرة وثائقها،[٢٧] ولا بد من الاطلاع على عمل المونسنيور دوشان للمدة نفسها[٢٨] وكتاب الأب بارغوار في تاريخ الكنيسة البيزنطية من السنة ٥٢٧ حتى السنة ٨٤٧،[٢٩] ومصنف ماسبيرو في بطاركة الإسكندرية،[٣٠] وكتاب ليبيديف العالم الروسي في انفصال الكنائس في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر،[٣١] ومؤلفي لويس براهيه في الكنيسة والشرق وفي الانشقاق،[٣٢] وكتاب ذيميتراكوبولو في العالم اليوناني الأرثوذكسي،[٣٣] ومصنف دوسيثيوس في بطريركية أوروشليم،[٣٤] وكتاب ذيوميذس كيرياكوس في تاريخ الكنيسة الشرقية من السنة ١٤٨٣ حتى السنة ١٨٩٨،[٣٥] وأفضل ما ظهر في الغرب في هذا الباب، باب التواريخ العامة، مجموعة فليش ومارتان في تاريخ الكنيسة، ومجموعة هيفيلي في تاريخ المجامع.[٣٦] وأفضل ما جاء في تاريخ كنيسة أنطاكية كتاب الطيب الذكر خريسوستوموس (بابا ذوبولوس) رئيس أساقفة أثينة وبلاد اليونان، فإنه بعد أن صنف في تاريخ كنيسة أوروشليم وكنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية، أتحف الأرثوذكسيين بكتاب جليل في تاريخ كنيسة أنطاكية، وإننا ننتظر بفارغ الصبر المجلد الثالث والعشرين من مجموعة فليش ومارتن في تاريخ الكنائس «المنفصلة».

وهنالك مئات من الأبحاث في مواضيع خصوصية محدودة في اللغات الألمانية والإفرنسية والروسية والإنكليزية والإيطالية واليونانية، أشرنا إليها في محلاتها إشاراتٍ واضحةً تامة تعاون على الرجوع إليها عند الحاجة.

وقد لقيت في شخص كلٍّ من حضرات الآباء: أغناطيوس (هزيم)، وجاورجيوس (خضر)، واسبيريدون (خوري) غِيرةً واندفاعًا وتضحية، ولولا جهود السيد أندره جحا

---

٢٧ Tillemont, L., Mémoires pour servir à l'Histoire Ecclésiastique des Six Premiers Siècles.

٢٨ Duchesne, Mgr. L., Hist. Ancienne de l'Eglise; L'Eglise au VI'Siècle.

٢٩ Pargoire, J., l'Eglise Byzantine.

٣٠ Maspero, J., Hist. des Patriarches d'Alexandria.

٣١ Lebedev, A. P., Hist. de la Séparation des Eglises.

٣٢ Brehier, L., L'Eglise et l'Orient au Moyen Age; Le Schisme Oriental.

٣٣ Demetracopoulos, A. C., Graecia Orthodoxa.

٣٤ Dositheos, Istoria peri ton en Ierosolumois Patriarcheusanton.

٣٥ Kyriakos, D. Gesch. der Orientalischen Kirche.

٣٦ Fliche et Martin, Histoire de l'Egtise; Héfélé-Leclercq, Histoire des Conciles.

وغيرته الأرثوذكسية ونشاطه الذي لا يعرف الكلل، واهتمام غيره من شباب الحركة الأرثوذكسية المباركة، لما تمَّ طَبْع هذا الكتاب في هذا الوقت القصير.

عن الشوير ورأس بيروت
في يوم تذكار القديس الأنطاكي
يوحنا الذهبي الفم
١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٥٨
أسد رستم

لقد بزغت النعمة من فمك فأنارت المسكونة،
فتشفع إلى الكلمة المسيح الإله في خلاص نفوسنا.

الباب الأول

ظهور النصرانية وانتشارها

٣٠-٣١٣

الفصل الأول

كنيسة أورشليم أمُّ الكنائس

منذ الصلب حتى حلول الروح القدس

وأسلم السيد الروح معلقًا على الصليب يوم الجمعة، فيما يعادل في حسابنا السابع من نيسان من السنة ٣٠ بعد الميلاد،[١] وأنزل يوسف الذي من الرامة جسد السيد، ولفَّه في كتان ووضعه في قبر منحوت لم يكن قد وُضِع فيه أحد، وكان قد أخذ السبت يلوح، وكانت النساء اللواتي أتين مع السيد من الجليل يتبعن، فأبصرن القبر وكيف وُضِع فيه جسده، فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا، وفي أول الأسبوع باكرًا جدًّا أتين إلى القبر يحملن الحنوط، فوجدن الحجر مدحرجًا، فدخلن فلم يجدن جسد الرب، فإذا برجلين بلباس برَّاق يقولان لهن إنه ليس ها هنا لكنه قد قام، اذكرن كيف كلَّمكنَّ وهو في الجليل إذ قال: ينبغي لابن البشر أن يُسلم إلى أيدي أناس خطأة، ويُصلَب ويقوم في اليوم الثالث. فذكرن كلامه ورجعن من القبر، وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين، وهؤلاء اللواتي أخبرن الرسل هنَّ: مريم المجدلية، وحنة، ومريم أم يعقوب، وأُخَر معهن، فقام بطرس وأسرع إلى القبر، وتطلع فرأى الأكفان موضوعةً على حدة، فانصرف متعجِّبًا، وكان اثنان في ذلك اليوم سائرين إلى عمواس، وكانَا يتحادثان في هذا كله، فدنا السيد منهما وسار معهما واشترك في حديثهما، فقال: يا قليلَي الفهم وبطيئَي الإيمان، أما كان ينبغي للمسيح أن يتألَّم، ثم يدخل إلى مجده.

---

[١] Loisy, A., La Naissance du Christianisme, 1933, 106–107; Guignebert, C., Jésus, 1933, 564 ff.; Braun, M., Jésus, Histoire des Religions (Gorce et Mortier), 1948, III, 155; Musset, H., Hist. du Christ., I, 1.

فلما اقتربوا من القرية دخل يسوع ليمكث معهما، ولما اتكأ أخذ خبزًا وبارَكَ وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه فغاب عنهما، فقامَا في تلك الساعة ورجعَا إلى أوروشليم، فوجدَا الأحد عشر والذين معهم مجتمعين، وهم يقولون: لقد قام الرب وتراءى لسمعان. فأخذَا يخبران بما حدث، وبينما هم يتحدثون وقف يسوع في وسطهم، وقال: السلام لكم أنا هو لا تخافوا. وقال: ينبغي للمسيح أن يتألم، وأن يقوم في اليوم الثالث من بين الأموات، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداءً من أوروشليم، وأنا أرسل إليكم موعد أبي، فامكثوا أنتم في المدينة إلى أن تلبسوا قوة من العلاء. ثم خرج بهم إلى بيت عنيا، ورفع يدَيْه وباركهم، وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء، فسجدوا له ورجعوا إلى أوروشليم بفرح عظيم، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون الله ويباركونه.[٢]

يوم العنصرة

والعنصرة كلمة عبرانية معناها اجتماع أو محفل، وعيد العنصرة عند اليهود هو عيد الشكر، وعيد تذكار قبولهم الشريعة في طور سينا على يد موسى.[٣] وعيد العنصرة عند النصارى هو عيد تذكار حلول الروح القدس على التلاميذ، وهو بعد عيد الفصح بخمسين يومًا؛ ولذا يُسمَّى باليونانية بنتيكوستي Pentekoste.

وعاد الرسل إلى أوروشليم، وواظبوا على الصلاة بِنَفْسٍ واحدة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته، وكان عدد «الإخوة» جميعًا نحو مائة وعشرين، فطلب إليهم بطرس أن ينتخبوا من الرجال الذين رافقوا يسوع منذ معمودية يوحنا، رجلًا يحل محل يهوذا الذي علَّق نفسه فانشنق، فقدموا اثنين: يوسف البار المسمَّى برسابا، ومتيا؛ وصلوا وقالوا: أيها الرب العارف قلوب الجميع، أظهِرْ أي هذين اخترتَ لكي يُستخلَف في الخدمة والرسالة التي سقط عنها يهوذا، ثم ألقوا القرعة فوقعت على متيا، فأُحصِي مع الرسل الأحد عشر.[٤]

---

[٢] إنجيل لوقا، الفصل الرابع والعشرون.

[٣] سِفْر المكابيين الثاني، الفصل الثاني عشر: ٣٢.

[٤] سِفْر الأعمال، الفصل الأول.

ولما حلَّ يوم الخمسين بعد القيامة كانوا كلهم معًا في مكان واحد، فحدث بغتةً صوت من السماء كصوت ريح شديدة، وملأ كل البيت الذي كانوا جالسين فيه، وظهرت ألسنة منقسمة كأنها من نار، فاستقرت على كل واحد منهم، فامتلئوا كلهم من الروح القدس، وطفقوا يتكلمون بلغات أخرى؛ وكان في أوروشليم رجال من اليهود أتقياء من كل أمة تحت السماء من البرتيين، والماديين، والعيلاميين، وسكان ما بين النهرين، واليهودية، وقبدوقية، والبونط، وآسية، وفريجية، وبمفيلية، ومصر، وليبية، والغرباء من رومة، واليهود الدخلاء، والكريتيين، والعرب؛ وكانوا كلهم مندهشين متحيرين، يقول بعضهم: ما عسى أن يكون هذا؟ ويقول آخَرون مستهزئين: إنهم قد امتلئوا سُلافة. فقال بطرس إلى اليهود: فَلْيعلم يقينًا جميعُ آل إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه ربًّا ومسيحًا. وقال إلى الإخوة: فيسوع هذا قد أقامه الله ونحن كلنا شهود، وإذا كان قد ارتفع بيمين الله، وأخذ من الآب الموعد بالروح القدس أفاض هذا الروح الذي تنظرون وتسمعون. فلما سمع اليهود نخسوا في قلوبهم، وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟ فقال لهم بطرس: توبوا وَلْيعتمد كلُّ واحد منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا، فتنالوا موهبة الروح القدس. فالذين قبلوا كلامه اعتمدوا، فانضمَّ في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس، وكانوا مواظبين على تعاليم الرسل والشركة في كسر الخبز والصلوات.

أم الكنائس

وكان جميع المؤمنين معًا، كان كل شيء مشتركًا بينهم، وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم، ويوزعونها على الجميع على حسب حاجة كل واحد، وكانوا يلازمون الهيكل كل يوم بنفس واحدة، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب، مسبحين الله ونائلين حظوة لدى جميع الشعب، وكان الرب كلَّ يومٍ يضمُّ الذين يخلصون إلى الكنيسة.[٥]

ثم صعد بطرس ويوحنا إلى الهيكل معًا لصلاة الساعة التاسعة، وكان رجل أعرج من بطن أمه يُحمل، وكان يُوضَع كلَّ يوم عند باب الهيكل ليسأل صدقةً، فلما رأى بطرس ويوحنا سألهما صدقة، فتفرَّسَ فيه بطرس مع يوحنا، وقال: ليس لي فضة ولا

[٥] سِفْر الأعمال، الفصل الثاني.

ذهب، ولكني أعطيك ما عندي باسم يسوع المسيح الناصري، قُمْ وامشِ. وأمسكه بيده وأنهضه، فوثب وقام وطفق يمشي ودخل معهما إلى الهيكل وهو يمشي ويسبِّح، فتبادر إليهم الشعب وهم منذهلون، فوعظ بطرس قائلًا: ما بالكم متعجبين من هذا؟ ولماذا تتفرسون فينا كأننا بقوتنا وتقوانا جعلنا هذا يمشي؟ إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد مجَّد فتاه يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه، وقد حكم هو بإطلاقه.[٦] وإن كثيرين من الذين سمعوا آمنوا، فصار عددُ الرجال خمسة آلاف.

وفي الغد اجتمع في أوروشليم رؤساء اليهود والشيوخ والكَتَبة وحنَّان رئيس الكهنة وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة، وكانوا قد أمروا بحبس بطرس ويوحنا، فلما اكتمل الجمع أقاموا بطرس ويوحنا في الوسط، وسألوهما: بأي قوة صنعتما هذا؟ فأجاب بطرس: باسم يسوع المسيح الناصري، الذي أقامه الله من بين الأموات بذاك وقف هذا أمامكم متعافيًا. فلما رأوا جُرأة بطرس ويوحنا، ونظروا الرجل الذي شُفِيَ واقفًا معهما، لم يكن لهم شيء يقولونه، فتهددوهما ألَّا يكلِّمَا أحدًا من الناس بهذا الاسم، فأجاب بطرس ويوحنا، وقالا لهم: احكموا أنتم ما العدل أمام الله؛ أن نسمع لكم أم نسمع لله؟ فإنا لا نقدر ألَّا نتكلَّم بما عايَنَّا وسمعنا. فهددوهما وصرفوهما، فصلَّى المؤمنون أن يهبهم الله أن ينادوا بكلمته بكل جرأة، وباع يوسف اللاوي القبرصي الأصل — الذي لقبه الرسل برنابا، الذي تفسيره: ابن العزاء — حقله وأتى بثمنه وألقاه عند أقدام الرسل.[٧] وكان المؤمنون بالرب يأخذون في الازدياد جماعات من الرجال والنساء، وجرت على أيدي الرسل آيات وعجائب كثيرة.[٨]

وامتلأ رئيس الكهنة ومَن معه غيرة، وألقوا أيديهم على الرسل وجعلوهم في الحبس، ففتح ملاك الرب أبوابَ السجن وأخرجهم، وقال: «كلِّموا الشعب بجميع كلمات تلك الحياة.» فلما كان الفجر ذهب الرسل إلى الهيكل وطفقوا يعلِّمون، ثم التأم محفل اليهود وأنفذوا إلى السجن ليحضروا الرسل، فجاء رجال الشرطة ولم يجدوهم، فعادوا وأخبروا أن السجن مقفل، وأنهم لم يجدوا أحدًا في الداخل؛ فتحيَّرَ أعضاء المحفل، ثم علموا أن الرسل في الهيكل يعلِّمون الشعب، فانطلق الوالي مع الشرطة وأحضر الرسل، فسألهم

[٦] سِفْر الأعمال، الفصل الثالث.

[٧] سِفْر الأعمال، الفصل الرابع.

[٨] سِفْر الأعمال، الفصل الخامس: ١٢ و١٤.

رئيس الكهنة: قد أمرناكم أمرًا ألَّا تعلِّموا بهذا الاسم. فأجاب بطرس والرسل: إن الله أحق من الناس بأن يُطَاعَ! فتشاور الأعضاء في قتلهم، فنهض أحدهم غملائيل وأمر بأن يخرج الرسل قليلًا، ثم قال: اعدلوا عن هؤلاء الرجال واتركوهم؛ لأنه إن كان هذا الرأي من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تستطيعون نقضه. فارتضوا برأيه ودعوا الرسل وجلدوهم، وأمروهم ألَّا يتكلموا باسم يسوع ثم أطلقوهم، فخرج الرسل فَرِحين بأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا لأجل اسم يسوع، وعادوا إلى التعليم والتبشير في الهيكل وفي البيوت.[٩]

بداية التنظيم

ولما تكاثر التلاميذ حدث تذمُّرٌ من اليونانيين على العبرانيين بأن أراملهم كنَّ يهملن في الخدمة اليومية، فدعا الاثنا عشر جمهورَ التلاميذ وقالوا: لا يحسن أن نترك كلمة الله ونخدم الموائد؛ فاختاروا أيها الإخوة سبعة رجال منكم يُشهَد لهم بالفضل، قد ملأهم الروح والحكمة، فنقيمهم على هذه الحاجة، ونحن نواظب على الصلاة وخدمة الكلمة، فاختار الجمهور إسطفانوس وفيليبوس وبروكوروس ونيقانوروس وطيمون وبرمناس ونيقولاوس دخيلًا أنطاكيًّا، وأقاموهم أمامَ الرسل فصلُّوا ووضعوا عليهم الأيدي،[١٠] وهؤلاء هم الشمامسة، وهنالك إشارات في مواضع أخرى من هذا السِّفر نفسه؛ أيْ سِفْر الأعمال، إلى الـ Presbyteroi.[١١] وهؤلاء هم الشيوخ المقدمون أعوان الرسل في الخدمة الروحية؛ وهكذا فتكون أم الكنائس قد انتظمت منذ أوائل عهدها برسل يقودون، وشيوخ يدبِّرون، وشمامسة يخدمون، وتلامذة وإخوة مؤمنين، وكان أنفذ الرسل كلمةً بطرسُ ويعقوبُ أخو الرب.

أول الشهداء (٣٦–٣٧)

وكانت كلمة الله تنمو وعدد التلاميذ يتكاثر في أوروشليم جدًّا، وكان جمع كثير من الكهنة اليهود يطيعون الإيمان، وكان إسطفانوس الشماس مملوءًا نعمةً وقوةً، وكان يصنع

---

[٩] أعمال الرسل، الفصل الخامس: ١٧–٤٢.

[١٠] سِفْر الأعمال، الفصل السادس: ١–٧.

[١١] سِفْر الأعمال، الفصل الحادي عشر: ٣٠، والفصل الخامس عشر: ٢، والفصل الحادي والعشرين: ١٨.

عجائب وآيات عظيمة في الشعب، فنهض قوم من اليهود الغرباء يباحثون إسطفانوس، فلم يستطيعوا أن يقاوموا الحكمة والروح؛ حينئذٍ دسوا رجالًا يقولون: إنَّا سمعناه يجدف على موسى وعلى الله. فهيَّجوا الشعب والشيوخ والكَتَبة، فنهضوا جميعًا واختطفوه وأتوا به إلى المحفل، وأقاموا شهود زور يقولون: إن هذا الرجل لا يزال ينطق بكلمات تجديف على المكان المقدس والناموس، فإنَّا سمعناه يقول إن يسوع الناصري سينقض هذا المكان، ويبدِّل السننَ التي سلَّمها إلينا موسى. فقال رئيس الكهنة: هل هذه الأمور هكذا؟ فقال إسطفانوس قولًا طويلًا في تاريخ إسرائيل، ثم اختتم كلامه بالعبارات التالية: «يا قساة الرقاب وغير المختونين في قلوبكم وآذانكم، إنكم في كل حين تقاومون الروح القدس، كما كان آباؤكم كذلك أنتم، أي نبي من الأنبياء لم يضطهده آباؤكم! أنتم الذين تسلَّمتم الناموس بترتيب الملائكة ولم تحفظوه.» ثم أردف فقال: «ها أنا ذا أرى السموات مفتوحة، وابن البشر قائمًا عن يمين الله.» فصرخوا وهجموا عليه وطرحوه خارج المدينة ورجموه، وكان هو يقول: أيها الرب يسوع اقبل روحي. ثم جثا وصرخ: يا رب لا تُقم عليهم هذه الخطيئة. ثم رقد في الرب.[١٢]

اضطهاد وتبدُّد

وحدث اضطهاد شديد من اليهود على أم الكنائس، وكان بين المتلفين فيها شاب يهودي من طرسوس يُدْعَى شاوول، وكان هذا قد أمَّ أوروشليم ليدرس الشريعةَ على غملائيل المعلم الكبير، فدفعته عاطفته الشديدة إلى الاشتراك في إتلاف الكنيسة، فطالب برجم إسطفانوس وشهد الرجم مشجعًا، وعاد مملوءًا نقمة، فدخل بيوت المؤمنين بيتًا بيتًا، وجرَّ الرجال والنساء وسلَّمهم إلى السجن، ثم أقبل إلى رئيس الكهنة، وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى المجامع، حتى إذا وجد أناسًا من هذه الطريقة رجالًا أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أوروشليم.[١٣]

وكان من جرَّاء هذا الاضطهاد أن تبدَّدَ المؤمنون في اليهودية والسامرة «ما عدا الرسل»، فانحدر فيليبوس أحد الشمامسة إلى السامرة، وكرز بالمسيح، فاعتمد كثيرون

[١٢] سِفْر الأعمال، الإصحاح السابع؛ Abel, F. M., Histoire de la Palestine, I, 450.

[١٣] سِفْر الأعمال، الفصل الثامن: ١–٤، والفصل التاسع: ١–٣.

رجالًا ونساء، وانحدر إليهم بطرس ويوحنا، فوضعا أيديهما عليهم، فنالوا الروح القدس؛ ثم انطلق فيليبوس نحو الجنوب، وسلك الطريقَ بين أوروشليم وغزة، فتقبَّلَ النعمة على يده رجل حبشي خصي ذو منزلة عظيمة عند كنداكة ملكة الحبشة، وتابع فيليبوس التبشير فوجد نفسه في أشدود، ومن هناك جال مبشرًا في جميع المدن إلى أن انتهى إلى قيصرية عاصمة فلسطين آنئذٍ.[١٤]

شاوول بولس (٣٦-٣٧)

وقصد شاوول بعد مقتل إسطفانوس إلى دمشق برسالة من رئيس كهنة اليهود ليسيء إلى المؤمنين فيها، فظهر له يسوع في الطريق وهداه إلى الإيمان، وبعث به إلى التلميذ حنانيا في دمشق فعلَّمه ماذا يفعل، ونادى بولس باسم يسوع أولًا في دمشق، ثم في بلاد العرب القريبة منها، ثم في أوروشليم، فالتمس اليهود اليونانيون قتله، فلما علم الإخوة بذلك أحضروه إلى قيصرية، ثم أرسلوه إلى طرسوس مسقط رأسه.[١٥]

اللدة ويافة وقيصرية

وسارت الكنيسة في سلام في اليهودية والجليل والسامرة،[١٦] وكان بطرس يطوف في جميع الأطراف، فنزل إلى لدة فأبرأ إينياس، فرجع جميع الساكنين في لدة وشارون إلى الرب، وزار يافة فجثًا على ركبتيه وصلى، ثم التفت إلى جثة طابيثة، وقال: قومي. ففتحت عينيها وقامت؛ فذاع الخبر في يافة فآمَن كثيرون بالرب، وبقي مقيمًا في يافة أيامًا كثيرة عند سمعان الدباغ.[١٧] وكان في قيصرية عاصمة فلسطين قائد مائة اسمه كرنيليوس، وكان كرنيليوس تقيًّا يخشى الله هو وجميع أهل بيته، فرأى في رؤيا ملاك الله داخلًا عليه، وقائلًا: أرسل رجالًا إلى يافة، واستحضر سمعان الملقب بطرس، فهذا يقول لك ماذا ينبغي أن تعمل. فجاءه بطرس وقال: «قد علمتم أنه حرام على رجل يهودي أن يخالط أجنبيًّا

[١٤] سِفْر الأعمال، الفصل الثامن: ٤–٣٩.
[١٥] سِفْر الأعمال، الفصل التاسع: ٢٦–٣١.
[١٦] سِفْر الأعمال، الفصل التاسع: ٣١.
[١٧] سفر الأعمال، الفصل التاسع: ٣٢–٤٣.

أو يدنو إليه، أما أنا فقد أراني الله ألا أقول عن أحد أنه بخس أو دنس، فالله لا يحابي الوجوه، ولكن في كل أمة من أتقاه وعمل البر، فإنه يكون مقبولًا عنده، وأنتم قد علمتم كيف مسح الله بالروح القدس وبالقوة يسوع الناصري، وكيف قتله اليهود معلقين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطاه أن يظهر علانيةً لا للشعب كله، ولكن لشهود اصطفاهم الله من قبل، أي لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته، وقد أوصانا أن نكرز للشعب، ونشهد بأنه هو الذي عينه الله ديانًا للأحياء والأموات، وكل مَن يؤمن به ينال مغفرة الخطايا.» وفيما كان يتكلم حل الروح القدس على جميع الذين سمعوا الكلمة، ثم أمر بطرس أن يعتمدوا باسم الرب.[١٨]

وسمع الرسل والإخوة الذين في اليهودية أن الأمم أيضًا قد قبلوا كلمة الله، فلما صعد بطرس إلى أوروشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين: إنك دخلت عند رجال قُلف وأكلت معهم. فشرح لهم بطرس ما جرى، وقال: بعد حلول الروح القدس على هؤلاء القلف تذكرتُ كلام الرب حيث قال: إن يوحنا عمَّد بالماء، وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس. فإن كان الله قد أعطاهم نظير الموهبة التي أعطانا نحن، فمَن أنا حتى أستطيع أن أمنع الله؟ فلما سمعوا ذلك سكتوا ومجدوا الله.[١٩]

ثاني الشهداء

وكان الإمبراطور كاليكيولا قد عطف في السنة ٣٧ على نديمه هيرودوس أغريبة، فجعله ملكًا وولَّاه على تترارخيتين في أقصى الشمال في فلسطين، ثم ولَّاه على الجليل وعلى بلة في شرقي الأردن وتوابعها، وفي السنة ٤١ بعد الميلاد وسَّع الإمبراطور كلوديوس صلاحيات هيرودوس، فولَّاه بالإضافة إلى ما تقدَّمَ على السامرة واليهودية، وكان هيرودوس قد اشتَهَرَ بتهتُّكه في أثناء إقامته في رومة وبعدها، فلما أصبح ملكًا على جميع فلسطين، ودخلت أوروشليم في مُلْكِهِ، أحبَّ أن يتودَّد إلى رجال الدين ويسترضيهم، فشدَّدَ في السنة ٤٣ على المؤمنين بيسوع، وألقى الأيدي على قومٍ من الكنيسة، فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف، ولما رأى أن ذلك يرضي اليهود عاد في ربيع السنة ٤٤، فقبض على بطرس أيضًا، وكانت

---

[١٨] سفر الأعمال، الفصل العاشر.

[١٩] سفر الأعمال، الفصل الحادي عشر: ١–١٩.

أيام الفطير، فلما أمسكه جعله في السجن وفي عزمه أن يقدمه إلى الشعب بعد الفصح، وكانت الكنيسة تصلي من أجل بطرس بلا انقطاع، ولما أزمع هيرودوس أن يقدِّمه جاء ملاك الرب في الليل، وأيقظ بطرس وأخرجه من السجن، فتوجَّهَ بطرس إلى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس؛ حيث كان قوم كثيرون مجتمعين يصلون، فلما فتحوا ورأوه دُهِشُوا، فقصَّ عليهم كيف أخرجه الرب من السجن، وقال: «أخبروا يعقوب والإخوة بهذا.» ثم خرج ومضى إلى موضع آخر.[٢٠]

أم المؤمنين

وكانت مريم أم يسوع قد نالت نعمة عند الله، فحلَّ الروح القدس عليها وظللتها قوة العلي، فذهبت إلى مدينة يهوذا، ودخلت إلى بيت زكريا وسلمت على اليصابات؛ فعندما سمعت اليصابات سلامها ارتكض الجنين في بطنها وامتلأت من الروح القدس، فصاحت مباركة: أنتِ في النساء ومباركة ثمرة بطنك. من أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليَّ. فقالت مريم: تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي، فها منذ الآن تطوبني جميع الأجيال؛ لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس ورحمته إلى أجيال وأجيال للذين يتقونه.[٢١] ثم ولدت الرب وأضجعته في مذود، فسبَّح جمهور من الجند السماويين قائلين: المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام وللناس المسرة. فسمعت مريم بهذا «وحفظته كله وتفكرت به في قلبها»، ولما أتم يوسف ومريم كل شيء حسب الناموس، رجعَا بيسوع إلى الناصرة، فكان الصبي ينمو ويتقوى ممتلئًا حكمة، وكان أبواه يذهبان إلى أوروشليم كل سنة في عيد الفصح، فلما بلغ اثنتي عشرة سنة صعدا إلى أوروشليم، ولما تمت الأيام عند رجوعهما بقي الصبي في أوروشليم، فطلباه فلم يجداه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسًا فيما بين المعلمين يسمعهم ويسألهم، فقالت أمه له: لِمَ صنعتَ بنا هكذا؟ إننا كنا نطلبك متوجعين. فقال: إنه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي. ثم نزل معهما إلى الناصرة، «وكانت أمه تحفظ ذلك الكلام كله في قلبها»،[٢٢] ثم اعتمد يسوع، ولما ابتدأ في الوعظ والعمل

---

[٢٠] سفر الأعمال، ١٢: ١–١٨.

[٢١] إنجيل لوقا، الفصل الأول: ٣٥–٥٤.

[٢٢] إنجيل لوقا، الفصل الثاني: ٦–٥١.

كان له نحو ثلاثين سنة، وكان عرس في قانا الجليل، وكانت مريم هناك، فدُعِي يسوع وتلاميذه إلى العرس، وفرغت الخمر فاشتركت مريم في أداء الرسالة، فقالت ليسوع ليس عندهم خمر، فقال: لم تأتِ ساعتي بعدُ. فقالت للخدام: مهما يأمركم به فافعلوه. فحوَّلَ يسوع الماء خمرًا،[٢٣] وكانت هذه أولى عجائبه، ورافقت مريم يسوع حتى ساعة موته على الصليب، فقد جاء في إنجيل يوحنا الحبيب أنها كانت واقفة عند صليب يسوع، وأن السيد قال لها مشيرًا إلى الذي كان يحبه: «هو ذا ابنك.» وأنه قال لهذا: «هذه أمك.» وأن يوحنا أخذها من تلك الساعة إلى خاصته،[٢٤] وبعد الوفاة وبعد أن قام السيد من بين الأموات واظبَتْ مريم على الصلاة مع الرسل والتلاميذ.[٢٥]

ويرى بعض العلماء المتطرفين المتحذلقين في النقد أن السيدة العذراء لم تنتسب إلى أم الكنائس، وأنها لم تقم بأي دور فيها، وأن أم الكنائس لم تُعِرْ شخصَ العذراء أيَّ اهتمام، وهم يستندون في رأيهم هذا إلى سكوت متَّى ومرقس عما جاء من أخبار العذراء في لوقا ويوحنا، ويرون أن متَّى يجعل من مريم العذراء شخصية سلبية، وأن مرقس يذهب إلى أبعد من هذا فيزجها في مرتبة إخوة الرب وأخواته في الجسد.[٢٦] والإشارة هنا إلى ما جاء في الفصل الثالث من إنجيل مرقس إلى الآيات العشرين، والحادية والعشرين، والحادية والثلاثين، حتى الخامسة والثلاثين: «وسمع ذووه فخرجوا ليمسكوه؛ لأنهم قالوا إنه شارد العقل، وجاءت أمه وإخوته، ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه، فقالوا له: إن أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك. فأجابهم: مَن أمي وإخوتي؟ ثم أدار نظره في الجالسين حوله وقال: هؤلاء هم أمي وإخوتي؛ لأن مَن يعمل مشيئة الله، ذاك أخي وأختي وأمي.»

ونحن نرى أن التضلع من اللاهوت لا يكفي وحده للتثبت من صحة الروايات في تاريخ الكنيسة ومن سلامة الاستنتاج، فهؤلاء الرجال وفي طليعتهم موريس غوغل، عميد كلية اللاهوت البروتستانتية في باريز، يجهلون فيما يظهر أبسطَ قواعد المصطلح؛ فلا

---

[٢٣] إنجيل يوحنا، الفصل الثاني: ١–١٢.

[٢٤] إنجيل يوحنا، الفصل التاسع عشر: ٢٥–٢٨.

[٢٥] سفر الأعمال، الفصل الأول: ١٤.

[٢٦] Goguel, M., La Naissance du Christianisme, Paris, 1946, 138–141; Harnack, A., Das Magnificat der Elisabeth, Sitzungsberichte der Berliner Akademie, 1900, 538 ff.; Loisy, A., L'Origine du Magnificat, Rev. d'Hist. et de Lit. Relig. 1897, 428–432.

يكون سكوت الأصول حجةً إلا بشروط معينة، وهي أن يكون المؤرخ على يقين جازم من أمر اطّلاعه على جميع الأصول، وألّا يعتريه شكٌّ في أن ما لديه من الأصول هو «جميع ما دوَّنه السلف في الموضوع الذي يبحث»، وأنه «لم يَضِعْ ممَّا دوَّنه السلف شيءٌ»؛ وعليه أن يتثبَّت من «استحالة» السكوت في الأصول عن الموضوع الذي يدرس، فقد تسكت الأصول عن أمور شتَّى تكون قد وقعت في الماضي.

ونحن علاوة عمَّا تقدَّمَ لا نرى مبررًا لاعتماد مرقس دون لوقا، فالاثنان دوَّنا في عصر واحد وفي زمنين متقاربين جدًّا، وهناك ما يجعلنا نؤثر رواية لوقا من حيث الإحاطة على رواية مرقس؛ لأن لوقا توخَّى كتابة سيرة السيد لأجل المثقفين من الوثنيين، ويوحنا الحبيب اتخذ العذراء إلى خاصته منذ وفاة السيد، فهو والحالة هذه أقرب لفهمها والإحاطة بأخبارها من مرقس ومتَّى.

الفصل الثاني

حيث دُعِي المؤمنون مسيحيين أولًا

٣٤–٤٤

أنطاكية

وكان سلوقوس الأول قد رصد النسر من الجبل الأقرع، فأنشأ حيث حل هذا النسر في الثالث والعشرين من نيسان سنة ٣٠٠ قبل الميلاد مدينة سلوقية، ثم كفر وضحى في جبل سيلبيوس Silpios، ورصد النسر في أول أيار من تلك السنة، فأكمل بناء أنتيغونية، التي كان قد شرع مناظره أنتيغونوس Antigonos في بنائها على بُعدٍ قليل من موقع أنطاكية، ولاحَظَ سلوقوس بعد ذلك أن النسر حمل فريسته وأتى بها سفح سيلبيوس، فأمر بنقل المواد التي كانت قد استُحضِرَتْ لبناء أنتيغونية إلى السهل عند سفح سيلبيوس؛ وفي الثاني والعشرين من شهر أرتميسيوس (أيار) من السنة ٣٠٠، وعند بزوغ الشمس أسَّسَ عاصمةً لملكه دعاها أنطاكية على اسم والده أنطيوخوس.[١]

ورأى المؤرخ ديودوروس أن أنتيغونوس انتقى منحنى العاصي مركزًا لعاصمته؛ ليكون في وسط يشرف منه على سير الأمور في ولايته الشرقية والغربية في آنٍ واحد.[٢] وجاء في جغرافية سترابون وفي خطب ليبانيوس أن أنطاكية جمعت في موقعها الجغرافي بين فوائد البحر والبر؛ فالبحر كان قريبًا، والعاصي كان صالحًا للملاحة بين أنطاكية

١ Strabo, Geog., XVI, 749.

٢ Diodorus, XX, 47.

والبحر،[٣] ورغب سلوقوس وخلفاؤه في إنماء عاصمتهم هذه، فربطوها بسترية بابل بطريقين معبدتين؛ تسهيلًا لنقل الجيوش، وتشويقًا لانتقال التجار وتبادل السلع، وقالوا بتهلين الشرقيين من رعاياهم، فسهلوا لهم الإقامة في العاصمة، ونمت أنطاكية في عهد السلاقسة، فأصبحت أربعة أحياء كلٌّ منها محاطٌ بسور منيع منفصل عن الآخر؛ ومن هنا نعتها باللفظ اليوناني tetrapolis، ومعناه المدن الأربع. وقيل إنها دُعِيت تترابوليس؛ لأنها كانت إحدى المدن الأربع الكبيرة التي بناها سلوقوس، وهي: أنطاكية، وسلوقية، وأبامية، واللاذقية.[٤]

وفي السنة ٦٤ قبل الميلاد استولى بومبايوس على مملكة السلاقسة وعلى غيرها مما جاورها، فاحترم حق أنطاكية في إدارة شئونها الداخلية، وأشاد فيها ندوة الذاريوم، وجعلها عاصمة ولاية سورية بكاملها ومقر الحاكم الروماني العام Pegatio، وفي السنة ٢٧ قبل الميلاد عندما أُعِيدَ النظرُ في نظام الولايات، ظلت أنطاكية عاصمةً لسورية،[٥] ولم تسلخ اليهودية — فلسطين — عنها قبل السنة ٧٠ بعد الميلاد.

وكانت أنطاكية لم تزل رافلة بحلل الفخر، فأنشأ فيها الفاتحون الهياكل والقصور والمراسح، وجروا المياه إليها، وبنوا الحمامات فيها على طريقتهم الخاصة، وفتح هيرودوس الكبير فيها طريقًا بأعمدة على الجانبين، وظلَّت أنطاكية زاهية زاهرة فيما يظهر حتى الفتح الإسلامي؛ فقد جاء في كتاب فتوح الشام للواقدي أن أبا عبيدة كتب إلى الخليفة عمر في السنة ٦٣٧ ما نصه: «وإني لم أقم بها — أي بأنطاكية — لطيب هوائها. وإني خشيت على المسلمين أن يغلب حبُّ الدنيا على قلوبهم، فيقطعهم عن طاعة ربهم.»[٦]

وقال سلوقوس الكبير وخلفاؤه بتهلين سورية وغيرها من ممتلكاتهم، فاستقدموا المقدونيين واليونانيين وأنزلوهم المدنَ والقرى، ومنحوهم الامتيازات؛ ليستعينوا بهم في الحرب وفي التهلين، وكان نصيب أنطاكية من هؤلاء كبيرًا، فساد العنصر اليوناني فيها، وظلَّ مسيطرًا على مقدراتها قرونًا طوالًا؛ وهكذا وبناء على ما نعلمه من أنطاكية وعن

[٣] Strabo, Geog., XVI, 751; Libanios, Or., XI, 35–41.

[٤] Strabo, Geog., XVI, 750; Jones, A. H. M., Cities of East. Rom. Provinces, 243.

[٥] Bevrlier, E., Le Koinon de Syrie et les siryarques Artabenes et Herode, Rev. Numismatique, 1894, 287.

[٦] ج١، ص١٧٨-١٧٩.

بعض المدن المماثلة لها المعاصرة، فإنه يجوز الافتراض أن مجلس العموم في أنطاكية ومجلس إدارتها كانَا لا يزالان عند ظهور النصرانية يونانيين في صبغتهما، وأن معظم المواطنين أصحاب الحق في التصويت كانوا إما يونانيين في الأصل أو متهلنين تهلنًا كاملًا.[٧] ومما يجوز القول به أيضًا أن حقوق التمتُّع بالغمنازيين كانت محصورة بهؤلاء[٨] وأن تدابير خصوصية كانت لا تزال تُتخذ لحصر الملكية في أنطاكية في يد اليونانيين.[٩] ومن المفيد أن نذكر لهذه المناسبة أن الأنطاكيين ظلوا يفاخرون بأصلهم اليوناني الهليني حتى الفتح الإسلامي، فذكَّرَ ليبانيوس الأنطاكيين بتحدرهم من هرقيل، وبأصلهم اليوناني الهليني في القرن الرابع بعد الميلاد؛[١٠] ويوليانوس الجاحد أشار في الكلام، الذي وجَّهه إلى الأنطاكيين إلى أصلهم اليوناني الهليني، وذكرهم بأنه هو يوناني أيضًا بعاداته وتفكيره. وفي القرن الخامس مرَّتْ أفذوكية الأثينية زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بأنطاكية في طريقها إلى أوروشليم، وخطبت في الأنطاكيين، ففاخرت بأنها من عرقهم ودمهم.[١١]

وأمَّ العاصمة المقدونية اليونانية منذ تأسيسها عناصرُ مختلفة من سكان الدولة السلوقية، بينهم الآرامي المحلي واليهودي والغلطي والبرتي وغيرهم؛ ومن هنا في الأرجح اعتزاز ليبانيوس في أن بلدته أنطاكية كانت مضيافة تتقبل النازلين عليها برحابة صدر وإكرام، فهو يقول في خطاب له: «ليس هنالك مدينة لم نتقبل منها بعض أبنائها، وليس من قبلنا من هذه المدن أقل بكثير ممَّن بقي فيها.»[١٢] وأهم هذه العناصر غير اليونانية في نظرنا هم العرب واليهود، فالأرياف السورية كانت قد استعربت منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد،[١٣] واليهود كانوا قد عششوا فيها منذ أن استقدمهم ديمتريوس الثاني في السنة ١٤٥ قبل الميلاد؛ ليعاونوه في تثبيت دعائم ملكه ضد مناظريه الأنطيوخيين، فإن يوناثان صديقه كان قد أمدَّه بثلاثة آلاف مقاتل منهم.[١٤] ومما جاء في تاريخ يوسيفوس

---

٧ Cumont, Franz., Population of Syria, Journ. of Rom. Studies, 1934, 188.

٨ Reinach, Theod., L'Emp. Claude et les Juives, Rev. Etudes Juives, 1924, 118.

٩ Cumont, Franz., Fouilles de Doura-Europos, 309.

١٠ Libanius, Orations, XI, 57, 63.

١١ Evagrius Scholasticus, Hist. Ecc, I, 20.

١٢ Libanius, Orations XI, 164.

١٣ Dobias, J., Hist. de la Province Rom. de Syrie, 550.

١٤ Josephus, Antiq., XIII, 5, 135–144; Krauss, S., Antioche, Rev. Etudes Juives, 1902, 34.

أيضًا أن زماريس Zamaris اليهودي البابلي قام إلى أنطاكية بخمسمائة خيَّال،[١٥] ويُستدَل من بعض ما جاء في خطب ليبانيوس أن بعض الفلاحين الذين عملوا في مزارعه كانوا يهودًا أيضًا.[١٦]

ويرى البحاثة كارل كرايلنغ أن عدد اليهود في أنطاكية تراوح بين خمسة وأربعين ألفًا وخمسة وستين ألفًا،[١٧] من مجموعٍ عامٍّ بلغ أربعمائة ألف على وجه التقريب. وتدل النصوص والآثار الباقية أن اليهود سكنوا في مختلف أحياء المدينة وفي ضواحيها؛ فبعضهم أقام في حي الكيراتيون Kerataion بالقرب من الباب الشرقي،[١٨] والبعض الآخر عند الباب الغربي باب دفنة،[١٩] وسكن بعضهم في دفنة نفسها، كما عمل آخرون منهم في المزارع العديدة في السهل إلى الشمال الشرقي من أنطاكية.[٢٠]

ولا صحة فيما يظهر لما جاء في تاريخ يوسيفوس[٢١] من أن سلوقوس المؤسس الأول منح اليهود في أنطاكية حقوق المواطن الهليني، فإن رجال الاختصاص يرون أن يوسيفوس ناقَضَ نفسه بنفسه، وأنه كتب في عهدٍ متأخِّر كثرت فيه الدعايات المغرضة؛[٢٢] وجُل ما يمكن القول به هو أن الجيش السلوقي حوى بعض العناصر اليهودية البابلية، وأن شرف الخدمة قضى بمعاملة اليهود العسكريين معاملة العناصر الهلينية؛ فتسنى لهؤلاء اليهود دون سواهم أن يتمتعوا بحقوق المواطن الهليني.[٢٣] ومما يجوز القول به أيضًا أن يهود أنطاكية تمتعوا بحرية العبادة، وبتنظيم محاكم خاصة تنظر في شئونهم،

---

[١٥] Antiq., XVII, 2, 24.

[١٦] Oralions, XLVII, 13; Pack, R., Studies in Libanius, 48.

[١٧] Kraeling, C. H., Jewish Community at Antioch, Journ. Of Bib. Lit., 1932, 135.

[١٨] Leclercq, H., Anlioche, II, 150.

[١٩] Chrysostomos, J., Homelies against the Jews, I, 6.

[٢٠] Talmud de Jerusalem, II, 144.

[٢١] Josephus, Cont. Apion, II, 4, 39; Jewish Wars, VII, 3, 43.

[٢٢] Marcus, R., Complete Works of Josephus, VII, App. C, 739; Bevan, House of Seleucus, II, 166.

[٢٣] Kraeling, C. H., op. cit., 138.

وبانتخاب رئيس لجاليتهم شأن غيرهم من الجاليات غير الهلينية، والإشارة هنا إلى نظام الـ Politeia، الذي ذكره يوحنا الذهبي الفم في كلامه عن اليهود.[٢٤]

ومما جاء في تاريخ الحروب ليوسيفوس أن الجالية اليهودية في أنطاكية كانت في العصر الذي نحن بصدده غنيةً سعيدة، تستهوي العناصر الهلينية لحضور حفلاتها،[٢٥] وأن مرقس أنطونيوس أوجب إبقاء القديم على قدمه، وإعادة ما أُخِذَ من اليهود إليهم، وأن طيطس لم يسمح بإخراج اليهود من أنطاكية، ولم يصغِ إلى رغبات الأنطاكيين في ذلك.[٢٦]

ومما يجب ذكره عن اليهود في أنطاكية عند ظهور النصرانية أنهم كانوا في الأرجح لا يزالون منقسمين على أنفسهم، فإن بعضهم كان لا يزال متمسكًا بكل قديم، والبعض الآخر كان يقول بوجوب التهلن والاختلاط باليونانيين والأخذ عنهم؛ ومن هنا في الأرجح خروج أنطيوخوس ابن رئيس الجالية اليهودية على اليهود في أنطاكية، وحضه الجنود والجماهير على إكراه أبناء ملته على العمل يوم السبت.[٢٧]

أول المؤمنين في أنطاكية

ولعل نيقولاوس «الدخيل الأنطاكي» هو أول المسيحيين الأنطاكيين، فهو أحد الإخوة السبعة الذين انتُخِبوا ليشرفوا على الخدمة اليومية، عندما تذمَّرَ اليهود اليونانيون بأن أراملهم كنَّ يُهمَلنَ في هذه الخدمة، وهو أحد هؤلاء السبعة الذين ملأهم الروح والحكمة، وشُهِد لهم بالفضل.[٢٨]

ثم كان ما كان من أمر الشهيد الأول إسطفانوس القديس، وقضت العناية الإلهية بأن يتفرق التلاميذ في البلدان، وكان قوم من هؤلاء قبرصيين وقيروانيين، فقدموا أنطاكية وأخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع، وكانت يد الرب معهم فآمن عدد كثير ورجعوا إلى الرب، فبلغ خبر ذلك إلى مسامع الكنيسة التي بأوروشليم فأرسلوا برنابا إلى

---

[٢٤] Chrysostomos, J., op. cit, I, 3.

[٢٥] Josephus, Jewish Wars, VII, 3, 45.

[٢٦] Josephus, Antiq. XIV, 12, 323; Wars, VII, 5, 109.

[٢٧] Josephus, Wars, VII, 3, 46, 54; Kraeling, C. H., op. cit., 151.

[٢٨] أعمال الرسل، ٦: ١–٧.

أنطاكية، فلما أقبل ورأى نعمة الله فرح ووعظهم كلهم بأن يثبتوا في الرب، فانضم إلى الرب جمع كثير، ثم خرج برنابا إلى طرسوس في طلب شاوول، ولما وجده أتى به إلى أنطاكية، وتردَّدا معًا سنةً كاملة وعلَّما جمعًا كثيرًا.[٢٩]

بطرس الأسقف الأول المؤسس (٣٤)

وعلى الرغم من هذا كله، فإن الآباء المؤرخين المفسرين الأولين يصرون على أن بطرس الرسول هو الذي أسس الكنيسة في أنطاكية، فالقديس أيرونيموس في تعليقه على الفصل الثاني من الرسالة إلى أهل غلاطية، يأخذ على القديس لوقا الإنجيلي صاحب سِفر الأعمال إهماله بطرس وعمله التأسيسي في أنطاكية.[٣٠] وينهج أفسابيوس المؤرخ النهج نفسه في تاريخه الكنسي، فيؤكد أن الفضل في تأسيس الكنيسة في أنطاكية يعود إلى بطرس الرسول،[٣١] وإذا ما ذكرنا أن السيد المخلص قضى في السنة ٣٠ بعد ميلاده كما سبق وأشرنا، وأن بولس تقبَّلَ النعمة بعد ذلك بسنة واحدة؛ أي في السنة ٣١، وأنه لم يعد إلى أوروشليم إلا بعد سنوات ثلاث؛ أي في السنة ٣٤، وأنه لم يجد آنئذٍ من الرسل في أوروشليم سوى يعقوب أخي الرب، وأن بطرس الرسول كان آنئذٍ منطلقًا يبشر في كل مكان، وأنه بموجب التقليد الكنسي ترأس كنيسة أنطاكية سبع سنوات متتالية حتى السنة ٤١ بعد الميلاد؛ نقول: إذا ما ذكرنا جميع هذه الأمور، جاز لنا الافتراض بأن بطرس الرسول أسس كنيسة أنطاكية في السنة ٣٤ بعد الميلاد.

ومما جاء في التقليد أيضًا عن أفسابيوس المؤرخ ونيقيفوروس كاليستوس أن كثرة أشغال بطرس اضطرته إلى التغيب عن أنطاكية، وأنه سام لهذه المناسبة القديس إفوذيوس Evodios نائبًا عنه وخلفًا له.[٣٢]

---

[٢٩] أعمال الرسل، ١١: ١٩–٢٦.

[٣٠] "Primum Episcopum Antiochenae Ecclesiae Petrumfuisse, eumque Romae translatum". S. Jerome, Migne, pat. Lat., Vol. 26, Col. 340, Vol. 23, 637.

[٣١] Eusebius, Hist. Eccl., III, 36; Origéne, In Lucam Hom., VI, C., pat Gr., Vol. 13. Col. 1814; Chrysostome, Hom. in Ignatium, Pat. Gr., Vol. 50, Col., 591; Cullman, O., Saint Pierre, 45-46.

[٣٢] Eusebius, Hist. Eccl., III, 22; Nicephorous Callistus, Hist. Eccl. III, 11.

ويرى Tillemont أن بطرس أسس كنيسة أنطاكية ورعاها بعنايته، ولكنه كسائر الرسل قضى معظم وقته متجولًا مبشرًا، فلم يمكث في أنطاكية إلا فترات وجيزة،[٣٣] ويفرِّق Belser الألماني بين تنصُّرين اثنين في أنطاكية: أولهما تنصُّر بعض الأوساط اليهودية في السنة ٣٣، وقيام كنيسة مسيحية متهودة على يد بطرس في السنة ٣٤-٣٥، والثاني تنصُّر العناصر الأممية الذي لم يبدأ إلا بعد البت في قضية كورنيليوس وقبوله في الكنيسة، أي في السنة ٣٩ أو ٤٠.[٣٤] ولا يتردد الأب James Kleist اليسوعي في الاعتراف برئاسة بطرس على كنيسة أنطاكية وتأسيسه لها، فإنه يجعل أغناطيوس «الحامل الإله» الأسقف الثالث على أنطاكية بعد بطرس،[٣٥] أما الأب Jean Colson الذي يخصص كتابًا كاملًا للأسقف في الكنائس الأولى، فإنه يجعل برنابا المؤسس في أنطاكية دون أن يذكر بطرس مرة واحدة، أو يبين موقفه من أقوال أفسابيوس وغيره من الآباء، ودون أن يبدي رأيه في عيد «منبر بطرس»، الذي لا تزال الكنيسة الكاثوليكية تكرِّس له يومًا معينًا في كل سنة.[٣٦]

ويصعب على المؤرخ المدقق أن يتتبع بطرس وغيره من المبشرين؛ ليتثبت من كيفية تأسيس الكنائس في فلسطين ولبنان وسورية، فدوروثاوس الصوري صنَّف لائحة طويلة بأسماء التلامذة السبعين وغيرهم، ممَّن ورد ذكرهم في الرسائل المقدسة، وجعلهم يؤسسون الكنائس في أمهات المدن في الأقطار الشامية الثلاثة، ولكن أفسابيوس المؤرخ لا يتعرَّف إلى هذه اللائحة.[٣٧] ولما كان أفسابيوس من أقدم المراجع وأوسعها، نرانا مضطرين أن نشك في لائحة دوروثاوس؛ لأن الأصل في التأريخ اتهام الأخبار لا براءة ذمتها.

ومن هذه الروايات غير الثابتة أن الصوريين والصيداويين والطرابلسيين ادَّعوا أن بطرس أسَّس كنائسهم،[٣٨] ومنها أيضًا أنه هو الذي أسَّس كنيسة قيصرية فلسطين وسام زكى أسقفًا عليها،[٣٩] وأن سمعان الغيور بشَّرَ في منبج وحلب، وأن يهوذا دعا إلى الإيمان أهل بيروت وأرواد، وأنه استشهد في إحداهما، وأن كيفا أحد السبعين نادى بالإنجيل في

[٣٣] Lenain de Tillemont (1691–1738), Mémoires, I, art. 27, 159-160.

[٣٤] Belser, Die Apostelgeschichte, 150.

[٣٥] Kleist, J., St. Ignatius of Antioch, Ancient Christ. Writers, 54.

[٣٦] Colson, J., L'Evéque dans les Communautés Primitives, “Unam Sanctam”, 1951, 27–44.

[٣٧] Eusebius, Hist. Eccl., I, 12.

[٣٨] Liber de Gestis Petri.

[٣٩] Constit. Apostol., VII, 47.

بعلبك وحمص والرستن وحماة وتوفي في شيزر، وأن يوسي بشَّرَ في درعة وطيمون في بصرى،[٤٠] أما أعمال حنانيا وبولس في دمشق فإنها ثابتة بنص سِفر الأعمال ورسائل بولس.

المعمودية والاختتان

ومنذ أن بدأ الرسل والإخوة في الكرز والتبشير نشأ اختلاف بينهم حول دخول الوثنيين في النصرانية، وقد سبق لنا وأشرنا إلى اضطرار بطرس أن يدافع عن موقفه وفعله عندما قبل كورنيليوس قائد المائة في الدين الجديد؛ والواقع أن اليهود كانوا منذ قيام دولتي البطالسة والسلاقسة قد انقسموا على أنفسهم؛ فقال بعضهم بوجوب الأخذ بأساليب حضارة اليونان والتمشي مع هؤلاء، وقال آخَرون بالمحافظة على كل قديم عند اليهود، فلما تقبَّلَ اليهود رسالةَ المخلص، قال المتهلنون منهم بوجوب التسامح مع الوثنيين الذين يقبلون المسيح وإعفائهم من إتمام جميع ما جاء في شريعة موسى، كحفظ السبت والاختتان وما شاكل ذلك؛ أما اليهود المحافظون الذين قبلوا رسالة الإنجيل، فإنهم أوجبوا على الوثنيين «إتمام الناموس» قبل الدخول في الدين الجديد.

ويذهب بعض رجال البحث في تعليل هذا الاختلاف في الرأي بين الإخوة، إلى أن أبناء الجليل لم يتهودوا إلا في آخر الزمان، وأنهم كانوا قد قالوا بشيء من هذا التوسع في تطبيق الناموس في زمن السيد المخلص؛[٤١] ونحن نرى أن موقف هؤلاء العلماء نظري صِرف؛ فليس هنالك أي نص يمكن الاستناد إليه لافتراض هذا التعليل. والأقرب إلى الحقيقة التاريخية أن يكون تهلن «الإخوة اليونانيين» قد جعلهم أبعد نظرًا وأوسع أفقًا من الإخوة غير اليونانيين، وأن يكون كلام السيد المخلص إلى بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس قد أثَّرَ في نفوس الإخوة اليونانيين، فجعلهم يرون في الرسالة رسالة عالمية، يُنقَضُ بموجبها الهيكل ويكرز بها بالإنجيل في جميع الأمم، «وهذا الذي تنظرون — حجارة الهيكل — ستأتي أيام لا يُترك فيها منه حجر على حجر إلا يُنقض. وينبغي أن يُكرزَ أولًا بالإنجيل

---

[٤٠] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس برصوم، ص١٤٦-١٤٧.

[٤١] Heitmuller, W., Zum problem paulus und Jesus, Z. N. T. W., 1912, 320–337; Bauer, W., Jesus der Galilaer, Festgabe fur Ad. Julicher, 1927, 16–34.

في جميع الأمم، وحينئذٍ يُشاهد ابنُ البشر آتيًا على السحاب بقوة وجلال عظيمين.»[٤٢] ومما لا يجب إغفاله في معالجة هذا الأمر أن يهود الجليل كانوا من أشد اليهود تحمسًا في إبَّان الثورة على رومة بعد ذلك بقليل.

وحدث اضطهاد شديد على الكنيسة في أوروشليم بسبب موقف إسطفانوس كبير هؤلاء الإخوة المتهلنين، فتبدد الإخوة في بلاد اليهودية والسامرة ما عدا الرسل،[٤٣] واجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية، وهم لا يكلمون أحدًا بالكلمة إلا اليهود، ولكن قومًا منهم كانوا قبرصيين وقيروانيين، فهؤلاء لما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع، فآمن عدد كبير ورجعوا إلى الرب،[٤٤] ثم وصل إلى أنطاكية فريق من المسيحيين، الذين من أصل يهودي، فنقلوا إليها حدة في المناقشة حول علاقة الناموس بالإنجيل، وأوجبوا على الإخوة الذين من أصل وثني أن يختتنوا ويتمموا الوصايا التي فرضها الناموس، فرأى الإخوة في أنطاكية أن يوفدوا بولس وبرنابا وطيطس وغيرهم إلى أوروشليم لمباحثة الإخوة فيها بهذا الشأن.[٤٥]

مجمع في أوروشليم (٤٣-٤٤)

وبعد أن شيَّعت كنيسة أنطاكية هذا الوفد، اجتاز أعضاؤه فينيقية والسامرة محدثين المؤمنين بتوبة الأمم، فسُرَّ جميع الإخوة سرورًا عظيمًا، ولما قدم الوفد أوروشليم قبلتهم الكنيسة والرسل والكهنة، فأخبروهم بجميع ما صنع الله معهم، «وأن قومًا من الذين آمنوا من مذهب الفريسيين قاموا وقالوا إنه يجب أن يختتنوا ويُؤمروا بأن يحفظوا ناموس موسى»؛[٤٦] فاجتمع الرسل والكهنة لينظروا في هذا الأمر، وإذ جرت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم: أيها الرجال الإخوة، إنكم تعلمون أنه من الأيام الأولى اختار الله من بيننا أن الأمم من فمي يسمعون كلمة الإنجيل فيؤمنون، والله العارف بالقلوب شهد لهم إذ أعطى لهم كما لنا الروح القدس، ولم يفرِّق بشيء بيننا وبينهم؛ إذ طهر بالإيمان

[٤٢] مرقس، ١٣: ٢ و١٠ و٢٦.

[٤٣] أعمال الرسل، ٨: ١-٢.

[٤٤] أعمال الرسل، ١١: ١٩–٢١.

[٤٥] أعمال الرسل، ١٥: ١–٤.

[٤٦] أعمال الرسل، ١٥: ٥.

قلوبهم، فالآن لِمَ تجربون الله لتضعوا على رقاب التلاميذ نيرًا لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله، ولكن بنعمة الرب يسوع نؤمن أن نخلص نحن مثل أولئك. فسكتت الجماعة كلها، واستمعت لبرنابا وبولس وهما يشرحان جميع ما أجرى الله على أيديهما من الآيات والعجائب في الأمم، وبعد أن سكتا أجاب يعقوب قائلًا: قد شرح سمعان كيف افتقد الله الأمم منذ الأول ليتخذ منهم شعبًا لاسمه، وعليه وافق الأنبياء؛ ولذلك أحكم بألا يُثقل على مَن يرجع إلى الله من الأمم، وبأن يُرسَل إليهم أن يمتنعوا من نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم، وائتمن بولس على إنجيل القلف كما ائتمن بطرس على الختان.[٤٧]

واختار الرسل والكهنة مع جميع كنيسة أوروشليم يهوذا وسيلا، وبعثوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا وطيطس وسائر أعضاء الوفد، وكتبوا كتابًا بما أجمعت الكلمة عليه، فلما أتى هؤلاء جميعًا إلى أنطاكية جمعوا الجمهور، ودفعوا إليهم الرسالة فقرءوها وفرحوا بالعزاء، وبقي سيلا في أنطاكية، أما يهوذا فإنه انطلق وحده.

بولس وكيفا[٤٨]

ولم تنتهِ المشادة بين الإخوة الذين من أصل يهودي والإخوة من أصل وثني، فقد جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية بعد الكلام عن مؤتمر أوروشليم، أنه لما قَدِم كيفا (بطرس) إلى أنطاكية قاومه بولس مواجهة؛ لأنه قبل قدوم قوم من عند يعقوب — أي من أوروشليم — كان كيفا يأكل مع الأمم، أي يتناول العشاء الرباني مع الإخوة الذين من أصل وثني، فلما قدم هؤلاء تنحَّى كيفا، واعتزل مخافةً من أهل الختان، وتظاهَرَ معه سائر الإخوة الذين من أصل يهودي؛ حتى إن برنابا أيضًا انجذب إلى تظاهرهم، فلما رأى بولس أن هؤلاء لا يسيرون سيرًا مستقيمًا إلى حق الإنجيل، قال لكيفا أمام الجميع: إن كنت أنت مع كونك يهوديًّا قد عشت عيش الأمم لا كاليهود، فلِمَ تُلزِم الأممَ أن يسلكوا مسلك اليهود؟ إن الإنسان لا يبرر بأعمال الناموس، بل بالإيمان بيسوع المسيح.[٤٩]

[٤٧] أعمال الرسل، ١٥: ١–٣٥؛ رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢: ١–٢١.

[٤٨] لقب آرامي سرياني، معناه: الصفا، أطلقه السيد على سمعان بطرس.

[٤٩] الرسالة إلى أهل غلاطية، ١٢: ١١–١٦.

ودُعِي المسيحيون مسيحيين في أنطاكية أولًا

وسمع الأنطاكيون الوثنيون اسم السيد المسيح بدون انقطاع؛ لأن الإخوة كانوا يبشرون به ويصلون له ويعتمدون باسمه، فأطلقوا عليهم اسم المسيحيين.[٥٠] وكان المسيحيون في الأماكن الأخرى يدعون أنفسهم إخوة أو تلاميذ أو مؤمنين، واليهود اعتبروهم خارجين، فلم يطلقوا عليهم الاسم مسيحيين؛ لأنهم كانوا يعتبرون اسم المسيح مقدسًا، فاكتفوا بأن دعوهم ناصريين نسبةً إلى يسوع الناصري. ويرى بروشن الألماني أن الاسم مسيحيين كما استعمله الأنطاكيون الوثنيون حمل بادئ ذي بدء شيئًا من التهكم على الإخوة، فهؤلاء في نظر الوثنيين كانوا يمسحون مسحًا،[٥١] ولعل في كلام ثيوفيلوس الأنطاكي ما يؤيد هذه النظرية في أصل هذه التسمية،[٥٢] وأُطْلِقَ هذا الاسم الجديد على أتباع السيد من غير اليهود، ثم على كلِّ مَن قبله مخلصًا.

وأقدم الآثار التي تشير إلى المسيحيين بهذا الاسم الأنطاكي كتابةٌ من نوع الغرافيتو وُجِدَتْ على جدار في خرائب بومبايي في إيطالية سنة ١٨٦٢، وقد جاء فيها الاسم هكذا: HRISTIAN، وهي تعود بطبيعة الحال إلى السنة ٦٤ بعد الميلاد؛[٥٣] وأشار تاسيتوس إلى نصارى السنة ٦٤ في رومة بالاسم مسيحيين.[٥٤]

أنطاكية أمُّ الكنائس الأممية

وأقبَلَ اليونانيون الوثنيون المقيمون في أنطاكية عاصمة الشرق آنئذٍ على النصرانية وكثر عددهم؛ فأصبحت أنطاكية مركزَ الرسالة العالمي ونقطةَ الانطلاق للتبشير بين الأمم، فقد جاء في الفصل الثالث عشر من سِفر الأعمال أنه «كان في أنطاكية أنبياء ومعلمون، منهم: برنابا، وسمعان الملقب بالأسود «نيجر»، ولوقيوس القيرواني، ومناحيم الذي تربَّى مع هيرودوس رئيس الربع وشاوول بولس، وبينما كان هؤلاء يخدمون للرب ويصومون، قال

[٥٠] أعمال الرسل، ٢٤: ٥.

[٥١] Preuschen, Apgesch., 74.

[٥٢] Theophile d’Antioche, Ad Autel., I, 12.

[٥٣] Schultze, V., Christeninschrift in Pompeii, Z. f. Kirchengesch., IV, 125–130.

[٥٤] Tacitus, Ann., XV, 44.

لهم الروح القدس: أفرزوا لي شاوول وبرنابا للعمل الذي دعوتهما إليه. فصاموا حينئذٍ وصلوا ووضعوا أيديهم عليهما وصرفوهما، فانحدرا إلى سلوقية، ومن هناك أقلعا إلى قبرص.» وكان ما كان من أمر انطلاق بولس وصحبه إلى آسية الصغرى ومقدونية وبلاد اليونان وإيطالية، وليس لنا أن نتتبعه في ذلك؛ لأن هدفنا في هذا الكتاب هو تاريخ كنيسة أنطاكية دون غيرها من الكنائس، ولكن لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن أعمال بولس نشأت عن حرارة الإيمان في أنطاكية، وعن تضحية أبناء أنطاكية في سبيل الكرز باسم يسوع.

وانتشر الإيمان بالسيد المخلص في هذه الفترة نفسها في ما وراء الفرات، ويعود الفضل في ذلك إلى الرسول توما وإلى أخيه أو تلميذه أدِّي، فقد جاء في تاريخ الكنيسة لأفسابيوس أن توما الرسول، الذي كان يُدعَى يهوذا أيضًا، بشَّرَ بالإنجيل في بلاد الفرات وما وراءها.[٥٥] ومما جاء في هذا التاريخ نفسه أن أدي أو ثدي Thaddaion أحد السبعين هو الذي أسَّسَ كنيسة الرها (٢٩ أو٣٢) وغيرها من الكنائس في العراق وبعض ما جاورها.[٥٦] وقد تسرع القديس إيرونيموس فيما يظهر في قراءة هذا النص، فقرأ لُبس بدلًا من ثَدِّي،[٥٧] وقد تكون هذه القراءة من ناسخ قديم؛ ويؤكد مؤرخو الكنيسة الأرمنية أن ثدي وبرثلماوس أسَّسَا كنيستهما، وأن مقامَيْهما لا يزالان محجين يزورهما المؤمنون في ماكو وبشمكالي حتى يومنا هذا.[٥٨]

ومما جاء في تاريخ الكنيسة لأفسابيوس أن أبجر الخامس ملك الرها Edessa كان قد بعث وفدًا إلى السيد المسيح، حاملًا رسالةً يعترف فيها الملك بالإيمان بالمخلص، ويسأله القدوم إلى الرها ليشفيه من عاهة ألَمَّتْ به ويسكن في مدينته، وأن السيد له المجد أجاب برسالة بارك الملك فيها ومدينته، ووعده بإرسال أحد تلاميذه ليشفيه نفسًا وجسدًا، ولكن بعد صعوده إلى السماء؛ فأنجز توما الرسول وعد الرب، فانطلق أدي إلى الرها، وحل ضيفًا على طوبيا بن طوبيا اليهودي الفلسطيني، ثم مثل أمام أبجر الخامس، فأبصر هذا الملك هالة تحيط برأس الرسول فآمن، فشفاه أدي من داء النقرس الذي كان قد ألَمَّ به، وعمده وبشر أهل الرها وبنى فيها كنيسة فاخرة، ثم حمل مصباح الإنجيل المنير إلى بلدان

---

٥٥ Eusebius, Hist. Ecc., III, 1.

٥٦ Eusebius, Hist. Ecc., I, 13.

٥٧ Asseman., B. O., I, 10; Bar Hebraeus, B. O., II, 391.

٥٨ Ormanian, Patriarch Malakhia, The Church of Armenia, 3.

كثيرة ما بين النهرين، منها: آمد أي ديار بكر، وجنوبي أرزون، ووادي دجلة الشرقي، وبازبدي، وحديابين أي أربيل، ثم عاد إلى الرها وصار أول أساقفتها وفيها توفي،[٥٩] وجاء مثل هذا إلى حد بعيد في الـ Acta Edessena التي نظمها لبونة بن سِنَّاك بن عبد شادر كاتب الملك وختمها حنَّان.[٦٠]

ولكن علماء الكنيستين اليونانية واللاتينية يرون أن خبر تبادل الرسائل بين السيد المخلص وبين أبجر، وقصة أدي وعلاقته بأبجر، وُضِعَا وضعًا في القرن الثالث أو الرابع بعد الميلاد؛ وذلك لأسبابٍ أهمها اقتباس آياتٍ وردت في أناجيل متى ولوقا ويوحنا[٦١] وزجُّها في متن الرسالتين، مما يدل دلالة واضحة على أن واضع هاتين الرسالتين كتبهما بعد انتقال السيد، وبعد تدوين سيرته في هذه الأناجيل، وهنالك خلط في تواريخ بعض الحوادث لا يتفق والصحة.[٦٢]

ومن الأخبار التي لم تثبت صحتها — وقد لا تثبت أبدًا — ما أخذه بعض المؤرخين عن سِفر أعمال توما، الذي وُضِع فيما يظهر في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد،[٦٣] ومما جاء في هذا السفر المنحول أن القرعة أصابت توما الرسول للتبشير في الهند، فباع نفسه لتاجر هندي اسمه حبان بصفة صانع ماهر يبني القصور، ولما اتصل بملك الهند وتناول منه مالاً جليلًا برسم البناء، وزَّعه على أهل البؤس والفاقة، وقال للملك إنه بنى له به قصرًا في السماء، فلما أوقع الملك به ثم عرف صحة قوله بحلم ظهر لأخيه، استنار لبُّه بالنعمة الإلهية، فآمَن بالسيد المسيح هو وجمهور من رجال دولته وبني قومه، بعدما عاينوا بواهر المعجزات التي فعلها الله على يد رسوله المجاهد الأمين.[٦٤]

---

[٥٩] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس برصوم، ص٧٦-٧٧.

[٦٠] Leclercq, H., Edesse, Dict. Théol. Chrét.

[٦١] متَّى، ١١: ٥؛ لوقا، ٧: ٢١ و٢٢؛ يوحنا، ٢٠: ٢٩.

[٦٢] Leclercq, H., La Légende d'Abgar, Dict. Arch. Chrét.

[٦٣] De Miraculis Beati Thomae Apostoli; Passio Sancti Thomae Apostoli; Acta Apostolorum Apocrypha.

[٦٤] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس برصوم: ص٢١٣-٢١٤.
Amiot, F., Evangiles Apocryphes, 262–274.

الفصل الثالث

البِدَع والفِرق والهرطقة في القرن الأول

سيمون الساحر

وظهرت البِدَع في عصر الرسل أنفسهم، فإنه جاء في الفصل الثامن من سِفر الأعمال أن سيمون الساحر السامري تنصَّرَ واعتمد، وأراد أن يشتري موهبة الروح القدس بالمال، فزجره بطرس الرسول وطرده: «وانحدر فيلُبس إلى مدينة السامرة، وجعل يكرز لهم بالمسيح، وكان قبلًا رجل اسمه سيمون يسحر في المدينة، ويُدهِش شعب السامرة مدَّعِيًا أنه شخص عظيم، فأصغوا إليه من صغيرهم إلى كبيرهم، قائلين: هذا هو قوة الله التي تُدعَى عظيمة. وإنما أصغوا إليه لأنه كان منذ زمانٍ كثير يخلبهم بسحره، فلما آمنوا بما كان فيلبس يبشِّرهم به من ملكوت واسم يسوع المسيح اعتمدوا رجالهم ونساؤهم، وسيمون أيضًا آمن واعتمد ولزم فيلبس، وإذ عايَنَ ما كان يُجرى من القوات والآيات دهش، ولما سمع الرسل الذين في أوروشليم أن أهل السامرة قد قبلوا كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا، فانحدرَا وصلَّيَا من أجلهم لكي ينالوا الروح القدس؛ لأنه لم يكن قد حل على أحد منهم، سوى أنهم كانوا قد اعتمدوا باسم الرب يسوع، فلما رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يُعطى الروح القدس، عرض عليهما نقودًا قائلًا: أعطياني أنا أيضًا هذا السلطان؛ حتى ينال الروح القدس كلُّ مَن أضع يدي عليه. فقال له بطرس: لتذهب فضتك معك إلى الهلاك؛ لأنك ظننت أن موهبة الله تُقتنى بالنقود، فلا حصة لك ولا نصيب في هذا الأمر؛ لأن قلبك غير مستقيم أمام الله، فتُبْ من شَرِّك هذا وتوسَّلَ إلى الرب، عسى أن يُغفَر لك وهْمُ قلبك، فإني أراك في مرارة العلقم ورباط المعصية. فأجاب سيمون: توسَّلَا أنتما إلى الرب من أجلي؛ لئلا يُصيبني شيء مما ذكرتما.» ومما جاء في بعض المراجع أن سيمون انطلق بعد هذا إلى رومة فعظم شأنه، وهو قول ضعيف؛ لأنه

مأخوذ عن نصوص غير معترف بصحتها كسِفر أعمال بطرس ورسالة الرسل وغيرهما من كتب الأبوقريفة.

ويقول القديس يوستينوس الذي انتسب إلى منطقة السامريين إن أتباع سيمون كانوا كُثرًا، وإنهم اعتبروه الإله الأعلى، وأشركوا معه إنوية Ennoia الفكر الذي انبثق عنه، فتجسد في امرأة اسمها هيلانة،[1] ومما جاء في الدفاع ضد الهرطقة للقديس إيريناوس أن سيمون قال بإله ذكرٍ أعلى Sublimissima Virtus وبفكرٍ Ennoia منبثق عن هذا الإله الأعلى أنثى موازية له، وأن إنوية هذه خلقت الملائكة الذين خلقوا العالم، وأن هؤلاء الملائكة حبسوا إنوية في جسم امرأة، وأوقعوا بها أنواعًا من الإهانات، وأن إنوية هذه هي هيلانة امرأة مينيلاوس Menelaus الزانية في صور. ومما قاله سيمون بموجب رواية القديس إيريناوس أن الإله الأعلى أظهر نفسه بصفة الابن بيسوع بين اليهود، وبصفة الآب بين السامريين في شخص سيمون، وفي بلاد أخرى بصفة الروح القدس.[2]

ومما نقله أفسابيوس المؤرخ عن هيغيسبوس Hegesippus أن ميناندروس الكبَّاراتي Menandros Capparatea، وذوسيثفس Dositheus، وكليوبيوس Cleobius، جميعهم ادَّعوا الألوهية في القرن الأول، وعلموا مثل ما علم سيمون الساحر. ويرى البعض أن ميناندروس تتلمذ على يد سيمون، وعلم في السامرة وأنطاكية.[3]

ستورنينوس

ومن هؤلاء أيضًا ستورنينوس Saturninus، الذي علَّم في أنطاكية في عهد تريانوس الإمبراطور (٩٨–١١٧)، فصادَفَ نجاحًا ملموسًا، ومما يُعْزَى إليه أنه قال بإله واحد أب خلَقَ القوى والملائكة ورؤساءهم، وقال إن سبعة من هؤلاء الملائكة كوَّنوا العالم المنظور، ثم قُدِّر لهم أن يرمقوا الإله الأعلى بالرؤيا، فخلقوا الإنسان على صورة هذا الإله، ولكنهم جعلوه يزحف زحفًا فشمله الإله الأعلى بعطفه وحنانه؛ لأنه كان على مثاله، فأمر أن ينصب فيمشي على قدمَيْه. ومما يُعزَى إلى ستورنينوس أيضًا أنه جعل إله اليهود أحد

---

[1] S. Justinus, Apol., I, 26, 56; Dial., 120.

[2] S. Irenaeus, Haer., I, 23.

[3] Eusebius, Hist. Ecc., IV, 22.

هؤلاء الملائكة، وجعل الباقين مصدر وحي الأنبياء، وأشرك الشيطان في هذا الوحي في بعض الأحيان، وجعل الملائكة السبعة في نزاع متواصل مع الإله الأعلى، كما جعل هذا الإله يفصل عن نفسه مخلصًا؛ ليقضي على هؤلاء الملائكة ويخلص الإنسان أو أولئك البشر الذين أسعدهم الحظ بأن ينالوا من الإله الأعلى نعمةً تمكِّنهم من الخلاص. والمخلصُ في عُرْف ستورنينوس لم يُولَد ولادةً بشرية، ولم يكن له جسم بشري.[٤]

ورأى ستورنينوس أن الزواج والتوالد من أعمال الشيطان، وفرض عفة وزهدًا شديدين، ولم يدَّعِ الألوهية؛ فاحترمه الأنطاكيون وأعجبوا به.[٥]

كيرينثوس

واشتهر في هذا القرن الأول أيضًا مبتدع آخر اسمه كيرينثوس Cerinthos، ولا نعلم سنة ولادته كما أننا نجهل تاريخ وفاته، وجلُّ ما يمكن قوله عن أخباره الشخصية أنه كان يهوديًّا مصريًّا قدِمَ أوروشليم في أيام الرسل وأقام فيها، ثم انتقل إلى قيصرية فلسطين فأنطاكية وعلم فيهما، وألقى العصا في آسية الصغرى ولعله توفي فيها.

ومما دوَّنه القديس إيريناوس عن هذا المبتدع أنه أزعج يوحنا الحبيب بتعاليمه وضلاله؛ فاضطره أن يقول عنه لدى دخوله إلى أحد حمامات أفسس ووقوع نظره عليه: لنهرب مسرعين من هذا البيت قبل أن يتهدَّم علينا؛ فإن فيه كيرينثوس عدو الحق.[٦] وقال هذا القديس أيضًا إن كيرينثوس أوجب حفظ السبت والاختتان وغير ذلك من فروض الناموس، وإنه ادَّعَى بأن السيد هو ابن يوسف ومريم، وأن ملاكًا من الملائكة خلق الكون، وآخَر الذي هو الله إله اليهود أعطى الشرائع والناموس، وأن شيئًا من الروح القدس المنبثق من الإله الأعلى حلَّ على يسوع عند اعتماده في الأردن، فرافقه حتى الصلب.[٧] وأضاف القديس هيبوليتوس Hippolytus أن كيرينثوس نفى قيامةَ السيد بعد الصلب وأرجأها حتى قيامة «جميع الأتقياء».[٨]

---

[٤] Eusebius, Hist. Ecc., IV, 22; Irenaeus, I, 23–24.

[٥] Duchesne, Mgr, Louis, Early Hist. of Christian Church, 114–119.

[٦] Irenaeus, Haer., III, 3; Eusebius, Hist. Ecc., IV, 14.

[٧] Irenaeus, Haer. I, 26.

[٨] Pseudo-Tert., 48; Epiph., 28; Philastr., 36.

الغنوسية

وأثر الغنوسية ظاهر في هذه التعاليم كلها، واللفظ اليوناني غنوسيس Gnosis معناه: المعرفة أو الحكمة، والغنوسية محاولة فلسفية دينية لتفسير الشر والخلاص منه، والغنوسيون قالوا بإله أعلى لا يُدرَك صدرت عنه أرواحٌ سمَّوها أيونات وأراكنة، وأن هذه صدرت زوجًا فزوجًا ذكرًا وأنثى، فتضاءلت في الألوهية كلما ابتعدت عن مصدرها الإله الأعلى. وقالوا إن أحد هذه الأراكنة أراد أن يرتفع إلى مقام الإله الأعلى، فطُرِد من العالم المعقول، ثم أضافوا أنه صدر عن هذا الأركون الخاطئ أرواحٌ شريرة مثله، وصدر العالم المحسوس الذي لم يكن ليوجد لولا الخطيئة؛ فهو والحالة هذه عالم شر ونقص بصانعه وبالمادة المصنوع منها. وقالوا أيضًا إن هذا الأركون الخاطئ حبس النفوس البشرية في أجسامها فكوَّن الإنسان، وإن هذه النفوس تتوق إلى الخلاص، وإن الناجين قليل؛ لأن الناس طوائف ثلاث متمايزة: طائفة أولى تشمل الروحيين الذين هم من أصل إلهي، وهم الغنوسيون صفوة البشر؛ وطائفة ثانية تتألف من الماديين، الذين لا يمكنهم الصعود فوق العالم السفلي؛ وطائفة ثالثة تجمع الحيوانيين الذي قُدِّر لهم الارتفاع والسقوط، النجاة والهلاك. واختلفوا في وسيلة النجاة؛ فمنهم مَن قهر الجسم وطرح كل ما يثقل النفس ويمنعها من الوصول إلى المقر الذي هبطت منه، ومنهم مَن قال بدناءة الجسم فأطلق العنان للشهوة. وعظموا الفراغ بين الإله الأعلى والعالم، وخشوا استحالة رجوع النفوس إلى هذا الإله، فقالوا بأيونات تصدر عن الإله الأعلى، ووجدوا فيها سلسلة من الوسطاء بين الأنفس والإله الأعلى، فإذا ما حاولَتِ الأنفسُ الاجتيازَ من عالمها السفلي إلى العلوي، قالت «كلمة السر» لكل أيون تصادفه وتحوَّلت إلى صورته. وكان القول بالوسطاء شائعًا؛ فسمَّاهم البعض مثلًا أخذًا عن الأفلاطونية، ودعاهم البعض الآخر «كلمات» Logos؛ أي القوى الطبيعية الكبرى بموجب الفلسفة الرواقية، وسمَّاهم فيلون اليهودي «الملائكة»، وغيره عبَّرَ عنهم بـ «الجن».[٩]

النصارى المتهودون

وهكذا فإن الرسل والتلاميذ والأساقفة الأولين عانوا مشقة شديدة في مكافحة هذه البدع والصمود في وجهها؛ كي لا تتسرب إلى أوساط المؤمنين الأولين، ولكن المشقة الكبرى جاءت

[٩] بتصرف عن تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، ٢٤٤–٢٤٦.

من بعض فِرَق النصارى المتهودين؛ فإن بعض المسيحيين الأولين لم يذعنوا لقرارات مجمع السنة ٤٣-٤٤، ولم يباركوا عمل بولس الرسول وأتباعه في التبشير بين الأمم، والغريب المستغرب أنهم لم يقفوا عند هذا الحد من الاختلاف، بل تأثَّروا ببولس العظيم في آسية الصغرى وبلاد اليونان، مبينين خطأ الرسول، موجبين الاختتان وحفظ السبت وما شاكَلَ ذلك من فرائض الناموس، وعظم أمرهم فخشي بولس سوء العاقبة؛ فردَّ على هؤلاء برسائل ست بعَثَ بها إلى كنائس معينة، فلاقت رواجًا كبيرًا؛ فقد جاء في رسالته الأولى إلى أهل كورينثوس: «أدعي أحد وهو مختون فلا يَعُدْ إلى القلف، أدعي أحد وهو في القلف فلا يختتن، ليس الختان بشيء ولا القلف بشيء، بل حفظ وصايا الله، فليستمر كل واحد على الدعوة التي دُعِي فيها، أدعيت وأنت عبد فلا يهمك ذلك، ولكن إن أمكنك أن تنال الحرية فالأحرى أن تغتنمها؛ لأنه مَن دُعي في الرب وهو عبد فهو معتق للرب، وكذلك مَن دعي وهو حر فهو عبدٌ للمسيح، قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيدًا للناس.»[١٠] وأصغى المسيحيون في غلاطية إلى هؤلاء الدعاة، فاستحقوا وعظًا وإرشادًا شديدَي اللهجة، وكتب الرسول إلى أهل رومة بهذا المعنى فقال: «ليس اليهودي هو مَن كان في الظاهر، ولا الختان ما كان ظاهرًا في اللحم، بل إنما اليهودي هو مَن كان في الباطن، والختان هو ختان القلب بالروح لا بالحرف، ومدحه ليس من الناس بل من الله.»[١١]

ثم دخل في النصرانية المتهودة يهود آخرون، فأدخلوا آراء غريبة تمتُّ بصلة قوية إلى المذاهب اليهودية الرائجة آنئذٍ، وإلى الفلسفة الغنوسية اليونانية، ولاقت هذه الآراء أرضًا خصبة في وادي الليكوس Lycus بين فريجية وليدية وكارية في آسية الصغرى، وفي الأوساط المسيحية في هيرابوليس Hierapolis، واللاذقية، وكولوسي Colossae؛ فهرع إبفراس Epaphras «الحبيب» يخبر بولس بذلك في منفاه، فكتب بولس إلى أهل كولوسي يحذِّرهم «ألَّا يسلبهم أحد بالفلسفة والغرور بالباطل حسب سُنَّة الناس على مقتضى أركان العالم لا على مقتضى المسيح»، الذي «فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًّا»، وهم «مملوءون فيه وهو رأس كل رئاسة وسلطان»، وألَّا يحكم عليهم أحد «في المأكول أو المشروب، أو من قبيل عيد أو رأس شهر أو سبوت»، وألَّا يخيبهم أحد في جعالتهم مبدعًا مذهب تواضُع وعبادة للملائكة، وخائضًا في سبلٍ لا يبصرها.[١٢]

[١٠] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، ٧: ١٨–٢٤.

[١١] رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ٢: ٢٨ و٢٩.

[١٢] رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي، الفصل الثاني.

وهكذا فإنه يستدل من كلام بولس الرسول أن هؤلاء الدخلاء علموا بحفظ أعياد خصوصية وحفظ رءوس الأشهر وحفظ السبت، وأنهم حرَّموا بعضَ المآكل وأوصوا بعبادة الملائكة.

وينبِّه يوحنا الحبيب في رسالته الأولى إلى «مسحاء دجالين» كثيرين (٢: ١٨)، ويقول: «منَّا خرجوا، ولكنهم لم يكونوا منَّا؛ لأنهم لو كانوا منَّا لاستمروا معنا.» (٢: ١٩) ثم يستطرد فيقول: «مَن الكذاب إلا الذي يُنكِر أن يسوع هو المسيح.» (٢: ٢٢) ويرى أهلُ العلم أن الإشارة هنا هي للإبيونيين Ebionaioi، الذين تفرعوا عن كنيسة أوروشليم، وتفرقوا مبشرين معلمين أن المخلص هو ابن يوسف، وأن بولس مرتد عن الدين القويم، متمسكين بالإنجيل إلى العبرانيين، مستمسكين بالناموس، متخذين أوروشليم قبلةً لهم في صلواتهم.[١٣] ويختلف رجال البحث في أصل هذا الاسم، فينسبه بعضهم إلى أبيون المؤسس — وهو قول ضعيف — ويقول آخرون إنه مشتق من العبرية إبيونيم ومعناه الفقراء، وإنه مأخوذ من الآية: «طوبى لكم أيها المساكين، فإن لكم ملكوت الله.»[١٤]

ويذكر يوحنا الحبيب في الفصل الرابع من رسالته الأولى، الأنبياءَ الكَذَبة الكثيرين الذين خرجوا إلى العالم، فيوجب على المؤمنين اختبارهم فيقول: «وبهذا تعرفون روح الله، كل روح يعترف بأن يسوع المسيح قد أتى (في الجسد) فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع ليس من الله.» والفرق هنا هو بين مَن يعترف بتجسُّد الكلمة وبين مَن ينكر المسيح في ناسوته أو لاهوته، ولعل هؤلاء الملحدين هم الدوكينيون الذين قالوا إن يسوع المسيح لم يُولَد من لحم ودم، ولم يكن له جسد ولم يتألم ولكن شُبِّه لهم، واللفظ Dokein يوناني معناه لاح وبَدَا.[١٥] وعاد يوحنا الحبيب إلى هؤلاء مرة ثانية في رسالته الثانية فقال: «لقد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتيًا في الجسد، هذا هو المُضلُّ والضدُّ للمسيح، كل مَن تعدَّى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله، ومَن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعًا. إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام؛ لأن مَن يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة.»

---

[١٣] James, M. R., Apocryphal New Testament, Gospel of Ebonites, 8–10.

[١٤] إنجيل لوقا، ٦: ٢٠؛ وإنجيل متَّى، ٥: ٣.
Barelle, G., Ebionites, Dict. Théol, Chrét.

[١٥] Barelle, G., Docetisme, Dict. Théol. Chrét.

وينبه الرسول الحبيب في الفصل الثالث من رسالته الأولى إلى نوع ثالث من الضلال فيقول: «لا يضلكم أحد، مَن يفعل البر فهو بار، ومَن يفعل الخطية فهو من إبليس.» ويرى المجتهدون من علماء اليوم في هذا التنبيه إشارةً إلى ضربٍ من الأنتينومية Antinomism، التي ذرت قرنها منذ ذلك العهد، أي إلى القول بأن مَن يؤمن لا يخطئ، وبالتالي فلا يربطه ناموس.[١٦]

وتوجِّه رؤيا يوحنا الحبيب ما بين السنة ٧٥ والسنة ٨٥ إنذارًا إلى ثلاثٍ من الكنائس السبع التي في آسية إلى تيتيرة وبرغامون وأفسس، إنذارات بوجوب الابتعاد عن النيقولاويين، الذين يتمسكون بتعليم بلعام الذي علم بالاق أن يلقي معثرة أمام بني إسرائيل «حتى يأكلوا من ذبائح الأوثان ويزنوا»، وتأخذ الرؤيا على ملاك كنيسة تيتيرة أنه يَدَع المرأة إيزابل الزاعمة أنها نبية تعلم وتضل العباد حتى يزنوا ويأكلوا من ذبائح الأوثان، ولا سيما أنها أُمهِلت مدةً لتتوب من زناها فلم ترضَ أن تتوب؛ ولذا فهي تُطرَحُ في فراش، والذين يزنون معها في ضيق شديد إن لم يتوبوا من أعمالهم، «ولسائر مَن في تيتيرة من جميع الذين ليس لهم هذا التعليم، والذين لم يعرفوا أعمال الشيطان، إني لا ألقي عليكم ثقلًا آخر، ولكن تمسَّكوا بما هو عندكم إلى أن آتي.»[١٧]

ولا نعلم بالضبط من هم هؤلاء النيقولاويون، ويذهب البعض إلى أنهم شيعة نيقولاوس الأنطاكي أحد الشمامسة السبعة الذين رسمهم الرسل، وأن نيقولاوس هذا ضل في الإيمان وخرج عن الكنيسة، ولكن مراجع أصحاب هذا الرأي متأخرة ونصوصها مبهمة غامضة؛ فلا بدَّ والحالة هذه من الاعتراف بأننا لا ندري مَن هم هؤلاء بالضبط؛ أما تعاليمهم التي استوجبت هذه الإنذارات الشديدة اللهجة، فإنها قد تكون من نوع التعاليم الأنتيمونية التي سبقت الإشارة إليها. وقد يكون الزنى المشار إليه في هذا الفصل من الرؤيا، هو النوع نفسه الذي ورد في الفصل الخامس عشر من سِفر الأعمال، ذاك الذي عُبِّرَ عنه بالكلمة اليونانية Porneia؛ أي التزاوج بين الأقرباء الذي نهى عنه الناموس، فإذا كان هذا هو الواقع يصبح النهي عن الزنى وعن الآكل من ذبائح الأوثان، نهيًا عن قلة الاكتراث بتعاليم التوراة والناموس وارتكاب ما يخلُّ بالآداب.[١٨]

---

[١٦] Goguel, M., Naissance du Christianisme, 445.

[١٧] رؤيا يوحنا، ٢: ١٤ و١٨–٢٦.

[١٨] Goguel, M., Les Nicolaites, Rev. de l'Hist. des Relig., 1937, 5–36.

هذه أهم أنواع البدع والهرطقات، التي اعترضَتْ في القرن الأول سُبَلَ الآباء في الكنائس في الشرق، وليس غريبًا أن تظهر هذه البدع والهرطقات في الشرق في القرن الأول من تاريخ الكنيسة؛ فالشرق كان لا يزال منذ عهد خلفاء الإسكندر أشد اهتمامًا بالفكر والفلسفة من الغرب، وأكثر إقبالًا على كل جديد.

الفصل الرابع

النُّظُم والعقائد في القرن الأول

الرُّسُل

وكانت أم الكنائس قد انتظمت حول الرسل الأطهار، معترفةً بسلطتهم المطلقة، صاغيةً لوعظهم وإرشادهم، طائعةً عن إيمان ومحبة، وتبعها في ذلك جميع الكنائس على الإطلاق.

واللفظ اليوناني Apostolos الذي يُطلَق في الأناجيل والرسائل على الرُّسُل الاثني عشر، وعلى قليلين غيرهم؛ مشتق من الفعل Apostellein، وهذا الفعل اليوناني مركب من Apo؛ ومعناه: بعيد، وStellein؛ ومعناه: أرسل أو أوفد. وقد ورد هذا اللفظ في الترجمة السبعينية للدلالة على حمل رسالة دينية ونقلها، ويؤكد أفسابيوس المؤرخ أن اليهود دعوا منذ عهد أشعيا مَن حمل منشور زعيم من الزعماء رسولًا، ويؤيد أفسابيوس كلٌّ من أبيفانيوس ومكاريوس المغنيسي، ويفيد أبيفانيوس أن يوسف الجليلي الذي عاصَرَ قسطنطين الكبير، وحمل رسالةً إلى يهود قيليقية سُمِّي لهذه الغاية رسولًا بوضع الأيدي. ويردُّ مكاريوس المغنيسي على بورفيريوس الفيلسوف فيقول إن الرسل الدجالين الذين أشار إليهم بولس الرسول، كانوا رسلًا من اليهود يحملون مناشير يهودية معينة.[١]

والرسول في سِفْر الأعمال هو أحد الاثني عشر الذين انتقاهم السيد المخلص، فتبعوه منذ اعتماده حتى صلبه، ومن هنا قول بطرس الرسول لمناسبة الخيانة التي ارتكبها يهوذا الأسخريوطي: «فينبغي إذن أن يُعين واحد من الرجال الذين اجتمعوا معنا في كل الزمان، الذي فيه دخل وخرج الرب يسوع بيننا، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع

---

[١] Epiphaneos, Haer. XXX, 4 ff; Makarios, III, 22, 29.

عنًّا ليكون شاهدًا معنا بقيامته.» وهؤلاء الرسل بموجب نص سِفر الأعمال هم الذين «اصطفاهم السيد وأوصى لهم بالروح القدس؛ ليكونوا له شهودًا في أوروشليم وجميع اليهودية وفي السامرة وأقصى الأرض». والرسل هم الذين «استقر عليهم الروح القدس في كل واحد منهم»، وهم أيضًا أولئك الذين «جرت على أيديهم آيات وعجائب كثيرة أهمها استحلال الروح القدس على غيرهم بالصلاة ووضع الأيدي».[٢]

ويقول مرقس الإنجيلي إن السيد اصطفى الرسل اصطفاءً، فإنه «فيما كان ماشيًا على شاطئ بحر الجليل، رأى سمعان وأندراوس أخاه يلقيان شباكًا في البحر، فقال: اتبعاني فأجعلكما صيَّادَي الناس.» وهم الذين انتقاهم بعد أن صعد إلى الجبل «ليكونوا معه وليرسلهم للكرازة، فأعطاهم سلطانًا أن يشفوا المرضى ويخرجوا الشياطين».[٣] ويؤيد متَّى ولوقا ويوحنا هذه الرواية، ويضيف يوحنا أن الرب نفخ في الرسل بعد قيامته، وقال: «خذوا الروح القدس مَن غفرتم خطاياهم تُغفَر لهم، ومَن أمسكتم خطاياهم تُمسَك لهم.»[٤]

وأطلق هذا اللقب على غير الرسل الاثني عشر، فقد جاء في الفصل الرابع عشر من سِفْر الأعمال أن بعض أهل أيقونية كان مع اليهود، وبعضهم مع «الرسولَين»، والإشارة هنا إلى بولس وبرنابا، وقد سلم بولس على أندروتيكوس ويونياس في رسالته إلى أهل رومية جاعلًا منهما «رسولين» في المسيح قبله (١٦: ٧). وجاء في الفصل الخامس عشر من رسالة بولس إلى أهل كورينثوس أن الرب تراءى لكيفا ثم للأحد عشر، ثم لأكثر من خمسمائة، ثم ليعقوب، ثم «لجميع الرسل». ويرى صاحب الذيذاخة أن كلَّ مَن حمل كلمة الله فهو رسول، وعندما يشير إلى الرسل الاثني عشر يستعمل اللفظين اثني عشر، ويبين أنه ليس للرسول العادي أن يمكث أكثر من يوم واحد في محل واحد، وأنه يجوز له أن يقيم يومين متتاليين عند الحاجة، ثم يؤكد أنه إذا أقام أكثر من يومين أصبح من الدجالين.[٥]

---

[٢] سِفْر الأعمال، ١: ٢١-٢٢، و٢: ١–٤، و٥: ١٢، و٨: ١٤–٢٤.

[٣] إنجيل مرقس، ١: ١٦–٢٠، و٣: ١٣.

[٤] إنجيل يوحنا، ٢٠: ١٩–٢٤.

[٥] Kleist, J. A., Didache, 11.

الأنبياء والمعلمون

«وكان في الكنيسة التي بأنطاكية أنبياء ومعلمون، منهم: برنابا، وسمعان الملقب بالأسود، ولوقيوس القيرواني، ومناين.»[٦] والأنبياء والمعلمون في نظر بولس غير الناطقين بالألسنة، فالذي كان ينطق بالألسنة كان لا يكلم الناس بل الله، أما الذي تنبَّأ فإنه كلَّمَ الناس كلام بنيان وموعظة وتعزية،[٧] وبعض هؤلاء في نظر كاتب سِفْر الأعمال أنبياء ينبئون بما سيقع من حوادث، فإن أغابيوس أنبأ بالروح أن ستكون مجاعة شديدة في جميع المسكونة، فوقع ذلك في أيام كلوديوس.[٨]

وليس في المراجع الأولية ما يخولنا تحديد صلاحيات هؤلاء الأنبياء، أو يمكِّننا من القول بأنهم حازوا درجةً معينةً من درجات الكهنوت، فاهتمام صاحب الذيذاخة بهم واعترافه بحقهم في أخذ باكورة المواسم، وفي دعوة المؤمنين إلى الاجتماع والتمتع بلقب «رئيس الكهنة»؛[٩] لا يكفي وحده لجعلهم رؤساء الكنائس وأصحاب السلطة فيها؛ فإن ظروف التبشير والوعظ في القرن الأول قضت بتسهيل مهمة الأنبياء، ولا سيما وأن معظمهم كان متجولًا غريبًا لا يملك ما يعتاش به، ولا يمارس مهنةً تدرُّ عليه بالمال اللازم لقضاء حاجاته.[١٠]

أما المعلمون Dedascales، فإنهم كانوا يقومون فيما يظهر بالعمل نفسه الذي قام به الأنبياء؛ أي التبشير والإرشاد. والفرق بين الاثنين نشأ عن مصدر الوعظ، فالأنبياء اعتمدوا الوحي، والمعلمون اجتهدوا اجتهادًا.[١١]

---

[٦] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، ١٣: ١؛ سِفْر الأعمال، ١٣: ١.

[٧] رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، ١٤: ٢–٣.

[٨] سِفْر الأعمال، ١١: ٢٧–٢٨.

[٩] Kleist, J. A., Didache, 11, 13.

[١٠] وهنالك مَن يجتهد في نص الذيذاخة، فيخلص إلى التفريق بين النبي العادي الضارب في الأرض، وبين النبي المستقر في كنيسة متينة، فيجعل من هذا الأخير رئيسًا على كنيسته.

Prophéte: Dict. Apolog. de la Foi Cath., I, 1768; Goguel, M., Eglise Primitive, 141–144.

[١١] Mourret, Rev. Fernand, S. S., Hist. of Cath. Church, I, 83.

الأساقفة

وتوجب الذيذاخة على المؤمنين انتخاب أساقفة وشمامسة مستقيمين أمناء مجربين ذوي سهولة ودماثة في الأخلاق لا يحبون المال، فتنيط بالأساقفة ممارسة أقدس الأسرار وأرفعها وتعلمهم الصلاة لهذه المناسبة.[١٢] وكان قد سبق لبطرس الرسول أن دعا المسيح أسقفًا على النفوس[١٣] ولبولس أن جعله وكيل الله، وأوجب أن يكون بغير عيب رجل امرأة واحدة، صاحيًا عاقلًا مهذبًا مضيفًا للغرباء، قادرًا على التعليم، غير مدمنٍ الخمر ولا سريع الضرب، بل حليمًا غير مخاصم ولا محب للمال، يُحسِن تدبير بيته، ويضبط أبناءه في الخضوع بكل عفاف.[١٤]

والأسقف Episkopos: لفظ يوناني مركب معناه الرقيب أو الناظر، وهو مؤلَّف من Epi؛ ومعناه: «على»، وSkopein؛ ومعناه: لاحظ أو راقب. وقد اجتهد ابن السكيت وغيره من علماء اللغة في أصل هذا اللفظ، فجعلوا كلمة أسقف مشتقة من السقف، وهو عندهم طول في انحناء، فقالوا سُمِّيَ أسقفًا؛ لأنه يتخاشع، وهو اجتهاد في غير محله، واللفظ Episkopos قديم العهد عند اليونان؛ فقد جاء في أشعار هوميروس أن الآلهة أساقفة على القيام بالعهود المقطوعة،[١٥] وجاء في شرائع أفلاطون أن ذيكي أرسَلَ نمسيس أسقفًا ليؤدِّب الأولادَ عمَّا ارتكبوه من ذنوب ضد الوالدين.[١٦] وورد هذا اللفظ نفسه في الترجمة السبعينية بمعنى المراقب،[١٧] والحاكم،[١٨] ورئيس الكهنة.[١٩]

---

١٢ Didache, 15.

١٣ رسالته الأولى، الفصل الثاني.

١٤ رسالته إلى تيطس وتيموثاوس.

١٥ الإلياذة، ٢٢: ٢٥٤ وما بعده.

١٦ الشرائع، ٤: ٧١٧.

١٧ سِفْر أيوب، ٢٠: ٢٧.

١٨ سِفْر المكابيين الأول، ١: ٥.

١٩ نحميا، ١١: ٩؛ Reville, J., Orig. de l'Episcop, I, 152 ff.

الشيوخ

وتشير رسائل الرسل في كثير من الأحيان إلى زعماء الكنائس، فتجعلهم رؤساء أو مدبرين أو ملائكة أو رعاة أو أساقفة أو شيوخًا؛ فقد جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكية، وفي فصلها الخامس إشارة إلى الذين يتعبون «ويرأسون»، كما جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية في فصلها الثاني عشر أمرٌ يوجب على المعلم التعليم، والواعظ الوعظ، «والمدبر العناية». وجاء أيضًا في الفصل الثالث عشر من الرسالة إلى العبرانيين «اذكروا مدبريكم»، والكواكب السبعة في الفصل الأول من الرؤيا هم «ملائكة» الكنائس السبع، والمسيح في رسالة بولس إلى أهل أفسس وفي فصلها الرابع هو الذي جعل بعضًا رسلًا، وبعضًا أنبياءَ، وبعضًا مبشِّرين، وبعضًا «رعاة» ومعلمين، وليس في هذه النصوص ما يمكِّننا من التعرُّف بوضوح إلى نوع العمل، الذي كان يقوم به كلٌّ من هؤلاء الرؤساء والمدبرين والرعاة والأساقفة والشيوخ، أو إلى درجة السلطة التي كانوا يمارسونها.

وأكثر هذه الألقاب استعمالًا في رسائل الرسل الأسقف، وقد سبقت الإشارة إليه والشيخ Presbyleros، وليس في استعمال هذين اللقبين ما ينبئ بوضوح أن أحدهما كان أعلى رتبةً من الآخر؛ فالشيوخ هم رؤساء الكنائس في رسائل بطرس ويعقوب،[٢٠] والأساقفة والشيوخ هم رؤساء كنيستَيْ فيلبي وأفسس، والرؤساء في الرسائل الرعائية هم أساقفة أحيانًا وشيوخ أحيانًا أخرى.

ويصعب التفريق بين الأسقف والشيخ في رسالة إقليمس الروماني إلى أهل كورينثوس،[٢١] كما يتعذَّر العثور على أية إشارة واضحة إلى الشيوخ في نص الذيذاخة،[٢٢] وقد يكون السبب في هذا كله أن تنظيم الكنائس في القرن الأول لم يكن واحدًا مطردًا فيها جميعها.[٢٣]

---

[٢٠] رسالة بطرس الرسول الأولى، ٥: ١–٥؛ ورسالة يعقوب، ٥: ١٤.

[٢١] Kleist, J. A., Epistle of Clement of Rome, 21, 42, 44, 47, 54, 57.

[٢٢] Kleist, J. A., Didache. Introduction, PP. 4 and 6.

[٢٣] Prat, F., Evéques, Dict. Théol. Chrét.; Goguel, M., Eglise Primitive, 137–144.

الدرجات في أوروشليم

ولا يختلف اثنان فيما نعلم في أن أم الكنائس كانت في أوائل عهدها أخوية تعمل بقلب واحد وروح واحد، وأن الرسل كانوا قطب الدائرة فيها، فهم الذين شهدوا قيامة الجسد، وهم الذين حملوا التعاليم، وهم أيضًا الذين نقلوا هَدْيَ الروح القدس إلى جمهور المؤمنين.

ويشير صاحب سِفْر الأعمال (١١: ٢٩-٣٠) إلى المساعدة المالية التي قدَّمها الأنطاكيون إلى كنيسة أوروشليم، فيقول إنها أُرسِلت إلى «الشيوخ» على أيدي برنابا وشاوول، ونقرأ بعد هذا أن بولس وبرنابا شكوَا أمرَ النزاع حول الاختتان إلى «الرسل والشيوخ»، وأن «الرسل والشيوخ» اجتمعوا لينظروا في هذا الأمر (١٥: ٢ و٦)، ثم نرى «الرسل والشيوخ وجمهور المؤمنين» يختارون رجلين منهم ليحملَا نص القرار في هذه المشكلة إلى الإخوة في أنطاكية (١٥: ٢٢)، فيقولون في متن هذا القرار: «لأنه قد رأى الروح القدس «ونحن» ألَّا نضع عليكم ثقلًا فوق هذه الأشياء» (١٥: ٢٨).

وهكذا فإنه يجوز القول بناءً على هذه النصوص إن الشيوخ في كنيسة أوروشليم شاركوا الرسل في إدارة أم الكنائس، واشتركوا معهم في تحمل المسئوليات، وأبدوا رأيهم في العقيدة، ونقلوا هدي الروح القدس مع الرسل الأطهار.[٢٤] ويجوز القول أيضًا بناءً على الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة في الفصل الخامس من رسالة يعقوب أخي الرب، وأسقف أوروشليم نفسها؛ إن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا وجهاء نافذي الكلمة في كنيسة أوروشليم فحسب، بل كهنة يمارسون الطقوس:[٢٥] «هل فيكم مريض فَلْيدعُ شيوخ الكنيسة، وليصلوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب، فإن صلاة الإيمان تخلص المريض والربُّ ينهضه، وإن كان قد ارتكب خطايا تُغفر له.»

واللفظ اليوناني الذي استُعمِل للدلالة على هؤلاء الشيوخ في المراجع الأولية هو الكلمة Presbyteroi؛ ومعناها الشيوخ المتقدمون، ولعلهم كانوا في أم الكنائس أقدم المؤمنين في نعمة الإيمان وأوجههم.[٢٦]

وجاء بعد الشيوخ في أم الكنائس الشمامسة، والشماس لفظ سرياني معناه خادم ديني، وهو يقابل اللفظ Diakonos اليوناني الوارد في سِفر الأعمال وغيره من الرسائل

[٢٤] Colson, J., L'Evéque dans les Communautés Primitives, "Unam Sanctam" 17–21.

[٢٥] Zeller, J., La Vie Chrét. a la Fin du Premier Siécle (Fliche et Martin), I, 271.

[٢٦] Colson, J., op. cit, 18.

المقدسة، وقد سبق لنا وأشرنا إلى كيفية انتقاء الشمامسة السبعة الأولين، فإن المؤمنين انتخبوهم انتخابًا والرسل باركوهم بوضع الأيدي، فقاموا بمهام روحية منذ البدء، وأشهرهم أسطفانوس الشهيد، ولعل السبب الرئيسي لانتقائهم كان إشراك العنصر اليهودي الهليني في الخدمة قبل أن يكون مجرد خدمة موائد.[٢٧]

وضيَّق أغريبة على المؤمنين في أوروشليم وشدَّد عليهم، فاستشهد يعقوب بن زبدي، وأُلقِي بطرس في السجن وأفلت، وقضت حرارة الإيمان بالتبشير، فتفرق الرسل الاثنا عشر، وتزعم يعقوب أم الكنائس، وما فتئ حتى استشهاده في السنة ٦٢.

ويعقوب هذا هو «أخو الرب» وأخو سمعان ويوسي ويهوذا الرسول، وهو الذي قال عنه بولس أنه رأى الرب وحده،[٢٨] وهو الذي يعتزُّ بولس بموافقته، فيذكره قبل بطرس ويوحنا.[٢٩] ولا نعلم بالضبط متى قبِلَ يعقوبُ الرسالةَ، ولكن صاحب الإنجيل إلى العبرانيين يؤكد أن يعقوب أقسم في ليلة العشاء أنه لن يذوق طعامًا قبل قيامة المسيح من الموت، وأن المسيح بعد أن داس الموت ذهب إلى يعقوب هذا، وقال له: «كُلْ خبزَكَ؛ لأن ابن الإنسان قد قام من بين الأموات.»[٣٠] وجاء في التقليد أن يعقوب أخا الرب كان قد اشتهر بين اليهود بالورع والتقوى والمحافظة على الناموس، وأنه كان قد تقدَّمَ على كهنتهم فلبس القميص والجبة والعمامة، ووضع الصحيفة الذهبية على عمامته، ودخل قدس الأقداس وحده.[٣١] ومما أجمع عليه الآباء أن يعقوب أخا الرب امتنع عن اللحم والخمر، وتقشَّفَ وتعبَّدَ وأكثر السجود، ولم يحلق رأسه ولم يحتذِ حذاءً، ويقول إقليمس الإسكندري إنه لم يتقدَّم أحدٌ على يعقوب، فانتُخِب أسقفًا على أوروشليم في اليوم الأول بعد الصعود.[٣٢]

ويرى رجال الاختصاص من علماء الكنيسة أن نصوص سِفر الأعمال ورسائل بولس تجعل من يعقوب خلفًا للرسل في أوروشليم، يمارس سلطتهم، ويقوم بالأعمال نفسها

---

[٢٧] Colson, J., op. cit., 18, N. 2; Goguel, M., Naissance du Christianisme, 190–191.

[٢٨] رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس، ١٥: ٧.

[٢٩] رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢: ٩.

[٣٠] Jérome, De Virris Inl., 2.

[٣١] Eusèbe, Hist. Ecc. II, 23; Epiphanios, Haer., XXIX, 4, LXXVIII, 13.

[٣٢] Eusèbe, Hist. Ecc., II, 1, 2.

التي قاموا هم بها في أثناء وجودهم في أوروشليم؛ فهو في نظر هؤلاء العلماء رئيس أم الكنائس، يعمل على إدارتها وسياستها بالتعاون مع شيوخها، كما يرأس الأسقف الكنيسة في عهدنا.[٣٣]

الدرجات في أنطاكية

وليس لدينا من النصوص الأولية ما يخولنا التبسُّط في وصف هذه الدرجات في أنطاكية وتعيين الصلاحيات اللاحقة بكلٍّ منها، وجلُّ ما يجوز قوله هو أن بطرس كان راعي هذه الكنيسة منذ نشأتها، وأن أفوذيوس حلَّ محله، فلما توفي هذا أو استشهد تسلَّمَ زمامَ الأمور في هذه الكنيسة أغناطيوس ثيوفوروس؛ أي حامل الإله.

ومما لا ريب فيه أيضًا أن برنابا بذل بسخاء من وقته ونشاطه في خدمة الكلمة في أنطاكية، وأن عددًا من الأنبياء والمعلمين أقاموا في أنطاكية واشتركوا في تدبير كنيستها، وقد سبقت الإشارة إلى أسمائهم والظروف التي اقتادتهم إلى أنطاكية؛ فَلتُراجَع في محلها. وجلُّ ما لدينا عن صلاحياتهم مضمون الآية: «وبينما هم يخدمون الرب ويصومون، قال الروح القدس: افرزوا لي برنابا وشاوول للعمل الذي دعوتهما إليه. فصاموا حينئذٍ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادي وأطلقوهما.»[٣٤]

ويجوز القول أيضًا إن مجمع الرسل والشيوخ في أوروشليم استمع إلى بولس وبرنابا يشرحان أمر المشادة، التي نشبت في أنطاكية حول ختن الأمميين فيها قبل دخولهم في النصرانية؛ وإن بطرس اشترك في البحث، وإن يعقوب أخا الرب قال كلمته أيضًا، فاتخذ المجمع قرارًا، وأوفد يهوذا وسيلا إلى أنطاكية؛ لينقلا قراره إلى الإخوة الأمميين في أنطاكية وسورية وقيليقية.[٣٥]

---

[٣٣] Colson, J., op. cit., 21–26.

[٣٤] سِفر الأعمال، ١٣: ٢-٣.
Goguel, M., Naissance du Christianisme, 211–220; Loisy, A., Actes, 501.

[٣٥] سِفْر الأعمال، ١٥: ٢٢–٢٧.

الدرجات في الكنائس المجاورة

وبشَّرَ بولس وبرنابا في قبرص وآسية الصغرى، وأسَّسَا الكنائس «وانتخبَا للمؤمنين شيوخًا Presbyleroi، ثم صلَّيَا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به.»[٣٦]

«ومن ميليتس أرسل بولس إلى أفسس، واستدعى شيوخ الكنيسة Presbyteroi، وقال لهم: ها أنا أذهب إلى أوروشليم مقيدًا بالروح، لا أعلم ماذا يصادفني هناك، فاحترزوا إذن لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها «أساقفة»؛ لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.»[٣٧] وهكذا فإننا نرى الرسول المؤسس مدبِّرًا أعلى لكل كنيسة أسَّسها في آسية الصغرى، ونراه أيضًا يقيم شيوخًا محليين في هذه الكنائس يدعوهم أساقفة في بعض الأحيان لرعاية الكنيسة.[٣٨]

وينبئنا البطريرك أفتيشيوس أن رئيس كنيسة الإسكندرية كان في بادئ الأمر الأول بين أقرانه الشيوخ أو الأساقفة Primus Inter Pares،[٣٩] وكان هؤلاء يقيمونه رئيسًا بوضع الأيدي، كما أقام شيوخ أفسس تيموثاوس أسقفًا عليهم،[٤٠] ولعل السبب في ذلك أن أسقف الإسكندرية ظلَّ الأسقف الأوحد في مصر حتى أوائل القرن الثالث، فالأسقف ديمتريوس الثالث (١٨٩–٢٣٢) كان أول مَن سام أساقفة في مصر خارج الإسكندرية، ولنا في نص الـ Ambrosiasler ما يؤيد هذه النظرية؛ فقد جاء في هذا المرجع الأولي (القرن الرابع) أن لكهنة مصر حق التثبيت في حال خلوِّ الكراسي من الأساقفة.[٤١]

وتطل علينا السنة ٩٧ فإذا بالقديس إقليمس الروماني، يحاول حل الخلاف الذي نشب في كنيسة كورينثوس، فيحثُّ المؤمنين على المحبة والتوبة والتواضع، ويذكرهم بأن السيد نفسه رفع الرسل إلى مرتباتهم، وأن الرسل هم الذين أقاموا الأساقفة والشمامسة، وأن هؤلاء انتخبوا خلفاءَهم، وأن الخضوع لهؤلاء واجب.[٤٢]

---

[٣٦] سِفْر الأعمال، ١٤: ٢٣.

[٣٧] سِفْر الأعمال، ٢٠: ١٧ و٢٢ و٢٨.

[٣٨] Colson, J., op. cit., 39–44.

[٣٩] Patrologia Graeca, Vol. 61, 982.

[٤٠] رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس، ٤: ١٤.

[٤١] Ambrosiaster, Eph., 4, 11 ff.

[٤٢] St. Clement of Rome, Epistles, Newman, 42–44.

الذيذاخة

ويجيء القرن التاسع عشر، فيحرك الروح فيلوثيوس متروبوليت نيقوميذية، فيجد في السنة ١٨٧٣ نسخةً قديمة من «تعاليم الرسل» للأميين الراغبين في تقبُّل رسالة السيد المخلص، ويتهافت علماء الكنيسة على قراءتها ودرسها، فتنقل في السنة الأولى لظهورها مطبوعةً إلى لغات الغرب (١٨٨٣).

والذيذاخة لمؤلف مجهول من أعيان كنيسة أنطاكية (أو مصر) عاش ما بين السنة ٥٠ والسنة ١٥٠، وجمع في كتاب واحد التعاليمَ المنقولة عن الرسل التي يجب تلقينها للأميين الراغبين في الدخول في النصرانية.[٤٣]

ويتضح من هذه الذيذاخة أن نظام الكنيسة عند نهاية القرن الأول قضى بالاعتراف بسلطة الأنبياء بعد الرسل، وسلطة المعلمين والـ Episcopoi-Presbyteroi فالشمامسة.[٤٤]

الأسرار

ومارَس المؤمنون في القرن الأول أسرارًا ثلاثة: المعمودية، ووضع الأيدي، وكسر الخبز. فكان على المؤمن أن يعتمد باسم الرب أولًا ليتحد بشخص المسيح السري الذي كان ولا يزال حيًّا بالكنيسة، وكان عليه أن يتثبت بوضع الأيدي ليتغلغل في نفسه فعلُ الروح القدس فيطهِّرها، وباشتراكه بسر الأفخارستيه كان يترجى الاتحاد مع الحاضر تحت أعراض الخبز والخمر.[٤٥]

الليتورجية والطقوس

وكان على المسيحي في القرن الأول أن يصلي ثلاث مرات في اليوم الواحد،[٤٦] وذلك في الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة،[٤٧] أي في الساعة التاسعة صباحًا، وعند الظهر، وفي الساعة

---

[٤٣] Quaesten, J., Initiation aux péres de l'Eglise, I, 36-48.

[٤٤] Kleist, J. A., Didache, 11-15.

[٤٥] Batiffol, P., Etudes d'Hist. et de Théol. Positive, I, 1-41.

[٤٦] Didache, 11.

[٤٧] Clement of Alexandria, Stromata, 7.

الثالثة بعده، وكان عليه أن يصلي واقفًا حاسر الرأس رافع اليدين حتى الكتفين، وحضت الذيذاخة المؤمنين على الاتصال في كل يوم بالقديسين أيْ بإخوانهم المسيحيين؛ ليجدوا في كلامهم عزاءً وغذاءً للنفوس، وأوجبت التراضي والاعتراف بالخطايا قبل تقديم الذبيحة الإلهية في يوم الأحد.[٤٨] والصلواتُ في الذيذاخة: الصلاةُ الربانية، وصلاةُ المعمودية، وصلاةُ الذبيحة المقدسة، وقد جاءت الصلاة الربانية متوَّجةً بالذوكسولوجية: «لأن لك القوة والمجد إلى الأبد.»[٤٩]

ولا نعلم الشيء الكثير عن المعمودية في القرن الأول؛ فالذيذاخة توجب وعظ المهتدين وتدريبهم في مبادئ النصرانية، وتفرض صوم يوم أو يومين على كلِّ مَن يصبح مستعدًّا للمعمودية، وتحضُّ مرشده وغيره من المؤمنين على الاشتراك معه في الصوم التمهيدي، وتعين الذيذاخة أيضًا نوع المياه، فتوجب الاعتماد بالمياه الجارية، ولكنها تسمح باستعمال غيرها في حال تعذُّرها، كأنْ تجمع كمية كافية من المياه في أحد الأوعية، وهي تجيز تسخينَ المياه في بعض الأحيان، والتغطيس واجب، وقد يكتفى بالرش إذا قضَتِ الظروف باللجوء إليه. ويجب على مَن يتولَّى أمر التعميد أن يعمد باسم الآب والابن والروح القدس،[٥٠] ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا لم يكن كل ما في المعمودية، وأن المسيحيين آنئذٍ قالوا بماء جاء في رسالة بطرس الأولى (٣: ٢١)، فاعتبروا الماء «رمزًا لاختيار الضمير الصالح الذي يخلصهم بقيامة يسوع المسيح»، كما قالوا مع بولس الرسول «برب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة»،[٥١] ومع فيليبوس والخصي «بأن يسوع المسيح هو ابن الله».[٥٢]

ويجب ألَّا يغيب عن البال أن اليهود مارسوا آنئذٍ معمودية شابهت في بعض مراحلها ومظاهرها معمودية النصارى، فإنهم أوجبوا على الداخل في دينهم أن يتعلم مبادئ هذا الدين، وأن يُختتَن ويُعمَّد بالماء،[٥٣] ولكن هذا التشابه وسكوت الذيذاخة عن مغفرة الخطايا

---

[٤٨] Didache, 4, 14, 16.

[٤٩] سِفْر أخبار الأيام الأول، ٢٩: ١١: «لك يا رب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد.»

[٥٠] Didache, 7.

[٥١] رسالته إلى أهل أفسس، ٤: ٥.

[٥٢] سِفْر الأعمال، ٨: ٣٧.

[٥٣] Abraham, I., How Did the Jews Baptize? Journ. Theol. STudies, London, 1910, 437–445, 609–612; Benoit, A., Baptéme Chrétien, 12–16.

وعن المقصود بالضبط من العبارة باسم الآب والابن والروح القدس، وعدم توضيح علاقة المسيح بالمعمودية، لا يعني أن معمودية الذيذاخة تقع في صعيد واحد مع معمودية اليهود؛[٥٤] فالسكوت لا يُتَّخَذ حجة Argumentum ex Silentio إلا في ظروف منطقية يصعب توفرها في غالب الأحيان، وهي غير متوفرة في هذه الحالة، وقد سبقت الإشارة إلى هذا النوع من الخطأ في عرض الكلام عمَّا قاله بعض العلماء المتحذلقين عن دور السيدة العذراء في أداء الرسالة، فَلْيُراجَع في محله.

ومارس المسيحيون في القرن الأول سر الأفخارستية؛ فقاموا باكرًا في يوم الرب في الساعة نفسها التي تغلَّبَ فيها على الموت، وأموا الكنيسة للصلاة، فبارك الأسقف وشكر من أجل الخبز والخمر، وناول مَن اعترف بالخطايا وتقدَّمَ بنية صالحة وقلب طاهر،[٥٥] «فإذا قدَّمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئًا، فدَعْ قربانك هناك أمام المذبح وامضِ أولًا، فصالح أخاك وحينئذٍ ائتِ وقدِّم قربانك.»[٥٦]

ورُبَّ معترض يقول: ولكن الذيذاخة لا تذكر الاستحالة. وجوابنا على هذا ذو حدين: أولهما أن المسيحيين كانوا قد أجازوا التقية للتحاشي وللمحافظة على قدسية هذا السر، والثاني أن السكوت لا يكون حجةً إلا بشروط معينة لا تتوفر في هذا المقام.[٥٧]

وتناول المسيحيون في عشية الأحد عشاء الأغبة Agapé؛ أي المحبة، مجتمعين حول مائدة واحدة ناظرين في أمورهم المشتركة، ولا سيما في حاجة المعوزين منهم، وبدءوا حفلتهم بالشكر وأنهوها بالشكر وبقبلة المحبة، وكان الروح يرافقهم ويحل على بعضهم، فيتكلمون بلغات أو يتنبئون.[٥٨] وأساء بعض الكورنثيين السلوكَ في هذه الحفلات المسائية، فاستحقوا تأنيب بولس الرسول: «فحين تجتمعون معًا ليس هو لأكل عشاء الرب؛ لأن كل

---

٥٤ Benoit, A., op. cit., 24–33.

٥٥ Didache, 14, 15.

٥٦ إنجيل متَّى، ٥: ٢٣-٢٤.

٥٧ Cagin, P., Te Deum ou Illatio, 342; Souben, Canon Primitif de la Messe, 12; De Rossi, G. B., Bull. Arch. Crist, 1886, 23.

٥٨ Tertullianus, Apolog., 39; Baumgartner, E., Eucharistie und Agape im Urchristentum; Battiffol, P., Nouvelles Etudes, Rev. du Clergé Francais, LX, 513.

واحد يسبق، فيأخذ عشاء نفسه في الأكل، فالواحد يجوع والآخَر يسكر، أفليس لكم بيوت لتأكلوا فيها وتشربوا؟»[٥٩]

الدوغمة أو العقيدة

وتوجب الذيذاخة على المؤمن القول بإله واحد في أقانيم ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، والله في هذه الذيذاخة هو الآب السماوي الخالق ذو القدرة والجلال، به كان كل شيء وبدونه لم يكن شيء، له المجد إلى الأبد باسم ربنا يسوع المسيح، ويسوعُ المسيح ابن الله وربنا ومخلصنا، وهو حي في كنيسته وسيجيء في يوم الدينونة، والروح القدس هو الله مع الآب والابن وقد نطق بالأنبياء، وكنيسة الله جامعة مقدسة!

[٥٩] رسالته الأولى إلى أهل كورينثوس، ١١: ٢٠–٢٣.

الفصل الخامس

أغناطيوس ثيوفوروس

٦٤–١٠٧

ونكاد لا نعلم شيئًا عن أفوذيوس خليفة بطرس الأول، وهنالك تقليد أنه استشهد في عهد نيرون،[١] وكلنا نعلم جيدًا أن أغناطيوس «حامل الإله» عاصر أفوذيوس وخلفه في رئاسة الكنيسة،[٢] ويرى البعض أن ظروف الكنيسة في أنطاكية قضت بأن يسام أسقف على المسيحيين المتهودين، وأسقف آخر على المسيحيين الأمميين، وأن أفوذيوس وأغناطيوس ترأَّسَا معًا فترة من الزمن، فلما توفي أو استشهد أفوذيوس تابَعَ أغناطيوس العملَ وحده مترئسًا على الكنيستين في وقت واحد.[٣]

وجاء لاناستاسيوس الكتبي أن أغناطيوس هو ذاك الطفل الذي أشار إليه متَّى في الفصل الثامن عشر، حيث قال: «فدعا يسوع إليه ولدًا، وأقامه في وسطهم، وقال الحق أقول لكم، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات.»[٤] ولكن يوحنا الذهبي الفم الأنطاكي المولد يؤكِّد أن أغناطيوس لم يرَ المسيح،[٥] وشهادة الذهبي

---

١ Boll., Feb. I, 18 d.

٢ Eusèbe, Hist. Ecc., III, 22.

٣ Theodoret., Dialog. Immutabilis, Op. IV; Apost. Const., VII, 45.

٤ Anastase le Bibliothécaire, Vindiciae Ignatianae, II. CXII; p. G., Vol. 5, Col 404.

الفم في هذا الموضوع أثمن بكثير من شهادة أناستاسيوس الكتبي، ويرى علماء الكنيسة أن أغناطيوس وُلِدَ من أصل سوري هليني حوالي السنة ٣٥، ثم تقبل النعمة في أنطاكية على أيدي الرسل أو التلامذة أو المعلمين، فاتخذ لنفسه لقب ثيوفوروس حامل الإله تيمُّنًا وتبركًا.[٦]

ظروف كنيسة أنطاكية في عهد أغناطيوس

وتفاقمت الخطوب من حول كنيسة أنطاكية في النصف الثاني من القرن الأول، فتغير موقف السلطات الرومانية من النصرانية والنصارى، وتطوَّرَ من اللامبالاة إلى التضييق والاضطهاد، وذلك لأسباب أهمها أن الرسل انطلقوا يكرزون باسم الرب في كل مكان، فانتقلوا من أوروشليم إلى جميع أنحاء فلسطين ولبنان وسورية، ثم آسية الصغرى، فاليونان وإيطالية ورومة نفسها، وكان العرف عند الرومان واليونان يقضي بأن يُعتَبَر الدين ميثاقًا قوميًّا تجب مراعاته والمحافظة عليه، كما كان يوجب الثبوت على عهد الولاء للدولة، فكان ترك دين الآباء والالتحاق بدين شعب آخر كالفرار من الجيش والدخول في خدمة عدو مداهم،[٧] ولكن هذا العرف لم يمنع الأجانب المقيمين في الأراضي الرومانية من ممارسة طقوسهم الخاصة والتعبد لآلهتهم. ثم جاء عصر الفتوحات والتوسع، وتلاه عصر آخر منحت فيه رومة حقوقَ المواطنين إلى غير المواطنين الرومانيين، فأصبحت آلهة الرومانيين آلهة الشعوب الداخلة في حكم رومة، وباتت آلهة هؤلاء الشعوب محترمة معترفًا بها في الأوساط الحاكمة، وتمت معادلات بين الآلهة، فأصبح جوبيتر الرومان زفس اليونان، وتعبَّدَ اللبنانيون القدماء إلى جوبيتر في بعلبك تعبُّدهم إلى هدَد بعل هذه المدينة السابق؛ ولكن إله اليهود والنصارى لم يكن إله قوم معين كسائر الآلهة، بل إلهًا لا إله إلا هو، ولم يكن دينهم دين قوم واحد كسائر الأديان، بل الدين الحقيقي الذي ليس بعده دين؛ وعلى الرغم من هذا التفرد في العقيدة والخروج على المألوف، فإن السلطات الرومانية اعترفت عند الفتح بكيان الدين اليهودي، واعتبرته دينًا شرعيًّا Religio licita،

---

٥ In Sanct. Mart. Ignatium, P. G. Vol. 49, XLIX. Col. 594.

٦ Bareille, G., Ignace d'Antioche, Dict. Théol. Chrét.; Kleist, J. A., St. Ignatius, op. cit., 54.

٧ Mommsen, Th., Romisches Strafrecht, 567 ff.

وغضت النظر في غالب الأحيان عن الدخول في هذا الدين خارج رومة وأوساطها العالية، ولم تضيق على مَن قال بإله واحد، ما دام هذا القول لم يتبعه اختتان وانتماء ظاهر إلى الجاليات اليهودية، ولم تكترث هذه السلطات بادئ ذي بدء للنصرانية، فاعتبرتها فرقة من فرق اليهود، وهذا كان موقف بيلاطس في أوروشليم وزميله غاليو Gallio في آخية، عندما نظر في شكوى يهود كورينثوس على بولس، ولكن اليهود أبوا أن يتمتع النصارى بامتيازاتهم الخاصة، فأبانوا الفروق بينهم وبين أتباع المسيح، فتفتحت أعين السلطات وبدأ الارتياب والظن.[٨]

وقضى تيطس على ثورة اليهود في فلسطين، ودمَّر الهيكل في أوروشليم في السنة ٧٠، فظن أنه أصاب عصفورين بحجر واحد؛ اليهود والنصارى الذين تفرعوا عنهم.[٩] وجاء دوميتيانوس (٨١–٩٦)، فجبى ضريبة الهيكل من اليهود، وممَّن «عاش عيشتهم وإن لم يكن أصله منهم»، فأدى ذلك إلى التفتيش الدقيق عن المسيحيين، وإلى تدوين أسمائهم وإكراههم على دفع الذيذراخمة Didrachma ضريبة الهيكل، وإرسالها إلى صندوق Jupiter Capitolinus في رومة، وكانت جالية اليهود في أنطاكية كبيرة كما سبق وأشرنا، وكان قد أصبح عدد المسيحيين في عاصمة الشرق عظيمًا، فأقلقت هذه الترتيبات بال أغناطيوس وقضَّت مضجعه.

ولم تكن ظروف الكنيسة الداخلية في أنطاكية أقلَّ خطرًا من ظروفها الخارجية، فإن الخلاف بين المسيحيين الأمميين والمسيحيين المتهودين كان لا يزال قائمًا حينما تسلم أغناطيوس عُكَّازة الرعاية، وكان عدد كلٍّ من الفريقين كبيرًا في أنطاكية وفي سائر المدن السورية، وكانت الغنوسية لا تزال تفسد على قادة الفكر المسيحي عملهم التبشيري كما سبق وأشرنا في فصل سابق.

موقف أغناطيوس وسياسته الرعائية

وكان أغناطيوس قد دخل في الدين الجديد في عصر بطرس وبولس وبرنابا، فأصلحت سيرهم نفسه وأثار حماسهم حميته، فاندفع في سبيل يسوع وتعلَّق به، ولم يكن ذلك

---

٨ Duchesne, Mgr. Louis, Early Hist. of Christ. Church, 71–79.

٩ Sulpicius Severus, Chron. II, 30.

اللاهوتي النظري فلم يتعرض للبحث في الثالوث الأقدس أو في اتحاد الطبيعتين، ولكنه عني كل العناء بالتعاليم المسيحية التاريخية Depositum Fidei، فسعى للمحافظة عليها خالية من الأدران، والتفت إلى إدارة كنيسته، فوحَّد صفوفها، وحرص على السلطة الرعائية، فقوَّاها وقال برسالة واحدة وكنيسة واحدة في العالم أجمع؛ فكان أول مَن استعمل اللفظ «كاثوليكي» في الإشارة إلى كنيسة المسيح «الجامعة»، ولعله هو الذي أدخل ترتيل المزامير في كنيسة أنطاكية.[١٠]

رسائله إلى الكنائس

وقضى ظرف استشهاده، كما سنرى قبل انتهاء هذا الفصل، بالتجول في آسية الصغرى والبلقان وإيطالية، فكتب إلى كنائس هذه البلدان واعظًا مرشدًا، وقويت هذه الرسائل على محن الدهر ونوائبه، فوصلت إلينا في مجموعات ثلاث: القصيرة والطويلة والمختصرة، والقصيرة هي الأصلية فيما يظهر، وقد حفظت في مخطوطة يونانية قديمة تعود إلى القرن الثاني،[١١] ولا تشمل هذه المخطوطة نص الرسالة إلى الرومانيين، وأقدم النسخ التي تحفظ لنا نص هذه الرسالة تعود إلى القرن العاشر.[١٢] وقام في القرن الرابع من عُنِيَ بهذه الرسائل فحرَّفها وأضاف إليها، فجعل مجموعها ثلاث عشرة رسالة بدلًا من سبع، فجاءت تشمل علاوة عن الرسائل إلى كنائس أفسس ومغنيسية وترلة ورومية وفيلدلفية وأزمير وبوليكاربوس، رسائلَ إلى كنائس أنطاكية وطرسوس وفيليبي وهيرون ومريم الكسبولة Cassobola، ورسالة هذه إلى أغناطيوس؛ ونشر Cureton في السنة ١٨٤٥ نصًّا سريانيًّا لا يشمل سوى رسائل ثلاث إلى أهل أفسس وأهل رومة وبوليكاربوس، ولكن Lightfoot وغيره من العلماء أثبتوا أن هذا النص السرياني هو في الواقع ترجمة قديمة لما جاء في المجموعة القصيرة المشار إليها أعلاه.

[١٠] Socrates, Hist. Ecc., VI, 8.

[١١] Codex Mediceus Laurentianus, 57, 7.

[١٢] Codex Paris Graec., 1457.

وظلت هذه الرسائل مدة من الزمن موضوع جدل بين علماء الكنيسة وبين العلماء الإنجيليين، فزعم هؤلاء أنها مزورة، وقال أولئك بصحتها، ثم وُفِّقَ Lightfoot وHarnack وZahn وFunk إلى إثبات أصالتها بالدليلين الداخلي والخارجي، فسكت الإنجيليون وأصبحت هذه الرسائل من أفضل ما تبقى من آثار الآباء الأولين،[١٣] وقد نُقِلت إلى لغات متعددة في طبعات مختلفة.[١٤]

وإليك بعض ما جاء فيها: فقد قال أغناطيوس إلى أهل أفسس: «لقد انتهى إليَّ أنه مرَّ قوم من هناك تشربوا تعليمًا مفسدًا، وأنكم لم تدعوهم ينشرونه بينكم، فسددتم آذانكم لئلا تقبلوا الزرع الردي الذي يزرعون.» وقال: «لا تحبوا شيئًا آخر غير المسيح، فإني بالاتحاد معه أسير بسلاسلي التي هي درري الروحية، عسى أن أبعث بها يوم القيامة بجاه أدعيتكم.»[١٥] وقال إلى أهل مغنيسية: «لا تتخذوا من حداثة أسقفكم حجة للإفراط في الدالة عليه، بل احترموه؛ لأنه يحمل سلطة الله الآب، إني أعلم أن شيوخكم لم يستغلوا حداثته الظاهرة في الجسد، ولكنهم بحكمة الله خضعوا له أو بالحري ليس له، بل لأبي يسوع المسيح أسقف الجميع؛ وكونوا مسيحيين لا بالاسم وحسب، بل بالفعل، فإن هنالك قومًا يدعون الواحد أسقفًا ولكنهم لا يعبئون به في تصرفاتهم، ويلوح لي أن ضمير هؤلاء ليس مستقيمًا؛ لأنهم لا يؤمون الصلاة في الأوقات التي يعينها أسقفهم.»[١٦]

أغناطيوس والكنيسة الجامعة

وجاء في الفقرة الثامنة من رسالته إلى أهل أزمير: «واتبعوا جميعكم الأسقف كما تبع يسوع المسيح الله الآب، وسيروا في أثر الشيوخ سيركم في أثر الرسل، واحترموا الشمامسة كما تحترمون وصايا الله، ولا تأتوا بعمل يمتُّ إلى الكنيسة بصلةٍ منفردين عن الأسقف؛ والذبيحة الإلهية لا تصبح شرعية محللة إلا برئاسة الأسقف أو مَن يفوِّضه بها، وكونوا

---

[١٣] Lightfoot, J. B., Apostolic Fathers; Zahn, Th., Ignatius von Antiochen; Lebreton, J., péres Apostoliques, (Fliche et Martin, Hist. de l'Eglise), I, 329–331.

[١٤] Kleist, J. A., Ancient Christ. Writers, Ignatius of Antioch, 59; Quasten, J., Initiation aux péres de l'Église, I, 87–89.

[١٥] Kleist, J. A., op. cit; Ephesians, 7, 11.

[١٦] To the Magnesians, 3, 4.

حيث يكون الأسقف، فحيث يكون يسوع المسيح هناك أيضًا تكون «الكنيسة الجامعة Catholici Ecclesia.»

كنيسة أنطاكية وكنيسة رومة

ويختلف علماء الكنيسة في تفسير عبارتين وردتَا في التحية التي استهل بها أغناطيوس رسالته إلى أهل رومة، فقد جاء في هذه التحية العبارة التالية: «إلى الكنيسة التي ترأس المكان السائد في أرض الرومان.» وجاء أيضًا في هذه التحية نفسها العبارة: «إلى الكنيسة التي ترأس بالمحبة.» ويرى بعض العلماء أن هاتين العبارتين تشيران إلى رئاسة كنيسة رومة وتفوقها وتقدمها على جميع الكنائس، وأن أغناطيوس اعترف بهذه الرئاسة وذاك التفوق.[١٧] ويذهب غيرهم إلى أن أغناطيوس كرَّم رومة تكريمًا، وأنه لا يلزم القول بأكثر من هذا.[١٨]

والواقع أن هنالك غموضًا في هذين النصين أدَّى بطبيعة الحال إلى هذا الاختلاف في الرأي، فما هي «أرض الرومان» بالضبط، وما هو مقدار اتساعها؟ وإذا كانت الكنيسة تترأس في أرض الرومان، فما هو نوع هذه الرئاسة؟ هل هي رئاسة سياسية أم ثقافية أم أدبية أم روحية؟ وما هو معنى «المحبة» بالضبط؟ ولماذا خصَّ أغناطيوس هذه الكلمة بأداة التعريف في النص اليوناني؟ وحيث يشعر المؤرخ بشيء من هذا الشك في فهم النص، يكمل قراءة النص لعله يقف على إيضاحِ ما التبَس، فإن أعياه ذلك فعليه بسائر كتب المؤلف، وأنَّى لنا هذا ورسائل أغناطيوس ومعاصريه قليلة نادرة، وقد تعرضت مع مرور الزمن إلى جهل الناسخين وعبثهم بها؟ ولذا نرانا مضطرين أن نقول لا ندري؛ ومن ترك قول لا أدري أصيبت مقالته!

---

[١٧] Funk, F. X., Der Primat der Romischen Kirche nach Ignatius und Irenaeus, (Kirchengeschichtliche Abhandlungen), 1, 2–12; Chapman, Saint Ignace d’Antioche et l’Église Romaine, (Rev. Bénédictine), XIII, 385–400; Scott, H., The Eastern Churches and The Papacy, 25–34.

[١٨] Harnack, A., Das zeugnis des Ignatius uber des Ansehen der Romischen Gemeinde, (Sitzungsber. der Akademie), 111–131; Caspar, E., Gesch. des Papstums, I, 16–17.

الإمبراطور تريانوس والنصرانية

وكان نيرون قد اشترع قانونًا خصوصيًّا جعل به التدين بالدين الجديد خروجًا على القانون Non licet esse christianos،[١٩] وجاراه في ذلك كلٌّ من فيزبازيانوس وتيطس ودوميتيانوس، وليس لدينا ما يثبت إثباتًا قاطعًا تطبيق هذا القانون في الولايات خارج رومة وإيطالية،[٢٠] ولكننا نعلم أن تريانوس الإمبراطور وافَقَ منذ السنة ٩٩ على قانون نيرون وأمر بتنفيذه، وأن بلينيوس الأصغر حاكم بيثينية استوضح تريانوس في السنة ١١٢ أمْرَ القانون الذي منع التديُّنَ بالنصرانية، فسأله أن يفسِّر له نقاطًا معينة تتعلق بتفاصيل التنفيذ،[٢١] فأجابه هذا الإمبراطور أن ليس على السلطات أن تفتش عن المسيحيين Christiani conquirendi non sunt، وأن مَن يُعلن من هؤلاء أنه ليس مسيحيًّا يُعتبَر بريئًا، ومَن يُصِرُّ على مسيحيته يُدان ويُعدَم.[٢٢]

أفذوكية وشربل وبيبة

وطبق هذا القانون في السنة ١٠٠ في رومة، فاستشهد أقليمس أسقف رومة الثالث بعد بطرس، ونفذ في بعلبك فامتحنت أفذوكية البتول المؤمنة بأنواع كثيرة من العذاب، ثم حُكِم عليها بقطع الرأس فتقبلت هذا الحكم بفرح عظيم.[٢٣] وكان برصوم أسقف الرها قد نجح في الدعوة، فعمَّدَ كثيرين في منطقة الفرات الوسطى، وكان بين هؤلاء كاهن الأصنام شربل وأخته بيبة، فلما شدَّدَ تريانوس نكل لوكيانوس الحاكم بهذا الكاهن، فنشره بالمنشار وقتل أخته.[٢٤]

---

١٩ Tertullianvs, Apolog., 5; Callewaert, C., Les Premiers Chrétiens Furent-Ils Persécutés Par Edits Généraux ou par Mesures de Police? Rev. Hist. Eccl., 1901, 771–797, 1902, 5–15, 324–348, 607–615.

٢٠ Zeiller, J., Premiéres Persécutions, Fliche et Martin, Hist. de l’Église, I, 292–295.

٢١ Corr. Plin. Traj., XCVI.

٢٢ Corr. Plin. Traj., XCVII; Zeiller, J., op. cit., 295–296.

٢٣ أخبار القديسين، أول آذار.

٢٤ Le Quien, O. C. III, 955.

سمعان أسقف أوروشليم

وفي السنة ١٠٧ أثار اليهود الشغب على المسيحيين في مدن فلسطين، فوشى بعضهم بسمعان أسقف أوروشليم الثاني بعد يعقوب، وقالوا إنه مسيحي ومن سلالة داود، فأمر Claudius Atticus Herodes حاكم فلسطين آنئذٍ بتعذيب سمعان الشيخ الطاعن في السن وبصلبه.[٢٥]

أغناطيوس أمام السلطة

ولعل ظروفًا مماثلة دعَتْ إلى استجواب أغناطيوس أمام حاكم سورية المحلي، فأدت إلى استشهاده في رومة في أوائل السنة ١٠٧،[٢٦] وجاء لصاحب الـ Martyrium Colbertinum أن أغناطيوس مثل أمام الإمبراطور تريانوس نفسه، وذلك لمناسبة الحرب الفرتية وإقامة تريانوس في أنطاكية قاعدته في الشرق.[٢٧] والواقع أن هذه الحرب جاءت في السنتين ١١٥–١١٧، لا في السنة ١٠٧ كما تنص هذه الرواية المجهولة الراوي، وأن أفسابيوس والذهبي الفم لا يشيران إلى مثول أغناطيوس أمام الإمبراطور نفسه، وهنالك سبب آخر يجعلنا نشك في صحة هذه الرواية، وهو أن أغناطيوس نفسه يرجو المسيحيين في رومة ألا يسعوا لدى السلطات فيها لاستبدال الحكم بالموت بأي حكم آخر، فلو كان تريانوس نفسه قد حكم عليه بالموت، لكان حكمه مبرمًا لا يمكن تعديله في رومة.

ومما جاء في التقليد أيضًا أن هذا الحكم الروماني وجَّه إلى أغناطيوس القول: أأنت تجسر كشيطان رجيم أن تخالفني في أوامري، وتغر الآخرين على هلاك نفوسهم؟ فأجاب أغناطيوس: ما من أحد غيرك سمى ثيوفوروس حامل الإله شيطانًا رجيمًا، وعبيد الله ليسوا بأبالسة، والشياطين ترتعد منهم وتنهزم. فقال الحاكم مستدرجًا: أتظن أننا لا نحوي في قلوبنا آلهة تقاتل عنا؟ فأجاب أغناطيوس غير هياب: إنك في غرور، فآلهتك ليسوا إلا أبالسة، فلا إله إلا الله الواحد القهار خالق السموات والأرض، ولا يوجد إلا يسوع

[٢٥] Eusèbe, Hist. Ecc., III, 32.

[٢٦] Zeiller, J., op. cit., 306-307.

[٢٧] Funk, F. X., Patres Apostolici, II, 276.

المسيح وحده ابن الله الوحيد الذي أتوق إلى مملكته. فقال الحاكم: لعلك تعني يسوع الذي علقه بيلاطس على الصليب؟ فأجابه أغناطيوس: يجب أن يقال إن يسوع هذا علق الخطية وصانعها على الصليب، فأعطى الذين يحملونه في قلوبهم سلطانًا لسحق الجحيم وقوته. فقال الحاكم: أنت إذن حامل يسوع في أحشائك؟ فقال أغناطيوس: لا ريب في ذلك؛ لأنه قيل أحل بينهم وأسير معهم. فحكم الحاكم في السادس من كانون الثاني سنة ١٠٧ بتكبيل أغناطيوس، وإرساله إلى رومة ليُطرح للوحوش أمام الشعب، فهتف أغناطيوس: أشكرك يا رب؛ لأنك منحتني حبًّا كاملًا لك، وشرفتني بالقيود التي شرفت بولس بها. ثم تقدَّمَ من تلقاء نفسه إلى القيود وصلى لأجل الكنيسة، واستودعها اللهَ بدموع غزيرة، ثم أسلم نفسه للشرطة.

استشهاد حامل الإله

وانطلق أغناطيوس مصفدًا بالأغلال يخفره عشرة جنود قساة، ويرافقه كلٌّ من الشهيدين روفوس Rufus وزوسيموس Zosimus، اللذين شملهما الحكم بالإعدام، وقام الجميع من أنطاكية إلى سلوقية التي على مصب العاصي، ثم أقلعوا إلى مرفأ من مرافئ قيليقية أو بمفيلية، ومنها إلى أزمير، وقضت ظروف السفر ببقائهم في هذه المدينة مدةً من الزمن، فتعرَّفَ أغناطيوس إلى بوليكاربوس أسقف أزمير، وحرَّرَ منها عددًا من الرسائل إلى كنائس آسية الصغرى واليونان ومقدونية، وهرعت أساقفة مغنيزية وأفسس وفيلادلفية في وفود كنائسها لاستقباله والتبرُّك به والتقاط درر تعاليمه، فاغترفوا من بحر إيمانه وإرشاده؛ وقد تجلت في رسائله روحه الرسولية، فلا يتمالك قارئها من الشعور في كل فقرة منها أن روح الله يتكلَّم بلسان هذا القديس العظيم.[٢٨]

وقام حامل الإله ورفيقاه من فيليبي إلى شاطئ الأدرياتيك، ومنه أبحروا إلى بوتيولي Puteoli، ورغب أغناطيوس أن يقتفي أثر بولس، فينزل في هذه البلدة ثم يقوم منها إلى رومة، ولكن الرياح منعته فأقلَعَ إلى مرفأ رومة، ولدى وصوله إلى هذا المرفأ وجد عددًا كبيرًا من المسيحيين في انتظاره، فحيَّاهم وكرَّرَ رجاءَه ألَّا يعيقوا انتقاله للقاء سيده.

[٢٨] الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة للبطريرك أغناطيوس برصوم، ص١٦٧–١٦٩.

وانتهى هذا القديس إلى عاصمة الإمبراطورية، وحل موعد أعياد الختام Sigillariu، فتقاطر الرومانيون إلى مدرج فلافيانوس الذي عُرِفَ باسم الـ Collosseum؛ ليحتفلوا بانتصارات تريانوس في داقية، فيشاهدوا المجالدات الدموية بين ألوف المجرمين والأسرى، والمصارعة بين بعض المجرمين والوحوش الضارية، فاستشهد روفوس وزوسيموس في باحة هذا المدرج في الثامن عشر من كانون الأول، وفي العشرين عُرِّي الشيخ الوقور الحامل الإله من ثيابه وطُرِح إلى الوحوش، فمزَّقَتْ جسده الطاهر والتهمته، ولم تُبقِ من جسمه إلا العظام الخشنة، فجمعها المؤمنون بكل احترام وأرسلوها إلى أنطاكية، فدُفِنت خارج السور بالقرب من باب دفنه، وبقيت هنالك حتى أيام إيرونيموس،[٢٩] ثم تحول هيكل فورتونة في قلب أنطاكية إلى كنيسة مسيحية، فنقل ثيودوسيوس الصغير رفات القديس إلى هذه الكنيسة، وأطلق عليها اسم الشهيد البار تخليدًا لذكره.[٣٠]

ومما نُقِل عن المؤمنين في رومة، الذين شاهدوا هذه الميتة المجيدة أنهم سكبوا لأجلها العبرات، وأقاموا الليل كله بالسهر والصلاة، متوسلين إلى الرب المخلص أن يشدد ضعفهم، فظهر لهم الشهيد بهيئة مجاهد خرج من القتال ظافرًا، فامتلأت قلوبهم فرحًا، وعينوا للإخوة في أنطاكية اليومَ الذي نال فيه الحامل الإله إكليل الجهاد؛ أملًا بالاشتراك في ذكر هذا المجاهد الذي داس إبليس لتمجيد الرب يسوع؛ ولا تزال الكنيسة الأرثوذكسية تحتفل بذكرى أغناطيوس الحامل الإله في العشرين من كانون الأول، أما الكنيسة الكاثوليكية فإنها خصصت الأول من شهر شباط لهذه الغاية النبيلة، ولعل السبب في هذا هو الجمع بين يوم استشهاده ويوم نقل رفاته إلى أنطاكية.

وجاء في حوليات يوحنا ملالاس الأنطاكي أن تيبريانوس حاكم فلسطين كتب إلى تريانوس الإمبراطور ينبئه بمتابعة التنكيل بالنصارى، ثم يفيد أن هذا التنكيل لم يأتِ بالنتيجة التي توخاها، فإن النصارى ما فتئوا يهرعون إلى قاعة المحاكمة مقدمين أنفسهم للموت.[٣١]

---

[٢٩] S. Jerome, Viris Illust. P. L., XXIII, 633.

[٣٠] Evagrius, Hist. Ecc., I, 16.

[٣١] Malalas, Chronog., P. G., Vol. 47, Col. 414.

القديسة ذروسيذة

وجاء في هذه الحوليات أيضًا أن تريانوس أَعَدَّ أتونًا في أنطاكية، ودعا المسيحيين الذين أبوا إنكار دينهم إلى إلقاء أنفسهم فيه، وأنه ألقى القبض على خمس عذارى بينهن ذروسيذة، فاستنطقهن وحكم بإحراقهن، ومما جاء في هذه الحوليات أن كنيسة أنطاكية شيدت هيكلًا باسم ذروسيذة العظيمة في الشهيدات والشهداء، واحتفلت بعيد استشهادها في كل سنة.

الفصل السادس

الدفاع الأول عن العقيدة

وأَحَبَّ أغناطيوس كنيسته ووله بها، ففارقها مضطرب البال لما كان قد حلَّ بها من خلافات داخلية، وصلى لأجلها وحضَّ المؤمنين في كل مكان مرَّ به أن يصلوا لأجلها، وكتب إلى الرومانيين المؤمنين من أزمير يقول: «اذكروا في صلواتكم كنيسة سورية التي أصبح الله راعيها.» وصادف في ترِوادة الشيخين غابوس وأغاثوبوس والشماس فيلون، فنقلوا إليه أخبارًا سارة ولكنه ظل قَلِقًا، فكتب من رومة إلى بوليكاربوس أسقف أزمير يحضُّه على إرسال أحد المؤمنين الغيورين إلى أنطاكية لإصلاح حالها، ويؤكد أن مثل هذا العمل هو عمل الله، ولبَّى المؤمنون في آسية الصغرى نداءَ الحامل الإله، فأوفدوا إلى أنطاكية مَن قضى على أسباب الخلاف فيها.

هيرون وكورنيليوس وإيروتوس

وخلف أغناطيوس في رئاسة كنيسة أنطاكية هيرون Hirona، ثم كورنيليوس Kornelios، فإيروتوس Erotos،[١] وحرف «النو» في الاسم الأول واضح جلي، وحرف «التو» في الاسم الثالث ظاهر بَيِّن؛ وبالتالي فليس هنالك إيروس أول وإيروس ثانٍ كما جاء في بعض اللوائح العربية.

ولا نعلم بالضبط السنة التي تولَّى فيها كلٌّ من هؤلاء رئاسته، فإن أفسابيوس المؤرخ لا يعين هذه السنوات، وما جاء في ترجمة إيرونيموس من أن كورنيليوس تولى في

[١] Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 20.

السنة ١٢٨، وأن إيروتوس ترأَّسَ في السنة ١٤٢، لا يزال قيد البحث والتدقيق.[٢] وقد يفيد القارئ أن يعلم أن أقدم اللوائح المؤرخة لسلسلة البطاركة في أنطاكية جاءت في حوليات ثيوفانس، وأن البطريرك المسكوني نيقيفوروس الأول (٨٠٦–٨١٥) اعتمَدَ هذه اللائحة نفسها في تاريخه،[٣] وأن هنالك لائحة ثالثة في حوليات ميخائيل السوري.[٤]

ولم يَبْقَ من أخبار هيرون شيء يمكننا الرجوع إليه، ورسالته إلى أغناطيوس مزوَّرة لا يجوز قبولها والاعتماد عليها،[٥] والدليل على تزويرها داخلي، فإنها لا تتفق في شيء والعصر الذي تتحدث عنه، وقد فُقِدت أخبار كورنيليوس وإيروتوس أيضًا.

أدريانوس والمسيحيون (١١٧–١٣٨)

وقضت سياسة الإمبراطورية الرومانية بعودة تريانوس إلى رومة، وكانت الحرب بين رومة وفارس لا تزال سجالًا، فرأى تريانوس أن يعود إلى العاصمة فيسوس الدولة ويستعد للحرب، فترك قيادة جيشه في الشرق إلى نسيبه أدريانوس، وعيَّنه حاكمًا على ولاية سورية، ونهض إلى رومة في صيف السنة ١١٧، وما إن وصل إلى سيلينوس Selinus في قيليقية حتى أدركته المنية فتوفي فيها، ورأت زوجته بلوتينة أن أدريانوس ابن عمة زوجها أحقُّ من غيره في الحكم، فادَّعَتْ أن تريانوس أوصى بها خلفًا له، وكتبت إلى السناتوس بذلك، فوافق هذا المجلس وتبوَّأ أدريانوس أريكة الحكم، وساس الإمبراطورية حتى وفاته في السنة ١٣٨.[٦]

ولم يعدل أدريانوس الموقف القانوني من المسيحيين ولم يتحسس لهؤلاء، وعلى الرغم من ميله إلى كل جديد وخروجه على تقاليد رومة الدينية، ودخوله في عداد الأخويات الدينية الشرقية، فإنه ظل بعيدًا عن المسيحيين متمسِّكًا بقانون نيرون، مستعِدًّا لتطبيقه عند الحاجة، وجل ما يذكر له من التساهُل أنه حرم صخب الجماهير وضجيجهم

---

[٢] Bardy, Gustave, Eusèbe de Césarée, I–IV, 198, n. 1.

[٣] Nicephori Arch. C. P., Opuscula Historica, Leipzig, 1880, 129–132.

[٤] Chabot, J. B., Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite d'Antioche, éd. et trad., 4 vol., Paris, 1899–1924.

[٥] Baronius, Annales Ecclesiastici, 110, VII.

[٦] Dion Cass., Hist. Rom., LXVIII, 33.

عند المطالبة بالحكم على المسيحيين وإذلالهم، وتفصيل ذلك أن ليكينيوس غرانيانوس Licinius Granianus قنصل آسية كتب في السنة ١٢٤ إلى أدريانوس يتذمَّر من ضغط الجماهير الذي أدَّى إلى الحكم بالإعدام على أشخاص لم يكن لهم ذنب سوى انتمائهم إلى طائفة معينة، فحرم الإمبراطور صخب الجماهير وضجيجهم وضغطهم على الحكام، واكتفى بهذا القدر، ولم يبين ما إذا كان الانتماء إلى النصرانية يشكِّل جرمًا يُوجِب العقاب.[٧]

وقلَّ ضغط الجماهير على الحكام، ولكن شكاواهم تكرَّرت وتعدَّدت، فاتسع التدقيق والتحقيق والتعذيب، وكثر التفنُّن في أساليب الإعدام.[٨] وسكوت المراجع عن حوادث الاستشهاد في سورية في القرن الثاني لا يعني في حد ذاته أن السلطات ترفَّعَتْ عن الاضطهاد وامتنعت عن التقتيل، فقد يكون السبب في ذلك ضياع الأخبار والتواريخ.

ثورة ابن كوكب وسخطه على النصارى (١٣٢)

وزار أدريانوس الشرق مرارًا وخصَّ أنطاكية بعنايته، فجملها وتفقَّد سائر المدن، فعطف على تدمر وأطلق اسمه عليها، وأنشأ الأبنية العمومية في جرش وعمان، ورفع دمشق وصور إلى رتبة متروبوليس،[٩] ورأى أن أوروشليم كانت لا تزال خرابًا منذ أن دمَّرها طيطس، فأمر بتخطيطها تخطيطًا يونانيًّا رومانيًّا، وأطلق عليها الاسم Aelia Capitolina، وقضت سياسته الداخلية بتوحيد الإمبراطورية، وتمكين الروابط بين شعوبها المتباينة، فأوجب إنشاء هيكل لزفس على أنقاض هيكل يهوه، فلم يَرُقِ اليهودَ هذا العملُ وأعلنوها ثورة لا هوادة فيها، وأدار دفة هذه الثورة ودبرها الكاهن العالم المجتهد عَقيبة، وجعل من أحد الأشداء في القتال المسيح المنتظر، وقاد جواده بيده، واستبدل اسمه «ابن كذب» بابن كوكب Bar Cocheba، وانقضَّ اليهود على معسكر روماني في أوروشليم، فقضوا على أفراده.

---

٧ Saint Justin, First Apology, 68; Waddington, Fastes des Provinces Asiatiques, 197 ff; Allard, P., Hist. des Persécutions, I, 242.

٨ Allard, P., op, cit., I, 202–234, 266–280.

٩ Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II. 66–82.

وكان بعض النصارى قد عاد من بلة إلى أوروشليم، وكانت كنيسة الرسل لا تزال قائمة على إحدى روابي هذه المدينة، فاستغل النصارى خراب الهيكل، وقيام معبد لزفس محله، وقالوا لليهود: ألَا ترون في بقاء كنيستنا هذه سالمة وفي خراب هيكلكم أكبر دليل على عناية الباري بنا وغضبه عليكم؟ فردَّ اليهود: إن أدريانوس أراد إعادة بناء الهيكل، ولكنكم أغريتموه فأفسدتم بيننا.[١٠] وكسب اليهود الدورة الأولى فاضطهدوا النصارى في كل مكان وأذاقوهم ألوانًا من العذاب.

ولكن بوزانياس المعاصر يعلِّق على هذه الثورة فيقول: إن أدريانوس كان أبعد الناس عن اللجوء إلى العنف، وإن اليهود أكرهوه إكراهًا على ما أنزل بهم من عقاب؛[١١] ويرى الذهبي الفم أن حب العودة إلى الاستقلال تسلَّطَ على عقول اليهود في هذه الحقبة فدفعهم إلى الثورة.[١٢]

واهتم أدريانوس للأمر واستدعى يوليوس سيفيروس Severus أفضل القادة من الجزر البريطانية، وأنفذه على رأس قوة إلى فلسطين، فأخمد الثورة بقساوة وشدة، ومَن لم يسقط في ميدان القتال بِيعَ في أسواق تربينة وغزة ومصر بثمن حصان واحد.[١٣]

أكويلة والتوراة

وقضت ظروف البناء في أوروشليم أن يتولى تشييد المدينة الجديدة رجلٌ عالم قدير مدبِّر، فانتقى أدريانوس أحد أنسبائه أكويلة البنطي Aquila، وأنفذه إلى فلسطين لهذه الغاية، وفي أثناء إقامة أكويلة في فلسطين كثر احتكاكه بالمسيحيين، فأعجب بفضائلهم وبالعجائب الظاهرة على أيديهم، ثم طلب الانضواء تحت لواء السيد المخلص، فعمد باسم الآب والابن والروح القدس،[١٤] وكان لا يزال معجبًا بنفسه متمسكًا بالعلم والمعرفة، مُكثِرًا في درس التنجيم والعمل به، ولم يرضَ الآباءُ عن ذلك ورأوا فيه ضلالًا وتضليلًا، فنصحوا له وردعوه فلم يرعوِ، فوبَّخوه فغضب، فقطعوه من الشركة، فخرج على الدين

---

١٠ Graetz, Hist. des Juifs, III, 80 f.

١١ Pausanias, Periegesis, I, 5, 5.

١٢ Chrysostomos, J., Adv. Judaeos, V, II; Juster, Les Juifs dans l'Empire Romain, II, 191.

١٣ Saint Jerome, In Zachariam, II; Origen, Against Celsus, VII.

١٤ Epiphanius, De Mensuris et Ponderibus, XIV.

ودخل في اليهودية، واتصل بالكاهن اليهودي عقيبة، فتعاونًا في نقل التوراة إلى اليونانية، واقتطعًا منها كلَّ ما استشهد به المسيحيون لتدعيم عقيدتهم، ودفعًا بتوراتهم إلى الأوساط المسيحية اليونانية ليضللا من جهل العبرية والنصوص الأصلية.[١٥]

الخطر المرقيوني

وكانت الغنوسية قد أصبحت أكثر الحركات الفلسفية الدينية انتشارًا وأوسعها ميدانًا، وكانت تعاليم مدرستها السامرية قد تسرَّبت إلى مصر وعشَّشت فيها، فإن كلسوس يذكر أن هذا النوع من الغنوسية شاع في مصر، ويشير إلى بعض ما كتب فيه،[١٦] وأوريجانيوس نفسه درس هذه الفلسفة في الإسكندرية على أحد رجالها السوريين بولس الأنطاكي،[١٧] وأثر هذه الغنوسية لا يزال ملموسًا حتى يومنا هذا في بعض صفحات الأدب القبطي، وفي بعض أوراق البردي التي كشفها العلماء المنقبون؛ على أن أعظم ما جاءت به قرائح رجال هذه المدرسة مربوط بأسماء إسكندريين ثلاثة، صنفوا فيما يظهر في القرن الثاني في عصر أدريانوس الإمبراطور (١١٧–١٣٨) وبعده بقليل، وهؤلاء الثلاثة هم: فالنتينوس Valentinus، وفاسيليذس Basilides، وكربوكراتس Carpocrates، وقد فصَّل إيريناوس القديس مذهب فانتينوس من باب الرد عليه، كما تكلَّمَ عن فاسيليذس وآرائه،[١٨] وعن كربوكراتس وملائكته.[١٩] ومما نقله إيريناوس عن كربوكراتس، وعن رأيه في المسيح المخلص أنه قال إن يسوع كان ابن يوسف من صلبه، وأنه تمكَّنَ بواسطة التقمُّص وبما اختبره في «دوره» الأول وبما أوتي من مقدرة من فوق؛ أن يسيطر على حكام هذا العالم، وأن يعود إلى الله الآب، وأضاف أنه بمقدور جميع الناس أن يفعلوا ما فعله المسيح إنْ هم سلكوا سلوكه وتذرعوا بأساليبه.[٢٠]

[١٥] Origenius, Hexapla; Jerome, In Isaiam, XLIX; Batiffol, P., Aquila, Dict. de la Bible.

[١٦] Origen, Contra Celsum, V, 61, 62, VI, 24–28.

[١٧] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 2.

[١٨] Irenaeus, Adv. Haer., I, 24; Clement, Stromata, IV, 12, 81.

[١٩] Irenaeus, Adv. Haer., I, 25.

[٢٠] Duchesne, Mgr. L., Early Hist. of Christ. Church, 126; Lebreton, J., Crise Gnostique, Fliche et Martin, Hist. de l'Eglise, II, 1–41.

ولم يقتصر نشاط هذه القوة الدينية الفلسفية على سورية ومصر، ولكنه انساب نحو الشمال حتى شاطئ البحر الأسود، فقام في سينوب في هذا القرن الذي نحن بصدده ابن أسقف مسيحي يعظ ويبشر بمسيحية غنوسية، ويعمل لها بكل ما أوتي من مقدرة ونشاط؛ والإشارة هنا إلى مرقيون Marcion ابن أسقف سينوب الذي نزع إلى الدين والفلسفة بعد أن أثرى في التجارة البحرية، وقال مرقيون بغنوسية مسيحية، فغضب عليه والده وقطعه من شركة الكنيسة،[٢١] فخرج من سينوب وطاف آسية الصغرى مبشِّرًا باستحالة التوفيق بين التوراة والإنجيل، موجبًا التخيُّر بين محبة المسيح التي لا نهاية لها وصلاحه السامي، وبين عدالة إله إسرائيل القاسية، مبينًا أن إله اليهود إله الخليقة والناموس لا يمكن أن يكون هو نفسه إله الرحمة، بل دونه مرتبة، «والمخلص» في نظره كان مظهرًا من مظاهر الإله الحقيقي الصالح، وقد خلص البشر بإظهاره حقيقة الإله الصالح، الذي جاء من عنده وبالصلب. ولما لم يكن له أي صلة بإله الخليقة؛ فإنه لم يكن بشرًا ولم يُولَد ولم يَنَمْ، ولكن شُبِّه لهم في كنيس كفر ناحوم أولًا في السنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس قيصر، ثم في سائر الجليل واليهودية والسامرة.[٢٢]

وقال مرقيون بخلاص البعض لا الكل، وأوجب الزهد الشديد في المأكل والمشرب، ونهى عن الزواج، وسمح بمعمودية المتزوجين بعد موافقتهم على الافتراق.

ولم يلجأ مرقيون إلى النبوات ليؤيد صحة مذهبه، ولم يحاول أن يربط عقيدته بنصوص التوراة، ولم يعتمد سوى رسائل بولس وإنجيل لوقا، وقال بأن الرسل الأطهار لم يفهموا الإنجيل فهمًا تامًّا؛ لأنهم اعتبروا المسيح رسول الإله الخالق، فاصطفى يسوع بولس ليصحِّح التعاليم. وقال عمَّا جاء في رسائل بولس من إشارات إلى الإله الخالق أنها دُسَّت دسًّا، ومن هنا قول ترتليانوس إن مرقيون قرض الأناجيل فاستحق اللقب «جرذ البونط»، وأضاف أتباعه فيما بعدُ إلى إنجيل لوقا ورسائل بولس العشر رسالة مرقيون في التناقض بين التوراة والإنجيل Antitheses، فكان لهم كتاب مقدس خاص شاع استعماله في جميع كنائسهم.[٢٣]

---

[٢١] ولا يجوز القول إنه كان فاسدًا فاسقًا؛ لأن المراجع الأولية خالية من هذه التهمة. والإشارة هنا إلى إيريناوس وترتليانوس، اللذين لم يحبذا فلسفته ولم يرضيَا عنه.

[٢٢] Tertullien, Adv. Marc., 1, 2, 19, IV, 11, 14, 18, 21; Harnack, A., Marcion, 165; Lebreton, J., La Crise Gnostique, Fliche et Martin, op. cit., II, 31–33.

[٢٣] Lebreton, T., Crise Gnostique, op. cit., II, 30–31; Harnack, A., Marcion 41–48.

واحتدم الجدل بين مرقيون والقديس بوليكاربوس، فاعتبره هذا «أول خلق الشيطان»،[٢٤] وأمَّ مرقيون رومة حوالي السنة ١٤٠، وكتم غنوسيته ونفح كنيسة رومة بهبة جليلة، وعكف على «قرض» إنجيل لوقا ورسائل بولس، وعلى تصنيف كتابه في التوراة والإنجيل،[٢٥] ولما تمَّ له ذلك كشف عن وجهه الحقيقي ودعا إلى آرائه، فالتفَّ حوله عدد من المسيحيين، فطردته الكنيسة وأطرحت هبته، واغتنم القديس بوليكاربوس فرصةَ وجوده في رومة في السنة ١٥٤، فأنقذ من الضلال عددًا من أتباع مرقيون.[٢٦] وحُكِي أن مرقيون ندم وارتضى بما اشترطته الكنيسة عليه، ولكنه توفي قبل أن يفعل، ولا نعلم سنةَ وفاته بالضبط، ويرى العلَّامة هرنك الألماني أنها لم تقع بعد السنة ١٦٠.[٢٧]

وذاع أمر هذا القول وفشا، فانتشر في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وعلى الرغم من دفاع الآباء فإنه ظل شائعًا حتى أواخر القرن الرابع، فقد جاء في كتاب الهرطقات لأبيفانيوس المؤرخ أن مرقيون كان لا يزال متبعًا في أنطاكية ومصر وفلسطين والعربية وسورية وفارس وغيرها من البلدان.[٢٨] وجاء القرن الثالث، فسطت المانوية على هذه البدعة، وبدأت تحل محلها في الغرب أولًا، ثم في الشرق.[٢٩]

برديصان (١٥٤–٢٢٢)

واشتهر في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث غنوسي آخَر هو برديصان الرهاوي، وبرديصان Bardesenes مشتقة من بار السريانية، ومعناها ابن، ومن ديصان وهو نهر فوق مدينة الرها، وُلِدَ برديصان على هذا النهر فسُمِّي به، ثم نشأ في الرها في قصر أبجر التاسع واهتدى إلى النصرانية، فانبرى ينتصر لها، ثم زاغ عندما تقبَّلَ الغنوسية

---

[٢٤] Irenaeus, Adv. Haer., III. 3; Eusèbe, Hist. Ecc., IV. 14.

[٢٥] Harnack, A., op. cit. 144.

[٢٦] Irenaeus, Adv. Haer., III, 4.

[٢٧] Harnack, A., op. cit., 25.

[٢٨] Epiphanius, Haereses, XLII, 1; Harnack, A., 153–160.

[٢٩] Lebreton, J., Crise Gnostique, op. cit., 33–34.

على مذهب فالنتينوس،[٣٠] وانتمى إلى فرع هذه البدعة الشرقي، فزامَلَ أكسيونيكوس Axionikos واشتغل بالتنجيم، وأجاد السريانية ونظم الأناشيد، وأحسن التلحين فافتتَنَ بأناشيده شبانُ الرها وفتياتها ونقلوا أضاليله بها. وجاء في تاريخ أفسابيوس أن برديصان كتب مقالات كثيرة في الفلك والقدرة وغير ذلك، وأن بعضها نُقِل إلى اليونانية، وليس لدينا اليوم من مصنفاته هذه سوى كتابه في شرائع البلدان[٣١] الذي أملاه على تلميذه فيليبوس، ويرجِّح العلَّامة الأستاذ بيفان أن برديصان هو صاحب «أنشودة النفس»، ولكن أحدًا من زملائه العلماء لا يشاركه في هذا الرأي.[٣٢]

وحكى مار إفرام الملفان أنه قال بسبعة كائنات، ونقل مار ميخائيل الكبير وابن العبري أنه قال بثلاث طبائع كبار وأربعة كائنات صارت ٣٦٦ عالمًا وكائنًا، وأن الله لم يكلم موسى والأنبياء وإنما هو رئيس الملائكة، وأن مريم لم تلد جسدًا قابلًا الموت، لكن نفسًا نيرة اتخذت شكلًا جسديًّا، وكذَّب بالقيامة، وخلط في أمر تكوين العالم.[٣٣]

التهجُّم على الإيمان وتحقيره

وظهر خبر النصرانية في أوائل القرن الثاني، وشاع وانتشر فسار على أفواه الوثنيين وملأ أسماعهم، ولكنه التبس عليهم وأشكل، فتخيلوا في النصرانية أشياء وأشياء، فقالت العامة إن النصارى يعبدون إلهًا رأسه رأس حمار؛ ومن هنا صورة تلة البلاتيوم في رومة التي تعود إلى القرن الثاني، وتمثِّل شخصًا مصلوبًا له رأس حمار وفي أسفلها العبارة: أعبد ربك يا أليكسامينوس Alexamenos![٣٤] وقال آخرون من هذه الطبقة إن النصارى يجتمعون مرة في الأسبوع حول مائدة واحدة للسكر والأكل والخلاعة، وإن طقوسهم الدينية تستوجب السحر وسفك الدماء، وقالت الطبقة المتنورة إنهم فقراء مساكين لا

---

[٣٠] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس أفرام، ص٢٤٨.

[٣١] Nau, F., Le Livre des Lois du Pays, (Paris), 1899.

[٣٢] Bevan, A. A., The Hymn of the Soul, Cambridge, 1897; Haase, F., Zur Bardesanischen Gnosis; Baumstark, A., Gesch. der Syrischen Litt. (Bonn) 1922, 12–14.

[٣٣] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس أفرام، ص٢٤٩.

[٣٤] Leclercq, H., “Alexamenos”, Dict. Arch. Chrét.

يفقهون ما يقولون،[٣٥] وشارَكَ الفلاسفة والفصحاء أمثال هيرودوس أتيكوس وكلوديوس سفيروس العامةَ في قلة الاحترام والتحقير؛ وهذا كلسيوس Celsius الذي نقل أخباره أوريجانس، فإنه رأى في الدين الجديد دينًا بربريًّا أعده أناس غير مثقفين يستخفون بالشرائع، ويزدرون العادات والتقاليد، ويهينون ثقافة الأوساط التي يعيشون فيها.[٣٦]

دفاع النصارى

واقتدى الشهداء الأولون بالسيد المخلص، فدافعوا عن الإيمان دفاعه أمام بيلاطس، ودفاع أسطفانونس أمام المجلس، وبولس أمام فيستوس، ولكن ظروف الاستشهاد لم تسمح بأكثر من دقائق معدودة، فهبَّ المسيحيون المتنورون يصنفون الرسائل للدفاع عن الإيمان، وهؤلاء هم الآباء الأبولوغيون. والأبولوغية Apologia كلمة يونانية معناها الدفاع عن قول أو فعل.

وأقدم المدافعين المسيحيين الذين وصلت أخبارهم إلينا القديس كوادراتوس Quadratus، الذي وجَّه دفاعًا عن الدين القويم إلى الإمبراطور أدريانوس فقال: «إن أعمال مخلصنا باقية، فالأموات الذين أقامهم والمرضى الذين شفاهم استمروا في الحياة إلى ما بعد انتقاله، وبعضهم ظلَّ حيًّا حتى عصرنا.»[٣٧] ووجَّهَ القديس أريستيذس Aristides الفيلسوف الأثيني دفاعًا آخَر إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨–١٦١) بين السنة ١٣٨ والسنة ١٤٧.[٣٨]

أريستون البلَّاوي

وبلة Pella هي فحل وادي الحمة، وأريستون هو أحد المسيحيين المتهودين، الذين نشئوا في بلة هذه بعد خراب أوروشليم على يد طيطس في السنة ٧٠، وهو أول مَن دافَعَ عن

[٣٥] Marc-Auréle, Pensées, XI, 3.

[٣٦] Labriolle, P., La Réaction Paienne, 117-118.

[٣٧] Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 3.

[٣٨] Lebreton, J., Apologétique Chrét., Fliche et Martin, Hist. de l’Église, I, 424, n. 2.

الإيمان في الشرق، فصنف حوالي السنة ١٣٧ حوارًا بين ياسون المسيحي وبابيسكوس اليهودي، فيما إذا كان السيد المخلص هو المسيح المنتظر، واستعان بالتوراة فأبان كيف تمَّتِ النبوات في شخص يسوع.[٣٩]

يوستينوس الشهيد (١٠٥–١٦٥)

ووُلِدَ في نابلس في مستهل القرن الثاني من أبوين وثنيين يونانيين، يوستينوس الفيلسوف القديس الشهيد، فنشأ نشأة وثنية، وطلب الحقيقة عند الرواقيين فالأكاديميين فالفيثاغوريين فلم يرتوِ، ثم استوقفته الأفلاطونية مدةً من الزمن، فلم يجد فيها مطلبه، وظلَّ يتوق لمعرفة الخير الأعظم والحق الأسمى، فصادف عند شاطئ البحر رجلًا شيخًا كلَّمه فيما كان يبحث عنه، وأرشده إلى الأسفار المقدسة، وأكَّدَ له أنه لا يمكنه الوصول إلى ما تمنى «إلا إذا وهبه الله ومسيحه النور السماوي»، ثم غاب عنه واختفى، فثابر يوستينوس على قراءة النبوات والإنجيل، ووجد ضالته فيها، وتقبل النعمة بالمعمودية في الثلاثين من عمره، وشاهد المؤمنين يحتقرون الزمنيات ويتقبلون الموت بلا خوف أو جزع؛ فزاده ذلك إيمانًا، وجعل يبتعد عن العالم، فقبل الكهنوت وانطلق يرشد ويعلم،[٤٠] ونفخ في الفلسفة اليونانية روحًا مسيحية فكان أول الفلاسفة المسيحيين،[٤١] وقال بوجوب مشاركة الغير فيما وجد لنفسه، واعتبر امتناعه عن ذلك خطيئة توجب العقاب، فجال في الأرض يبشر بالإنجيل لخلاص النفوس،[٤٢] وما فتئ يجول ويطوف حتى وصل إلى رومة، فاستقر فيها معلمًا.

وأدى إخلاصه وورعه إلى الدفاع عن الدين القويم فصنَّفَ كثيرًا، ولم يَبْقَ من مصنفاته سوى الأبولوغيتين الأولى والثانية والذيالوغوس، والأبولوغية الأولى موجَّهة إلى

---

٣٩ Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 6; Origéne, Contra Celsum, IV, 52; Harnack, A., Gesch. der Altchrist. Litteratur, I, 92; Pratten, B. P., Aristo of Pella, Ante-Nicene Fathers, VIII, 749-750.

٤٠ اطلب أبولوغيته الثانية، الفصل الثاني عشر.

٤١ الذيالوغوس، الفصل الثامن.

٤٢ الذيالوغوس، الفصل الثاني والثمانون.

الإمبراطور أنطونينوس بيوس ما بين السنة ١٤٨ والسنة ١٦١،[٤٣] أما الثانية فإنها وُجِّهت إلى مجلس الشيوخ الروماني، وأهم ما جاء في الأولى رجاء القديس الفيلسوف أن يشمل الإمبراطور المسيحيين بعطفه، فينظر هو في قضاياهم الماثلة أمام المحاكم، وأردف القديس هذا الرجاء بانتقاد موقف السلطات الرسمي من المسيحيين، فأبان أن اللفظ «مسيحي» كاللفظ «فيلسوف» لا يشكِّل في حد ذاته جرمًا أو براءة، ثم يخلص إلى القول بأن امتناع المسيحيين عن احترام الآلهة والتعبد لها إنما هو ناشئ عن خوفهم من غضب الله في يوم الدينونة، وأنهم بابتعادهم عن الشر يصبحون أفضل العناصر لتدعيم الحكم وتأييده، وينتقل بعد هذا إلى وصف عقيدة المسيحيين والطقوس التي يمارسونها والأسباب التاريخية التي تدفعهم إلى ذلك، فالنبوءات في نظره تثبت أن يسوع ابن الله، والمسيح المخلص أسَّسَ الدين المسيحي ليغير البشرية، ويردها إلى ما كانت عليه في الأصل، والشياطين قلدت النبوءات فأنشأت أسرار الديانات الوثنية وطقوسها، وأفلاطون نفسه أخذ عن التوراة؛ ومن هنا هذه الأفكار المسيحية في فلسفته.

ويستهل القديس الشهيد دفاعه الثاني بالإشارة إلى الحكم بالإعدام، الذي أصدره أوربيكوس Urbicus برايفكتوس رومة على ثلاثة من المسيحيين لمجرد اعترافهم بأنهم مسيحيون، ثم يحكِّم الرأي الروماني العام في مثل هذه القضية، ويحتج على قساوة الأحكام الصادرة، ويدحض عددًا من التهمات التي كانت تُلصق بالنصارى، ويرد على بعض المستهزئين، فيقول للذين استغربوا إحجام النصارى عن الانتحار، على الرغم من أن هذا الانتحار يعجِّل لقاءهم بربهم: إن النصارى لا يعاكسون إرادة الله، ولكنهم لا يحجمون عن الاعتراف بنصرانيتهم أمام القضاة؛ لأنهم أصحاب ضمير يعتبرون الكذب نفاقًا وزندقة.[٤٤] ويخلص إلى القول بأن الاضطهاد يهيئ للمسيحيين ظرفًا يُظهِرون فيه تفوُّقَ دينهم على الأديان الوثنية.

والذيالوغوس الذي أعَدَّه يوستينوس يتضمَّن جدلًا دار في أفسس زهاء يومين كاملين مع تريفون اليهودي،[٤٥] ويبدأ القديس هذا الذيالوغوس بسرد ما جرى له في سعيه وراء الحقيقة وفي كيفية دخوله في النصرانية، ثم يبين في الفصول ٩–٤٧ موقف النصارى من

[٤٣] اطلب الفصل السادس والأربعين، فقد ورد فيه أن المسيح وُلِد منذ مائة وخمسين سنة.

[٤٤] الأبولوغية الثانية، الفصل الرابع.

[٤٥] Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 18.

التوراة، فيؤكد أن ناموس موسى كان وقتيًّا، وأن الناموس المسيحي هو ناموس البشرية بأسرها على مدى الأجيال، وينتقل بعدئذٍ إلى المسيح الإله، فيكرِّس الفصول ٤٨–١٠٨ إلى تدعيم ألوهية السيد المخلص، ثم يعتبر المؤمنين به الحافظين وصاياه شعبَ الله الخاص (١٠٩–١٤٢). والذيالوغوس في الشكل الذي نعرفه عبارة عن تدوين ملخص ما جرى في أفسس، لا تدوين أسئلة وأجوبة بالتسلسل الذي جاءت فيه أثناء المناقشة.[٤٦]

ويرى الآباء المجتهدون أن يوستينوس الشهيد الفيلسوف كان أول مَن كشف الأسرار المقدسة للوثنيين واليهود، فقد جاء في الفصل الحادي والستين من أبولوغيته الأولى أنه يجب على مَن رام الدخول في النصرانية أن يصوم ويصلي، ويلتمس الغفران عن مآثمه السابقة، وبعد ذلك يُقَادُ إلى المكان المهيَّأ فيه الماء، فيُعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس، ثم يُؤخَذ إلى حيث يكون الإخوة مجتمعين، فيصلِّ من أجله ومن أجل جميع المؤمنين؛ وبعد قبلة المحبة يقدِّم الخبز والخمر والماء إلى المترأس، فيشكر هذا الآب مبدع الكون باسم الابن والروح القدس، ويشترك المؤمنون بهذا الشكر بلفظة آمين؛ الكلمة العبرية التي تعني «فَلْيكن»، وبعد أن يكمل المترأس الصلوات والتسابيح يأخذ الشمامسة الخبز والخمر ويوزعونهما على الحاضرين، ثم يأخذونهما للغائبين أيضًا؛[٤٧] ويؤكد القديس أن هذا القوت يُدعَى عند المسيحيين أفخارستية، فلا يتناوله إلا مَن قال قولهم واغتسل من آثامه، وطبَّقَ تعاليم السيد المخلص، وأن الخبز ليس خبزًا عموميًّا، وأن الخمر ليس مشروبًا اعتياديًّا، بل هما جسد الكلمة المتجسد ودمه.[٤٨]

وتطاول كريشنتة Crescens الفيلسوف الكيني على المسيحيين، فقال إنهم كفرة مجدفون يخدعون الجماهير ليربحوا تأييدهم، فانبرى يوستينوس للدفاع، وحج هذا الفيلسوف الوثني وقرَّعه، فضمر كريشنتة السوء، ووشى بيوستينوس وبستةٍ آخرين، فاستجوبهم روستيكوس Rusticus برايفيكتوس رومة في السنة ١٦٥، وأمر بضربهم

---

٤٦ وللقديس الشهيد مصنفات أخرى وردت إشاراتٌ إليها في كتب الآباء، ولكن نصوصها ضائعة. Bardy, G., Saint Justin, Dict. Théol. Chrét.

٤٧ الأبولوغية الأولى، الفصلان الخامس والستون والسادس والستون.

٤٨ Perler, O., Logos und Eucharistie nach Justinus, Divus Thomas, 1940, 296–316; Dugmore, C. W., Sacrement and Sacrifice in the Early Fathers, Journ. Ecc. Hist., 1951, 24–37.

بالعصي، ثم بقطع رءوسهم، وحفظ المسيحيون المعاصرون نصَّ هذه المحاكمة وأورثوها الخلف الصالح،[٤٩] وإليك بعضها:

روستيكوس: أيَّ علم تدرس؟

يوستينوس: لقد درست جميع العلوم الواحد بعد الآخر، وقد انتقيت لنفسي تعاليم المسيح.

روستيكوس: وما هي هذه التعاليم؟

يوستينوس: أن يؤمن بإله واحد خالق كل شيء، وأن يُعترف بيسوع المسيح ابن الله ديَّان البشر، ولا يمكنني أنا الضعيف أن أتكلم عن ألوهيته كما يجب؛ فإن هذا الكلام هو عمل الأنبياء الذين تنبئوا عنه منذ قرون بوحي من فوق.

روستيكوس: أين يجتمع المسيحيون؟

يوستينوس: حيثما يمكنهم ذلك؛ لأن إله المسيحيين يُعبَد في كل مكان.

روستيكوس: هل أنت مسيحي؟

يوستينوس: أنا مسيحي.

روستيكوس: يقول الناس إنك فيلسوف فصيح، فإذا ضربتك بالعصي، ثم قطعت رأسك، أتعتقد أنك تصعد إلى السماء؟

يوستينوس: إني واثق إلى حدٍّ لا يعتريني شكٌّ بعدَه.

روستيكوس: تعبَّد للآلهة.

يوستينوس: العاقل لا يشتري الضلالة بالهدى!

وأعدم القديس الفيلسوف في عهد الإمبراطور مرقس أوريليوس، وسرق المسيحيون جسده وأجساد رفاقه ووضعوها جميعها في مكان لائق بها، ولا نزال نحيي ذِكْر هؤلاء في القداس الإلهي في أول حزيران من كل عام.[٥٠]

---

[٤٩] Martyrum S. Justini et Sociorum.

[٥٠] Lebreton, J., Apolog. Chrét. Ile Siécle, Fliche et Martin, Hist. de l'Église, I, 427–451; Bardy, G., La Conversion dans les Premiers Siécles. Année Théol., 1941, 89–106, 206–232; Martindale, C. C., St. Justin the Martyr; Lagrange, M. J., Saint Justin.

تاتيانوس السوري (١١٠–١٨٠)

وُلِدَ تاتيانوس Tatianus في الجزيرة السفلى في حديابين، من أبوين وثنيين فتربَّى في الوثنية، ثم طلب الحكمة، فرحل وتجول وأقام في بلاد اليونان مدةً من الزمن وانتهى في رومة، وعاشر اليونانيين والرومانيين ومارس طقوسهم، فلم يجد في أديانهم إلا ضلالًا وفسادًا؛ فهو يقول: لقد رأيتُ هذه الأشياء، واشتركتُ في ممارسة الأسرار، وتفحَّصت جميع الطقوس التي أنشأها المخنثون والخناثى، فوجدت جوبيتر الروماني يستلذ الدم البشري والذبائح البشرية، وكذلك أرتميس فإنها أجازت مثل هذا، ووجدت شياطين آخرين يقذفون انفجارات من الشر؛ وعندئذٍ عدتُ إلى نفسي أبحث عن السبل التي تقودني إلى الحقيقة، فوقعت يدي على مصنفات برابرة أقدم من آراء اليونانيين وأقرب من ضلالاتهم إلى الحق الإلهي، فراقت لي سذاجتها، وتجلَّى لي صِدْقها وحسن عندي تعليمها بوحدانية الله، وثبت لدي أن الطقوس الوثنية تقود إلى الدينونة والعقاب، وأن هذه الأسفار تخرج من العبودية، وتخلَّص من ربقة الطغاة وجمهور المعلمين.[٥١]

ويرى العلماء الباحثون أن تاتيانوس تنصَّر في رومة، ولزم يوستينوس الفيلسوف وأخذ عنه وانتصر للنصرانية ودافع عنها، ولكنه خالف أستاذه في موقفه من الفلسفة اليونانية، فيوستينوس وجد شيئًا من الحقيقة فيما صنفه رجال الفكر اليوناني واحترم فلسفتهم، أما تاتيانوس فإنه انثنى على اليونانيين بالملام الشديد، فانهال على فلسفتهم وعلومهم وفنونهم ولغتهم، وعذلها عذلًا.[٥٢]

وأنشأ تاتيانوس بعد استشهاد معلمه مدرسة في رومة علَّم فيها الدين وشرح الأسفار، والتفَّ حوله عدد من الطلبة بينهم رودون Rhodon.[٥٣]

وصنف تاتيانوس لمناسبة الأستذة خطابًا Discursus في أربعة أجزاء؛ خص الأول منها بالكوسمولوغية Cosmologia، فأبان موقف المسيحيين من الإله الخالق وعلاقة الكلمة بالآب، وكيفية خلق العالَم والإنسان والملائكة، وبحث في الجزء الثاني من هذا الخطاب في الشياطين والشيطنة، وشدَّدَ في الثالث النكير على الحضارة اليونانية، فأظهر

---

[٥١] Orat., 29.

[٥٢] Quasten, J., Initiation, I, 249–250.

[٥٣] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 13.

محالية الفلسفة اليونانية وسمو التجسُّد النصراني، ورذائل المسرح اليوناني، والتناقض بين الفلسفة اليونانية والشرع اليوناني، وتفوق الدين المسيحي، وأبان في الجزء الرابع من هذا الخطاب قدم عهد الآداب المسيحية.

وساقه الغرور إلى الانحراف عن الصراط المستقيم، وأخذ عن الغنوسيين وغيرهم من هراطقة القرن الثاني،[٥٤] فانكفأ إلى وطنه حوالي السنة ١٧٢، وأقام مدة في أنطاكية فقيليقية فالرها، وجمع في الرها الأناجيل الأربعة في كتاب واحد أسماه «من خلال الأربعة» Diatessaron، وكتبه باليونانية أولًا، ثم بالسريانية، فتُلِي في كنائس الرها وإقليم الفرات زمانًا مديدًا حتى أبطله رابولا أسقف الرها في القرن الخامس، واستبدله بالأناجيل الأربعة المفضلة.[٥٥] وقد عثر المنقبون في دوره في السنة ١٩٣٤ على جزء من الدياتيسرون باليونانية، يعود فيما يظهر إلى ما قبل السنة ٢٥٤،[٥٦] ونُقِل الدياتيسرون إلى الأرمنية في القرن السادس، وإلى العربية في القرن الحادي عشر، وذلك على يد الراهب أبي الفرج ابن الطيب ودُعِي «الرباعي».

ويرجح العلماء المدققون أن تاتيانوس هو مؤسس مذهب الإنكراتيت Encratites، وهؤلاء قوم «من غلاة الأعفة نسجوا على بعض منوال المرقيونية، واستهواهم الإفراط في الزهد، فحرَّموا أكل اللحم وكل ذي نفس والخمر والزواج»، واستعاضوا عن الخمر بالماء في سر الأفخارستية، فسموا «الأكواريون» أيضًا Aquariens، ولا نعلم شيئًا عن وفاته.[٥٧]

ثيوفيلوس الأنطاكي (١٦٩–١٨٥)

وهبَّ للدفاع عن الإيمان المقدس بعد أرستون ويوستينوس وتاتيانوس ثيوفيلوس أسقف أنطاكية، ولا يخفى ما لدفاع هذا الأسقف من الأهمية؛ لأنه صدر عن رئيس مسئول، ولأنه

---

[٥٤] Irenaeus, Adv. Haer., I, 28; Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 29.

[٥٥] الدرر النفيسة للبطريرك أغناطيوس أفرام، ص٢٤٦.
Lebreton, J., Apolog. Chrét. Fliche et Martin, op. cit., I, 454.

[٥٦] Burkitt, F. C., Dura Frag. of Tatian, Journ. Theol. Studies, 1935, 255–259; Plooij, D., Text of the Diatessaron, Introd. by J. R. Harris, 1923; Harris j. R., Muhammed and the Diatessaron, Expos. Times, 1923, 377 ff.

[٥٧] Lebreton, J., Tatien, Fliche et Martin, Hist. de l'Église, I, 451–454; Puech, A., Recherches sur le Discours aux Grecs de Tatien.

قُوبِل بارتياح تام في الأوساط المسيحية القديمة، فظلَّ مرجعًا هامًّا لَمن عني بالعقيدة طوال قرون ثلاثة متتالية.

وعلى الرغم من تقدير لكتانيتوس (٢٥٠–٣٢٥)[٥٨] لهذا الأسقف المجاهد واهتمام أفسابيوس المؤرخ (٢٦٥–٣٣٩) لمؤلفاته ومصنفاته،[٥٩] وتذرع إيرونيموس (٣٣١–٤٢٠) بأقواله،[٦٠] فإن أحدًا منهم لم يحفظ لنا شيئًا من أخباره، وجلُّ ما دوَّنه أفسابيوس أن ثيوفيلوس كان الأسقف السادس بعد بطرس، وأنه جاهَدَ ضد الهراطقة، وكتب في مواضيع معينة.

ولذا ترانا مضطرين أن نعود إلى ما تبقى من مصنفات ثيوفيلوس لالتقاط ما أشار إليه هذا الأسقف عن نفسه في عرض كلامه، ويستدل من رسالته الثانية إلى أوتوليكوس أنه نشأ في بيئة هلينية يونانية بالقرب من الفرات، وأنه اهتمَّ للغة العبرية،[٦١] ويجوز القول إنه كان واسع الاطِّلاع يعرف شعر هوميروس وإسيوذ وبعض مناقشات أفلاطون، وأنه أَحَبَّ التاريخ واستعان به كثيرًا، ولا نراه كثير الاهتمام بالعلوم الزمنية والفلسفية؛ فهو يسخر ممَّن بحث في شكل الأرض، ويقول إن العقل البشري لا يمكنه أن يعلم ما إذا كانت الأرض كرويةَ الشكل أو مكعبة؛[٦٢] ولا يجوز القول إنه كان لاهوتيًّا قديرًا، فإن ما قاله عن خلق السموات والأرض ينمُّ عن شيء من السذاجة والسخف،[٦٣] ولكن لا يختلف اثنان فيما نعلم في مقدرة ثيوفيلوس في الكتابة والتصنيف، فإنه كان أديبًا واسع الخيال، رشيق اللفظ، فخم الكلام.[٦٤]

وقد غالى بعض العلماء في النقد، فقالوا بثيوفيلوسين أحدهما أسقف أنطاكية والآخر صاحب الرسائل التي أشرنا إليها، واستدلوا على ذلك بالإشارة الواردة إلى وفاة مرقس أوريليوس في الرسالة الثالثة، فقالوا إن تاريخ هذه الوفاة أمر تاريخي ثابت يجب الابتداء

---

[٥٨] Lactance, Div. Inst., I, 23.

[٥٩] Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 24.

[٦٠] Jerome, Viris Inlustribus, XXV.

[٦١] Theophile, Ad. Autol., II, 24, III, 18.

[٦٢] Theophile, Ad. Autol. II, 32.

[٦٣] Theophile, Ad. Autol., II, 13.

[٦٤] Tixeront, J., Précis de Patrologie, 58–59.

به والبنيان عليه؛ فمرقس هذا توفي في السابع عشر من آذار سنة ١٨٠، وثيوفيلوس الأسقف توفي بموجب رواية أفسابيوس في السنة ١٧٨، فلا يجوز والحالة هذه أن يقال إنه هو صاحب هذه الرسائل، وآثروا القول بثيوفيلوس آخر عاش بعد الأسقف الأنطاكي.[٦٥] وقد فات هؤلاء أن أفسابيوس الذي يستمسكون بروايته يقول بصراحة إن واضع هذه الرسائل هو ثيوفيلوس أسقف أنطاكية، ويرى العلامة الأب بردي أن أفسابيوس أخطأ في تاريخ وفاة ثيوفيلوس الأسقف، وأنه أقرب إلى الحقيقة أن يكون هذا الأسقف قد توفي في السنة ١٨٥ لا ١٧٨.[٦٦]

وليس لدينا من مصنفات هذا الأسقف الباسل سوى رسائله الثلاث إلى أوتوليكوس، ولا نعلم مَن هو أوتوليكوس، فقد يكون شخصًا حقيقيًّا ألَّف ليسخر من الدين المسيحي، وقد يكون شخصًا وهميًّا جعل منه الأسقف هدفًا للنصح والإرشاد.[٦٧]

وقد جاء في رسالة ثيوفيلوس الأولى إلى أوتوليكوس أن أوتوليكوس هذا كان أحد أصدقائه الوثنيين، الذين مجدوا آلهتهم وأنبوا ثيوفيلوس لاعتناقه العقيدة النصرانية، وهزءوا من إلهه غير المنظور ومن قيامة الموتى، قائلين إنهم لم يروا ميتًا عاد إلى الحياة، فيجيبهم ثيوفيلوس: إن الله روح لا يراه إلا المؤمن، ولا يجده إلا نقي القلب ولا يوصف لأنه يفوق البصيرة، وإذا كنا لا نُبصره فإننا نلمس وجوده بمظاهر عنايته وتدبيره.[٦٨] ثم ينتقل هذا الأسقف الباسل إلى قيامة الموتى فيتذرع بالإيمان فيقول: أليس من الضروري أن نثق بالطبيب الذي يعالجنا، والمعلم الذي يعلمنا، والربان الذي يقود سفينتنا؟ فأحرى بنا أن نؤمن بما يقوله الله لنا، الإله الحق لا آلهة الوثنيين المزورة.[٦٩]

ويستهل ثيوفيلوس رسالته الثانية بخلاصة ما جاء في الأولى، ثم يحاول أن يرد أوتوليكوس عن الآلهة، فيتساءل عن ماهيتها وقيمتها وسبب توقُّفها عن التناسُل بعد خصبها الأول، ويهزأ من الفلاسفة فيرى باعترافهم بوجود هذه الآلهة ضربًا من الجهل

[٦٥] Erbes, C., Die Lebenszeit des Hippolytus nebst der des Theophilus von Antiochien, Jahrbuch Prot. Theol., 1888, 611–656; Dodwell, Dissertationes in Irenaeum, 44, 171.

[٦٦] Bardy, G., Théophile d’Antioche, 14–15.

[٦٧] Bardy, G., op. cit., 19.

[٦٨] Théophile, Ad. Autol., I, 2–6.

[٦٩] Théophile, Ad. Autol., I, 8–9.

والبلاوة، وفي اختلافهم في الرأي حولها دليلًا على قلة وزن ما يقولون.[٧٠] وينتقل بعد هذا إلى النبوات المقدسة التي أوحى الله بها إلى أنبيائه، فيبين صدقها باكتمالها فيما بعدُ، ثم يعرض عندئذٍ قصة الخليقة كما جاءت في سفر التكوين،[٧١] ويجيء بعد هذا كلامٌ عن السيبولات المتنبئات اليونانيات، يظهر ثيوفيلوس فيه بعض الاتفاق بين ما قلنه وبين ما جاء على ألسنة الأنبياء.[٧٢]

ويثير أوتوليكوس حداثة عهد النصرانية والنبوات التي تستند إليها، فيكرِّس ثيوفيلوس قسمًا هامًّا من رسالته الثالثة إلى هذا الموضوع، وبعد أن يبين ضآلة الأساطير اليونانية التي تبحث في كيفية نشوء العالم، يؤكد أن الأنبياء وحدهم يستحقون الثقة فيما يقولون عن هذه المواضيع البعيدة الأجل؛ لأنهم تكلموا فيها بوحي من الله. ويخلص بعد هذا كله إلى القول بأن موسى والأنبياء أقدم بكثير من مشترعي اليونان وشعرائهم.[٧٣]

وقد ضاعت مؤلفات ثيوفيلوس الأخرى، وأهمها كتابه في تكوين العالم الذي أشار إليه في الرسالة الثانية إلى أوتوليكوس،[٧٤] ورده على كلٍّ من هيرموجانوس ومرقيانوس اللذين ذكرهما أفسابيوس في تاريخ الكنيسة،[٧٥] وقد يكون رد ترتيليانوس على هيرموجانوس مستوحًى من كتاب ثيوفيلوس،[٧٦] ويرى بعض العلماء أن كلًّا من أدمنتيوس وإيرينايوس اعتمدا ردَّ ثيوفيلوس على مرقيانوس في مصنفَيْهما الشهيرين.[٧٧] ويفيد أفسابيوس أن ثيوفيلوس صنَّفَ في التعليم المسيحي، ويذكر إيرونيموس أن ثيوفيلوس كتب في تفسير الإنجيل وفي شرح أمثال سليمان.[٧٨]

ويرى رجال اللاهوت أن ثيوفيلوس الأنطاكي تشرد في الإيمان، فلم يرَ موجبًا لإقامة الدليل على العقائد، ولكنه لم يحرِّم اللجوءَ إلى العقل والفلسفة، فهو يقول إن مجرد

---

[٧٠] Théophile, Ad. Autol., II, 2–8.

[٧١] Théophile, Ad. Autol., II, 11–23.

[٧٢] Théophile, Ad. Autol., II, 37–38.

[٧٣] Théophile, Ad. Autol., III, 16–18, 20–23.

[٧٤] Bardy, G., op. cit., 15-16; Puech, A., Hist. Lit. Grec. Chrét, II, 212.

[٧٥] Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 24.

[٧٦] Bardy, G., op. cit., 16.

[٧٧] Zahn, Gesch. Neutestamentlichen Kanons, II, 2, 420; Loofs, Theophilus von Antiochien, (Texte und Untersuchengen, XLVI, 2).

[٧٨] Jerome, Viris Inlust, XXV.

الالتفات إلى الكون والوقوف على نظامه يكفيان للاعتراف بخالق حكيم قدير،[٧٩] بَيْدَ أنه لا يشعر بحاجة إلى هذا النوع من الدليل؛ لأن البرهان الحقيقي في مثل هذه الأمور هو قول الأنبياء.

ويقول ثيوفيلوس بإله واحد خالق السموات والأرض، لا بداية له ولا نهاية، حي قيوم لا يتغير، وهو آب؛ لأنه سبق كل شيء وخلق كل شيء، وكان الكلمة عند الله، وكان كائنًا فيه Logos Endiathetos، ففاه الله الكلمة قبل كل شيء Logos Proforichos وصنع به كل شيء،[٨٠] وأنطق الأنبياء بالروح القدس فكانوا قديسين عادلين، وبحكمته تكلَّموا عن خلق العالَم وعن كل شيء.[٨١] ويعزو المؤرخون المجتهدون هذا التفريق بين الكلمة الكامنة — إذا جاز هذا التعبير بالعربية — والكلمة الناطقة؛ إلى أثر الفلسفة الرواقية.[٨٢]

ولا يجوز القول إن ثيوفيلوس هو «أول مَن جاهَرَ بالثالوث الأقدس»؛[٨٣] لأن المكاشفة بالثالوث جاءت في الأناجيل الطاهرة والرسائل المقدسة، وجل ما يجوز قوله هو أن اللفظ اليوناني Trias يَرِد لأول مرة في الأدب المسيحي القديم (كما نعرفه اليوم) في رسائل ثيوفيلوس إلى أوتوليكوس، ويجوز القول أيضًا إن هذا اللفظ اليوناني ليس من نحت ثيوفيلوس؛ لأن ثيوفيلوس لا يشعر عند استعمال هذا اللفظ أنه أتى بشيء جديد، فهو لا يقف عنده ولا يلفت النظر إليه، بل يستعمله كلفظ معروف شائع مفهوم؛ ولا يستغرب والحالة هذه أن يكون غيره قد استعمل هذا اللفظ من قبله، وأن تكون الألسن قد تداولته حتى أصبح معروفًا لا حاجة إلى تفسيره والتعليق عليه.[٨٤]

ويرى العلامة الأب باردي أن سكوت ثيوفيلوس عند التجسد الإلهي في رسائله الثلاث هذه، إنما نشأ عن اهتمامه في الرد على قضايا معينة أثارها الوثنيون المعاصرون، فهو لم يهدف إلى وضع مصنف كامل شامل في العقيدة المسيحية، وإنما قصد أن يردَّ تُهَمًا معينة ويهدي من الضلال.[٨٥]

---

[٧٩] Théophile, Ad. Autol., I, 6.

[٨٠] Théophile, Ad. Autol., II, 10.

[٨١] Théophile, Ad. Autol., II, 9.

[٨٢] Puech, A., Apologistes Grecs, 223–225.

[٨٣] الكنيسة السريانية الأنطاكية للمطران سويريوس يعقوب، ج١، ص١١٣ (بيروت ١٩٥٣).

[٨٤] Bardy, G., Théophile d’Antioche, 40.

[٨٥] Bardy, G., op. cit., 45–46.

هيغيسيبوس الباحث (١١٠–١٨٠)

واشتهر في النصف الثاني من القرن الثاني هيغيسيبوس الباحث Hegesippos، وُلِدَ يهوديًّا متهلنًا في فلسطين وتنصر حوالي السنة ١٥٠، وهاله انتشار الغنوسية فرحل في طلب الإيمان الصحيح، وزار كورنثوس في عهد أسقفها بريموس، ثم انتقل إلى رومة فوصلها في عهد أسقفها أنيكسيتوس Enixitos الحمصي (١٥٥-١٥٦)، وبقي فيها حتى أسقفية إلفثيريس Eleutheros (١٧٤–١٨٩)؛ ولما كان رائده التثبُّت من صحة العقيدة والتعليم، فإنه نظر في تسلسل البركة الرسولية في كل كنيسة زارها، ودوَّنَ هذا التسلسل منذ أيام الرسل المؤرخين حتى عهده، واطمأنت نفسه إلى أرثوذكسية العقيدة والتعليم، فعاد إلى الشرق وصنَّفَ كتابًا باليونانية دعاه «الذكريات»، وكرَّس معظمه لدحض أقاويل الغنوسيين.

وقد ضاعت «ذكريات» هيغيسيبوس، ولم يبقَ منها سوى ما أخذه أفسابيوس المؤرخ عنها، ومعظم هذا يبحث في أخبار أساقفة أوروشليم وأقرباء السيد المخلص في الجسد، كاستشهاد يعقوب أخي الرب وسمعان خلفه وما إلى ذلك، وكان هيغيسيبوس يجيد اليونانية والسريانية والعبرية.[٨٦]

سرابيون (١٩١–٢١٢)

وجلس بعد ثيوفيلوس في سُدَّة أنطاكية مكسيمينوس Maximinos (١٨٥–١٩١)، وقد ضاعت أخباره، ولم يبقَ منها سوى ذكر اسمه،[٨٧] وخلفه بعد وفاته سرابيون Serapion وهو التاسع بعد بطرس، وقد اشترك في الدفاع عن الإيمان، وصنف في ذلك رسائل عدة،

---

٨٦ Eusèbe, Hist. Ecc, IV, 22; Zahn, T., Forschungen zur Gesch. des Neutest. Kanons etc. 6. Erlangen, 1900, 228–273; Lawlor, H. J., Eusibiana, 1–107; Dannreuther, H., Témoignage d'Hegesippe; Ehrhardt, A., Apostolic Succession In The First Two Cent., Lond. 1953.

٨٧ Eusèbe, Hist. Ecc., IV, 24 ولا صحة فيما يظهر لما قاله بعض مؤرخي الكنيسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بأن أحاد أبوي وقم يشوع خرجا من طيسفون بعد وفاة أسقفها يعقوب، فتوجَّهَا إلى أنطاكية؛ لينتقي أسقفها مكسيمينوس أحدهما فيرسمه خلفًا ليعقوب، وأن الوالي الروماني اعتبرهما جاسوسين فارسيين، فأمر بصلب قم يشوع، وأن أحاد أبوي أفلت فأمَّ أوروشليم حاملًا بركة مكسيمينوس، فرفعه أسقفها إلى رتبة الأسقفية، وأن هذا الحادث المؤلم أثَّرَ في نفس مكسيمينوس، فتخلى

منها رسالة إلى الإكليريكيين كيريكسوس Carixos وبنطيوس Pontios، ومنها رسالة وجهها إلى ذمنوس Domnos الذي كان مسيحيًّا فارتد عن الإيمان؛ ليردَّ عن نفسه آلام الاضطهاد في عهد سبتيميوس سويروس «فسقط في خرافة اليهود».[٨٨]

وممَّا نُقل عنه أنه صنف كتابًا في إنجيل بطرس بيَّنَ فيه ما حواه هذا الإنجيل المزوَّر من التعاليم المرقيونية الفاسدة، وكان الداعي لذلك أن دعاة المرقيونية تسلَّلوا إلى صفوف كنيسة أرسوز Rhossos بين رأس الخنزير والإسكندرونة، فبذروا فيها بذور الشقاق، فأقبل بعض أبناء هذه الكنيسة على مطالعة هذا الإنجيل المزور وامتنع غيرهم عن ذلك، فأذن سرابيون بقراءته أولًا تهدئة للخصام، ثم استحصل على نسخة من هذا الإنجيل وعكف على مطالعتها، فلمس الدسَّ والتضليلَ فيها، فوضع رسالة في ذلك كله، وبعث بها إلى المؤمنين في أرسوز وأنبأهم بقرب زيارته لهم؛[٨٩] وجاء في التقليد أن سرابيون سام بالوط أسقفًا على الرها،[٩٠] فأثبت بذلك وبتدخله في شئون كنيسة أرسوز سلطته على الكنائس التي أسَّسها المبشرون الذين انطلقوا من أنطاكية.

عن حقه في سيامة أساقفة طيسفون، فاستقلوا منذ ذلك الحين — Neale, J. M., Holy East. Church, 29-30 — راجع تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية للمطران سويريوس يعقوب: ج١، ص١٥٢-١٥٣.

[٨٨] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 18-19, VI, 12.

[٨٩] وقد جاء في تعليق أوريجانس على الآية السابعة عشرة من الفصل العاشر من إنجيل متَّى، أن الناصريين اعتبروا يسوع ابنَ يوسف ومريم، وأنهم «بنوا على التقليد الذي يدعى إنجيل بطرس، فقالوا بأن إخوة الرب هم أولاد يوسف من زوجة أولى قبل مريم». وقال ثيودوريطس إن الناصريين يهود اعتبروا المسيح رجلًا صالحًا، وعولوا على الإنجيل الذي يُدعَى إنجيل بطرس — Heret. Fables, II, 2 — ويؤكِّد أفسابيوس أن هذا الإنجيل لا يمتُّ بصلة إلى الأسفار الكاثوليكية — H. E., III, 3. وقد وجد المنقِّبون في مصر في السنة ١٨٨٤ في قبرٍ في أخميم جزءًا من هذا الإنجيل، ولدينا شيء منه أيضًا بالحبشية.

James, M. R., Apocryphal New Testament, 90-94, 507-510, 511-521.

[٩٠] Tixeront, Les Origines de l'Eglise d'Edesse, 140.

الفصل السابع

مشكلة عيد الفصح

١٥٤–١٩٨

وذكر المسيحيون الأولون صَلْب السيد وموته وقيامته في صبح كل أحد، فأموا الكنيسة باكرًا؛ ليجتمعوا ويصلوا ويذكروا الرب في مثل الساعة نفسها التي قهر فيها الموت، وأفردوا بالإضافة إلى هذا ثلاثة أيام متتالية مرة في كل سنة لذكر القيامة والآلام، فجعلوها تبدأ في الرابع عشر من نيسان القمري العبراني، وتنتهي في السادس عشر منه، وذلك لورود الآية: «وبلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يُذبح فيه الفصح.»

واختلف المؤمنون الأولون في اليوم الذي يذكرون فيه الآلام، وفي اليوم الذي يبتهجون فيه بالقيامة؛ فكنائس آسية الصغرى وقيليقية وسوريا الشمالية وبين النهرين كانت تقيم هذه الذكرى في أي يوم من الأسبوع وافَقَ وقوعه الرابع عشر من نيسان أو السادس عشر منه، أما كنائس بلاد اليونان وإيطالية وأفريقية ومصر وفلسطين والبونط، فإنها خصت يوم الجمعة وحده بالآلام ويوم الأحد بالقيامة، وكانت في السنين التي لا يوافق فيها الرابعُ عشر من نيسان يومَ جمعة، تذكر الآلام في أول يوم جمعة بعده ومثله يوم الأحد للقيامة.

واقترن هذا الخلاف بخلاف آخر، فاعتبرت كنائسُ آسية الصغرى ومَن شدَّ أزرها يومَ الآلام يومَ تحرير من العبودية وخلاص، فكانت تفرح في يوم موت الرب وتحل الحزن والصوم معًا مستشهدة بيوحنا الحبيب وبفيليبوس أيضًا، أما الكنائس الأخرى فإنها

كانت تعتبر يوم الصلب يوم حزن، فلا تسمح بحل الصوم قبل تذكار القيامة، وكانت تستشهد بتعاليم بطرس وبولس في ذلك.[١]

واستمر هذا الخلاف وقتًا طويلًا، ولكنه لم يقطع ربط السلام والمحبة بين الكنائس، ثم كثر عدد المسيحيين وتغربوا، فاضطروا أن يقيموا في بلدان جرت كنائسها على غير عادة كنائسهم، فساءهم كما ساء غيرهم أن يختلفوا في موعد العيد الكبير، ولكنهم واظبوا على ممارسة التقاليد الموروثة بسلام ومحبة، وكثر عدد المسيحيين الآسيويين في رومة وجروا على عادتهم الخاصة في ممارسة عيد الفصح، ولم يعترضهم أسقف واحد من أساقفة رومة قبل فيكتور، ولم يقطعوا أحدًا من الشركة، بل إنهم ذكروا هؤلاء الآسيويين في صلواتهم، وأرسلوا لهم الأفخارستية في حينه.

بوليكاربوس وأنيقيطس (١٥٤)

وجاءت سنة ١٥٤ وكان القديس الشهيد بوليكاربوس أسقف أزمير قد ناهز الخامسة والثمانين، فقام إلى رومة لقضاء مصالح متعددة منها النظر في مسألة الفصح، والتقى بزميله أنيقيطس أسقف رومة وبحث معه أمر الخلاف، فاستمسك كل منهما بتسليم الرسل كما مارسه، ولم يستطع أحد منهما أن يقنع الآخر، ولم يؤثر هذا الاختلاف في ربط المحبة الأخوية، فإن الاثنين اشتركا في خدمة القداس الإلهي، وعند تقديس القرابين تنحى أنيقيطس لبوليكاربوس؛ لأنه كان شيخًا طاعنًا في السن، ورجلًا رسوليًّا تلميذًا ليوحنا الحبيب وأقرب منه إلى الرسل، ولا نرى في النصوص الأولية ما يبرر استنتاج المؤرخ شميدت الألماني في أن بوليكاربوس وُجِدَ في رومة في فصل الربيع، وأنه بعد اختلافه في الرأي مع زميله الأسقف الروماني أقام خدمة قداس الفصح لجماعته الآسيويين، بينما أقام أسقف رومة قداسًا آخر للرومانيين.[٢]

---

[١] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 23–25.

اطلب أيضًا رأي الأستاذ بومشتارك Baumstark في نقده لكتاب شميدت عن عيد الفصح في آسية الصغرى، في مجلة اللاهوت الألمانية Theologische Revue، في أعداد السنة ١٩٢١، ص٢٦٤ وما يليها.

[٢] Schmidt, C., Die Passahfeier inder Kleinasiatichen Kirche, 577–725.

مليتون وبلاستوس

واستشهد بوليكاربوس في السنة ١٥٥ وحذا حذوه أنيقيطس في السنة ١٦٦، وظل الخلاف قائمًا بين المؤمنين، وتكاثرت صفوف الهراطقة وتراصت، وحوالي السنة ١٧٠ انبعثت حركة التهود في كنيسة لاذقية فريجية، فهبَّ مليتون يصنف في عيد الفصح، ونهض أبوليناريوس هيرابوليس يقاوم التهود بكل ما أُوتِيَ من حكمة ومقدرة،[٣] وخشي كل من أقليمس الإسكندري وهيبوليتوس العلاقة بين رأي الآسيويين المسيحيين وبين فكرة الفصح عند اليهود، فصنفا في عيد الفصح دفاعًا عن الدين القويم، ولكن شيئًا من هذين المصنفين لم يبقَ حتى عهدنا هذا.[٤]

فيكتور وبوليكراتس

ودب الشقاق إلى كنيسة رومة نفسها من جراء ما قاله بلاستوس Blastus، فهرع فيكتور أسقفها (١٨٥–١٩٧) إلى درس الموقف مجددًا، ورأى من مصلحة الكنيسة جمعاء أن تقول كلمتها في عيد الفصح، فكتب بذلك إلى بوليكراتس أسقف أفسس، ولعله كتب إلى غيره من الأساقفة أيضًا، ولم يأمر فيكتور أسقف رومة بوليكراتس أمرًا بذلك، بل رجاه رجاء فيما يظهر، فالكلمة التي أشار بها بوليكراتس إلى رغبة فيكتور في الاجتماع هي Exiosate ومعناها رمتم أو طلبتم،[٥] أما رسالة فيكتور فإنها ضائعة!

والثابت الراهن هو أن أساقفة الشرق عقدوا قبيل نهاية القرن الثاني مجامع مكانية في قيصرية فلسطين وفي البونط وغلاطية، وبين النهرين وكورينثوس، بحثوا فيها أمر الفصح، وأقروا رأيًا واحدًا وهو أن تراعى عادة ذكر القيامة يوم الأحد، وألَّا يُحل الصوم إلا فيه.[٦]

---

[٣] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 26; Chronique Pascale Prooemium, Patr. Gr., Vol. 42, Col. 80.

[٤] Lebreton, J., Querelle Pascale, Fliche et Martin, Hist. de l'Eglise, II, 90.

[٥] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 24.

[٦] Hefele-Leclerq, Hist. des Conciles, I, 150 ff.; Batiffol, L'Eglise Naissante, 271 ff.

مجمع قيصرية فلسطين (١٩٨)

وجاء في كتاب الاعتدال الفلكي[٧] لبيد المحترم Venerable Bede (٦٧٣–٧٣٥) أن مجمع قيصرية انعقد برئاسة ثيوفيلوس أسقف قيصرية ونركيسس أسقف أوروشليم، وبحضور كاسيوس أسقف صور وكلاروس أسقف عكة وغيرهما، فتداول الأساقفة كيفية خلق العالم، فأقروا أن يوم الرب هو أول أيام الخلق والسبت آخِرها، ثم بينوا أن الربيع هو أول فصول السنة، وأن العالم وُجد في الخامس والعشرين من آذار، حينما كانت الشمس في وسط المشرق والقمر بدرًا، ثم شرعوا بتعيين عيد الفصح، فأجمعوا على أن يقع في يوم الرب؛ لأن الظلام انقشع في هذا اليوم وأشرق النور، ولأن الشعب تحرر فيه من أرض مصر كما من ظلام الخطيئة، ولأن الشعب مُنِحَ فيه طعامًا سماويًّا، ولأن موسى أوجب تكريمه، ولأن المرتل قال عنه إنه اليوم الذي نبتهج ونفرح فيه، ولأنه هو اليوم الذي قام فيه الرب.[٨]

وبعد أن تمَّ كل هذا كتب الأساقفة المجتمعون في قيصرية فلسطين إلى إخوانهم في الكنائس الأخرى؛ ليجتهدوا فيرسلوا صورة رسالتهم إلى الكنائس لئلا «يصيروا سببًا للذين يخدعون أنفسهم بسهولة»، وأضافوا: «ونعلمكم أنه في اليوم الذي نحتفل فيه نحن يحتفلون في الإسكندرية أيضًا، وقد تبودلت بيننا وبينهم رسائل حول هذه المسألة لكي نحتفل معًا بهذا اليوم المقدس.»[٩]

بوليكراتس أسقف أفسس

وتشاور أساقفة آسية الصغرى، فأصروا على إبقاء القديم على قدمه، وكتب بوليكراتس أسقف أفسس بذلك إلى أسقف رومة، فانتفض فيكتور وكتب يهدد بالقطع، فجمع بوليكراتس مجمعًا مكانيًّا اشترك فيه خمسون أسقفًا، وبعد التداول كتب بوليكراتس بلسان مجمعه يؤكد أنهم لا يزيدون على التسلم الرسولي ولا ينقصون منه، وأنه رقد

---

[٧] Commentarius de Aequinoctio Vernali.

[٨] وقد سبقنا إلى هذه الخلاصة بالعربية المطران سويروس يعقوب في كتابه الكنيسة السريانية الأنطاكية، ج١، ص١٢١-١٢٢.

[٩] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 26.

في بلادهم يوحنا الذي اتكأ على صدر الرب، وفيليبوس أحد الاثني عشر، وبوليكاربوس الشهيد، وأن هؤلاء جميعهم حافظوا على اليوم الرابع عشر للفصح وفقًا للإنجيل؛ ومما قاله بوليكراتس موجهًا كلامه إلى كنيسة رومة: «أنا أصغركم جميعًا، وما دام لي خمس وستون سنة في الرب، وقد اجتمعت بالإخوة الذين من المسكونة، وقرأت كل كتاب مقدس، لا أجزع ولا أخاف؛ لأن الذين هم أعظم مني قالوا إنه يجب الخضوع لله أكثر من البشر، وكنت أستطيع أن أذكر الأساقفة الحاضرين معي الذين «رمتم» أنتم أن أجمعهم، وقد جمعتهم ووافقوا على الرسالة لعلمهم أني لم أحمل هذه الشيبة عبثًا، بل سلكت بالرب دائمًا.»[١٠]

تدخُّل إيريناوس

ومما جاء في تاريخ أفسابيوس أن فيكتور أسقف رومة غضب، وأراد أن يعتبر كنائس آسية خارجة عن الدين القويم، فاعترضه في ذلك عدد من الأساقفة، وكان بين هؤلاء إيريناوس القديس أسقف ليون، فإنه كتب يقول: «إن الخلاف ليس في اليوم فقط، بل في نوع الصوم أيضًا، وإن هذا الاختلاف لم يحدث في أيامنا فقط، بل قبلنا بكثير في عهد أسلافنا، ومع ذلك كانوا ولا يزالون متسالمين، ومنهم الشيوخ الذين تولوا الكنيسة التي تتولاها أنت إلى الآن، وكانوا يشتركون وهم غير محافظين مع الآتين إليهم من الكنائس المحافظة.» ويعلق أفسابيوس فيقول إن فيكتور اتبع نصيحة أسقف ليون، وإن إيريناوس استحق شكر الكنيسة لعمله السلمي.[١١]

ولا نعلم بالضبط متى عدل الآسيويون عن تقليدهم الخاص،[١٢] ولا يجوز القول إن ذلك تمَّ في مجمع نيقية؛ لأن مشكلة الفصح التي أُثيرت أمام المجمع المسكوني الأول لم تكن التي بُحثت في أواخر القرن الثاني.[١٣]

---

[١٠] Eusèbe, Hist, Ecc., V, 24.

[١١] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 24.

[١٢] Schmidt, C., op. cit. 725.

[١٣] Lebreton, J. op. cit., II, 93.

الفصل الثامن

الكنيسة والدولة

١٩٣–٢٤٩

حجر حمص الأسود

وكانت حمص لا تزال تعبد الشمس وتقدس حجرًا أسود مخروطي الشكل يُحمَل لمناسبات دينية خاصة، ويطاف به في شوارع المدينة تبركًا وإجلالًا، وكان السادن يوليوس باسيانوس Bassianus وجيهًا محترمًا، له سطوة ونفوذ في جميع الأوساط الوثنية في حمص وما جاورها.

وفي السنة ١٨٠ جاء حمص قائد روماني من أصل فينيقي أفريقي يُدْعَى سبتيميوس سويروس Septimius Severus، فافتتنته يولية مرتي ابنة باسيانوس الكاهن، ونُقل إليه أن عرَّافة تعلم الغيب تقول إن مَن يتزوج من يولية مرتي يصبح ملكًا، فتزوج سبتيميوس القائد من مرتي، ونقل اسمها إلى اللاتينية فجعله Domna فأصبحت زوجته يولية دومنة.[١]

وكان ما كان من أمر سبتيميوس القائد، وأصبح في السنة ١٩٣ إمبراطور رومة الوحيد، وكانت يولية ذكية قديرة فغَصَّ القصر بالحمصيين والحمصيات، وبينهم رجل محنك قانوني كبير هو إميليوس بابنيانوس Aemilius Papinianus أحد أنسباء يولية الإمبراطورة، فقدر للوثنية في حمص أن تلعب دورًا هامًّا في سياسة الدولة الدينية.

---

١ Williams, Miss M. G. W., Julia Domna, Amer. Journ. of Arch., 1902, 259–305; Wild, P. S., Class. Journal, 1917–1918, 14–20.

سياسة سبتيميوس الدينية

وكان سبتيميوس نفسه متمسكًا بالوثنية، يقول بغثها وسمينها، ويواظب على القيام بفرائضها، فلما قُدِّر له أن يصبح إمبراطور رومة وحبرها الأعظم Pontifex Maximus اهتم اهتمامًا كبيرًا بالدين ورجاله، وحافظ على التقاليد الموروثة والفرائض المفروضة، وعني بالمعابد والهياكل فرمم القديم وعمَّر الجديد وبذل بسخاء في بعلبك، وكان من الطبيعي أن تُظهِر الحاشية اهتمامَها أيضًا في الدين وفرائضه، فتبارى أفرادها في تكريم الآلهة والاعتناء بكل ما يمتُّ إلى الدين الوثني بصلة.[٢]

ولم يتعرَّض سبتيميوس للنصارى بسوء في السنوات الأولى من حكمه، ويذهب ترتليانوس إلى أبعد من هذا، فيفيد أن النصارى وقفوا إلى جانب سبتيميوس في نزاعه ضد نيجر وألبينوس، وأنهم فرحوا لنجاحه عندما سقطت بيزنطة في يده، وأنه تدخَّلَ هو فحمى وجهاءهم من سخط الجماهير في السنة ١٩٧؛[٣] ولعلَّ السبب في هذا التفاهم والتعاون كان عطف الغريب على الغريب للصمود في وجه الرومانيين الأصليين، ومما جاء في ترتيليانوس أيضًا أن سبتيميوس كان قد ألحق عددًا من المسيحيين في خدمته قبل وصوله إلى العرش، وأنه كان قد وكل تربية ابنه البكر إلى عائلة مسيحية وتقبل المسح بالزيت المقدس على يد طبيب مسيحي جعل هذا الزيت دواء شافيًا.[٤]

وعلى الرغم من هذا كله فإن المؤرخين يُجمِعون على أن الاضطهاد الخامس وقع في عهد سبتيميوس، فأفسابيوس يؤكد أن هذا الاضطهاد بدأ في السنة العاشرة من حكم سبتيميوس؛ أي في السنة ٢٠٢،[٥] ويضيف صاحب التاريخ الأوغوسطي أنه بعد أن توشح سبتيميوس بالقنصلية في أنطاكية في أول كانون الثاني من السنة ٢٠٢، حرَّم التبشير بالدين اليهودي، واتخذ قرارًا مماثلًا فيما يتعلق برعاياه المسيحيين.[٦] والواقع أن أنطونينوس بيوس كان قد حرم على اليهود ختن غير اليهود من الوثنيين، وأن سبتيميوس

---

[٢] Reville, J., La Religion à Rome sous les Sévéres, 190–209.

[٣] Tertullianus, Ad Scap., III, IV; Apolog. XXXV.

[٤] Tertullianus, Ad Scap., IV.

[٥] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 2; Augustin., De Civ. Dei, XVIII, 52.

[٦] Historia Augusta, Severus, XVII.

كان قد كرر هذا التحريم، فأوجب معاقبة مَن يختن رومانيًّا بمصادرة أملاكه وإبعاده إلى جزيرة من الجزر، وعاقَبَ مَن ختن رقيقًا بالموت،[٧] واتخذ سبتيميوس الإجراءات نفسها لكبح النصرانية وردها عن التوسع، فكان ينظر في كل حادث على حدة، فيأمر بنوع من العقوبة المشار إليها أعلاه، ولم يتخذ فيما يظهر قرارًا عامًّا أبطل به الدين المسيحي كما فعل خلفاؤه داقيوس وفاليريانوس وديوقليتيانوس.[٨]

ولا نعلم شيئًا عن تطبيق هذه الأحكام وتنفيذها في فلسطين وسورية، ولعل ما حفظه لنا أفسابيوس[٩] عن ارتداد دومنوس Domnos في أنطاكية وعودته إلى دين اليهود هو أثر من آثار هذا التهديد والتهويل، أما في مصر فإن نجاح ذيذاسقاليون Didasxaleion الإسكندرية وإقبال الوجهاء والأعيان عليه، وجلوس الفلاسفة والنسوة الشهيرات وأفراد العائلات الأرستوقراطية العالية وأبناء البيوتات المثرية على مقاعده، أفزع سبتيميوس، فهرع إلى تطبيق عقوباته بشدة؛[١٠] ففر إقليمس الإسكندري رئيس هذا الذيذاسقاليون إلى قيصرية قبدوقية، واستشهد ليونيذاس والد أوريجانس الشهير وجمهور من المؤمنين والموعوظين من جميع أنحاء مصر، وأشهر هؤلاء القديسة الشهيدة بوتميانة.[١١]

ولم تؤثر هذه الشدة في نفوس المؤمنين، ولم يقتفِ أثر دومنوس أحد فيما نعلم، وتابع سرابيون أسقف أنطاكية العمل في حقل الدفاع عن العقيدة، فكتب ما كتب إلى أبنائه الروحيين في أرسوز كما سبق وأشرنا، وقام من أبناء كنائس قيصرية فلسطين وعكة وصور وبيروت مَن حمل الإنجيل إلى تلال لبنان وحارب الوثنية فيه، وتقبل أبجر التاسع ملك الرها (١٧٩–٢١٦) النصرانية، فانتشرت بسرعة بين رعاياه في وادي الفرات وما جاورها، ووجه برديصان رسالة بالسريانية إلى سبتيميوس دافَعَ فيها عن دين المسيح،[١٢] ولم يكن أثر شرائع سبتيميوس في نفوس المؤمنين في الغرب أشد منه في الشرق.[١٣]

---

[٧] Paul., Sentent., V, 22, 3-4.

[٨] Lebreton, J., l'Eglise et l'Etat Romain, op. cit., II, 113–115.

[٩] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 12.

[١٠] Allard, P., Hist. des Perséc. au III^{e}. Siécle, 70.

[١١] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 3–14.

[١٢] Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II, 150–151.

[١٣] Lebreton, J., op. cit., II, 115–116.

كركلا (٢١١–٢١٧)

وادَّعَى كركلا أنه أتقى الرجال،[١٤] واستمسك بدين رومة استمساك سلفه سبتيميوس، ورحب بالآلهة الشرقية وضحى لها في أثناء وجوده في الشرق، وجمع أولبيانوس مستشاره القضائي كل ما كان قد صدر من الأحكام ضد المسيحيين، فأوردها في الكتاب السابع من مؤلفه De officio Proconsulis،[١٥] ولكن كركلا لم يتخذ أي إجراء قانوني ضد النصارى، ويدَّعِي ترتليانوس أن مسيحيين أشرفوا على تربيته؛[١٦] ومهما يكن من أمر تربيته فالواقع الذي لا جدال فيه هو أن عددًا من المسيحيين التحقوا بحاشيته، وقاموا بمهام كبيرة، وأشهرهم أوريليوس بروسينس Aurelius Prosenes.[١٧] ولا بد من إعادة النظر فيما نُسِب إلى عهده من قساوة واضطهاد واستشهاد، فأما أن يكون الآباء المدونون قد ضلوا بسبب اسمه الرسمي M. Aurelius Antoninus، أو أن تكون بعض هذه الحوادث قد تمت في الولايات تحت ضغط الغوغاء.[١٨]

وأَحَبَّ كركلا الشرقَ فعاد إليه في السنة ٢١٥، واستقبلته أنطاكية استقبالًا حافلًا، وأقام فيها مُعِيدًا إليها عزَّها ومجدَها، وكان والده قد غضب على أنطاكية، فجعل اللاذقية عاصمة الشرق، وقسم ولاية سورية إلى ولايتين: سورية الفينيقية وسورية المجوفة Coele، فجعل مدينة صور عاصمة الأولى، وضمَّ إليها دمشق وحمص وتوابعهما،[١٩] وترامى إلى كركلا سخر الإسكندريين منه ومن والدته، فترك والدته في أنطاكية، ونهض إلى الإسكندرية فاقتصَّ من أهلها وعاد إلى أنطاكية، ثم استدعى كلًّا من ملك الرها وملك أرمينية إلى أنطاكية ليكرمهما إكرام الحلفاء الأصدقاء، فزجهما في السجن وجعل من مملكتيهما ولايتين رومانيتين، وحارب أرطبون ملك البرت فخرَّ صريعًا (٨ نيسان ٢١٧) من جرَّاء مكيدة دبَّرها مكرينوس قائد الحرس، وتلقت يولية دمنة والدته نبأ مقتله في أنطاكية فخضعت لأمر الإمبراطور الجديد، ولكنها امتنعت عن الطعام فماتت جوعًا.[٢٠]

---

[١٤] .Dio Cass. LXXIX, 12

[١٥] .Lactantius, Div. Inst., V, 11, 18-19

[١٦] .Tertullianus, Ad Scap. IV: “Lacte Christiano Educatus”

[١٧] .Corp. Inscr. Lat., VI, 84–94

[١٨] .Neumann, K. J., Der Rom. Staat und die Allgem. Kirche, I, 301–308

[١٩] .Digest., XLII

[٢٠] .Dio Cassius, LXXVIII, 23-24; Herodian., V, 3

إله الجبل (٢١٨–٢٢٢)

ولم يرضَ أشراف رومة وعظماؤها عن وصول مكرينوس إلى الحكم؛ لأنه لم يمتَّ بصلة إلى الأسرة الحاكمة، ولأنه لم يكن سوى فارس عادي، وعلى الرغم من الاحترام الذي أظهره لأعضاء السناتوس، ومن بعض الإصلاحات الداخلية والوعود التي قطعها على نفسه لجمهور الشعب في رومة، فإنه لم يُوفَّق إلى الحصول على الرضى، وكان قد اضطر لإنهاء حرب الفرات اضطرارًا، فجاء سلمها محاطًا بكرامة رومة واعتزاز جنودها.

وكانت يولية مايبسة Julia Maesa شقيقة يولية دمنة قد عادت إلى مسقط رأسها مع ابنتي شقيقتها يولية سومياس Soemias ويولية مامية Mammaea، وكان قد وُلِدَ ليولية سومياس من زوجها القنصل السوري فاريوس مركلوس Sex. Varius Marcellus ولدٌ ذكرٌ اسمه فاريوس باسيانوس Varius Avitus Bassianns، وعلى الرغم من حداثة سنه، وكان لم يتجاوز الرابعة عشرة، فإنه كان قد ورث وظيفة جده لأمه، فأصبح كاهن حمص الأعظم، فلما أخفق مكرينوس في استرضاء الرومانيين روَّجت يولية مايبسة خبرًا في الأوساط العسكرية الرومانية في سورية، مؤداه أن فاريوس باسيانوس هو ابن لكركلا غير شرعي من نسيبته سومياس، وأنه هو أحق بالحكم من هذا المغامِر الأفَّاق، ووعدت الجنود بالعطاء فقبلوا، فخرج غنيس Gannys مربي باسيانوس إلى معسكر حمص في السادس عشر من أيار سنة ٢١٨، وخرج معه كومازون أفتيخيانوس محافظ البلدة، فقدما باسيانوس إلى الجند، فنادوا به إمبراطورًا،[٢١] ولم يقوَ مكرينوس على الصمود في وجه الإمبراطور الجديد، ففرَّ من سورية وأُلقِي القبض عليه وقُتِل.

وأدخل باسيانوس عبادة الشمس الحمصية إلى رومة، ونقل إليها حجرها الأسود، واتخذ لنفسه اسم إلهه فعُرِف بـ Elagabalus أو Heliogabalus، وتلخص سياسته الدينية في أنه توخى الجمع بين جميع الأديان الوثنية الرائجة في إمبراطوريته، ولا صحة فيما يظهر لما جاء في التاريخ الأوغوسطي من أن هذا الإمبراطور أراد أن يمثل في معبد إلهه النصرانية والسامرية واليهودية.[٢٢] واختتن «إله الجبل» وامتنع عن أكل لحم الخنزير،[٢٣]

[٢١] Dio Cassius, LXXVIII, 31, LXXIX, 4, 6; Herodian., V, 3, 10-11; Stein, Gannys, Real-Encyc.

[٢٢] Historia Augusta, Heliog., 3, 5.

[٢٣] Dio Cassius, LXXIX, 11.

ولكن هذا لم يعنِ أنه تهود؛ لأن معظم الساميين شاركوا اليهود في هذه التقاليد، وليس لدينا ما يثبت أن السيدة سفيرينة Severina التي وجه إليها هيبوليتوس Hippolytus عالم الكنيسة إحدى رسائله، هي زوجة إله الجبل أو إحدى نسائه،[٢٤] وجل ما يجوز قوله هو أن أحدًا من المسيحيين لم يُمَسَّ بأذًى في عهد هذا الإمبراطور، وأن أحدًا من كتابهم لم يذكر هذا الإمبراطور بسوء.[٢٥]

سويروس ألكسندروس (٢٢٢–٢٣٥)

وكان ما كان من أمر تهتك «إله الجبل» وانصرافه عن شئون الدولة ومصرعه، فتولى الحكم بعده ابن خالته أليكسيانوس باسيانوس Alexianus Bassianus ابن يولية مامية وغاسيوس مرقيانوس العكاري Gessius Macianus، وكانت مايسة قد أشاعت عن أليكسيانوس أيضًا أنه ابن كركلا غير الشرعي، فلما تسلم أزمة الحكم انتسب إلى سويروس وعُرِفَ بالاسم سويروس ألكسندروس.[٢٦]

وكانت يولية مامية قد عنيت عناية فائقة بتربية ولدها وتثقيفه؛ فنشأ أليكسيانوس شابًّا أديبًا مهذبًا لطيفًا وديعًا، يجيد اللغتين اليونانية واللاتينية ويتذوق آدابهما، ويحترم رومة وتقاليدها، فلما تسلم أزمة الحكم أعاد الحجر الأسود إلى حمص، وأظهر تعلقه بآلهة رومة ودينها، وأكرم في قصره من الأباطرة مَن كان قد أصبح في مصاف الآلهة، كما أظهر احترامًا شديدًا للإسكندر الكبير ولأبولوتيوس تيانة وفيرجيليوس وشيشرون وغيرهما من كبار الرجال،[٢٧] ولا يعقل أن يكون قد أكرم بهذه الطريقة نفسها إبراهيم اليهود ومسيح النصارى؛ لأن شرائع رومة كما سبق وأشرنا كانت قد بيَّنتْ وجه التناقض بين دين الدولة وهذين الدينين، وقُلِ الأمرَ نفسه عمَّا جاء في التاريخ الأوغوسطي من أن هذا الإمبراطور أراد أن ينشئ هيكلًا للمسيح، وأن يعتبر سيد النصارى إلهًا من آلهة رومة،[٢٨] وأنه لدى وقوع المشادة بين نصارى رومة وأصحاب الحانات فيها حول ملكية

---

[٢٤] Besnier, M., Empire Romain, 84.

[٢٥] Bihlmeyer, K., Die Syrischen Kaiser zu Rom und das Christentum, 56–60.

[٢٦] Jardé, A., Études Crit. sur la Vie de Sévére Alexandre, Paris, 1925.

[٢٧] Hist. Aug. Alex., 29, 2; 31, 4.

[٢٨] Hist. Aug. Alex., 43, 6–7.

قطعة من الأرض، حكم بالملكية للنصارى، فإن مثل هذه المواقف تتعارض والقوانين السارية المفعول.[٢٩]

وجلُّ ما يجوز قوله هو أن هذا الإمبراطور العاقل المسالم سكت عن النصارى ولم يلاحقهم بشيء، فأذن لهم بذلك بالبقاء، ولكنه لم يتمكن في الوقت نفسه من الصمود في وجه تيار قد يُثار ضد مسيحي معين أو جماعة من المسيحيين، كما يدلنا على ذلك حادث استشهاد أسقف رومة القديس كليستوس في الرابع عشر من تشرين الأول سنة ٢٢٢.[٣٠]

أحبار أنطاكية

ووافقت رئاسة سرابيون عهد سبتيميوس سويروس، فبدأت في السنة ١٩١ وانتهت في السنة ٢١٢، وخلف سرابيون في الكرسي الرسولي أسقليبياذس Asclepiades، وكان قد ذاق العذاب لأجل يسوع في قبدوقية فاستحق لقب «المعترف»، وما إن علم إلكسندروس المعترف أسقف قيصرية قبدوقية بوصول أسقليبياذس إلى السدة الأنطاكية، حتى كتب إلى الأنطاكيين يقول:

> من إلكسندروس خادم يسوع المسيح وسجينه إلى كنيسة أنطاكية المغبوطة سلام بالرب: لقد جعل السيد أصفادي محتملة خفيفة حينما بلغني، وأنا لا أزال في السجن، إن أسقليبياذس الذي يستحق التقدير لأجل إيمانه قد تقبَّل بعناية الله أسقفية كنيستكم الأنطاكية المقدسة، وإني أبعث لكم يا سادتي وإخوتي برسالتي هذه على يد إقليمس القس السعيد الفاضل المحترم الذي تعرفون، لقد كان حضوره بيننا بعناية السيد ورقابته مثبتًا للكنيسة ومقوِّيًا لها.[٣١]

وتُوفِّيَ أسقليبياذس في السنة ٢١٨، فخلفه في الرئاسة فيليطوس Philetos (٢١٨–٢٣١)، وقدِّر لهذا الأسقف أن يجني شيئًا من فوائد المهادنة التي كانت قد حلت بين

[٢٩] Besnier, M., Emp. Rom., 102, 104.

[٣٠] Acta Sanctorum, Oct. VI, 430.

[٣١] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, II.

الكنيسة والدولة في عهد الأباطرة الحمصيين، فسُرَّ من عطف الإمبراطور سويروس ألكسندروس على يوليوس الأفريقي أحد أبناء كنيسة أوروشليم، واغتبط لما شاهده في أنطاكية نفسها من مظاهر الإكرام والاحترام التي أحيط بها أوريجانس الإسكندري عالم الكنيسة آنئذٍ.

يوليوس الأفريقي

هو سكستوس يوليوس أفريكانوس Sextus Julius Africanus، وُلِدَ في أوروشليم في المستعمرة الرومانية العسكرية Aelia Capitolina في النصف الثاني من القرن الثاني، والتحق بالجيش الروماني، ورافق الإمبراطور سبتيميوس سويروس إلى الرها وجهاتها، واشترك في الأعمال الحربية فيها وأصبح ضابطًا محترمًا، ثم أقام في عمواس Nicopolis متقاعدًا، وأَلَحَّ زملاؤه من أبناء هذه المستعمرة أن يقوم إلى رومة؛ ليعرض بعض المطالب ويفاوض السلطات فيها، فأَمَّ العاصمةَ الرومانية في السنة ٢٢٤ لهذه الغاية، فقُدِّرَ له أن يتصل بشخص الإمبراطور سويروس ألكسندروس، فأصغى إليه وعطف عليه، وطلب إليه أن يجمع له مكتبة بالقرب من البانتيون ففعل.[٣٢] وكان يوليوس قد بدأ بوضع كشكولٍ أدبي علمي، فأسماه الوشاء Kestoi، وضمنه مسائل طبية وزراعية وعسكرية وسحرية وتنجيمية، فجاء في أربعة وعشرين بابًا، ورأى يوليوس أن يهدي هذا المؤلف إلى الإمبراطور، فاغتنم فرصة وجود الإمبراطور في أنطاكية سنة ٢٣١-٢٣٢، ونهض إليها فقدَّمَ هذا المؤلَّفُ إلى الإمبراطور نفسَه، وصنَّف يوليوس حوليات في تاريخ العالم منذ أقدم العصور حتى السنة ٢٢١، Chronographia أبان فيها قدم التاريخ المقدس وأفضليته على تاريخ اليونان والرومان، وشاع استعمال هذا المؤلَّف فيما بعد، فأخذ عنه أفسابيوس وعدد من مؤرخي الروم،[٣٣] وحرَّرَ يوليوس رسائل بحث فيها قصة سوسان ونسبة مار يوسف خطيب السيدة العذراء في إنجيل متَّى ولوقا، وتوفي حوالي السنة ٢٤٠.[٣٤]

---

[٣٢] Papyr. Oxyrrh., III, 412; Syncell., I, 676.

[٣٣] Gelzer, H., Sextus Julius Africanus und die Byzantinische Chronographie, 2 Vols., Leipzig, 1880.

[٣٤] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 31; Viellefond, J. R., Jules Africain, Fragments des Cestes, Paris, 1932; Mann, E., Jules Africain, Dict. Théol. Chrét.; Reichardt, N., Die Briefe Julius Africanus, Leipzig. 1909.

أوريجانس في أنطاكية

وخرَّ أرطبان صريعًا في صيسفون في السنة ٢٢٧، فدالت دولة الأراشقة، وأسس أردشير دولة ساسانية فتية، واضطر أردشير أن يقضي على مَن تبقى من الأراشقة في أرمينية، فامتد لهيب الحرب إلى أرمينية وحدود رومة، وأنذر سويروس ألكسندروس زميله الساساني الجديد، وذَكَّرَهُ بما فعلته رومة بسلفائه الأراشقة فلم تنفع الذكرى؛ فاضطر الإمبراطور الروماني أن يجيِّش للقاء هذا الخصم الجديد، فنهض إلى أنطاكية في السنة ٢٣١ وجعلها قاعدة أعماله، ورافقته والدته يولية مامية، فاستقرت في أنطاكية مدة من الزمن.

واهتمت والدة الإمبراطور لانتشار النصرانية، وعلمت أن علم أعلامها آنئذٍ كان أوريجانس الإسكندري، فأوفدت إليه حرَّاسًا إمبراطوريين، واستقدمته إلى أنطاكية لتسمع منه شروح بعض المسائل الدينية، ففعل وأقام في أنطاكية مدة من الزمن. ويختلف رجال الاختصاص في تعيين الزمن الذي تمت فيه هذه الزيارة؛ فالأستاذ كاديو يجعلها من حوادث السنة ٢٢٤-٢٢٥،[٣٥] أما العلَّامة بينييه والسيد بيلماير، فإنهما يتفقان في جعلها من حوادث السنة ٢٣٢،[٣٦] ويجب ألا يغيب عن البال أن أفسابيوس الذي ينفرد في رواية هذا الخبر[٣٧] لا يقول إن يولية هذه كانت مسيحية، ولا إنها تنصَّرَتْ بعد هذه المقابلة، ولا يخفى أيضًا أن حاكم العربية، ولعله Furnius Julianus كان قد استدعى أوريجانس إلى بصرى ليتحدث إليه في «بعض أمور» منذ السنة ٢١٤-٢١٥، وأن أوريجانس كان قد لبى الطلب.[٣٨]

مكتبة أوروشليم

وكانت أم الكنائس قد خصت رئاستها بأقرباء السيد في الجسد وبغيرهم ممن كان من أصل يهودي، فلما أوقد اليهود نار الثورة سنة ١٣٢، وتشردوا كما سبق وأشرنا، أخذت أم الكنائس تختار لرئاستها أساقفة من الأمم، وكان مرقس الأسقف الأول من هؤلاء

[٣٥] Cadiou, R., La Jeunesse d'Origéne 334–338.

[٣٦] Besnier, M., Empire Romain, 104, n. 334; Bihlmeyer, K., op. cit., 138–149.

[٣٧] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 21.

[٣٨] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 19.

والسادس عشر بعد يعقوب أخي الرب، وفي السنة ١٨٥ رقي السدة الرسولية الأوروشليمية نرقيسوس القديس Narxisson الذي تشرف بفعل المعجزات، وعَمَّرَ نرقيسوس طويلًا (١٠٠–٢١٦)، ولما لم يَعُدْ يستطيع القيام بأعباء وظيفته لتقدمه في السن، دعت عناية الله ألكسندروس أسقف قيصرية قبدوقية لزيارة الأماكن المقدسة في السنة ٢١٢.

وكان ألكسندروس هذا قد درس على بنطينس وأقليمس الإسكندريين، وجاهد في سبيل الدين، فما إن علم المسيحيون بقدومه حتى ألحوا عليه بالبقاء بينهم وتولي شئون كنيستهم، واشترك مسيحيو الكنائس المجاورة في هذا الإلحاح، فقبل ألكسندروس وساس كنيسة أوروشليم تسعًا وثلاثين سنة (٢١٢–٢٥١)، وأفضل ما يُذكَر له بعد تمسُّكه بأهداب الدين القويم وقيامه بالواجب الرعائي، اهتمامُه بإنشاء مكتبة في أوروشليم تجمع أهم ما صنف في الدين المسيحي، وأثمن ما تبودل من رسائل في مشاكل الكنيسة واحتياجاتها في ذلك العصر، وقد تَسَنَّى لأفسابيوس المؤرخ أن يستعين بهذه المجموعة القيمة عندما صمَّم على تدوين تاريخ الكنيسة.[٣٩] ويُجمِع العلماء الباحثون على أن هذه المكتبة هي أقدم مكاتب النصرانية،[٤٠] ومما يُذكَر لهذا الأسقف التقي الفاضل اهتمامُه في تشجيع الحج إلى الأماكن المقدسة، وما كان للحج من أثر في تقريب القلوب وتوحيد الصفوف.[٤١]

مدرسة قيصرية فلسطين

وكان ما كان من أمر الاضطهاد الذي أمر به كركلا في السنة ٢١٥-٢١٦، ففرَّ أوريجانس العالم من الإسكندرية، والتجأ إلى قيصرية فلسطين، فرحب به أسقفها ثيوكتيستوس Theoctistos وأسقف أوروشليم صديقه ورفيقه في التلمذة ألكسندروس، وطلبا إليه مع غيرهما من أساقفة فلسطين أن يفسر الأسفار المقدسة لجمهور المؤمنين، ففعل وعلَّم وأرشد، فغضب ديمتريوس أسقف الإسكندرية، وكتب يؤنب زملاءه في فلسطين لخروجهم عن العُرْف المألوف وسماحهم لرجل علماني أن يعلِّم في الكنيسة، وأمر

---

[٣٩] Eusèbe, Hist Ecc., VI, 11, 20.

[٤٠] Ghellinck, J. de, Patristique et Moyen Age, II, 259–261; Wendel, C., Bibliothek, Reallex-icon fur Antike und christentum, II, 247–248.

[٤١] Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II, 185.

ديمتريوس أوريجانس بالعودة إلى الإسكندرية، فعاد إليها وواظب على التعليم والتأليف من السنة ٢١٧ حتى السنة ٢٣٠.[٤٢] ثم قام إلى أخائية في بلاد اليونان للفصل في اختلاف نظري بين بعض المسيحيين، ومرَّ بقيصرية فلسطين، فاحتفل أسقفها وأسقف أوروشليم بسيامته قسًّا، فغاظ ذلك ديمتريوس فأسقطه من وظيفة التعليم.

وفي السنة ٢٣١ استقدمته مامية والدة الإمبراطور إلى أنطاكية، فلما انتهى من عمله فيها عاد إلى قيصرية فلسطين واستقر فيها، فنشأت حوله مدرسة لاهوتية اشتهرت بأساتذتها وطلابها، فزادت النصرانية في فلسطين وما جاورها إيمانًا وازدهارًا، وأشهر مَن قرأ على أوريجانس في قيصرية غريغوريوس العجائبي وأخوه أثيندوروس وفرميليانوس القبدوقي،[٤٣] وتابع أوريجانس أبحاثه في تحري النصوص المقدسة والتعليق عليها، وفي الدفاع عن الإيمان القويم، ومن أفيد ما دبَّجَ يراعُه في قيصرية عظاتُه وإرشاداتُه، فإنها تلقي ضوءًا واضحًا على حالة الكنيسة في النصف الأول من القرن الثاني.[٤٤]

يوليوس مكسيمينوس (٢٣٥–٢٦٨)

وفي آخِر السنة ٢٣٤ نهض سويروس ألكسندروس إلى غالية وعبر الرين على جسر من القوارب ليحارب البرابرة، ولكنه بدأ يفاوض هؤلاء مفاوضة بدلًا من محاربتهم، فغضب الجند لكرامتهم ولم يرضوا عن التفاوض، ونسبوا هذا الضعف والتقاعس في السياسة إلى والدة الإمبراطور، التي كانت ترافقه في جبهة القتال، وكانوا قد أَحَبُّوا مدرِّبهم Julius Verus Maximinus لشجاعته وكرمه، فعرضوا الإمبراطورية عليه فرفض أولًا ثم قبل، فنادوا به إمبراطورًا، وانقضُّوا على سويروس ألكسندروس ووالدته وقتلوهما.

وشكا مكسيمينوس من مركب نقص في نفسه، فشعر أن سلفه كان أعلم منه وأشرف، فخشي سوء العاقبة واضطهد حاشية سويروس فنكَّلَ بهم تنكيلًا، وبما أن سويروس عطف على المسيحيين، وألحق عددًا منهم بخدمته، فإن مكسيمينوس اضطهد

---

٤٢ Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 19.

٤٣ Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 27; Patrologia Graeca, Vol. 10 Col. 1049–1105.

٤٤ Bardy, G., Origine, Dict. Theol. Chret., Daniélou, J., Origéne, Paris, 1949, Cadiou, R., Jeunesse d’Origéne.

النصارى، وخصَّ رؤساءهم بعذاب أليم،[٤٥] وكأنه قصد بتهجمه على الرؤساء أن ينفذ الأحكام التي كان قد أصدرها سبتيميوس سويروس منذرًا أن التبشير بالنصرانية أمر غير شرعي،[٤٦] فأبعد عن رومة إلى سردينية أسقف رومة بونتيانوس وعالم كنيستها هيبوليتوس، وأمر الإمبراطور الجديد بإلقاء القبض في قيصرية فلسطين على الشماس إمبروسيوس يد أوريجانس اليمني وعلى الأب بروتيكتيتوس، أما أوريجانس نفسه، فإنه ظلَّ حرًّا طليقًا فيما يظهر؛ لأن تلميذه الشهير غريغوريوس المشار إليه آنفًا يفيد في خطابه الذي دبجه في السنة ٢٣٨ أنه تابع دروسه على أستاذه أوريجانس خمس سنوات متتالية بدون انقطاع،[٤٧] ولا نعلم شيئًا عمَّا جرى لأسقف أنطاكية زيبنوس Zebennos (٢٣١–٢٣٨)، ولكن مراجعنا الأولية لا تشير إلى اضطهاده أو استشهاده، وقُلِ الأمر نفسه عن سائر أساقفة سورية وفلسطين. ويرى العلامة المؤرخ موريس بينيه أن قصر عهد الإمبراطور مكسيمينوس وعدم مطاوعة عمَّاله له أدَّيَا إلى تخفيف وطأة الاضطهاد وتقصيره.[٤٨]

غورديانوس الثالث وفيليبوس العربي (٢٣٨–٢٤٩)

وأثقل مكسيمينوس كاهل الأهلين بالضرائب، وأصغى عمَّاله بسهولة فائقة الحد إلى الوشاة، وصادروا أملاك الأغنياء وكنوز الهياكل، فأثاروا بذلك استياء الجماهير وغضبهم،[٤٩] فأعلن جنود أفريقية في السنة ٢٣٧ غورديانوس الأول إمبراطورًا، وكان هذا من أشراف رومة وقد ناهز الثمانين، فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم معه، وقاومهما والي موريتانية (الجزائر)، فسقط غورديانوس الثاني في ميدان القتال وانتحر والده العجوز، وثار جنود مكسيمينوس في وجهه، فقتلوه في أثناء حصار أكويلية في ولاية البندقية، وتدخَّلَ

[٤٥] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 28; Allard, P., Hist. des Perséc., 210–227; Neumann, K. J., Die Rom. Staat, I, 210–230, 317–318.

[٤٦] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 28.

[٤٧] Zeiller, J., L'Eglise et l'Etat Romain, Fliche et Martin, II, 120, n. 3.

[٤٨] Besnier, M., Emp. Rom., 145.

[٤٩] Herodian, VII, 3, 5; Ps. Aristid. Or. XXV, 16, 21, 30.

مجلس الشيوخ فانتخب بوبيانوس Pupienus وبلبينوس Balbinus فغورديانوس الثالث (٢٣٨–٢٤٤) حفيد الأول؛ نزولًا عند رغبة الشعب.[٥٠] وكان غورديانوس الثالث لا يزال في الثالثة عشرة من عمره، فاضطر أن يرضي جنود الشرق، فأشرك فيليبوس العربي معه في الحكم في السنة ٢٤٣، ثم خرَّ صريعًا في السنة ٢٤٤ بيد قائد الحرس، فاستأثر فيليبوس بالسلطة (٢٤٤–٢٤٩).[٥١]

فيليبوس والنصارى

وُلِدَ فيليبوس Julius Philippus في حوران في أوائل القرن الثالث من أبوين حورانيين من رتبة فارس،[٥٢] ولا صحة للقول بأنه تحدر من أصل وضيع، أو أن والده كان زعيم عصابة من اللصوص،[٥٣] ولا نعلم شيئًا عن حداثته أو عن سيرته قبل الحرب الفارسية في عهد غورديانوس الثالث، ويتضح من النصوص الباقية أنه كان قد توصَّل عند نشوب هذه الحرب إلى رتبة قائد، وأنه كان قد تمكن على الرغم من بُعده عن رومة من الاتصال بمجلس شيوخها ومن استرضائهم، وما إن توصَّل إلى دست الحكم حتى خفَّفَ الضرائب عن كاهل الأهلين، وأبعد عن شخصه الوشاة والجواسيس، ونهج نهج الإمبراطور المثالي مستمسكًا بالفضائل الرواقية، مثبتًا أنه سيد جنوده لا رقيقهم.[٥٤]

ولا يختلف اثنان فيما نعلم في أن فيليبوس العربي عطف على النصارى، ولم ينفذ في حقهم القوانين السارية المفعول، ومما لا شك فيه أيضًا أن فيليبوس وظَّف المسيحيين، وجعل من بعض أساقفة أفريقية ولاة إمبراطوريين.[٥٥]

---

٥٠ Herodian., VII, 4–10; Hist. Aug., Maximinus, 19, Gordianus 1–14; Sommer, A., Ereignisse des Jahres 238; Homo, L., Rev. Hist., 1919, II, 209–264, III, 1–38.

٥١ Muller, J., Antonio Gordiano III; Stein, “Julius”, Real Encyc., X, 755–770.

٥٢ Corpus Insc. Lat., III, 14149, VI, 1638; Insc. Graec. ad res Rom. Pert., III, 1033; Prentice, W. K., Amer. Arch. Exp. to Syria, 1899–1900, 131.

٥٣ Aurelius Victor, Epit., 28, 4.

٥٤ Ps. Aristid. Or. XXXV, 16, 21, 30.

٥٥ Cyprian., De Laps., 3.

فيليبوس والقديس بابولا

وهل يجوز أن نذهب إلى أبعد من هذا، فنقول مع القديس إيرونيموس وأوروسيوس أن فيليبوس كان أول الأباطرة النصارى،[٥٦] ونقول مع الذهبي الفم إن فيليبوس الإمبراطور خضع للتكفير الذي فرضه عليه القديس بابولا أسقف أنطاكية (٢٣٨–٢٥٠)، فوقف في كنيسة أنطاكية مع الموعوظين هو وزوجته الإمبراطورة؛ لأنه كان قد اتهم بمقتل غورديانوس الثالث؟[٥٧]

وفي الإجابة عن هذا نقول إن النصرانية كانت قد انتشرت انتشارًا واسعًا في حوران قبيل أيام فيليبوس، وإن أفسابيوس الذي حفظ لنا هذا الخبر وُلِدَ في السنة ٢٦٥ وسيم أسقفًا على قيصرية فلسطين في السنة ٣١٣، وعرف الرسائل التي وجَّهها أوريجانس إلى فيليبوس وزوجته أوتاكيلية Otacilia، وإن يوحنا الذهبي الفم كان ابن أنطاكية، وإن ما سمعه فيها عن القديس بابولا نُقِل إليه في النصف الثاني من القرن الرابع، وإنه يجوز والحالة هذه أن يكون فيليبوس قد تقبل النصرانية في حداثته، ولم يتظاهر بها عملًا بالتقية الشائعة في أوساط النصارى في ذلك العهد، ولا نرى مبررًا للأخذ برواية ثيودوريطس مع العلامة غوستاف بردي، والقول إن الذي فُرِض عليه التكفير ووقف مع الموعوظين هو ثيودوسيوس لا فيليبوس،[٥٨] وأشهر مَن اعترض على صحة هذه الرواية المؤرخ الألماني نومان.[٥٩]

---

٥٦ Hieron., Vir. Illustrib., 54; Orosius, Hist. adv. Paganos, VII, 20; Acta Sanct., Mai, III, 277.

٥٧ Chrysostomos, Oratio in S. Babylas, 6.

٥٨ Eusèbe de Césarée, Traduction Par Gustave Bardy, Paris, 1955, II, 136, n. 2; Zeiller, J., l'Eglise et l'Etat, op. cit., II, 121–122.

٥٩ Neumann, K. J., Romische Staat, I, 245–250.

الفصل التاسع

الاضطهادات الكبرى

٢٤٩–٢٨٥

الإمبراطور داقيوس والنصارى (٢٤٩–٢٥١)

وقدر الرومان فيليبوس العربي حق قدره، ورأوا في شخصه حاكمًا عاقلًا رزينًا، أحب رومة وأخلص لها وحافظ على تقاليدها، ولكن حدة المناظرة والمشادة بين جيوش الشرق وجيوش الغرب دفعت هؤلاء إلى المناداة بقائدهم Messius Traianus Decius إمبراطورًا لدى نجاحه في إبعاد البرابرة القوط عن الدانوب، وكان ما كان من أمر القتال بين فيليبوس وبين داقيوس بالقرب من فيرونة في إيطالية، فدارت الدائرة على الأول وسقط في الميدان مقاتلًا.[١]

وبوصول داقيوس إلى منصة الحكم دخلت الكنيسة في دور جديد من حيث علاقاتها بالدولة الرومانية، فداقيوس اقتدى بترايانوس وحمل اسمه، فأحب أن يعود برومة إلى ما كانت عليه في أيام عزها، واستمسك بدين الآباء والأجداد، فأعلنا حربًا لا هوادة فيها على مَن آمَن بيسوع إكليروسًا وشعبًا، وقد مرَّ بنا أن الأباطرة السابقين اعتبروا الدين المسيحي دينًا غير شرعي، واكتفوا أولًا بالنظر في الحوادث لدى ظهورها، ثم منعوا التبشير واتخذوا بعض الإجراءات ضد مَن اشتهر في اجتذاب الناس إلى الكنيسة؛ أما داقيوس فإنه جعل السلطة المركزية في الدولة تأخذ قمع النصرانية على عاتقها، فتتخذ إجراءات معينة للتفتيش عن النصارى ومجازاتهم في جميع أطراف الدولة.

[١] Besnier, M., Emp. Rom., 154–155.

مرسوم التحريم (٢٥٠)

وقد ضاع نص المرسوم الذي حرَّم به داقيوس القول بالنصرانية، وادعاء بيدون Bedon في السنة ١٦٦٤ بأنه عثر على هذا النص هو ادعاء باطل؛[٢] فرجال الاختصاص يُجمِعون اليوم على أن نص بيدون نصٌّ مزوَّر، وأن بيدون نفسه زوَّره بيده.[٣] وعلى الرغم من ضياع هذا النص، فإن العلماء الباحثين قد تمكنوا باجتهادهم من معرفة مضمون النص أو مؤداه؛ فديونيسيوس الإسكندري يقول إن المرسوم كان مخيفًا، وإنه أوقع بكبار الرجال،[٤] وأوريجانس يرى فيه محاولة لمحو اسم يسوع،[٥] ومما نقله غريغوريوس النيسي أن هذا المرسوم الإمبراطوري قضى بتعذيب المؤمنين لإرجاعهم إلى عبادة الشياطين،[٦] ويفيد القديس كبريانوس الأفريقي أن الحكومة الرومانية ألَّفت لجانًا محلية لتنفيذ الإرادة السنية وإرغام المسيحيين على عبادة الآلهة وتقديم البخور والخمر لها وتناول اللحم المقدس،[٧] وقد أثبتت آثار مصر ما جاء في هذه النصوص؛ فإن أعمال التنقيب في وادي النيل في القرن الماضي أتحفتنا بما لا يقل عن أربعين وثيقة بردية تعود إلى شهري حزيران وتموز من السنة ٢٥٠، وتنص على أن حامليها ما برحوا يخدمون الآلهة ويقدمون البخور والخمر لها ويشتركون في تناول اللحم المقدس، وأنهم يستحقون نيل الشهادة بذلك من «أعضاء اللجنة».[٨]

تنفيذ التحريم

وأُلِّفت اللجان وبدأت أعمالها في منتصف السنة ٢٥٠، فطلبت إلى جميع المواطنين أن يتقدموا من الآلهة بالسجود والإكرام؛ فامتنع معظم المسيحيين فحل بهم العقاب، وارتد بعضهم ثم عادوا فاهتدوا، ودام العذاب سنة كاملة.

---

٢ Bedon, B., Decii Imp. Edictum adversus Christianos, Toulouse, 1664.

٣ Besnier, S., op. cit., 160, n. 101.

٤ Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 41.

٥ Origéne, Homel. IX, in Josuam.

٦ Greg. Nyss., vit. Greg. Thaumat., Pat. Gr., Vol. 45, Col. 943.

٧ Cyprian., Epist., 43, 49, 67, De Laps. S.

٨ Leclercq, N., Déce, Dict. Arch. Chrét.; Schoenaich, G., Die Libelli und ihre Bedeutung.

استشهاد بابولا أسقف أنطاكية

وُجلِدَ بابولا Babylas أسقف أنطاكية، وسُجن وأوثق بالأصفاد في عنقه وبالقيود في رجليه، وحُبس معه ثلاثة إخوة صغار كان بابولا يلقنهم الدين القويم، وأوصى بابولا قبل انطلاق نفسه بدفن هذه الأصفاد والقيود معه، وهنالك اختلاف في كيفية وفاة بابولا، فإما أن يكون قد حُزَّ رأسه حزًّا مع الفتيان الثلاثة،[٩] أو أن يكون قد توفي في السجن من جراء العذاب،[١٠] وبُني على اسمه كنيسة حوَت ضريحه.

عذاب ألكسندروس أسقف أوروشليم

ومثل ألكسندروس أسقف أوروشليم أمام حاكم قيصرية فلسطين، فأعلن تعلقه بالسيد المخلص، فسُجِن وذاق ألوانًا من العذاب ثم توفي سجينًا، وكان قد سبق له أن نادى باسم يسوع في عهد سبتيموس سويروس.[١١]

دور أوريجانس العظيم

وكان من الطبيعي جدًّا أن يشمل إحصاء داقيوس كوكب النصرانية أوريجانس العظيم، فقد جاء في تاريخ الكنيسة لأفسابيوس أن إبليس هاجم عددًا كبيرًا من الأتقياء الأبرار، ولكنه جرَّدَ كل ما لديه من قوًى لمحاربة أوريجانس، فحكمت السلطات عليه بالحبس، فُقيِّدَ بالأغلال وزُجَّ في أظلم السجون وكُوِي بالحديد الحامي، وفُجَّ حتى الدرجة الرابعة؛[١٢] فأذاقه اعترافه بالإيمان عذابًا أليمًا طويلًا أنهك قواه، واضطر داقيوس أن يعود إلى جبهة الدانوب، فخفت وطأة الاضطهاد وأفرج عن أوريجانس، فأمَّ مدينة صور وتوفي فيها في التاسعة والستين من عمره، وفي السنة ٢٥٣ ودُفِن فيها، فاستحق ضريحًا جليلًا بقي مدة طويلة من الزمن يلفت أنظار السياح وأبناء السبيل.[١٣]

---

[٩] Chrysostomos, De Sancta Babyla.

[١٠] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 39.

[١١] Ibid., VI, 39, 46.

[١٢] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 39; Le Blant, Rev. Arch., (1889), XIII, 148 ff.

[١٣] Photius, Biblioth., 118.

القديس خريستوفوروس

وجاءَ في التقليد في سيرِ القديسين أن خريستوفوروس الذي كان قد تقبَّل النعمة على يد بابولا أسقف أنطاكية، ونال شهرة واسعة في التدين والورع والتقوى، لقي حتفه في عهد داقيوس في إقليم ليقية في جنوبي آسية الصغرى، فجُلِد بقضبان من حديدٍ حتى تناثَرَ لحمه واستحم بدمه، ثم طُرِح في لهيب النيران، ولما نجا منها عُرِّضَ لسهام الجنود فلم يَمُتْ، فجزَّ رأسه جزًّا.

غالاكتيون وزوجته

وفي حمص أُلقِي القبض على غالاكتيون وزوجته أبستيمي، فجُلِدَا ثم قُطعت أيديهما وأرجلهما، ولكنهما لم ينكرا يسوع فقُطِّعت هامتاهما ففازَا بإكليل الشهادة.

الإمبراطور غالوس والطاعون (٢٥١–٢٥٣)

وعاد القوط إلى البلقان وعبروا الدانوب وتجهوا نحو فيليبوبوليس (٢٥٠)، فاضطر داقيوس أن يصمد في وجههم ويردهم فسقط في ميدان القتال (٢٥١) عند مصب الدانوب، فنادى الجنود بغالوس Vibius Tribonianus Gallus إمبراطورًا، وقبلوا بهوستليانوس Hostilianus ابن داقيوس شريكًا له في الحكم، فصالَحَ غالوس القوط وعاد مسرعًا إلى رومة ليدبِّر أمورها.

وانتشر وباء في حوض المتوسط في أواخر السنة ٢٥١ ولعله الطاعون، فاجتاح الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها، وجرف عددًا كبيرًا من الضحايا، ورأى الوثنيون في هذا كله مظهرًا من مظاهر غضب الآلهة لانتشار النصرانية، فطالبوا بالعودة إلى الاضطهاد، فمثلت مأساة أخرى أدت إلى استشهاد عدد من المسيحيين في رومة وفي ولاية إفريقية وفي الإسكندرية.[١٤]

---

[١٤] Allard, P., Les Derniéres Persécutions du III^{e}, Siécle, Ch. I.

الإمبراطور فاليريانوس (٢٥٣–٢٦٠)

وفي السنة ٢٥٣ عبر القوط الدانوب مرة أخرى، فردهم حاكم ميسية أميليوس أميليانوس Aemilius Aemilianus، وأوقع بهم خسارة فادحة، فاستكبر الجنود عمله ونادوا به إمبراطورًا، وحذا حذوهم جنود الشرق كله، فاستنجد غالوس بقائد قوات نهر الرين ليكينيوس فاليريانوس Licinus Valerianus، وما إن علم جنود هذا بواقع الحال حتى نادوا به أيضًا إمبراطورًا، فالتقت في إيطالية جيوش متعادية ثلاثة، فانتصر أميليانوس على غالوس في أواخر أيار وقضى عليه، وبعد ذلك بثلاثة أشهر خرَّ أميليانوس نفسه صريعًا بخناجر جنوده، وكثرت مشاكل الدولة وتشعبت، فوكل فاليريانوس الأشراف على حدود الرين وما جاورها إلى ابنه غاليانوس Gallianus، ونهض هو على رأس جيوشه إلى الشرق لينظر في شئونه ويدرأ خطر الفرس.[١٥]

وكانت هيبة رومة قد ضاعت في الشرق، وكثرت تعديات القبائل العربية في بادية سورية، فلجأ داقيوس في أوائل عهده إلى حيلة غريبة يدرأ بها خطر هذه القبائل، فاستقدم عددًا من الأسود واللبوات من أفريقية، وأطلقها في بادية الشام تهدد القبائل بفناء جمالهم وسائر ماشيتهم.[١٦]

وكان غالوس لا يزال في قيد الحياة (٢٥٣) عندما زحف شابور الساساني على أرمينية والجزيرة وسورية الشمالية، ودخل أنطاكية مخرِّبًا محرقًا سابيًا، ولولا حزم أمير حمص وكاهنها الأعظم أورانيوس أنطونينوس Uranius Antoninus وصموده في وجه الفرس، لانتشر هؤلاء في طول البلاد وعرضها.

وعلى الرغم من تقدُّم فاليريانوس في السن، وكان قد ناهز السبعين، فإنه ما كاد يستولي على عرش الأباطرة حتى أدرك حراجة الموقف في الشرق، فاستعاد أنطاكية في السنة ٢٥٤، ونهض بجنوده في السنة التالية، فجعل سميساط قاعدةً لأعماله الحربية، ولكن خوفه من مطامع كبار القادة أدَّى إلى الاستعاضة عنهم بضباط عاديين، فتمكَّنَ هورمزد بن شابور من اختراق الحدود عند الصالحية Doura Europos والتوغل في سورية الشمالية، وتألبت العناصر المعارضة على فاليريانوس واتصلت بالأكاسرة، فقاد

---

[١٥] Besnier, M., Emp. Rom., 170–171.

[١٦] Chronicon Paschale, Pat. Gr., Vol. 92; Cumont, Fouilles de Doura Europos, LXIII, n. 5; Abel, F. M., Croisiére autour de la Mer Morte, Rev. Bib., 1932, 252 f.

ماريادس Mariades أحد أبناء أنطاكية الفرس إلى مسقط رأسه، فدخلوا أنطاكية مرة ثالثة في السنة ٢٥٨، وأعملوا السيوف في رقاب أهلها، ووقع فاليريانوس (٢٦٠) أسيرًا في يد شابور،[١٧] ولكن مكريانوس Macrianus أمين المال تمكَّنَ بمعونة حامية الرها من الامتناع في سميساط وتدبير هجوم معاكس، وصمد القائد بليستة Ballista في وجه شابور في قيليقية، وأنزل به خسارة فادحة، فاضطر شابور أن يهرول شطر الفرات، وما إن وصل إلى هذا النهر حتى أوقع به سبتيميوس أذينة أمير تدمر؛ فاضطر أن يسرع في التراجع تاركًا شيئًا كثيرًا من غنائمه.[١٨]

فاليريانوس والنصارى (٢٥٧–٢٦٠)

وسكت فاليريانوس في بدء عهده عن النصارى ولم يلحق بهم أذًى، وكثر عددهم في البلاط، وشغل بعضهم وظائف هامة، وتظاهرت سالونينة Salonina كنة الإمبراطور بعطفها على النصارى ولعلها تنصَّرَتْ، وغالى بعض النصارى في مديح الإمبراطور فشبه بلاطه بكنيسة الله.[١٩]

ثم أحدق الخطر بالإمبراطورية في جميع أطرافها، فهجم الإفرنج والألمان على حدودها الغربية، وتجرأ القوط في وادي الدانوب وحوض البحر الأسود، وثار البربر في أفريقية، وعبر شابور الفرات وخرق حرمة الدولة؛ فاضطربت الأوساط الرسمية والشعبية، وعزا بعضهم ذلك إلى امتناع المسيحيين عن إرضاء الآلهة، ورأوا فيهم خطرًا داخليًّا كبيرًا على سلامة الدولة.[٢٠] وكان مكريانوس يمين الإمبراطور شديد التعلق بالديانات الوثنية الشرقية، فأشار فيما يظهر بوجوب التضييق مرة أخرى،[٢١] واستصدر إرادتين إمبراطوريتين: الأولى في آب السنة ٢٥٧، والثانية في السنة التالية، فحرَّمت الأولى إجراء الطقوس المسيحية وزيارة المدافن، وأوجبت على الأساقفة والكهنة والشمامسة أن يقدموا الذبائح لآلهة

---

[١٧] Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II, 213-214.

[١٨] ولا بد من الإشارة هنا إلى إعادة النظر في ترتيب الوقائع بين السنة ٢٥٣ والسنة ٢٦١، وتعيين تواريخها على ضوء أبحاث العلامة الأستاذ ألفودي في مجلة بيروت. Alfodi, Berytus, 1937, 41 ff.

[١٩] S. Dionys. d'Alexandrie, Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 10.

[٢٠] Zeiler, J., Les Grandes Persécutions, Fliche et Martin, op. cit., II, 153.

[٢١] Allard, P., Les Derniéres Perséc., 36–155; Healy, P. J., Valerian Persecutions.

الإمبراطورية،[٢٢] ثم تبين للسلطات أن عدد المسيحيين كان أكثر بكثير مما قدروه، وأن عددًا غير قليل منهم كان من الطبقات العالية، فجاءت الإرادة الثانية في السنة ٢٥٨ تفرق بين طبقات أربع من المسيحيين: الأساقفة وسائر الإكليروس، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، والسيدات ورجال البلاط، والأملاك السنية، وفرضت هذه الإرادة الثانية عقوبة الموت على الإكليروس، وعزل الشيوخ والفرسان من مراكزهم ومصادرة أملاكهم، والحكم عليهم بالإعدام إذا أصروا على القول بالنصرانية، أما السيدات فتُصادَر أملاكهنَّ وينفون وتُصادَر أملاك رجال البلاط، ويُكرَهون على العمل في أراضي الأباطرة مقيَّدين بالسلاسل،[٢٣] وتتميز هاتان الإرادتان عن غيرهما من الأوامر التي أوجبت الاضطهاد في أنهما توجبان مصادرة الأملاك، ويجوز القول والحالة هذه إن فاليريانوس أراد أن يدافع عن دين الدولة، وأن يملأ خزائنها في آنٍ واحد.[٢٤]

واستشهد في الغرب من جرَّاء التشريع عدد من الرؤساء، أشهرهم: سكستوس الثاني أسقف رومة، وكبريانوس القرطاجي، ومما يُؤسَف له أن جميع مصادرنا القديمة خالية من أخبار اضطهاد الرؤساء الأساقفة في سورية وفلسطين. ومع أن أفسابيوس يفيدنا أن ديمتريانوس خلف فابيوس في رئاسة كنيسة أنطاكية فيما يعادل السنة ٢٥٣،[٢٥] وأن هيليودوروس ترأس كنيسة اللاذقية، وأن مارينوس كان أسقف صور وثيوقتيستوس Theoctistos أسقف قيصرية ومزابانس Mazabenes أسقف إيلية أي أوروشليم،[٢٦] فإنه لا يذكر شيئًا عن علاقتهم بالسلطات الرومانية، ولا يجوز الاجتهاد في هذا السكوت؛ لأن مراجعنا قليلة، ولأنها ليست تواريخ منظمة كاملة. وقد يكون سبب هذا السكوت أن فاليريانوس ووزيره كانَا بأشد الحاجة إلى السكينة في الداخل؛ ليتمكَّنَا من التفوُّق على الساسانيين وإجلائهم عن الأراضي الرومانية، ولا يزال خبر أسر ديمتريانوس أسقف أنطاكية ونقله إلى فارس غير ثابت، وهنالك إشارة في مصدرين آخرين إلى استشهاد

[٢٢] Acta Procons. Cyprian., I, 1, 8; Dionys. op. Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 11.

[٢٣] Cyprian., Epist., 80.

[٢٤] Besnier, M., Emp. Rom. 173; Zeiller, J., Grandes Persécutions, Fliche et Martin, op. cit., II, 153–154.

[٢٥] Peeters, P., Anal. Boll., 1924, 310–314.

[٢٦] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 5.

أسقفين مرقيونيين لا قيمة سياسية لهما؛ نظرًا لقلة أهمية المرقيونيين آنئذٍ.[٢٧] ويعتز أفسابيوس بحرارة الإيمان التي دفعت ثلاثة من أبناء كنيسته إلى الاستشهاد في سبيل السيد المخلص، فهو يقول إن بريسكوس وملكوس وألكسندروس خرجوا من مساكنهم في الأرياف، وأموا قيصرية فلسطين، ومثلوا أمام السلطة فيها متطوعين غير مُكرَهين، فقضوا نحبهم تحت براثن الوحوش.[٢٨]

وجاء في التقليد أن الحاكم الروماني في أنطاكية قبض في السنة ٢٥٨ على الكاهن الأنطاكي سبيريكيوس، وأمره أن يقدِّم الذبائح للآلهة، فرفض بجرأة ودافع دفاعًا مجيدًا عن النصرانية، فصدر أمر الحاكم بضرب عنقه، وفيما هو ذاهب ليلقى حتفه اعترض سبيله صديق قديم اسمه نيقيفوروس، وطلب إليه أن يصفح عن الماضي ويغفر له، غير أن الكاهن لم يكترث فرافقه نيقيفوروس إلى موضع النطع، وكرَّرَ رجاءَه قائلًا: «يا شهيد المسيح سامحني؛ لأني أخطأت إليك.» ولكن سبيريكيوس لم يصفح، فركع نيقيفوروس على قدمي الكاهن، والدمع يبلل وجهه وأعاد الكرة، ولكن سبيريكيس لم يفه بكلمة واحدة، ثم أُمِرَ سبيريكيوس أن يركع لينفذ فيه الحكم، فاستولى عليه الخوف وجحد النعمة، وقال إنه مستعِدٌّ لتقديم الذبائح للآلهة، وعندئذٍ صاح نيقيفوروس بالجلادين قائلًا: «أنا مسيحي وإني أؤمن بالسيد المسيح الذي أنكره هذا، فاقتلوني بدلًا منه.» فمات شهيدًا!

غاليانوس (٢٦٠–٢٦٨)

وكان ليكينيوس أغناطيوس غاليانوس Licinius Egnatius Gallienus قد شارَكَ أباه في الحكم منذ السنة ٢٥٣، فلما وقع والده في يد الفرس أسيرًا أحاطت به النكبات والمصائب؛ فاشتدت وطأة الطاعون حتى جرف الناس بالألوف،[٢٩] وجاءت الزلازل تصدع الأبنية والمساكن في إيطالية وأفريقية وآسية (٢٦٢)،[٣٠] وتمرَّد الأرقاء في صقلية[٣١] واشتد ضغط البرابرة عند الحدود وكثر عدد الطامعين بالملك، ونادى مكريانوس بابنَيْه مكريانوس

[٢٧] Epiphanes, Haeres., LXIII, 2; De Martyr, Palaest., X, 1.

[٢٨] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 12.

[٢٩] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 22; Zosimus, I, 37.

[٣٠] Hist. Aug., Gallienus, V, 2–4.

[٣١] Hist. Aug., IV, 9.

وكوايتوس قيصرين في الشرق، واعترفت بسلطتهما آسية وسورية ومصر (٢٦٠)،[٣٢] ثم ازداد طمعه، فنهض وابنه البكر إلى الغرب ليقضي على غاليانوس فمني بالفشل في اليرية وخرَّ صريعًا (٢٦١).

ورأى غاليانوس أن يستعين بأذينة العربي أمير تدمر فمنحه لقب Dux، وأمره على جميع جنود رومة في الشرق،[٣٣] فهب أذينة للكفاح في سبيل غاليانوس، فقتل كوايتوس في معركة حمص (٢٦٢) وقضى على حركته، ودانت له باسم غاليانوس مصر وسورية وآسية الصغرى، ثم عبر الفرات يحارب الفرس، فاكتسح العراق حتى طيسفون وأعاد الحدود الرومانية إلى ما كانت عليه في عهد سبتيميوس سويروس.[٣٤] وفي السنة ٢٦٦ نهض إلى آسية الصغرى يطهرها من القوط البرابرة، الذين نزلوا إليها من الشمال، فاضطرهم إلى العودة إلى قواربهم بعد خسائر فادحة،[٣٥] فكافأه غاليانوس بأنه منحه لقب إمبراطور ولقب Corrector Orientis، ثم كان ما كان من أمر أذينة واغتياله، فظن غاليانوس أن الفرصة سنحت لفرض سلطته على الشرق مباشَرةً، فلم يمنح وهبة اللات ابن زنوبية من أذينة الألقاب نفسها التي حملها أذينة، فصمدت زنوبية في وجه الإمبراطور وأكرهته على التراجع،[٣٦] وعادت المياه إلى مجاريها، فحكمت زنوبية وابنها باسم غاليانوس كما تدلنا على ذلك المسكوكات التي ضُرِبت في أنطاكية.

غاليانوس والنصارى

وأدَّى ضغط البرابرة في الخارج وطمع الزعماء في الداخل إلى اعتدال في سياسة غاليانوس، فأمر في السنة ٢٦٠ بوقف الاضطهاد الذي كان قد أوجبه والده، ولا نعلم نص الإرادة الإمبراطورية بوقف الاضطهاد،[٣٧] ولكننا نقرأ في تاريخ الكنيسة لأفسابيوس أن الأساقفة استغلوا الظرف الجديد فتقدموا من الإمبراطور مطالبين برد الكنائس والمدافن المصادرة

[٣٢] Hist, Aug., XXX, Tyr., 12; Papyr. Oxyrrh., 476.

[٣٣] Syncell., I, 716; Zonaras, XII, 23.

[٣٤] Hist. Aug., Gallien., XII, 1.

[٣٥] Syncell., op. cit., I, 716.

[٣٦] Hist. Aug., XIII, 4–5.

[٣٧] Zeiller, J., Grandes Persécutions, Fliche et Martin, op. cit., II, 157.

إليهم، فأجاب الإمبراطور سؤلهم، وسمح لهم بمزاولة أعمالهم كما سبق لهم وفعلوا قبل الاضطهاد.[٣٨]

ثم يتابع أفسابيوس فيذكر وصول ديمتريانوس إلى أسقفية أنطاكية بعد فابيوس (٢٥٣)،[٣٩] ووصول دومنوس إلى الأسقفية في قيصرية فلسطين بعد ثيوقتيستوس، ووصول هيمينايوس إلى أسقفية أوروشليم بعد مزابانس، ويقول إنه في عهد هؤلاء أي في السنة ٢٦٢-٢٦٣ تمَّ استشهاد مارينوس الشريف الغني صاحب الرتبة العالية في الجيش، وذلك لمناسبة ترقيته، فإنه ما كاد أحد زملائه يعلم بهذه الترقية حتى أعلم السلطات العسكرية بأنه هو أحق من مارينوس بها؛ لأن مارينوس كان نصرانيًّا، فأحيل مارينوس إلى القضاء، فمثل أمام آخيوس القاضي في قيصرية فلسطين، فسأله القاضي عن مذهبه، فأجاب أنه نصراني، فرفق به القاضي ومهَّل حكمه ثلاث ساعات ليعيد مارينوس فيها النظر في أمر معتقده، فلما خرج من قاعة المحاكمة أخذه الأسقف بيده إلى الكنيسة، ووقف به أمام المذبح ثم رفع رداء مارينوس العسكري وأمسك بالخنجر باليد الواحدة، وتناول الإنجيل المقدس باليد الأخرى، وقال لمارينوس: انتقِ أنت هذا أو ذاك. فاستمسك مارينوس بالإنجيل، فقال الأسقف: اذهب بسلام. فعاد مارينوس إلى قاعة المحاكمة، فحكم عليه بالإعدام؛[٤٠] ومن هنا تحفظ رجال الاختصاص وقولهم إن الاضطهاد لم يقف وقوفًا تامًّا كاملًا شاملًا، ولم يصبح الدين المسيحي دينًا شرعيًّا Religio Licita، وإنما هدأ الاضطهاد هدوءًا، فانتقلت المبادرة في طلب تنفيذ القوانين بحق النصارى من السلطات إلى الأفراد، كما جرى في حادث مارينوس الضابط الروماني، أو إلى الجماعات.[٤١]

ولا يجوز القول إن الفضل في تسامح غاليانوس يعود إلى زوجته سالونينة المسيحية؛ لأن نصرانيتها لا تزال في موضع الشك، فالعبارة Augusta in Pace التي ترد على نقودها إنما تشير إلى تعلُّقها بالإلاهة Pax.[٤٢]

---

[٣٨] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 13.

[٣٩] Chron., 219.

[٤٠] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 15; Tillemont, Mémoires, IV, 23; Harnack, Mission und Ausbreitung, II, 584.

[٤١] Besnier, M., Emp. Rom., 185–186.

[٤٢] Mowat, R., Centen. Soc. Antiq. de France, 329–330.

الأباطرة الأليريون (٢٦٨–٢٨٥)

وليس هنالك ما يدل على انقلاب في موقف السلطة من النصارى في عهد كلوديوس الثاني (٢٦٨–٢٧٠)، والدم الذي أُحْرِقَ في عهد هذا الإمبراطور في رومة وإيطالية إنما أُرِيقَ بسبب الجماهير، أو مجلس الشيوخ، أو وغر الصدور في بعض الأوساط الإدارية.[٤٣]

وقال أوريليانوس (٢٧٠–٢٧٥) بالإله الشمس، وأحَبَّ أن يجعله دينَ الدولة الأوحد، ولو فعل لما أبقى على سياسة غاليانوس، ولكنه اغتيل في صيف السنة ٢٧٥، فنجت الكنيسة من محنة كامنة.[٤٤] ودام الهدوء في عهد خلفائه، ولم تتخذ السلطات أي إجراء «عمومي» من شأنه أن يلحق الأذى بالنصارى، ولكن وقوع بعض الأذى ظلَّ محتمًا ما دامت السلطات تعتبر الدين المسيحي دينًا غير شرعي.

القديس إليان الحمصي

وجاء في التقليد أن إليان الحمصي وثلاثة غيره استشهدوا في عهد الإمبراطور نوميريانوس Numerianus ابن كاروس Carus في السنة ٢٨٤، وإليان الشهيد نشأ مسيحيًّا صالحًا في حمص، فهاله أمر الاضطهاد في بلدته، وأحَبَّ أن يواسي المقيدين في سجونها، وأن يجتذب غيرهم إلى الدين القويم، فتعلَّمَ الطب وزار السجون بصفته طبيبًا، وافتقد «المعترفين» وشجعهم، وأوضح للضالين فسادَ الوثنية واجتهد في اكتسابهم، وقُبِضَ في عهد نوميريانوس في حمص على سلوانس ولوقا الشماس الإنجيلي وموكيوس الأناغنسط، وبعد امتحانهم بشتى أنواع العذاب حكم عليهم بالموت بين مخالب الوحوش الضارية، وفيما هم مساقون إلى مدرج حمص ليُطرَحوا إلى الوحوش، قابلهم إليان في الطريق وحياهم وعانقهم مقبِّلًا كلَّ واحد منهم القبلةَ الأخيرة، فقُبِضَ عليه، وامتُحِن بدوره فثبت في الإيمان بيسوع، فسُمِّر رأسه ويداه ورجلاه، وزُجَّ في مغارة خارج حمص، فتشرَّفَ بالاستشهاد معلَّقًا على صليب، وتشبَّه بالسيد له المجد في أنه قاسى نفس النوع من الآلام، ولا تزال الكنيسة تُحيِي ذكراه في اليوم السادس من شباط في كل عام.

[٤٣] Zeiller, J., Grandes Persécutions, Fliche et Martin, op. cit, II, 158.

[٤٤] Besnier, M., Emp. Rom., 261–264.

الفصل العاشر

وهنٌ وضعف وارتداد وانشقاق

وثبت كثيرون في الإيمان وداوموا عليه، وواظبوا واستشهدوا وتحملوا العذاب، ولكن كثيرين أيضًا وهنوا وضعفت قلوبهم فارتدوا وتحولوا إلى الوثنية، وتاب بعض هؤلاء ورغبوا في العودة إلى حضن الكنيسة، فاختلف الرؤساء في قبولهم، فارتأى بعضهم الشدة ومال آخرون إلى الرأفة والرحمة، فتعددت الانشقاقات وتنوعت وطال أمد الاضطراب والقلق.

اضطراب في كنيسة أفريقية

وقال بريفاتوس Privatus أسقف لامبيزة Lambaesa قولًا غريبًا لا نزال نجهله، فحكم عليه مجمع قرطاجي بالهرطقة، واشتد الشغب في كنيسة لامبيزة وطال أمده، فدام اثني عشرة سنة (٢٣٦–٢٤٨) أو أكثر.

وفي السنة ٢٤٩ رقي كبريانوس كرسي الأسقفية في قرطاجة، فرضي البعض عنه وعارض آخرون، وفي طليعة هؤلاء خمسة من الكهنة أشهرهم نوفاتوس Novatus، وحل اضطهاد داقيوس ففرَّ كبريانوس واختبأ، فاستغل نوفاتوس هذا الفرار، وطعن في إيمان كبريانوس، وغالى في تكريم «المعترفين»، الذين تحملوا شتى ألوان العذاب باسم يسوع، واعتبرهم أصحاب الحل والربط في أمر مَن رغب في العودة إلى الإيمان، وكتب إلى كنيسة رومة في فرار كبريانوس من وجه السلطات في أثناء الاضطهاد، وكان ذلك بين وفاة فابيانوس وقبيل ارتقاء كورنيليوس، فاتخذ مجلسُ شيوخِ كنيسةِ رومة قرارًا أظهر فيه عدم الرضى عن فرار كبريانوس،[١] ودافع كبريانوس عن نفسه، فحرَّرَ ثلاث عشرة رسالة

[١] Inter Cyprianicas, L. 55.

إلى كنيسة رومة أبان فيها الأسباب التي دفعته إلى الفرار، واعتدل في موقفه من المرتدين والمعترفين، ولكن نوفاتوس وأتباعه ظلوا معاندين، واستمروا في تقبيح عمل الأسقف، فدعا كبريانوس في أواخر السنة ٢٥٠ مجمعًا محليًا قطع بواسطته نوفاتوس ومن قال قوله.

انشقاق في كنيسة رومة

وبرح نوفاتوس أفريقية وأمَّ رومة، فوجد المؤمنين فيها منقسمين على أنفسهم متجادلين في أمر الخلافة بعد فابيانوس، فمنهم مَن أيَّد كورنيليوس، ومنهم مَن فضَّل نوفاتيانوس Novatianus الكاهن العالم صاحب الرسالة في الثالوث De Trinitate،[٢] فشد نوفاتوس أزر نوفاتيانوس، فلما نجح كورنيليوس عقد مجمعًا محليًّا (٢٥١) أيد به موقف كبريانوس في أفريقية! فطعن نوفاتوس ونوفاتيانوس في انتخاب كورنيليوس، مدَّعيين أن كورنيليوس حصل على شهادة في أثناء الاضطهاد تثبت ارتداده أمام السلطات، وأنه واظب على الاتصال بالمرتدين، ثم استعانا ببعض الأساقفة فساموا نوفاتيانوس أسقفًا على رومة، وأصبح لهذه الكنيسة أسقفان في آنٍ واحد،[٣] وعُرِف أتباع نوفاتوس ونوفاتيانوس بالـ Cathari الطهريين لتمسُّكهم بالطهارة وتطرفهم في أمر المرتدين وعدم قبولهم في عداد المؤمنين.[٤]

أنطاكية ورومة

وكتب كل من نوفاتيانوس وكورنيليوس إلى كبار الأساقفة في الشرق، فوافق ديونيسيوس أسقف الإسكندرية كورنيليوس في موقفه من الجاحدين العائدين إلى التوبة، أما فابيوس أسقف أنطاكية (٢٥٠–٢٥٢)، فإنه آثر الشدة، وقال قول نوفاتيانوس،[٥] وكتب إليه كورنيليوس أكثر من مرة، وطعن في إيمان نوفاتيانوس ولكن دون جدوى،[٦] وتدخل ديونيسيوس فكتب إلى فابيوس موجبًا التروي والاعتدال، مستشهدًا على صحة ما ذهب

---

[٢] Tixeront, Hist. of Dogmas, I, 327; Fausset, W. Y., Novatian's Treatise on the Trinity.

[٣] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 43.

[٤] Pacianus, L. 3; Cyprianus, LL. 41, 59.

[٥] Duchesne, L., Early Hist. of Christ. Church, 299–300.

[٦] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 43; Nicephorus, VI, 3.

إليه بقصة الرجل الشيخ سيرابيون الإسكندري،[٧] وظهرت بوادر الشقاق في كنيسة أنطاكية حول هذا الموضوع،[٨] فاضطر فابيوس أن يشاور في الأمر، فدعا أساقفة الكرسي الأنطاكي إلى مجمع يبحث قضية الجاحدين العائدين إلى التوبة، ويتخذ موقفًا حاسمًا من الشقاق الذي دبَّ إلى كنيسة رومة وقرطاجة وغيرهما، ولبَّى الدعوة عدد من الأساقفة الأنطاكيين أشهرهم: إلينوس Elenos أسقف طرسوس، وفرميليانوس Firmilianos القبدوقي، وثيوقتستوس Theoctistos الفلسطيني.[٩] ورأى إلينوس — وكان فيما يظهر أقدمَ الأساقفة الأنطاكيين سيامة، وأشدهم نفوذًا نظرًا لحجم طرسوس وتسلسل البركة فيها من الرسل أنفسهم — أنَّ اشتراك ديونيسيوس الإسكندري في أعمال المجمع ضروري، فخاطبه بهذا المعنى واشترك معه في خطابه هذا الأساقفة المذكورون أعلاه، ونحن لا نرى في نص أفسابيوس المؤرخ ما يؤيِّد استنتاج الأب بردي، من أن إلينوس وأعوانه دعوا إلى المجمع لافابيوس أسقف أنطاكية المتقدم بينهم؛[١٠] فأفسابيوس يفيد أن ديونيسيوس الإسكندري كتب إلى كورنيليوس الروماني يقول إن إلينوس وفرميليانوس وثيوقتستوس دعوه إلى «اللقاء في مجمع أنطاكية؛ لأن البعض يؤيدون شقاق نوفاتيانوس»، ولكنه لا يفيد أن هؤلاء الأساقفة دعوا أنفسهم إلى هذا المجمع، ولا يخفى أن قلة المراجع الأولى تقضي بالتروي والاعتدال في الاستنتاج.

المجمع الأنطاكي الأول (٢٥٢)

وتوفي فابيوس قبل انعقاد المجمع، واعتذر ديونيسيوس عن الاشتراك في أعمال هذا المجمع الأنطاكي؛ نظرًا لتقدُّمه في السن، فجلس الأساقفة الأعضاء وأيدوا كورنيليوس أسقف رومة في موقفه من قضية الجاحدين، ونبذوا تعليم نوفاتيانوس،[١١] ولعلهم اشتركوا في

[٧] Eusèbe, Hist. Ecc., 44.

[٨] Bardy, G., Paul de Samosate, 214.

[٩] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 46.

[١٠] Bardy, G., Paul de Samosate, 220–221.

[١١] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 5; Muller, K., Kleine Beitrage zur Alten kirchengeschichte, Z. D. N. W., 1924, 234.

سيامة ديمتريانوس الكاهن الأنطاكي أسقفًا على أنطاكية (٢٥٢–٢٦٠) وخلفًا لفابيوس، وهنالك مَن يشك في أمر انعقاد هذا المجمع بعد وفاة فابيوس، وهو قول ضعيف.[١٢]

معمودية الهراطقة والجاحدين

وكان قد خفَّ نشاط الهراطقة منذ نهاية القرن الثاني، وبدأ بعضهم يعود إلى حضن الكنيسة، فاختلف الأساقفة في معمودية هؤلاء واعترف بعضهم بها، وامتنع غيرهم فأوجبوا معمودية ثانية، ودعا أغريبينوس Agrippinus أسقف قرطاجة مجمعًا لهذه الغاية في السنة ٢١٧، وتتابعت جلساته، فقرَّرَ عدم الاعتراف بمعمودية الهراطقة، وجرى مثل هذا في الشرق، فعقد فرميليانوس مجمعًا في أيقونية وآخر في سنادة سنة ٢٣٠، فاتخذ قرارًا مماثلًا.[١٣]

ثم ذرَّ الشقاق قرنه في رومة، فاتخذ نوفاتيانوس موقفًا شديدًا، وأعاد تعميد التائبين وتعميد مَن تساهَلَ معهم، وثابر كرنيليوس على تساهل سلفائه، فلم يتطلب إعادة التعميد، ولكنه لم يتدخل في شئون أساقفة الشرق وأساقفة أفريقية ولم يُثِرْ أي جدل حول هذا الموضوع.

وتوفي كرنيليوس في السنة ٢٥٢، وخلفه في كرسي رومة لوقيوس (٢٥٢-٢٥٣)، ثم إسطفانوس، وكان إسطفانوس خشن الجانب فيما يظهر، حادَّ الطبع شديدًا؛ فاشتد الخلاف حول معمودية الهراطقة والجاحدين، ودخلت الكنيسة الجامعة في أزمة كادت تشقها شقًّا، ففي السنة ٢٥٥ أثار ثمانية عشر أسقفًا من أساقفة نوميدية قضية إعادة المعمودية أمام مجمع قرطاجة، فأوجب المجمع التمسُّك بالتقليد المحلي، ونهى عن قبول معمودية الهراطقة والجاحدين،[١٤] وبعد ذلك بقليل كتب كبريانوس بالمعنى نفسه في الإجابة عن سؤالٍ وجَّهَه إليه أسقفُ موري؛[١٥] وفي خريف السنة ٢٥٥ أو ربيع السنة ٢٥٦

[١٢] Batiffol, La Paix Constantinienne, 92, n. 2.

[١٣] Lebreton, J., Saint Cyprien, Fliche et Martin, op. cit., II, 199–200; Cyprien, Epist., LXXV; Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 7.

[١٤] Cyprien, Epist., LXX.

[١٥] Cyprien, Epist., LXXI.

أحب كبريانوس أن يجلي هذه القضية جلاء تامًّا ويبتها بتًّا، فكتب إلى إسطفانوس مبينًا موقف مجمع قرطاجة، موجبًا إعادة معمودية الهراطقة والتائبين:

> إننا نرفع هذه الرسالة إليك أيها الأخ الحبيب؛ لتقف على حقيقة الأمور رعايةً لرتبتنا العامة وكرامتنا المتبادلة، وبرهانًا على المحبة الخالصة والشركة، ولنا الثقة بتقواك الحقيقي وإيمانك أن كل ما هو صالح وحقيقي يكون حسنًا عندك، ونحن نعلم أن بعضًا لا يتخلون أبدًا عما يستصوبون من الآراء، وأنهم لا يغيرون مواقفهم بسهولة، وأنهم في الوقت الذي يحافظون فيه على علاقاتهم السلمية مع رفقائهم، يصرون على ما ذهبوا إليه ويعاندون، ونحن لا نريد أن نرغم أحدًا على شيء إرغامًا، كما أننا لا نرغب في سن الشرائع للغير؛ فكل رئيس من رؤساء الكنيسة حر أن يدير دفة الإدارة كما يرى مناسبًا، وهو وحده مسئول عن أعماله أمام الرب.[١٦]

فغضب إسطفانوس وكتب إلى أساقفة أفريقية، موجبًا المحافظة على تقاليد رومة الموروثة، مكتفيًا بوضع الأيدي على التائبين، مهدِّدًا بقطع العلاقات، وكان قد أرسل إنذارًا مماثلًا إلى كنائس الشرق إلى أساقفة قيليقية وقبدوقية وغلاطية، فدعا كبريانوس الأساقفة إلى مجمع في أول أيلول، فلبَّى الدعوةَ سبعة وثمانون أسقفًا وقساوسة كثيرون وشمامسة، وأيدوا بقرارٍ جديد موقفَ أفريقية من معمودية الهراطقة والجاحدين، وأكد كبريانوس في جلسات هذا المجمع «أن اختلاف الآراء لا يضر ولا ينافي الاتحاد في الإيمان، ولا يفك الربط بين الكنائس.»[١٧]

موقف كنيسة أنطاكية

وتجلى موقف كنيسة أنطاكية برسالة طويلة دبجها أشهر أحبارها آنئذٍ فرميليانوس نفسه أسقف قيصرية قبدوقية، الذي اشترك في أعمال مجمع أنطاكية كما سبق وأشرنا، وكان الداعي لوضع هذه الرسالة أن كبريانوس وأساقفة أفريقية أوفدوا إلى قيصرية

[١٦] Cyprien, Epist., LXXII.

[١٧] Cyprien, Epist., LXXIV, LXXV.

قبدوقية الشماس روغاتيانوس Rogatianus برسالة إلى فرميليانوس أوضحوا فيها موقفهم وموقف إسطفانوس أسقف رومة.

وكان فرميليانوس قد اشتهر بالتقوى والصلاح والفضل والعلم والمحافظة على سلامة العقيدة، ولكنه كان قد ورث عن أستاذه أوريجانس الإسكندري شيئًا من الكره لرومة، وكان قد أخذ على إسطفانوس نفسه قلة اهتمامه ببعض الأساقفة الشرقيين الذين أوفدوا إليه.[١٨] فلما اطَّلَع على الإضبارة التي حملها إليه روغاتيانوس، ووجد فيها ما يتفق ومقررات مجمعَي أيقونية وسنادة، كتب إلى كبريانوس رسالة طويلة باليونانية، سَدَّدَ بها موقفه وانتقد إسطفانوس انتقادًا لاذعًا، وقد ضاع نصها الأصلي ولم يبقَ عنه سوى ترجمتها إلى اللاتينية، ولعل هذه الترجمة هي لكبريانوس نفسه.[١٩]

وبعد أن أكَّدَ هذا القديس الأنطاكي «أن بيت الرب بيت واحد»، وشكر لإسطفانوس «عتوه»؛ لأنه أتاح له أن يخبر إيمان كبريانوس وحكمته؛ انتقد أسقف رومة في قوله إن الرسل منعوا تعميد الراجعين من الهراطقة، مؤكدًا أن الهرطقة ظهرت بعد الرسل، وبيَّن بعد هذا أن الهراطقة بانشقاقهم عن كنيسة المسيح خسروا السلطة والنعمة اللذين في الكنيسة، وأن الولادة الروحية بالتالي لا يمكن أن تتم من دون الروح. ثم استطرد الحبر الأنطاكي، فأشار إلى الذين عمدهم يوحنا قبل إرسال الروح القدس من الرب عمدهم بولس مرة ثانية بالمعمودية الروحية، ووضع عليهم يده لينالوا الروح القدس، «فما دام بولس عمَّد تلاميذ يوحنا، وقد كانوا معمدين منه، فكيف نقاوم نحن تعميدَ القادمين من الهرطقات إلى الكنيسة؟»

ومما جاء في رسالة فرميليانوس قوله: «علينا أن نسأل مساعدي الهراطقة ما قولهم في معموديتهم، أجسدية هي أم روحية؟ فإن كانت جسدية فلا فرق بينها وبين معمودية اليهود، وإن كانت روحية فكيف يمكن أن تكون معمودية روحية عند الذين ليس لهم الروح القدس؟ وإذا كانت معمودية الهراطقة كافية لتمنح الولادة الثانية فالمعمدون من

---

[١٨] Bardy, G., Paul de Samosate, 220-221; Lebreton, J., Saint Cyprien, Fliche et Martin, op. cit., II, 203; Tillemont, Mémoires, IV.

[١٩] Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum, Hartel, W., III, 810-827; Bayard, L, St. Cyprien, Corresp., Paris, 1925.

الهراطقة ليسوا هراطقة، ولكن إذا كانت عروس المسيح واحدة، فمن الواضح أن تكون الكنيسة الجامعة هي وحدها التي تلد أبناءً لله لا جماعة الهراطقة؛ لأن الزانية والفاسقة ليست عروسًا ولا تستطيع أن تلد أبناءً لله.»

وتخالف الأحبار وتفرَّقت كلمتهم، وهدد إسطفانوس بقطع العلاقات فأجابه فرميليانوس: «إنك قد بذرت خصومات لا تُعَدُّ ولا تُحصَى في كل كنائس المسكونة، ويا ليتك تعلم تحت أية خطيئة وضعتَ نفسك إذ انفصلت عن هؤلاء الناس جميعهم، وإنك بعملك هذا لا تفصل عن شركة الاتحاد الكنائسي سوى نفسك فتصبح أنت العاصي.»

تدخل ديونيسيوس الإسكندري (٢٤٨–٢٦٥)

وتوفي إسطفانوس أسقف رومة (٢٥٧) قبل أن ينفذ شيئًا من التهديد بقطع العلاقات، وحل محله سكستوس Sixtus «الأسقف الصالح المسالم»،[٢٠] وتدخَّلَ ديونيسيوس أسقف الإسكندرية مصلحًا، فقرب القلوب وعادت العلاقات الودية إلى سابق عهدها، واتصل أسقف رومة الجديد بكبريانوس وفرميليانوس وغيرهما،[٢١] ولكن الخلاف في أمر المعمودية ظل قائمًا حتى حكم فيه مجمع نيقية.

فساد الإكليروس

والقرن الثالث من تاريخ الإمبراطورية قرنُ تفكُّكٍ وانهيار، ففيه نقصت موارد إيطالية والولايات الغربية وكادت تنضب، وفيه دب الفساد إلى صفوف الجيش، واشتدت مطامع ضباطه وتنوعت، وفيه أيضًا تمخضت أواسط آسية، فتحركت قبائل روسية وأواسط أوروبة وارتطمت، فضغطت ضغطًا متزايدًا على حدود رومة عند الرين والدانوب، وفيه كذلك قُدِّرَ لفارس أن تتطور، فاستلمت أزمةَ الحكم فيها أسرةٌ نشيطة قوية حاولت أن تستغل ضعف رومة عبر الفرات.

---

[٢٠] Pontius, Vita Cypriani, XIV.

[٢١] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 5; Lebreton, J., S. Cyprien, Fliche et Martin, op. cit., II, 204, 209, 323–324; Duchesne, L., Early Hist., op. cit., 310–311.

وكان قد تزايد عدد المسيحيين تزايدًا ملموسًا، فأصبحوا في أنطاكية وحدها في القرن الثالث الذي نحن بصدده مائةَ ألف،[٢٢] وأضحوا في عرف الذهبي الفم في القرن الرابع مائتي ألف،[٢٣] فاضطر بعض الحكام في بعض الأحيان إلى استرضاء زعماء النصارى ورؤسائهم، فأصغوا إلى آرائهم وأسندوا إليهم بعض الوظائف فأكسبوهم هيبة ونفوذًا،[٢٤] فأدى هذا كله إلى تهافت الرجال على صفوف الكهنوت، ووصول مَن لا مطلبَ له سوى المال والنفوذ إلى بعض المناصب الإكليريكية العالية؛ ومن هنا قول أفسابيوس المؤرخ: «إن هؤلاء الذين يتظاهرون أنهم رعاتنا قد استخفوا بقواعد الدين وتلهبوا حسدًا، ولم يتقدموا في شيء سوى المجادلة والمنازعة والمناظرة والمشاغبة والمباغضة.»[٢٥] ومن هنا أيضًا قول أوريجانس العظيم إن بعض الأساقفة يردون من يقودون عن مملكة الله، ويحرمون بدافع الحسد والغضب مؤمنين أفضل منهم؛[٢٦] ومن هنا كذلك افتخار ديونيسيوس الإسكندري بأنه ترفَّعَ فاحتقر مدح الحكام له وإغراء أعضاء مجلس الشيوخ.[٢٧]

ولم ينحصر هذا الفساد في الأوساط الإكليريكية الشرقية، فإن كبريانوس يسمعنا النغمة نفسها عندما يقول إن عددًا كبيرًا من أساقفته احتقروا السماويات فأهملوها ليتفرغوا للأمور البشرية، وإنهم تركوا الوعظَ والإرشاد، وابتعدوا عن رعاياهم ليجوبوا الولايات النائية طالبين المال، غير مبالين بالربى وبالطرق المعوجة التي سلكوها للحصول عليه.[٢٨]

ديمتريانوس أسقف أنطاكية (٢٥٣–٢٦٠)

ونكاد لا نعلم شيئًا عن أسقفية ديمتريانوس خلف فابيوس، وليس بإمكاننا أن نبتَّ في زمن بدايتها ونهايتها، ويرى العلَّامة هارنك الألماني أن ديمتريانوس رقي الكرسي الرسولي

---

[٢٢] Harnack, A., Mission und Ausbereitung, II, 669; Leclercq, H., Antioche, Dict. d'Arch. Chrét.

[٢٣] Chrysostomos, J., Hom. in S. Ignat., 4, P. G., Vol. 591.

[٢٤] Bardy, G., Paul de Samosate, 260–261.

[٢٥] Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 1.

[٢٦] Origenes, In Math. Comment., Series 14, Pat. Gr., Vol. 13, Col. 1620.

[٢٧] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 11, 18.

[٢٨] Cyprianus, De Lapsis, 6.

قبل حزيران السنة ٢٥٣.[٢٩] وجاء في خرونوغرافية نيقيفوروس أن أسقفية ديمتريانوس دامت أربع سنوات فقط،[٣٠] وجاء في خرونيقون أفسابيوس أنها كانت سبع سنوات، وجاء أيضًا في التقليد لبعض المتأخرين أن ديمتريانوس نُفِي إلى فارس وتوفي فيها،[٣١] وهو قول ضعيف لا يمكن الاعتماد عليه؛ نظرًا لتأخر الزمن الذي دُوِّنَ فيه، فإنه لا يرد قبل القرن الثاني عشر،[٣٢] واستعدادُ هارنك لقبول هذا القول على أساس تآلفه مع الحوادث الراهنة[٣٣] لا تقره قواعد المصطلح؛ فالحقائق التاريخية لا تثبت بمرد تآلفها مع غيرها من الحوادث، وقُلِ الأمرَ نفسه عن موقف العلامة الأب بردي من هذه الرواية،[٣٤] وجلُّ ما يجيزه المصطلح هو القول: لا ندري. وإن لا أدري لَمِنَ العِلْم!

ومما جاء في التقليد أيضًا أن ديمتريانوس استشهد،[٣٥] ولكن هذا القول يشكو من وروده متأخرًا، ويتناف وسكوت القرار الذي اتخذه مجمع أنطاكية الثاني عند ذكر سلف بولس السميساطي، فديمتريانوس في عُرْف أعضاء هذا المجمع رجل «مطوب الذِّكْر يستحق الثناء لنجاحه في إدارة الكنيسة».

زينب التدمرية وكنيسة أنطاكية

وغُلِبَ الإمبراطور ووقع في الأسر، ونقل إلى فارس (٢٦٠) كما سبق أن أشرنا، وارتطمت الدولة الرومانية، وقدر لأذينة صاحب تدمر أن يثبت مقدرته في الحرب والسياسة، فجعله غاليانوس إمبراطورًا على جميع الولايات الشرقية،[٣٦] ثم اغتاله أحد أنسبائه فتولى الحكم بعده وهبة اللات ابنه لزوجته زينب الشهيرة، ولما كان وهبة اللات لا يزال ولدًا قاصرًا تولَّتِ الحكمَ باسمه والدته زينب، واتسع سلطانها في هذه الحقبة، التي نحن في صددها

---

٢٩ Harnack, A., Die Chronologie, I, 215.

٣٠ Nicephorus, Chronographia, I, 782, (Ed. Dindorf).

٣١ Scher, Chronique de Séert, IV, 222; Baumstark, A., Gesch. der Syrischen Lit., 6.

٣٢ Bardy, G., Paul de Samosate, 124, 241–242.

٣٣ Harnack, A., Mission und Ausbreitung, II, 666, n. 3.

٣٤ Bardy, G., Paul de Samosate, 242.

٣٥ Blasius Terzi, Syria Sacra, I, 33.

٣٦ Trebellius Pollion, Trig. Tyrann., 15, 5.

حتى شمل جميع سورية ولبنان وفلسطين ومصر وقسمًا من آسية الصغرى، وتطوَّرَتْ علاقات تدمر مع رومة، فأعلنت زينب استقلالها في منتصف السنة ٢٧١، واتخذت لابنها لقب أوغوسطوس بالإضافة إلى لقب إمبراطور، وهرع أوريليانوس الإمبراطور الروماني إلى قتال زينب، فتمكن من إذلالها والدخول إلى عاصمتها واقتيادها إلى رومة أسيرة في أواخر هذه السنة نفسها،[٣٧] وهكذا فتكون الفترة التي ساد فيها نفوذ تدمر هي الفترة نفسها التي تولى فيها بولس السميساطي أسقفية أنطاكية.

بولس السميساطي أسقف أنطاكية (٢٦٠–٢٦٨)

ولا نعلم شيئًا عن أصل هذا الأسقف سوى اسم المدينة سميساط التي انتمى إليها،[٣٨] ويجوز «الافتراض» أن بولس هذا عرف أشياء عن اليهود ودينهم وعن التوراة قبل وصوله إلى الكرسي الرسولي في أنطاكية، وأن زينب التي اشتهرت بعطفها على اليهود عاونت بولس بنفوذها على الوصول إلى رئاسة كنيسة أنطاكية؛ لتضمن بذلك تعاونًا وثيقًا بينها وبين المسيحيين في عاصمة الشرق،[٣٩] وما كاد بولس يصل إلى السدة الأنطاكية حتى جعلت زينب منه موظفًا مدنيًّا عاليًا، فأسندت إليه مهامَّ مالية والإشراف على الجباية، ومنحته لقب ذوقيناريوس Ducenarius،[٤٠] وله تمتع بصلاحيات أوسع بكثير، فمثل ملوك تدمر في أنطاكية، فإن الأساقفة الذين نظروا في أمره فيما بعدُ قالوا إنه لم يكن بمقدور أحد أن يجرؤ فيشكو جور هذا الأسقف.[٤١]

وتاه بولس بنفسه وتكبر، وسار في الشوارع بأبهة الحكام وفخفختهم، وصنع لنفسه عرشًا عاليًا في الكنيسة، وأذن لمريديه بتقريظه فيها، ومنع تسبيح السيد المخلص في الكنيسة، مدعيًا أن تلك التسابيح إنما أحدثها رجال متأخرون، واستعاض عنها بمزامير داود وبتسابيح خصوصية أُعِدَّت لتمجيده، وأنشدتها النساء له في الكنيسة نفسها، وأطلق

---

٣٧ Homo, L., Essai sur le Régne de l’Emp. Aurélien; Starcky, J., Palmyre, 1952; Mattingly, H., The Imperial Recovery, Cam. Anc. Hist. XII, 297–311.

٣٨ Bardy, G., Paul de Samosate, 250.

٣٩ Bardy, G., op. cit., 250–258; Aubé, B., L’Eglise et l’Etat, 453, n. 1.

٤٠ Seeck, Ducenarius, Real-Encyc.

٤١ Eusèbe, Hist. Ecc., VII., 30.

بولس لسانه في انتقاد الآباء الأولين،[٤٢] ولعله خصَّ أوريجانس بشيء كثير من هذا الانتقاد، فأثار حقد مَن حوله من الأساقفة المعاصرين تلاميذ هذا العالم العلامة الكبير.[٤٣]

ولم يرضَ أساقفة كنيسة أنطاكية عن حياة بولس الشخصية، فإنه نشأ فقيرًا فاغتنى بطرق غير شرعية واستغنى، وخامرهم الشك في سلوكه الشخصي؛ لأنه ساكن النساء واستصحب بعضهن على الرغم من حداثتهن ومظهرهن المغري.[٤٤]

ولكن بولس كان رجلًا لبقًا ماهرًا وخطيبًا بليغًا، فتمكَّنَ من إنشاء حزب حوله من أبناء أبرشيته، وكان بين هؤلاء عدد من أساقفة الريف والكهنة والشمامسة، فانشقت كنيسة أنطاكية إلى معسكرين: أبناء الريف وأمهات القرى، وأبناء المدن الكبيرة، أو بعبارة أخرى: إلى وطنيين شرقيين سريانيين وعرب، وإلى يونانيين ورومانيين ومتهلنين، وكان طبيعيًّا أن يرى البولسيون في زينب العربية زعيمة وطنية، تحاول التحرر من حكم رومة وكل ما يمتُّ إلى الغرب بصلة،[٤٥] وعطف على هؤلاء وأيدهم عدد من اليهود والوثنيين الذين ناصروا زينب في حركتها التحررية.

واستقدمت زينب لونجينوس Longinus الحمصي من أثينة إلى تدمر؛ ليتولى الدفاع عن موقفها بما أوتي من حجة وفصاحة، وأصغت إلى إرشاداته في السياسة؛[٤٦] ولا يُستبعَد أن يكون بولس قد عرف لونجينوس، فتأثر بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وإذا ما ذكرنا أن هؤلاء الفلاسفة عطفوا على توحيد اليهود وعلى القول بتقوى المسيح وخلوده وأنكروا ألوهيته، سهل علينا تفهُّم ضلالة بولس، وقوله بأن المسيح «مخلوق» صالح حمل في أحشائه روح الله؛[٤٧] ووافَقَ بورفيريوس الفيلسوف بولس الأسقف فيما يظهر بالتمسُّك بظاهر نص التوراة والابتعاد عن التأويل الإسكندري.[٤٨]

---

[٤٢] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30.

[٤٣] Bardy, G., op. cit., 269–270.

[٤٤] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30; Bardy, G., op. cit., 271–273; Loofs, F., Paulus von Samosata, 199–201.

[٤٥] Harnack, A., Lehrbuch der Dogmengeschichte, I, 722; Harnack, Monarchianismns, PRE, XIII, 320.

[٤٦] Zeller, E., Die Philosophie der Griechen, III, 463.

[٤٧] Augustinus, De Civit. Dei, XIX, 23.

[٤٨] Harnach, A., Porphyrius gegen die Christen, 15.

وقاوم بولس كلُّ مَن أيَّدَ رومة والحضارة اليونانية الرومانية، وكان هؤلاء كثرًا في المدن ولا سيما أنطاكية، وعبثًا حاولت زينب أن تستميل هؤلاء بفصاحة لونجينوس وبيانه، فإنهم ظلوا يعتبرونها بربرية تتطفل على الحضارة تطفلًا،[٤٩] ولم يجمع اليهود على تعضيد الدولة العربية الجديدة، فإن كثيرًا منهم آثروا سلطة رومة البعيدة على حكم تدمر القريب.[٥٠] وإذا كان من الخطأ أن نغالي فنقول مع بتيفول إن معظم المسيحيين في أنطاكية قاوموا أسقفهم، وإن الشقاق الذي حلَّ في عهد بولس كان شقاقًا بين الأسقف من الجهة الواحدة وجمهور المؤمنين من الجهة الأخرى،[٥١] فإنه من المغالاة أيضًا أن نفترض مع ريفيل أن بولس نجح في استمالة معظم أبنائه الروحيين في عاصمة الشرق.[٥٢]

ويجب ألَّا يغيب عن البال أنه كان لا يزال في كنيسة المسيح أساقفة أبرار، حافظوا على تعاليم الرسل ودافعوا عنها دفاع الأبطال، وهل ننسى ديونيسيوس الإسكندري وفرميليانوس القبدوقي وغريغوريوس العجائبي، وجميعهم من أعيان هذا القرن الثالث نفسه؟ والمقاومة التي لقيها بولس كانت في الصميم مقاوَمةً عقائدية هدفها تطهير الكنيسة من بدعة فاسدة.[٥٣]

وتزعَّم هذه المقاومة الروحية في أنطاكية نفسها اثنان من أبناء هذه المدينة؛ دومنوس بن ديمتريانوس الأسقف السابق، وملكيون أحد معلمي الفلسفة والمنطق والفصاحة والبيان في مدارس أنطاكية الهيلينية،[٥٤] وأحد أبناء كنيسة أنطاكية الأبرار الذين اشتهروا بالتقوى والصلاح. وجاء فيما حفظه لنا بطرس الشماس أن الأساقفة المجتمعين في أنطاكية للنظر في بدعة بولس أجمعوا على تولية ملكيون أمْرَ المناقشةِ الرسمية،[٥٥] ولا يزال اسمه حتى يومنا مقرونًا باسم القديس فرميليانوس في أخبار القديسين تحت الثامن والعشرين من تشرين الأول.[٥٦]

---

٤٩ Bardy, G., op. cit., 277.

٥٠ Graetz, H., Gesch. der Juden, IV, 297–299.

٥١ Batiffol, P., La Paix Constantinienne, 101–102.

٥٢ Reville, A., Christianisme Unitaire, Rev. Deux Mondes, 1868, 101.

٥٣ Bardy, G., op. cit., 278–279.

٥٤ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 29.

٥٥ Pierre Diacre, De Incarn. et Gratia, 3.

٥٦ Synaxar. Constantin.

وقد يجوز الافتراض أن دومنوس وملكيون نجحا في تنظيم المقاومة، فازداد الشق اتساعًا وحدثت اضطرابات في أنطاكية أدت إلى تدخل أساقفة الكنائس المجاورة.

تدخل الأساقفة (٢٦٤)

ويرى العلامة الأب بردي أن ليس في المراجع الأولية ما يبرر القول مع بارونيوس أن ديونيسيوس الإسكندري كتب بادئ ذي بدء عن ضلال بولس الأنطاكي إلى ديونيسيوس الروماني، وأن الحبرين الروماني والإسكندري اتخذا منذ البدء موقفًا حازمًا فهدَّدا بالقطع، وجلُّ ما توصَّل إليه هذا العالِم البحَّاثة مع زميله الألماني لوفس هو أن قضية بولس بدأت شرقية وحلَّت حلًّا شرقيًّا مستقلًّا.[٥٧]

ولما اشتدت المشادة في أنطاكية، دعا إلينوس أسقف طرسوس إخوته أساقفة كنيسة أنطاكية إلى اجتماع في أنطاكية للنظر في قضية أسقفها، فلبى هذه الدعوة كثيرون أشهرهم على حد قول أفسابيوس المؤرِّخ[٥٨] فرميليانوس أسقف قيصرية قبدوقية، وغريغوريوس العجائبي أسقف قيصرية الجديدة في بلاد البونط، وأخوه أثينودوروس، ونيقوماس أسقف أيقونية، وهيميناوس أسقف أوروشليم، وثيوتيقنوس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيموس أسقف بصرى حوران. ولا يخفى أن بلاد البونط ظلت تابعة لأنطاكية حتى مجمع نيقية،[٥٩] ورغب هؤلاء في الاستفادة من علم ديونيسيوس الإسكندري وحكمته ودرايته وشهرته، فدعوه إلى الاجتماع معهم في أنطاكية، وأحب ديونيسيس أن يلبي هذه الدعوة ويعيد الوحدة إلى صفوف كنيسة المسيح، ولكنه اعتذر عن الحضور نظرًا لتقدمه في السن،[٦٠] وحض الأساقفة على التقوى وخوف الله،[٦١] وأوفد أفسابيوس الشماس الإسكندري إلى أنطاكية؛ لينقل رسالةً خصوصيةً في موضوع بولس،[٦٢] وكان هذا قد اشتهر

---

٥٧ Bardy, G., op. cit., 283–284.

٥٨ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 28.

٥٩ Lubeck, K., Reichseinteilung und Kirchliche Hierarchie, 101.

٦٠ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 27.

٦١ Théodoret, Haeret. Fabul. Compend., II, 8.

٦٢ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32.

بتمسكه بالدين القويم وبتضحيته في هذا السبيل، فلما أحب أن يعود إلى الإسكندرية مرَّ في اللاذقية التي عند البحر (لاذقية سورية)، فاستمسك به أبناؤها المسيحيون وجعلوه أسقفًا عليهم.[٦٣] وأهم ديونيسيوسَ أمرُ بولس وأقلقه، فطلب إلى أناطوليوس الإسكندري العالم الفيلسوف[٦٤] أن يرافق أفسابيوس الشماس إلى أنطاكية، وأن يسخر علمه وفلسفته في سبيل الدفاع عن العقيدة، ولا بد وأن يكون ديونيسيوس قد رأى في أقوال بولس خروجًا على تعاليم الرسل الأطهار، وتحديًا لرأيه ورأي أستاذه أوريجانس في الثالوث الأقدس.[٦٥]

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو أن مواعظ بولس وآراءه في العقيدة قد ضاعت، ولم يبقَ منها شيء سوى ما جاء في ردود أخصامه عليه، فأصالة الرسالة إلى هيمنايوس Hymnaeus، التي تُنسب إلى الأساقفة الستة الذين نظروا في قضية بولس بادئ ذي بدء، لا تزال موضوع جدل بين رجال الاختصاص، وقُلِ الأمرَ نفسه عن الشذرات الباقية من خطب بولس إلى سبينوس Sabinus.[٦٦]

ويذكر علماء الكنيسة اهتمامَ الآباء في القرن الثالث بالثالوث الأقدس، وسعيهم للتوفيق بين وحدانية الله في التوراة وألوهية المسيح في الإنجيل، واختلافهم في هذا التوفيق، ثم يذكرون فكرة التبنِّي Adoptianism التي قال بها ثيودوتوس وأرطمون، وفكرة المونارخية التي نادى بها براكسياس Praxeas في القرن الثاني، ثم سبيليوس Sabellius في القرن الثالث، ويقرءون في تاريخ أفسابيوس[٦٧] اعتراض الأساقفة المجتمعين في أنطاكية واتِّهَامهم بولس بالأرطمة، ويطالعون أقوال القديسَيْن هيلاريوس[٦٨] وباسيليوس[٦٩] في موضوع بولس، فيجدون اعتراضًا على لجوئه إلى اللفظ اليوناني Homoousios للتعبير عن علاقة المسيح بالآب، نقول يذكر علماء الكنيسة جميع هذا، فيخلصون إلى القول بأن

---

٦٣ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32.

٦٤ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32.

٦٥ Bardy, G., op. cit., 288–289.

٦٦ Diekamp, F., Doctrina Patrum de Incarnatione Verbi; Lawlor, H. J., The Sayings of Paul of Samosata, Journ. Theol. Stud., 1917, 20–45, 115–120.

٦٧ Hist. Ecc., VII., 30.

٦٨ De Synodis, 81, 86.

٦٩ Epist. 52.

بولس شارك المونارخيين، فزعم معهم أن الله أقنوم واحد، وأخذ عن الأرطمة Artemon فقال إن الله تبنَّى المسيح تبنيًا.[٧٠]

المجمع الأنطاكي الثاني (٢٦٤)

وعقد المجمع الأنطاكي الثاني جلساته في أنطاكية نفسها في السنة ٢٦٤، وحضر هذه الجلسات كهنة وشمامسة،[٧١] وأُلقِيت الخطب وكثر النقاش، وداری البولسيون الأحبار ولَايَنُوهم، واستتروا فأخفوا هرطقتهم، وحاول الأحبار كشف اللثام فلم يفلحوا،[٧٢] وتوفي ديونيسيوس الإسكندري، فخسر الأحبار سندًا كبيرًا، ولم يبقَ بينهم واحد بحزمه وعزمه؛ وكانت زينب لا تزال في أوج عزها ومجدها، وأيد بولس وشد أزره جميع أعداء رومة، واعترف بولس بأنه قال قولًا جديدًا وقطع العهود على نفسه بالعودة إلى السراط المستقيم،[٧٣] فمال القديس فرميليانوس إلى اللين، واكتفى بما تقدم ذكره، وعاد الأحبار كلٌّ إلى أبرشيته.

ولا يجوز القول مع البحاثة رفيل إن فرميليانوس اكتفى بابتعاد بولس عن الغنوسية وعن مونارخية سبيليوس؛ لأن موقف الآباء من اللوغوس Logos كان لا يزال مائعًا،[٧٤] وذلك لسببين: أولهما أن مؤلفات فرميليانوس ضائعة، والثاني أن القديس باسيليوس استشهد بآراء فرميليانوس لتدعيم موقفه من الروح القدس.[٧٥]

---

[٧٠] Quaesten, J., Patrology. II, 141; Camelot, Th., Péres et Doct. de l'Eglise, Initiation Théolog. I, 161; Bardy, G., op. cit., 324–351; Harnack, A., Die Reden Pauls von Samosata an Sabinus und seine Christologie, SAB, (1924), 130–151; Riedmatten, H., Actes du Procés de Paul de Samosate, (1952), Paradosis 6.

[٧١] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 28.

[٧٢] Ibid.

[٧٣] Ibid., VII, 30.

[٧٤] Reville, A., La Christologie de Paul de Samosate, Etudes de Crit. et d'Hist., Série II, 202.

[٧٥] Basile, De Spirito Sancto, XXIX, 74.

المجمع الأنطاكي الثالث (٢٦٨)

وعاد بولس إلى سيرته الأولى، ولم يعبأ بما قطع من عهود، فكتب إليه الأحبار رادعين واعظين ولكن بدون جدوى،[٧٦] فخامرهم الشك وداخلهم الريب، وقالوا بوجوب العودة إلى أنطاكية لاتخاذ الإجراءات اللازمة، ودعا إلينوس أسقف طرسوس مرة ثالثة إلى اجتماع في أنطاكية وذلك في السنة ٢٦٨،[٧٧] فأمَّ عاصمةَ الشرق عددٌ كبير من الأساقفة،[٧٨] ولعل مجموعهم بلغ السبعين أو الثمانين.[٧٩]

وخلا مكان غريغوريوس العجائبي، وتوفي فرميليانوس بعده وهو في طريقه إلى أنطاكية، فتبوَّأ إلينوس أسقف طرسوس المكان الأول بين المجتمعين، وجاء بعده فيما يظهر هيمنايوس أسقف أوروشليم، ثم ثيوتيقنوس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيموس أسقف بصرى، ونيقوماس أسقف أيقونية، وثيوفيلوس أسقف صور،[٨٠] وبروكلوس، ونيقوماس، وإليانوس، وبولس، وبولانوس، وبروتوجينس، وهيراكس، وإفتيخيوس، وثيودوروس، وملكيون، ولوقيوس،[٨١] ولا تذكر المراجع أسماءَ الأساقفة الباقين.

وخشي الأساقفة أعضاء المجمع مكرَ بولس ودهاءه، فوكلوا أمر المقارعة بالمنطق إلى ملكيون الكاهن، مدرس المنطق في إحدى مدارس أنطاكية الهلينية، كما فعل غيرهم من قبلُ في ظروف مماثلة،[٨٢] واستقدموا عددًا من الكتَّاب الماهرين لتدوين المناقشة،[٨٣] وكان ملكيون حاضر الدليل صحيح الاستدلال، فناقش بولس في العقيدة، وأثبت رأيه بالحجج الملزمة فاستظهر عليه.[٨٤]

---

[٧٦] Théodoret, Haeret. Fabul. Compend., II, 8.

[٧٧] Bardy, G., op. cit., 296–297.

[٧٨] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 29.

[٧٩] Athanase, de Synod., 43; Hilaire, De Synod., 86.

[٨٠] Harnack, A., Mission, II, 666, n. 2.

[٨١] Riedmatten, H., op. cit., 128; Bardy, G., Eusèbe. II, 214, n. 2.

[٨٢] Pamphile, Apolog. pro Orig., Photius, Biblioth., 118.

[٨٣] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 29, Delahaye, H., Les Passions des Martyrs et les Genres Littéraires, 173–182.

[٨٤] Bardy, G., op. cit., 279–281.

فأدان المجمع بولس ووصمه بالهرطقة؛ لأنه «امتنع عن القول بأن ابن الله نزل من السماء، ولأنه قال بأن يسوع المسيح بشر وإنسان».[٨٥] وأكد المجمع شذوذ بولس في حب المال والجاه والفخفخة، وشجب أيضًا إقدامه على مساكنة النساء والسماح لبعضهن أن يرتلن في الكنيسة، وما إلى ذلك مما سبقت الإشارة إليه، وصرَّح المجمع أيضًا أن إصلاح مَن يشعر بوحدة الكنيسة ويعدُّ نفسه منها ممكن، ولكن ذاك الذي يستهزئ بسر التقوى، ويفخر بهرطقة أرطمون المنتنة، لا فائدة من محاسبته.[٨٦] وسرُّ التقوى هنا هو في الأرجح ذاك الذي جاء في الآية السادسة عشرة من الفصل الثالث من رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس: «وإنه لعظيمٌ ولا مراء سرُّ التقوى الذي تجلَّى في الجسد، وشهد له الروح، وشاهدته الملائكة وبُشر به في الأمم وآمَن به العالم وارتفع في مجد.»

وخلع المجمع الأنطاكي الثالث بولس وانتخب دومنوس بن ديمتريانوس سلف بولس أسقفًا على أنطاكية، وكتب بذلك رسالة محبة إلى «ديونيسيوس أسقف رومة ومكسيموس أسقف الإسكندرية، وجميع الإخوة الأساقفة في المسكونة، والكهنة والشمامسة، وإلى كل الكنيسة الجامعة»، ليكتب هؤلاء بدورهم إلى دومنوس معترفين برئاسته.[٨٧]

امتناع بولس عن الطاعة

وامتنع بولس عن طاعة المجمع المقدس، وظلَّ يعتبر نفسه رئيسًا على كنيسة أنطاكية،[٨٨] وطاوَعَه في ذلك أتباعه،[٨٩] وأيَّدَتْه زينب صاحبة السلطة، فظلت أوامره نافذة،[٩٠] وجل ما ربحه المؤمنون أنه أصبح لهم أسقف صافي العقيدة تقيًّا يلتفون حوله بإيمان وخشوع، ويمارسون الطقوس كسائر أبناء الكنيسة الجامعة، ولكنهم ظلوا غير مُعتَرَف بهم من السلطات التدمرية، يعقدون معظم اجتماعاتهم في السرِّ أو في بعض الكنائس الحقيرة.[٩١]

---

٨٥ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30.

٨٦ Eusèbe, Ibid, I tim. III, 16; Fliche et Martin, op. cit., II, 348, n. 5.

٨٧ Hist. Ecc., VII, 30, V, 23; Bardy, G., op. cit., 313–315.

٨٨ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30.

٨٩ Mosheim, J. L., De Rebus Christianorum, 716.

٩٠ Loofs, F., Paulus, 34.

٩١ Bardy, G., op. cit., 353–354.

وجاء في بعض المراجع المتأخرة أن مكسيموس الإسكندري وفيليكس الروماني الذي خلف ديونيسيوس على السدة الرومانية اتصلا بدومنوس، واعترفا برئاسته على كنيسة أنطاكية في السنة ٢٦٩،[٩٢] ولكن بولس لم يعبأ بهذا كله، وما فتئ يتمتع بالسلطتين الروحية والزمنية في أنطاكية حتى خروج زينب منها.

ولم تَدُمْ رئاسة دومنوس أكثر من ثلاث سنوات،[٩٣] وجاء في حوليات إيرونيموس أن تيمايوس Timaios خلف دومنوس في الرئاسة في السنة الأولى من حكم الإمبراطور أوريليانوس ٢٧٠-٢٧١.[٩٤]

زوال زينب وبولس

وسقط غاليانوس محارِبًا ضد أوريولوس في السنة ٢٦٨، ولكن الجنود نادوا بكلوديوس الثاني إمبراطورًا (٢٦٨–٢٧٠)، فقتل هذا أوريولوس وقهر الألماني والقوط وتوفي بالطاعون، فخلفه أوريليانوس (٢٧٠–٢٧٥)؛ إذ نادى به جنوده إمبراطورًا، وصالح أوريليانوس القوط، وتنازل عن حقوق رومة في ما وراء الدانوب.

وفي أواخر السنة ٢٧٠ أو أوائل السنة ٢٧١ أنفذت زينب زبدة قائد قواتها إلى مصر ليستولي عليها، ففعل وأبقى حاميةً تدمريةً فيها وعاد إلى سورية، وكان حاكم مصر الروماني بروبوس Probus قد خرج منها لتأديب بعض العصاة في ليبية وقرطاجة، ولتطهير بحر الأرخبيل من القوط، فعاد إلى مصر بعد خروج زبدة منها، وحارب الحامية التدمرية ومَن ناصرها من المصريين، فمات محاربًا، فأضحت زينب في حرب ضد رومة، فاتخذت لنفسها ولابنها لقب أوغوسطوس،[٩٥] ودفعت برجالها عبر طوروس إلى آسية الصغرى فاحتلت أنقرة ثم بيثينية، ووصلت طلائع جيشها إلى خلقيدونية مفتاح البوسفور، وكان نبأ تولِّي أوريليانوس قد وصل إلى خلقيدونية، فصمد الخلقيدونيون في وجه التدمريين.

---

٩٢ Pierre Ibn Rahib, Chronicon Oriental, 117; Agapius de Menbidj, Hist. Univ., 530; Haase, F, Altchristliche Kirchengeschichte, 193.

٩٣ Harnack, A., Die Chronolgie, I, 216.

٩٤ JérÔme, Chron., 222.

٩٥ "Imperator Caesar Vhabalathus Augustus, Septimia Zenobia Augusta".

وقام أوريليانوس من إيطالية إلى البلقان في صيف السنة ٢٧١، ثم انتقل بجيشه إلى آسية الصغرى، فرأت زينب أن تقاتله قريبة من البادية، فتراجعت برجالها إلى سورية الشمالية وصمدت في أنطاكية، ووصل أوريليانوس إلى أنطاكية، فوجد الخيالة التدمريين بانتظاره عند ضفة العاصي، فدنا منهم وتناولهم بالقتال وتظاهر بالضعف وتراجُع، فلحقوا به وما فتئوا مُجِدِّين في إثره، وكانوا من النوع الثقيل حتى أعياهم السعي، ففاجأهم أوريليانوس بهجوم صاعق وذبح منهم عددًا كبيرًا، فرأى زبدة أن لا مفر من الجلاء عن أنطاكية، فأشاع خبرًا مؤداه الانتصار على الرومان، وعرض في المساء في شوارع أنطاكية رجلًا بزيٍّ إمبراطور روماني، وادَّعى أنه أوريليانوس نفسه، ثم قام تحت جناح الليل إلى حمص، وترك في دفنة ساقة تؤخِّر تقدُّم أوريليانوس، وقام معه عدد كبير من الأنطاكيين الموالين له ولسيدته زينب، ودخل أوريليانوس أنطاكية فضبط أمورها، وتساهل مع الأنطاكيين مدَّعِيًا أنَّ مَن لحق منهم بزبدة إنما فعل ذلك مُكرَهًا، ثم نهض أوريليانوس إلى أبامية فحماة فالرستن فحمص، واصطدم هنالك بزبدة ورجاله وكتب النصر له، فانثنت زينب عن حمص وانصرفت إلى تدمر، ولحق بها أوريليانوس، فحارب البدو يمينًا وشمالًا، ووصل إلى تدمر بعد أسبوع واحد، فشدد على تدمر الحصار، فاتصلت زينب بشابور الساساني وطلبت معونته فأنجدها، ولكن أوريليانوس تمكَّنَ من القضاء على هذه النجدة قبل وصولها إلى تدمر، فخفت زينب بنفسها إلى طلب نجدة ثانية، وخرجت من تدمر تحت جناح الظلام طالبة الفرات، ولكن الرومان أدركوها عند هذا النهر، وعادوا بها إلى معسكر سيدهم، فدخل أوريليانوس تدمر ظافرًا، ونقل كنوزها إلى حمص وجرَّ وراءه ملكتها وملكها ومستشارها لونجينوس الفيلسوف وبعض أعيانها، وحاكَمَ أوريليانوس لونجينوس في حمص، وأمر بقتله فقُتِل فيها، وتقبَّلَ لونجينوس الموت بشجاعة، فلفظ أنفاسه وهو يعزي ذويه ويقوي أصدقاءه وأحباءه.[٩٦]

وبزوال الحكم التدمري زال نفوذ بولس السميساطي، وقويت شوكة تيمايوس وجمهور المؤمنين، فانتهز تيمايوس (٢٧١–٢٧٩) هذه الفرصة السانحة، وتقدم من الإمبراطور المحرر راجيًا إخراج بولس من قلاية الأسقفية وكف يده، ورأى أوريليانوس وجه الحق في هذا الطلب، ولعله رأى أيضًا في شخص تيمايوس وفي أعوانه حزبًا يونانيًّا رومانيًّا قاسى الأمرين في عهد زينب «البربري»، «فأمر بأن تُعطَى القلاية إلى أولئك الذين

[٩٦] Fevrier, J. G., Hist. Pol. et Econ. de Palmyre; Starcky, J., Palmyre, Paris, 1952.

كانوا على صلة بالمكاتبة بأساقفة العقيدة المسيحية في إيطالية ومدينة رومة»،[٩٧] ولا نعلم عن مصير بولس بعد هذا.

أناطوليوس أسقف اللاذقية

ولدى انفضاض المجمع الأنطاكي الثالث عاد أناطوليوس ممثل حبر الإسكندرية برفقة صديقه القديم أفسابيوس الإسكندري أسقف اللاذقية إلى هذه المدينة، وأقام عنده مدة وجيزة، وفي أثناء إقامته في اللاذقية اختار الله أفسابيوس فشغر كرسيه، فتقدَّمَ المؤمنون من أناطوليوس راجين بقاءه في مدينتهم أسقفًا عليهم وخلفًا لصديقه الراحل، فقبل دعوتهم وساس كنيستهم حتى السنة ٢٨٢، وكان عالمًا كبيرًا كما سبق وأشرنا ورياضيًّا ماهرًا، فصنف في اللاذقية كتابه الشهير في عيد الفصح.[٩٨]

ماني وثنويته (٢١٦–٢٧٦)

وجاء في تاريخ الراهب الرهاوي أن مجمع أنطاكية الثالث حرَّم تعاليم ماني في الوقت نفسه، الذي حَرَّمَ فيه تعاليم بولس السميساطي، وهو قول ضعيف لا يجوز الأخذ به؛ لأن المؤرخ الرهاوي دوَّنَ أخباره في القرن الثالث عشر، وجاء أيضًا في بعض التواريخ السريانية وفي تاريخ ميخائيل الكبير «أن ماني وُلِدَ في مدينة السوس سنة ٢٤٠، وتنصَّرَ وسامه أسقفها كاهنًا سنة ٢٦٨، ثم مرق من النصرانية لخبث طينته».[٩٩] وهذا القول ضعيف أيضًا؛ لأنه جاء متأخرًا؛ فميخائيل الكبير وُلِد في السنة ١١٢٦ في ملطية، وتوفي في السنة ١١٩٩.

ويُجمِع رجال البحث والتنقيب على أن ماني بن بابك وُلِدَ في ماردين في السنة ٢١٥ أو ٢١٦، وأنه ادَّعَى الوحي أول مرة في الثالثة عشرة من عمره، ثم في الخامسة والعشرين، أي السنة ٢٤٠ أو ٢٤١، وعلَّمَ ماني وبشَّرَ في طيسفون وخصَّ شابور بإحدى رسائله،

---

[٩٧] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30; Homo, L., Régne d'Aurélien, 95.

[٩٨] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32; S. Hieronym., Ecc. Cap., 73; Tillemont, Mem. Ecc., IV, 304.

[٩٩] الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة للبطريرك أغناطيوس أفرام: ص٣٢٥. اطلب أيضًا كتابه اللؤلؤ المنثور: ص٣٩٤–٣٩٧.

وقال بسببين أصليين النور والظلام، وبظروف ثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل. والنور والظلام عند ماني كائنان مستقلان منفصلان منذ الأزل، ولكن الظلام غزا النور في الماضي، وأصبح بعض النور ممتزجًا بالظلام، وهذه هي حالة عالمنا في الحاضر. ثم يخلص ماني إلى القول أنْ لا بدَّ من تنقية النور من هذا الظلام؛ كي يعود النور والظلام إلى الانفصال التام كما بدآ، والله هو سيد عالم النور، والشيطان سيد عالم الظلام. هذا بعض ما قاله ماني عن الماضي، فأما في الحاضر فإن قوى النور أرسلت بوذا وزورواستر، ثم يسوع وهو أهم الجميع؛ والعالَم عند ماني ينتهي في المستقبل بثوران هائل وسقوط عظيم، فيصعد الصالحون في الفضاء إلى أعلى، والأشرار يهبطون إلى ظلام دائم.

ماني والنصرانية

وخصَّ ماني السيد المخلص بمكانة ممتازة، وادَّعى أنه هو رسوله، وأنه هو البارقليط المنتظر الذي وعد به السيد، وأن مقدرته على معرفة ما كان وما سيكون مستمَدة من البارقليط الذي حلَّ فيه. ويرى رجال الاختصاص الذين وفقوا إلى درس ما بقي من رسائل ماني في تركستان، وفي أوراق البردي في مصر؛ أن المانوية تفرَّعَتْ عن المسيحية لا الوثنية.[١٠٠]

وانتظم المانويون في كنيسة واحدة مؤلَّفة من طبقتين: المنتقين المصطفين والمستمعين، وكان على رأسها بادئ ذي بدء رسلٌ اثنا عشر، ثم تلاميذ ستون، ثم أساقفة وكهنة وشمامسة ورهبان، وكانوا يجتمعون في كل أحد للصلاة والترتيل وقراءة الأسفار، ومنها الأناجيل ورسائل بولس الرسول.

وانتشرت تعاليم ماني في بابل وما بين النهرين أولًا، ثم في سورية وفلسطين ومصر وأفريقية الشمالية وفارس وأواسط آسية، وسكت عنها شابور الأول لرحابة صدره واتساع أفقه، ولكن كهنة مزدة قاوموا هذه التعاليم، فاضطر ماني أن يغادر فارس إلى الكشمير وتركستان والصين، وتوفي شابور الأول في السنة ٢٧٢، وتوفي ابنه وخلفه هورمزد الأول في السنة ٢٧٣، وتولَّى العرش بهرام الأول، فظنَّ المانويون أن سيتاح لمعلمهم أن يعود إلى

[١٠٠] Burkitt, F. C., Religion of the Manichees, Cambridge, 1925; Schmidt, C., Neue Originalquellen des Manichaismus aus Aegypten, Stuttgart, 1933.

وطنه ويعيش بأمان وحرية، ولكنه اعتُقِل وصُلِب وسُلِخ جلده وحُشِي قشًّا في السنة ٢٧٥ أو ٢٧٦.

الأسفار الأبوكريفية

واللفظ اليوناني Apokryphos معناه المخفي والمستور والمكنون، وأسفار السيبولات عندهم وعند الرومان كانت أبوكريفية؛ لأنها كانت مقدسة لا يجوز أن تبقى في متناول جميع الناس، والأسفار الأبوكريفية عند المسيحيين الأولين كانت الأسفار الخالية من الوحي الإلهي، ويُطلِقُ رجال الاختصاص هذا اللفظ اليومَ على كل كتاب غير صحيح، أو غير موثوق به، أو غير أصلي.

ولجأ أهل البدع في القرنين الثاني والثالث إلى التزويق والتلفيق والتزوير لخداع المؤمنين، ولمس المؤمنون نقصًا في أخبار طفولة السيد وحداثته، وفي أخبار العذراء وأعمال الرسل، فأقدموا على مطالعة ما أَعَدَّه أهل البدع، فهبَّ الآباء بدورهم يدققون وينذرون ويحرمون.[١٠١]

والأسفار الأبوكريفية المسيحية متنوعة؛ منها الإنجيل، ومنها الرسائل، ومنها أيضًا الأعمال، وعدد الأناجيل الأبوكريفية يربو على العشرين: إنجيل العبرانيين وهو قريب جدًّا من إنجيل متى، وقد كُتِب بالآرامية بأحرف عبرية، وإنجيل المصريين، وإنجيل الأبيونيين ويُدعَى أيضًا إنجيل الرسل، وإنجيل بطرس وقد سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن سيرابيون أسقف أنطاكية، وإنجيل نيقوذيموس، وإنجيل يعقوب، وإنجيل توما، وإنجيل الطفولية العربي، وسيرة يوسف النجار العربية، وإنجيل فيليبوس، وإنجيل متيا، وإنجيل برنابا، وإنجيل برثلماوس، وإنجيل أندراوس، وإنجيل يهوذا الأسخريوطي، وإنجيل تدايوس، وإنجيل بسيليدس، وإنجيل كيرينثوس، وإنجيل فالنتينوس، وإنجيل أبيليس؛ وأثر الغنوسية في الأناجيل الثمانية الأخيرة واضح جلي.

---

١٠١ Klostermann, E. und Harnack, A., Apocrypha, Vol. I–IV, Bonn, 1910–1921; James, M. R., The Apocryphal New Test., Oxf., 1950; Bousquet, J., et Amann, E., Les Apocryphes du Nouv. Test., Paris, 1922.

وأهم الأعمال الأبوكريفية أعمال بولس Acta Pauli، وأعمال بطرس، وأعمال بطرس وبولس، وأعمال يوحنا، وأعمال أندراوس، وأعمال توما، وأعمال تدايوس، وفيها رسالة أبجر ملك الرها إلى السيد المخلص.

وأشهر الرسائل الأبوكريفية رؤيا بطرس، ورؤيا بولس، ورؤيا إسطفانوس، ورؤيا توما، ورؤيا يوحنا، ورؤيا العذراء، ورسالة الرسل Epistola Apostolorum، وهذه من بقايا النصف الثاني من القرن الثاني، وقد حُفِظت باللغتين القبطية والحبشية.[١٠٢]

وأفيد هذه النصوص الأبوكريفية لتاريخ كنيسة أنطاكية والنصرانية في القرن الثالث: إنجيلُ بطرس، وإنجيل يعقوب، وأعمال يوحنا، وأعمال بولس، وأعمال بطرس، وأعمال توما، وأعمال أندراوس، ورسالة الرسل.

وإنجيل بطرس كما نعرفه اليوم يعود إلى النصف الأول من القرن الثاني (١٢٠–١٣٠)، ويحمل آثارًا تدل على أنه دوِّن في سورية.[١٠٣] ولعل جامع أخباره قال بالتشبيه Docetism وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، فإنه يستعيض عن النص «إلهي إلهي لماذا تركتني»؟ بالعبارة «قدرتي قدرتي لقد تركتيني»! وتقع مسئولية صلب المسيح في هذا النص المزيف على اليهود بأكملها، فإن هيرودوس ملك اليهود حكم على المسيح بالإعدام لا بيلاطس؛ ويظهر مما جاء في شرح أوريجانس على إنجيل متَّى أن القول بتحدر إخوة المسيح من زوجةٍ ليوسف سابقة لمريم جاء في هذا الإنجيل الأبوكريفي عينه،[١٠٤] ويؤكد أفسابيوس أن سيرابيون أسقف أنطاكية حرَّم مطالعة هذا الإنجيل؛ لأنه كان يمتُّ إلى المشبهين بصلة قوية.[١٠٥]

وإنجيل يعقوب يعود في أقدم أجزائه إلى النصف الثاني من القرن الثاني (١٥٠–١٨٠)، وفي مجموعه كما نقرؤه اليوم بنصه اليوناني إلى القرن الرابع.[١٠٦] وعلى الرغم من ورود إشارة واضحة في ذيله إلى أن يعقوب أخا الرب وأسقف أوروشليم، هو الذي دوَّن

[١٠٢] Zwaan, J., Date and Origin of the Epistle of the Eleven Apostles, 1933.

[١٠٣] Vagany, L., L'Evangile de Pierre, (Etudes Bibliques), Paris, 1930; James, M. R., Apoc. New Test., 13–41, 90–94.

[١٠٤] X, 17.

[١٠٥] Hist. Ecc., VI, 12.

[١٠٦] Amann, E., Le Protévangile de Jacques, Paris, 1910; James, M. R., op. cit., 38–49.

هذا الإنجيل، فإن العلماء الباحثين يرون أن شخصًا أقل اطِّلاعًا على جغرافية فلسطين من يعقوب وضع هذا السفر، وأنه كان من المقيمين في مصر،[١٠٧] ولعل الغاية الأساسية من جمع أخباره إثباتُ عذرة العذراء قبل ولادة السيد وبعدها، وهو أغنى المصادر الأولى في أخبار مريم ويوسف وطفولة السيد المخلص، وأكثرها تفصيلًا.

أما كاتب أعمال يوحنا فإنه آسيوي عُنِيَ بجمع أخبار يوحنا الحبيب في آسية الصغرى، فذكر رحلاته فيها ودَوَّنَ عظاته، ووصف العجائب التي تمَّتْ على يديه، ويستدل من بعض ما جاء في هذا السفر الأبوكريفي أن كاتبه دوَّن أخباره في النصف الثاني من القرن الثاني، وأنه قال بالتشبيه أيضًا؛ فقد جاء في الفصل الثالث والتسعين من هذا الكتاب ما محصله: «وكنتُ إذا أردتُ أن ألمس السيد، أضع يدي على جسم مادي صلب، وفي بعض الأحيان كنت إذا لمسته أجد جوهره بدون جسم، كأنه لم يوجد أبدًا.»[١٠٨]

وكتاب أعمال بولس يشمل قصةَ بولس وتقلا وردَّ الكورنثيين على رسالتَيْ بولس الثانية والثالثة إليهم، وأخبارَ استشهاد بولس. وصاحب هذا الكتاب هو في الأرجح كاهن من كهنة آسية الصغرى من أعيان النصف الثاني من القرن الثاني.[١٠٩]

وأعمال بطرس دُوِّنَتْ فيما يظهر في سورية أو فلسطين عند نهاية القرن الثاني، وهي تشمل رحلة بولس إلى إسبانية بعد رومة ووصول سمعان الساحر إلى عاصمة الدولة الرومانية، ولحاق بطرس بهذا الساحر وانتصاره عليه، ثم أخبار استشهاد هامة الرسل، ومما يُؤْخَذ على واضع هذا السفر الأبوكريفي أنه كان يقول بالتشبيه أيضًا، فإنه يذكر أن بولس كان يمارس سر الأفخاريستية بالخبز والماء.[١١٠]

---

[١٠٧] Quasten, J., Péres, I, 140.

[١٠٨] Pick, B., Apoc. Acts of Paul, Peter, John, Andrew and Thomas, Chicago, 1909; Amiot, F., La Bible Apocryphe, Paris, 1952, 157–184; Zahn, Th., Die Wanderungen des Apostels Johannes, Neue Kirchliche Zeit., 1899, 191–218.

[١٠٩] Greek Text: Tischendorf, C., Acta Apostolorum Apocrypha, 40 ff; Pick, B., op. cit.; James, M. R., op. cit., 270–299; Amiot, F., op. cit., 226–251; Schmidt, C., Acta Pauli.

[١١٠] Pick, B., op. cit.; James, M. R., op. cit., 300–336; Amiot, F., op. cit., 185–225; Hennecke, E., Neutestementliche Apokryphen, 226–249; Stuhlfaut, G., Die Apokryphen Petrusgeschichten in der Altchristlichen Kunst, Berlin, 1925.

وأعمال توما من مصنفات القرن الثالث، وقد وُضِعت بالسريانية أولًا، ثم نُقِلت إلى اليونانية والأرمنية والحبشية واللاتينية، وواضعها رهاوي من أتباع برديصان، وقد سبقت الإشارة إليه، وهو يجعل من توما مبشِّر الهند بعد ما بين النهرين. وتشكو هذه الأعمال من شيء من الغنوسية والمانوية، وقد تبنى غبطة البطريرك أغناطيوس أفرام شيئًا كثيرًا مما جاء في هذا السفر الأبوكريفي، وذلك في كتابه الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة.[١١١]

ويرى رجال البحث أن لفكيوس خارينوس Leukios Charinos هو الذي صنف أعمال أندراوس في منتصف القرن الثالث، ويقول أفسابيوس إن العقيدة التي تتجلى في هذا المصنف الأبوكريفي لا تتفق والعقيدة الأرثوذكسية الحقيقية، وإن أحدًا من المؤمنين لم يردِّد ما جاء في هذا المصنف، وإن صاحبه أو أصحابه هراطقة.[١١٢] وتشمل أعمال أندراوس قصة أندراوس ومتياس بين أكلة البشر في البحر الأسود، وقصة بطرس وأندراوس، واستشهاد أندراوس في آخية، وعظته في سجن بتراس.[١١٣]

أما رسالة الرسل Epistola Apostolorum فإنها أبصرت النور، إما في آسية الصغرى أو في مصر بين السنة ١٦٠ والسنة ١٧٠ بعد الميلاد، وقد ضاع أصلها اليوناني ولم يبقَ عنه سوى جزء من ترجمته إلى القبطية وترجمته إلى الحبشية،[١١٤] والقسم الأكبر من هذه الرسالة الأبوكريفية يبحث في ظهور السيد المخلص لتلاميذه بعد القيامة، وهنالك مقاطع تبحث في ألوهية السيد فتُظهِره ذا طبيعتين إلهية وبشرية، وتوجب القول بأقانيم ثلاثة وكنيسة مقدسة ومغفرة الخطايا، وتجعل من المعمودية شرطًا لازمًا للخلاص. وعلى الرغم من ظهور بعض الغنوسية في هذه الرسالة، فإنها تعتبر سمعان الساحر وكيرينثيس رسولين كاذبين، وتؤكد قيامة الجسد في يوم الدينونة.[١١٥]

---

١١١ Wright, W., Apocryphal Acts of the Apostles, I, Syr. Text, 171–333, II, Eng. Trans., 146–298; Amiot, F., op. cit., 262–274; Medlycott, A. E., India and the Apostle Thomas; Bornkamm, G., Mythos und Legende in den Apokryphen Thomasakten, Gottingen, 1933.

١١٢ Eusèbe, Hist. Ecc., III, 25.

١١٣ Pick, B., op. cit.; James, M. R., op. cit., 337–363; Flamion, J., Actes Apoc. de l'Apôtre André, Louvain, 1911.

١١٤ Schmidt, C., Gesprachi Jesu mit seinen Jungern nach der Auferstehung, Leipzig, 1919.

١١٥ James, M. R., op. cit., 485–503; Hennecke, E., op. cit., 146–150; Amiot, F, op. cit., 275–285.

أهمية الأبوكريفية

والأسفار الأبوكريفية تظل على ما فيها من عيب مراجع مفيدة لتاريخ كنيسة أنطاكية والنصرانية جمعاء، فهي تحفظ لنا ما ظنَّه بعض رجال البدع جذابًا لجمهور المؤمنين، وإذا ما فتشنا هذه الأسفار لهذه الغاية نجد موضوع البكارة مطروقًا أكثر بكثير من غيره، فقصة بولس وتقلا سحرت عقول المؤمنين أجيالًا طوالًا، وقد نلمس شيئًا من المغالاة في حض الرجال والنساء على العفة في سِفر أعمال بولس، ولكننا نضطر في الوقت نفسه أن نكبر في الرسول مثله العليا، ومقدرته على الأخذ بقلوب المؤمنين، فقصة تقلا تمثل لنا سطوة العقيدة الجديدة، وتمكنها من اقتلاع الأنفس من أوساخها الوثنية وتقديمها للمسيح، فقد جاء على فم بولس في الفصل الخامس من الأعمال التي تُنسَب إليه ما يلي:

طوبى لأنقياء القلب؛ لأنهم يعاينون الله.
طوبى لأعفَّاء الجسد؛ لأنهم يصبحون هيكل الله.
طوبى لأغضَّاء الطرف وأنقياء العِرض؛ لأنهم يخاطبون الله.
طوبى لمن يتخلون عن هذا العالم؛ لأنهم يُستحسنون عند الله.
طوبى للمتزوجين الذين كأنهم لم يتزوجوا؛ لأنهم يرثون الله.
طوبى لمن يخافون الله؛ لأنهم يصبحون ملائكة الله.

ويذهب واضع سِفر أعمال يوحنا إلى أبعد من هذا، فيحرم الزواج ويحض المؤمنين على زيجة سماوية طاهرة حقيقية لا تنفصم أبدًا هي الاتحاد بالمسيح،[١١٦] ولا يختلف موقف مَن وضع أعمال توما وأعمال أندراوس من الزواج عن هذا الموقف نفسه.[١١٧]

ومما تظهره هذه الأسفار الأبوكريفية تطوُّر في صلوات جمهور المؤمنين، فالسيد المخلص لا الآب أصبح قبلة أنظار المصلين «خارج الكنيسة»، وتقلا في أعمال بولس تهتف: «يا ربي وإلهي إله هذا البيت الذي أبصرت فيه النور، يا يسوع المسيح ابن الله ملجئي في السجن وأمام الحكام وفي النار وبين الوحوش، أنت الله ولك المجد إلى الأبد، آمين.»[١١٨] وما

[١١٦] James, S. M. R., op. cit., 266.

[١١٧] Lebreton, J., Les Apocryphes, Fliche et Martin, op. cit., II, 298–299.

[١١٨] Actes de Paul et de Thécle, XLII.

نلاحظه في أعمال بولس من هذا القبيل نجده أيضًا في أعمال بطرس وأعمال يوحنا وتوما وأندراوس.

ومن أهم ما جاء في المصنفات الأبوكريفية موقف بعضها من الناموس، فالرسائل المنسوبة إلى إقليمس الشريف الروماني تجعل موسى ينقل الناموس إلى السبعين شفاهًا، وتصرُّ على أن الناموس لم يُدوَّن إلا بعد وفاة موسى، وأن بعض مَن حمله في صدره بدَّل قولًا غير الذي قيل له،[١١٩] وأن الله سكت عن هذا التبديل كي لا يصبح الناموس كافيًا في حد ذاته، ثم تخلص هذه الرسائل إلى القول بأن افتراض فهم الناموس من مجرد قراءته خطأ خطر؛[١٢٠] وفي هذا كله تشابه شديد مع ما جاء في رسالة بطليموس الغنوسي إلى فلورة، ففي هذه الرسالة أيضًا تفريق في الأهمية بين مصادر الناموس الثلاثة: الله وموسى والشيوخ، وبالتالي تحرر من الخضوع لهذا التشريع.[١٢١]

وجاء في ذيذاسكالية الرسل أن الله منح شعبه ناموسًا طاهرًا، فلما سقطوا في التجربة وعبدوا الأصنام، أنزل لهم ناموسًا آخر أشد من الأول وأقسى، فجاء المسيح فأقر الناموس الأول وألغى الثاني، وعلى جمهور المؤمنين أن يتحرروا من ربقة الناموس الثاني، وأن يعملوا بموجب نصوص الأول.[١٢٢] ويرى العلماء المدققون صلةً قوية بين هذين السِّفرين الأبوكريفيين وبين بعض الأوساط المسيحية في النصف الأول من القرن الثالث في شرقي الأردن.[١٢٣]

---

١١٩ .Clément, Homél. III, 47

١٢٠ .Ibid, III, 51, XVIII, 20

١٢١ .Harnack, A., Der Brief des Ptolemaus an die Flora, 16–18

١٢٢ .Ch. XXVI

١٢٣ Hilgenfeld, A., Die Clementinischen Recognitionen und Homilien, Jena und Leipzig, .1948; Schmidt, C., Studien zu den Pseudo-Clementinen, Leipzig, 1929

الفصل الحادي عشر

قانون الإيمان الأنطاكي قبل نيقية

وعني العلَّامة الألماني كتنبوش بتأريخ قانون الإيمان، ففتش وجمع ونقَّب ونقَّر، فأتحف الكنيسة بمجلدين مفيدين ظهر الأول منهما في السنة ١٨٩٤، والثاني في السنة ١٩٠٠،[١] ونظر في تاريخ قانون الإيمان في كنيسة أنطاكية، فتسرع في الاستنتاج فقال إنه لم يكن لكنيسة أنطاكية قانون إيمان معيَّن محدَّد قبل بدعة بولس السميساطي، وإن دومنوس أسقف أنطاكية بعد بولس تقبَّلَ قانون إيمان كنيسة رومة وتبناه، فجعله قانون إيمان كنيسته.[٢] ووجه الخطأ في استنتاج هذا العالم العلامة هو أنه اتخذ من سكوت المراجع حجة، ولم يدرِ فيما يظهر أن سكوت المراجع لا يصبح حجة إلا بشروط معينة قلَّمَا تتوفر لدى المؤرخ المدقق. وإليك حجة كتنبوش والرد عليها:

حجة كتنبوش

يبدأ كتنبوش بالرسالة السلامية، التي وجهها الأساقفة المجتمعون في أنطاكية إلى أسقف رومة وأسقف الإسكندرية وسائر أساقفة المسكونة، فيرى أن أساقفة أنطاكية يكتفون بالقول «إن بولس لا يريد أن يعترف معنا بان ابن الله نزل من السماوات، وأنه لم يحافظ

---

١ Kattenbusch, F., Das Apostolische Symbol, Leipzig, 1894, 1900.

٢ Kattenbusch., F., op. cit., II, 199–202.

على الإيمان الذي تسلمه».[٣] ثم ينتقل كتنبوش من نص هذه الرسالة السلامية إلى نص رسالة الأساقفة الستة،[٤] فيقرأ العبارة: «الإيمان الذي تسلمناه منذ البدء فحفظناه وحفظته الكنيسة الجامعة المقدسة، ذاك الذي انتقل إلينا بالتقليد من الرسل الطوباويين.» ويلاحظ أنها خالية من أية إشارة إلى قانون معين، فيخلص إلى القول بأنه لم يكن هنالك قانون معين محدد!

ثم يشير كتنبوش إلى ما جاء بعد ذلك في ذيامارتورية أفسابيوس الدورلِّي من قانون إيمان كنيسة أنطاكية، فيجده قريبًا جدًّا من قانون إيمان كنيسة رومة،[٥] فيخلص إلى القول بأن كنيسة أنطاكية أخذت نص قانونها عن قانون كنيسة رومة، ويلاحظ أن الفرق بين القانونين موجه ضد بدعة معينة، فيرى أن هذه البدعة هي بدعة بولس السميساطي، فيحدد زمن الأخذ عن رومة، ويجعله في عهد دومنوس خلف بولس على السدة الأنطاكية.

الرد على كتنبوش

ونحن نرى أن سكوت المراجع لا يكون حجة قبل التثبت من أمور ثلاثة: أولها أن نكون على يقين جازم من أمر اطِّلاعنا على جميع المراجع، والثاني ألَّا يعترينا شك في أن ما لدينا من هذه المراجع هو «جميع» ما دوَّنه السلف، وأنه لم يضع منها شيء، والثالث أن نتثبت من استحالة السكوت في هذه المراجع عن الموضوع الذي ندرس. ونحن لا ننكر على كتنبوش إحاطته بأخبار الرواة عن قانون الإيمان وجده واجتهاده، ولكننا نرتاب في أمر إحاطته بها جميعًا، فقد جاء في رسالة أسقف أنطاكية العظيم أغناطيوس حامل الله إلى كنيسة ترولة ما يمكن اعتباره جزءًا من قانون إيمان معمول به. وجاء في رسالة القديس كبريانوس الخامسة والسبعين أن القديس فرميليانوس أشار إلى قانون إيمان معمول به في كنائس البونط، كان يردد في ظروف المعمودية؛ فإذا كان هذا أمر الكنائس الصغيرة التي كانت تتأثر أنطاكية، فما قول كتنبوش في كنيسة أنطاكية نفسها؟[٦] وهل

---

[٣] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 30.

[٤] Epist. Sex Episcop., Bardy, G., Paul de Samosate, 14.

[٥] Loofs, F., Paulus, op. cit., 71; Cassien, De Incarn. Domini, VI, 3; Bardy, G., Paul de Samosate, 364–365.

[٦] Sandy, Recent Research on the Origin of the Creed, Journ, Theol. Stud., 1899, I, 18.

بإمكان كتنبوش أو غيره من العلماء أن يجزم في أن ما لدينا من المراجع الأولى لتاريخ كنسية أنطاكية قبل مجمع نيقية هو جميع ما دوَّنه السلف، وأنه لم يضع مما دُوِّن شيءٌ؟ ثم هل من المنطق بشيء أن نقول باستحالة سكوت الآباء المجتمعين في أنطاكية عن ذكر قانون الإيمان بكامله، في رسالة سلامية وجَّهوها إلى إخوانهم في المسيح في جميع المسكونة؟ أَلَا يجوز أن يكون هؤلاء الأساقفة اعتبروا نص قانون الإيمان أمرًا معروفًا لدى إخوانهم في الرب يسوع، فاكتفوا بالإشارة إلى المهم منه؛ أي إلى القول بأن بولس «لا يريد أن يعترف معهم بأن ابن الله نزل من السموات»؟ ثم هل نسي أن مرقس أفجينيكوس Eugenicos متروبوليت أفسس فاجَأَ إخوانه الغربيين مفاجأة في مجمع فرارة (١٤٣٨)، عندما صرَّح أمامهم بأن كنائس الشرق تجهل كل الجهل نصَّ إيمان الرسل Symbolum Apostolicum الشائع في الغرب؟

ما يجوز قوله

والراهن الثابت هو أن الرسل أوجبوا منذ بداية التبشير والتعميد اعترافات معينة تنبئ باهتداء الموعوظ؛ ففيليبس فرض على الخصي الحبشي القول: «إني أؤمن بأن يسوع المسيح هو ابن الله.» وبولس استهل رسالته إلى الرومانيين بقوله: «المولود بحسب الجسد من ذرية داود المقام، بحسب روح القداسة في قدرة ابن الله بقيامته من بين الأموات يسوع المسيح، ربنا الذي به نلنا النعمة.» وقال هذا الرسول نفسه في رسالته الأولى إلى الكورنثيين (١٥: ٣–٥): «إن المسيح قد مات من أجل خطايانا، وإنه قُبِر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب.» وقال بطرس في رسالته الأولى (٣: ١٨–٢٢): «إن المسيح مات مرة من أجل الخطايا وهذا الماء وما رمز به إليه — أي المعمودية — التي ليست إزالة أقذار الجسد، بل معاهدة الضمير الصالح لله، يخلصكم الآن بقيامة يسوع المسيح الذي هو عن يمين الله منذ انطلق إلى السماء، وأخضعت له الملائكة والسلاطين والقوات.»

وهكذا فإن الجوهر في نص قانون الإيمان يعود إلى عصر الرسل أنفسهم، أما صيغته فإنها تطورت تدريجيًّا بتطور ظروف الوعظ والمعمودية، ونظرًا لبُعد المسافات وتنوع الظروف، فإنه نشأ قبل نيقية فصيلتان من النصوص إحداهما شرقية والثانية غربية، وضاعت الأولى بعد نيقية وبقيت الثانية في الغرب، وهذه هي قانون الرسل المشار إليه آنفًا. وأهم الظروف التي دعت لاختلاف النصوص قبل نيقية ظهور البدع في الشرق ووجوب

محاربتها، وأهم هذه النصوص الشرقية نصُّ كنيسة أوروشليم، كما ورد في إرشادات كيرلس ونص كنيسة قيصرية فلسطين كما حفظه لنا المؤرخ أفسابيوس.[٧]

[٧] Hahn, A., Bibliothek der Symbole, Breslau, 1897; Lietzmann, H., Symbole der Alten, Kirche, Berlin, 1931; Ghellinck, J., Hist. du Symbole des Apôtres à Propos d'un Texte d'Eusèbe, Rech. Sc. Relig., 1928, 118–125; Carpenter, H. J., Creeds and Baptismat Rites in the First Four Centuries, Journ. Theol. Stud., 1943, 1–11; Cullmann, O., Premiéres Confessions de Foi Chrétienne, Paris, 1948; Quasten, J., Péres de l'Eglise, I, 29–36.

الفصل الثاني عشر

لوقيانوس المعلِّم الأنطاكي

تيمايوس وكيرلس

وتوفي دومنوس الأول بعد خلع بولس السميساطي في السنة ٢٧١، فتولى خلافة بطرس في أنطاكية تيمايوس Timaios ورعى المؤمنين حتى السنة ٢٧٩،[١] ولعله هو الذي تسلَّم الأوقاف والقلاية بأمر أوريليانوس كما سبق وأشرنا، وجاء كيرلس بعده فساس الرعية حتى السنة ٣٠٣،[٢] وجميع هذه التواريخ تقديرية لا يجوز اعتبارها ثابتة.[٣] ومما يُروَى عن كيرلس أنه أُبعِد عن أنطاكية عند بدء الاضطهاد في السنة ٣٠٣، وحُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة في مقالع بانونية، فتوفي فيها بعد ثلاث سنوات.[٤]

فلول البولسيين

وتدخل الإمبراطور أوريليانوس في النزاع بين المجمع الأنطاكي وبين بولس السميساطي، فنفَّذَ رغبات المجمع، وأكره بولس على تسليم الأوقاف للأسقف الشرعي، وغاب بولس عن أنطاكية وانقطعت أخباره، ولا نعلم شيئًا عن أتباعه في أنطاكية وتوابعها قبل مجمع

---

١ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32; Zonaras., 12, 30; Nicephorus, VI, 34.

٢ Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32.

٣ Schwartz, E., Eusebius Kirchengeschichte, III, 242-243; Harnack, A., Chronologie, I, 217.

٤ AA. SS. Nov., III, Bruxelles, 1910, 769; Bardy, G., Paul de Samosate, 374, n. 3.

نيقية، ولعلهم انزووا ولم يأتوا بحركة.[٥] ويرى لوفس Loofs العلامة الألماني أن البولسيين ظلوا منتظمين كنيسة مستقلة في أنطاكية حتى مجمع نيقية برعاية أسقف كان يُدعَى لوقيانوس، وأن أسقفهم هذا هو غير لوقيانوس المعلم الشهير،[٦] ولكن النصوص التاريخية الباقية لا تخول المؤرخ المدقق هذا القدر من الاستنتاج.

دوروثيوس الكاهن

ويقول أفسابيوس المؤرخ إنه عرف في أنطاكية دوروثيوس الكاهن Dorotheos، فوجده ملمًّا باللاهوت مطَّلِعًا على علوم اليونان، يجيد العبرية ويقرأ الأسفار بلغتها الأصلية. ويقول أفسابيوس أيضًا إن دوروثيوس وُلِد خصيًّا، وأن الإمبراطور ألحقه بالبلاط، ووكل إليه إدارة مصبغة صور؛ ثم يخلص المؤرخ إلى القول: «لقد سمعناه يفسر الأسفار بحكمة في الكنيسة.»[٧]

وقام بعد أفسابيوس مَن خلط أخبار دوروثيوس الكاهن هذا بأخبار دوروثيوس آخر جعله التقليد أسقفًا على صور في أيام يوليانوس الجاحد،[٨] ولا نعلم شيئًا عن دوروثيوس الكاهن أكثر مما أوردناه أعلاه.[٩]

لوقيانوس المعلم

وجاء في التقليد[١٠] أن لوقيانوس أبصر النور في سميساط في بيت كريم، وأنه درس الأسفار المقدسة في الرها على مفسر شهير كان يُدعَى مكاريوس، وإذا صح هذا التقليد جاز القول إن بولس السميساطي استقدم لوقيانوس ابن بلدته إلى أنطاكية بعد أن أصبح رئيس

---

[٥] Bardy, G., op. cit., 385 f.

[٦] Loofs, F., Paulus, 182 f.

[٧] Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 32.

[٨] Zeiller, J., Origines Chrét. dans les Provinces Danubiennes de l’Emp. Rom., 128.

[٩] Delahaye, H., Origines du Culte des Martyrs, 179–180.

[١٠] Bidez, J., Philostorgius Kirchengeschichte, 91 f., 147 f; Batiffol, P., Passion de Saint Lucien d’Antioche, Cong. Scient. Internat. Cath., II, 181 ff.

الكنيسة فيها، فَعُنِيَ بتثقيفه ورسمه كاهنًا، ووكل إليه الإشراف على تلقين الدين المسيحي في عاصمة الشرق.[١١]

والثابت الراهن لدى المدققين الثقات هو أن لوقيانوس كان كاهنًا عالمًا في أنطاكية في الثلث الأخير من القرن الثالث، وأنه ماشى بولس السميساطي في آرائه اللاهوتية، فقطعه دومنوس عن الشركة بعد قرار المجمع الثالث، فبقي مقطوعًا حتى تولى تيرانوس (٣٠٤–٣١٦) بعد كيرلس،[١٢] والدليل على قطعه هو شهادة ألكسندروس الإسكندري بذلك بعد وفاة لوقيانوس بعشر سنوات فقط.[١٣] ومن الأدلة على قطعه انتماءُ آريوس إليه في المذهب،[١٤] وقول عدد من كبار الآريوسيين إنهم من أتباع لوقيانوس يقولون قوله ويدينون بمذهبه، وأشهر هؤلاء: أفسابيوس النيقوميذي، وماري الخلقيدوني، ومينوفنتيوس، ونومينيوس، وأفذوكسيوس، وألكسندروس، وأستيريوس القبدوقيون، وأنطونيوس الطرسوسي،[١٥] ويضاف إلى هذا كله دستور إيمان نُسِبَ إلى لوقيانوس، وبحث في مجمع أنطاكي في السنة ٣٤١، والقول في هذا الدستور بالهوموئيسية الآريوسية جلي واضح.[١٦]

والثابت الراهن أيضًا أن لوقيانوس استشهد في السنة ٣١٢ في نيقوميذية،[١٧] فغسلت معموديته بالدم سابق ذنوبه، ونُقِل جثمانه إلى دريبانوم Drepanum ودُفِن فيها،[١٨] فأصبح ضريحه مزارًا للمؤمنين، وأقامت القديسة هيلانة فيما بعدُ كنيسةً فوق هذا المزار،[١٩] تلقى فيها ابنها قسطنطين الوعظ والإرشاد قبيل اعتماده،[٢٠] ومن هنا أيضًا

---

١١ Bardy, G., op. cit., 376.

١٢ Alexandre d'Alexandrie, Epist. ad Alex. Byz., Théodoret, Hist. Ecc., I, 4.

١٣ Zeiller, J., Lucien d'Antioche, F. et M., Hist. Eglise, II, 351, n. 2.

١٤ Theodoret, Hist. Ecc., I, 4.

١٥ Philostorge, Hist. Ecc., II, 14; Zeiller, J., Origines Chrét., op. cit., 223, n. 1.

١٦ Bardy, G., Symbole de Lucien d'Antioche, Rev. Sc. Relig., 1912, 139 ff, 230 ff; Loofs, F., Das Glaubensbekenntnis des Martyrers Lucian, Sitzungsberichte, Berlin, 1915, 576–603.

١٧ Vita Luciani, 11 ff.

١٨ Delahaye, Légendes Hagiog., 219.

١٩ Vita Luciani, 20; Philostorge, Hist. Ecc., II, 21.

٢٠ Eusèbe, Vita Constantini, IV, 61; Batiffol, Paix Const., 395.

اندفاع الذهبي الفم في تقريظ لوقيانوس في السابع من كانون الثاني سنة ٣٨٧،[٢١] وفي تعليقه على الآية السادسة من الفصل التاسع من نبوة أشعيا.[٢٢]

لوقيانوس والتوراة

وعُنِيَ لوقيانوس بالتوراة وشرح نصوصها، وصحح ترجمتها إلى اليونانية،[٢٣] ولكننا نجهل شرحه وليس لدينا من آرائه سوى ما يجوز استنتاجه من تصحيحاته للترجمة اليونانية، وأفضل ما تبقى من هذه التصحيحات ما حفظه لنا كلٌّ من يوحنا الذهبي الفم وثيودوريتس في مصنفاتهما المختلفة.

ويُستدل مما تبقى من ترجمة لوقيانوس أنه توخى الضبط والإيضاح، فاستبدل بعض الكلمات الغامضة في مدلولها بما اعتبره أدق وأوضح منها، واستعاض عن الضمير في بعض الأحيان بالأسماء التي يشير إليها هذا الضمير، وتلافى بعض النقص في نص القصص بما يتممه،[٢٤] وكان رائده في هذا كله أن يضمن نصًّا سهل القراءة، واضح المعنى، دقيق التعبير، لا يفسح المجال للتأويل والتفسير، كما كان يجري في الإسكندرية وغيرها من الأوساط الشرقية، التي تأثرت بطريقة أوريجانس في البحث. وعلى الرغم من خروج لوقيانوس على العقيدة الأرثوذكسية الرسولية في بعض أبحاثه اللاهوتية وتوجيهه الآريوسي (إذا صحَّ هذا التعبير)، فإن طريقته في تفسير الأسفار المقدسة ظلت طريقة أنطاكية زمنًا طويلًا.[٢٥]

ولا نعلم شيئًا عن تفاصيل عمله في حقلي الترجمة والتفسير، ولا نعرف مَن عاونه في هذا العمل العظيم، والقول مع سويت العلامة الإنكليزي إن دوروثيوس اشترك في هذا العمل، هو مجرد افتراض ينقصه الدليل.[٢٦]

---

٢١ Tillemont, Mémoires, V, 771.

٢٢ Dieu, L., Le Commentaire Arménien de Saint Chrysostome sur Isaöe Rev. Hist. Ecc., 1921, 7-30.

٢٣ Swete, H. B., Introduction to the Old Testament in Greek, Cam., 1902, 80 ff.

٢٤ Rahlfs, Septuaginta Studien, III, 628 ff; Hautsch, Der Luciantext des Oktateuchs; Tisserant, E., Notes sur la Recension Lucianique d'Ezechiél, Rev. Bib., 1911, 384-390; Pirot, L., Esdras-Néhémie, Biblica, 1921, 356-360.

٢٥ Bardy, G., Paul de Samosate, 382.

٢٦ Swete, H. B., op. cit., 81.

تعاليم لوقيانوس

وجاء في رسالة ألكسندروس الإسكندري إلى ألكسندروس البيزنطي، التي حُرِّرَتْ بعد استشهاد لوقيانوس بعشر سنوات فقط؛ أن لوقيانوس خلف بولس السميساطي، وأنه قُطِع من الشركة، وأن آريوس قال قوله وقول غيره من الخارجين قبل بولس.[٢٧] وقال القديس أبيفانيوس (٣١٠–٤٠٣) الفلسطيني أسقف قسطنطينة في جزيرة قبرص: «إن لوقيانوس وأتباعه أنكروا أن يكون ابن الله قد اتخذ لنفسه روحًا، وقالوا إنه اكتفى بالجسد فقط؛ ليتمكنوا من القول إن ابن الله تألم وجاع وعطش وتعب وحزن واضطرب.»[٢٨] وورد هذا القول في عرض الكلام عن آريوس والآريوسيين، وجاء عن أستيريوس تلميذ لوقيانوس أنه عدَّل تعليم معلمه، فقال إن طبيعة الابن هي صورة مشابهة تمامًا لطبيعة الآب.[٢٩]

وفي هذا كله ربط بين تعاليم لوقيانوس وتعاليم آريوس بعده، وبالتالي فإنه يجوز القول إن لوقيانوس مهَّدَ الطريق فيما يظهر، إما عن قصد أو عن غير قصد، للقول بخلق الابن، وأن معمودية الدم التي اعتمد بها في نيقوميذية في السنة ٣١٢ غسلت ذنبه هذا ورفعته إلى مصاف القديسين.[٣٠]

بمفيلوس البيروتي (٢٥٠–٣٠٩)

وُلِد بمفيلوس Pamphilos في بيروت وتلقى علومه الأولية فيها، ثم رحل إلى الإسكندرية، ودرس اللاهوت على بيريوس Pierius خلف أوريجانس، الذي كان يُدْعَى أوريجانس الأصغر، فأصبح بمفيلوس من أتباع المعلم العظيم، يقول قوله ويدافع عن رأيه، وعاد إلى وطنه، فاستقر في قيصرية فلسطين حيث علم أوريجانس في أواخر أيامه، وتقبل سر الكهنوت على يد أغابيوس أسقف قيصرية، وأنشأ مدرسة درَّس فيها اللاهوت ليواصل عمل أوريجانس، ثم أنفق بسخاء فجمع مكتبةً خدَمَ بها الفكر المسيحي أجيالًا متواصلة. ومما يُرْوَى عنه أنه كان يستنسخ الكتب التي لا يمكن شراؤها، فينقلها بخطه في بعض

[٢٧] Théodoret, Hist. Ecc., I, 4.

[٢٨] Epiphane, Anocratus, 33, 4.

[٢٩] Philostorge, Hist. Ecc., II, 15.

[٣٠] Quasten, J., Patrology, II, 142–144.

الأحيان، ودرَّب أفسابيوس المؤرخ على قراءة النصوص وترجمتها ونقدها وجمعها، ولولا عنايته بآثار أوريجانس لضاع معظمها،[٣١] وأُلقِي القبض عليه في السنة ٣٠٧، وزُجَّ في السجن، ثم استشهد في السادس عشر من شباط سنة ٣٠٩ أو ٣١٠.

دفاعه عن أوريجانس

وراج القول بظاهر النصوص المقدسة في فلسطين، وشايع أساقفتها وكبار رجالها قادة الفكر الأنطاكيين، فهب بمفيلوس للدفاع عن رأي أوريجانس، واغتنم فرصة سجنه فَصَنَّفَ أبولوغيته الشهيرة في خمسة أجزاء، وبعد استشهاده أكمل أفسابيوس تلميذه عمله هذا، فأضاف جزءًا سادسًا، وقد ضاع هذا المصنف ولم يبقَ منه سوى الجزء الأول، وذلك بترجمة لاتينية غير موثوق بها تُنسَب إلى روفينوس Rufinus، ويفيدنا فوطيوس العظيم في مجموعته أن بمفيلوس وجَّهَ مؤلَّفَه هذا إلى المؤمنين الفلسطينيين الذين حُكِمَ عليهم بالأشغال الشاقة في المناجم، وأشهر هؤلاء باترميثيوس Patermythios.[٣٢]

بمفيلوس والتوراة

وأفيد ما قام به بمفيلوس تسهيل الاطلاع على نصوص التوراة، فإنه نسخ التوراة مرارًا وتكرارًا ووزَّعها، فانتشرت في فلسطين وعبرت حدودها إلى غيرها من البلدان المجاورة، ولا تزال بعض النسخ القديمة للعهدين القديم والجديد، تنتسب إلى أمهاتٍ أَعَدَّها بمفيلوس وتلميذه أفسابيوس.[٣٣]

ذيالوغوس أدمنتيوس

ومحاورة أدمنتيوس Adamantios للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية هي في عرف علماء اليوم نتاج أحد أبناء كنيسة أنطاكية قبل السنة ٣٠٠، وعلى الرغم من عزوها إلى أوريجانس

---

[٣١] Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 32, VII, 32.

[٣٢] Lommatzsch, Origenis Opera, 24, 293–412.

[٣٣] Harnack, A., Gesch. der Altchrist. Lit., I, 543–550; Bardy, G., Dict. Théol. Chrét., II, 1839–1841; Mercati, G., Nuove Note, ST95, Vatican City, 1941, 91.

مدة طويلة من الزمن، وورود اسم أوريجانس في بعض نسخها اليونانية، فإن محتوياتها تدل على اطلاع واضعها على بعض مصنفات مثوديوس، كرسالته في القيامة وقوله في حرية الإرادة، وبالتالي فإنه لا يمكن أن تكون قد كتبت قبل مثوديوس (+٣١١). وأدمنتيوس هو اسم المدافع فيها عن العقيدة الأرثوذكسية، أما اسم واضعها فإنه لا يزال مجهولًا، وهي موجهة ضد المرقيونيين وغيرهم من هراطقة هذا القرن الذي نحن بصدده،[٣٤] وقد نُقِلت إلى اللاتينية في أيام روفينوس فسُمِّيتْ أيام روفينوس فسميت De Recta in Deum Fide.

ذيذاسكالية الرسل

ومن آثار الفكر المسيحي الأنطاكي في هذا القرن الثالث تعاليمُ الرسل والتلاميذ Didascalia Apostolorum، وهي لمؤلف مجهول تحدر من أصل يهودي وسيم أسقفًا، فصنف رسالة في تعاليم الرسل على مثال الذيذاخة، وقصد بها إرشاد رعية مستجدة في النصرانية تقطن شمالي سورية، وهو يستعين كثيرًا بالأسفار المقدسة والذيذاخة وإيريناوس وإنجيل بطرس الأبوكريفي وأعمال بولس.

وهو يبحث في فصوله الأولى في الحياة الزوجية، ثم كيفية انتقاء الأساقفة والكهنة والشمامسة، ويبحث بعد ذلك في حقوق الأساقفة وواجباتهم، فيوصي باللين في معالجة التائبين وبالعطف على الفقراء والمساكين، ويحذر المؤمنين من الإخوة الكَذَبة، ويحضهم على عدم الالتفات لشهادة الوثنيين على المؤمنين. وبعد أن يصف كيفية الاحتفال بالصلاة المشتركة ووجوب الاتجاه نحو الشرق في أثناء القيام بها، يشدد على الاشتراك في هذه الصلاة، وعدم التلهي عنها بمزاولة الأعمال اليومية أو بزيارة الملاهي، وهو يحض الأساقفة على الاهتمام بالمضطهدين والمسجونين لأجل المسيح، ويؤكد على جميع المؤمنين وجوب الترفيه عن «المعترفين» بتقديم الأموال اللازمة، ويشير إلى الرجاء الأكيد بقيامة الموتى، فيوجب عدم التهرب من الاستشهاد، ويحث المؤمنين بعد هذا على صوم الأربعاء والجمعة، وصوم أسبوع الآلام ابتداءً من صباح الإثنين حتى «الليل بعد السبت».

---

[٣٤] Bakhuyzen, W. H. van de Sande, Griechischen Christlichen Schriftsteller, Leipzig, 4; Hort, F. J. A., Adamantius, Dict. Christ. Biog.; Zahn, Th., Dialoge des Adamentius, Zeit. Kirchengeschichte, 1888, 193–239; Harnack, A., Gesch. der Altchrist. Lit., I, 478–480.

ولا يبحث صاحب الذيذاسكالية في العقيدة، ولكنه يكره اليهود ويخشى الغنوسيين، ويحذر المؤمنين من شر الاثنين، فيقول مثلًا إن الله ترك كنيس اليهود وجاء كنيسة النصارى، ولكن الشيطان أيضًا فعل الأمر نفسه.

وقد ضاع أصل الذيذاسكالية اليوناني ولم يبقَ منه سوى شذرات يسيرة، ولكن بقاء نص قانون الرسل كاملًا يمكننا من ترميم ما تبقى من الذيذاسكالية، ولا يخفى أن الكتب الستة الأولى من قانون الرسل مأخوذة عن الذيذاسكالية.

ونقلت الذيذاسكالية من اليونانية إلى السريانية في عصر قريب من عصر مؤلفها، وبقيت عن ترجمتها السريانية نسخٌ نُشِرت في أوروبة في النصف الثاني من القرن الماضي، وهنالك ترجمة لاتينية قديمة تشمل ثلاثة أثمان الذيذاسكالية، وتعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد، وقد تولى نشر هذه الترجمة هولر في السنة ١٩٠٠، ونص الذيذاسكالية العربية والحبشية مأخوذ عن النص السرياني.[٣٥]

---

[٣٥] Lagarde, P. A., Didascalia Apostolorum Syriace, Leipzig, 1854; Hauler, E., Didascaliae Apostolorum Fragmenta Veronensia Latina, Leipzig, 1900; Gibson, M., Didascalia Apostolorum in Syriac, London, 1903; Connolly, R. H., Didascalia Apostolorum Accompanied by the verona Latin Fragments, Oxf., 1929; Funk, F. X., La Date de la Didascalie des Apôtres, Rev. Hist. Ecc., 1901, 798-809; Harnack, A., Gesch. Altchrist. Lit, I, 515-518, II, 488-501; Bartlet, J. V., Fragments of the Didascalia in Greek, Journ. Theol. Stud., 1917, 301 ff.; Bartlet, J. V., Church Life and Church Order during the First Four Cent. with Sp. Ref. To Early East. Church Orders, London, 1943.

الفصل الثالث عشر

المقاومة الوثنية

في القرن الثالث

واغتبط الوثنيون بما حل بالنصارى في القرن الثالث من قهر وإيذاء وتعذيب وتشتيت، وأيدوا الحكومة الرومانية بما أوتوا من مقدرة ونشاط، وهب رجال الفكر بينهم إلى التفنيد والتكذيب، وأعلن لوقيانوس وكلسوس وغيرهما الحرب على الكنيسة.

ثم هدأت الأحوال بعض الشيء في عهد الأباطرة السوريين كما سبق وأشرنا، وجرت محاولة لتوحيد الآراء الدينية بالاعتراف بجميع الآلهة اعترافًا رسميًّا، ولكن المسيحيين لم يقبلوا بشيء من هذا؛ لأن إلههم إله واحد لا إله إلا هو.[١]

أبولونيوس التياني

وكانت الفوضى والحروب والأوبئة قد أدت إلى نزعات جديدة في الفكر الوثني، فدفعت بعض الرجال إلى الابتعاد عن هذا العالم الفاني، والتأمُّل في عالم أزلي ملؤه الخير والجمال، فعكف عدد من رجال الفلسفة على فيثاغورس زاهدين وَرِعين مستوحين قائلين بالسحر والعرافة، جاعلين من بعض حلقاتهم انتداءات سحرية، فظهرت فيثاغورية جديدة.

---

[١] Reville, J., La Religion à Rome sous les Sévéres; Toutain, Les Cultes Paiens dans l’Emp. Romain, II, 227–257.

وكان أبولونيوس قد اشتهر في القرن الأول بفيثاغوريته وسحره، فزادت شهرته في القرن الثالث وأصبح صانع عجائب ونصف إله، وسمح كلٌّ من كركلا وسويروس ألكسندروس وأوريليانوس بإحياء ذكره بطقوس خصوصية، وأحبت يولية دومنة الإمبراطورة الحمصية أن تتقرب من مريدي هذا الفيلسوف الساحر ومن أتباعه، فطلبت إلى فيلوستراتوس أن يكتب حياة أبولونيوس ففعل،[٢] وجاء أبولونيوس في كتاب فيلوستراتوس فيثاغوريًّا مثاليًّا مرتديًا الكتان، لا يشرب إلا الماء، ولا يأكل إلا من ثمار الأرض، ولا يرضى عن الذبائح، ولا يتعبَّد إلا للإله الشمس مكتفيًا بحرق البخور، وهو يخبر بما يكون في المستقبل ويطرد الشياطين، ويجوب الأرض في طلب الحكمة، فيضرب فيها حتى بابل والهند والحبشة.[٣]

ويقول أفسابيوس المؤرخ إن هيروكليس Hiéroclés حاول أن يجعل من أبولونيوس مناظرًا للسيد المخلص،[٤] ولكنه خاطر في رهانه، فنفر بعمله هذا جمهور الوثنيين وأبعدهم عن بطله.

نومانيوس

وعلم نومانيوس Numenius في أبامية بين حماة والمعرَّة في النصف الثاني من القرن الثاني، فنقل عن فيثاغورس وأفلاطون، وشرح ما جاء عن النفس في الجمهورية، واطَّلَع على حكمة اليهود وتعاليم المسيح فأوَّلَها، ورأى في أفلاطون موسى، فدعاه موسى اليوناني واعتبره نبيًّا.[٥] وقال نومانيوس بانقسام الوجود إلى مملكتين: مملكة العناية، ومملكة المادة، وقال إن المادة هي أصل الشرور والمفاسد وإنه ليس يليق أن نعزو صنع العالم إلى الإله الأعلى، وأن الابن هو الصانع الذي نظم الكتلة المادية، وهو يتأمل النموذج تارةً ويتحوَّل عنه طورًا ليحرك الفلك فيصير حينئذٍ النفسَ الكلية.[٦]

---

[٢] Westermann, Oeuvres de Philostrate et Callistrate, Paris, 1849, Trad. Chassang, Paris, 1862, 1–194.

[٣] Vie, I, 31, 32, IV, 10, 20, 25, VI, 27.

[٤] Contra Hieroclem, I; Macarius Magnes, Apocriticus, 52, 66.

[٥] Eusèbe, Prep. Evang. XI; Clément, Strom., I, 22.

[٦] Leemans, E. A., Numenius, Brussels, 1937.

وأوَّلَ نومانيوس النبوات اليهودية، وبحث بالطريقة نفسها في بعض نواحٍ من حياة السيد المخلص، ولكنه لم يذكر اسمه، ولم يفت هذا نظر أوريجانس العظيم فأبانه في أحد مؤلفاته.[٧] ويرى رجال الاختصاص أن أفلوطين اعتمد على نومانيوس في أفلاطونيته الجديدة.

الأفلاطونية الجديدة

ووجد آخرون في الطيماوس Timaeus لأفلاطون قوتًا قامت به أنفسهم فانتعشت، فأكدوا قوله بالواحد الأوحد، وقالوا بالثنائية الأفلاطونية، ففرقوا بين النفس والجسد، وجعلوا من أسطورة أفلاطون في الحياة بعد الموت عقيدة، وتقبلوا نظريته في الوسطاء بين الله والبشر Daimones، وأكَّدوا أن رائد الإنسان إنما هو أن يصير مشابهًا لله، فظهرت في مصر وسورية أفلاطونية جديدة كان لها شأن كبير في عالم الفكر حتى أواخر القرن الخامس.[٨]

أفلوطين (٢٠٤–٢٧٠)

وأشهر المؤسسين في هذا الحقل أفلوطين Plotinus، وُلِد في مصر في ليقوبولس في السنة ٢٠٤ بعد الميلاد، وبدأ دروسه الفلسفية في سن متقدمة في الثامنة والعشرين في مدينة الإسكندرية، ولكن ما لقيه في هذه الدروس خيَّب أمله، واعترف بذلك إلى أحد أصدقائه، فقدَّمه هذا فورًا إلى أمونيوس سكاس Ammonius Saccas فعادت رغبته إليه، وبعد أن قضى إحدى عشرة سنة في معية هذا المعلم، علم أن الإمبراطور غورديانوس فتح أبواب هيكل يانوس في رومة؛ ليعلن الحرب على ساسان، فصمَّم الفيلسوف الطالب على الالتحاق بهذه الحملة العسكرية ليسمع عن حكمة الفرس والهنود، والتحق بجيش غورديانوس ووصل معه إلى الفرات، ثم تمرَّدَ الجند واغتالوا الإمبراطور عند الصالحية، فعاد أفلوطين إلى أنطاكية (٢٤٤)، وزار أبامية ليطلع عن كثب على فلسفة نومانيوس، ثم توجَّهَ من أنطاكية إلى رومة وبدأ يعلم فيها، وتميَّزَ بسموِّ أخلاقه ونفاذ بصيرته، فصادف نجاحًا وأقبل على الأخذ عنه عدد من أفراد الأسر العالية.[٩]

[٧] Origéne, Contra Celsum, I, 15, IV, 51.

[٨] Nock, A. D., Paganism in the Rom. Emp., Cam. Anc. Hist., XII, 438 ff.

[٩] Bibez, J., Lit. and phil. in Eastern Half of Empire, Cam. Anc. Hist., XII, 621 ff.

أفلوطين والنصرانية

وكثر عدد طلاب أفلوطين وتنوعوا، وعارضه بعضهم فاتهمه بانتحال نومانيوس، فردَّ أميليوس Amelius برسالة بيَّن فيها الفَرْق بين عقيدة أفلوطين وعقيدة نومانيوس،[١٠] وجرؤ آخرون من طلابه الغنوسيين المسيحيين على أفلاطون نفسه، فقالوا إنه لم يستبطن كنه الماهية المعقولة Essence Intelligible، فثارت ثائرة أستاذهم وردَّ عليهم في السنة ٢٦٤ برسالة هامة سجل فيها موقفه من هؤلاء النصارى، فانتقدهم في رأيهم في العالم وفي الإنسان والخلاص،[١١] واتهمهم باستنباط أشياء لا تمتُّ بصلة إلى الثقافة اليونانية القديمة، فقد جاء في الفصل الثامن من هذه الرسالة: «بأن التساؤل عن سبب وجود العالم يعني التساؤل عن سبب وجود النفس، وعن سبب إنتاج الإله الخالق الذميورغوس Demiourgos، وهذا التساؤل يعني بدوره الاعتراف ببداية الذي كان دائمًا موجودًا، وهذا الاعتراف يعني بالتالي أن هذا الذي كان دائمًا موجودًا قد أصبح سبب وجود نتاجه بعد أن تغير هو نفسه وتطوَّر، أي إنه قد لحقه التغيُّر والتحوُّل، وهو ممتنع.»

ومما قاله أفلوطين في رسالته هذه أن هؤلاء النصارى يعتبرون أنفسهم موضوع عناية خاصة، وينسون أن هذه العناية كلية جامعة تشمل جميع الكائنات، وتسهر على الكل لا البعض فقط، والدليل على ذلك هو الوجود نفسه المرفق بالحكمة.

وأخذ أفلوطين على هؤلاء النصارى أيضًا أنه لم يكن لديهم رأي واضح في الفضيلة، وأنهم تجاهلوا آراء القدماء في هذا الموضوع، فأهملوا النظر في كيفية اكتساب الفضيلة وكيفية إبراء النفوس وتطهيرها.[١٢]

بورفيريوس (٢٣٣–٣٠٥)

وأظهرُ تلاميذِ أفلوطين بورفيريوس Porphyrius الحوراني، وُلِد في البثنية من أعمال حوران وتعلَّمَ في صور، ثم درس البيان والفلسفة على لونجينوس في أثينة، فأعجب

---

[١٠] Vita, XVII.

[١١] Brehier, E., Les Enneades, II, 108–110.

[١٢] Lebreton, J., Opposition Paienne, Fliche et Martin, op. cit., II, 216–220.

لونجينوس بشغفه بالعلم ومواهبه النادرة، وكان يُدْعَى مالكًا، فأطلق عليه لونجينوس اسم «الأرجواني» بورفيريوس، ولا نعلم ما إذا كان وُلِد مسيحيًّا كما يصرح سقراط المؤرخ،[١٣] ولكننا نرجح أنه عرف أوريجانس العظيم، وعلم أشياء وأشياء عن النصرانية التي كانت قد شاعت آنئذٍ في طول الساحل اللبناني وعرضه.[١٤] ويرى بعض العلماء الباحثين أنه بالإضافة إلى لغته الأم تكلم العبرية، وعرف جيدًا طقوس الكلدانيين والفرس والمصريين، ولعله أجاد فهم الأدب اليهودي غير المقدس والفينيقي.[١٥] ويُستبعَد أن يكون بورفيريوس قد تذوَّقَ رسالة السيد المخلص في هذا الدور من حياته، أو أن يكون قد قدر عظمة التوراة حق قدرها،[١٦] فإنه في السنة ٢٤٩ عندما بدأ داقيوس اضطهاده الشهير، اتخذ موقف المدافع عن الإمبراطورية وآلهتها وصنف رسالته في العرافة والعرافين، وطرد قوساته Causatha من الحمام؛ لأنه اعتبره شيطانًا رجيمًا.[١٧]

ولما بلغ بورفيريوس الثلاثين من عمره (٢٦٣)، رحل إلى رومة وأصغى إلى أفلوطين، فقال بفلسفته وأحب كثيرًا أن يُغني ذاته في الوحدة الإلهية ويتحد بالواحد، كما تسنى لمعلمه ولأفلاطون من قبله، واشتدت رغبته هذه حتى أنزفت قواه العصبية ففكَّرَ بالانتحار، ولكن أفلوطين ردعه عن ذلك مبينًا سخف هذا العمل، وأشار عليه بالتجول،[١٨] فرحل بورفيريوس في السنة ٢٦٨ إلى صقلية وأقام في ليليبة، ولم يرَ أستاذه بعد ذلك.

وكان ما كان من أمر زينب التدمرية وحاجتها لفصاحة لونجينوس، وانقض القوط على ساحل إيجه وجزره، ففر لونجينوس ملبيًا دعوة زينب وأقام معها، وعلم لونجينوس بما حلَّ ببورفيريوس، فكتب إليه أن يبرح صقلية، ويعود إلى بلده الأم (٢٧٠) ويحمل إليه بعض المصنفات. ولكن بورفيريوس آثَرَ البقاء في صقلية، فاستدرَكَ بذلك خطر الموت الذي حلَّ بلونجينوس في حمص في السنة ٢٧٢ على يد أوريليانوس.

---

١٣ Socrate, Hist. Ecc., III, 23.

١٤ Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 19; Bidez, J., Vie de Porphyre, 7.

١٥ Bidez, J., op. cit., 9–10.

١٦ Bidez, J., op. cit., 13.

١٧ Bidez, J., op. cit., 15, 17–28.

١٨ Vie de Plotin, XXIII.

وكان أفلوطين المعلم يمقت البيان، ويستثقل العناية بالجمل والألفاظ، وأدرك الحاجة إلى إعادة النظر فيما كتب، فوكل ذلك إلى تلميذه بورفيريوس، فقبل التلميذ ولكنه لم ينفذ شيئًا منها إلا بعد وفاة معلمه، فدوَّنَ في صقلية حياةَ أستاذه، وجمع محاضراته في مجلدات ستة عُرِفت بالأقسام Ennead (التاسوعات) وشرحها،[١٩] وكتب إليه تلميذه خريساريوس Chrisarios عضو مجلس الشيوخ الروماني، أن يعينه على فهم كاتيغوريات Kategoria (مقولات) أرسطو، فصنف له بورفيريوس كتاب الإيساغوجي Eisagoge (المدخل)، وكسب بهذا السِّفر شهرةً واسعة خالدة.[٢٠]

بورفيريوس والنصرانية

وعاد أوريليانوس من الشرق إلى رومة منتصرًا، وأحب أن يعمم عبادة الشمس، فيجعلها دين الإمبراطورية الأوحد، فأنشأ في السنة ٢٧٤ هيكل الإله الشمس على الكورينال، وبدأ يدعو لدين الشمس في أوساط العاصمة وفي الولايات، وعلم بورفيريوس بذلك فهب يهاجم النصارى والنصرانية، وصنف رسائله الخمس عشرة الشهيرة، وأمر الأباطرة المسيحيون في القرنين الرابع والخامس بمصادرة هذه الرسائل وإبطالها، فضاع نصها الكامل ولم يبقَ منها سوى شذرات مبعثرة في متون الردود التي صُنِّفت ضدها، ثم ضاعت هذه الردود بدورها، فلم يسلم منها سوى رد مكاريوس.[٢١]

ويرى رجال الاختصاص أن هذه الرسائل خالية من أي تفكير فلسفي عميق، وهي في نظرهم أقرب إلى الجدل الفيلولوجي التاريخي منها إلى البحث الفلسفي، فإننا نرى بورفيريوس يسخر من قصة آلام السيد، ويتطلب مثل الفريسيين من قبله عجائب عظمى، وهو يهزأ أيضًا من «تناقض» الأناجيل الأربعة، ويلجأ في غالب الأحيان إلى اللجاجة والمماحكة، مبتعدًا عن اتخاذ موقف حاسم واضح.[٢٢]

---

[١٩] Henri, P., Enseignement de Ptotin, Bull. Acad. Belge, 1937, 310 ff.

[٢٠] Bidez, J., op. cit., 60 ff.

[٢١] Macarii Magnetis quae Supersunt ex Inedito Codice, Edit. Blondel Parisiis, 1876; Harnack, A., Porphyrius Gegen die Christen, Berlin, 1916.

[٢٢] Lebreton, J., Opposition Paienne, Fliche et Martin, op. cit., II, 222; Labriolle, P., Réaction Paienne, Paris, 1934, 252–270.

يمبليخوس العيطوري

وقام في النصف الثاني من القرن الثالث في خلقيس (مجدل عنجر) يمبليخوس العيطوري يدعو إلى الأفلاطونية الجديدة ويدافع عنها، ويعطي الناحية الدينية في الأفلاطونية الجديدة المقام الأول.[٢٣] وهو تلميذ بورفيريوس أخذ عنه في روما، ودرس الرياضيات على أناتوليوس، وعاد إلى وطنه الأصلي يعلم في أبامية وفي مجدل عنجر، فقال بصدور الموجودات بعضها عن بعض، ورأى أن أفلوطين حين سَمَّى الواحد الأوحد خيرًا بالذات قيَّده بصفة، فوضع فوقه واحدًا غير معين ووضع بعده العالم المعقول، فأصبح لديه «حدود» ثلاثة؛ وجعل العالم المعقول ثلاثة حدود أيضًا: العقل، والصانع، وبينهما القدرة الإلهية؛ وجعل للعالم الاستدلالي ثلاثة حدود أخرى: الآب، والقوة، والفهم.

[٢٣] Bidez, J., Jamblique et son Ecole, Rev. Eludes Grec., 1919, 31 ff.

الفصل الرابع عشر

روابط الكنيسة ونُظمها في القرن الثالث

الأخوَّة والمحبة

وواظب المسيحيون في هذا القرن على محبة المسيح، وأحب بعضهم بعضًا؛ لأنهم أحبوا المسيح ولأن المسيح أحبهم، وبقيت الكنيسة أخوية يتساهم أعضاؤها الوفاء ويتقاسمون الصفاء؛ لأن قلوبهم اجتمعت على محبة السيد المخلص، واتفقت على ولائه، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا كل طمَّاع رغيب، خلا قلبه من نعمة الله ومحبة ابنه الحبيب.

كنيسة واحدة جامعة

وقضت العناية أن يكون المسيحيون واحدًا، فذكروا الآية: «لست أنا بعد في العالم، وأما هم فإنهم في العالم وأنا أمضي إليك، أيها الآب القدوس احفظهم باسمك، الذين أعطيتني ليكونوا واحدًا مثلما نحن «واحد».» نقول: ذكروا هذه الآية فحفظوها وعملوا بها كأنهم جسم واحد، فكانوا حيثما يحلون ينتظمون كنيسة واحدة لا «كنيسات» متعددة مستقلة كما فعل اليهود من قبلُ، ولا «كليات» منفردة قائمة بذاتها كما جرت عادة الوثنيين.[١]

وعلى الرغم من المسافات الطويلة، التي كانت تفصل الكنائس بعضها عن بعض، واللغات المتباينة التي كانت تعرقل سبل التفاهم، فإن المؤمنين ظلوا متماسكين معتبرين أنفسهم أعضاء جسم واحد، مستهدفين خيرًا واحدًا هو ملكوت الله، وظلت الرسائل

---

[١] Batiffol, P., Eglise Naissante, 41–42.

Litterae Formatae واسطتهم العادية للمفاوضة وتبادل الرأي كما كانت في القرنين الأولين.[٢]

وجاءت بدع القرن الثالث، واشتد الاضطهاد، فلجأ الأساقفة إلى التفاوض مجتمعين لتوحيد الرأي ودرء الأخطار الداهمة، والإشارة هنا إلى سنودوسات إيطالية التي التأَمَتْ برئاسة أسقف رومة، ومجامع أفريقية برئاسة أسقف قرطاجة، ومجامع أنطاكية برئاسة أسقف أنطاكية، أو أقدم الأساقفة سيامةً كأسقف طرسوس.[٣]

الهيرارخية

والهيرارخية Herarchia لفظ يوناني معناه في الأصل سلطة الكاهن أو حكمه، ويرى رجال الاختصاص أن بعض الكنائس في بعض البلدان كانت منذ القرن الأول قد بدأت تخضع للكنيسة الأم التي أسستها، ولما كانت هذه الكنائس المؤسسة في غالب الأحيان كنائس مراكز الحكم في الولايات، تزعَّمَ أساقفتها السلطة في القرن الثالث على جميع أساقفة الولاية التي انتموا إليها، ومما يجدر ذكره لهذه المناسبة أن مراكز الحكم في الولايات كانت تتمتع في غالب الأحيان برتبة متروبوليس Metropolis «المدينة الأم»، وأن الولاية التابعة كانت تُدعَى «أبرشية» Eparchia، فأصبح أسقف المتروبوليس متروبوليت الأبرشية. ومما يذهب إليه رجال البحث في هذا الموضوع أن أبرشيات الشرق سبقت غيرها من الأبرشيات إلى هذا النظام، وأن متروبوليت الأبرشية تمتع منذ القرن الثالث بصلاحية سيامة الأساقفة في أبرشيته، أو بحق تثبيتهم بعد الانتخاب. ومما يُقِرُّه رجال الاختصاص أيضًا أن ظروف التبشير والإدارة والمواصلات قضت بتكتل أوسع وأكبر، ففرض أسقف قرطاجة سلطته في القرن الثالث على جميع أفريقية الشمالية، وعلى إسبانية في بعض الأحيان، وخضعت مصر وليبية لسلطة أسقف الإسكندرية، كما اعترفت إيطالية بأسرها بسلطة أسقف رومة، والشرق بسلطة أسقف أنطاكية.[٤]

---

[٢] Zeiller, J., Org. Ecc., Fliche et Martin, op. cit. I, 374–375.

[٣] Zeiller, J., Org. Ecc., op. cit., II, 398–400.

[٤] Zeiller, J., Org. Ecc., op. cit., II, 400–401.

هيرارخية أنطاكية

وكانت أنطاكية ثالثة مدن الإمبراطورية، وقاعدة الأباطرة في الشرق، وكانت قد أصبحت عاصمة النصرانية بعد خراب أوروشليم وتضعضع أم الكنائس، فكان من الطبيعي أن يصبح أسقفها خليفة بطرس وبولس ذا هيبة ووقار وسطوة واقتدار. وقد مرَّ بنا أن أغناطيوس «حامل الإله» اعتبر نفسه منذ نهاية القرن الأول أسقف سورية،[٥] كما اعتبر كنيسة أنطاكية كنيسة سورية بأسرها،[٦] وأن سيرابيون (١٩١–٢١٢) الأسقف التاسع بعد بطرس وبولس كتب إلى الإكليريكيَّيْن بونطيوس Pontios وكريكوس Caricus البونطيين بشأن هرطقة مونطانوس Montanos،[٧] وأنه تدخل أيضًا تدخلًا فعليًّا في شئون كنيسة أرسوز ليمنع مطالعة إنجيل بطرس.[٨]

وفي التقليد السرياني روايات عديدة تدل على اتساع نفوذ الكرسي الأنطاكي وسلطته في ما بين النهرين وما وراءهما في هذه القرون الأولى، ولا سيما في أمر سيامة الأساقفة، ولكن هذه الروايات جاءت متأخرة مشحونة بالأغلاط التاريخية، فضاعت فائدتها وتعذر على المؤرخ المدقق أن يأخذ بها، ومن هنا ضلال العلامة اللبناني السمعاني وغيره.[٩]

ويأخذ فابيوس أسقف أنطاكية في منتصف القرن الثالث برأي فالنتنيانوس كما سبق وأشرنا، فيهرع أساقفة الكرسي الأنطاكي إلى إنقاذه من الضلال، ويلتئم مجمع أنطاكي في أنطاكية نفسها، فيهتم أفسابيوس المؤرخ لهذا الحدث، ويدوِّن أسماء أعضاء هذا المجمع،[١٠] فيبين لنا بعمله هذا مدى سلطة السدة الأنطاكية، ويتضح من نص

---

٥ Ad Rom., II. 2.

٦ Ad Ephes., XXI, 2; Ad Mag., XIV; Ad Trall., XIII, 2.

٧ Eusèbe, Hist. Ecc., VI. 12.

٨ Ibid.; Harnack, A, Mission und Ausbereitung, II, 672, 674.

٩ Doctrina Addai, Edit. Philips, 50; Duval, R., Ancienne Lit. Chrét., 123; Zorel, F., Chron. Ecc. Arbelensis, 166; Mari Ibn Soleiman, Liber Turris; Bar-Hebraeus, Chron. Ecc., II, 26; Assemani, Bib. Or., II, 390 ff., III, 51 ff.; Harnack, A., Mission und Ausbreitung, II, 680, 689-690; Haase, F., Altchristliche Kirchengeschichte, 82-83, 104-107; Westphal, G., Unterschungen uber die Quellen und die Glaubwurdigkeit der Patriarchalchroniken des Mari Ibn Sulaiman, Amr Ibn Matai, und Saliba Ibn Johannan; Labourt, J., Le Christianisme dans l'Emp. Perse, 13 ff.

١٠ Eusèbe, Hist. Ecc., VI. 43-46.

أفسابيوس أن هيرارخية أنطاكية شملت في منتصف القرن الثالث: سورية، ولبنان، وفلسطين، والعربية، وقيليقية، والقسم الشرقي من آسية الصغرى حتى البحر الأسود، بما في ذلك قبدوقية وغلاطية وما جاورهما.[١١]

تقدم رومة في الكرامة

ويتفق المؤرخون الباحثون في هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة على تقدم أسقف رومة في الكرامة والاحترام، فهو أسقف عاصمة الدولة الرومانية وممثل الكنيسة الجامعة أمام السلطة المدنية العليا، يدافع عن حقوق هذه الكنيسة الجامعة، ويتحمل مسئولية أقوال المسيحيين وأفعالهم في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وهو يتمتع في الوقت نفسه بتسلسل بركة رسولية لا غشَّ فيها ولا جدالَ حولها،[١٢] ويحمل في شخصه ومن حوله أمانة العقيدة الطاهرة المقدسة، يؤم مقامه كبار علماء الكنيسة أمثال إيريناوس وترتوليانوس وأوريجانس، ويراسله غيرهم أمثال ديونيسيوس الإسكندري للمشاورة والاستيضاح.[١٣]

وأحسَّ بعض أساقفة رومة في هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة بواجب رعائي تجاه الكنيسة الجامعة، فحاوَلَ فيكتوريوس (١٨٩–١٩٩) أن يفرض رأي رومة في كيفية ممارسة عيد الفصح على أساقفة آسية الصغرى، وهبَّ بعده إسطفانوس (٢٥٤–٢٥٧) يوجب الاعتراف بمعمودية التائبين العائدين إلى حضن الكنيسة، والاكتفاء بفرض الندامة والتوبة مهدِّدًا أساقفة أفريقية وآسية الصغرى وأنطاكية بالقطع إن هم خالفوا العرف والتقليد الرومانيين، فاحتجَّ بوليكراتس أسقف أزمير على تدخل فيكتوريوس، واستند في احتجاجه هذا إلى العرف الرسولي المتوارث في آسية الصغرى عن يوحنا الحبيب، وأيَّدَه في احتجاجه مجمع محلي ضم خمسين أسقفًا؛[١٤] ثم احتجَّ أيضًا كلٌّ من القديس كبريانوس أسقف قرطاجة والقديس فرميليانوس أسقف قيصرية التابعة لكنيسة أنطاكية، على

[١١] Bardy, G., Pant de Samosate, 220–223; Vailhé, S., Formation du Patriarcat d’Antioche, Echos d’Orient, 1912, 196.

[١٢] Irenaeus, Adversus Haereses, I, 27, III, 3.

[١٣] Feltoe, Letter and Other Remains of Dionysius of Alexandria, 182–198.

[١٤] Eusèbe, Hist. Ecc., V. 24.

تدخُّل إسطفانوس في أمورهما، وقالا بتساوي الرسل[١٥] وتساوي الأساقفة، مؤكدين أن وحدة الكنيسة إنما تتم بتفاهم الأساقفة وتآلفهم وتعاونهم.[١٦] ورأى كبريانوس في العبارة «أنت صخرٌ» رمزًا بالرقم واحد لوحدة الكنيسة،[١٧] أما العبارة Primatus Petro datur «الأولية تُعطَى لبطرس»، والعبارة «الذي يهجر كرسي بطرس الذي عليه أسست الكنيسة، هل يثق أنه في الكنيسة؟» Qui cathedram Petri Super quam fundata Ecclesia est, deserit, in Ecclesia se esse confidit? والواردة في رسالة كبريانوس عن وحدة الكنيسة، فإنها موجودة في بعض النسخ الخطية وساقطة من غيرها؛[١٨] وهنا يختلف العلماء الباحثون، فإن بعضهم يرى أن هذه العبارات مدسوسة دسًّا لتأييد سلطة رومة،[١٩] والبعض الآخر يرى أن نصوص هذه العبارات تتفق وطريقة كبريانوس في التعبير، وأن كبريانوس نفسه ربما أدخلها على النص الأصلي في ظرف متأخر.[٢٠] ولا ينحصر القول بالدس في الأوساط العلمية غير الكاثوليكية، فإن كلًّا من أرهارد وتكسيرون يشكان في صحة هذه العبارات موضوع البحث.[٢١]

أما الآية «أنت صخر» فإنها في نظر علماء الكنيسة الكاثوليكية مصدر سلطة رومة، فالسيد المخلص وهب بطرس بموجب هذه الآية زعامةً رسوليةً بنى عليها الكنيسة، ثم مكَّنَه من تأسيس كنيسة رومة وأذن باستشهاده؛ فأصبح خلفه في أسقفية رومة وريثه.[٢٢]

---

[١٥] “Pari consortio praediti et honoris et potestatis” De Ecclesiae Unitate, IV, Unam Sanctam, 9, 8.

[١٦] Ibid. IV, V, VII.

[١٧] Epist. XXVII.

[١٨] Unam Sanctam, 9, p. 11.

[١٩] Koch, H., Cyprian und der Romische Primat; Benson, Cyprian, His Life, His Time, His Work, 180 ff; Loofs, Dogmengeschichte, 209.

[٢٠] Dom Chapman, Les Interpolations dans le Traité de St. Cyprien sur l’Unité de l’Eglise, Rev. Bénédictine, 1902, 246 f., 357 f., 1903, 26 f.; Ritschel, O., Cyprian von Carthago, 1885, 92 f.

[٢١] Ehrhard, Altchristliche Literatur, 476; Tixeront, Hist. des Dogmes, 1930, 381 f.

[٢٢] Batiffol, Mgr., Cathedra Petri.

وآباؤنا وعلماؤنا رأوا، ولا يزالون، في الصخرة التي تبنى عليها الكنيسة صخرة الإيمان، صخرة القول مع بطرس «أنت المسيح ابن الإله الحي» (متَّى، ١٦: ١٦)، ورأوا في القول «أنت صخر» تثبيتًا لبطرس في إيمانه، وقال آباؤنا بتساوي الرسل الأطهار في النعمة وفي الحل والربط، ووجدوا في اختلاف بطرس وبولس في أنطاكية واحتكامهما أمام مجمع الرسل في أوروشليم برئاسة يعقوب «أخي الرب»، دليلًا واضحًا على هذا التساوي؛ فبطرس لم يعترض على الاحتكام، بل امتثل لقرار المجمع، فأين الزعامة! وينهج آباؤنا في وحدة الكنيسة نهج القديس كبريانوس في رسالته «وحدة الكنيسة»، ولا سيما في الفصلين الرابع والخامس، فيرون أن هذه الوحدة تتجلى بتفاهم الأساقفة وتعاونهم، وأن الكلمة التي وجَّهَها السيد إلى بطرس إنما ترمز إلى وحدة الأساس الذي ترتكز إليه الكنيسة.

أنطاكية ورومة

ويرى العلَّامة الأب غوستاف بردي أن موافقة رومة على قرار المجمع الأنطاكي الثالث القاضي بخلع بولس السميساطي كانت ضرورية؛ ليصبح هذا القرار نافذ المفعول،[٢٣] ويستند في رأيه هذا إلى الرسائل التي تبودلت في السنة ٣٣٩ بين يوليوس أسقف رومة وبين الأساقفة اليوسيبيين المجتمعين في أنطاكية آنئذٍ،[٢٤] وإلى قول يوليوس فيها إن القانون الكنسي يقضي بإعلام الجميع بما يتم.

ويُلاحَظُ أن النصوص الأولية التي تحفظ أخبار المجمعين الأنطاكيين خاليةٌ من أية إشارة إلى ضرورة موافقة رومة على قرارات هذين المجمعين، وأن الرسائل التي تبودلت بين يوليوس أسقف رومة وبين الأساقفة اليوسيبيين تعود إلى السنة ٣٣٩؛ أي إلى ما بعد المجمع الأنطاكي الثالث بإحدى وسبعين سنة، وأن جل ما يقوله يوليوس هو إعلام «الجميع»[٢٥] بالقرار المتخذ سنة ٣٣٩. ومما تجب ملاحظته أن الأب بردي يعترف بضياع القانون الكنسي، الذي أشار إليه يوليوس أسقف رومة، وأنه لا يجوز اتخاذ مرجع ضائع حجة ودليلًا، ونحن نلفت نظر الأب بردي إلى أن الكنائس الشرقية لا تزال حتى يومنا هذا

---

[٢٣] Bardy, G., Paul de Samosate, 312.

[٢٤] Sozoméne, Hist. Ecc., III, 8.

[٢٥] Jules, Epist. ad Orient., Athanase, Apol. contra Arian., 35: "Il fallait nous écrire à nous tous et qu'ainsi justice fût rendue par tous"!

توجِّه رسائل «سلامية» تنبئ بها جميع رؤساء الكنائس الشقيقة بالقرارات الهامة، التي تتخذ لمناسبة خلع رئيس أو ارتقاء غيره.

الأساقفة

وتميَّز الأسقف في هذا القرن على نظرائه في القرنين الأول والثاني، فأصبح على حد تعبير القديس كبريانوس هو الكنيسة Ecclesia in Episcopo،[٢٦] وظلَّ الشعب ينتخبه انتخابًا، ويرفعه إلى أسقف عاملٍ في حقل الرب لينال منه الرسامة، ثم تبدلت شروط هذه الرسامة، فأصبح عدد الأساقفة الراسمين ثلاثة، وغدا تثبيت متروبوليت الأبرشية لازمًا ضروريًّا، وتمتع الأسقف بعد هذه التولية المزدوجة البشرية والإلهية بصلاحيات واسعة، فأصبح هو الراعي المطاع يدبر أمور الرعية كما يشاء، ويقدِّم لقاء هذه الطاعة محبة وغيرة وإخلاصًا.[٢٧]

الكهنة

وقضت ظروف الاضطهاد في القرن الثالث بتوسيع صلاحيات الكهنة، فاختباء بعض الأساقفة واستشهاد البعض الآخر، وتشتت الرعية وعدم تمكنها من انتخاب أساقفة جُددٍ، أدَّى بطبيعة الحال إلى توسيع صلاحيات الكهنة والسماح لهم بممارسة سر الأفخارستية. ولا يخفى أن أعمالهم كانت تنحصر قبل ذلك بتعليم المؤمنين وإعداد الموعوظين لتقبُّل سر المعمودية، وإرشاد التائبين إلى سُبل التكفير عن خطاياهم؛ وكانوا لا يمارسون سر الأفخارستية إلا بحضور الأسقف الراعي،[٢٨] وأدى ازدياد عدد النصارى في أمهات المدن في هذا القرن إلى تقسيم الأبرشية إلى خورنيات Parochia، وإقامة كاهن على كلٍّ منها يدبر شئونها ويقوم بواجبات الرعاية.[٢٩]

---

[٢٦] Epist. XXXIII, I.

[٢٧] Zeiller, J., Org. Ecc., op. cit., II, 390–391.

[٢٨] Smedt, C., Org. des Eglises Chrét. au III^e, Siécle, Rev. Quest. Hist., 1891, 397 f.

[٢٩] Ibid., 410 f.

الخور أسقف

Chorepiscopos وقضت هذه الظروف عينها بزيادة عدد الأساقفة، فازداد عددهم في هذا القرن ازديادًا عظيمًا، ولا سيما في إيطالية وشمالي أفريقية وسورية وآسية الصغرى، واختلفت الكنائس في صلاحيات هؤلاء الأساقفة الجدد، فلم تفرق رومة بينهم وبين الأساقفة القدماء، أما كنيسة أنطاكية وكنائس آسية الصغرى، فإنها ألحقت هؤلاء الأساقفة بأساقفة المراكز القديمة، وجعلتهم دونهم أهمية ونفوذًا، ومنحتهم لقب خور أسقف. وخوره Chora لفظ يوناني معناه منطقة تجمع القرى، والكورة العربية هي في الأرجح تحريف خوره اليونانية،[٣٠] وأقدم خور أسقف ورد ذِكْره في تاريخ الكنيسة هو زوتيكوس خور أسقف كومانة في فريجية،[٣١] ولم يلقَ هذا الترتيب ترحيبًا في الغرب، فأمسى استعمال هذا اللقب في كنائس الغرب أمرًا نادرًا شاذًّا.[٣٢]

الشمامسة

وواظب الشمامسة في هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة على القيام بالخدمات نفسها التي مارسوها في القرنين الأولين، فعاونوا الأسقف في الصلوات والخدمات الروحية، وأشرفوا على توزيع الصدقات بين المؤمنين الفقراء، كما قاموا ببعض أعمال إدارية داخل الكنيسة وخارجها، وآثر الآباء في هذه الحقبة تأثر الرسل في عدد الشمامسة، فجعلوا هذا العدد سبعة وأبقوه، كما كان في أيام الرسل في أم الكنائس، وكان المقدم بين الشمامسة السبعة يُدعَى أرشدياكون، وكان الأرشدياكون في معظم الكنائسِ الكبيرةِ الشخصيةَ الثانيةَ بعد الأسقف، يخلفه في غالب الأحيان بعد وفاته.

---

[٣٠] Gillmann, F., Das Institut der Chorbischofe im Orient, Munchen, 1903; Bergére, H., Etude Hist. sur les Chorévêques, Paris, 1905; Jugie, P. M., Les Chorévêques en Orient, Echos d'Orient, 1904, 263 ff.

[٣١] Eusèbe, Hist. Ecc., V, 16.

[٣٢] Zeiller, J., Note sur le Chorépiscopat en Occident, Rev. Hist. Ecc., 1906, 27 ff.

الأناغنوستس

ويُستدَل ممَّا تبقَّى من مصنفات القديس يوستينوس[٣٣] أن الكنائس الكبيرة كانت منذ عهده (١٠٠–١٦٤) قد بدأت توكل قراءة الأسفار المقدسة في الخدمات الروحية إلى أشخاص معينين أطلقت عليهم لقب أناغنوستس Anagnostes، وظل الأناغنوستس طوال القرن الثالث رجلًا مرموقًا في الخدمات الروحية،[٣٤] ولا تزال هذه الرتبة محفوظة حتى يومنا هذا في جميع الكنائس اليونانية.

الأبوذياكون

واتسع عمل الشمامسة في هذا القرن نفسه، وحافظ الآباء على التقليد الرسولي، وأبقوا عدد الشمامسة سبعة، فاضطروا أن يرسموا معاوني شمامسة أطلقوا عليهم لقب أبوذياكون.[٣٥]

الإكزورخيس

وجاء بعد الأبوذياكون الإكزورخيس Exorkistes، وكانت واجباته في هذا القرن تقضي بطرد الشياطين والأرواح النجسة.[٣٦]

الكاتيخيستس

وعني بإرشاد الموعوظين في الكنائس الكبرى في هذا القرن موظف خصوصي أُطلِق عليه لقب كاتيخيستس Catechistes، وهو الـ Doctor Audientium في كنيسة رومة.[٣٧]

---

٣٣ Apolog. I, 47.

٣٤ Tertullienus, Praescriptione, 41.

٣٥ Eusèbe Hist. Ecc., VI, 43.

٣٦ Ibid.

٣٧ Ibid.

الإكليروس والشعب

وأجاز بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (٩: ١٣ و١٤) أن يأكل الذين يتولون الأعمال الكهنوتية من الهيكل، وأن يقاسم المذبح الذين يلازمونه، فحضَّ الآباء المؤمنين على التقدمة مما يملكون،[٣٨] وقُدِّرَ للكنيسة في القرنين الثاني والثالث أن يكون لها أوقاف تدرُّ عليها دخلًا ثابتًا، فكان للإكليروس شيء من المال يتعيشون به، ولكن لا هذا ولا ذاك كان كافيًا، فامتثل بعض رجال الإكليروس أمر بولس واحتذوه، فتعاطوا الأعمال المدنية لاكتساب الرزق، ولم يقنع بعضهم باليسير، ولم يتكرموا عن المكاسب الشائنة، فأثاروا غضب زملائهم القديسين الأطهار أمثال كبريانوس[٣٩] وأعضاء المجمعَيْن الأنطاكيين الثاني والثالث كما سبق وأشرنا.

وقضت رسائل الرسل بأن يتميَّز الإكليركي عن سائر أفراد الشعب بالصلاح والتقوى، وأوجب بولس في رسائله إلى تيموثاوس وتيطس أن يكون الأسقف غير متزوج «أكثر من مرة واحدة»، فلم تُفْرَض العزوبة على الإكليروس في القرون الثلاثة الأولى، ولكن التبتل فُضِّلَ على الزواج منذ عهد الرسل؛ فآثر الآباء في هذه القرون الأولى انتقاء رجال الإكليروس من صفوف العذاب إذا تساوت سائر الصفات بينهم وبين المتزوجين، وامتنع الآباء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة عن قبول الحديثين في نعمة الإيمان Neophyte، والذين تعمدوا معمودية المرضى، والتائبين بعد الإجحاد، والذين شوَّهوا أنفسهم من غير إكراه؛ في صفوف الإكليروس.[٤٠]

---

[٣٨] Didache, XIII; Didascalia, VII, XVIII.

[٣٩] De Lapsis, IV.

[٤٠] Zeiller, J., Org. Ecc., op. cit. II, 388–389; Eusèbe, Hist. Ecc., VI, 43.

الفصل الخامس عشر

الاضطهاد العظيم

٣٠٣–٣١٢

مقدمات الاضطهاد

وقُتِلَ الإمبراطور أوريليانوس في حملة قام بها على الساسان في السنة ٢٧٥، فانتخب مجلس الشيوخ تسيتوس إمبراطورًا بإيعاز من الجند، وتوفي هذا بعد ثلاثة أشهر في أثناء حملة شنَّها على قبيلة الألاني في آسية الصغرى، ولم يُفلح أخوه في تسنم الحكم بعده لانكساره أمام بروبوس (٢٧٦–٢٨٢)، ورد بروبوس الإمبراطور هجمات الإفرنج والبورغنديين والألمان والفندال، وشغل الجنود بتجفيف المستنقعات وإنشاء الترع وبناء الطرق، فثاروا عليه وقتلوه، فتولى الحكم بعده قائد الحرس كاروس (٢٨٢-٢٨٣)، ولكن صاعقة أصابته فيما يظهر بعد أن احتل طيسفون عاصمة ساسان، فخلفه ابنه نومريانوس (٢٨٤)، ولكنه قُتِل بمؤامرة دبَّرها كارينوس والد زوجته، ولم يُفلح كارينوس في استلام أزمة الحكم؛ لأن الجند نادوا بديوقليتيانوس (٢٨٤–٣٠٥).

وأراد ديوقليتيانوس أن يجعل جلوس الإمبراطور أمرًا مدنيًّا لا علاقة له بالجيش، فجعل للدولة الرومانية إمبراطورين، وجعل لكلٍّ منهما قيصرًا يعاونه في الحكم، ويحل محله عند الوفاة أو اعتزال الوظيفة، وطبق هذا النظام الجديد، فجعل مكسيميانوس Maximianus إمبراطورًا يشاطره الحكم، وحكم هو الشرق متخذًا نيقوميذية قاعدة له، وحكم مكسيميانوس الغرب وجعل قاعدته ميلان، وفي آذار السنة ٢٩٣ نصَّب الإمبراطوران قسطنديوس كلوروس Constantius Chlorus أبا قسطنطين قيصرًا يعاون مكسيميانوس في الغرب، وجعل من غلاريوس Galerius قيصرًا آخَر يعاون ديوقليتيانوس

في الشرق، فساس غلاريوس البلقان وجزيرة كريت، وتولى ديوقليتيانوس بنفسه إدارة شئون الشرق من ليبية حتى الفرات وآسية الصغرى.[١]

وزار ديوقليتيانوس فلسطين في السنة ٢٨٦ وأقام عدة أشهر في طبرية، وفي السنة ٢٨٨ قام إلى الفرات يهدِّد بهرام الثاني شاه ساسان ويكرهه على التخلي عن ما بين النهرين وأرمينية، وعاد ديوقليتيانوس إلى أنطاكية وحمص في ربيع السنة ٢٩٠ ليقتصَّ من القبائل العربية الضاربة في هذه المناطق، ولعل الإشارة الواردة في المراجع لهذه المناسبة هي للغساسنة بزعامة ثعلبة؛[٢] واضطرب الأمن في مصر في السنة ٢٩٦-٢٩٧، فهجم نرسه الساساني على أرمينية وسورية، فأنفذ ديوقليتيانوس معاونه غلاريوس لقتال نرسه، فوقع في كمين مخيف وتراجع مقهورًا، فأكرهه ديوقليتيانوس أن يواكبه ماشيًا مسافةَ ميل مرتديًا ثوبه الأرجواني، ثم شرع الإمبراطور يَعُدُّ العدة للأخذ بالثأر، فأنشأ معامل لصنع الأسلحة في أنطاكية ودمشق والرها، وحضَّ غلاريوس على انتقاء أفضل الرجال وأكثرهم خبرةً في القتال، فاستقدم غلاريوس الرجال من البلقان، وانقضَّ على نرسه عن طريق أرمينية، فقُدِّر له النجاح؛ إذ جرح نرسه نفسه واعتقل حرمه وأولاده، واستولى على خزينته، فاضطر نرسه أن يفاوض صاغرًا، فتخلى عن ما بين النهرين، واعترف بحماية رومة على أرمينية، ووافق على جعل نصيبين مركزًا دائمًا لتسوية العلاقات التجارية بين البلدين، ودام هذا الصلح أربعين عامًا، وعاد غلاريوس مرفوع الجبين، واعتز سيده ديوقليتيانوس بهذا النصر، فنقل عن خصمه الفارسي مظاهر الأبهة والعظمة في التشريفات الملكية، فكثرت الحجب الحريرية في البلاط، وتنوعت الزينة؛ فشاع استعمال الذهب واللؤلؤ والحجارة الكريمة، واحتجب الإمبراطور وتطلَّبَ ضروبًا من التكريم والتبجيل أهمها الركوع.

وجدَّ ديوقليتيانوس في حماية حدود الدولة، فجدَّد الحصون التي كان تريانوس ومرقس أوريليوس قد أنشآها ضد فارس، وأمر ببناء غيرها كقصر الملكة في تدمر، وقصور جنيجل، وخان التراب، وخان الشامات، ودير الكهف، وقصر الأزرق؛[٣] وعَبَّدَ الطرقات العسكرية وحماها بالأبراج، وأهم هذه طريق دمشق تدمر الفرات التي دعيت

---

١ .Besnier, M., Emp. Rom., 279–317

٢ .Caussin de Perceval, Essai, II, 206

٣ .Abel, F. M., Palestine, II, 245–246

طريق ديوقليتيانوس Strata Diocletiana،[٤] وطريق دمشق بصرى فالعربية وعمان مادبا حتى وادي الحسا،[٥] وأعاد النظر في نظام الجيش، فخفض عدد الرجال في وحداته ليسهل الحركة والانتقال.[٦]

وكان فاليريانوس قد بدأ في بلاط إمبراطوري في أنطاكية، فأكمل ديوقليتيانوس هذا العمل، وأنشأ بلاطًا آخر في دفنة، وشيَّد هيكلين في دفنة أحدهما لزفس كبير الآلهة والآخر لأبولون.

أسباب الاضطهاد

وهكذا فإن ديوقليتيانوس كان منذ بداية عهده مجدِّدًا مصلحًا محافظًا على سلامة الدولة، وكان منذ بداية عهده أيضًا معاديًا للنصرانية؛ لأنه لم يجد في أوساطها استعدادًا للتعاون معه في توحيد القلوب ودرء الأخطار المداهمة؛[٧] فالنصارى لم يقدِّسوا ما قدسته الدولة، ولم يفتُروا عن مصارحة الأوساط الوثنية الرسمية وغير الرسمية بأن لا إله إلا الله، وبأن يسوع ابنه الوحيد تأنس وصُلب ومات من أجل البشر، وقام في اليوم الثالث وجلس عن يمين الآب، وأن لا خلاص إلا به.

ويتميز القرن الثالث عن القرنين الأولين بشدة انتشار الدين المسيحي وانكشاف أمره، وإقدام المسيحيين على الجهر به، وبتشييد الكنائس الفخمة والاستعانة بفنَّيِ النحت والتصوير للتعبير عن العقيدة المقدسة، ولا تزال بعض آثار هذا القرن تنطق بصحة ما نقول، فقد كشف العلماء الباحثون آثار كنيسة كبيرة هامة في عمواس فلسطين تعود إلى القرن الثالث،[٨] وأظهروا كنيسة جميلة في الصالحية عند الفرات يعود إنشاؤها إلى

[٤] Dunand, Strata Diocletiana, Rev. Bib., 1931, 234 ff; Mouterde, R., Mélanges, Univ. St. Joseph, XV, 221–232.

[٥] Abel, F. M., op. cit., II, 246–247.

[٦] Ibid., 247–249.

[٧] Hunziker, O., Regierung und Christenverfolgung des Kaisers Diocletianus und seiner Nachtfolgen, 135–141; Stade, K., Der Politiker Diokletian, 1926, 279; Besnier, M., Emp. Rom., 317–319.

[٨] Vincent, H. et Abel, M., Emmaus, Sa Basilique et Son Histoire.

قبيل السنة ٢٥٦، كما أبانوا معالم محل العمادة ودار الكاهن والمخازن،[٩] وقامت في هذا القرن أيضًا كنيسة النصارى في نيقوميذية، على تلة تحاكي قصر ديوقليتيانوس نفسه على تلة مقابلة لها،[١٠] وأمَّ المؤمنون هذه الكنائس زرافات زرافات،[١١] وخلت الهياكل من الوثنيين،[١٢] فضجت الأوساط الرومانية المحافظة الرسمية وغير الرسمية، وعلا صوت الفلاسفة الوثنيين ورجال البيان والخطابة مطالبين بدَرْء هذا الخطر المداهم.[١٣]

رجال الاضطهاد

ولم يكن ديوقليتيانوس ظنونًا قاسيًا مثل نيرون، أو داعيًا ملحًّا لدين معين كأوريليانوس، ولكنه كان شديد التمسُّك بالوثنية يقول بجميع خرافاتها، وكان في الوقت نفسه رجل إدارة وسياسة، يكره العنف ويبتعد عنه، فسكت عن النصرانية تسعة عشر عامًا؛ لأن الظروف السياسية الخارجية قضت بتحاشي الاضطراب في الداخل.[١٤]

أما القيصر غاليريوس يمين الإمبراطور، فإنه ورث عن أمه تعلقًا شديدًا بالآلهة، ورغب بأن يظهر بمظهر المدافع عن عقائد أكثرية الشعب، وأن يطهِّر جيشه من كل عنصر مشاغب،[١٥] واعتمد غاليريوس في تنفيذ رغباته هذه على القائد فيتوريوس Veturius كبير رجال الحرب لديه Magister Militum.[١٦]

ولا ننسَ بورفيريوس ورسائله الخمس عشرة وتلميذه هيروكليس Hierocles حاكم بيثينية آنئذٍ، الذي خص النصارى برسالة أسماها «صديق الحقيقة»، فأثر في نفس ديوقليتيانوس ودفعه إلى الاضطهاد.[١٧]

---

٩ Rostovtzeff, M. J., Excavations at Doura-Europos; Baur, V. C., Christ. Chapel at Dura, Amer. Journ. Arch., 1933, 377 ff.

١٠ Lactant, De Mort. Persec., XII, 5.

١١ Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 1.

١٢ Lactant., De Mort. Persec., XI, 1-2.

١٣ Besnier, M., Emp. Rom., 322.

١٤ Besnier, M., op. cit., 318; Abel, F. M., Hist. Palest., II, 249.

١٥ Grégoire, H., Conversion de Constantin, Rev. Univ. Bruxelles, 1930-1931, 238.

١٦ Eusèbe, Chron., Hist. Ecc., VIII, 4.

١٧ Lactant., Divinae Institutiones, V, 11, 12; Eusèbe, Contra Hieroclen.

الظرف

ويطلُّ علينا خريف السنة ٣٠٢، فنجد ديوقليتيانوس في أنطاكية يضحي لآلهته، ويطلب إلى طاغس Tagis رئيس العرافين أن يتفحص أحشاء الضحية وينبئه بالمقدر، ففعل طاغس ولم يفلح، وادعى أن المسيحيين الموجودين حوله أفسدوا عليه عمله في أنهم رسموا علامة الصليب، فاضطرب الإمبراطور وخشي سوء العاقبة، ثم اغتاظ فأمر جميع رجال البلاط ونساءه أن يضحوا للآلهة مهددًا بالجلد، وتبنى سياسة غاليريوس، فأمر قادة جيوش الشرق مصارحة جميع الضباط والأفراد في أمر احترام الآلهة وتكريمها وتسريح مَن يمتنع عن ذلك.[١٨]

أوامر السنتين ٣٠٣ و٣٠٤

وعاد ديوقليتيانوس إلى مقره في نيقوميذية، ووصل غاليريوس إليها، فتشاوروا في أمر النصرانية والنصارى، وألحَّ القيصر على اللجوء إلى العنف للتخلص من الدين الجديد وأتباعه، ولكن ديوقليتيانوس كان لا يزال يكره سفك الدم ويأنفه، فدعا كبار الموظفين والقادة، وبحث معهم نقطة الاختلاف في الرأي بينه وبين غاليريوس، وكان بين المدعوين هيروكليس الفيلسوف، فحضَّ على القمع بالقوة فوافقه المجتمعون،[١٩] وأبطأ ديوقليتيانوس وتريَّثَ مرة ثانية، فأمر بوجوب استلهام أبولون في ميليطة، ففعلوا فثبَّت العرَّاف رأي هيروكليس وزملائه.[٢٠]

وأصر ديوقليتيانوس على عدم سفك الدماء، فأمر في الثالث والعشرين من شباط السنة ٣٠٣ بتهديم الكنائس وسائر محلات العبادة، وإتلاف الكتب المقدسة وكتب الصلوات والطقوس ومنع صلاة الجماعة، وحرم المسيحيين الأشراف من التمتع بامتيازات الطبقات التي انتموا إليها، واعتبر جميع المسيحيين خارجين على القانون، فحرمهم حق الدفاع عن حقوقهم أمام المحاكم، ويختلف رجال البحث في تفسير عبارةٍ وردت في تاريخ أفسابيوس،

[١٨] Lactant., Mortibus Persecutorum, X.

[١٩] Ibid., XI.

[٢٠] Ibid.; Eusèbe, Vita Coustantini, II, 50, 51.

فيرى بعضهم أن ديوقليتيانوس اعتبر جميع المسيحيين أرقاء، ويرى البعض الآخر أنه خص الأشراف المسيحيين بهذا الذل دون سواهم.[٢١]

وفي عشية الثالث والعشرين من شباط وقبل إعلان الإرادة الإمبراطورية، هجم الشرطة على كنيسة نيقوميذية المشرفة على القصر الإمبراطوري، فخربوها وأحرقوا ما وجدوا فيها من الكتب، وفي صباح الرابع والعشرين أُلصقت نصوص الإرادة على جدران الشوارع في نيقوميذية، فنزع مسيحيٌّ واحدةً منها ومزَّقَها فأُلقِي القبض عليه وأُحرِق،[٢٢] وشبت النار بعد ذلك في أحد أجنحة البلاط فاتَّهَم غاليريوس المسيحيين بذلك،[٢٣] ثم شبت النار ثانيةً فخرج غاليريوس من نيقوميذية معلنًا أنه لا يرغب في أن يُحرق حيًّا؛ فاستوقدت هذه النار غضب الإمبراطور فتسخَّط وتنمَّر، واعتبر جميع المسيحيين في بلاطه وعاصمته أعداءه، وحل غضبه على زوجته بريسكة Prisca وابنتها فاليرية Valeria، وخيَّرَهما بين الموت والرجوع عن النصرانية، فرجعتا ولكن حوادث البطولة في سبيل يسوع تكررت، فاستشهد دوروثاوس كبير الأمناء، وبطرس رئيس الحجاب، وأنثيموس أسقف نيقوميذية وكهنته، وعدد كبير من رعيته بينهم نساء وأطفال.[٢٤]

ونُفِّذَ أمر الإمبراطور بقساوة في جميع أنحاء الإمبراطورية ما عدا غالية وبريطانية مقاطعة قسطنديوس زوج هيلانة، وشبت ثورة في ملاطية وسورية، ونادى بعض الجنود بأفجينيوس Eugenios إمبراطورًا في مرفأ سلفكية،[٢٥] فنسب هذا التمرد إلى المسيحيين، فأصدر الإمبراطور أمرين قضى الأول منهما بحبس رجال الإكليروس، والثاني بإطلاق سراح من يكرم الآلهة، وبتشديد العذاب على من يرفض ذلك.[٢٦] وجاء في الفصل الثاني من رسالة أفسابيوس في «شهداء فلسطين» أن السابع عشر من أيلول سنة ٣٠٣ وافق مرور عشرين عامًا على بداية حكم ديوقليتيانوس، ففتحت أبواب السجون، وأُطلِق سراح

---

[٢١] Eusèbe, De Martyr. Palest. Praef. I; Allard, P., Perséc. de Diocl., I, 160; Baynes, N. H., The Great Persecution, Cam. Anc. Hist., XII, 665-666; Zeiller, J., La Dernière Persécution, Fliche et Martin, op. cit., II, 463, n. 3.

[٢٢] Lactant., Mort. Persec., XIII.

[٢٣] Ibid; Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 2.

[٢٤] Lactant., Mort. Persec., XIV; Eusèbe, Hist. Ecc., VIII 6.

[٢٥] Eusèbe, Ibid.; Libanius, Or., I, 324, 644, 666.

[٢٦] Eusèbe, H. E. VIII, 6.

مَن فيها، ولا نعلم ما إذا كان هذا العفو شمل النصارى، ولكننا نعلم أن ديوقليتيانوس أُصِيبَ بمرض عضال في مطلع السنة ٣٠٤، وأن غاليريوس حلَّ محله، وأعد أمرًا رابعًا باضطهاد النصارى فنفذ في ربيع السنة ٣٠٤، وقضى هذا الأمر بإكراه جميع النصارى على الخضوع لآلهة رومة.[٢٧]

أنطاكية وأبرشياتها

وخاض حكام الولايات وضباط الجيش في باطلهم، فاستشهد في قيليقية عدد كبير من النساء والرجال أشهرهم: طراخوس رجل الشعب، وبروبوس، وأندرنيكوس،[٢٨] وتناقل الآباء فيما بعدُ أخبارَ العذارى السبع اللواتي قضين في غلاطية لأجل يسوع، وخبر ثيودوتوس أنقيرة،[٢٩] وأبت يوليتة الأرملة في قيصرية قبدوقية أن تضحي للأصنام، فحُرِقت وهي تقول: «إن الله يريد منا جميعًا إيمانًا وصبرًا مكينًا.»[٣٠] وتفنن الظالمون في أبرشية البونط عند البحر الأسود بأساليب التعذيب، فأدخلوا القصب الحاد تحت أظافر المؤمنين، ثم صبوا عليها رصاصًا مذوبًا، فالتجأ بعض المؤمنين إلى جبال هذه الأبرشية، وفرَّ آخرون إلى أرمينية وفارس.[٣١]

ووصل التيار الجارف إلى أنطاكية وفلسطين في نهاية شهره الأول في أواخر آذار السنة ٣٠٣ أو حوالي عيد الفصح في السابع عشر من نيسان، فألقي القبض على كيرلس أسقف أنطاكية، ونُقِل إلى بانونية للعمل في مناجمها، فخلفه في رئاسة الكنيسة تيرانوس Tyrannos (٣٠٤–٣١٤)،[٣٢] وكان رومانوس شماس قيصرية فلسطين مقيمًا في أنطاكية آنئذٍ، فهاله تدمير الكنائس وارتداد بعض المؤمنين والمؤمنات، وهبَّ لساعته يقوي النفوس،

[٢٧] Eusèbe, Martyr. Palest., III; Zeiller, J., La Dernière Perséc., Fliche et Martin, op. cit., II, 465–466; Besnier, M., Emp. Rom., 326–328.

[٢٨] Ruinart, Acta Sincera, 453.

[٢٩] Ibid., 357.

[٣٠] Saint Basile, Homélie, V, 1–2.

[٣١] Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 12.

[٣٢] Eusèbe, Hist, Ecc., VII, 32.

ويحذر من السجود للأصنام، فقُطِع لسانه وزُجَّ في السجن، ثم هيئت نار لإحراقه فأخمدها الله بسحاب جاد به، فشُنِق بعد ذلك في السجن في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ٣٠٣،[٣٣] وقُبِض على تيرانيوس أسقف صور وعلى زينوبيوس الطبيب كاهن صيدا، وعُرِضا على الوحوش الضارية في مدرج أنطاكية، فأعرضت عنهما فحُزَّ رأساهما حزًّا.[٣٤]

ولا نعلم متى تم استشهاد الضابطين سرجيوس وباخوس بالضبط، ولعل غاليريوس بدأ اضطهاد المسيحيين قبل إعلان الاضطهاد رسميًّا، فأوقع بعدد كبير منهم لدى عودته ظافرًا من حرب فارس، وبين هؤلاء الضابطان سرجيوس وباخوس اللذان نالا إكليل الشهادة في مقاطعة الفرات، حيث شُيِّدَ لتكريمهما هيكل أصبح فيما بعد مركزًا روحيًّا هامًّا، فَدُعِيَتِ المدينة القريبة منه سرجيوبوليس (الرصافة).[٣٥]

وتُجمِع روايات التقليد على استشهاد القديس جاورجيوس والقديسة بربارة في السنة ٣٠٣، ولكنها تختلف في موضع الاستشهاد، وليس هنالك ما يثبت استشهاد جاورجيوس في اللد، واستشهاد بربارة في بعلبك، ولعلهما من شهداء آسية الصغرى.

وامتثل فلافيانوس حاكم فلسطين أمر الإمبراطور، ونشط عماله لتنفيذه في قيصرية، فأكرهوا المؤمنين على الحضور إلى الهياكل، وأجبروهم على الركوع والخشوع، وأعلنوا رجوعهم عن النصرانية وانقيادهم للأوامر العليا،[٣٦] وأول شهداء فلسطين في السنة ٣٠٣ بروكوبيوس Procopios القارئ، وكان هذا الرجل الصالح يجيد اليونانية والآرامية، فيقرأ الأسفار والصلوات في كنيسة بيسان Scythopolis في اليونانية وينقلها إلى الآرامية، فلما وصلت أوامر الإمبراطور إلى بيسان طُلب إليه أن يحرق البخور للإمبراطورين والقيصرين، فامتنع مرددًا بيتًا من أبيات الإلياذة قائلًا: «ليس من الحسن تعدد الأسياد؛ إذ ليس سوى سيد واحد وملك واحد.» فحزَّ رأسه! وبعد ذلك ببضعة أشهر فاز بإكليل الشهادة في قيصرية أيضًا كلٌّ مَن زكي شماس كنيسة جدروألفيوس قارئ كنيسة قيصرية.[٣٧]

---

[٣٣] Eusèbe, H. E., VIII, 7.

[٣٤] Eusèbe, Hist. Ecc., III, 7.

[٣٥] Dussaud, R., Top. Hist., 482.

[٣٦] Abel, F. M., Hist. Palest., II, 251.

[٣٧] Eusèbe, Martyr. Palest., I, II.

وفي السنة ٣٠٤ أوجَبَ الإمبراطور، كما سبق وأشرنا، على جميع النصارى أن يقدموا الذبائح إلى الأوثان، وحل في هذه السنة نفسها أوربانوس محل فلافيانوس في فلسطين، فانهال أهل غزة بالهوان والضرب على تيموثاوس، فنال إكليل المجد، واستشهد معه أغابيوس وتقلا بين أنياب الوحوش الضارية، وفي قيصرية فلسطين بهرت شجاعة الشبان الثمانية أعين الجماهير، وأشهرُ هؤلاء الثمانية ديونيسيون الطرابلسيُّ الفينيقي، وروميولوس أبوذياكون اللد Diospolis، وألكسندروس الغزاوي.[٣٨]

وبين شهداء هذه السنة يوليانوس الطرسوسي، الذي وُضِع في كيس فيه رمل وحشرات سامة وطرح في البحر، ثم نقل جثمانه إلى أنطاكية، وكرياكوس الطفل وأمه يوليته، اللذان استشهدا في طرسوس، وفبرونية الفاضلة التقية التي قبض عليها في نصيبين ومزقت ثيابها وعلقت على خشبة.

غلاريوس ومكسيمينوس (٣٠٥–٣١٠)

واستقال ديوقليتيانوس وزميله مكسيميانوس من المنصبين الإمبراطوريين، فأصبح كلٌّ من قسطنديوس وغلاريوس إمبراطورًا، الأول في الغرب والثاني في الشرق، وفي أول أيار سنة ٣٠٥ أعلن كلٌّ من فلافيوس سويروس Flavius Valerus Severus، ومكسيمينوس دايا Galerius Valerius Maximinus Daia قيصرًا معاونًا، الأول في الغرب والثاني في الشرق، واحتفظ الإمبراطور غلاريوس بإدارة البرية وآسية الصغرى ووكل تدبير شئون الولايات الشرقية الباقية إلى نسيبه مكسيمينوس دايا،[٣٩] كان مكسيمينوس هذا سكيرًا فاسقًا قاسيًا عاتيًا، وكان يقول بالوثنية وخرافاتها،[٤٠] فلما استتب له الأمر عاد أعوانه إلى الاضطهاد، فاستشهد في قيصرية فلسطين في السنة ٣٠٦ أبفيانوس Apphianos، الذي قرأ الفقه في بيروت، واقتبس عن بمفيلس الكمال المسيحي، وفي صور زُجَّ أولبيانوس في جلد ثور مع كلب وصل وألقي في البحر، وفي أنطاكية بسط الشيخ الفلاح برلاها يده إلى

---

[٣٨] Eusèbe, Martyr. Palest., III.

[٣٩] Lactant., Mort. Persec., XVIII.

[٤٠] Real-Encyc., IV, 1886–1890.

لهيب النار حتى فنيت ونكل به تنكيلًا فظيعًا، فاستحق مدح القديسين يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير، وفي أنطاكية أيضًا باغت الجند بلاجية الفتاة منفردة في بيتها، فاستأذنتهم لترتدي أجمل ما لديها، فصعدت إلى السطح ورمت نفسها إلى أسفل، وكان لذومنينة الأنطاكية ابنتان جميلتان: برنيقية وبروسذوكي، ربتهما على سنة السيد المخلص، فبالغ مكسيمينوس الفاسق في التفتيش عنهن، فهربن من أنطاكية إلى الرها، ولما علم زوجها أنها هي وابنتيها في الرها، أخذ معه بضعة جنود للقبض عليهن، فتم له ذلك وعاد بهن إلى أنطاكية، وفي الطريق غافلن الجنود وألقين أنفسهن جميعًا في الفرات، فقال الذهبي الفم: «لقد أرادت ذومنينة أن تفوز بالغنائم قبل المعركة، وأن تختطف إكليل الغار قبل الجهاد، وأن تنال الأوسمة قبل التعذيب.» وفي هذه السنة نفسها أيضًا نالت ثيودوسية الصورية إكليل المجد في قيصرية فلسطين بعد أن مشط الجند جسدها بأمشاط حديدية، وفيها أيضًا عُذِّبَ لوكيوس الحاكم الطبيبين العربيين قوزما ودوميانوس وضرب عنقيهما بالسيف.

وفي السنة ٣٠٧ بدأ سلوانس كاهن غزة ورفاقه أعمالهم الشاقة في وادي عربة، وطُرِح ذومنينوس في النار، ودخل بمفيلوس السجن بعد عذاب أليم، وفي السنة ٣٠٨ استشهد بولس الغزاوي طالبًا الغفران لليهود والسامريين والجلاد الذي أشرف على تعذيبه؛ وفيها أيضًا استشهد في النار الشبان الثلاثة: أنطونيوس وزبينا وجرمانوس، والفتاة البيسانية أوناثة وغيرهم. وفي السنة ٣٠٩ عُقد لبمفيلوس إكليل الشهادة مع أحد عشر شهيدًا، بينهم فالنسيوس الشيخ شماس أيلية، الذي اشتهر بتضلعه من علوم الكتاب المقدس وبورفيريوس الخطاط.[٤١]

براءة سرديكة (٣١١)

وتوفي قسطنديوس الإمبراطور الغربي زميل غلاريوس في السنة ٣٠٦ في يورك من أعمال بريطانية، فبعث ابنه قسطنطين بنظام ديوقليتيانوس الجديد، وأعلن نفسه قيصرًا على بريطانية وغالية وإسبانية، ونادى حرس رومة بمكسنتيوس إمبراطورًا، وعادت

---

٤١ Eusèbe, Mart. Palest. IV–VII.

شهوة الحكم إلى قلب مكسيميانوس الإمبراطور المستقيل، فأعلن نفسه إمبراطورًا أيضًا، وأصبح للدولة الرومانية أباطرة ثلاثة وقياصرة ثلاثة، وثار جنود سويروس عليه فقتلوه، فعَيَّنَ غلاريوس قيصرًا جديدًا محله يُدْعَى ليكينيوس، وعم الاضطراب الأوساط السياسية والعسكرية، فانقضَّ مضجع غلاريوس الإمبراطور، واضطرب وانزعج، وفي مطلع السنة ٣١٠ ألمَّ بغلاريوس مرض غريب مخيف، فتقرَّح جلده وظهرت به الأخرجة، وقاحت جروحه ونزف دمه، وطال مرضه حتى جاوز الثمانية عشر شهرًا، وأعضل الأطباء وأعياهم،[٤٢] فخاف الإمبراطور وخشي أن يكون قد أغضب إله مَن اضطهد، ولمس الإمبراطور أيضًا فساد رأيه في السياسة وإخفاقه في الحرب التي شنها على المسيحيين، فأصدر عن سرديكة بالاتفاق مع ليكينيوس وقسطنطين ومكسيمينوس براءته الشهيرة في نيسان السنة ٣١١.[٤٣] ويرى بعض العلماء أن الفضل في هذه البراءة يعود إلى ليكينيوس لا غلاريوس، ولكنه رأي ضعيف لا يزال في طور الافتراض.[٤٤]

وقد حفظ لنا المؤرخ لكتنتيوس نصَّ هذه البراءة باللاتينية،[٤٥] كما أورد أفسابيوس نصها باليونانية.[٤٦] ويبدأ غلاريوس براءته هذه باللوم والتأنيب؛ فيأخذ على المسيحيين خروجهم على دين الآباء والأجداد، وامتناعهم عن ممارسة الطقوس والعادات التي قال بها المؤسسون، ثم يذكر قيامه بالواجب، وإصدار الأوامر إلى هؤلاء بالعودة إلى التقاليد الموروثة، ويشير بعد ذلك إلى رجوع بعض المسيحيين إلى دين الأجداد، ولكنه يبين بوضوح أن هؤلاء لم يعودوا إلا مكرهين، وأن معظم إخوانهم أصروا على الإباء، ولم يتابعوه على ما يريد، فلم يحترموا الآلهة ولم يتعبدوا لإله النصارى! ولعل الإشارة هنا إلى بعض البدع والهرطقات، ثم يخلص الإمبراطور بعد هذا كله إلى القول بالرأفة والرحمة نحو جميع الناس، فيضرب عن المسيحيين صفحًا جميلًا، ويعترف بوجودهم ويسمح لهم بصلاة الجماعة شرط ألا يُخلُّوا بالنظام، ويؤكد أنه سيكتب إلى القضاة والحكام عن القوانين التي

---

[٤٢] Lactant., Mort. Rersec., XXXIII; Zosimus, Hist., II, 11.

[٤٣] Zeiller, J., Dernière Perséc., Fliche et Martin, op. cit., II, 475.

[٤٤] Grégoire, H., Conversion de Constantin, Rev. Univ. Bruxelles, 1930–1931, 231 ff.

[٤٥] Lactant., Mort. Persec., XXXIV.

[٤٦] Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 17.

يجب اتباعها، ويرى أنه بالمقابل يجب على النصارى أن يصلوا لإلههم من أجل الإمبراطور والدولة وأنفسهم.

ودخلتِ الكنيسة بعد هذا في دور جديد؛ إذ أصبحت النصرانية ديانة شرعية Licet Esse Christianos لأول مرة، وأدى الاعتراف بحرية المعتقد إلى حرية العبادة، وإلى إعادة الكنائس إلى أصحابها،[٤٧] ثم انقضى أجل غلاريوس، فأدركته الوفاة في الخامس من أيار سنة ٣١١، فلم يتسنَّ له أن يكتب إلى القضاة والحكام كما جاء في نص البراءة.

مكسيمينوس يتابع الاضطهاد (٣١١-٣١٢)

وظهر خبر براءة سرديكة واشتهر، فوقف الاضطهاد في ولايات غلاريوس وليكينيوس وقسطنطين، ولكنه لم ينشر في مقاطعات مكسيمينوس؛ أي في سورية ومصر، واكتفى سبينوس Sabinus معاون مكسيمينوس بنقل فحوى البراءة ولم يعلن نصها،[٤٨] ثم مات غلاريوس بعد ذلك ببرهة وجيزة، فعاد مكسيمينوس إلى الاضطهاد، فأسس منظمة وثنية على غرار الكنيسة لمحاربة النصرانية،[٤٩] ولفق سِفرًا جديدًا دعاه «أعمال بيلاطس»، وبثه وأشاع محتوياته لتحقير السيد المخلص،[٥٠] ولجأ قائد في دمشق إلى وسائل دنيئة ليبرهن عن ولائه لمكسيمينوس، فأخذ بعض نساء من السوق العمومية، وعلمهن أن يدعين أنهن مسيحيات، وأنهن رأين أعمالًا مخجلة ترتكب في الكنائس نفسها، ثم أوعز مكسيمينوس إلى بعض الأوساط الوثنية في بعض المدن بالمطالبة بطرد المسيحيين من مدنهم، فأقيم في صور عمودًا نُقشتْ عليه كتابة تعظم الوثنية، وتدعو الأهلين لطرد المسيحيين من البلد، ففر ألوف من المسيحيين من صور وغيرها، وتشردوا في البراري والقفار.[٥١]

---

٤٧ Knipping, J. B., The Edict of Galerius, Rev. Belge de Philologie et d’Histoire, 1922, 693 ff.

٤٨ Eusèbe, Hist. Ecc., IX, 1.

٤٩ Lactant., Mort. Persec., XXXVII; Eusèbe, Hist. Ecc., VIII, 14; Grégoire de Naziauze, Orat. 4, III; Sozomenus, Hist. Ecc., V, 16.

٥٠ Eusèbe, Hist. Ecc., IX, 5; Labriolle, P., La Réaction Potenne, 327–328.

٥١ Baynes, N. H., Constantine, Cam. Anc. Hist., XII, 687.

شهداء حمص (٣١٢)

وعاد بعض الولاة والقضاة إلى المطالبة بإكرام آلهة الدولة، وخصوا كبار النصارى بهذه المطالبة، فألقى والي حمص القبض على سلوانس أسقف هذه المدينة، وعلى شماسها لوقا، والقارئ في كنيستها موكيوس، وزَجَّهم في السجن، وأذاقهم شتى ألوان العذاب، ثم حكم عليهم بالطرح أمام الوحوش الضارية.

وكان بين المؤمنين في هذه المدينة رجل يُدْعَى يوليانوس، فلما اشتدت وطأة الاضطهاد والتعذيب امتهن الطب؛ ليخفِّف آلاف المعترفين ويرشد الضالين، وكان ما كان من أمر سلوانس ورفيقيه، فلما أخرجوا من السجن وسيقوا إلى المدرج، قابلهم يوليانوس في الطريق وقبلهم القبلة الأخيرة، فقُبض عليه وامتحن بالعذاب، فأصر على الاعتراف بالمسيح، فسُمر رأسه ويداه ورجلاه، وزُجَّ في مغارة خارج البلدة، ففاضت نفسه وانصرف إلى جوار ربه مشرفًا بالآلام نفسها التي تألم بها السيد المخلص.

لوقيانوس المعلم الأنطاكي

وفي هذه السنة نفسها أُلْقِيَ القبض في أنطاكية على الكاهن العالم لوقيانوس، وزُجَّ في السجن في نيقوميذية وعذب تعذيبًا، فجُلِد جلدًا وضُرِب ضربًا ووُضِع على الصاجات وتحت العجلات وقُدِّمَ للأسود الضارية، وانتهز هذا المعلم فرصة السجن، فصنف رسالة وجَّهَها إلى مكسيمينوس نفسه، ودافع بها عن صحة الإيمان بالمسيح. وقد يكون نص هذه الرسالة كما نقله روفينوس المؤرخ مشوهًا، ولكن هذا لا ينفي قيام الشهيد الأنطاكي بعمل التصنيف للدفاع عن الدين القويم،[٥٢] وحُرِمَ لوقيانوس الطعام وجُوِّعَ، ثم عُرِض عليه لحم الضحايا للآلهة فامتنع وتصبَّر، وما فتئ مستمسكًا بيسوع مجيبًا عن كل سؤال وجه إليه بالعبارة: «أنا مسيحي.» حتى فاضت روحه وعادت إلى ربها، وقد قرَّظه الذهبي الفم أيما تقريظ في عظته الخامسة والأربعين، ودُفِنَ جثمانه في مدينة ذريبانة، وأمرت القديسة هيلانة فيما بعدُ بتشييد هيكل فخم فوق ضريحه، وخصت ذريبانة باسمها، فأصبحت تُدْعَى إيلينوبوليس؛ أيْ مدينة هيلانة.

---

[٥٢] Rufinus, Hist. Ecc., IX, 6; Bardy, G., Le Discours Apologétique de S. Lucien d’Antioche, Rev. Hist. Ecc., 1926, 487–512.

مثوذيوس الأوليمبي

وليس لنا نحن أبناء كنيسة أنطاكية العظمى أن نفاخر بالمعلم اللاهوتي الكبير القديس مثوذيوس، الذي استشهد أيضًا في السنة ٣١٢، فالقول بأنه كان أسقف ليقية أولًا، ثم صور بعدها قول ضعيف لا يقبله الثقات المدققون، فقد جاء أنه كان أسقف أوليمب في ليقية، وجاء أيضًا أنه كان أسقف سيرة القريبة، كما ورد أنه كان أسقف ميرة وأسقف صور، ويذهب العلامة ديكامب Diekamp إلى القول بالتقليد الصقلبي، فيجعل مثوذيوس أسقف فيليبي،[٥٣] ويؤيده في ذلك زميله لوبون Lebon،[٥٤] ولكن البحاثة فايان Vaillant الذي عُنِيَ بآثار القديس مثوذيوس لا يزال مستمسكًا بالرأي التقليدي القديم، الذي يجعل مثوذيوس أسقفًا على أوليمب في ليقية آسية الصغرى، وهو يرى في نص رسالة مثوذيوس في القيامة ما يوجب هذا الاستنتاج.[٥٥]

براءة ميلان (٣١٣)

ونظر قسطنطين إلى سماء غالية، فرأى شارة الصليب مرسومة عند الشمس قبل المغيب، فاندفع في سعيه اندفاع المؤمن الواثق وكرَّ على خصمه، فشتت شمله وما فتئ يقاتل ويطارد حتى وصل إلى أبواب رومة،[٥٦] وقبيل فجر الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ٣١٢، تلقى هذا البطل الفاتح أمرًا من لدن العلي الأعلى يوجب رسم الحرفين اليونانيين «خي» و«رو» على تروس رجاله قبل البدء بالقتال، ففعل وانتصر على خصمه باسم المسيح، ولا يخفى أن هذين الحرفين هما الحرفان الأولان من كلمة خريستوس اليونانية التي تعني المسيح،[٥٧] ولا نزال نرسمهما متراكبين مذكرين بالصليب، كما رآهما قسطنطين تبركًا واحترامًا، ونزين بهما جدران كنائسنا وآنيتنا المقدسة وأثوابنا الحبرية.

---

٥٣ Diekamp, F., Theol. Quartalschrift, 1928, 285–308.

٥٤ Rev. Hist. Ecc., 1929, 357-358.

٥٥ Vaillant, A., De Autexusio de Méthode d’Olympe, (Patrol. Orientalis, XXII, 5), 636, n. 1.

٥٦ Eusèbe, Vita Constantini, I, 28–30; Palanque, J. R., La Paix Const., Fliche et Martin, op. cit., III, 24–26.

٥٧ Lactant., Mort. Persec., XLIV, 5; Baynes, N. H., Const. and Christ. Church, 60 ff.

ولمس قسطنطين يد المخلص وأحسَّ بعنايته الفائقة، فأبطل أوامر خصمه مكسنتيوس، وأعلن محتويات براءة سرديكة في إيطالية وأفريقية وأوجب تنفيذها، ثم أمر بإعادة أملاك الكنائس المصادرة إلى المسيحيين، وأوجب على موظفي المالية في الولايات الغربية أن يقدموا إلى الكنائس الكاثوليكية «الجامعة» لا الدوناتية ما تحتاجه من الأموال، وكتب إلى مكسيمينوس زميله في الشرق يوجب إنهاء الاضطهاد، فكتب مكسيمينوس بدوره إلى سبينوس في أواخر السنة ٣١٢ يمنع اللجوء إلى العنف في سبيل احترام الآلهة وإكرامها.[٥٨]

وفي أوائل السنة ٣١٣ التقى قسطنطين وليكينيوس في ميلان وتبادلا الرأي في السياسة، فاتفقا على إعلان حرية المعتقد في جميع أنحاء الإمبراطورية، وعاد ليكينيوس إلى الشرق ليحد من مطامع مكسيمينوس، فانتصر عليه عند تزيرالوم Tzirallum بالقرب من أدريانوبل في أول أيار وأكرهه على التراجع، وتوفي مكسيمينوس في طرسوس في آب السنة ٣١٣ من مرض ألمَّ به فأضعفه وأفقده البصر، أما ليكينيوس فإنه ما كاد يستقر في نيقوميذية حتى أعلن حرية المعتقد في نص رسمي،[٥٩] هذه خلاصته: «نحن قسطنطين أوغوسطوس وليكينيوس أوغوسطوس، بعد تبادل الرأي في ميلان تبين لنا أن مصلحة الدولة تقضي بتنظيم أمور التعبد ومنح المسيحيين وجميع الرومانيين حق اتباع الدين الذي يؤثرون؛ وذلك ليرضى الإله أيًّا كان عنَّا وعن جميع الخاضعين لنا، وبعد التبصر في هذا الأمر قررنا عدم التعرض لحرية المعتقد؛ وهكذا فإننا لا نمنع أحدًا من الناس عن اتباع دين المسيحيين أو أي دين آخر يختاره هو لنفسه، آملين أن ننال بذلك رضى الإله الأعلى Summa Divinitas وبركته.» وأمر الإمبراطوران بعد هذا بإعادة الكنائس والأملاك المصادرة إلى أصحابها، وبالتعويض من صندوق الدولة عن كل خسارة تلحق بفرد من الأفراد من جراء هذه الإعادة.[٦٠]

وهكذا فإنه يتضح مما تقدم أنه لا يجوز القول ببراءة معينة محددة صدرت عن الإمبراطورين المجتمعين في ميلان، وجل ما يجوز القول به هو أن هذين الإمبراطورين

---

٥٨ Baynes, N. H., Constantine, Cam. Anc. Hist., XII, 688.

٥٩ Lactant., Mort. Persec., XLVIII; Eusèbe, Hist. Ecc., X, 5; Baynes, N. H., Const. and Christ. Ch., 69 ff.

٦٠ Carolsfeld, L. Schnorr, Gesch. der Juristichen Person, I, 165 ff.

اتفقا على خطة معينة فنفذاها كلٌّ في منطقته.[٦١] والقول ببروتوكول وُقع في ميلان لهذه الغاية[٦٢] قول ضعيف لا يرتكز إلى أسس عملية راهنة.[٦٣]

أهمية التشريع الجديد

وانتهى بهذا التشريع الجديد عصر الاضطهاد، وأصبح المسيحيون يدينون بدين شرعي معترف به من السلطات المدنية، ودخلت الكنائس لا الكنيسة الجامعة[٦٤] في دور جديد، فتمتعت كلٌّ منها بحرية العبادة وحق التملك، واستمتع رجال الإكليروس بالامتيازات نفسها التي انتفع بها كهنة الأوثان. ولا يجوز القول إن النصرانية أصبحت دين الدولة؛ لأن الأديان الوثنية ظلت تستفيد من صبغتها الرسمية التي اصطبغت بها في العصور السابقة، وجل ما يجوز قوله هو أن التشريع الجديد ساوى النصرانية بالأديان الوثنية القديمة.[٦٥]

---

٦١ Seeck, O., Das Sogenannte Edikt von Mailand, Zeit. fur Kirchengeschichte, 1891, 381–386.

٦٢ Crivellucci, A., Editto di Milano, Studi Storici, I, 229–230.

٦٣ Palanque, J. R., Paix Const., Fliche et Martin, op. cit., III, 23–24.

٦٤ Chénon, E., Conséquences Juridiques de l’Edit de Milan, Nouv. Rev. Hist. Droit Français et Etranger, 1914, 255–263.

٦٥ Palanque, J. R., Paix Const., Fliche et Martin, III, 18–19.

الفصل السادس عشر

ليكينيوس وقسطنطين

واستتب الأمر لليكينيوس وحده في الشرق في السنة ٣١٣، فأخذ بوحي قسطنطين في إصلاح الأمور وتهدئة الخواطر، وألغى مراسيم مكسيمينوس الشاذة، وزار أنطاكية فسرَّحَ جماعة الأنبياء الكذبة وكهنة زفس أولئك الذين كان مكسيمينوس قد أغدق عليهم هباته وأظهر عليهم عطفه، وقُدِّر لتيرانوس أسقف أنطاكية ورئيس كنيستها أن يتنفس الصعداء بعد أن شهد كثيرًا من ألوان الطغيان والسفك.

الترميم والتشييد

وتسلَّم الأساقفة الكنائس والأوقاف، وهرعوا لترميمها أو تشييدها ثانية، واشتد الحماس وكثر التعاون فتم البنيان بسرعة وتعددت حفلات التكريس وصلوات الابتهال والشكر، فاستأنف فيتاليوس أسقف أنطاكية بناء كنيسة الرسل القديمة Palaea،[١] واشترك أفسابيوس المؤرخ في تكريس كنيسة صور، وألقى لهذه المناسبة خطابًا ملؤه الفخر والحماسة.[٢]

مجمع أنقيرة

وتوفي تيرانوس في السنة ٣١٤ فخلفه في رئاسة الكنيسة الأسقف فيتاليوس (٣١٤–٣١٩)، ولمس فيتاليوس اختلاف الآراء في قبول التائبين العائدين إلى حضن الكنيسة

---

[١] Théodoret, Hist. Ecc., I, 3.

[٢] Eusèbe, Hist. Ecc., IX–X.

بعد الاضطهاد، فدعا الأساقفة إلى مجمع في أنقيرة، ولبى هذه الدعوة عدد من الأساقفة من: غلاطية، وبسيدية، وبمفيلية، وفريجية، وقبدوقية، وقيليقية، وسورية، وفلسطين، وأرمينية، وبحث المجمع أمر الساقطين إبان الاضطهاد، فمنح «المعترفين» غفرانًا تامًّا، وأوجب الندامة سنتين على مَن تظاهر بالارتداد في أثناء الاضطهاد، ولكنه لم يرتد، وثلاث سنوات أو أربع على مَن أُكرِهَ على الارتداد إكراهًا، وست سنوات على مَن أكرم الآلهة وضحى لها مكرهًا، وعشر سنوات على كل مَن ارتد وليس له عذر في ذلك. ثم نظر المجمع في الزنى والبغاء وقتل الأطفال والإجهاض والقتل والسحر، ففرض العقوبات اللازمة، وتناول واجبات الإكليروس، فأذن بزواج الشمامسة إذا استأذنوا الأسقف في ذلك قبل الرسامة، ومنع أساقفة الكورات (خور أسقف) من رسامة القساوسة والشمامسة بدون موافقة أسقف الأبرشية، وقضى بعزل القسوس والشمامسة إذا امتنعوا عن أكل اللحم بداعي النجاسة، ومنع الإكليروس عن بيع الأوقاف في أثناء خلو الكرسي من أسقف يدبر شئونها، وسمح للأساقفة الذين لا تقبلهم أبرشياتهم بالاحتفاظ بشرف الأسقفية، شرط ألَّا يقلقوا أساقفة الأبرشيات التي يخدمون فيها، وألا يحاولوا اغتصاب الكراسي.[٣]

مجمع قيصرية الجديدة

وعاد المجمع الأنطاكي إلى المشاورة وتبادل الرأي، فاجتمع قبل السنة ٣١٩ برئاسة فيتاليوس نفسه في قيصرية الجديدة، فاشترك في أعماله سبعة عشر أسقفًا من أساقفة البونط، وقبدوقية، وقيليقية، وسورية، وفلسطين، وغلاطية، وأرمينية. ونظر هذا المجمع في أمر الخطاة، فأوجب ندامة طويلة للزواج الثاني، وأخَّرَ تقدُّمَ الموعوظين عند وقوعهم في الخطيئة ونهى عن خطيئة الفكر، ووافق على معمودية الحبالى، ومنع رسامة الكهنة قبل الثلاثين، ورسامة مَن أجَّل معموديته حتى دهمه المرض، ومَن أُمْسِكَتْ زوجته في الفجور، ومنع هذا المجمع مَن ارتكب الزنى قبل الرسامة من خدمة القداس، وسمح له بممارسة الخدمات الأخرى، وجعل عدد الشمامسة في كل كنيسة سبعة فقط، ومنع قساوسة القرى من إقامة القداس في كنائس المدن، ولكنه سمح بذلك لأساقفة الكورات.[٤]

---

٣ Héfélé-Leclercq, Hist. des Conciles, I, 298–334; Palanque, J., Orient Chrét., Fliche et Martin, op. cit., III, 54–55.

٤ Héfélé-Leclercq, op. cit.; Palanque, J., op. cit.

ضيق جديد (٣٢٠–٣٢٣)

وكان ليكينيوس إمبراطور الشرق لا يزال وثنيًّا غير مسيحي، وكان قد توسع مع المسيحيين توسعًا ليجاري زميله قسطنطين ويخطب وده، وليكسب بذلك تأييد المسيحيين أنفسهم؛ لأنهم كانوا قد أصبحوا عنصرًا هامًّا جدًّا في الشرق، ولا سيما في آسية الصغرى.[٥] ويجب ألَّا يغيب عن البال أنه تقيد في توسعه مع المسيحيين بما تم الاتفاق عليه في ميلان، وأنه لم يعطِ المسيحيين أكثر من ذلك؛ أما إقدامه على محاكمة الوزير بفكيتيوس Peuketios، ووالي مصر كوليانوس Culienus، ووالي سورية ثيوتكنة Theotekne، فإنه جرى لأسباب سياسية لا دينية أهمها ولاء هؤلاء لمكسيمينوس، وقُلِ الأمرَ نفسه عن إعدام كهنة زفس في أنطاكية.[٦] ولا نراه يهتم لشئون الكنيسة الداخلية اهتمام زميله في الغرب، ولا نعرف له عطية أو هبة وهبها إلى الأساقفة في الشرق ليعاونهم في أعمالهم التعميرية.[٧]

وكان ما كان من أمر الخلاف بين قسطنطين وليكينيوس، وبدت طلائع هذا التنافر لمناسبة تعيين قيصري الغرب في السنة ٣٢٠،[٨] فضاق صدر ليكينيوس، وبدأ يزعج رجال الكنيسة وكبار الموظفين المسيحيين؛ ليحفظ بذلك «استقلال الدولة» ويحافظ على مكانتها، ولا مجال للقول مع بعض رجال الاختصاص إن ليكينيوس ضيَّقَ على المسيحيين في الشرق ليجتذب العناصر الوثنية في الغرب؛[٩] لأنه ليس لدينا من النصوص ما يخولنا القول إنه كان لليكينيوس أي مطمع في الجزء الغربي من الإمبراطورية، وجل ما يجوز قوله أن ليكينيوس خشي تعاون رعاياه المسيحيين مع صديقهم الكبير قسطنطين الذي أصبح خصمه بعد السنة ٣٢٠.

وبدأ ليكينيوس تضييقه على المسيحيين، فمنع في السنة ٣٢٠ عقد المجامع الكنسية،[١٠] ثم حرَّم اجتماع الجنسين المسيحيين في مكان مقفول، وأوجب اجتماعهما للصلاة في الهواء الطلق وخارج المدن، كما أمر بوجوب تدريب كهنة من النساء لإرشاد الموعوظات.[١١] تم

---

٥ Grégoire, H., Conversion de constantin, Rev. Univ. Bruxelies, 1930–1931, 231–272.

٦ Eusèbe, Hist. Ecc., IX, II.

٧ Palanque, J., op. cit., III, 56.

٨ Seeck, O., Gesch. des Untergangs, I, 504–506.

٩ Grégoire, H., Conversion de Const., Rev. Univ. Bruxelles, 1930–1931, 265.

١٠ Eusèbe, Vita Cons. I, 51.

١١ Ibid., I, 53.

تعذَّر على الإكليريكيين افتقاد المتهمين والمذنبين في السجون، وتعسرت الأفراح والأتراح،[١٢] ولجأ ليكينيوس بعد ذلك إلى سياسة التطهير، فأمر أولًا بإبعاد المسيحيين عن البلاط والوظائف الكبرى، ثم أوجب التضحية للآلهة، فاستمسك بعض الموظفين بالعقيدة المقدسة واستقالوا، واستهان غيرهم بالإيمان وآثروا البقاء في مراكزهم، وأشهر المستقيلين أوكسنتيوس كاتب العدل، الذي أصبح فيما بعدُ أسقف موبسوستي في قيليقية،[١٣] وامتنع الأساقفة عن الطاعة لأوامر الإمبراطور فطُورِدوا، ورغب الولاة في استرضاء سيدهم ليكينيوس، فصادروا الأوقاف ودمروا الكنائس، وساقوا المؤمنين للعمل في المناجم، وحكموا على البعض بالإعدام، وأشهر هؤلاء الشهداء باسيليوس متروبوليت ذيوسبونطة الخاضع لرئاسة أنطاكية.[١٤] واشتد الضغط في شرقي آسية الصغرى وكثر عدد الشهداء، ولكن أخبار هؤلاء لا تزال غير ثابتة، وبين هذه الأخبار الضعيفة قصة الشهداء الأربعين، الذين استشهدوا فيما يظهر في سبسطية من أعمال أرمينية الصغرى.[١٥]

ولم يرضَ قسطنطين عن هذا التضييق والتنكيد، فنهى في الخامس والعشرين من أيار سنة ٣٢٣ جميع الموظفين عن المطالبة بالتضحية للآلهة،[١٦] ثم رفع الصليب عاليًا، وأعلنها حربًا شعواء ضد ليكينيوس ووثنيته، واسترضى ليكينيوس الآلهة بدوره، ومشى إلى الحرب واثقًا من النصر، فاتخذت الحرب الجديدة لونًا دينيًّا واضحًا،[١٧] ورأت كنيسة أنطاكية في شخص قسطنطين مخلصًا مرسلًا من الله لتحريرها من ربقة ليكينيوس وأعوانه، وانتصر قسطنطين على خصمه مرتين متواليتين في تموز وأيلول السنة ٣٢٤،[١٨] فظهر الحق على الباطل، ودخلت الكنيسة في دور جديد من تاريخها.[١٩]

---

[١٢] Eusèbe, Vita Cons. I, 54, Hist. Ecc., X, 8.

[١٣] Philostorge, Hist. Ecc., V, 2.

[١٤] Eusèbe, Vita Cons., I, 52, Hist. Ecc., X, 8.

[١٥] Gebhart, Acta Martyrum Selecta, 166–181; Palanque, J., op. cit., III, 58.

[١٦] Cod. Theod., XVI.

[١٧] Eusèbe, Vit. Con., II, 3–17.

[١٨] Stein, E., Gesch., I, 159.

[١٩] Palanque, J., op. cit., III, 58.

قسطنطين وكنائس الشرق

واستتب الأمر لقسطنطين وحده، فأصدر في أواخر السنة ٣٢٤ بيانين: صفَّى في الأول منهما الحساب بين الوثنية والنصرانية في الشرق، فأنهى عشرين سنة من التضييق والتنكيد والاضطهاد، وثبَّت حرية المعتقد، وأوجب إعادة الأوقاف المصادرة، وأعتق «المعترفين» العاملين في المناجم وعلى الطرقات، وأثنى على شجاعة الشهداء وقوة إيمانهم، وأوجب تسليم ما خلفوه من تركات إلى ذويهم وورثائهم، أو إلى الكنيسة التي انتموا إليها إذا لم يكن لهم وريث شرعي،[٢٠] ثم وجَّه خطابًا «إلى الشرقيين» أكد فيه أن حرية المعتقد تشمل الوثنيين والمسيحيين على السواء، فاستدرك بعمله هذا اضطهادًا قد يشنه المسيحيون المنتصرون على الوثنيين، ولام في الوقت نفسه رجال الاضطهاد الذين نفذوا رغبات ليكينيوس، وأبان نقائص الوثنية، وقرَّع العرَّافين في هياكل زفس، ونادى باتكاله على سيد الكون وبالواجب المسيحي الملقى على عاتقه.[٢١]

وعلى الرغم من مبدأ المساواة الذي أعلنه قسطنطين في خطابه «إلى الشرقيين»، فإنه ما كاد يستقر به الحال، بعد انتصاره على ليكينيوس، حتى وعد الأساقفة بتقديم المال والمكان والمواد اللازمة لإنشاء الكنائس، وحرر لهم بذلك، وما كتابه في هذا الموضوع إلى أفسابيوس المؤرخ سوى نموذج واحد من نوعه.[٢٢] وأعد الإمبراطور في السنة التالية بابًا خاصًّا في موازنة الدولة لهذه المعونة،[٢٣] ثم أنشأ على نفقة الدولة كنائس القسطنطينية ونيقوميذية وأنطاكية وأوروشليم وبيت لحم والخليل، والإشارة هنا إلى كاتدرائية إيرينة وباسليقة الرسل في القسطنطينية، وإلى الكاتدرائية الكبرى بالقرب من القصر في أنطاكية، وكنيسة القبر المقدس في أوروشليم، وكنيسة المهد في بيت لحم، ومزار البطاركة في الخليل.[٢٤]

وقُدِّرَ لفيلوغونوس Philogonos أسقف أنطاكية الثاني والعشرين بعد بطرس أن يرى كنيسة البالية القديمة المتهدمة تعود إلى سابق رونقها ومجدها، وتوفي هذا الأسقف

[٢٠] Eusèbe, Vit. Con., II, 24–42; Baynes, N. H., Const. and Christ Ch., 17, 82.

[٢١] Eusèbe, Vit. Con., II, 48–60; Baynes, N. H., op. cit., 19, 27; Piganiol, A., Emp. Const., 147-148; Palanque, J., op. cit., III, 59.

[٢٢] Vit. con., II, 46.

[٢٣] Sozomène, Hist. Ecc., V, 5.

[٢٤] Eusèbe, Vit. Con., III, 25–53; Vincent, A., Jérusalem, II; Abel, F. M., Hist. Palest., II, 262–265.

في السنة ٣٢٤، فنعم خلفه أفستاثيوس Eustathios بسخاء قسطنطين، والشروع في بناء الكاتدرائية الكبرى قرب القصر، وذلك في السنة ٣٢٧، ولم يتم بناؤها قبل السنة ٣٤١، وذلك في عهد فلاكيلوس السابع والعشرين بعد بطرس؛ وجاء في مصنف أفسابيوس عن حياة قسطنطين وأعماله أن الفضل في اكتشاف المكان الذي صُلِب فيه السيد المخلص، والمكان الذي دُفِن فيه جسده الطاهر يعود إلى مكاريوس أسقف أوروشليم آنئذٍ.[٢٥]

قسطنطين والكنيسة

وكان قسطنطين منذ السنة ٣١٨ قد منح الأساقفة شيئًا من السلطة القضائية،[٢٦] ثم زادهم سلطة واحترامًا في السنتين ٣٢١ و٣٢٣،[٢٧] وبعد أن استتب له الأمر وحده منحهم سلطة إعتاق الرقيق بمجرد إعلان ذلك في الكنيسة بحضور الكهنة، ثم اعتبرهم قضاة فأجاز للمدعي أو المدعى عليه أن يترافع في دعوى ماثلة في محكمة مدنية أمام الأسقف، واعتبر حكم هذا الأسقف مبرمًا غير قابل الاستئناف.[٢٨]

وألغى قسطنطين منذ السنة ٣٢٠ القوانين التي سنَّها أوغوسطوس وحرَّم بها العزوبية،[٢٩] واشترع عقوبات قاسية وشدد في تطبيقها على كل مَن يرتكب جرم الخطف والاغتصاب، وشملت هذه العقوبات المرأة نفسها إذا ثبتت موافقتها على ذلك،[٣٠] وحرَّم اعتداء المربي على عفاف تلميذته،[٣١] ومضاجعة السيدة رقيقها،[٣٢] والعهر بخادمات الفنادق والخانات،[٣٣] وأباح ملاحقة التسرر،[٣٤] وصعَّبَ الطلاق،[٣٥] وعني قسطنطين في الوقت نفسه

---

٢٥ .Vit. Con., III, 29–32

٢٦ .Cod. Theod., XVI, 2

٢٧ .Cod. Theod., IV, 7; Cod. Just., I, 13

٢٨ .Const. Sirm., 1; Palanque, J., Cath. Rel. d’Etat, Fliche et Martin, op. cit. III, 519 ff

٢٩ .Cod. Theod., VIII, 16

٣٠ .Cod. Theod., IX, 24

٣١ .Cod. Theod., IX, 3

٣٢ .Cod. Theod., IX, 9

٣٣ .Ibid. IX, 7

٣٤ .Cod. Just., V, 26

٣٥ .Cod. Theod., III, 16

بحماية الضعفاء والمساكين والأبرياء، ففرض العقوبات الشديدة على الوشايات والطعون الكاذبة،[٣٦] ووضع حدًّا لقساوة السجانين، كما منَعَ الأسيادَ عن الإساءة إلى أرقائهم، والآباءَ عن الغلاظة في معاملة أولادهم،[٣٧] وشجع الإمبراطور الاعتناء بالأرامل واليتامى.[٣٨]

وهكذا فإن قسطنطين آمن بالسيد المخلص وأخلص لكنيسته، ولكنه لم يطلب المعمودية إلا في ساعة متأخرة وقبيل وفاته؛ ولعلَّ السبب في ذلك أنه كان يشغل وظيفة إمبراطور الدولة، وأن عددًا كبيرًا من الرومانيين كان لا يزال وثنيًّا متمسكًا بدين الآباء والأجداد، فرأى قسطنطين أن مصلحة الدولة والكنيسة تقضي بأن يظل حبر رومة الأعظم Pontifex Maximus ليتمكن من خدمة الاثنين معًا؛ ومن هنا في الأرجح قوله لرجال الكنيسة: «أنتم أساقفة على مَن هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة الله على مَن هم في الخارج.»[٣٩] ومن هنا أيضًا هذا التحسس بوجوب إصلاح الوثنية، وهذا الإقدام على منع السحر، وإقفال الهياكل التي وُصمت بالفسق والدعارة كهيكل أفقا في لبنان وغيره في سورية،[٤٠] وهذا التهجم على الأفلاطونية الجديدة وعلى بورفيريوس ومصنفاته.

وكان لعطف قسطنطين على الكنيسة وقْعٌ عظيم في جميع الأوساط النصرانية، فاشتد الحماس له وعظمت الثقة به، حتى أصبح ملجأ النصارى ونصيرهم، فشكوا أمورهم إليه ورجوا تدخله، وكان هو حبر الدولة الأعظم ورأسها، فشعر أنه من واجبه أن يحافظ على الأمن وحرية العبادة، فتدخل في شئون الكنيسة، وسجَّلَ بتدخُّله سابقةً خطرة أدَّت فيما بعدُ إلى مشاكل ومشاكل بين الدولة والكنيسة، وما الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر شطرين، إلا نتيجة محتمة لتدخل الدولة في شئون الكنيسة، وربط السياسة الدينية بالسياسة السياسية.

---

[٣٦] Ibid. IX, 34.

[٣٧] Cod. Theod, IX, 3, 12, 27.

[٣٨] Ibid. I, 22.

[٣٩] Eusèbe, Vit. Con., IV, 24.

[٤٠] Ibid., III, 55–58; Socrates. Hist. Ecc., I, 18; Sozomène, Hist. Ecc., II, 5.

الباب الثاني

انتصار النصرانية وانقسامها

الفصل السابع عشر

آريوس والآريوسية

٣٢٣–٣٦٠

كنيسة الإسكندرية

وعكر الاضطهاد سلام الكنيسة في الإسكندرية؛ ففي السنة ٣٠٦ صنف بطرس أسقف الإسكندرية رسالة في كيفية قبول الجاحدين، فعارضه ملاتيوس أسقف أسيوط «وخطابه سفَّه الرأي إلى المنابذة والخلاف، مع أنه داجى الوثنيين، وسجد لأصنامهم فيما قبلُ»، ثم اشتدت وطأة الاضطهاد، فتخفى بطرس فانطلق ملاتيوس يحرِّك قضية التوبة، واجترأ على سيامة الكهنة ورجال الإكليروس في غياب الأساقفة وفي أبرشيات غير أبرشيته، فعنَّفَه على عمله هذا أساقفةٌ أربعة كانوا معتقلين يتوقعون الشهادة، وقطعه بطرس وحرمه، ثم نال بطرس إكليل الشهادة في خريف السنة ٣١١، فخلفه أخيلاس بضعة أشهر ثم ألكسندروس، وحاول الاثنان معاجلة قضية ملاتيوس فلم يفلحَا؛ وتجرأ كاهنٌ يُدعَى كولوثوس على سيامة الكهنة والشمامسة، وحلَّ الشقاق في الكنيسة المصرية وتراشق الأساقفة بالحرمان؛ ثم تجرأ كاهن آخَر يُدعَى آريوس على أسقف الإسكندرية، فكانت مشادة أدت إلى شقاق عظيم في كنائس الشرق دام مدة طويلة.

آريوس (٢٥٦–٣٣٥)

ونكاد لا نعلم شيئًا عن آريوس قبل خروجه على رئيسه ألكسندروس أسقف الإسكندرية، وجل ما نعلمه هو أنه ليبي المولد والمنشأ، وأنه أمَّ الإسكندرية، وتعلم فيها وشايع ملاتيوس لدى خروجه على رئيسه بطرس، ثم تراجع فسيم شماسًا، ثم انتقد رئيسه في أمر توبة

الجاحدين فقطع، فالتجأ إلى أخيلاس فسامه هذا كاهنًا، ثم وثق فيه ألكسندروس فجعله خادم كنيسة بفكالس Bavcalis.[١]

وكان آريوس فيما يظهر عالمًا زاهدًا متقشفًا، يجيد الوعظ والإرشاد، فالتف حوله عدد من المؤمنين، ولا سيما عذارى الإسكندرية اللواتي نذرن أنفسهن للعمل الصالح، فأصبحن فخر كنيسة مصر، وانضم إلى هؤلاء عدد كبير من رجال الإكليروس، الذين وجدوا في وعظه غذاء للنفوس، فآثروا الإصغاء إليه على الرغم من التخالف في التعليم بينه وبين الأسقف رئيس الكنيسة.[٢]

ووافق آريوس لوقيانوس المعلم الأنطاكي وأخذ عنه، ولعله درس عليه كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الكلام عن لوقيانوس، ولا نعلم بالضبط وتمام الوضوح ما علمه لوقيانوس، كما أنه لم يَبْقَ من تعاليم آريوس إلا مقتطفات يسيرة جاءت في بعض «الردود» عليه، ولا سيما ما كتبه القديس أثناسيوس الكبير وما أورده القديس إمبروسيوس، الذي اطَّلَع فيما يظهر على تقارير الأسقف هوسيوس، ولا يخفى أن هوسيوس انتدب للتحقيق في قضية آريوس قبيل انعقاد المجمع المسكوني الأول، وأنه أصغى لكلٍّ من الأسقف ألكسندروس والقس آريوس.

وجلُّ ما يجوز قوله عن مذهب آريوس أنه كان فيما يظهر محاولة جديدة لتأكيد وحدانية الآب، وتخفيض منزلة الابن Subordinationisme والروح القدس، فالآب وحده في نظر آريوس استحق لقب الإله، أما الابن فإنه لم يكن سوى إله ثانوي منخفض في الرتبة والمنزلة، مخلوق من العدم بإرادة الآب؛ بيد أنه تميَّزَ عن سائر المخلوقات في أنه كان صورة الله الآب في جوهره Ousia وإرادته وقدرته ومجده، والثالوث في نظر آريوس ثلاثة في الأقنوم، ولكنهم ليسوا واحدًا إلا باتفاق المشيئات.[٣] ومما أخذه سوزومينس المؤرخ على آريوس أنه كان لسانيًّا منطيقيًّا متطرفًا جرَّه تطرُّفه هذا إلى الوقوع في الخطأ.[٤]

وعلم ألكسندروس بما علَّم به آريوس خادم كنيسة بفكاليس، وسمع اعتراض بعض المؤمنين على هذه التعاليم الجديدة، فدعا الطرفين إلى مناقشة علنية بحضوره في موضوع

---

[١] Bardy, G., Origines de l’Arianisme, Fliche et Martin, op. cit., III, 69–71.

[٢] Athanasius, Contra Arian. I, 8; Epiphane, Haeres., LXIX, 3.

[٣] Bardy, G., op. cit., III, 72–73.

[٤] Sozomène, Hist. Ecc., I, 15.

الخلاف، فأوضح آريوس رأيه في الآب والابن والروح القدس، واستمسك خصومه بولادة الابن من الآب قبل كل الدهور، وبمساواة الابن للآب في الجوهر، وأصغى ألكسندروس إلى كل ما قاله الطرفان، وأثنى على جميع الخطباء، ولكنه قال بولادة الابن قبل كل الدهور، وبمساواته للآب في الجوهر، وأمر آريوس أن يقول قوله ومنعه عمَّا كان يعلِّم به.[٥]

واعتز آريوس بعلمه وبالأساقفة خارج مصر، الذين اخذوا عن لوقيانوس المعلم الأنطاكي وقالوا أقوالًا مماثلة، وبين هؤلاء أفسابيوس أسقف نيقوميذية، وأفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد، وبافلينوس أسقف صور، وغريغوريوس أسقف بيروت، وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وأثناسيوس أسقف عين زربة في قيليقية،[٦] واعتز آريوس بعلمه وبهؤلاء، فرفض أمر سيده وامتنع عن الطاعة.

وعلم ألكسندروس أن أساقفة مصر يقولون قوله، فدعاهم إلى مجمع في الإسكندرية، وأطلعهم على بدعة آريوس، وكانوا مائة فشجب ثمانية وتسعون منهم قول آريوس، وامتنع عن الشجب أسقفان فقط، فقطع المجمع الإسكندري آريوس وهذين الأسقفين وستة قساوسة وستة شمامسة.[٧]

آريوس في فلسطين

وقصد آريوس أسقف قيصرية فلسطين أفسابيوس المؤرخ ووصل حبله بحبله، وكان أفسابيوس سيدًا منظورًا وعالمًا كبيرًا، يتجه اتجاه آريوس في تفكيره، ولكنه لا يجاهر برأيه ولا يجادل، ولعله لم يدقق أمر الثالوث تدقيق آريوس، ولم يتخذ موقفًا محددًا من هذا الموضوع،[٨] ولكن غموضه في التفكير لم يمنعه عن إسعاف آريوس، فإنه كتب إلى ألكسندروس أسقف الإسكندرية يلومه على تحريف أقوال آريوس،[٩] وأشار على آريوس

---

[٥] Ibid., I, 15.

[٦] Epiphane, Haeres., LXIX, 6; Bardy, G., Recherches sur Saint Lucien d'Antioche, 223–228.

[٧] Socrates, Hist. Ecc., I, 6.

[٨] Bardy, G., Origines de l'Arianisme, op. cit., III, 74.

[٩] Mansi, XIII, 317.

بالكتابة إلى أسقف نيقوميذية لتبيان موقفه، فكتب آريوس وحصر شكواه في أنه قطع لأنه لم يقل إن الابن غير مخلوق.[١٠] وأفسابيوس أسقف نيقوميذية رُسِمَ بادئ ذي بدء أسقفًا على بيروت، ثم أصبح أسقف نيقوميذية، واتصل بقسطندية أخت قسطنطين وزوجة ليكينيوس ونال ثقتها، فشفعت له عند أخيها، فتقرَّب من الإمبراطور، فخفَّ لحاجاته واهتم بشئونه.[١١]

آريوس في نيقوميذية

ثم أمَّ آريوس نيقوميذية، وعمد إلى أسقفها واستحمله أموره، فنزل أفسابيوس على مُقترَح آريوس، ولم يدخر عنه وسعًا، وحرر إلى جميع الجهات، وحضَّ الأساقفة على تأييد آريوس، ولا يزال نص كتابه إلى بافلينوس أسقف صور محفوظًا في تاريخ ثيودوريتس، وفيه من عبارات التشجيع على الجهر بالرأي ما يثبت تردد بافلينوس في بادئ الأمر وامتناعه عن مصارحة زملائه في قضية آريوس.[١٢] ويقول سوزومينس المؤرخ إن أفسابيوس أسقف نيقوميذية دعا إلى مجمع محلي للنظر في قضية آريوس، وإن هذا المجمع اتخذ قرارًا بوجوب قبول آريوس وجماعته في الشركة، ووجوب الكتابة إلى ألكسندروس بذلك ليرفع عنهم الحرم،[١٣] ورأى أفسابيوس أسقف نيقوميذية أن يكتب آريوس نفسه إلى ألكسندروس مبينًا عقيدته، فكتب آريوس كتابة لبقة جاء فيها أنه لم يعلم غير ما علمه ألكسندروس نفسه، وأنه حرَّمَ ما حرمه سيده ورئيسه،[١٤] وصنَّف آريوس في هذا الوقت نفسه رسالةً دعاها «الثالية» Thalia، وضمنها آراءه في الثالوث وبدأها بمدح نفسه، فراجت في بعض الأوساط رواجًا ملموسًا.[١٥]

---

١٠ Arius, Epist. ad Euseb., Epiphane, Haeres., LXIX, 6.

١١ Lichtenstein, A., Eusebius von Nikomedien.

١٢ Théodoret, Hist. Ecc., I, 5.

١٣ Sozomène, Hist. Ecc., I, 15.

١٤ Epiphane, Haeres., LXIX, 7; Bardy, G., Recherches, op. cit., 228–238.

١٥ Bardy, G., La Thalie d’Arius, Rev. de philol., 1927, 211–233; Puesch, A., Lit. Gr. Chrét., III, 59–63.

نشاط ألكسندروس

وهبَّ ألكسندروس للدفاع عن الإيمان القويم، فكتب إلى عدد كبير من الأساقفة خارج مصر معلنًا وحدة الكنيسة الجامعة، موجبًا تبادل الرأي بين الأساقفة؛ ليتألموا مع العضو المتألم ويفرحوا لفرحه،[١٦] مبيِّنًا موقفه وموقف المجمع المصري المحلي. ويُستدَل من النصوص الباقية أن ألكسندروس حرَّرَ بما تقدَّم ذكره إلى كلٍّ من سلفيستروس أسقف رومة، وفيلوغونيوس أسقف أنطاكية، وأفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، ومكاريوس أسقف أوروشليم، وزينون أسقف صور، وأفستاثيوس أسقف حلب، وأسكليباس أسقف غزة، ولونجينوس أسقف عسقلان، وإلى واحد وستين أسقفًا آخر.[١٧]

وتجاوزت البدعة من آريوس وزمرته إلى غيرهم، فانتشرت في سنتها الأولى في جميع الأوساط المسيحية في الشرق، وتراشق الخصمان بالقطع والحرمان، وكثرت النشرات الآريوسية والردود عليها، وجمعت مجموعات لتسهيل الاطِّلاع عليها،[١٨] ومشى أستيريوس Asterios السفسطي المغالط من قبدوقية إلى جميع أنحاء الشرق، يدعو إلى بدعة آريوس ويدافع عنها بالسفسطة، وكان قد ضحَّى للآلهة الوثنية في أثناء الاضطهاد العظيم، وتاب وأحب الالتحاق بالإكليروس، فمُنِع فازداد سخطًا ومعارضة.[١٩]

تدخُّل الغوغاء

وكان المجمع المحلي الذي انعقد في نيقوميذية قد كتب إلى ألكسندروس في الإسكندرية أن يرفع الحرم الذي وضعه على آريوس وأتباعه، فامتنع ألكسندروس عن ذلك، فاجتمع بعض الأساقفة الأنطاكيين أمثال: أفسابيوس القيصري، وبافلينوس الصوري، وباترفيلوس البيساني وغيرهم في قيصرية فلسطين، ومنحوا آريوس وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار،[٢٠] فتسلَّحَ آريوس بهذا القرار، وعاد وجماعته إلى الإسكندرية، ونظم الأغاني

---

[١٦] Alexandre d'Alexandrie, Epist. Encyc. apud Socrates, Hist. Ecc., I, 6.

[١٧] Epiphane, Haeres., LXIX, 4; Théodoret, Hist. Ecc., I, 4.

[١٨] Epiphane, Haeres, LXIX, 5; Athanase, De Synod., XVII.

[١٩] Bardy, G., Asterius le Sophiste, Rev. Hist. Ecc., 1926, 226 f.

[٢٠] Sozomène, Hist. Ecc., I, 15.

والأهازيج وعممها؛ فحفظها أناس من جميع الطبقات وتغنوا بها، وسرت العدوى إلى السفلة، فاندفعوا يرددون هذه العبارات في الأسواق والشوارع والباحات وأماكن اللهو.[٢١]

موقف الإمبراطور قسطنطين

وكان قسطنطين قد عانى الأمرين في سعيه للوصول إلى العرش وفي توحيد الإمبراطورية، وكانت موقعة خريسوبوليس التي فصلت في الخلاف بينه وبين ليكينيوس لا تزال قريبة العهد جدًّا (١٨ أيلول ٣٢٤)، فلما علم الإمبراطور بالخلاف بين آريوس وبين رئيسه ألكسندروس، وبتطوُّر هذا الخلاف وتأزُّمه، تألَّمَ وغضب، واستشار في هذا الأمر صديقه القديم الشيخ التقي هوسيوس Hossius أسقف قرطبة الإسبانية، ولم يدرك هوسيوس أهمية النزاع العقائدي وصلته بألوهية السيد المخلص، ولا غرو في ذلك فإن معظم أساقفة الغرب كانوا لا يزالون بعيدين عن تفهم هذه الأمور، لقلة تضلعهم في الفلسفة واللاهوت، فقر قرار الصديقين على الكتابة إلى ألكسندروس وآريوس، وعلى قيام هوسيوس بنفسه إلى الإسكندرية للتحقيق في القضية الماثلة وإدلاء النصح للطرفين وحلها حبيًّا؛ وخلاصة الرسالة الإمبراطورية التي حملها هوسيوس إلى الإسكندرية ألَّا فائدة من المشادة حول اللغو في الكلام، وأن إقرار السلم أهم بكثير من مثل هذه المشادات، وأن الواجب يقضي بتساهل الطرفين للوصول إلى حلٍّ مرضٍ،[٢٢] وقد اختلف رجال الاختصاص في أصالة هذه الرسالة، فمنهم مَن قال بأنها مزورة، وأنها دُسَّت دسًّا في أوائل عهد قسطنس الثاني،[٢٣] ومنهم مَن يراها صحيحة غير مزورة.[٢٤]

ووصل هوسيوس إلى الإسكندرية، فوجد الأساقفة مجتمعين للنظر في بعض الأمور المحلية، منها قضية كولوثوس الذي اغتصب الأسقفية اغتصابًا، ومنها مشكلة الكاهن أسخيراس الذي رسمه كولوثوس، ولا بد وأن تكون قضية آريوس قد بحثت أيضًا، ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن أعمال هذا المجمع، وجل ما نعلمه هو أن هوسيوس اتصل

---

[٢١] Philostorge, Hist. Ecc., II, 2; Eusèbe, Vit. Con., I, 61.

[٢٢] Eusèbe, Vit. Con., II., 64–72.

[٢٣] Batiffol, P., Les Documents de la Vita Constantini, Bull. Anc. Lit. et Arch. Chrét., 1914, 83–86.

[٢٤] Bardy, G., Pol. Relig. de Constantin, Rev. Sc. Relig., 1928, 516, n. 1.

بأسقف الإسكندرية وبآريوس، وأنه عاد إلى نيقوميذية فتبعه إليها كلٌّ من ألكسندروس وآريوس، وأن ألكسندروس أقلع إلى نيقوميذية بحرًا، فوصل إليها قبل آريوس الذي آثر طريق البر.[٢٥]

مجمع في أنطاكية (٣٢٤-٣٢٥)

وتوفي فيتاليوس أسقف أنطاكية في السنة ٣١٩، فخلفه كما سبق وأشرنا فيلوغونيوس، وكان فيلوغونيوس محاميًا «له مع عباد الله معاملة جميلة ومروءة ظاهرة ومعدلة فاشية»، فرفع بعد وفاة زوجته إلى السدة الرسولية، وانصرف إلى خدمة الكنيسة بخوف الله وورعه، وأتم بناء الكنيسة القديمة، وعاد بعدد وافر من الجاحدين إلى حظيرة الخلاص، وقاوم اضطهاد ليكينيوس، وتحمل الضيق والشدة فاعتبر معترفًا، وأحزنه أمر آريوس فبذل وسعه في محاربة هذه البدعة، وراسَلَ ألكسندروس الإسكندري مثبتًا، ثم رقد بالرب يسوع في الرابع والعشرين من كانون الأول سنة ٣٢٤.[٢٦]

وما إن طُوِيَتْ صحيفة هذا الرجل الصالح وخلا مكانه، حتى انتشر الصوت به في الأوساط المستقيمة الرأي، فهرع الأساقفة إلى أنطاكية للتشاور في أمر الخلافة الرسولية، فاجتمع في عاصمة النصرانية ستة وخمسون أسقفًا من فلسطين والعربية وفينيقية وسورية وإسورية وقبدوقية برئاسة أفسابيوس الأسوري، فتشاوروا في أمر آريوس وبدعته، وسلموا عكاز الرعاية في أنطاكية إلى أفستاثيوس (٣٢٥–٣٣٠) أسقف حلب، الذي كان قد اشتهر بصحة عقيدته وتأييده لألكسندروس الإسكندري، واتخذوا لمناسبة البحث في بدعة آريوس قرارًا جاء فيه أنهم يقولون بإله فائق القدرة أزلي لا يتغير، خالق السماء والأرض وكل ما يوجد، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور؛[٢٧] واعترض على هذا القول ثلاثة من الأساقفة المجتمعين: أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، وثيودوتوس أسقف اللاذقية، ونرقيس أسقف بانياس Neronias

---

[٢٥] Philostorge, Hist. Ecc., I, 7.

[٢٦] Saint JérÔme, Chron.; Théodoret, Hist. Ecc., III, 1; Chrysostomus, Hom., Dec. 20.

[٢٧] Schwartz, E., Gesch. des Athanasius, VI., Nachrichten, Gottingen, 1905, 27 ff; Nau, F., Lit. Canonique Syriaque Inédite, Rev. Orient Chrét., 1909, 3–31.

إحدى المدن العشر، فقطعهم المجمع لمدة معينة، ثم أقر نص الرسالة السلامية، ووجهها إلى أسقف رومة وغيره من رؤساء الكنائس الشقيقة، وإلى عدد كبير من الأساقفة.[٢٨]

ويرى بعض رجال الاختصاص أن كنيسة أنطاكية سبقت غيرها من الكنائس إلى فكرة المجامع المسكونية، وأن هذا المجمع الأنطاكي نفسه اقترح دعوة أساقفة الشرق وآسية الصغرى ومصر والغرب إلى مجمع مسكوني يجلس في أنقيرة للبت في قضية آريوس، وإخراج الكنيسة الجامعة من الورطة التي وقعت فيها، ويستند هؤلاء العلماء في رأيهم هذا إلى نص العبارات التي قُطِعَ بها الأساقفة الثلاثة، فقد أتاح نص القطع التوبة أمام مجمع كبير في أنقيرة.[٢٩] وجاء في بعض المراجع الأولية أن الفضل في التفكير بمجمع مسكوني يعود إلى ألكسندروس الإسكندري،[٣٠] وينسب أفسابيوس المؤرخ هذا الفضل إلى الإمبراطور قسطنطين نفسه،[٣١] ولكن روايته هذه مجروحة ينقصها شيء كثير من العدل؛ نظرًا لعلاقة أفسابيوس الشخصية بآريوس والآريوسية.

مجمع نيقية (٣٢٥)

ودعا قسطنطين جميع الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى التشاور وتبادل الرأي، وعين مكان الاجتماع في نيقية لا في أنقيرة، ورأى أن تبديل المكان ضروري لأسبابٍ، منها: أن مناخ نيقية ألطف من مناخ أنقيرة، وأن نيقية أقرب إلى نيقوميذية مقر حكمه، وأن الوصول إليها أسهل على أساقفة الغرب وأوروبة من الوصول إلى أنقيرة. ولا يزال بعض ما كتبه الإمبراطور في هذا المعنى محفوظًا حتى يومنا هذا،[٣٢] ولا نعلم السبب الذي حدا بالأساقفة المجتمعين في أنطاكية إلى تعيين أنقيرة مكانًا للاجتماع، ولعله قُرْبها كمركز أنطاكي كنسي من نيقوميذية، وشهرة أسقفها مركلوس Marcellus وصموده العنيف في وجه آريوس وأتباعه.

---

[٢٨] Opitz, H. G., Athanasius Werke, III, 1, Urkenden zur Gesch. des Arianischen Streites, 1934, 30–41.

[٢٩] Baynes, N. H., Journal of Roman Studies, 1928, 219 f.

[٣٠] Philostorge, Hist. Ecc., I, 7.

[٣١] Vit. Con., III, 6.

[٣٢] Pitra, Analecta Sacra, IV, 224; Opitz, H. G., Athanasius Werke, III, 41–42.

ومثَّل الكنائس عدد غفير من الأساقفة من: سورية، وقيليقية، وفينيقية، والعربية، ومصر، وليبية، وما بين النهرين، وأسكيثية، والبونط، وغلاطية، وبمفيلية، وقبدوقية، وفريجية، وتراقية، ومقدونية، وآخية، وأبيروس، وإيطالية، وغالية، وإسبانية، وأفريقية الشمالية،[٣٣] وتختلف المراجع في عدد الأساقفة المجتمعين، فإنهم مائتان وسبعون في رواية أفستاثيوس أسقف أنطاكية،[٣٤] وثلاثمائة في عُرْف أثناسيوس الإسكندري، وبعد السنة ٣٦٠ جعل عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر ليتساووا «وغلمان إبراهيم المتمرنين»،[٣٥] وكان معظمهم من الولايات الشرقية.

ويُستدَل ممَّا تبقى من آثار هذا المجمع المسكوني الأول أن ثمانين أسقفًا أنطاكيًّا أو أكثر أيدوا قراراته، وأنهم جاءوا من ولايات (أبرشيات) سورية وفينيقية وفلسطين والعربية وما بين النهرين وقيليقية وإسورية وقبرص،[٣٦] وأشهر الأساقفة الأنطاكيين الذين اشتركوا في أعمال المجمع: أفستاثيوس أسقف أنطاكية العالم اللاهوتي، ومكاريوس أسقف أوروشليم، وأفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين العالم المؤرخ والخطيب المفوَّه، ويعقوب أسقف نصيبين الناسك الورع المتوشح بجلد الماعز، وإسبيريدون الراعي أسقف قبرص، الذي ذهبت له في الحلم والدعة شهرة طائلة، وتوما أسقف مرعش المعترف الذي شُوِّهت أعضاؤه وحُبِس نحوًا من عشرين سنة، وبولس أسقف قيصرية الجديدة الذي يبست أعصاب يديه من جراء تعذيبه بالحديد الحامي، وماركوس العالم أسقف أنقيرة.[٣٧]

ولم يستطع سيليفستروس أسقف رومة الحضور لشيخوخته، فناب عنه قسيسان رومانيان وأسقف كلابرية، وحضر ألكسندروس أسقف الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الشهير، كما حضر ألكسندروس أسقف القسطنطينية، وأفسابيوس أسقف نيقوميذية، وكثير من أجلَّاء الأساقفة الذين فاح عبير قدسهم، وحضر أيضًا آريوس بنفسه.[٣٨]

---

[٣٣] Eusèbe, Vit. Con., III, 7.

[٣٤] Théodoret, Hist. Ecc., I, 8.

[٣٥] Gen. XIV, 14; Saint Hilaire, Contra Const., 27; Rivière, J., Trois cent Dix-Huit, Rev. Théol. Anc., 1934, 361–367.

[٣٦] Bizantion, 1939, 45–48.

[٣٧] Bardy, G., Origines de l'Arianisme, Fliche et Martin, op. cit., III, 82–83.

[٣٨] Gelzer-Hilgenfeld-Cuntz, Patrum Nicaenorum Nomina.

واجتمع الآباء الأجلاء في اليوم العشرين من أيار من شهور السنة ٣٢٥،[٣٩] في بهو كبير في البلاط، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم إلى اليمين وإلى اليسار، وباتوا ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين، ثم أعطيت الإشارة بوصوله فانتصبوا احترامًا وإجلالًا، ودخل قسطنطين بالأرجوان والذهب ووراءه بعض أفراد الحاشية من المسيحيين، ولما وصل إلى المكان الذي أُعِدَّ له، شاء ألا يجلس قبل جلوس الأساقفة، وأمرهم بذلك فامتثلوا.[٤٠]

وتختلف الروايات فيمَنْ رأس المجمع، فالكاتب الذي رتب فصول كتاب أفسابيوس في حياة قسطنطين يرى أن أفسابيوس نفسه ترأس المجمع،[٤١] ويُخيل للقارئ أن القديس أثناسيوس أراد أن يقول إن هوسيوس أسقف قرطبة تبوأ أول المراكز،[٤٢] ولكن ثيودوريطس المؤرخ يعطي الرئاسة لأفستاثيوس أسقف أنطاكية،[٤٣] ولعل هذا القول أقرب إلى الحقيقة من سواه؛ لأنه أوضح من غيره، ولأن أسقف أنطاكية كان أهم الأساقفة المجتمعين، ولا سيما وأن أسقف رومة لم يحضر بشخصه، وأن ألكسندروس أسقف الإسكندرية كان أحد الخصمين المتداعيين،[٤٤] بَيْدَ أنه لا بدَّ من الإشارة إلى أن اسم هوسيوس جاء في طليعة أسماء الموقعين.[٤٥]

وتوسَّطَ الإمبراطور مجلس الآباء على كرسي من ذهب، ونهض رئيس المجمع، فشكر الإمبراطور عنايته بالكنيسة، فرد عليه الإمبراطور شاكرًا «لملك الكون» نعمه الكثيرة، ولا سيما تلك التي أتاحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد، وذكر بعد ذلك أنه بقدرة «الملك المخلص» تمكَّنَ من القضاء على الطغاة الذين قاوموا الله، وأكد أنه يعتبر كل شغب في داخل الكنيسة مساويًا في الخطر لحرب كاملة.[٤٦]

ونُقل خطاب الإمبراطور من اللاتينية إلى اليونانية، وشرع الآباء فور الانتهاء من ترجمة هذا الخطاب إلى بحث القضايا الماثلة؛ ويرد رجال الاختصاص قول أفسابيوس

---

٣٩ Socrates, Hist. Ecc., I, 13.

٤٠ Eusèbe, Vit. Con., III, 10.

٤١ Ibid., III, 11.

٤٢ Apolog. de Fuga, V.

٤٣ Théodoret, Hist. Ecc., I, 7.

٤٤ Bardy, G., op. cit., III, 83, n. 3.

٤٥ Grumel, V., Siège de Rome et Concile de Nicée, Echos d'Orient, 1925, 411–423.

٤٦ Eusèbe, Vit. Con., III, 12.

المؤرخ إن الإمبراطور تدخَّلَ مرارًا في البحث لإقرار السلم والوفاق،[٤٧] ولا يقرون قول روفينوس إن بعض الفلاسفة الوثنيين حضروا الجلسات وناقشوا الأساقفة.[٤٨] ويستبعد رجال الاختصاص أيضًا تدخل أثناسيوس شماس ألكسندروس الإسكندري في البحث، ويميلون إلى الاعتقاد بأن الأساقفة وحدهم تباحثوا وتشاوروا، ثم اتخذوا القرارات اللازمة.[٤٩]

وبحث الآباء بدعة آريوس، واستمعوا إلى بعض ما جاء في كتابه «الثالية»، فسدوا آذانهم نافرين،[٥٠] ولم يحضروه ولم يستنطقوه، وأول مَن قال باستحضاره روفينوس وقوله ضعيف مردود، وأيد آريوس من وراء الستار عشرون أسقفًا أشهرهم: أفسابيوس أسقف نيقوميذية، وأفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وأثناسيوس أسقف عين زربة، وغريغوريوس أسقف بيروت،[٥١] ولكن الجميع اعترفوا بأن ابن الله هو إله حق، واختلفوا في تفسير هذا الكلام وتحديده، فقال بعضهم بوجوب الاكتفاء بتعبير الآباء السابقين، وقال آخرون بوجوب التدقيق في قول هؤلاء الآباء السابقين وتحديد التعبير.[٥٢]

وانتهز أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين هذه الفرصة، فعرض قانون إيمان كان يُتلَى في كنيسته عند ممارسة سر المعمودية، وترجى قبوله والموافقة عليه، ولعل هذا القانون نفسه هو من اجتهاد ألكسندروس الإسكندري وهوسيوس،[٥٣] أو من صياغة هيرموغونيوس أسقف قيصرية قبدوقية،[٥٤] ولكن الآباء أبوا أن يقبلوه كما كان، فأدخلوا عليه بعض العبارات للضبط والتوضيح، فأوجبوا القول بأن ابن الله مولود من جوهر الآب، وأنه إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر. ويرى بعض

---

[٤٧] Tillemont, Mémoires, VI, 652.

[٤٨] Rufin, Hist. Ecc., X, 3; Jugie, M., Disputes des Philosophes Paiens avec les Pères de Nicée, Echos d'Orient, 1925, 403–410.

[٤٩] Bardy, G., op. cit., III, 84, n. 4.

[٥٠] Saint Athanase, Epist. ad Episc. Aegypti, XIII.

[٥١] Philostorge, Hist. Ecc., I, 8.

[٥٢] Sozomène, Hist. Ecc., I, 17.

[٥٣] Philostorge, Hist. Ecc., I, 9.

[٥٤] Basile, Epist. 81.

رجال الاختصاص أن هوسيوس اقترح إدخال العبارة «مساوٍ للآب في الجوهر»، فأيَّدَه في ذلك كلٌّ من أفستاثيوس أسقف أنطاكية وماركلوس أسقف أنقيرة،[٥٥] ووافق قسطنطين على رأي الأكثرية الساحقة، فجاء نص قانون الإيمان النيقاوي كما يلي:

> نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد مولود من الآب، أيْ من جوهر الآب إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء، ما في السماء وما على الأرض، الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل وتجسَّدَ وتأنس وتألم، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وسيجيء ليدين الأحياء والأموات، وبالروح القدس.[٥٦]

وألحق الآباء بهذا القانون العبارات التالية: «أما أولئك الذين يقولون إنه كان زمن لم يكن فيه، وأنه لم يكن قبل أن يُولَد، وأنه صار من العدم، أو من أقنوم آخر، أو جوهر آخر، أو أن ابن الله مخلوق أو متغير أو متحول، فهؤلاء جميعهم تفرزهم الكنيسة.» وحرم الآباء آريوس وأتباعه، فأيدهم قسطنطين في ذلك، وحُكِمَ على آريوس بالإبعاد والنفي.

ثم نظر المجمع في أمر عيد الفصح، فإن كنيسة أنطاكية كانت تجاري اليهود في حسابهم لتعين الرابع عشر من نيسان، وبالتالي اليوم الذي يقع فيه عيد الفصح، وكانت السنة اليهودية تتألف من اثني عشر شهرًا قمريًّا في السنين البسيطة، ومن ثلاثة عشر شهرًا في السنين الإضافية، وكانت سنتهم الإضافية تعود سبع مرات في مدة تسعة عشر عامًا، وكانوا يزيدون في هذه السنوات الإضافية «أمبوليسمية» شهرًا آخَر مؤلَّفًا من تسعة وعشرين يومًا، يسمونه «وآذار» أي آذار الثاني، لتقريب السنة القمرية من السنة الشمسية، وكانت كنيسة الإسكندرية قد غضت النظر عن حساب اليهود، واتخذت لنفسها قاعدة خاصة جعلت عيد الفصح يقع بعد أول بدر بعد اعتدال الربيع في الحادي والعشرين من آذار، ونتج عن تشبُّث كلٍّ من الكنيستين الشرقيتين بطريقتها الخاصة فرقٌ في موعد الفصح؛ فقد يسبق عيد الفصح الأنطاكي العيد نفسه الإسكندري بشهر كامل. وبعد أن

---

[٥٥] Bardy, G., op. cit., III, 86.

[٥٦] Théodoret, Hist. Ecc., I, 12; Socrates, Hist. Ecc., I, 8; Saint Hilaire, De Synod., 84.

أصغى أعضاء المجمع إلى حجج الفريقين أقروا وجوب الاحتفال بهذا العيد العظيم في يوم واحد في جميع الكنائس، وأوجبوا اتباع قاعدة الإسكندرية وروما.[٥٧]

وسن المجمع المسكوني الأول عشرين قانونًا لنظام الكنيسة، فقضى القانون الثامن بقبول النوفاتيين في الكنيسة الجامعة، شرط أن يعترفوا كتابةً بعقيدة الكنيسة، وأن يشاركوا ذوي الزيجة الثانية والساقطين في الاضطهاد، وقضى هذا القانون نفسه بالاعتراف برسامة هؤلاء وبأسقفية أساقفتهم الرسمية إذا رضي بذلك أسقف الأبرشية الأرثوذكسي، وأجاز القانون التاسع عشر عودةَ أتباع بولس السميساطي إلى حضن الكنيسة شرط اعتمادهم ثانيةً، وأوجب الاعتراف برسامة هؤلاء فور الانتهاء من تعميدهم.[٥٨]

وأوجب القانون الأول قطع الإكليريكي الذي يجبُّ نفسه، وعدم انتداب أي علماني لممارسة الكهنوت ما لم يكن قد جبَّه الأطباء لمرض أو شوَّهه المضطهدون، ومنع القانون الثاني قبول الحديثين في الإيمان في مصاف الإكليريكيين. وقضى التاسع والعاشر برفض الكهنة الذين رسموا بغير فحص أو خلافًا للقانون، وبقطع الذين جحدوا الإيمان ورُسموا دون أن يعرف بذلك راسموهم.

وبحث المجمع في القوانين: الثالث، والثالث عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر؛ في تصرُّفات رجال الإكليروس، فقضى الثالث ألا يساكن الأسقف أو القسيس أو الشماس امرأةً غير والدته أو شقيقته أو خالته أو عمته أو مَن لا تدور حولها أية شبهة، وأوجب الثالث عشر مناولة الذين يطلبون القربان المقدس وهم في حالة الاحتضار، ومنع الخامس عشر والسادس عشر الإكليروس من مغادرة كنائسهم والانتقال إلى كنيسة أخرى، وأوجب بطلان الرسامة التي يقلدها أسقف شخصًا من كنيسة أخرى دون موافقة أسقفها، ومنع السابع عشر الإكليروس عن الاتجار بالمال بالربى، وحرَّم الثامن عشر جلوس الشمامسة بين الكهنة وتقديم القربان لهم.

وحضَّ القانون الرابع على اشتراك جميع أساقفة الأبرشية في سيامة أسقف من الأساقفة، وأجاز سيامته من ثلاثة معًا بعد موافقة الغائبين، وأوجب موافقة المتروبوليت

---

[٥٧] Duchesne, L., La Question de la Pâque au Concile de Nicée, Rev. Quest. Hist., 1880, 1 ff; Daunoy, F., Question Pascale au Concile de Nicée, Echos d'Orient, 1925, 424–444; Théodoret, Hist. Ecc., I, 9; Socrates, Hist. Ecc., I, 9.

[٥٨] Bardy, G., Paul de Samosate, 390–404.

وتصديقه، وقضى القانون الخامس عدم قبول الممنوعين من الشركة في الأبرشية الواحدة في شركة أبرشية أخرى، وأوجب لهذه المناسبة التئام أساقفة الأبرشية في مجمع محلي مرتين في كل سنة في الربيع وفي الخريف.

وجاء في القانون السادس «بأن تكون السلطة في مصر وليبية والمدن الخمس لأسقف الإسكندرية؛ لأن هذه العادة مرعية الإجراء للأسقف الذي في رومة أيضًا، وعلى غرار ذلك فليحفظ التقدم للكنائس في أنطاكية وفي الأبرشيات الأخرى.» وجاء في القانون السابع: «أنه جرت العادة والتسليم أن يكون الأسقف الذي في إلِيَّة أي أوروشليم ذا كرامة، فلتكن له المتبوعية في الكرامة.»

وختم المجمع أعماله في التاسع عشر من حزيران السنة ٣٢٥، ووافق هذا التاريخ أو كاد يوافق إكمال السنة العشرين لتسلم قسطنطين أزمة الحكم، فدعا الإمبراطور الأساقفة إلى مأدبة كبيرة في قصره،[٥٩] ثم حضر حفلة الختام وألقى فيها كلمة، حض بها الأساقفة على التفاهم والسلم والمحبة، وعلى التعاضد في نشر الإيمان بين الوثنيين،[٦٠] وقدَّم لهم الهدايا كل بقدر استحقاقه، وأمر بتوزيع الحنطة على الكنائس لسد رمق الفقراء والمساكين.

تدمير هيكل أفقا (٣٢٥)

وأمر قسطنطين بتهديم المعابد الوثنية التي اشتهرت بفسقها كما سبق وأشرنا، «فعلم بما نصبه إبليس من الأشراك في فينيقية لصيد النفوس، فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة، معبدًا تحدق به غيضة، وكان المعبد قد أقيم لبعض الأصنام الدنسة يُدْعَى الزُّهرَة، يتوارد إليه البغايا وأهل الفجور، فأضحى بذلك أشبه بماخور منه بمعبد ديني، ولم يتجاسر أحد من أهل الفضل أن يدخل إليه ليتحقق صحة ما تتناقله الألسن، بَيْدَ أن قسطنطين وقف على حقيقة الأمر، فرأى من أخص واجباته أن يقوِّض أركان ذلك الزون النجس، فأمر عمَّاله بأن يهدموا ذلك المقام ويكسروا أصنامه، ويتلفوا ما حُمِل إليه من الهدايا النفيسة، فأرسلت إلى أفقا فئة من الجند نفذوا أوامر الملك ولم

[٥٩] Eusèbe, Vit. Con., III, 21.

[٦٠] Théodoret, Hist. Ecc., I, 11.

يبقوا ولم يذروا، وكان ذلك في السنة ٣٢٥، أما سكان أفقا فأمروا بأن يبارحوا مساكنهم فاستوطنوا بعلبك.»[٦١]

اكتشاف الصليب المقدس (٣٢٦)

وقام قسطنطين في مطلع السنة ٣٢٦ إلى رومة؛ ليحتفل فيها كما احتفل في نيقوميذية بعيده العشرين، وكانت والدته القديسة هيلانة قد استقرت في رومة، وتمتعت بلقب أوغسطة، وأثرت ثراء كبيرًا، فعزمت في هذه السنة على القيام برحلة إلى فلسطين للتبرك بزيارة الأماكن المقدسة، فغادرت رومة في أواخر الصيف، واتجهت شطر فلسطين بحرًا، وكان قسطنطين قد فاوض مكاريوس أسقف أوروشليم في إقامة كنيسة لائقة بالسيد المخلص في جلجثة تكون أفضل الكنائس، فاستحثت القديسة الأسقف على إتمام هذا العمل، وكان قد سبق للنصارى أن أقاموا في القرن الثالث بناء مثمن الأضلاع والزوايا، فوق المذود الذي وُلِد فيه السيد في بيت لحم، فأضافت هيلانة إلى هذا المثمن بازيليقة فخمة، وفعلت مثل هذا عند كهف الصعود.

وعند انتهاء القرن الرابع بدأ النصارى يتناقلون خبرًا، مؤداه أن القديسة هيلانة بعد تفتيش دقيق وعناء شديد وجدت ثلاثة صلبان في جلجثة، وأنها أحبت أن تتعرف إلى صليب السيد منها، فلمست بها جسد مريض شاب، وانتقت منها ذاك الذي شفى المريض. وممَّا تنوقل أنها لدى عودتها أذابت مسامير الصليب في معدن خوذة قسطنطين ابنها، والآخر في لجام حصانه، كما أنها وزعت عود الصليب على كنائس عدة.[٦٢]

حقد الآريوسيين ومجمع أنطاكية (٣٣٠)

ولم يتمكن المجمع المسكوني الأول من استئصال بذور الشقاق، فإنه عندما عاد بعض الأساقفة أعضاء المجمع المسكوني الأول إلى أبرشياتهم، وزال جو أكثرية الأعضاء، شعروا

---

٦١ Eusèbe, Vita Con., III, 55.

٦٢ Rufin, Hist. Ecc., I, 7–8; Sozomène, Hist. Ecc., II, 1; Théodoret, Hist. Ecc., I, 17; Diehl, E., Insc. Lat. Christ, Vet., 2068, Tocqueville; Favez, C., Episode de l’Invention de la Croix, Rev. Etudes Lat., 1932, 423.

بشيء من الحرية، فعادوا إلى الكلام عن المساواة في الجوهر، وأوَّلوا نص الإيمان النيقاوي، وجرؤ ثيودوتوس أسقف اللاذقية على مثل هذه الأقاويل أكثر من غيره، وعلم قسطنطين بذلك فكتب إلى ثيودوتوس في خريف السنة ٣٢٥ يبين له سوء العاقبة، ويحضه على الاستمساك بالإيمان الطاهر؛ ليحظى بالمكافأة في الحياة الأبدية،[٦٣] وحرر رئيس كنيسة أنطاكية أفستاثيوس الورع إلى أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، يؤنبه على التبديل بعقيدة نيقية، فغضب أفسابيوس وكتب إلى خليفة الرسولين يتهمه بالسبلنة Sabellianisme؛ أيْ بالقول بما قال به سبيليوس الكافر، الذي جحد بالثالوث الأقدس فقال بأن الله أقنوم واحد،[٦٤] وذلك لتمسك أفستاثيوس بالمساواة في الجوهر.

وكان أفسابيوس أسقف نيقوميذية مقبول الشفاعة في بلاط نيقوميذية، فإن صوزومينس المؤرخ يقول إن قسطندية أخت قسطنطين أوصت أخاها، وهي على فراش الموت بكاهن آريوسي كان قد أصبح معلم ذمتها، وإن هذا الكاهن قدم أفسابيوس إلى قسطنطين،[٦٥] وكانت هيلانة أم قسطنطين من بنات دريبانوم Derpanum في بيثينية، وكانت بلدة دريبانوم قد أصبحت مثوًى لوقيانوس الشهيد، وكان قبره قد أصبح مزارًا فيها، وكانت هيلانة شديدة العناية بهذا المزار، وكان أفسابيوس أسقف نيقوميذية أحد تلامذة هذا الشهيد كما سبق وأشرنا، وشاركه في التلمذة ثيوغينس أسقف نيقية، فلما أمر قسطنطين بإبعادهما إلى غالية لتمسكهما بآراء آريوس، شفعت هيلانة لهما عند ابنها، فقبل شفاعتها وأعادهما إلى مراكزهما في السنة ٣٢٨.[٦٦]

وما إن عاد أفسابيوس إلى أبرشية نيقوميذية وتسلم مقاليد أمورها، حتى استأنف نشاطه، وخرج يسعى لتعليم مبادئه، وكان عالي الهمة، ماضي العزيمة، ذا علم ودراية وحنكة ومراوغة، فتحاشى الطعن المباشِر في دستور نيقية، ولم يتلفظ بشيء من عبارات آريوس، ولكنه ذكَّر المؤمنين بسبيليوس وهرطقته وتخوَّف من الوقوع فيها، وأشار بلطف زائد إلى وجه التشابه بين عقيدة نيقية والقول بالمساواة في الجوهر، وبين قول سبيليوس بأن الله أقنوم واحد لا ثلاثة.

---

٦٣ .Gelase, Hist. Ecc., III, App. 2

٦٤ .Socrates, Hist. Ecc., I, 23

٦٥ .Sozomène, Hist. Ecc., II, 16-17, III, 13

٦٦ Batiffol, P., Paix Const., 366-367; Bardy, G., Réaction Eusèbienne, Fliche et Martin, op. .cit., III, 100-101

وكان أفستاثيوس رئيس كنيسة أنطاكية عالمًا لاهوتيًّا كبيرًا درس في أنطاكية، فأصبح أحد مصابيحها النيرة، ثم صار أسقفًا لحلب، فجاهد في سبيل الإيمان في إبان الاضطهاد العظيم، وجلس على كرسي أنطاكية في أوائل السنة ٣٢٥، فقاوم الآريوسية وكتب ضدها، وظهرت عظمة جهاده في المجمع النيقاوي، فترأس جلساته[٦٧] وأصبح في نظر الآريوسيين أول أعدائهم وأشدهم خطرًا، فرأى أفسابيوس النيقوميذي أن يبدأ بتحطيم هذه الشخصية الكبيرة، فزار أنطاكية في السنة ٣٣٠ بحجة رؤية كنيستها الجديدة المذهبة، ورافقه في زيارته هذه شريكه في الآريوسية والمنفى ثيوغينس أسقف نيقية، فرحَّب بهما أفستاثيوس وزار معهما جميع الكنائس والأماكن الأثرية في أنطاكية، ولم يدرِ بمكرهما، فانتهزا فرصة وجودهما في أنطاكية للاجتماع بزعماء الآريوسية فيها وتدبير المكيدة على خليفة الرسولين،[٦٨] ثم غادرَا أنطاكية إلى أوروشليم، واجتمعا بأفسابيوس أسقف قيصرية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد، ولا بدَّ وأن يكونا قد اجتمعا أو اتصلا بثيودوتوس أسقف اللاذقية، وقرَّ قرارهم على اجتماع أسقفي في أنطاكية للحطِّ من قدر أفستاثيوس وتنزيله عن كرسيه الرسولي، وتوافدوا على عاصمة النصرانية في الشرق واجتمعوا، فاتهم كيروس أسقف حلب رئيسه بالسبلنة واتهمه غيره بالفجور، وكانوا قد تآمروا في ذلك مع امرأةٍ كان قد فجر بها رجلٌ يُدْعَى أفستاثيوس الحداد، وحلَّ بهذه المرأة مرض وبيل واشتدت وطأته عليها، فكشفت سرَّ المؤامرة ولكن بعد فوات الفرصة. ومما قاله هؤلاء المتآمرون عن هذا الحبر الجليل أنه انقبض عن هيلانة والدة قسطنطين لدى مرورها بأنطاكية؛ لأنها أكرمت لوقيانوس الشهيد المدفون في بلدتها، واتخذوا قرارًا بخلعه ورفعوه إلى قسطنطين، فنفاه الإمبراطور إلى تريانوبوليس في تراقية في طبقة من القسوس والشمامسة، ثم أمر بنقله إلى فيليبي، وبقي فيها حتى انطلقت نفسه الزكية في السنة ٣٣٧.[٦٩]

وتحلى أفستاثيوس بالدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية، فصنَّف كتابًا في قمع الآريوسية، ودبج رسالات في تفسير الأيام الستة والمزامير والنفس، ولم يبقَ من مصنفاته سوى رسالته

---

[٦٧] Théodoret, Hist. Ecc., I, 8; Socrates, Hist. Ecc., I, 24, II, 9.

[٦٨] Théodoret, Hist. Ecc., I, 21.

[٦٩] Cavallera, F., Le Schisme d’Antioche, 38–41; Loofs, F., Paulus von Samosata, 295–302.

في عرَّافة عين دور، وفيها يفند هذا العلَّامةُ الصالح رأيَ أوريجانس ويدحض طريقته الرمزية،[٧٠] وأعجب بعض الآباء بتوقد خاطره وسلاسة إنشائه.[٧١] وجاء في الدرر النفيسة لغبطة البطريرك أغناطيوس أفرام عن ابن كيفا أن أفستاثيوس وضع ليتورجية مطولة.

بافلينوس وإفلاليوس

وقام مكان أفستاثيوس بافلينوس Paulinos أسقف صور، وصديق أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، ولكنه توفي بعد ستة أشهر (٣٣٠-٣٣١)،[٧٢] وجاء بعد بافلينوس إفلاليوس Eulalios، فخلا مكانه في السنة الثانية أو الثالثة من ولايته.[٧٣]

تدخُّل قسطنطين

وكان لأفستاثيوس القديس الجليل أنصار كثيرون في أنطاكية نفسها وفي الأبرشيات التابعة لها، وكان له أيضًا أعداء متعصبون، وأبى أتباعه الانقياد إلى الرؤساء الآريوسيين، فاعتزلوهم برئاسة القس بافلينوس وصلُّوا في الكنيسة القديمة.

فلما خلا مكان إفلاليوس (٣٣٢) ازداد الشقاق في الكنيسة، وتعقدت الأمور فأصبح من الصعب جدًّا إيجاد خلف يرضي به جمهور الشعب، فتدخل الإمبراطور، وكتب إلى صديقه أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين أن يتولى أمور كنيسة أنطاكية، وكان أفسابيوس كما سبق وأشرنا ملِقًا مصانعًا، فداور الإمبراطور والكنيسة معًا، وتظاهر بالمحافظة على القانون الكنسي الذي منع انتقال الأساقفة من أبرشية إلى أبرشية أخرى واعتذر، فقبل قسطنطين اعتذاره وشكر له تواضعه، وكتب إلى الأساقفة مقترحًا انتخاب القس جاورجيوس خادم كنيسة الرستن Arethusa وإفرونيوس Euphronios خادم كنيسة قيصرية قبدوقية، وكان الأول قد وقع تحت حرم صدر عن ألكسندروس الإسكندري،

---

[٧٠] Théodoret, Hist. Ecc., I, 8.

[٧١] Sozomène, Hist. Ecc., II, 19.

[٧٢] Philostorge, Hist. Ecc., III, 15; Cavallera, F., op. cit., 67–69.

[٧٣] Théodoret, Hist. Ecc., I, 22; Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 5.

أما الثاني فإنه انتمى آنئذٍ إلى جماعة اليسوبيين أعداء نيقية المتسترين، فانتخب الأساقفة إفرونيوس (٣٣٣) أسقفًا على أنطاكية ورئيسًا لكنيستها.[٧٤]

بدء المشادة بين الكنيسة والدولة

وعلى الرغم من الانقسام الذي حل في كنيسة أنطاكية حول قضية آريوس والآريوسية، وحاجة الطرفين المتخاصمين إلى السلطة المدنية العليا، فإن أساقفة أنطاكية تخشوا تدخُّلَ هذه السلطة في شئون الكنيسة وتوجسوا خوفًا، واتخذوا في السنة نفسها التي أقاموا فيها إفرونيوس رئيسًا عليهم قرارات من شأنها وضع حدٍّ لهذا التدخل، والإشارة هنا إلى القوانين الأنطاكية الخمسة والعشرين، التي كانت تُعتبَر فيما مضى من أعمال مجمع التكريس الأنطاكي (٣٤١)؛ فالقانون الرابع من هذه القوانين يمنع كل مجمع لاحق من إعادة أسقف إلى منصبه إذا سبق لهذا الأسقف أن حُرِمَ من مجمع سابق، وظل يمارس صلاحياته على الرغم من هذا الحرم، والقانون الحادي عشر يمنع كل إكليريكي من رفع قضاياه إلى الإمبراطور بدون موافقة أساقفة الأبرشية ومتروبوليتها، والقانون الثاني عشر يوجب على الأساقفة الذين يقعون تحت حرم مجمع ألا يزعجوا الإمبراطور برفع قضيتهم إليه، فإن فعلوا ارتكبوا ذنبًا لا يُغتفَر، وأضاعوا كل أمل في العودة إلى مناصبهم، وعلى الرغم من أنه ليس في هذه القرارات ما يمنع المجامع من عرض أمورهم على مسامع الإمبراطور، فإن هذه القرارات تُعتبَر بحق أول خطوة رسمية نحو استقلال الكنيسة في إدارة شئونها.[٧٥]

عودة آريوس من المنفى

وفي خريف السنة ٣٣٤ كتب قسطنطين إلى آريوس نفسه يدعوه إلى المثول بين يديه، ويؤكد استعداده لإعادته إلى وطنه،[٧٦] فعاد آريوس ومثل بين يدي الإمبراطور، وأكد

[٧٤] Eusèbe, Vit. Con., III, 62; Sozomène, II, 19; Devresse, R., cp. cit., 5; Bardy, G., Réaction, op. cit., III, 103.

[٧٥] Greenslade, S. L., Church and State, (London, 1954), 38–39; Schwartz, E. Zur Gesch. des Athanasius, VIII, 389–397; Bardy, G., Antioche, Dict. Droit Can., I, col. 589–598.

[٧٦] Socrates, Hist. Ecc., I, 25; Bardy, G., Réaction, op. cit., III, 107, n. 3.

«أرثوذكسيته» واعترف أن الابن مولود من الآب قبل كل الدهور، ولكنه لم يقل شيئًا عن المساواة في الجوهر Homoousios، ثم التمس قبوله في الكنيسة، فأحاله الإمبراطور على مجمع ينعقد في صور.[٧٧]

مجمع صور (٣٣٥)

وتوفي ألكسندروس أسقف الإسكندرية في الثامن عشر من نيسان سنة ٣٢٨، وخلفه في الرئاسة أثناسيوس القديس، وكان ملاتيوس زعيم المعارضة في كنيسة مصر قد توفي أيضًا وخلفه في المعارضة يوحنا أرقف Arkaph، وكان يوحنا من أبرع سماسرة الشقاق وتجار الفساد، فاندسَّ إلى الإمبراطور وتناول أثناسيوس عنده وادَّعى أن أسقف الإسكندرية فرض على المؤمنين الضرائب، وأمدَّ فيلومينوس الخائن بالمال، وأنه أمر بكسر كأس الأفخارستية الذي كان يمارس السر به الكاهن أسخيراس؛[٧٨] ويرى رجال البحث أن أفسابيوس النيقوميذي مسئول عن هذا الشغب، وأنه هو الذي أزكى نار الشقاق في مصر بعد وفاة ألكسندروس وملاتيوس،[٧٩] واستدعى قسطنطين أسقف الإسكندرية إليه، فذهب أثناسيوس إلى نيقوميذية وردَّ هذه التُّهَم، فاقتنع الإمبراطور وأعاد الأسقف إلى كنيسته قبيل فصح السنة ٣٣٢، وفي أواخر السنة ٣٣٣ أو أوائل السنة ٣٣٤ عاد يوحنا أرقف وأتباعه إلى المشاغبة، فاتهموا أثناسيوس بقتل أرسانيوس أحد أساقفتهم، فأوفد قسطنطين أخاه دلماتيوس للتحقيق في هذا الحادث المزعج، وقام دلماتيوس بالمهمة الموكولة إليه، فوجد أرسانيوس حيًّا في أحد الأديرة، ونظر في قضية كأس الأفخارستية، واتصل بأسخيراس نفسه، فنفى أسخيراس الخبر وكتب أنَّ شيئًا من هذا لم يحدث،[٨٠] واغتبط قسطنطين بما ثبت، وكتب إلى أثناسيوس يهنئه ويعنِّف المشاغبين ويوجعهم لومًا،[٨١] وكان

---

[٧٧] Sozomène, Hist. Ecc., II, 27; Socrates, Hist. Ecc., I, 25–26; Gwatkin, H. M., Studies of Arianism, 90 ff.

[٧٨] Saint Athanase, Epist. Fest. IV.

[٧٩] Bardy, G., Politique Relig. de Constantin après le Concile de Nicée, Rev. Sc. Relig., 1928, 538, n. 2.

[٨٠] Saint Athanase, Apologia contra Arianos, Let. 44, 47.

[٨١] Ibid., 48.

الإمبراطور قد دعا الأساقفة إلى مجمع في قيصرية فلسطين في ربيع هذه السنة نفسها (٣٣٤)، فلما ثبتت براءة أثناسيوس كتب إلى الأساقفة أن يعودوا إلى مراكز أبرشياتهم.

وقربت السنة ٣٣٥ فأحب الإمبراطور أن يحتفل فيها بمرور ثلاثين عامًا على تسلُّمه أزمة الحكم، ورأى أن كنيسة القيامة Anastasis التي كان قد أمر بإنشائها قد تم بناؤها على أكمل وجه، وكاد يلمس سلمًا في الكنيسة الجامعة، ولم يَبْقَ في نظره من عقبة في سبيل هذا السلم سوى التفاهم بين آريوس وأثناسيوس، فدعا إلى مجمع كبير في صور للنظر في موقف هذين الزعيمين في صيف السنة ٣٣٥، وأمر بانتقال الأساقفة بعد الانتهاء من أعمالهم إلى أوروشليم ليحتفلوا بمرور الثلاثين عامًا، وليتوجوا هذا الاحتفال بتكريس كنيسة القيامة ورفع الصليب المقدس فوقها.[٨٢]

وكان قد توفي إفرونيوس أسقف أنطاكية في السنة ٣٣٣، فخلفه فلاكيلوس Flacillus صديق أفسابيوس القيصري، فقام فلاكيلوس إلى صور، واجتمع حواليه عدد من الأساقفة أخصام أثناسيوس وأركان الآريوسية، أمثال: أفسابيوس النيقوميذي، وأفسابيوس القيصري، وثيوغنيس النيقاوي، وماريس الخلقيدوني، ودُعِيَ إلى الاجتماع مع هؤلاء الغلاة عددٌ من الأساقفة المحايدين أمثال ألكسندروس أسقف تسالونيكية، فبلغ عدد الجميع ستين أسقفًا، وأمَّ أثناسيوس صور على رأس وفد مصري مؤلَّف من تسعة وأربعين أسقفًا، فلم يُسمَح لهم بالاشتراك في الأعمال،[٨٣] ومثَّل قسطنطين القومس فلافيوس ديونيسيوس، وحافَظَ على النظام عددٌ من الجند.[٨٤]

واتهم الملاتيوسيون أثناسيوس بأمورٍ، أهمها: عبثه بكأس الأفخارستية، وضغطه على الإكليروس، وعسفه وجوره. وأراد بعض الأساقفة أعضاء المجمع أن يجعلوا من قضية كأس الأفخارستية تهمة أساسية، فاقترحوا إيفاد لجنة إلى مصر للتحقيق في هذه القضية، فقبل أثناسيوس بذلك شرط ألَّا تُؤلَّف هذه اللجنة من أخصامه، ولكن المجمع أبى أن يصغي لهذا الرجاء، وأوفد إلى مصر أساقفة آريوسيين منذ اللحظة الأولى، وأجرت اللجنة تحقيقًا مغرضًا، وقدمت تقريرًا مكدرًا مؤلمًا؛[٨٥] ويلوح لبعض رجال الاختصاص أن حرص

---

[٨٢] Eusèbe, Vit. Con., IV, 42; Gélase de Cyzique, Hist. Ecc., III, 17; Théodoret, Hist. Ecc., I, 29; Batiffol, P., Paix Const., 378–379.

[٨٣] Saint Athanase, Apolog. contra Arianos, 79; Socrates, Hist. Ecc., I, 28.

[٨٤] Saint Athanase, Apolog., 8.

[٨٥] Sozomène, Hist. Ecc., II, 25.

أثناسيوس على العقيدة الصالحة واندفاعه في سبيلها، أخرجاه في بعض الأحيان عن جادة الاعتدال في معاملة الملاتيوسيين، ويستدلون على هذا بما جاء في بعض أوراق البردي، التي تعود إلى ربيع السنة ٣٣٥ نفسها.[٨٦] وليس هنالك من الأدلة التاريخية ما يحملنا على القول مع روفينوس المؤرخ[٨٧] بأن المجمع الصوري حقق أيضًا في تهمة فجور، واشتدت الدعاية في صور نفسها ضد أثناسيوس، فهاج هائج السكان، وتوافدوا على قاعات المجمع متهمين أثناسيوس بالسحر والقساوة، مطالبين بإنزال أشد العقوبات، وطالب جمهور الأساقفة المصريين الذين لم يشتركوا في أعمال المجمع برفع القضية إلى مسامع الإمبراطور، وأيدهم في مطلبهم ألكسندروس أسقف تسالونيكية، ولكن معتمد الإمبراطور اكتفى بِحَثِّ أعضاء المجمع على الاتزان والاعتدال.[٨٨]

وأيقن أثناسيوس باليأس مما طلب، وتقوَّضت حصون آماله، فانسلَّ من صور خفية وانطلق نحو القسطنطينية،[٨٩] فأصدر عليه المجمع حكمًا غيابيًّا قضى بعزله من منصبه، وحرر المجمع بذلك رسالة سلامية وجهها إلى جميع أساقفة المسكونة، مبينًا تغيُّب أثناسيوس عن مجمعي قيصرية وصور، وامتناعه عن الإجابة عما وُجِّهَ إليه من تُهَم راجيًا قطعه من الشركة.

ووصل أثناسيوس إلى القسطنطينية وطلب مقابلة الإمبراطور فردَّ طلبه، فاغتنم خروج قسطنطين للنزهة على ظهر جواده، واعترض سبيله والتمس عدله، فأصغى الإمبراطور إليه وسمع شكواه، ثم استدعى الأساقفة المجتمعين في صور، فمثل بين يدَيْه أفسابيوس النيقوميذي وأفسابيوس القيصري وأربعة غيرهما، ولم يذكروا قضية كأس الأفخارستية وحصروا شكواهم في أن أثناسيوس هدَّدَ بمنع تصدير الحنطة من الإسكندرية إلى القسطنطينية، وعبثًا حاوَلَ أثناسيوس إقناع الإمبراطور بأن شيئًا من هذا لم يصدر عنه، وأمر قسطنطين بإبعاده؛ فنفي إلى تريف Trèves في غالية.[٩٠]

---

[٨٦] Bardy, G., Réaction, op. cit., III, 109, n. 2.

[٨٧] Rufin, Hist. Ecc., X, 18.

[٨٨] Sozomène, Hist. Ecc., II, 25.

[٨٩] Ibid.

[٩٠] Saint Athanase, Apolog. contra Arianos, 86-87; Sozomène, Hist. Ecc., II, 28; Socrates, Hist. Ecc., I, 34.

كنيسة القيامة وعيد الصليب

وقضى برنامج الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على حكم قسطنطين أن ينتقل الأساقفة المجتمعون في صور إلى أوروشليم، ليكرسوا كنيسة القيامة التي أمر بإنشائها قسطنطين،[٩١] فاجتمع في أوروشليم لهذه الغاية عدد كبير من الأساقفة، والتف حولهم ألوف من المؤمنين، وكان بين الأحبار الأرثوذكسيين كلٌّ من ألكسندروس أسقف تسالونيكية، وميليس أسقف شوشن، ويعقوب أسقف نصيبين. وفي الثالث عشر من أيلول احتفل الأساقفة والمؤمنون بالقداس الإلهي، وصلوا لتأييد المملكة وسلام الكنيسة، وفي الرابع عشر من أيلول احتفلوا بارتفاع الصليب المقدس،[٩٢] ومنذ ذلك الحين يصعد أسقف أوروشليم في الرابع عشر من أيلول إلى أعلى الكنيسة، ويرفع الصليب الذي مات عليه المخلص للشعوب أجمعين ليشاهدوه، مقدمين له السجود والتكريم، ذاكرين رفعه على يد القديسة هيلانة.

> الصليب حافظ كل المسكونة، الصليب جمال الكنيسة، الصليب عزة الملوك، الصليب ثبات المؤمنين، الصليب مجد الملائكة وجرح الشياطين، اليوم يرفع والعالم يتقدس؛ لأنك أيها الجالس مع الآب والروح القدس لما بسطت يديك عليه اجتذبت العالم إلى معرفتك، فأهِّل المتكلين عليك لمجدك الإلهي. (الميناون)

آريوس يلفظ أنفاسه (٣٣٦)

ولم ترضَ مصر عن أعمال المجمع الصوري واحتجت عليه، وكتب القديس أنطونيوس إلى قسطنطين أكثر من مرة يرجوه العفو عن تلميذه القديس أثناسيوس وإعادته إلى أبرشيته، فأجاب قسطنطين أنه لا يعقل أن يجمع عدد كبير من الأساقفة المتنورين الحكماء على إدانة بريء، وأن أثناسيوس كان في نظره وقحًا متعجرفًا مشاغبًا.[٩٣] وجاء في بعض المراجع الأولية أن آريوس أراد أن يعود إلى الإسكندرية، وأن الشعب لم يحتمل ذلك، فاقتدحت نار الفتنة، فأمر القيصر بمجيئه إلى القسطنطينية.[٩٤] وجاء أيضًا في بعض

[٩١] Eusèbe, Vit. Con., IV, 43–45; Abel, F. M., Hist. Palest., II, 267–270.

[٩٢] Eusèbe, Vit. Con., IV, 43–54.

[٩٣] Sozomène, Hist. Ecc., II, 31.

[٩٤] Rufin, Hist. Ecc., X, 11–12; Socrates, Hist. Ecc., I, 37; Sozomène, Hist. Ecc., II, 27.

هذه المراجع أن الآريوسيين اجتهدوا بإقناع أسقف القسطنطينية ألكسندروس الشيخ الجليل أن يقبل آريوس في الشركة، وأن هذا الحبر استمسك بالإيمان النيقاوي ورفض قبول آريوس، فأمره قسطنطين بذلك فالتجأ إلى الكنيسة، وجثا أمام المذبح باكيًا مبتهلًا، ومما جاء في هذه المراجع أنه عندما اجتمع أشياع آريوس ليدخلوا زعيمهم إلى الكنيسة، اضطرب آريوس واعتزل القوم لقضاء حاجته، فاندلقت أحشاؤه ومات فوقها (٣٣٦).[٩٥]

وفاة قسطنطين (٣٣٧)

واحتفل قسطنطين بعيد الفصح في الثالث من نيسان سنة ٣٣٧، ونالته الحمى فذهب إلى مياه معدنية قريبة يستحم فيها، ثم انتقل إلى أنقيرونة بالقرب من نيقوميذية، وكان يود أن يعتمد في مياه الأردن كما فعل السيد نفسه، ولكن الوقت عاجله فتقبل سرَّ المعمودية على يد أفسابيوس أسقف نيقوميذية، وخلع الأرجوان وألقاه جانبًا وتردى بالبياض، وفاضت نفسه يوم العنصرة في الثاني والعشرين من أيار سنة ٣٣٧، وحُنِّطَ جسمه ووُضِع في تابوت من ذهب، ونُقِل إلى القصر في القسطنطينية ليتقبل احترام الوجهاء، ثم عُرِض جثمانه في كنيسة الرسل حيث صلى الإكليروس عليه طوال الليل ودُفِن فيها،[٩٦] وخسرت الأرثوذكسية بوفاته أكبر مدافع عن دستور إيمانها النيقاوي.

وتوفي قسطنطين عن ذكور ثلاثة: قسطنطين الثاني، وقسطنديوس الثاني، وقسطنس، وحكم الثلاثة الإمبراطورية معًا، فتولى قسطنطين الثاني الغرب، وتولى قسطنديوس الثاني الشرق، أما قسطنس فإنه حكم إليرية وقسمًا من أفريقية، وطمع قسطنطين الثاني في ملك قسطنس الصغير، فحاربه ولكنه خرَّ صريعًا في أكويلية في السنة ٣٤٠، ثم تمرد الجند على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠؛ فأصبح قسطنديوس الثاني المالك وحده، وكان رجلًا عاقرًا لا وارث له، فاستدعى ابن عمه غالوس Gallus من منفاه ورفعه إلى رتبة قيصر، وأَمَّرَهُ على برايفكتورة الشرق وجعل مقره أنطاكية، ولكن غالوس هذا كان جافيَ الطبع فظَّ القلب قليلَ الرحمة، فطغى وتجبَّرَ وأرهب الناس إرهابًا،

---

٩٥ Gélase de Cyzique, Hist. Ecc., III, 15; Saint Athanase, Epist. de Morte Arii; Epist. ad Episcopos Aegypti et Libyae.

٩٦ Eusèbe, Vit. Con., IV, 66–71; Doelger, F. J., Konstantin und seine Zeit, 381 ff.

فاستدعاه ابن عمه الإمبراطور إليه في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأمر بقطع رأسه، وعندئذٍ طلب يوليانوس أخا غالوس وجعله قيصرًا على غالية.

الآريوسيون ورومة (٣٣٨)

ورضي قسطنطين الثاني عن أثناسيوس، فأذن له بالعودة إلى الإسكندرية في السابع عشر من حزيران سنة ٣٣٧، وشمل هذا العفو سائر الأساقفة المنفيين، ووصل أثناسيوس إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها، فاضطرب الآريوسيون وسعوا في الشرق والغرب معًا للاعتراف بسلطة مرشحهم بيستوس Pistus على كنيسة الإسكندرية وتوابعها، وكتبوا إلى جميع أساقفة المسكونة بذلك، وأوفدوا إلى يوليوس أسقف رومة كاهنًا اسمه مكاريوس وشماسين لإطلاعه على قرارات مجمع صور، وإقناعه بقانونية عملهم ووجوب اعترافه بأسقفهم،[٩٧] وعقد الأساقفة الأرثوذكسيون المصريون مجمعًا في السنة ٣٣٨ لدرس الموقف واتخاذ الإجراءات اللازمة، واجتمعوا في الإسكندرية واتخذوا قرارًا يؤيدون به أسقفهم أثناسيوس، ويجرحون في الوقت نفسه قرار مجمع صور، وحرروا رسالة سلامية بهذا كله، ووجهوها إلى يوليوس أسقف رومة وجميع أساقفة المسكونة،[٩٨] وإلى الأباطرة الثلاثة خلفاء قسطنطين.

ودعا يوليوس أسقف رومة زميله أثناسيوس إلى رومة، وأوفد إلى الشرق قسين يدعوان الأساقفة الآريوسيين وغيرهم إلى مجمع مسكوني في رومة للبت في القضية الماثلة، فرفض الأساقفة الآريوسيون في مطلع السنة ٣٤٠ اقتراح أسقف رومة، واحتجوا على إعادة النظر في قضيةٍ شرقيةٍ بتَّ فيها مجمع شرقي، وهددوا بقطع العلاقات معه إن هو اعترف بأثناسيوس،[٩٩] وأشهر الأساقفة الذين وقعوا هذا الاحتجاج فلاكيلوس أسقف أنطاكية، وأفسابيوس أسقف القسطنطينية، وكان هذا الأخير قد نجح في إبعاد بولس عن كرسي القسطنطينية، وحلَّ محله جاعلًا أمفيونوس خلفًا له في نيقوميذية، أما أفسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، فإنه توفي قبل هذا الاحتجاج.

[٩٧] Saint Athanase, Apolog. contra Arianos, 87, 19.

[٩٨] Saint Athanase, Apolog. contra Arianos, 3–19.

[٩٩] Ibid., 21–35; Sozomène, Hist. Ecc., III, 8; Bardy, G., Réaction, op. cit., III, 118–119.

وردَّ يوليوس ردًّا قويًّا على هذا الاحتجاج، مبينًا وجوب اطلاع «جميع» الأساقفة على القرارات المتخذة؛ ليشترك «الجميع» في إحقاق الحق، ويرى بعض علماء الكنيسة اللاتينية الشقيقة دليلًا في هذا الرد على سلطة رومة،[١٠٠] وهو توسع في الاستنتاج لا تقره قواعد المنطق، وجل ما يجوز قوله هو أن أسقف رومة طالَبَ في رده هذا بإعلام جميع أساقفة الكنيسة الجامعة وإشراكهم في إحقاق الحق، والاعترافُ بسلطة «الجميع» — أي المجامع المسكونية — حقيقةٌ تاريخية مسيحية ناصعة لا يختلف فيها اثنان.[١٠١]

تكريس كنيسة أنطاكية الكبرى (٣٤١)

وكان قسطنطين الكبير قد أمر بإنشاء كنيسة كبيرة فخمة في عاصمة النصرانية في الشرق، فبوشر في بنائها في السنة ٣٢٧ على الجزيرة بالقرب من القصر، وفي عهد أفستاثيوس الشهير،[١٠٢] وتوفي قسطنطين في السنة ٣٣٧، فتبنى هذا المشروع ابنه قسطنديوس الثاني، وقامت هذه الكنيسة مثمنة الأضلاع تعلوها قبة جميلة فدُعِيت الكنيسة المثمنة، ودُعِيت أيضًا الكروية والجليلة والذهبية.[١٠٣]

وتمَّ بناء هذه الكنيسة في أواخر السنة ٣٤٠ أو أوائل السنة ٣٤١، فتوافد الأساقفة إلى أنطاكية للاشتراك في تكريس هذا المعبد، وناهز عددهم المائة، ولا نعلم أسماءهم كلهم، وجل ما يجوز قوله هو أن أفسابيوس النيقوميذي دعا إلى هذا المجمع، وأن فلاكيلوس ترأس أعماله،[١٠٤] وأن الأساقفة المجتمعين بحثوا أقوال آريوس، فانقسموا إلى فئات ثلاث؛ فأعلن أفسابيوس وجماعته أنهم لم يتبعوا آريوس، وإنما نظروا فيما قاله، واقترحوا تعديلًا للفصل الأول من دستور نيقية والرجوع عن اللعنة التي جاءت في آخره. وقال آخرون بدستور نيقية ولكنهم رغبوا في تلطيفه، واقترحت فئة ثالثة تعديلًا مسكنًا مخدرًا في عباراته الإيجابية، موجبًا في ناحيته السلبية لعن السبلنيتين القديمة والجديدة،[١٠٥] وأقر

---

١٠٠ Batiffol, P., Paix Const., 422–431.

١٠١ Caspar, E., Gesch. des Papstlum, I, 151–154.

١٠٢ Eusèbe, Vit. Con. et Tricennalis, (Heikel), 98, 221.

١٠٣ Devresse, R., Patriarcat d’Antioche, 109, n. 3.

١٠٤ Ibid., 5, n. 3.

١٠٥ Saint Athanase, De Synodis, XXII–XXIV; Socrates, Hist. Ecc., II, 10; Sozomène, Hist. Ecc., III, 5.

المجمع هذا الاقتراح الأخير، وأعلن دستور إيمان أنطاكي شبيه بدستور نيقية قريب منه، ولكنه خالٍ من العبارة «مساوٍ للآب في الجوهر».

وأهم ما جاء في هذا الدستور الأنطاكي الجديد عن الابن الكلمة أنه إله من إله، وكل من كل، وواحد من واحد، تام من تام، وأنه غير قابل للتكييف وللتحول في الألوهية، وأنه «صورة تامة» لمجد الآب، كما أنه مظهر من مظاهر مشيئته وعظمته، وأن الآب هو آب حق، وأن الابن ابن حق، وأن الروح القدس روح حق، وأن هذه الأسماء لم تُذكَر عبثًا، بل تدل دلالة حقيقية على منزلة كلٍّ ممن تسموا بها وقوتهم ومرتبتهم، وأن هذه الأقانيم ثلاثة ولكنها واحد.[١٠٦] ومعظم هذا النص مأخوذ عن تعليم لوقيانوس المعلم الأنطاكي.[١٠٧]

وكان قسطنس لا يزال منهمكًا في أمور الغرب بعد مقتل أخيه قسطنطين الثاني، فكتب إلى أخيه قسطنديوس أن يوافيه بما استقر الرأي عليه في أنطاكية، فأوفد الآباء المجتمعون في أنطاكية كلًّا من: نرقيس أسقف بانياس Neronias، وماري أسقف خلقيذونية، وثيوذوروس أسقف هرقلية، ومرقس أسقف أرسوز Arethusa، إلى مقر الإمبراطور في تريف، وذلك في مطلع السنة ٣٤٢، وخشي أعضاء هذا الوفد ألا يرضى قسطنس عن نص قرار المجمع الأنطاكي، فنقلوا إليه ما اصطلح المؤرخون أن يسموه «دستور أنطاكية الرابع»، وقد جاء فيه فيما يظهر تأكيد لأزلية ابن الله، وتشبث بدوام ملكه، ولعنة لكلِّ مَن يقول إنه كان زمان أو وقت أو أزل قبل ولادة الابن.[١٠٨]

وقد يستغرب القارئ تعدد قوانين الإيمان في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة، ولا سيما بعد أن اتخذ المجمع المسكوني الأول قراره الشهير، ولكن الواقع التاريخي هو أن المجمع المسكوني الأول جعل من قراره هذا ردًّا على بدعة آريوس لا قانونًا للإيمان كاملًا مانعًا، وأنه ترك المجال مفتوحًا للقول بالقوانين المحلية القديمة المتوارثة عن الرسل.[١٠٩]

ومات آريوس وحل أصدق المواعيد بمعظم أتباعه الأولين، فاستصعب خلفاء هؤلاء مخالفة الآباء النيقاويين الثلاثمائة والثمانية عشر، واضطروا أن يعيدوا النظر فيما قاله

---

[١٠٦] Saint Athanase, De Synodis, XXIII; Saint Hilaire, De Synodis, XXIX; Sozomène, Hist. Ecc., III, 5.

[١٠٧] Bardy, G., Recherches sur Saint Lucien d'Antioche, 85–132.

[١٠٨] Saint Athanase, De Synodis, XXV.

[١٠٩] Bardy, G., Réaction, op. cit., III, 123.

السلف على ضوء التطورات الأخيرة، وأراد يوليوس أسقف رومة أن يستغل هذا التطور، فانتهز فرصة مثول الوفد الشرقي بين يدي الإمبراطور قسطنس للدعوة إلى مجمع جديد يحل قضية أثناسيوس المعلقة، ويجلس في سرذيكة أي صوفية على الحدود بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية، فاستوسط يوليوس الإمبراطور قسطنس، ورجاه أن يكتب إلى أخيه قسطنديوس محبذًا اجتماع الآباء لهذه الغاية، فقبل قسطنس وكتب بذلك.

مجمع سرذيكة (٣٤٣)

وقبل الآباء ذلك، فاجتمع في سرذيكة في خريف السنة ٣٤٣ مائة وسبعون أسقفًا، منهم ستة وسبعون شرقيون آريوسيون أو نصف آريوسيين، وأربعة وتسعون غربيون وشرقيون أرثوذكسيون مستقيمو الإيمان.[١١٠]

وكان فلاكيلوس أسقف أنطاكية قد توفي في السنة ٣٤٢، فأقيم بعده إسطفانوس رئيسًا على أنطاكية وتوابعها، وكان إسطفانوس كاهنًا في عهد أفستاثيوس، فأثم فاعلًا ما لا يحل له، فقطعه أفستاثيوس، فحاول رفع هذا الحرم فلم يُفلح، فانضم إلى الآريوسيين.[١١١] وترأس إسطفانوس وفد الشرق إلى مجمع سرذيكة، وانضوى تحت لوائه ستة وسبعون أسقفًا، أشهرهم: منوفنتس أسقف أفسس، وأكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين، وذيانيوس أسقف قيصرية قبدوقية، وثيودوروس أسقف هرقلية، وماري أسقف خلقيدونية. وتميَّزَ في المعسكر الأرثوذكسي هوسيوس الشيخ أسقف قرطبة، وأثناسيوس الوقور أسقف الإسكندرية، وماركلوس أسقف أنقيرة، ومثل يوليوس أسقف رومة كاهنان وشماس.[١١٢]

وأدرك الآريوسيون قلة عددهم، فسعوا لعرقلة أعمال المجمع، وطلبوا منذ اللحظة الأولى إبعاد أثناسيوس وماركلوس وأسكليباس عن جلسات المجمع؛ لأن مجمعًا سابقًا أقر خلعهم، ولأن إعادتهم إلى كراسيهم هي موضوع البحث، واعتبر الأساقفة الأرثوذكسيون خلع هؤلاء لاغيًا، فاعتزل الآباء الشرقيون عن الاشتراك في البحث، وعقدوا جلسة منفردين

---

١١٠ Feder, A. L., Studien zu Hilarius von Poitiers, II, 12–100.

١١١ Sozomène, Hist. Ecc., II, 10; Socrates, Hist. Ecc., II, 15; Le Quien, II, 711.

١١٢ Saint Athanase, Apol. contra Arianos, XLVIII, Hist. Arian., XV.

عن سائر أعضاء المجمع، ثم انتقلوا ليلًا إلى فيليبوبوليس متخذين عذرًا بشرى انتصار قسطنديوس على الفرس، وتخلَّف عن الوفد الشرقي أستيريوس أسقفُ البتراء وأسقف فلسطيني يُدعَى آريوس، واشتركا في أعمال مجمع سرذيكية.[١١٣]

وبرأ الآباء الأرثوذكسيون أثناسيوس وأسكليباس وماركلوس، وقطعوا كلًّا من باسيليوس أسقف أنقيرة وغريغوريوس أسقف الإسكندرية، وكوينتيانوس أسقف غزة، واتخذوا قرارات مماثلة، فحكموا بالقطع على جاورجيوس أسقف اللاذقية، وأكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين، ونرقيس أسقف بانياس، وأسطفان أسقف أنطاكية وغيرهم؛ وبحثوا دستور الإيمان فاقترح بعض الآباء نصًّا جديدًا، هو في زعمهم أدق من نص نيقية وأوسع، يؤكد وحدة الجوهر، ويبين أن الآب غير منفصل عن الابن، ويثبت أن الذي تألم ومات ثم قام هو الإنسان الذي وُلِد من مريم العذراء لا الله؛[١١٤] وفي هذا النص المقترح خطر على الإيمان القويم، فاعترض أثناسيوس القديس على هذا النص الجديد وأكَّدَ أن النص النيقاوي يفي بالغرض المقصود، وحذَّر الآباء من التمادي في البحث كي لا يجرأ على الاسترسال في الكلام مَن لا يشبع منه،[١١٥] فاقتنع الآباء وعدلوا.

ووضع الآباء المجتمعون في سرذيكة قوانين منعت تبديل الأبرشيات، وحضت الأساقفة على البقاء في مراكزهم وعدم التغيب عنها، وحذرت من شر اللجوء إلى البلاط الإمبراطوري وغير ذلك من القوانين الغربية المحلية.

وجدد الآباء الشرقيون في أثناء وجودهم في فيليبوبوليس الحكم على أثناسيوس وماركلوس، وقطعوا يوليوس أسقف رومة وهوسيوس أسقف قرطبة وغيرهما، وأقروا ثانيةً دستور الإيمان الأنطاكي.

في أنطاكية (٣٤٤)

وأوفد الآباء المجتمعون في سرذيكة فيكنديوس Vinccnt أسقف كابوا، وإفراتاس Euphratas أسقف كولون إلى أنطاكية؛ لمقابلة قسطنديوس وإطلاعه على المقررات

[١١٣] Saint Athanase, Hist. Arian., XVI–XLIV; Sozomène, Hist. Ecc., III, 11.

[١١٤] Hahn, A., Bibliothek der Symbole, 188 ff.

[١١٥] Saint Athanase, Tom. ad Antioch., V.

التي اتُّخِذت في المجمع، والتوسل إليه أن يسمح لأثناسيوس وماركلوس وأسكليباس بالعودة إلى مراكزهم، فوصل الأسقفان إلى أنطاكية في ربيع السنة ٣٤٤، وعلم إسطفانوس بقرب وصولهما، فنصب لهما شركًا ليقضي على سمعتهما ويفسد عملهما، فأوصى أحد الشبان أن يستقبلهما وينزلهما ضيفين على إحدى النساء الفاجرات، فاحتجَّ الأسقفان وعلم قسطنديوس بذلك، فأوجب التحقيق فنظر المجمع في هذه القضية في أواخر السنة ٣٤٤، فثبتت خيانة إسطفانوس فجُرِّد من رتبته وخُلِع، وانتخب المجمع لونديوس Leontios أسقفًا على أنطاكية.[١١٦]

لونديوس أسقف أنطاكية (٣٤٤–٣٥٨)

وكان لونديوس قد أخذ اللاهوت والفلسفة عن لوقيانوس المعلم الأنطاكي، فامتنع أفستاثيوس عن قبوله في مصاف الإكليروس الأنطاكي، وكان أيضًا قد جبَّ نفسه ليتمكن من مساكنة المرأة إفستوليوم Eustolium، فخرج بذلك على قرارات المجمع المسكوني الأول، وأصبح غير لائق أن يتحلى برتبة الكهنوت،[١١٧] ولكنه اعتدل في آرائه مع تقدُّمه في السن واتَّزَن في سلوكه، وأظهر مقدرة في تسيير دفة الأسقفية في زمنٍ كثُرَ فيه الشقاقُ واشتدَّ الخصام،[١١٨] ولم يتمكن الأسقفان الغربيان فيكنديوس وإفراتاس من إقناع الإمبراطور قسطنديوس بإصدار العفو عن الأساقفة الأرثوذكسيين المنفيين، ولكنهما استصدرا أمرًا أوجب عودة الكهنة والشمامسة الأرثوذكسيين من أرمينية إلى أماكنهم، وإيقاف الاضطهاد الذي كان قد حل بالإكليروس الأرثوذكسي في مصر.[١١٩]

وأظهر لونديوس استعدادًا للتفاهم مع الأرثوذكسيين المجتمعين في ميلان آنئذٍ، فقام وفد مؤلف من الأساقفة ذيموفيلوس وأفذوكيوس ومقدونيوس ومرتيريوس إلى الغرب؛ ليبحثوا أمر العقيدة مع الأساقفة الأرثوذكسيين وأمام الإمبراطور قسطنديوس،

---

[١١٦] Saint Athanase, Hist. Arian., XX; Théodoret, Hist. Ecc., II, 7–8.

[١١٧] Saint Athanase, Apolog. de Fuga, XXVI.

[١١٨] Bardy, G., Variations de l'Arianisme, op. cit., III, 133.

[١١٩] Saint Athanase, Hist. Arian., XXI.

وحملوا إلى ميلان (٣٤٥) قانون إيمان أنطاكيًّا طويلًا، عُرِفَ فيما بعدُ بالمكروستيكوس Machrosticos؛ أي ذي الأسطر الطويلة،[١٢٠] وأعلن هذا القانون «الطويل» وحدانية الله وألوهية الابن قبل كل الدهور وعدم فناء ملكه، فأنكر بهذا القول الآريوسية الأصلية، ثم كذَّب القانون الطويل أقوال ماركلوس الأنقيري وفوتينوس السرمي،[١٢١] ولكن الآباء الأرثوذكسيين المجتمعين في ميلان أوجبوا إضافة نص صريح تُنكَر به الآريوسية، فامتعض أعضاء الوفد الأنطاكي من هذا الإلحاح، ولا سيما وأن البيانات التي صدرت عن أنطاكية في السنة ٣٤١ كانت قد أنكرت الآريوسية إنكارًا تامًّا، فرفضوا أن يضيفوا شيئًا إلى المكروستيكوس وانسحبوا من المجمع وعادوا إلى أوطانهم.[١٢٢]

انتصار أرثوذكسي وقتي

وكان الخطر الفارسي لا يزال جاثمًا منذ السنة ٣٤٠، فاضطر قسطنديوس أن يضمن سلامًا في داخل مملكته ليجابه الخطر الخارجي، وتوفي غريغوريوس أسقف الإسكندرية ومناظر أثناسيوس في الخامس والعشرين من حزيران سنة ٣٤٥، فرأى قسطنديوس أن يعيد أثناسيوس إلى كرسيه، فكتب إليه بذلك، وألَحَّ بوجوب العودة، فامتثل الأسقف وقام إلى الشرق، ووصل إلى الإسكندرية في الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ٣٤٦.[١٢٣]

وعرج أثناسيوس في طريقه على أنطاكية، وأقام فيها برهة واتصل بأبنائها الأرثوذكسيين أتباع أفستاثيوس، الذين كانوا لا يزالون يعتبرون الكرسي الرسولي شاغرًا منذ عهد أفستاثيوس، وأحَبَّ أن يعاونهم في شدتهم، فمثل أمام الإمبراطور قسطنديوس، ورجاه أن يسمح لأتباع أفستاثيوس بكنيسة من كنائس أنطاكية يصلُّون فيها أحرارًا، وكاد قسطنديوس يأمر بذلك، ولكن لاونديوس أسقف أنطاكية اعترض على ذلك ولم يسمح به، فقام أثناسيوس إلى اللاذقية حيث استُقبِل استقبالًا حسنًا، وأبحر منها إلى فلسطين، فامتنع أكاكيوس أسقف قيصرية وخلف أفسابيوس القيصري عن استقباله،

---

١٢٠ Saint Athanase, De Synod., XXVI; Socrates, Hist. Ecc., II, 19; Sozomène, Hist. Ecc., III, 2.

١٢١ Bardy, G., Variations, op. cit., III, 134.

١٢٢ Saint Hilaire, Frag. Hist., V, 4.

١٢٣ Saint Athanase, Apol. contra Arianos, 54-55.

ولكن مكسيموس أسقف أوروشليم عقد مجمعًا محليًّا مؤلفًا من ستة عشر أسقفًا، ورحَّب بأثناسيوس وحمَّله تحيات الكنيسة الأرثوذكسية الفلسطينية إلى إخوانهم الأرثوذكسيين في الإسكندرية.[١٢٤]

غالوس والكنيسة (٣٥٠–٣٥٣)

وتمرد الجند على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠، فاضطر قسطنديوس الثاني، وقد أصبح المالك الشرعي الوحيد، أن يخمد الثورة في الغرب، وكان قسطنديوس رجلًا عاقرًا لا وارث له، فاستدعى ابن عمه غالوس Gallus من منفاه ورفعه إلى رتبة قيصر، وأمره على برايفكتورة الشرق وجعل مقره أنطاكية، ولكن غالوس هذا كان جافيَ الطبع فظَّ القلب قليلَ الرحمة؛ فطغى وتجبَّرَ وأرهب الناس إرهابًا، فاستدعاه ابن عمه الإمبراطور إليه في إيطالية في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأمر بقطع رأسه، وعندئذٍ طلب ابن عمه الأصغر يوليانوس وجعله قيصرًا على غالية في الغرب.

ولا نعلم بالضبط ما إذا كان غالوس مسيحيًّا أو وثنيًّا، ولكننا نعلم العلم اليقين أن حاشيته في أنطاكية كانت غير أرثوذكسية، فإن ثيوفيلوس الهندي المتقشف الشهير كان قد أخذ أشياء وأشياء عن معلمه أفسابيوس النيقوميذي، وأن لاونديوس أسقف أنطاكية لم يكن أرثوذكسيًّا، وأن آئيتيوس Aèce أقرب المسيحيين إلى القيصر، ومعلم أخيه يوليانوس، كان آريوسيًّا شديدًا صارمًا،[١٢٥] والتفَّ هؤلاء وغيرهم حول القيصر، وأخذوا يدلسون عليه الرأي، فزينوا له وللإمبراطور فوقه أن أثناسيوس على صلة بالمتمردين في الغرب، وأنه رجل خطر يخلُّ بالأمن، وأن المصلحة تقضي بنبذه وإبعاده عن الإسكندرية.

وتمادى لاونديوس في هذه السياسية الجديدة، فرسم آئيتيوس شماسًا وسمح له بالوعظ في الكنيسة، فاحتج الأرثوذكسيون على ذلك وأجمعوا على محاربة آئيتيوس، ولم ينفرد أتباع أفستاثيوس بهذا الاحتجاج، فإن السواد الأعظم من الأرثوذكسيين، الذين كانوا قد واظبوا على إجراء الطقوس مع أتباع لاونديوس ضنًّا بوحدة الكنيسة، استنكروا صوت آئيتيوس في الكنيسة، والتفوا حول زعيمين علمانيين ذيذوروس وفلافيانوس، وهددوا

[١٢٤] Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 7; Bardy, G., Variations, op. cit., III, 136.

[١٢٥] Philostorge, Hist. Ecc., III, 15-16.

بالانفصال التام ففاوضهم لاونديوس، فأصروا على تعديلٍ في الذوكسة (المجدلة)، يثبت مساواة الابن للآب في الجوهر، فأوجبوا القول «المجد للآب والابن والروح القدس»، بدلًا من القول «المجد للآب في الابن والروح القدس»، كما جرت العادة آنئذٍ، فوافق لاونديوس على ذلك، ولكنه خشي مقاومة الآريوسيين في الكنيسة، فرتل «المجد للآب» ثم أضعف صوته متظاهرًا بالألم في حلقه، حتى إذا وصل إلى العبارة «الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين» رفع صوته فرتلها بوضوح.[١٢٦] واشتد احتجاج الأرثوذكسيين في أنطاكية، فنزل لاونديوس عند رغبتهم وأبعد آئيتيوس عن أنطاكية.

الغرب ينبذ أثناسيوس

وتوفي يوليوس أسقف رومة (٣٣٧–٣٥٢)، وتولى الكرسي الرسولي بعده ليباريوس (٣٥٢–٣٦٦)، فاهتم لساعته بقضية أثناسيوس، ورجا الإمبراطور قسطنديوس أن يدعو أساقفة الكنيسة الجامعة إلى مجمع في أكويلية لينظر في قضية أثناسيوس، وكان الإمبراطور يرغب في تهدئة خواطر الآريوسيين في الشرق؛ لأنهم كانوا قد أصبحوا أكثرية راجحة، فدعا الأساقفة الغربيين إلى مجمع في ميلان في مطلع السنة ٣٥٥، وطلب إليهم أفرادًا وجماعات أن ينتقوا لأنفسهم أحد أمرين: إما نبذ أثناسيوس أو النفي، فوافق معظمهم على النبذ، وأصرَّ أسقف رومة على تأييد أثناسيوس، فأُبعِد بأمر الإمبراطور إلى تراقية وأُبعِد أساقفة ثلاثة آخرون إلى صعيد مصر.[١٢٧]

وحاول قسطنديوس أن يستدرج أثناسيوس، فأرسل إليه مَن يؤكد له أن الإمبراطور يرغب في مشاهدته في الغرب، ثم أرسل الإمبراطور بارجة حربية إلى الإسكندرية لنقل أثناسيوس وتسهيل وصوله إلى الغرب، ولكن أثناسيوس اعتذر وامتنع، فلجأ الإمبراطور إلى العنف، وفي مساء الثامن من شباط سنة ٣٥٦ أحاط الجند بكنيسة ثيوناس Theonas في الإسكندرية، ودخلوا إليها طالبين أثناسيوس، فصدهم المصلون واشتد الاختلاط والقتال، وعلت أصوات العذارى الصالحات، وظل أثناسيوس جالسًا في كرسيه لا يأتي بحركة، ثم

---

[١٢٦] Ibid., III, 18.

[١٢٧] Bardy, G., Variations, op. cit., III, 138–147.

اقتنع بوجوب الفرار، فخرج من الكنيسة والتجأ إلى رهبان الصحراء الغربية، فأحسنوا استقباله وحموه فصنَّف وكتب، وقال في بعض ما كتب: «إني أسمع لاونديوس أنطاكية، ونرقيس بانياس، وجاورجيوس اللاذقية يتهانفون ويستهزئون؛ لأني لم أمكنهم من اغتيالي، إن أنطاكية تبكي أفستاثيوس المعترف بالحقيقة، وبانياس البحر Balanyas تندب إفراتيون Euphration، وبلدة Paltos تعدِّد محاسن كيماتيوس Cymatios، وطرطوس تذكر كرتيريوس وحلب كيروس وغزة أسكليباس Asclepas.»[١٢٨] وكأني بهذا القديس يحمِّل بعض رجال كنيسة أنطاكية مسئولية اضطهاده وشق الصفوف، والواقع أن لاونديوس أنطاكية ونرقيس بانياس وجاورجيوس اللاذقية لم يكتفوا بما جرى بالإسكندرية وبفرار قديسها، فإنهم عقدوا في السنة ٣٥٦ مجمعًا أنطاكيًّا محليًّا، وكتبوا إلى الأساقفة باسم هذا المجمع، مذكرين «بالجرائم» التي ارتكبها أثناسيوس، راجين الاعتراف بجاورجيوس القبذوقي أسقفًا على الإسكندرية.[١٢٩]

طغيان الآريوسية

ونفي هوسيوس الأسقف الشيخ «أبو المجامع»، وتخلى ليباريوس أسقف رومة في منفاه عن أثناسيوس (٣٥٧)،[١٣٠] وتولى دفة الأمور في رومة الأرشدياكون فيلكس المشاكس، فعطف على الآريوسية وأيده في ذلك عدد كبير من رجال الإكليروس الروماني،[١٣١] وتوفي لاونديوس أسقف أنطاكية سنة ٣٥٨، فتولى الرئاسة فيها أفذوكسيوس أسقف مرعش Germanicia،[١٣٢] وأيَّدَ الآريوسيةَ كلٌّ من جاورجيوس أسقف الإسكندرية، ومقدونيوس أسقف القسطنطينية، وجرمينيوس أسقف سرميوم، وأوكسنتيوس أسقف ميلان.[١٣٣]

---

١٢٨ Saint Athanase, Apol. de Fuga, XXIV; Bardy. G., op. cit., III, 148; Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, II, 263–264.

١٢٩ Sozomène, Hist. Ecc., IV, 8.

١٣٠ Palanque, J. R., Eglises Occidentales, Fliche et Martin, op. cit., III 231.

١٣١ Ibid., 232.

١٣٢ Theodoret, Hist. Ecc., II, 20; Philostorge, Hist. Ecc., IV, 4.

١٣٣ Bardy, G., Variations, op. cit., III, 150.

المساواة في الجوهر والتشابه والاختلاف

وكان من الطبيعي بعد هذا النصر الكبير أن تتطاول أعناق الآريوسيين إلى تعديل دستور الإيمان النيقاوي، وأن يطالبوا بذلك جهارًا، ولم يقم بينهم بعد وفاة أستيريوس الصوفي حبر لاهوتي كبير يتزعم هذه المطالبة بالتعديل، فإن ثيودوروس أسقف هرقلية (+٣٥٥) كان مفسرًا للكتاب أكثر منه لاهوتيًّا متعمقًا، وعُنِيَ أفسابيوس أسقف حمص (+٣٥٩) بالرد على الوثنيين واليهود والنوفاتيين والمانويين، وكان معتدلًا متزنًا يكره التطرُّف.[١٣٤] وكان جاورجيوس أسقف اللاذقية من هذا الطراز أيضًا، فإنه كتب ضد المانوية، وعني عناية خاصة بسيرة أفسابيوس أسقف حمص.[١٣٥] أما أكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين فإنه تابع السلف القيصري، فعني بمكتبة كرسيه، وأضاف إليها وفسَّرَ سِفر الجامعة،[١٣٦] فلم يبقَ والحالة هذه سوى آئيتيوس الشماس يمين لاونديوس الأنطاكي وعدو الأرثوذكسيين في أنطاكية.

وكان آئيتيوس آريوسيًّا متطرفًا يحب اللاهوت ويعشق الجدل، فلم يرضَ عن القول بالتشابه في الجوهر homoiousion السائد آنئذٍ في الأوساط الآريوسية، المناظر للقول بالمساواة في الجوهر homoousion الذي أقرَّه مجمع نيقية، فأجهر بالاختلاف في الجوهر anomoios، وجاهر به الأرثوذكسيين معلنًا أنه ليس هنالك أي ارتباط بين الآب والابن![١٣٧] فتخطى بذلك آريوس نفسه، وشاطر جرمينيوس أسقف سرميوم الشماس آئيتيوس رأيه، ودعا إلى مجمع في صيف السنة ٣٥٧ في سرميوم، فحرَّم هذا المجمع الإشارة إلى الجوهر والمساواة في الجوهر والتشابه؛ لأن هذه الاصطلاحات لم تَرِد في الكتاب المقدس، ولأنها تقلق راحة المؤمنين، وأكَّدَ عظمة الآب وتفوُّقه على الابن،[١٣٨] ورغب الآباء الآريوسيون المجتمعون

---

١٣٤ Vardinian, P. A., Eusèbe d'Emèse, Handes Amsoreai, 1921, 129–146, 292–298; Wilmart, A., Un Discours Théol, d'Eusèbe d'Emèse, Rev. Orient, Chrét., 1920–1921, 72–94.

١٣٥ Socrates, Hist. Ecc., II, 9.

١٣٦ Socrates, Hist. Ecc., II, 4; Epiphanios, Haeres., LXXII, 5–10.

١٣٧ Ibid., LXXVI; Socrates, Hist. Ecc., II, 35; Bardy, G., Variations, op. cit., III, 151–152; Héritage Litéraire d'Aelius, Rev. Hist. Ecc., 1928, 809–827.

١٣٨ Sozoméne, Hist. Ecc., IV, 12; Saint Hilaire, De Synod., XI; Saint Athanase, De Synod., XXVIII.

في ترويج النص الجديد، فاتصلوا بهوسيوس أسقف قرطبة وشيخ القائلين بالمساواة في الجوهر، وكان هوسيوس قد هرم وولى وبلغ من الكبر عتيًّا، فعجز عن المقاومة ووافق على القول الجديد.[١٣٩]

مقاومة أرثوذكسية

وتمادى أفذوكسيوس أسقف أنطاكية في ضلاله وغلا في الآريوسية وجاوَزَ الحد، فقبل التعليم الجديد الصادر عن سرميوم، وحضَّ أساقفة الكرسي الأنطاكي على قبوله، وقرَّبَ آئيوس وإفنوميوس Eunomios واعتمد رأيهما، فثار ثائر الأرثوذكسيين في كنيسة أنطاكية، وانضم إليهم عدد كبير من المعتدلين، ولا يخفى أن مجمع التكريس الأنطاكي كان قد امتنع في السنة ٣٤١ عن القول بأقوال آريوس وعن الانتماء إليه وحمل اسمه، وأن معظم الأساقفة الأنطاكيين الذين اشتركوا في أعمال المجمع الأول في سرميوم سنة ٣٥١ كانوا قد قالوا قولًا لا يجوز اعتباره هرطقة إذا حسن تفسيره، فلما جاء آئيوس ببدعته الجديدة وأنكر ألوهية الابن، هبَّ لمقاومته هؤلاء المعتدلون أنفسهم، وكتب جاورجيوس أسقف اللاذقية كتابًا إلى كلٍّ من: مقدونيوس أسقف القسطنطينية، وباسيليوس أسقف أنقيرة، وكيكروبيوس أسقف نيقوميذية، وأفجينس أسقف نيقية، يناشدهم الإسراع في المعونة لتخليص كنيسة أنطاكية من أفنوميوس وزمرته.[١٤٠] وكان باسيليوس أسقف أنقيرة قد نفر من آئيوس وحذلقاته، فعقد مجمعًا في أنقيرة في ربيع السنة ٣٥٨، وكتب باسم هذا المجمع رسالة سلامية وجهها إلى جميع أساقفة المسكونة،[١٤١] ثم عاد فكتب ثانيةً باسمه وباسم جاورجيوس أسقف اللاذقية.[١٤٢]

ويتضح من هاتين الرسالتين أن الآباء المجتمعين في أنقيرة شجبوا القول بالاختلاف في الجوهر وأكدوا ألوهية الابن، وابتعدوا عن المساواة في الجوهر خشية الجنوح إلى بدعة بولس السميساطي، فآثروا القول بالتشابه في الجوهر homoiousion.

[١٣٩] Duchesne, L., Hist. Anc., de l'Eglise, II, 284.

[١٤٠] Sozomène, Hist. Ecc., IV, 13.

[١٤١] Epiphanios, Haeres, LXXIII.

[١٤٢] Rasneur, G., l'Homoiousianisme dans ses Rapports avec l'Orthodoxie, Rev. Hist. Ecc., 1904, 204 ff.

وحمل باسيليوس أسقف أنقيرة، وأفستاثيوس أسقف سبسطية، وإلفسيوس Eleusios أسقف كيزيكة؛ مقررات مجمع أنقيرة إلى قسطنديوس في سرميوم،[١٤٣] ونبذ عدد من أساقفة غالية وأفريقية قول آئيوس وأفنوميوس،[١٤٤] فأيد قسطنديوس موقف الأساقفة في أنقيرة، وكتب إلى الأنطاكيين ينفي أن يكون هو قد عَيَّنَ أفذوكسيوس أسقفًا عليهم، ويحذرهم شر أولئك الذين يغيرون أبرشياتهم ليزيدوا دخلهم، وأولئك المتفلسفين الذين يتجرون بالنفاق والزندقة ليخدعوا الجماهير، وذكر الإمبراطور الأنطاكيين بما قاله لهم عن العقيدة، وكيف أنه أبان لهم أن المخلص هو ابن الله وأنه مشابه للآب في الجوهر،[١٤٥] وانتهز بافيليوس هذه الفرصة السانحة، فاستصدر أمرًا إمبراطوريًّا أبعد به أفذوكسيوس أسقف أنطاكية إلى أرمينية، وآئيوس إلى بابوزة Papuze، وسجن بموجبه أفنوميوس في أنقيرة.[١٤٦]

مجمع سلفكية (٣٥٩)

وسعى باسيليوس لعقد مجمع مسكوني، ينظر في قضية الإيمان ويقر موقفًا نهائيًّا منها، وأراد أن يلتئم أساقفة المسكونة للمرة الثانية في نيقية، ولكن ذكريات النضال حول مقررات المجمع النيقاوي الأول قضت باستبدال نيقية بمكان آخر، فاقترح باسيليوس أن يجتمع الأساقفة في نيقوميذية فوافق الإمبراطور، ولكن هزة أرضية دمرت هذه المدينة في الرابع والعشرين من آب سنة ٣٥٨، فرأى الإمبراطور أن يستفتي الأساقفة في أمر المكان الذي يرغبون الجلوس فيه وذلك بالكتابة إليهم فردًا فردًا، فطال أمر الاستفتاء وعاد باسيليوس إلى مركز أبرشيته، فاستغل بعض رجال الإكليروس تغيبه عن البلاط، وطلبوا إلى ركنين من أركان الآريوسية أن يقوما إلى سرميوم ويتصلا مباشرة بقسطنديوس، فأمَّ البلاط الإمبراطوري في سرميوم كلٌّ من نرقيس أسقف بانياس وبتروفيلوس أسقف بيسان، وكانا من كبار الأساقفة الذين اشتركوا في مجمع نيقية المسكوني، وخشي الأسقفان

[١٤٣] Sozomène, Hist. Ecc., IV, 13.

[١٤٤] Bardy, G., Variations, op. cit., III, 155–156.

[١٤٥] Sozomène, Hist. Ecc., IV, 14.

[١٤٦] Ibid., IV, 16; Philostorge, Hist. Ecc., IV, 8–9.

ألا يكون أتباعهما ومناصروهما أكثرية في مجمع مسكوني يضم أساقفة الشرق والغرب، فأظهرا صعوبة التفاهم بين الأساقفة لتباين اللغتين اليونانية واللاتينية، وبينًّا كثرة النفقات اللازمة لنقل الأساقفة الغربيين إلى الشرق، واقترحا عقد مجمعين في آن واحد: مجمع غربي في ريميني Rimini على شاطئ الأدرياتيك الإيطالي، ومجمع في سلفكية أسورية بالقرب من الساحل القيليقي.[١٤٧]

وقبل الإمبراطور اقتراح الأسقفين نرقيس وبتروفيلوس، وطلب إلى مرقس أسقف أرسوز الذي كان آنئذٍ في سرميوم أن يعدَّ نصًّا لدستور إيمان جديد يُعرَض على أساقفة المجمعين، فأعدَّ مرقس دستور إيمان عُرِف فيما بعدُ بالدستور المؤرخ؛ لأن مرقس بدأ النص بالإشارة إلى موافقة قسطنديوس، وإلى السنة والشهر واليوم الذي تمَّتْ فيه هذه الموافقة. و«الدستور المؤرخ» ينص على التشابه في الجوهر omoios بعبارات غامضة، ويؤكد «أن المسيح هو ابن الله مولود قبل كل الدهور، وأنه يشابه الآب في كل شيء كما جاء في الأسفار المقدسة»، ويتميز هذا الدستور بالإشارة الواردة فيه لأول مرة إلى نزول السيد إلى الجحيم،[١٤٨] وأوجب الإمبراطور على المجمعين تفحص «الدستور المؤرخ» وإيفاد وفدين إليه يحملان رأيي الأساقفة المجتمعين، وترك البت في الأمور الشخصية الفردية وغيرها إلى كلٍّ من المجمعين على انفراد.[١٤٩]

فالتأم في ريمينة أربعمائة أسقف، ورفض معظمهم الدستور المؤرخ، وأيدوا دستور نيقية، وقطعوا عددًا من الأساقفة المخالفين، وقام إلى القسطنطينية وفدان: أحدهما يمثل الأكثرية الساحقة، والآخر الأقلية، فأذن الإمبراطور لوفد الأقلية بالمثول بين يديه، ورفض الإصغاء إلى وفد الأكثرية، ثم حاوط الآريوسيون هذا الوفد وداوروا رئيسه، فوافق الأكثرية على حذف العبارة «في جميع الأشياء» عن الإشارة إلى تشابه الابن بالآب، وقبلوا بالدستور المؤرخ، ووقعوا بروتوكولًا بهذا المعنى في العاشر من تشرين الأول سنة ٣٥٩.[١٥٠]

---

١٤٧ Sozomène, Hist. Ecc., IV, 16; Philostorge, Hist. Ecc., IV, 16.

١٤٨ Saint Athanase, De Sunod, VIII; Socrates, Hist. Ecc., II, 34; Saint Hilaire, Frag. Hist., XV, 3.

١٤٩ Bardy, G., Variations, op. cit., III, 161–163.

١٥٠ Sozomène, Hist. Ecc., IV, 81.

وبدأ المجمع الشرقي أعماله في سلفكية في السابع والعشرين من أيلول سنة ٣٥٩، وضمَّ أكثر من مائة وخمسين أسقفًا، وأشهر أعضائه أصحاب الرأي والقول: باسيليوس أسقف أنقيرة، ومقدونيوس أسقف القسطنطينية، وإلفسيوس Eleusios أسقف كيزيكة، وسلوانوس أسقف طرسوس، ومرقس أسقف أرسوز، وواضع نص الدستور المؤرخ موضوع البحث، وكيرللس أسقف أوروشليم، وصفرونيوس أسقف بومبيوبوليس Pompeiopolis، وجاورجيوس أسقف الإسكندرية، وأفذوكسيوس أسقف أنطاكية سابقًا، وأكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين. وتألَّفَ الوفد الأنطاكي من: مرقس أسقف أرسوز، وأكاكيوس أسقف قيصرية، وأورانيوس أسقف صور، وسبعة عشر آخرين بينهم أربعة يمثلون أبرشيات «العربية».[١٥١]

واقترح سلوانوس أسقف طرسوس القول بدستور «التكريس» الأنطاكي، الذي أقره المجمع الأنطاكي سنة ٣٤١، وأيده في هذا مائة وخمسة أساقفة،[١٥٢] فاحتج أكاكيوس أسقف قيصرية على هذا القرار، وخرج من المجمع وتبعه ثمانية عشر أسقفًا، واجتمع هؤلاء منفردين، وأقروا قبول «الدستور المؤرخ» ملطفين بعض عباراته، لاغين القول بالاختلاف في الجوهر anomoios،[١٥٣] وعاد أكاكيوس وجماعته إلى المجمع في الجلسة الثالثة، وحاولوا إعادة البحث في الدستور فلم تقبل الأكثرية بذلك، وقال ألفسيوس قوله الشهير: «لم نجتمع لوضع دستور جديد، وإنما اجتمعنا لإثبات قول الآباء.»[١٥٤] وغضب ليوناس ممثل الإمبراطور، وخرج من المجمع قائلًا: إني جئت لأمثل الإمبراطور في مجمع متحد متفق لا في مجمع منشق منقسم. ثم رفض أكاكيوس وجماعته الاشتراك في أعمال المجمع.

وتابعت الأكثرية أعمالها، فنظرت في قضية كيرللس أسقف أوروشليم، وفي الخلاف الذي كان قد نشأ بينه وبين أكاكيوس متروبوليت الأبرشية، فإن كيرللس كان قد استمسك في بعض الامتيازات التي أقرها التقليد لأم الكنائس، فقاومه في ذلك أكاكيوس مدعيًا أنه هو متروبوليت الأبرشية، وكان كيرللس قد باع آنية كنيسته ليطعم بثمنها الفقراء والجائعين، فاعترضه أكاكيوس وأمر بخلعه،[١٥٥] فأعاده مجمع سلفكية إلى كرسيه مكرمًا، وقطع هذا

---

[١٥١] Epiphanios, Haeres., LXXIII. 26; Devrsse, R., Patriarcat d'Antioche, 128.

[١٥٢] Socrates, Hist. Ecc., II, 39.

[١٥٣] Ibid., II, 40.

[١٥٤] Ibid.

[١٥٥] Socrates, Hist. Ecc., II, 40.

المجمع كلًّا من: جاورجيوس أسقف الإسكندرية، وأفذوكسيوس أسقف أنطاكية سابقًا، وأكاكيوس أسقف قيصرية، وبتروفيلوس أسقف بيسان، وخمسة أساقفة آخرين، ورفع أنيانوس Annianos أحد كهنة أنطاكية إلى كرسيها الرسولي، ثم أعلن أسماء أعضاء الوفد الذي سيحمل قرارات هذا المجمع إلى الإمبراطور قسطنديوس في القسطنطينية، ولم يرضَ لوريقيوس دوق أسورية عن القرار الذي اتخذ في أمر أسقفية أنطاكية، وألقى القبض على أنيانوس ونفاه.[١٥٦]

مجمع القسطنطينية (٣٦٠)

واجتمع ممثلو المجمعين في القسطنطينية في مطلع السنة ٣٦٠، فأقروا «الدستور المؤرخ» المعدل، وقالوا بالتشابه في الجوهر كما في الكتب، ونبذوا التخالف في الجوهر، وحرَّموا استعمال اللفظين ousia وhypostasis اللذين أثارا الجدل، واعتاضوا عنهما بالكلمة omoios؛ فجاء الدستور بهما مبهمًا غامضًا قابلًا لتفاسير متناقضة في بعض الأحيان.[١٥٧]

ثم انتقل الأعضاء إلى البحث في الأشخاص، فنزعوا عن آئيتيوس رتبته وطردوه من الكنيسة، وهددوا بلعنه إن هو أصرَّ على موقفه، وحرَّموا قراءة كتبه وأوجبوا تمزيقها،[١٥٨] وخلعوا مقدونيوس أسقف القسطنطينية، وألفسيوس أسقف كيزيكة، وباسيليوس أسقف أنقيرة، وسلوانوس أسقف طرسوس، وكيرللس أسقف أوروشليم وغيرهم.[١٥٩]

وكتب المجمع إلى جميع أساقفة المسكونة يدعوهم إلى الموافقة على نص الدستور الجديد، وهددت السلطات الزمنية بالنفي في حال عدم الموافقة، فوافق عددٌ كبير من الأساقفة في الغرب والشرق معًا، وامتنع عدد وافر عن الموافقة، وكان أثناسيوس لا يزال سيد الموقف في مصر، فحضَّ أساقفة مصر وليبية على الاستمساك بالدستور النيقاوي

---

[١٥٦] Ibid., II, 40; Sozomène, Hist. Ecc., IV, 12.

[١٥٧] Bardy, G., Variatios, op. cit., III, 169-170; Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, II, 306.

[١٥٨] Sozomène, Hist. Ecc., IV, 24; Théodoret, Hist. Ecc., II, 24; Grégoire de Nazianze, Orat, XXI; Philostorge, Hist. Ecc., VII, 6, VIII, 9.

[١٥٩] Sozomène, Hist. Ecc., IV, 24.

ففعلوا، ولعل الرسالة المرسومة Epistola Encyclica هي مما كتبه لهذه المناسبة،[١٦٠] ولعلها تعود إلى السنة ٣٥٦.[١٦١]

ملاتيوس أسقف أنطاكية (٣٦١–٣٨١)

وأقام الأساقفة المجتمعون في القسطنطينية أفذوكسيوس أسقف أنطاكية السابق أسقفًا على القسطنطينية، واعتبروا ترقية أنيانوس إلى الكرسي الأنطاكي غير قانونية، فانتخب أكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين وأتباعه ملاتيوس أسقفًا على أنطاكية، واحتاطوا لهذا الأمر فوقَّعوا محضرًا بانتخاب ملاتيوس، وجعلوا أفسابيوس أسقف سميساط يحتفظ به دفاعًا لكل اعتراض،[١٦٢] وكان ملاتيوس قد أبصر النور في ملاطية أرمينية، واشتهر بالتقوى واللطف والمحبة والاستقامة، فلما انفرط عقد المؤمنين في سبسطية أرمينية، وانقسموا على بعضهم، نادى البعض بملاتيوس أسقفًا ضد أفستاثيوس الأسقف القديم، ولم يتمكن ملاتيوس من الوصول إلى كرسي سبسطية هذه نظرًا لشدة الخصام والشغب، فابتعد عنها وأقام في حلب، وفي السنة ٣٥٩ التأم مجمع سلفكية، فمثل سبسطية أرمينية أفستاثيوس، ووافق أكثرية المجمع على التمسك بالدستور الأنطاكي، أما ملاتيوس فإنه ماشى أكاكيوس، إما في أثناء انعقاد المجمع أو بعد ذلك بقليل.[١٦٣]

ودخل ملاتيوس أنطاكية في شتاء السنة ٣٦٠-٣٦١، وتسلم عكاز الرعاية بحضور قسطنديوس الإمبراطور، وأكاكيوس أسقف قيصرية فلسطين، وجاورجيوس أسقف الإسكندرية، وطلب الإمبراطور إلى الأساقفة الثلاثة أن يتكلموا في موضوع الآية: «الرب حازني في أول طريقه قبل عمله منذ البدء» (أمثال ٨: ٢٢)، فصارح جاورجيوس المؤمنين بالآريوسية، واكتفى أكاكيوس بالتعليمات المبهمة، أما ملاتيوس فإنه اعترف بأن المسيح هو ابن الله، إله من إله، وواحد من واحد، وتحاشى استعمال الكلمتين جوهر وأقنوم،[١٦٤] فأرضى بذلك الأرثوذكسيين ولكنه أغضب الآريوسيين.[١٦٥] ويرى العلامة كافاليرا في كتابه

١٦٠ Schwartz, E., Gesch. des Alhanasius, 298.

١٦١ Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirchlichen Literatur III, 70.

١٦٢ Théodoret, Hist. Ecc., II, 27; Epiphanios, Haeres., LXXIII, 28.

١٦٣ Socrates, Hist. Ecc., II, 44.

١٦٤ Epiphanios, Haeres., LXXIII, 29–33.

١٦٥ Théodoret, Hist. Ecc., II, 27.

انشقاق أنطاكية[١٦٦] أن ملاتيوس كان منذ البدء، وظل حتى النهاية أرثوذكسيًّا لا غش فيه، والواقع أن ملاتيوس ماشى أكاكيوس كما سبق وأشرنا، وأن أكاكيوس وجاورجيوس اشتركا في تسليمه عكاز الرعاية، وأن سقراط وأبيفانيوس يؤكدان علاقة ملاتيوس بأكاكيوس،[١٦٧] ولعل باسيليوس الذي اعتبر ملاتيوس نيقاويًّا كاملًا أراد أن يكتفي بما اعترف به ملاتيوس في أواخر عهده، وأن يغض النظر عما فاه به ووقعه في بدء حياته العملية،[١٦٨] ورقب الآريوسيون حركات ملاتيوس وسكناته، فاحتجوا على بعض إجراءاته الإدارية وطلبوا عزله وإبعاده، فنفاه قسطنديوس إلى أرمينية في آخر الشهر الأول من أسقفيته،[١٦٩] وتبوأ الكرسي الرسولي الأنطاكي بعده إفظويوس Euzoios الآريوسي، وكان إفظويوس شماسًا ماشى الآريوسيين منذ اللحظة الأولى، فدخل في حرم ألكسندروس الإسكندري ونزعت عنه رتبته الكنسية، وانتصرت الآريوسية انتصارًا باهرًا، وأصبح أساقفة معظم الكنائس الكبرى في الشرق والغرب معًا، إما آريوسيين متطرفين أو معتدلين.[١٧٠]

وفاة قسطنديوس الثاني (٣٦١)

وكان شابور الثاني ذو الأكتاف قد عبر دجلة في جيش عظيم في السنة ٣٥٨، فتجاوز نصيبين وزحف على آمد (ديار بكر) فأخذها عنوة، وكان قسطنديوس لا يزال في سرميوم يعالج الاختلاف في العقيدة كما ذكرنا، فقام إلى القسطنطينية، وبقي فيها طوال شتاء السنة ٣٥٩–٣٦٠، وفي ربيع السنة ٣٦٠ نهض من القسطنطينية لمجابهة الخطر الفارسي، وكان شابور ذو الأكتاف قد استأنف الحرب، فاحتل سنجار ثم اتجه منها إلى بيت زبدي (جزيرة ابن عمر) على ضفة دجلة الغربية وحاصرها، فحاول قسطنديوس أن يفك هذا الحصار فلم يُفلح، وسقطت بيت زبدي في يد الفرس في خريف السنة ٣٦٠، وأقبل فصل الشتاء، فتوقفت الأعمال الحربية، ولبث قسطنديوس في أنطاكية، وكانت حاشية قسطنديوس لا تزال توغر صدره على ابن عمه يوليانوس قيصر غالية، بينما خطر الفرس

---

[١٦٦] Cavallera, F., Le Schisme d’Antioche, 95–97.

[١٦٧] Socrates, Hist. Ecc., II, 44; Epiphanios, Haeres., LXXIII, 23.

[١٦٨] Bardy, G., Variations, op. cit., III, 173, n. 2.

[١٦٩] Théodoret, Hist. Ecc., II, 26.

[١٧٠] Bardy, G., op. cit., III, 174–175.

في الشرق يتعاظم، فطلب الإمبراطور إلى ابن عمه القيصر أن يوافيه بأحسن ما عنده للصمود في وجه الفرس، ويقال إن ابن عمه مال إلى تلبية الطلب، ولكن جنوده تمردوا احتجاجًا ونادوا به إمبراطورًا في باريز في السنة ٣٦٠، وكتب يوليانوس إلى قسطنديوس يرجو منه الاعتراف بما تمَّ، ولكن قسطنديوس أصرَّ عليه أن يتنازل، فاضطر يوليانوس أن يزحف بجنده على الشرق، وسار قسطنديوس من أنطاكية إلى القسطنطينية فالغرب لمنازلة خصمه، ولكنه مرض وهو لا يزال في طرسوس، واشتد الخطر على حياته، فاعتمد بيد إفظويوس، وتوفي على مسيرة يوم من طرسوس في الثالث من تشرين الثاني سنة ٣٦١، وأجمل ما يُذكَر عنه أنه عندما أشرف على التلف أوصى بأن يكون يوليانوس نفسه خلفًا له.

الفصل الثامن عشر

ملاتيوس الشريف

٣٦٠–٣٨٢

يوليانوس الجاحد (٣٦١–٣٦٣)

هو يوليانوس بن يوليوس بن قسطنديوس الأول كلوروس، وهو أخو غالوس لأبيه، كما كان والده يوليوس أخا قسطنطين الكبير لأبيه، ووالدة يوليانوس باسيلينة نسيبة أفسابيوس أسقف نيقوميذية، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى نضاله في سبيل الآريوسية.

وُلِدَ يوليانوس في النصف الثاني من السنة ٣٣١ في ميسية على الدانوب، وما إن مضت بضعة أشهر حتى توفيت والدته، فنُقِل إلى القسطنطينية ونشأ في قصر لجدته في آسية لا يبعد كثيرًا عن العاصمة. وفي السادسة من عمره أي في السنة ٣٣٧ شهد مقتل والده وجميع أقربائه، ونجا هو وأخوه غالوس بأعجوبة، وعاشا مدة من الزمن مراقبين محصورين، فشبَّ يوليانوس مضطرب العصب يكره قسطنطين وذريته، وتولى أمره في هذه الفترة أفسابيوس أسقف نيقوميذية، فوكل أمر تهذيبه إلى خصي نصراني (مردونيوس) كان شديد الإعجاب بهوميروس الشاعر اليوناني، وتوفي أفسابيوس في السنة ٣٤١ فنفي قسطنديوس الأميرين إلى قصر في قبدوقية على مسافة قريبة من قيصرية، فقضى يوليانوس ست سنوات يدرس ويطالع مؤلفات أعاره إياها كاهن نصراني، وفي السنة ٣٤٧ أمر قسطنديوس بانتقال غالوس إلى أفسس ويوليانوس إلى القسطنطينية، وأقام يوليانوس في عاصمة الدولة سبع سنوات احتك فيها بعالمين شهيرين، أحدهما وثني والآخر نصراني، وتعلم مبادئ اللاتينية، ورحَّبَ الجمهور بالأمير الصغير وأكرمه، فدخلت الريبة نفس قسطنديوس فأمر بنقله إلى نيقوميذية، وكان ليبانيوس العالم

الأنطاكي الوثني قد ترك مدرسة نيقوميذية، فلم يتسنَّ ليوليانوس أن يأخذ عنه مباشرة، ولكنه طالع بعض مصنفات ليبانيوس وأكبَّ عليها فأثرت في نفسه؛ ومن هنا هذا التشابه في الأسلوب بين الاثنين. وفي السنة ٣٥١ رضي قسطنديوس عن الأميرين، فجعل غالوس قيصرًا وأعاد إلى يوليانوس إرثه فأصبح غنيًّا، فرحل يوليانوس في طلب العلم وأمَّ برغامون في آسية الصغرى، واتصل فيها بأديسيوس الفيلسوف الأفلاطوني الجديد، وبتلميذه خريسانطيوس الفيلسوف الفيثاغوري، وتردد إلى أفسس فاتصل بفيلسوفها مكسيميوس، وكان هذا يمارس ضروب السحر، فوقع يوليانوس تحت تأثير شعوذاته ودخل في زمرة أتباعه. وفي السنة ٣٥٥ قضى ثلاثة أشهر في أثينة والتحق بجامعتها، وكان بين رفقائه فيها غريغوريوس النازينزي وصديقه باسيليوس القديس، ثم أصبح قيصرًا في غالية، ونادى به جنوده إمبراطورًا، فمشى في صيف السنة ٣٦١ إلى الشرق، وتوفي قسطنديوس كما سبق وأشرنا، فأسرع يوليانوس إلى القسطنطينية ودخلها في الحادي عشر من كانون الأول سنة ٣٦١.[١]

وكان يوليانوس قد جنح إلى الوثنية قبل وصوله إلى العرش، وذلك لأسبابٍ أهمها: أن النصرانية كانت دين جلاد أسرته، وأنها كانت في شقاق الاضطراب، وأنها خلت من إبداع الفلاسفة والشعراء، وأن الأفلاطونية الجديدة كانت وريثة هذا الإبداع،[٢] ويُستدَل من الرسائل التي صنفها هذا الإمبراطور الجاحد[٣] أنه قال بأكوان ثلاثة أو شموس ثلاث: الشمس الأولى شمس الحقائق الراهنة والمبادئ السامية والعلة الأولى، وهي التي سماها شمس النفس، والشمس الثالثة شمس المادة الملموسة وصورة انعكاس للشمس الأولى، وبين الاثنتين — أي بين النفس والمادة — شمس ثانية هي شمس العقل. ولما كانت الشمس الأولى بعيدة المنال، وكانت الشمس الثالثة مادية غير صالحة للعبادة، فإن يوليانوس عبد شمس العقل، وسماها الملك الشمس، واعتقد أنه هو سليل الملك الشمس يهتدي بإرشاده، وقال بتناسخ الأرواح على طريقة فيثاغورس، فاعتقد أنه هو الإسكندر في «دور» آخر، وتبنى في رسالته «ما يؤخذ على النصرانية» موقف بوفيريوس الفيلسوف

---

١ Bidez, J., La Vie de l’Empereur Julien, Paris, 1930; Labriolle, P. de, La Réaction Païenne, Paris, 1935.

٢ Devresse, R., Patriarcat d’Antioche, 17.

٣ Wright, W. C., The Works of the Empreror Julian, Camb., 1913.

الحوراني اللبناني، فقال إن إله التوراة هو إله شعب خاص لا إله الكون بأسره، وأن هنالك تناقضًا بين التوحيد في التوراة والتثليث في الإنجيل، وأن الأناجيل الأربعة متنافرة غير متآلفة.

ومنح يوليانوس الشعب حرية المعتقد، فانطلق الوثنيون فرحين مهللين، وراحوا يعترفون ليوليانوس بهذا الفضل ويخلدون ذكرى هذا الانطلاق، ولا تزال بعض نقوشهم الكتابية تنطق «بالجميل» حتى يومنا هذا في عنز إلى الجنوب من صلخد حوران، وفي جنينة وجرش[٤] وفي بيروت.[٥]

في أنطاكية

ودبَّ النشاط في صفوف قبائل القوط في قطاع الدانوب، وحسب يوليانوس لذلك حسابه، ولكنه آثر العمل في الشرق؛ لأنه اعتبر نفسه الإسكندر في دور ثانٍ، فقام إلى أنطاكية قاعدة الشرق الحربية في حزيران السنة ٣٦٢، وفي أثناء مروره في طرسوس أمر بإعادة أعمدة كانت قد انتزعت من هيكل وثني لتشييد كنيسة مسيحية منذ أكثر من ثلاثين سنة، ووصل أنطاكية في التاسع عشر من تموز، يوم انتحاب العذارى على مقتل أذوناي عشيق عشتروت، وكان ليبانيوس الفيلسوف الأديب قد عاد إليها ليعلم فيها إخوانه الأنطاكيين، فاستقبل الإمبراطور الجاحد استقبالًا حارًّا، ولكن أنطاكية كانت قد أصبحت مسيحية، فهال يوليانوس إعراض أهلها عن «الدين القويم»، وقلة اكتراثهم بهياكل دفنة المقدسة، فقال في إحدى رسائله إلى الأنطاكيين ما معناه: «هو ذا الشهر العاشر، شهر لوس الذي تبتهجون فيه بعيد أبولون الإله الشمس، وكان من واجبكم أن تزوروا دفنة، وكنت أنا أتصور موكبكم لهذه المناسبة شبانًا بيضًا أطهارًا يحملون الخمور والزيوت والبخور ويقدمون الذبائح، ولكني دخلت المقام فلم أجد شيئًا من هذا، وظننت أني لا أزال خارج المقام، فإذا بالكاهن ينبئني أن المدينة لم تقدم قربانًا هذه المرة إلا وزة واحدة جاء بها هو من بيته.»[٦]

---

[٤] Bruennow-Domaszewski, Die Provincia Arabia, I, 42–43, II, 230–233, 237.

[٥] Mélanges de la Faculté Orientale, 1907, 266; "Reparatori Orbis Romani et Restilutori Omnium Rerum et Tolius Felicitatis Recreatori Sacrorum et Exlinctori Superstitionis".

[٦] Julianus, Opera, II, 167; Wright, W. C., Works of Emp. Julian, II, 487–489.

وأكرم يوليانوس ليبانيوس الفيلسوف الوثني، ورقى عددًا من الوجهاء إلى رتبة المشيخة، فجعلهم أعضاء سناتوس أنطاكية، ووهب للمدينة مساحات كبيرة من أراضي الدولة، ولكن الأنطاكيين المسيحيين قابلوه بالهزء، ووجدوا في النقيضين لحيته الطويلة وقامته القصيرة مجالًا واسعًا للعبث والسخر،[٧] وعبثًا حاول ليبانيوس أن يوفق بين الإمبراطور وبين رعاياه الأنطاكيين، ثم اشتد الخلاف وتفاقم الشر حين أخرج الإمبراطور بقايا شهيد أنطاكية القديس بابيلاس من قبره، فغضب المسيحيون لكرامتهم، وأحرقوا في الثاني والعشرين من تشرين الأول هيكل أبولون، فأقفل الإمبراطور كنيسة أنطاكية الكتدرائية، وأمر بنهبها وتدنيسها، فكسَّر المسيحيون تماثيل الآلهة، واحتج إفظويوس أسقف أنطاكية فلم يَلْقَ إلا الذل والهوان.[٨]

وتمادى يوليانوس في ضلاله، وأطلق لنفسه العنان، فنزع عن ميومة مرفأ غزة رتبتها المدينية؛ لأنها مسيحية، وجعلها ضاحية من ضواحي غزة الوثنية، وأعمل السيف في رقاب الكهنة والعذارى في غزة وعسقلان، ورمى بأجسادهم إلى الخنازير لتدوسها. وفي بانياس أنزل تمثالًا للسيد المخلص عن قاعدته، وحطمه تحطيمًا وأقام محله تمثالًا لنفسه، وأحرق القومس مغنوس كنيسة بيروت، وأشعل اليهود النيران في كنيستين من كنائس دمشق، ولقي شماس بعلبك حتفه؛ لأنه اجترأ في عهد قسطنطين فأقدم على قلب الأصنام. وأُحرِقت قبور النصارى في حمص، وحُوِّلت كنيستها إلى هيكل لباخوس، وفي حماة أُقِيم تمثال لباخوس على مذبح الكنيسة.[٩]

وعلم يوليانوس أن يسوع تنبأ بألَّا يبقى من الهيكل في أوروشليم حجر على حجر، فلكي يكذب الكتب اهتم لإعادة بناء الهيكل، فأرسل إلى أوروشليم أحد أمنائه أليبيوس ليشرف على العمل، وتقاطر اليهود واجتمع عدد كبير منهم في مكان الهيكل، فجرفوا المكان وحفروا الأرض كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساء، ولما انتهوا من هدم الأساسات القديمة، وأوشكوا أن يضعوا الأساسات الجديدة حدثت زلزلة هدمت الأبنية المجاورة، وقتلت بعض الفعلة وملأت الحفر ترابًا.[١٠]

---

[٧] Negri, G., Julian II, 430–470.

[٨] Allard, P., Julien l'Apostat, III, 9 ff.

[٩] Abel, F. M., Hist. Palest. II, 280.

[١٠] Philostorge, Hist. Ecc., VII., 8–14; Marcellin, XXIII, 1; Vogt, J., Kaiser Julian und das Judentum, 1939.

ونهض يوليانوس في ربيع السنة ٣٦٣ إلى الفرات، وزحف على بابل وانتصر على ذي الأكتاف عند سلوقية، فاستأنف الزحف على طيسفون، وأصابه سهم عقبه نزيف، فتوفي وهو يحدث أصدقاءه عن صفات النفس السامية، وقيل إن فارسًا مسيحيًّا من فرسانه رماه بهذا السهم للقضاء عليه. وتشاور رؤساء الجند فيمَن يكون خلفًا ليوليانوس، فأجمعوا على يوفيانوس Jovianus إمبراطورًا، وكان هذا رئيس الخدم في القصر مسيحيًّا نيقاويًّا أرثوذكسيًّا، فوقع صلحًا مع الفرس وعاد إلى أنطاكية في خريف السنة ٣٦٣.

مجمع الإسكندرية (٣٦٢)

واتخذ يوليانوس التساهل في الدين سياسة له في بدء عهده ليعيد الوثنية، ورغب في عودة الأساقفة المنفيين إلى أوطانهم ليزداد الشقاق في صفوف النصرانية، فعاد أثناسيوس الكبير إلى الإسكندرية، ورجع ملاتيوس إلى أنطاكية، واجتمع في الإسكندرية في السنة ٣٦٢ عدد من الأساقفة المصريين المنفيين وغيرهم، وأَمَّها أستيريوس أسقف البتراء، وأفسابيوس الإيطالي أسقف فركيلية، وكانا قد نُفِيَا إلى مصر، وانضم إلى هؤلاء ممثلون عن لوسيفيروس Luciferus أسقف كلياري، وأبولويناريوس أسقف اللاذقية، والكاهن بافلينوس رئيس كنيسة أفستاثيوس الأنطاكية، واعتذر لوسيفيروس عن الحضور بالذات، وقال «إن ظروف الكنيسة في أنطاكية قضت بذهابه إليها»،[١١] وخشي زملاؤه الأساقفة المجتمعون في الإسكندرية قلة درايته، فحاولوا إبقاءه في مصر ولكنه لم يرضَ.

وكان ظرف الكنيسة في أنطاكية دقيقًا، فإن إفظويوس كان لا يزال في قيد الحياة يمارس سلطته الأسقفية، فلما عاد ملاتيوس إلى أنطاكية أصبح لعاصمة النصرانية في الشرق أسقفان في آن واحد ومكان واحد، وظل أتباع أفستاثيوس يمارسون العبادة مستقلين عن الآريوسيين أتباع إفظويوس وعن الأرثوذكسيين أتباع ملاتيوس، وذلك برئاسة الكاهن بافلينوس.[١٢]

وتصوَّن كاهن اللاذقية أبوليناريوس من الآريوسية، وتزعم الأرثوذكسيين في هذه المدينة وتوابعها، وعاونه في ذلك ابنه القارئ في الكنسية، وكان يُدعَى أبوليناريوس أيضًا،

---

[١١] Socrates, Hist. Ecc., III, 6; Sozomène, Hist. Ecc., V, 12.

[١٢] Théodoret, Hist. Ecc., III, 2; Socrates Hist. Ecc., III, 6; Cavallera, F., Schisme d'Antioche, 89–90.

وتحلى الاثنان بالعلم والأدب اليونانيين، وأصغيا للحكيم الوثني أبيفانيوس بينما كان ينشد شعرًا لباخوس في اللاذقية، فقطعهما ثيودوتوس أسقف اللاذقية، ثم قطعهما جاورجيوس خلف ثيودوتوس؛ لأنهما رحَّبَا بأثناسيوس الكبير لدى مروره باللاذقية سنة ٣٤٦، فلما توفي جاورجيوس بعد مجمع سلفكية (٣٥٩)، وانتُخِب بلاجيوس خلفًا له، انتخب أيضًا أبوليناريوس الأصغر أسقفًا على اللاذقية.[١٣]

وهكذا فإن كل الأساقفة الذين اشتركوا في أعمال مجمع الإسكندرية كانوا نيقاويين مضطهدين، ولكنهم ما كادوا يخرجون من مخابئهم، أو يعودون من الأمكنة التي أُبعِدوا إليها حتى أدركوا أن معظم أساقفة عصرهم كانوا قد ماشوا الآريوسيين مكرهين أو من تلقاء أنفسهم، فاضطر الأعضاء والحالة هذه أن يعتدلوا في موقفهم من الآريوسيين، وأن يحاولوا تفهُّم الظروف التي أكرهت زملاءهم على إهمال دستور نيقية وعدم القول به؛ وهكذا فإننا نرى مجمع الإسكندرية يقرر قبول الآريوسيين الأساقفة في الكنيسة الأرثوذكسية، شرط الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه والتنازل عن الأسقفية، أما الآخرون الذين أُكرِهوا إكراهًا على القول بالآريوسية، فإن المجمع قرر قبولهم في الكنيسة برتبهم شرط اعترافهم بدستور نيقية،[١٤] وشمل هذا العفو معظم أساقفة مصر وفلسطين وقبرص ونيقية وبمفيلية وأسورية، أما أساقفة سورية فإن معظمهم كان قد اتخذ موقفًا مضادًّا لمجمع نيقية منذ اللحظة الأولى، ولكنهم لم يقولوا بالآريوسية المتطرفة، بل بما جاء في قرارات مجمع التكريس الأنطاكي (٣٤١) ومجمع سلفكية (٣٥٩)، فاعترفوا بألوهية ابن الله، ولكنهم تحاشوا القول بالمساواة في الجوهر.

المجمع الإسكندري ومشكلة أنطاكية

وذكر الأساقفة المجتمعون في الإسكندرية إخوتهم في المسيح المخلص أبناء كنيسة أنطاكية، فحرروا رسالة سلامية إلى الأساقفة النيقاويين الموجودين في أنطاكية والذاهبين إليها وإلى

---

[١٣] Philostorge, Hist. Ecc., V, 1; Bardy, G., Declin de l’Arianisme, Fliche et Martin, op. cit., III, 240-241.

[١٤] Saint Athanase, Epist. ad Rufinian., Actes, Second Concile de Nicée.

أفسابيوس الإيطالي أسقف هركيلية، ولوسيفيروس السرديني أسقف كلياري، وأستيريوس أسقف البتراء، وكيماتيوس Cymatios أسقف جبلة Paltus، وأناتوليوس أسقف أفبية، وهو غير أناتوليوس أسقف حلب.[١٥] ومما جاء في نص هذه الرسالة ما يلي: «وأولئك الذين يرغبون أن يعيشوا معنا في سلام، ولا سيما أولئك الذين يجتمعون في الكنيسة القديمة، والآريوسيون الذين يأتون إلينا، هؤلاء يدعون ويُقبلون قبول الآباء لأبنائهم، اقبلوهم قبول الأوصياء، وضموهم إلى البولسيين الأعزاء، ولا تطلبوا منهم شيئًا سوى نكران الهرطقة الآريوسية والقول بالإيمان الذي أقره آباؤنا في نيقية، ونكران القول بخلق الروح القدس واختلافه في الجوهر.»[١٦] وتجاهل المجمع الإسكندري في رسالته هذه إفظويوس أسقف أنطاكية وأتباعه الآريوسيين، ولعلَّ للأعضاء الآباء عذرًا في هذا، ولكن الغريب أنهم لم يذكروا اسم ملاتيوس أسقف أكثرية الأرثوذكسيين في أنطاكية، الذي تحمَّلَ مشقةَ النفي لأجل الإيمان،[١٧] فجاء تدخل هذا المجمع الأرثوذكسي في أنطاكية أبتر قليل الفائدة منذ انبثاقه.

بافلينوس أسقف أنطاكية

ومما زاد في الطين بلة أن لوسيفيروس السرديني أسقف كلياري كان غيورًا عجلًا ينتاط الأمور برأي نفسه، فإنه ما كاد يخلص من النفي والأسر حتى أسرع إلى أنطاكية ليحل مشكلتها، ولدى وصوله إليها أسرع الكاهن إلى تأييد البوليسيين فيها، ورسم الكاهن بافلينوس زعيمهم أسقفًا عليهم،[١٨] فجعل بعمله هذا عدد الأساقفة المتناظرين ثلاثة بدلًا من واحد، فلما انتهى مجمع الإسكندرية من أعماله، وقام الأسقفان أفسابيوس وأستيريوس إلى أنطاكية لتدبير أمورها، جُوبِهَا مجابهةً بعمل لوسيفيروس، فامتنع أفسابيوس عن تبكيت زميله الغربي جهارًا،[١٩] ولكنه لم يعترف برسامة بافلينوس، وغادر أنطاكية إلى إيطالية مستصحبًا معه الشاب الأنطاكي إفاغريوس Evagrios.[٢٠]

---

[١٥] Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 242, n. 1.

[١٦] Saint Athanase, Tomus ad Antiochenos, P. G., Vol. 26.

[١٧] Bardy, G., op. cit., III, 243.

[١٨] Saint JérÔme., Chron., a. 362.

[١٩] Socrates, Hist. Ecc., III, 9; Théodoret, Hist. Ecc., III, 2.

[٢٠] Saint Basile, Epist. 138.

موقف ملاتيوس «الجليل»

وتوفي يوليانوس، وتسلم يوفيانوس أزمة الحكم بعده، وكان يوفيانوس أرثوذكسيًّا يقول بنص الدستور النيقاوي، فدعا أثناسيوس الكبير إلى مقابلته في أنطاكية،[٢١] واستغل ملاتيوس الجليل الظرف فدعا بدوره إلى مجمع أرثوذكسي ينظر في أمر العقيدة، فلبى الدعوة عدد من الأساقفة، أشهرهم: أفسابيوس سميساط، وبيلاجيوس اللاذقية، وأورانيوس أبامية، وطيطس بصرى، وأكاكيوس قيصرية فلسطين، وأناطوليوس حلب، وإسحاق أرمينية؛ وكان قد سبق لهؤلاء الأساقفة وقالوا بنص الدستور الذي أقره مجمع القسطنطينية إرضاءً لقسطنديوس الإمبراطور، فلما زال قسطنديوس وهلك يوليانوس بعده رأوا من الواجب أن يعودوا إلى دستور نيقية،[٢٢] فكتبوا إلى يوفيانوس رسالة جاء فيها أنهم لا يرغبون الانتماء إلى أولئك الذين حرَّفوا حقيقة الإيمان، وأنهم يقبلون نص نيقية ويحافظون عليه، وأنهم توصلوا إلى تفسير حكيم للفظ Homoousios الذي التبس أمره على بعض الأساقفة.[٢٣] وشك البولسيون أتباع الأسقف بافلينوس في إخلاص هؤلاء الأساقفة، واتهموهم بالرياء والمواربة، ووضعوا ردًّا بهذا المعنى نُسِبَ خطأً فيما بعدُ إلى القديس أثناسيوس الكبير.[٢٤]

ملاتيوس وأثناسيوس

ولبى أثناسيوس الكبير دعوة يوفيانوس، ووصل إلى أنطاكية في خريف السنة ٣٦٣، واتصل بملاتيوس الجليل ودعاه إلى الشركة، فأجاب ملاتيوس جوابًا مبهمًا مطاطًا، ولعل اللوم في ذلك يقع على حاشيته، فاعترف أثناسيوس بأسقفية بافلينوس وعاد إلى الإسكندرية،[٢٥] فأمست الأرثوذكسية في أنطاكية منقسمة على نفسها ذات رأسين: ملاتيوس وبافلينوس.

---

[٢١] Pat. Graeca, Vol. 26.

[٢٢] Sozomène, Hist. Ecc., VI, 4.

[٢٣] Socrates, Hist. Ecc., III, 24; Sozomène, Hist. Ecc., VI, 4.

[٢٤] Pat. Gr., Vol. 28, Col. 85; Cavallera, F., Schisme d’Antioche, 125–126.

[٢٥] Saint Basile, Epist., 89, 214, 258.

ولنتنيانوس ووالنس

وتوفي يوفيانوس في السابع عشر من شباط سنة ٣٦٤، واجتمع رؤساء الجند في نيقية، وتداولوا في أمر الخلافة، فأجمعوا في الرابع والعشرين من الشهر نفسه على ولنتنيانوس Valentinianus أحد قادة الحرس، وما إن أطلَّ هذا الإمبراطور على الجند ليخطب فيهم، حتى قاطعه عدد منهم بدق التروس طالبين إمبراطورًا آخر يشاركه في الحكم، فاستمهلهم وشاور ثم قدَّم أخاه والنس Valens في الثامن والعشرين من آذار أوغوسطًا وشريكًا له في الحكم، وتشاطر الاثنان الملك، فحكم والنس الشرق (٣٦٤–٣٧٨)، وتولى ولنتنيانوس الغرب (٣٦٤–٣٧٥)، واقتسم الاثنان الملك اقتسامًا تامًّا كاملًا، وأصبحت الإمبراطورية دولتين شرقية وغربية.

سياسة والنس الدينية

وكان الشقاق قد عمَّ الشرق بأسره، فاضطر والنس أن يتخذ موقفًا معينًا محددًا حسمًا للنزاع، وحبًّا في توطيد الأمن الداخلي وتوحيد الصفوف للدفاع عن الإمبراطورية ضد القوط في الشمال، والفرس في الشرق، ورأى والنس الأرثوذكسية النيقاوية ضعيفة خارج مصر، ولمس مقاومة عنيفة لعقيدة آئيوس Anomeisme في آسية الصغرى وغيرها، ووجد في الدستور «المؤرخ» الذي أقر في ريمينة والقسطنطينية قولًا وسطًا Homeisme بين الأقوال المتضاربة، يؤيده عدد من أساقفة المراكز الهامة في القسطنطينية وأنطاكية وغيرهما، ومما لحظه والنس أيضًا أن قسطنديوس الإمبراطور كان قد جعل من الدستور المؤرخ دستورًا رسميًّا للدولة، فقال بالهومايسية ودافع عنها طوال عهده.[٢٦] ويلاحظ في تعليل موقف والنس أن أفذوكسيوس أسقف القسطنطينية الذي قال هذا القول نفسه كان رزينًا حكيمًا مجربًا ذا تأثير في نفس الإمبراطور الجديد،[٢٧] وأن الإمبراطورة ذومينيكة كانت آريوسية متحمسة.[٢٨]

[٢٦] Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, II, 363-364; Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 248-249.

[٢٧] Philostorge, Hist. Ecc., IV, 4.

[٢٨] Gwatkin, H. M., Studies of Arianism, 238.

إبعاد ملاتيوس الجليل

وفي ربيع السنة ٣٦٥ أصدر والنس أمرًا بوجوب إبعاد الأساقفة الذين أقصاهم قسطنديوس عن مراكزهم وأعادهم يوليانوس إليها، فخرج ملاتيوس الجليل من أنطاكية، ولم يَعُدْ إليها قبل وفاة والنس،[٢٩] أما بافلينوس فإنه بقي آمنًا في أنطاكية؛ لأنه رقي الكرسي الأسقفي بعد عهد قسطنديوس، ولأنه تمتع بشطر وافرٍ من احترام إفظويوس وإكرامه.[٣٠]

وتشاور الأساقفة الذين قالوا بالتشابه في الجوهر، فأرسلوا وفدًا إلى إيطالية يلتمسون بواسطته عطف ولنتنيانوس، وعقدوا مجمعًا في تيانة قبدوقية؛ لسماع أقوال أعضاء هذا الوفد، ولاتخاذ ما يرونه موافقًا لمصلحتهم العامة، وكان بين المجتمعين في تيانة عدد من أساقفة الكرسي الأنطاكي: أفسابيوس قيصرية قبدوقية، وأثناسيوس أنقيرة، وبيلاجيوس اللاذقية، وزينون صور، وبولس حمص؛ فاتفق المجتمعون على القول بالمساواة في الجوهر، وقرروا عقد مجمع كبير لهذه الغاية في طرسوس في ربيع السنة التالية، ولكن أفذوكسيوس القسطنطينية خشي سوء العاقبة، فمنع الإمبراطور انعقادَ المجمع المنتظر.[٣١]

جوهر الروح القدس

وأدى البحث في جوهر الابن إلى النظر في جوهر الروح القدس، ولا سيما وأن المجمع المسكوني الأول اكتفى بالعبارة: «ونؤمن بالروح القدس.» وقال مجمع الإسكندرية في السنة ٣٦٢ بألوهية الروح القدس، وأوجب لعنة مَن يقول بخلق الروح،[٣٢] وراج القول في هذه الآونة في ولايات تراقية وبيثنية والهلسبونط بخلق الروح القدس، وتزعم هذه الحركة ثلاثة من كبار الأساقفة الذين اشتهروا بالفضيلة والمحبة والغيرة، والإشارة هنا إلى أفستاثيوس سبسطية، وإلفسيوس Eleusios كيزيكة، ومراثونيوس Marathnios نيقوميذية،[٣٣] فكان لتزعمهم أثر في نفوس جمهور المؤمنين في هذه المنطقة؛ فاتسعت

---

[٢٩] Socrates, Hist. Ecc., VI, 2; Sozomène, Hist. Ecc., VI, 7.

[٣٠] Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 248, n. 3.

[٣١] Sozomène, Hist. Ecc., VI, 12.

[٣٢] Saint Athanase, Tom. ad Antioch., III.

[٣٣] Bardy, G., Déclin, op. cit, III, 251–255.

حركتهم حتى أصبحت في السنة ٣٨١ موضوعَ بحث رئيسي في المجمع المسكوني الثاني، كما سنرى في حينه.

الأرثوذكسيون لسان واحد

وشغلت القبائل القوطية والنس الإمبراطور عن الدين والعقيدة، وتخالف أتباعه أصحاب القول بالدستور المؤرخ، وتعارضت أهواؤهم فانتظمت صفوف الأرثوذكسيين، ولا سيما في قبذوقية، فجهر أثناسيوس أنقيرة بالعقيدة النيقاوية الأرثوذكسية،[٣٤] وحذا حذوه أفسابيوس قيصرية، واتخذ لنفسه مستشارًا ومعاونًا باسيليوس الكبير،[٣٥] وعاد غريغوريوس النزينزي أبو غريغوريوس اللاهوتي عن الدستور المؤرخ، وصارح زملاءه بالعقيدة الأرثوذكسية.[٣٦] وقال آخرون من آباء كنيسة أنطاكية في أرمينية والبونط قول هؤلاء الأساقفة الكبار، وصرح الجميع بالأقانيم الثلاثة وبوحدة الجوهر، فمهدوا بذلك لتوحيد الصفوف والانضواء تحت لواء الأرثوذكسية.

الاضطهاد الوالنسي

وعاد والنس إلى القسطنطينية في أواخر السنة ٣٦٩، وتوفي أفذوكسيوس بعد ذلك بقليل، فخسرت الكنيسة بوفاته أبًا معتدلًا حكيمًا، واختلف أبناء كنيسة القسطنطينية في أمر الأسقف الجديد خليفة أفذوكسيوس، فأسرع الأرثوذكسيون إلى تأييد إفاغريوس Evagrios، ونادى أصحاب القول بالدستور المؤرخ بذيموفيلوس، فاحتج الأرثوذكسيون وأرسلوا وفدًا إلى والنس الإمبراطور مؤلفًا من أربعة وثمانين إكليريكيًّا، يطالبون بالاعتراف بإيفاغريوس، فغضب والنس وأمر بإعدام الوفد، فألقي القبض على هؤلاء الإكليريكيين وأُبعِدوا على قوارب في مياه البوسفور وأُحرِقوا[٣٧] أو أُحرِق بعضهم،[٣٨] ودخلت الكنيسة في

[٣٤] Philostorge, Hist. Ecc., V, 1.

[٣٥] Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 257; Tillemont, Mémoires, IX, 63 f.

[٣٦] Saint Grégoire de Nazianze, Orat., 19.

[٣٧] Socrates, Hist. Ecc., IV, 16; Sozomène, Hist. Ecc., VI, 14; Théodoret, Hist. Ecc., IV, 24.

[٣٨] Gwatkin, H. M, Studies, 276 ff.

دورٍ من الاضطهاد دام طويلًا، فطُرِد الأرثوذكسيون من الكنائس، وسُلمت كنائسهم إلى أصحاب القول بالدستور المؤرخ، وأُكْرِهَ الآباء إكراهًا على القول بهذا الدستور، وصُودِرت الأملاك والأوقاف، ونُفِي الأساقفة المؤمنون، وكف الجيش عن محاربة الفرس والبرابرة، ودنَّسَ الكنائس والمذابح،[٣٩] وعمَّ اضطهاد والنس جميعَ الولايات الخاضعة له.

وأطل والنس في ربيع السنة ٣٧٢ على سورية، وأقام فيها حتى وفاته، فنفى ملاتيوس الجليل،[٤٠] وبيلاجيوس اللاذقية،[٤١] وبرسا الرها، وإبراهيم بنس (تل بتنان)، وسجن أفسابيوس سميساط.[٤٢] ونشط الكاهنان الأنطاكيان: أفلوغيوس وبروتوجنس لرعاية الأرثوذكسيين في مدينة أنطاكية، فأمر الإمبراطور بنفيهما إلى صعيد مصر،[٤٣] وطرد الأرثوذكسيين من كنائسهم وسلمها لإفظويوس وأتباعه، فاضطر المؤمنون أن ينطلقوا إلى الحقول للصلاة والعبادة،[٤٤] ويؤكد ثيودوريطس المؤرخ أن الإمبراطور أمر بإغراق عدد من المؤمنين في العاصي.[٤٥]

باسيليوس الكبير (٣٢٩–٣٧٩)

ولمع في فضاء الكنيسة في هذه الفترة من محنتها كوكب براق، أنار سبيلها وبهر خصومها فزادها قوة وثباتًا، هو باسيليوس القبدوقي أسقف قيصرية الجديدة ذو القداسة والطهارة والحكمة.[٤٦] وُلِدَ باسيليوس في السنة ٣٢٩ في قيصرية الجديدة في بلاد البونط من أبوين مسيحيين تقيين، ونشأ في جو مشبع بالإيمان القويم والتضحية في سبيله، فإن جدته مكرينة كانت لا تزال حية تحضنه لتُسمِعه أخبارَ الاضطهاد الذي عمَّ

[٣٩] Saint Grégoire, Orat. 20, 25.

[٤٠] Saint Basile, Epist. 68.

[٤١] Théodoret, Hist. Ecc., IV, 12.

[٤٢] Ibid.

[٤٣] Théodoret, H. E., IV, 15.

[٤٤] Saint Jérome, Epist., 15, 16.

[٤٥] Théodoret, Hist. Ecc., IV, 24; Socrates, Hist., Ecc. IV, 17.

[٤٦] Clarke, W. K. L., Saint Basil the Great.

البونط في عهد ديوقليتيانوس، يومَ فرَّتْ مع جده إلى الغابات المجاورة ليتخلصَا من شر الحكام واضطهادهم.

وتلقى باسيليوس العلوم في قيصرية أولًا، ثم في القسطنطينية على يد ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكي، فأثينة حيث رافق غريغوريوس النزينزي، فأضاف إلى شدة إيمانه قوة الحجة وفصاحة الكلام، وفي السنة ٣٥٧ عاد إلى مسقط رأسه، فأشار عليه رئيسه الروحي الأسقف أفستاثيوس أن يرحل إلى سورية ومصر وما بين النهرين؛ ليتفقد شئون الرهبان والنساك فيها، فلما عاد إلى آسية الصغرى وكانت السنة ٣٦٠، أنشأ على نهر إيريس بالقرب من قيصرية الجديدة ديرًا للترهب على طريقة باخوميوس، أصر فيه على الطاعة زيادةً على الفقر والعفة.

وأصبح باسيليوس منذ السنة ٣٦٠ قارئًا، وفي السنة ٣٦٢ سامه أفسابيوس القيصري كاهنًا، ولدى وفاة أفسابيوس سنة ٣٧٠ أجمع المؤمنون في قيصرية على قداسة باسيليوس وثقافته وفصاحته وحنكته؛ فأقامه القديس ملاتيوس الأنطاكي أسقفًا عليهم، فخضعوا لرئاسته مختارين غير مكرهين،[٤٧] وفي شتاء السنة ٣٧١-٣٧٢ وصل والنس الإمبراطور إلى قبدوقية في طريقه إلى أنطاكية، فأقام فيها مدة يسيرة حاول في أثنائها تطبيق سياسته الدينية الجديدة، ولكنه لمس في شخص باسيليوس من القداسة والثبات والجرأة والحنكة ما اضطره أن يعفَّ عن كنيسة قيصرية ورئيسها.[٤٨]

ومما يُرْوَى عن شجاعة هذا القديس وتفانيه في سبيل الإيمان القويم، ما حفظه لنا القديس غريغوريوس النزينزي في عظاته، فقد جاء في العظة العشرين أن مودستوس برايفكتوس الشرق قال لباسيليوس: «وأنت لا تخشى سطوتي؟» فأجابه القديس: «وأي شيء ينتظرني عندك؟ فإن لجأت إلى المصادرة، فإنك لن تجد عندي سوى بعض الكتب، وإن قلت بالنفي فإني غريب في هذا العالم، غريب أينما حللت، وإن أمرت بالتعذيب فإن هذا الجسد النحيل لن يلقى منك سوى ضربة واحدة، أما الموت فإنه سيعجِّل لقائي بالرب إلهي الذي من أجله أحيا وأتحرك، ولأجله أصبحت نصف ميت، وللقائه أتلهَّف منذ أمد بعيد.»[٤٩] ومما قاله القديس غريغوريوس أيضًا أن والنس نفسه توجه يوم عيد العنصرة

[٤٧] Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, II, 387.

[٤٨] Tillemont, Mem., VI, 561.

[٤٩] Saint Grégoire de Nazianze, Orat. XX, 49–50.

إلى كنيسة قيصرية، وتقدم إلى المذبح بهدية، فلم يتناولها منه أحد، فارتعد وارتعش، ثم قبلها الأسقف فلانت صلابة الإمبراطور وعامل باسيليوس معاملة طيبة، ثم أراد نفيه فمرض ابنه الوحيد وأشرف على الموت، فطلب الإمبراطور إلى باسيليوس أن يصلي عليه فقبل الأسقف شرط أن يُعمَّد الولد عمادة أرثوذكسية، فتعافى الولد، ثم عمَّده أسقف آريوسي فمات حالًا، فغضب الإمبراطور وأخذ القلم ليأمر بنفي باسيليوس فانكسر، فبراه فانكسر، وهكذا للمرة الثالثة، فارتجف الإمبراطور ومزق الصك.[٥٠]

كنيسة أنطاكية أعظم الكنائس

وهال باسيليوس أمر الانشقاق في كنيسة أنطاكية، وإبعاد ملاتيوس رئيسها الشرعي، وخروج بفلينوس الأرثوذكسي على هذا الراعي الجليل، واعتراف أثناسيوس الإسكندري بأسقفية بفلينوس وتعاونه معه، ورأى في انشقاق أم الكنائس علة العلل، فقال قوله المأثور: «وهل هنالك أعظم من أنطاكية بين كنائس المسكونة! فإذا ما ساد التفاهم فيها عاد الوفق والوئام إلى غيرها.»[٥١] وأخذ باسيليوس يسعى لحل المشكلة الأنطاكية منذ بداءة عهده في الأسقفية، فكتب إلى أثناسيوس يستحثه على مفاوضة دماسوس أسقف رومة؛ ليرسل إلى الشرق من يتحلى بدماثة الخلق والمقدرة على المفاوضة والإقناع، فينقل جميع القرارات التي اتخذت في الغرب بعد مجمع ريميني، فمحت أثر العنف وتغلبت على الشقاق فأعادت الوفاق والوئام، وأضاف باسيليوس راجيًا أن يتيسر لدى الزملاء الغربيين أمر الاعتراف بشرعية انتخاب ملاتيوس والحكم على ماركلوس أسقف أنقيرة،[٥٢] فرحَّب أثناسيوس باقتراح باسيليوس وأفاده بذلك، فهبَّ باسيليوس لساعته يفاوض ملاتيوس في الأمر، ثم كتب إلى دماسوس أسقف رومة يرجو تدخله في الشرق بإيفاد من يتمكن من جمع الشمل وإحياء المحبة بين كنائس الله، أو كشف اللثام عن المفسدين، فيعرف من يستحق الدخول في الشركة.[٥٣] ووكل باسيليوس أمر القيام بنقل

---

[٥٠] الكنيسة السريانية الأنطاكية لسويريوس يعقوب مطران بيروت ودمشق وتوابعهما، ج١ ص٢٤٨: Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 260–261.

[٥١] Saint Basile, Epist. 67.

[٥٢] Saint Basile, Epist. 69.

[٥٣] Saint Basile, Epist. 70.

هذه الرسالة وتوضيحها إلى دوروثاوس أحد شمامسة ملاتيوس الأنطاكي، ووافق وصول دوروثاوس إلى الإسكندرية مجيء سبينوس شماس ميلان، حاملًا رسالة سلامية من المجمع المحلي الذي عُقِد في رومة سنة ٣٦٨ تجدد القول بدستور نيقية، فاطلع أثناسيوس على هذه الرسالة السلامية، ونصح إلى سبينوس أن يقوم بها إلى قيصرية الجديدة، فسُرَّ باسيليوس بقدوم الرسول الروماني، وكتب رسائل إلى «الغربيين» عمومًا، ثم حرر بالاشتراك مع ملاتيوس الأنطاكي وأفسابيوس السميساطي، وغريغوريوس النزينزي (الأب)، وأفستاثيوس السبسطي وغيرهم من أساقفة الشرق؛ رسالة أساقفة إيطالية وغالية، يوضح فيها حالة الكنائس الشرقية المحزنة، ويرجو تدخل أساقفة الغرب لإنقاذ الموقف، وعاد سبينوس إلى رومة حاملًا هذه الرسائل، وتوفي أثناسيوس الإسكندري وخلفه أخوه بطرس، وقضت ظروف مصر بقيام بطرس إلى رومة، فلما وصل إليها بحث الوضع الراهن في أنطاكية، فاعتبر ملاتيوس خارجًا عن الإيمان القويم مغتصبًا، وأوصى ببفلينوس أسقفًا شرعيًّا على أنطاكية.[٥٤]

وفي صيف السنة ٣٧٤ أمَّ قيصرية إفاغريوس الكاهن الأنطاكي عائدًا من رومة، حاملًا نصًّا معينًا موجبًا توقيعه بحروفه دون أي تغيير، مصرًّا على قيام وفد من كبار الأساقفة إلى رومة للمفاوضة،[٥٥] فأحجم باسيليوس وزملاؤه عن القبول، وأوضحوا السبب في ذلك، فقام إفاغريوس إلى أنطاكية، واشترك في الذبيحة الإلهية مع بفلينوس رافضًا الاعتراف بملاتيوس،[٥٦] وقضت الظروف أن يُحمل باسيليوس على أكثر من هذا، فإن والنس عاد إلى التشديد والتضييق، فأمر بخلع عدد من الأساقفة الأرثوذكسيين ونفيهم، ولكنَّ باسيليوس وطَّنَ نفسه على الصبر، فتلقى هذه الأمور جميعها بسعة صدر وثبات جنان، وعاد إلى مفاوضة الغرب، فكتب ثانية في السنة ٣٧٥ إلى أساقفة إيطالية وغالية كتابًا مؤثرًا، مبينًا ما قاساه الشرق من تصلف الآريوسيين واستئثارهم بالسلطة، مؤكدًا صعوبة انتقال الأساقفة الشرقيين إلى الغرب، راجيًا الإصغاء إلى دوروثاوس لفهم الموقف في الشرق،[٥٧] ولكن التفاهم بين نصفي الكنيسة كان قد بدأ يبدو صعبًا لاختلاف التعبير وكثرة الهموم

---

٥٤ Saint Basile, Epist. 92.

٥٥ Saint Basile, Epist. 138.

٥٦ Saint Basile, Epist. 156.

٥٧ Saint Basile, Epist. 239.

وتنوعها.[٥٨] وما كاد باسيليوس ينتهي من وضع رسالته هذه ودفعها إلى دوروثاوس، حتى علم باعتراف دماسوس أسقف رومة ببفلينوس أسقفًا على أنطاكية، وعاد دوروثاوس حاملًا جواب دماسوس، وفيه يستنكر أسقف رومة أخطاء ماركلوس وأبوليناريوس، ويوضح دستور الإيمان الواجب القبول والاتباع، ولكنه يتجنب الكلام في وحدة الجوهر، فاستأنس باسيليوس بهذا الجواب، وكتب في ربيع السنة ٣٧٧ يشكر لأساقفة الغرب اهتمامهم، ويرجو زيارة كنائس الشرق لتعزية المضطهدين وتقوية الضعفاء، ثم يشير إلى خطر جديد مداهم، فيرى في أفستاثيوس سبسطية وأبوليناريوس اللاذقية وأتباعهما ذئابًا بلباس الحملان تندس بين الصفوف لتمزق الكنيسة تمزيقًا، ويتهم بفلينوس بهرطقة ماركلوس وبالتسرع في القبول بالشركة.[٥٩] وحمل دوروثاوس هذه الرسالة وأسرع إلى رومة، فصادف اجتماع الأساقفة في مجمع محلي، فتُليت الرسالة على الأساقفة، فتهجَّمَ بطرس الإسكندري على ملاتيوس الأنطاكي وعلى أفسابيوس السميساطي؛ فاضطر دوروثاوس أن يرد على هذا التهجم ردًّا شديدًا، ثم حمل جواب الأساقفة إلى باسيليوس وفيه شيء من التعزية، ولكن رومة ظلَّت تعترف ببفلينوس.

هجوم القوط (٣٧٢–٣٧٨)

وعبر الهون الفولكة في السنة ٣٧٢ أو قبيلها، متدفقين كالسيل الجارف في سهول روسية الجنوبية، فاحتلوا مراعي الآلاني والقوط والشرقيين، ولم يبقَ حائلًا بينهم وبين مصب الدانوب سوى القوط الغربيين، واشتد ضغط الهون ففر جماعة من القوط الغربيين، وخذلوا قومهم واتجهوا غربًا، وجاءوا يفاوضون الإمبراطور والنس في الانتقال إلى داخل الحدود الرومانية والإقامة في تراقية، ورأى والنس في هؤلاء عنصرًا طيبًا وأداة فعالة لتقوية الجيش ولا سيما فِرَق الخيالة، فقبل مطلبهم فعبروا الدانوب خمسين ألفًا، وما إن فعلوا وألقوا سلاحهم حتى شعروا بالفاقة وقلة المأكل، فاستعادوا سلاحهم بالرشوة وجالوا في البلقان ينالون قوتهم بالقوة. وفي السنة ٣٧٧ اندلعت نيران الحرب بين الفريقين، ولم يقوَ الجيش الروماني المرابط في البلقان على ضبط الموقف، فاستقدم والنس نجدات من

[٥٨] Bardy, G., Déclin, op. cit., III, 273–274.

[٥٩] Saint Basile, Epist. 263.

الشرق وأمده غراتيانوس ابن أخيه إمبراطور الغرب ببعض الكتائب، ثم قام هو بنفسه على رأس الجيش الغربي لإعانة عمه، ولكن والنس تسرَّع فنازل القوط وحده، فخَرَّ في ساحة القتال صريعًا في الثامن من آب سنة ٣٧٨.

ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩–٣٩٥)

وعظم الأمر على غراتيانوس وهاله، فاستدعى إليه ثيودوسيوس أشهر القادة وأمهرهم في الحرب، وفاوضه في أمر القوط، ورفعه إلى منصة الحكم، ونادى به إمبراطورًا على الشرق، وهب ثيودوسيوس يعالج الموقف العسكري، فأوقع بالقوط ضربات أولية متتالية، ثم رأى أن لا بدَّ من الاستيلاء على تسالونيكية لتأمين الزاد والعتاد الواردين من مصر والشرق، فاشتق طريقه إليها، ووصلها في أوائل حزيران سنة ٣٧٩ واستقر بها، وفي شباط السنة ٣٨٠ انتابه مرض عضال أشرف به على الموت، فطلب الاعتماد ليغسل به ذنوبه قبل ملاقاة ربه، ولكنه تساءل قبل اعتماده عن إيمان الأسقف المعمد، ولما تثبت من أرثوذكسيته اعتمد،[٦٠] وكان والنس قد عدل عن اضطهاد الأرثوذكسيين مذ أن بدأ يعدُّ العدة لمنازلة القوط، وكان غراتيانوس قد أيده في ذلك في خريف السنة ٣٧٨،[٦١] فلما استتب الأمر لثيودوسيوس، عاد فأكد وجوب توقيف الاضطهاد والسماح للآباء المنفيين بالعودة إلى أوطانهم.[٦٢]

مجمع أنطاكي محلي (٣٧٩)

وعاد ملاتيوس إلى مدينة الله مركز أبرشيته في صيف السنة ٣٧٨،[٦٣] وعاد أيضًا كيرللس إلى أوروشليم، وأفسابيوس إلى سميساط، وإفلاليوس إلى أماسية البونط،[٦٤] ووجد ملاتيوس

---

٦٠ Socrates, Hist. Ecc., V, 6.

٦١ Socrates, Hist. Ecc., V, 2; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 1; Rauschen, G., Jahrbucher der Christlichen Kirche unter dem Kaiser Theodosius dem Grossen, 30.

٦٢ Thèodoret, Hist. Ecc., V, 2.

٦٣ Socrates, Hist. Ecc., V, 5.

٦٤ Sozomène, Hist. Ecc., VII, 2; Theodoret, Hist. Ecc. V, 4.

الرعية ممزقة مشتتة، فقسم وافر منها كان يتبع دوروثيوس الآريوسي أسقف هرقلية، الذي خلف إفظويوس في أنطاكية في السنة ٣٧٦،[٦٥] وقال بعضهم قول أبوليناريوس فاعتبروا ويتاليوس Vitalis أسقفًا عليهم، وكان بفلينوس الأرثوذكسي لا يزال يرعى قطيعًا صغيرًا من الرعية، فاتصل ملاتيوس لدى عودته ببفلينوس أولًا، وحاول إزالة الشقاق بين أصحاب الإيمان الواحد بالتفاهم والرضى، ولكن بفلينوس تشامخ وتناسى كلام السيد الفادي واستغنى مكتفيًا باعتراف أسقفي رومة والإسكندرية. ولا صحة فيما يظهر لما ورد في بعض المراجع[٦٦] من أن ملاتيوس عرض على زميله بفلينوس رئاسة مزدوجة على كنيسة أنطاكية طوال حياتهما، تتبعها رئاسة موحدة بعد وفاة أحدهما.[٦٧]

وأخفق ملاتيوس الجليل في القديسين في مفاوضة بفلينوس، فدعا إلى مجمع أنطاكي محلي في خريف السنة ٣٧٩، ولبى الدعوة مائة وثلاثة وخمسون أسقفًا، بينهم: أفسابيوس سميساط، وبلاجيوس اللاذقية، وزينون صور، وإفلوغيوس الرها، وبيماتيوس ملَّة، وديودوروس طرسوس، أما باسيليوس الكبير فإنه كان قد توفي في مطلع هذه السنة نفسها، وقد ضاعت أعمال هذا المجمع، ولم يبقَ منها شيء سوى بعض إشارات غامضة متقطعة، وردت في مجموعة الشماس ثيودوسيوس، وقد أدى هذا الغموض والتقطع إلى اختلاف في الرأي بين العلماء المؤرخين؛ فالعلامة الألماني شوارتز يذكر إشارة إلى دستور إيمان أنطاكي جاءت في القانون الخامس الصادر عن المجمع المسكوني الثاني (٣٨٢)، فيتوقع احتجاجًا في قرارات هذا المجمع على موقف دماسوس رومة وبطرس الإسكندرية من بفلينوس،[٦٨] والعلَّامتان دوشان وبتيفول يذكران تعلق الإمبراطور ثيودوسيوس بالعقيدة الأرثوذكسية، «كما قال بها دماسوس رومة وبطرس الإسكندرية»، ومحاولات باسيليوس وملاتيوس السابقة للاتصال برومة وإقناعها بوجوب تأييدهما، فيتوقعان انقياد الآباء المجتمعين في أنطاكية إلى القول بما قالت به رومة والإسكندرية، وطلب إدخالهم في الشركة المقدسة.[٦٩] ولعل أفضل ما يُقال في مثل هذا الظرف من الاجتهاد أن المجمع الأنطاكي

---

٦٥ Socrates, Hist. Ecc., IV, 35.

٦٦ Socrates, Hist. Ecc., V, 5; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 2; Théodoret, Hist. Ecc., V, 2–3.

٦٧ Cavallera, F., Schisme d’Antioche, 232–243.

٦٨ Schwartz, P., Zur Gesch. des Athanasius, Nachrichten, 1904, 375.

٦٩ Duschéne, L., Hist. Anc. de l’Eglise, II, 421; Batiffol, Siège Apost., 109.

اعتبر ملاتيوس خليفة الرسولين الشرعي، وأعلن استمساكه بالإيمان القويم، وحرر بذلك رسالة سلامية إلى أسقف رومة وغيره.[٧٠]

موقف الإمبراطور

ولا نعلم بالضبط ماذا كان موقف الإمبراطور ثيودوسيوس من هذا النزاع بين ملاتيوس الجليل في القديسين وبين بفلينوس مرشح دماسوس رومة وبطرس الإسكندرية، ونجهل أيضًا درجة اهتمامه لهذا الاختلاف المحلي، وجل ما يجوز قوله هو أن هذا الإمبراطور المسيحي أهمل ذكر كنيسة أنطاكية ورئيسها عندما أصدر رأيه الرسمي في الثامن والعشرين من شباط سنة ٣٨٠،[٧١] فإنه حَضَّ جميع المؤمنين بهذه البراءة على القول بما قال به أسقف رومة وأسقف الإسكندرية، ولكن نص هذا الحض جاء في صالح بفلينوس؛ لأن أسقف رومة وأسقف الإسكندرية كانا قد اعترفا به وحده،[٧٢] ثم أدرك ثيودوسيوس بعد اطلاعه على الوضع الراهن في الشرق أن الأرثوذكسية لن تسيطر في الشرق إلا بواسطة الأرثوذكسيين أنفسهم وبتعاونهم مع السلطة الزمنية، فجاءت براءة العاشر من كانون الثاني سنة ٣٨١ خاليةً من أية إشارة إلى أسقف رومة أو أسقف الإسكندرية، وحرمت جميع الذين لا يقولون قول «نيقية» من الاجتماع في المدن، وقضت بتسليم جميع الكنائس لأبناء الكنيسة «الجامعة».[٧٣]

المجمع المسكوني الثاني (٣٨١)

وكان غراتيانوس وثيودوسيوس قد رغبا في عقد مجمع مسكوني منذ السنة ٣٧٨، ولكن ظروف الحرب وقلة الثقة بين أساقفة الشرق وأساقفة الغرب حالت دون ذلك، فلما جاءت السنة ٣٨١ دعا ثيودوسيوس إلى مجمع مسكوني في القسطنطينية، فأمَّ العاصمة الشرقية مائة وثمانية وأربعون أسقفًا وأبًا من أعاظم رجال الكنيسة، بينهم: ملاتيوس الأنطاكي

---

[٧٠] Bardy, G., Concile d'Antioche, (379), Rev. Bénédictine, 1933, 196–213.

[٧١] Cod. Theod., XVI, 1.

[٧٢] Harnack, A., Dogmengeschichte, II, 272; Rade, Damasus, 71.

[٧٣] Cod. Theod., XVI, 5.

وغريغوريوس النزينزي، وييموثاوس الإسكندري، وكيرلس الأوروشليمي، وشمل الوفد الأنطاكي خمسة وستين أسقفًا من أساقفة فلسطين، وفينيقية، وسورية، والعربية، والرها، وما بين النهرين، والفرات، وقيليقية، وأسورية.[٧٤] ووفد على الآباء الأرثوذكسيين المجتمعين في القسطنطينية ستة وثلاثون أسقفًا من أنصاف الآريوسيين بزعامة الوسيوس أسقف كيزيكة، فامتنعوا عن الاشتراك في أعمال هذا المجمع؛ لأنهم لم يرضوا عن القول بدستور نيقية.[٧٥] وتكلم غريغوريوس النزينزي يوم عيد العنصرة عن الروح القدس، فحثَّ أتباع مقدونيوس على الألفة والاتحاد، ولكن دون جدوى،[٧٦] فلم يَبْقَ للاشتراك في أعمال المجمع إلا كل أرثوذكسي مستقيم الإيمان.

وتولى ملاتيوس الجليل في القديسين رئاسة هذا المجمع المسكوني، وتوفي قبل انتهاء الأعمال، فتولى الرئاسة بعده غريغوريوس النزينزي أسقف القسطنطينية، ثم استعفى هذا الثيوغولوس من أسقفية القسطنطينية ومن رئاسة المجمع، فجلس في كرسي الرئاسة خلَفُه في أسقفية القسطنطينية نكتاريوس الشهير.

فبحث المجمع أمر العقيدة فثبَّت الدستور النيقاوي، وأضاف إليه فيما يظهر الفصول التاسع حتى الثاني عشر،[٧٧] ويلاحظ هنا أن أعمال هذا المجمع ضاعت، وأنه لم يَبْقَ منها شيء سوى ما أعيد ذكره للتثبيت في أعمال المجمع الخلقيدوني. ويرى هرنك العلامة الألماني أن هذه الفصول التي أُضِيفت إلى دستور نيقية، اتخذت شكلها الحالي بعيد مجمع الإسكندرية (٣٦٢)؛ لأن أبيفانيوس السلَميني يشير إليها في الأنكوراتوس Anocratus سنة ٣٧٤.[٧٨]

وسنَّ المجمع أربعة قوانين، بحث الأول والرابع منها أمر الهرطقات وأسقفية مكسيموس القسطنطيني، وحَرَّمَ الثاني تدخُّل الأساقفة في شئون الكنائس خارج

---

[٧٤] Turner, C. H., Canons Attributed to the Council of Constantinople, Journ. Theol. Studies, 1913–1914, 161–178; Mansi, III, 568–572; Michel le Syrien, VII, 313–316; Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 129–316.

[٧٥] Socrates, Hist. Ecc., V, 8; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 9.

[٧٦] Grégoire de Nazianze, Orat., 41.

[٧٧] Schwartz, P., Zeitschrift fur Neutestament, 1926, 38–88.

[٧٨] Harnack, A., Dogmengeschichte, 276–278; Bardy-Palanque, Victoire de l'Orthodoxie, Fliche et Martin, op. cit., III, 287, n. 5.

أبرشياتهم، فجعل لأسقف الإسكندرية أن يسوس أمور مصر فقط، ولأساقفة الشرق أن يسوسوا الشرق فقط مع المحافظة على التقدم الذي في قوانين نيقية لكنيسة الأنطاكيين، وجعل هذا القانون الثاني لأساقفة آسية أن يسوسوا أمور آسية فقط، وللذين في البونط أمور البونط فقط، وللذين في تراقية أمور تراقية فقط، وأما كنائس الله التي بين الأمم البربرية، فيجب أن تُساس حسب عادة الآباء. وجاء في القانون الثالث: «أما أسقف القسطنطينية، فليكن له التقدم في الكرامة بعد أسقف رومة؛ لأن القسطنطينية رومة جديدة.»

ويلاحظ هنا أن كتاب المجامع اليوناني يضيف إلى هذه القوانين الأربعة ثلاثة قوانين أخرى، ولكنَّ الخامس والسادس من هذه القوانين المضافة هما من أعمال مجمع السنة ٣٨٢ لا ٣٨١، وأما السابع فإنه في الأرجح نبذة من رسالة وجهتها كنيسة القسطنطينية في منتصف القرن الخامس إلى مرتيريوس أسقف أنطاكية.[٧٩]

وختم الأساقفة أعمال المجمع المسكوني الثاني في التاسع من تموز سنة ٣٨١، وحرروا بذلك رسالة إلى ثيودوسيوس الإمبراطور، وشكروا له دفاعه عن الإيمان القويم وسعيه لتوطيد السلم بين الكنائس، فأصدر الإمبراطور في الثلاثين من تموز سنة ٣٨١ براءة جديدة أوجب بها إعادة الكنائس إلى الكاثوليكيين الأرثوذكسيين، واعتبر أرثوذكسيين أولئك الذين شاركوا نكتاريوس القسطنطينية، وتيموثاوس الإسكندرية، وبيلاجيوس اللاذقية، وديودوروس طرسوس وغيرهم،[٨٠] وكانت أسقفية أنطاكية لا تزال شاغرة بعد وفاة ملاتيوس.

فلافيانوس أسقف أنطاكية (٣٨١–٤٠٤)

وتوفي ملاتيوس في أواخر أيار السنة ٣٨١، فبكاه الإمبراطور والأساقفة وأبَّنه أفصح الخطباء، ومما قاله أبو الآباء غريغوريوس النيصي أحد أعضاء المجمع المسكوني الثاني: «كيف اضطر لساني على حبك الكلام، وقد قيدته الطامة كالسلسلة؟ كيف أفتح فمي وقد

[٧٩] Luebeck, K., Reichseinteilung und Kirchliche Hierarchie des Orients, 172–191; Grumel, V., Régestes des Actes du Patriarcat de Constantinople, I, 1–2.

[٨٠] Cod. Theod., XVI, 3.

أطبقته الدهشة؟ كيف أحدق بعين النفس وأنا مغلَّف بحلك الأهوال؟ أين شراعنا المجيد الذي كان يسير بهدي الروح القدس؟ أين ثبات العقيدة الذي كنا نفزع إليه واثقين؟ أين النوتي الحكيم الذي كان يقود السفينة إلى الهدف الأسمى؟ فافقهوا أي رجل هذا: جليل من مشارق الشمس، صدِّيق بلا لوم تقي متنكب عن كل أمر رديء.»[٨١]

وبحث الآباء المجتمعون في القسطنطينية أمر خلافة الرسولين في أنطاكية، فارتأى غريغوريوس الثيولوغوس الاعتراف برئاسة بفلينوس الذي كان لا يزال في قيد الحياة، ولا سيما وأن أسقفي رومة والإسكندرية كانا لا يزالان يعترفان بسلطته على أنطاكية وتوابعها، ولكن الأساقفة الأعضاء الصغار «ضجوا ودندنوا»، والكبار أعرضوا ولم يوبخوا، فاضطر الثيولوغوس أن يقول قوله المأثور: «إذا كان السيد له المجد ولد في الشرق، فإنه صلب فيه أيضًا.»[٨٢] واستقال الثيولوغوس من رئاسة المجمع ومن أسقفية القسطنطينية، وأجمع الأعضاء على نكتاريوس خلفًا له، وعلى فلافيانوس الكاهن خلفًا لملاتيوس.

ونفَّذ شابور الحاكم العسكري إرادة ثيودوسيوس في أنطاكية، فطرد دوروثيوس وأتباعه الآريوسيين، ولم يعترف برئاسة بفلينوس،[٨٣] فأجمع الأساقفة في أنطاكية وانتخبوا فلافيانوس أسقفًا وسلموه عكاز الرعاية،[٨٤] وزهت الكنيسة في عهد فلافيانوس، وعاد إليها نشاطها السابق، ولكن رومة ثابرت في تأييد بفلينوس! وكبر بفلينوس وبلغ المائة، وكان لا يزال مكابرًا فخرج على مقررات المجمع المسكوني الأول، وسام هو نفسه إفاغريوس خلفًا له، ثم توفي في السنة ٣٨٨، فعاد النشاط إلى صفوف الأفستاثيين في أنطاكية، فاتهموا فلافيانوس بالاستبداد والظلم والجور واستغاثوا بالغرب، ولا سيما بأسقف ميلان إمبروسيوس، وانتهزوا فرصة وجود ثيودوسيوس في رومة في صيف السنة ٣٨٩، فحاولوا تقويض أسس المحبة والاحترام بين الإمبراطور وخليفة الرسولين في أنطاكية،[٨٥] ودعا إمبروسيوس أسقف أنطاكية إلى كابوا في إيطالية في أواخر السنة ٣٩١ لمقابلة إفاغريوس

---

[٨١] الكنيسة السريانية الأنطاكية لسويريوس يعقوب مطران بيروت ودمشق وتوابعهما، ج١، ص٢٦٢–٢٧٧؛ Grégoire de Nazianze, Carmen de Vita Sua, 1573.

[٨٢] Grégoire de Nazianze, op. cit., 1690–1693.

[٨٣] Théodoret, Hist. Ecc., V, 23.

[٨٤] Socrates, Hist. Ecc., V, 9; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 11; Cavallera, F., Schisme, 254–255.

[٨٥] Théodoret, Hist. Ecc., V, 23.

فيها، ولكن فلافيانوس أبى أن يعاد النظر في أمر انتخابه،[٨٦] فلجأ إمبروسيوس إلى أسقف رومة، وألحَّ عليه بوجوب تدخل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية في الأمر، فكتب سيريقيوس أسقف رومة إلى ثيوفيلوس في ذلك، فالتأم مجمع محلي في قيصرية فلسطين في السنة ٣٩٢ للنظر في الخلاف القائم بين إفاغريوس وفلافيانوس، فاعترف الأساقفة المجتمعون بأسقف واحد على أنطاكية هو «فلافيانوس التقي الورع»، وعلى الرغم من هذا كله، فإن رومة تباطأت فلم تعترف بأسقفية فلافيانوس إلا بعد ذلك ببضع سنوات![٨٧]

---

٨٦ Ambroise, Epist., 56.

٨٧ Cavallera, F., Schisme, 286.

الفصل التاسع عشر

يوحنَّا الذهبيُّ الفم

٣٤٥–٤٠٧

وأنجبت كنيسة أنطاكية في أثناء محنتها أفصح الآباء لسانًا وأبلغهم قلمًا وأشدهم ذودًا عن حرمة الدين وشرف الإيمان، هو يوحنا الذهبي الفم، الذي لا يزال يهزنا بصلواته هزًّا، ويثير فينا بمواعظه خوف الله وطاعته.

مولده وصباه

أبصر يوحنا النور في أنطاكية في السنة ٣٤٥ من أب عريق في الشرف سكوندوس Secundus قائد القوات الرومانية في سورية، وأمٍّ مسيحية تقية أنثوسة Anthusa الشهيرة.

وَلَدَتْ أنثوسة ابنة ثم ابنًا، وتوفي سكوندوس في السنة الرابعة لزواجه، فترملت أنثوسة وهي لا تزال في العشرين من عمرها، واحتقرت أباطيل هذه الدنيا، وزهدت في ملاذها فرفضت الزواج بعد ترملها، وعطفت على ولديها وتفرغت لهما، فربتهما تربية مسيحية خالصة، ونالت بذلك إعجاب جميع معارفها المسيحيين منهم والوثنيين، واضطر

ليبانيوس الفيلسوف الوثني أن يعترف بإخلاصها وثباتها، وأن يهتف قائلًا: «ما أعظم النساء عند المسيحيين!»[١]

تهذيبه وتحصيله

وشبَّ يوحنا فطلب اللغة والبيان في مدرسة ليبانيوس أشهر بلغاء عصره، فأجاد اليونانية وشرب من مناهلها الكلاسيكية حتى تضلع؛ فكانت له خير عون في مواعظه وشروحاته ورسائله، ولمس ليبانيوس مواهب تلميذه، فافتخر به وعده أبرع خطباء عصره، وقال لتلاميذه عند احتضاره: لقد كان في ودي أن أختار يوحنا لإدارة مدرستي من بعدي، ولكن المسيحيين سلبوه منَّا.[٢] وطلب يوحنا الفلسفة، فقرأها على أنذروغاثيوس Androgathius في أنطاكية أيضًا، وكان ليوحنا في حياة التلمذة عدد من الأصدقاء الصادقين المخلصين الأمناء، ولكن واحدًا بينهم كان أرفع من غيره في إخلاص الولاء، وهو باسيليوس الذي أصبح فيما بعدُ أسقفَ رَفنية بالقرب من مصياف، لا باسيليوس الكبير كما ظن بعض الباحثين.[٣]

زهده وورعه

وأراد باسيليوس أن ينتقي لنفسه سيرة الزهد، ويعبر إلى حمى «الفلسفة الحقيقة»، وأطلع صديقه يوحنا على ذلك وحثه على ترك العالم، ولكن يوحنا لم يقبل، ومن هنا قوله: مال الميزان بيننا، فارتفعت كفة صديقي وهبطت كفتي تحت ثقل الملاذ الدنيوي والأميال الشبابية.[٤]

وامتهن يوحنا المحاماة ليلفت النظر إلى مواهبه ومداركه، ويصعد بها إلى أعلى الدرجات، وبهر أقرانه في قاعات المحاكمة بفصاحته وبلاغته، ونال إعجاب القضاة ورجال الحكم، ثم رغب عنها فجأةً وترفَّعَ فتركها أنفةً واستنكافًا.

---

[١] Schaff, P. S., Nicene and Past-Nicene Fathers, IX, 5; Ad Viduam Juniorem, Opera, Ed. Bened., I, 340.

[٢] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 2.

[٣] Socrates und Kurtz, Kirchengeschichte, I, 223.

[٤] Sacerdotio, I, 3.

وكانت أمه قد زرعت في قلبه خوف الله وحب الفضيلة، فأقبل على الإنجيل والتوراة يستقي إيمانًا ومحبة وطهرًا، وكان ملاتيوس الجليل في القديسين أسقف أنطاكية يرقب تقدُّم يوحنا في العلم والفضيلة، فلما تيقَّنَ من زهده أحلَّه في دار الأسقفية، وأرشده ثلاث سنين متتالية، ثم منحه سر المعمودية ورقاه إلى درجة القارئ، ولا يخفى أن بعض المسيحيين آنئذٍ هابوا سر المعمودية، وتحرزوا من عواقب الوقوع في الخطيئة بعدها، فآثروا تأجيل ممارسة هذا السر حتى سن متأخرة، وليس في المراجع ما يبين لنا سبب تأخُّر أنثوسة عن تعميد ابنها ووحيدها، أو سبب تأخُّر يوحنا نفسه عن سماع الوعظ وتقبُّل النعمة حتى الثالثة والعشرين، وقد يكون السبب في ذلك انقسام الكنيسة في أنطاكية على نفسها، وقد لا يكون.[٥]

وبالمعمودية «رفع يوحنا رأسه فوق أمواج بحر العالم الجائشة»،[٦] فهرع إليه باسيليوس وعانقه ولازمه ابتغاء إرشاده، واتفق الاثنان على الانزواء في مسكن واحد، مبتعدين عن العالم، مكرسين وقتهما للدرس والتأمل والصلاة، ولكن أنثوسة ذكَّرت ابنها بترملها الباكر، وامتناعها عن الزواج للقيام بواجبها له ولأخته، وطلبت إليه بلجاجة أن يعود إليها، فرضخ لسؤالها،[٧] وبقي معها ولكنه حبس نفسه في البيت، ولازم الصمت وقضى وقته في المطالعة والصلاة،[٨] ثم أنشأ بالاشتراك مع صديقه باسيليوس أخوية نسكية ضمت بعض رفاقهما في التلمذة أمثال: ثيودوروس أسقف موبسوستة فيما بعدُ، ومكسيموس أسقف سلفكية أسورية، وخضعت هذه الأخوية فيما يظهر إلى ديودوروس وكرتيريوس الراهبين الرئيسين في أنطاكية آنئذٍ، وهاك ملخص ما قاله الذهبي الفم في وصف هذا التنسُّك:

«منذ نصف الليل وعند صياح الديك يهب رئيس الجماعة، ويطوف على غرف الإخوة، فيمس كلًّا منهم برجله ناطقًا بعض كلمات مقدسة ليوقظهم ويدعوهم إلى الصلاة، فيقومون بصمت وتهيب، ويرفعون قلبهم وأصواتهم إلى الله، ويتلون مناوبة صلاة السحر

[٥] Stephens, W. R. W., Introduction to the Treatise on the Priesthood, Nicene and Post-Nicene Fathers, IX, 28.

[٦] De Sacerdotio, I, 3.

[٧] Ibid., I, 3–5.

[٨] Ibid., VI, 12.

والتسابيح، ثم يعودون ساكتين إلى مخادعهم، فيتبحرون متأملين في الأسفار المقدسة أو ينصبون على التأليف، ثم يجتمعون في الكنيسة خمس مرات في النهار لتلاوة الساعات الأولى، والثالثة، والسادسة، والتاسعة، والغروب. أما ساعات الفراغ في النهار فإنهم كانوا يقضونها بالأعمال اليدوية؛ كحراثة الأرض، وحياكة السلال، والمسوح، وخياطة ثياب الفقراء، وجمع الحطب ونقله إلى الدير، وحمل ما يحتاج إليه من القوت، وإصلاح الأطعمة. وكان بابهم مفتوحًا يرحبون بكل ضيوفهم، إن أغنياء أو فقراء مرضى أو قطاع طرق، أبرارًا أو خطأة، أصدقاء أو أعداء، وعندما كان الغريب يطأ عتبة الدير كانوا يحيونه بألفاظ مقدسة، ثم يأتي أحد الإخوة وينفض عن ثيابه الغبار، ثم يغسل رجليه ويقبلهما، ثم يجلسه إلى مائدة الضيوف، ويقف أمامه باحترام لخدمته.

وعند المساء بعد زوال النهار كانوا يجتمعون كلهم لتناول غدائهم الوحيد وهو الخبز والملح لا غير، وكانوا لا يأكلون الزيت إلا قليلًا، أما إذا توعك أحدهم أو أضناه المرض، فكانوا يأذنون له بأكل بعض الأعشاب والخضر المسلوقة، وبعد صلاة النوم كانوا يتوغلون في التأمل، ثم ينطلقون لينالوا نصيبًا من الراحة، وكان فراشهم حصيرة ممدودة على الأرض، فكانت لهم في النهار مجلسًا وفي الليل سريرًا، وكانوا يمشون حفاة وليس على أبدانهم إلا أنسجة غليظة من شعر الماعز أو وبر الإبل أو بعض الجلود الجافة، وكانوا كلهم في المأكل والملبس سواء مهما كان شرف أصلهم وغنى أسرتهم.» مأخوذ بتصرُّف عن نخبة النخب ص١١–١٣.

وفي السنة ٣٧٤ شاع في الأوساط النصرانية في أنطاكية أن أصحاب الرأي والقول من رجال الإكليروس والشعب، مزمعون أن يرقوا باسيليوس ويوحنا إلى درجة الأسقفية (وفي بعض النسخ إلى درجة الكهنوت)،[٩] وقضى العرف آنئذٍ بوجوب الرضوخ في مثل هذه الأحوال لمشيئة الشعب والإكليروس، وجاز لهؤلاء إكراه مَن يرون فيه الكفاءة على قبول ما يقرون (ومن هنا بكاء القديس أوغوسطينوس قبل سيامته). وعلم باسيليوس بما تضمره له ولرفيقه الأوساط الدينية العالية، فجاء وأسرَّ إلى يوحنا هذا الخبر، وتوسل أن يبيح له بما في ضميره ليعمل ما هو عامل، فإن رضي يوحنا بالأسقفية انضمَّا فيها كلاهما،

[٩] Stephens, W. R. W., St. Chrysostom: Treatise Concerning The Christian Priesthood, Nicene and Post-Nicene Fathers, IX, 35, n. 1.

وإن رفضها هربًا معًا، فأجاب يوحنا جوابًا مبهمًا فهم باسيليوس منه الترغيب في قبول الأسقفية، وحان الوقت وجاء الأسقف الراسم، فتوارى يوحنًّا ورسم باسيليوس وحده، فاستثقل باسيليوس الحمل؛ ولا سيما لما وجد رفيقه قد أفلت منه، فجاءه متذمرًا باكيًا مذكرًا كيف تصافيا على المحبوب والمكروه، وكيف رسخت بينهما قواعد المودة، وتوثقت عُرى المحبة، مؤكدًا أنه لم يتهم وده قط، ولم يخشَ غدره مرة واحدة،[١٠] فوقع هذا الكلام في قلب يوحنا وقعًا شديدًا، فأنشأ كتابه الشهير في الكهنوت مبيِّنًا سمو مرتبته، وافتخر بالخديعة التي اقترفها؛ لأنه بها أعطى الكنيسة كاهنًا بحسب قلب يسوع المسيح، واعتبر الكاهن قديسًا وملاكًا وجيشًا وقاضيًا وطبيبًا وراعيًا، وقال: «إن الكهنوت يباشر على الأرض إلا أنه مرتب بين العجائب السماوية؛ لأنه لم يرتب من إنسان ولا من ملاك ولا من أية قوة أخرى مخلوقة، بل من المعزي الإلهي نفسه. ويرسم صورة الحرب الواجبة على كل كاهن، فيرى في الكاهن جنديًّا مدافعًا عن الكنيسة جسد يسوع المسيح السري، مسلحًا بسلاحين: سلاح المثل الصالح، وسلاح الكلام الذي يسند القلب ويؤيده.»[١١]

وكان غضب والنس قد جاش على الأرثوذكسيين في السنة ٣٧٣، فأكره نسَّاكهم ورهبانهم على الخدمة العسكرية أو المدنية التي تفرضها الدولة، واعتبر بعض المسيحيين تقشفات النسَّاك ضربًا من الجنون، فهزءوا بهم وأهانوهم أينما وجدوهم وفاخروا بما فعلوا، وضحك الوثنيون على الطرفين، فأخذت الكآبة من نفس يوحنا كل مأخذ، وعلم أحد الأصدقاء بهذا الانفعال النفساني الشديد، فحضَّ يوحنا أن يقيم من كلامه حصنًا يدرأ به نار الاضطهاد، فتردد يوحنا ثم أنشأ ثلاثة كتب في إطراء السيرة النسكية، ولا تزال حتى يومنا هذا من أفضل ما صنف في موضوعها.

وازداد يوحنا في هذه الفترة (٣٧٤–٣٨١) رغبةً في الكمال الرهباني، فتوغل في وادي العاصي وأوى إلى مغارة عند مصبه، فلم يقوَ جسمه على هذا التقشُّف الجديد، فهزل قديسنا وحل به داء عضال، فظن هو أنه قد قارب أصدق المواعيد، فعاد إلى أنطاكية «ولم يدرِ أن الله إنما افتقده لما رأى ثمره نضج، وقد حان الوقت ليرفع صوته ويسطع نوره في أفق الكنيسة.»

[١٠] De Sacerdotio, I, 6.

[١١] De Sacerdotio, III, 1–6.

الشماس والكاهن والواعظ (٣٨١–٣٩٨)

وكان الجليل في القديسين ملاتيوس قد عاد إلى أنطاكية في صيف السنة ٣٧٨، فلما أطل يوحنا على دار الأسقفية ابتهج الأسقف الأنطاكي الجليل، وجاء به ورسمه شماسًا رغم معارضته، فوزع الصدقات اليومية، وزار المرضى والحزانى، وحافظ على النظام والهدوء في الاجتماعات الروحية، وعاون الأسقف في خدمة الأسرار وحمل المناولة إلى المرضى.

ودُعِيَ ملاتيوس لحضور المجمع المسكوني القسطنطيني (٣٨١)، فاستصحب يمينه الكاهن فلابيانوس، ووكل السهر على شئون الكنيسة في أنطاكية إلى شماسه يوحنا، ثم توفي ملاتيوس في أثناء انعقاد هذا المجمع فبكاه يوحنا؛ لأنه فقد به مرشدًا ومحاميًا، وأجمع الآباء الأنطاكيون أعضاء المجمع القسطنطيني على فلابيانوس خليفة للرسولين، وأيدهم في ذلك غيرهم من أعضاء هذا المجمع، وتم انتخابه وتسنم السدة الأنطاكية، فتوثقت بينه وبين يوحنا عُرى المحبة، وشرع يفكر في ترقية الشماس يوحنا إلى الكهنوت، ثم وضع يده عليه في كنيسة القديس بولس سنة ٣٨٦، فجعله كاهنًا وواعظًا، وسمعت كنيسة أنطاكية خطب يوحنا، فأخذتها الدهشة وأصغت جامدةً لا تبدي حراكًا، فملك يوحنا قيادتها بزمام فصاحته ومثال قداسته، فكان يديرها كيف شاء، ولم يكتفِ بضرب معاقل الرذائل ودكها، بل سعى لإصلاح المجتمع ومعالجة قضيتي الفقر والرقيق، فمثل المصائب تمثيلًا بارعًا، وحرك الأغنياء أن يمدوا يد المعونة، فشرعت الكنيسة في إنشاء المستشفيات والمآوي برئاسة الأسقف وتدبير الشمامسة والقساوسة.

الذهبي الفم وعيد الميلاد (٣٨٦)

وبدأت كنيستنا الأنطاكية تحتفل بعيد الميلاد في أيام الذهبي الفم، آخذةً بذلك عن كنيسة رومة، فلما سيم قديسنا قسًّا في السنة ٣٨٦ رأى من واجبه إقناع المؤمنين بأهمية العيد المجيد، فقال مما قال في العشرين من كانون الأول:

> أيها المسيحيون، إن العيد المقبل علينا هو العيد الأكثر وقارًا وهيبة بين جميع الأعياد، ولا نخرج عن محجة الصواب إذا قلنا إنه أبو الأعياد، فلو لم يولد المسيح بالجسد لما كان اعتمد ولا صلب ولا أرسل الروح القدس؛ ومن ثم فما كنا نقيم عيد الغطاس ولا الفصح ولا العنصرة، فمن عيد الميلاد المجيد تولدت جميع الأعياد السيدية، وتدفقت منه كما تتدفق الأنهار من ينبوع واحد، فأطلب

إليكم وألتمس منكم جميعًا أيها الإخوة أن تتركوا منازلكم وتوافوا إلى الكنيسة بجد ونشاط لنشاهد السيد موضوعًا في مذود.

وعاد قديسنا إلى الوعظ في يوم عيد الميلاد بفصاحته المعهودة، فقال قولًا بليغًا خالدًا، وسجل بعض الأخبار المفيدة لتاريخ هذا العيد، فألمع إلى أننا لم نبدأ بالاحتفال به في كنيستنا الأنطاكية قبل السنة ٣٧٦، وأننا أخذناه عن الغرب:

ولئن كان ظهور هذا اليوم الشريف ومعرفتنا إياه من مدةٍ لا تنيف على عشر سنوات، فمع ذلك بما أظهرتموه فيه أيها المسيحيون من الجد والنشاط قد ازدهى وأضاء كأنه مسلم به قديمًا، وقد كان معروفًا منذ البدء بين الشعوب القاطنين في الغرب، ودخل بيننا حديثًا، ومع ذلك فقد أينعت ثماره الدانية القطوف بغزارة تظهر لديكم جليًّا مما تشاهدون من احتشاد الشعب في الدار وما حولها، فضلًا عن أن الكنيسة ضاقت بالذين وافوا إليها، وقد بلغني أنه قامت مناظرة بشأن هذا العيد، وأن البعض نددوا بتعيين هذا اليوم، وأبوا أن يشتركوا في الاحتفال به نظرًا لكونه مستحدثًا، والآخرين احتجوا على ذلك، وناضلوا عن إقامة هذا التذكار المجيد، مبينين أنه قديم وأن الأنبياء قد سبقوا وأعلنوا عن يوم ميلاد السيد، وأنه معروف عند جميع الشعوب القاطنين بلاد تراكي حتى بلاد إسبانية ويحتفلون به كثيرًا.

وثورة أنطاكية

وتلطخت إدارة ثيودوسيوس بالرشوة، وكتب ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكي إلى الإمبراطور يقول: «حكامك الذين تبعثهم إلى الولايات ليسوا سوى قتلة.» وجاءت السنة ٣٨٧ فشرعت الحكومة المركزية تتهيأ للاحتفال بمرور عشر سنوات على حكم الإمبراطور، وبإتمام السنة الخامسة لإشراك ابنه أركاديوس بالسلطة، فاستثقل الأنطاكيون هذه الترتيبات المالية الجديدة، وتقدم أعيانهم إلى عامل الإمبراطور في أنطاكية يسألونه رفع هذا العبء، فلم يلتفت إلى سؤالهم، وأبدى جباة الضرائب الجديدة عنفًا وقسوة، فأمسوا هدفًا للشتائم واللعان، واشتدت وطأة هذا الظلم على الفقراء، فأخذوا يتجولون في الشوارع، وجعلوا يجدفون على الإمبراطور وأسرته، وحطموا تماثيلهم النحاسية ولا سيما الإمبراطورة بلاكلَّة، التي كانت قد غمرت الأنطاكيين بالإحسانات، فإنهم جروا تماثيلها في الأوحال والأقذار، ثم

كسروها قطعًا، واختبأ رجال السلطة في منازلهم، وحذا حذوهم سائر الأعيان والوجهاء، فأمست المدينة في يد أهل الفوضى، فنهبوا ودمروا وخربوا تخريبًا، ثم أفاقوا فتأملوا مرتجفين، وتوقعوا نزول العقاب، فهجر بعضهم المدينة، وهرب آخرون إلى الهضاب المجاورة.

وتفطر قلب فلابيانوس الأسقف، وخشي سطوة الإمبراطور، فأشفق على خرافه من أن يؤخذ البريء بذنب الجريء، وقر قراره أن يطرق باب الإمبراطور نفسه ويلتمس العفو منه، فسار في إبان الشتاء مسرعًا؛ ليسبق السعاة المنفذين لإنذار ثيودوسيوس بما جرى، فنظر الأنطاكيون إلى هذه الغيرة بعين الارتياح والتقدير، وشخصت أبصارهم إلى خليفته الذهبي الفم، فاقتدى هذا بأصحاب أيوب، ولزم جانب الصمت سبعة أيام، ثم أخذ يعزي نفوسهم مؤكدًا حماية يسوع، مذكرًا ببلايا أيوب وبالفتيات الثلاثة، الذين ظلوا يسبحون الرب في وسط أتون النار.

وبلغ ثيودوسيوس خبر الاضطرابات في أنطاكية من الإشاعات قبل وصول السعاة، فاستشاط غضبًا وجزم بأن ينزع عن جميع أنطاكية امتيازاتها، وينقل عاصمة المشرق إلى اللاذقية، وأوفد إليها قائدين كبيرين: الليبيكوس Ellebichus وقيصاريوس. فلما وصلا إلى أنطاكية في الثاني والعشرين من شباط من السنة ٣٨٧، أعلنا سقوط امتيازات المدينة، وأقفلا الملاعب والمشاهد والميدان والحمامات، وشرعا ينقبان عن المجرمين، ووقعت الشبهات على كثيرين من وجهاء المدينة لتقاعدهم عن قمع الهيجان، فأوثقوا وطرحوا في السجون، وحجز على أموالهم وطردت نساؤهم من بيوتهم، ولم يجرؤ أحد أن يقبلهن عنده خشيةَ أن يُتَّهَم بمشاركة أزواجهن، فتولى الذهبي الفم التعزية بنفسه، وأقبل لمساعدته بعض أساقفة الكرسي الأنطاكي وعدد من الرهبان والنساك، وامتاز بين هؤلاء مقدونيوس الناسك فإنه أوقف معتمدي ثيودوسيوس، وقال لهما قولًا حكيمًا، وطلب إليهما أن ينقلاه إلى سيدهما؛ وخلاصة هذا القول أن ليس له أن يمحو من سفر الحياة صورة الله الممتازة، فاندهش المعتمدان من بلاغة هذا الشيخ الزاهد وقوة لهجته، ووعداه بأنهما لا يمسان أحدًا بسوء قبل أن يرفعا كلمته للإمبراطور.

وقابل الذهبي الفم موقف الأساقفة والنساك والرهبان في هذا الحادث الجلل بموقف كبار الوثنيين، فقال في إحدى مواعظه ما معناه: أين هم الآن أولئك الرجال أصحاب الطيالس الطويلة واللحى العريضة، الذين كانوا يتمشون شامخي الأنوف في الأندية العمومية وفي يدهم عصًا؟! أين هم في ساعة الأحزان والذعر، لقد هجروا المدينة عند حلول الخطر، وفروا إلى المغاور والأودية إخفاءً لعار ضعفهم، ولم يأتِ لإغاثة الشعب في ضيقه

إلا محبو الحكمة الحقيقية حكمة الصليب، هؤلاء النساك مستودعو كنز تعليم الرسل ووَرَثة غيرتهم وشجاعتهم، وكفى بالحوادث صوتًا يفحم كل خصم (نخبة النخب: ٢٩).

ووصل أسقف أنطاكية فلابيانوس إلى القسطنطينية وهرع إلى البلاط، وكان قد عانى من التعب أشده، ولا سيما وأنه سافر في أثناء الصوم الكبير وحفظ فريضته، فلما أبصره ثيودوسيوس تصدم قلبه أسفًا، فذكر الامتيازات والإحسانات التي غمر بها أنطاكية، وقال: أهذا هو عرفان الجميل؟ فرد عليه الأسقف الشيخ خليفة الرسولين بخطاب طويل، وأفضل ما جاء فيه قوله: «إني لست فقط رسول شعب أنطاكية، بل أيضًا سفير الله أتيت باسمه أنبئك أنك إن غفرت للناس سيئاتهم وهفواتهم، غفر لك أبوك السماوي مساوئك وزلاتك. افتكرنَّ في ذلك اليوم الرهيب حين نلتزم جميعًا أن نؤدي عن أعمالنا حسابًا، تذكر أنك اليوم تستطيع بلا عناء ولا دموع وبكلمة واحدة أن تعطف عدل الله أبيك، وتؤكد لك في دينونة يسوع المسيح الحصول على الصفح والغفران، فبمثل ما تحكم الآن يحكم عليك. إن سائر السفراء يمثلون بين يديك ببهاء الذهب ووفرة الهدايا وكثرة المال، أما أنا فلا أقدم لك إلا شريعة يسوع المسيح المقدسة، والمثل الذي أعطاناه بموته على الصليب ليستحق لنا مغفرة سيئاتنا.» فمست الشفقة قلب ثيودوسيوس، وأجاب: «إن كان يسوع ربنا وسيدنا قد صار لأجلنا عبدًا وأسلم نفسه ليُصلَب، وإن كان قد سأل أباه المغفرة لصالبيه، فكيف أتجاسر أن أتردد في المغفرة لأعدائي» (نخبة النخب: ٣٧–٤١).

وعاد فلابيانوس إلى أنطاكية حاملًا العفو المنشود، واحتفل بعيد الفصح المجيد، فانبرى الذهبي الفم يرد آيات الشكر والتسبيح؛ لأن شعب أنطاكية كان ميتًا فعاش، وضالًا فوجد.[١٢]

أسقف رومة الجديدة (٣٩٨–٤٠٤)

وتوفي نكتاريوس أسقف القسطنطينية في خريف السنة ٣٩٦، فأصبح كرسي رومة الجديدة كرة شقاق بين الشعب وبين رجال الكهنوت، وكان ثيودوسيوس قد توفي

---

[١٢] Chrysostomos, J., Hom. I–XXI; Libanius, Disc., XIX–XXII, XXXIV; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 23; Théodoret, Hist. Ecc., V, 20; Hug, A., Antiochia und der Aufstand im Jaher 387; Goebel, R., De Ioannis Chrysostomi et Libanii Orationibus quae sunt de Seditione Antiochensium; Baur, C., Chrysostomus und seine Zeit, 2 Vols., Munich, 1929–1930.

في مطلع السنة ٣٩٥ مخلفًا أزمة الحكم ليدين ضعيفتين لابنيه أركاديوس في الشرق وأونوريوس في الغرب، وتسلط على أركاديوس وزيره الأكبر روفينوس، ثم قوي على هذا الخصي أفتروبيوس فأسقطه وجلس في مكانه، وهذا هو الذي عهد إليه من حيث منصبه أن يرفض توسلات أولي الأطماع، وأن يفتح أذنه إلى وحي ضمير المؤمنين وصوت الشعب المسيحي الحقيقي، وكان أفتروبيوس الخصي قد عرف الذهبي الفم في أثناء إحدى رحلاته إلى «الشرق»، فأعجب بفصاحته وقَدَّرَ فضله، فلم يجد أجدر منه بإعادة شعب العاصمة إلى الفضائل المسيحية، ولعله أحس بوحي أُوتِيَهُ من فوق؛ فإنه عند المجاهرة باسم الذهبي الفم استصوب الجميع هذا الاختيار. وعرف الخصي تعلُّق الأنطاكيين بمرشحه، فكتب إلى فيكتور استريوس والي الشرق أن يرسل يوحنا خفية دون إطلاع أحد من الأنطاكيين على ذلك، فبادر الوالي إلى التنفيذ ووجد أن أيسَرَ الطرق هو الاحتيال بإخراج يوحنا إلى ظاهر البلد ليتمكن من تسفيره سرًّا، فدعا الوالي الكاهن يوحنا إلى زيارة قبور الشهداء خارج أسوار المدينة، فعَدَّ يوحنا هذه الرحلة واجبًا مقدسًا ورضي بها، وما كاد يعبر باب أنطاكية حتى استلمه أحد الخصيان وقائد من البلاط وحملاه إلى القسطنطينية.[١٣]

ورغب الإمبراطور ومَن حوله أن يستقبلوا المرشح الأنطاكي بما استطاعوا من العظمة والأبهة والإجلال؛ لأنه سيتبوأ أسمى المناصب في الكنيسة بعد أسقف رومة، فدعا الإمبراطور إلى مجمع محلي للانتخاب، وجمع كل أكابر العاصمة، واستدعى ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية ليحتفل بوضع يده على الذهبي الفم وتسليمه عكاز الرعاية.

ولم يرضَ ثيوفيلوس عن مقررات المجمع المسكوني الثاني، التي جعلت من أسقف القسطنطينية الثاني في الكرامة بعد أسقف رومة، وخشي مواهب يوحنا وقداسته، فأَحَبَّ أن يجعل أيسيدوروس الكاهن الإسكندري أسقفًا على رومة الجديدة، وكان هذا الكاهن راهبًا فاضلًا، ولكنه ساذج مطواع، فأحبه ثيوفيلوس؛ لأنه رأى في انقياده الأعمى آلة يديرها في يده كيف شاء،[١٤] فجاهر ثيوفيلوس بعدم الرضى، فاضطر أفتروبيوس الخصي أن يقول لهذا الأسقف: «أمامك أحد أمرين: إما أن تنقاد لرأي الأساقفة والوجهاء، وإما أن تدافع عن نفسك ضد المشتكين عليك.» فارتبك ثيوفيلوس واحتفل برسامة يوحنا الذهبي

[١٣] Sozomène, Hist. Ecc., XIII, 2; Palladius, Dialog., V, 19.

[١٤] Socrates, Hist. Ecc., VI, 2; Palladius, Dialog., VI, 22.

الفم في السادس والعشرين من شباط سنة ٣٩٨،[١٥] ويجوز القول أيضًا مع السنكسار القسطنطيني إن هذه الرسامة تمت في منتصف كانون الأول من السنة ٣٩٧.[١٦]

ولم يعبأ يوحنا بأبهة العاصمة، ولم يتعاظم بعظم مركزه، ولم يتباهَ بقربه من البلاط، بل حاول أن يوفِّق بين حياته الرعائية وبين حياة المخلص، وابتدأ بالإصلاح من بيته، فخفض النفقات وبذل ما فاض من الدخل في سبيل إسعاف الفقير وتخفيف مصائب المرضى، وسعى سعيًا حثيثًا لحماية خرافه من حملات الهراطقة: الآريوسيين، والأفنوميين، والمانيين، والمركونيين، والفالنتينيين. والأفنوميون كانوا أتباع أفنوميوس أسقف كيزيكة، وقد سبقت الإشارة إليه في فصل سابق.

وعُنِيَ هذا الأسقف القديس بإصلاح الإكليروس، فسلق بعضهم بلسانه سلقًا، وأوجب عليهم الزهد في الملبس والمأكل والقيام بالواجب المقدس، وكان لكلامه وقع شديد في قلوب السامعين، فانقاد إكليروس القسطنطينية لصوته، وعاد عدد كبير منهم إلى ما اعتاد عليه آباء الكنيسة الأولون من التواضع والفقر والقناعة والقداسة. وكان الأرشدياكون سرابيون أشد من الذهبي الفم غيرة على الإصلاح، فأمسى إفراطه في التنقيب والتأنيب عثرة في سبيل القديس، فحقد بعض رجال الإكليروس على الأسقف وعلى الأرشدياكون، واضطر الأسقف بعد أن يئس من إصلاحهم أن يقطعهم من جسم الكنيسة، وتفقَّدَ القديس بنفسه جميعَ الأديرة، فأثنى على المحافظين على فرائض الدعوة، وأكره الذين نفخ فيهم ريح العالم على الرجوع إلى الأديرة، والتقيُّد بقوانينها وتقاليدها، وحرم على الكهنة قبول العذارى المصونات في بيوتهم، وأنشأ للعذارى مآوي انقطعن فيها للصلاة والفضائل ولنسج ثياب الفقراء وتزيين الكنائس، وجعل عليهم أمًّا واحدة لسياستهن نيكارتية النيقوميذية، ثم التفت إلى إصلاح ما فسد من أحوال الأرامل فئة الكنيسة العاملة في أوائل عهدها، فمنعهن عن التردد إلى البيوت والحمامات والملاعب، وأمرهن أن يعتضنَ عنها بالتأمل والصلاة، ومؤاساة الفقراء، وعيادة المستشفيات، وحتم أنهن إن استثقلن الترمل فليتقيدن بزواج ثانٍ خير لهن وأولى، وفاقت أولمبياذة جميع الأرامل بجميل فضائلها وكثرة حسناتها، وكانت قد ترملت وهي في العشرين من عمرها، فالتحقت بأحد الملاجئ، فلما أتى يوحنا القسطنطينية كان لها من العمر خمسون سنة، فأثرت شخصيته في نفسها، فعرضت

[١٥] Socrates, Hist. Ecc., VI, 2.

[١٦] Synaxaire de Constantinople, (Ed. de la Haye), 312–313.

عليه خدماتها وأموالها، فأنفق القديس عن سعةٍ في سبيل تبشير القوط والروس وبعض الفينقيين في تلال لبنان، وفي إنشاء المؤسسات الخيرية.

سقوط أفتروبيوس (٣٩٩)

وكان أفتروبيوس ثاقب العقل، وقَّاد الفكر، ينظر في مشاكل ويحلها من أبواب لم يستطع غيره الوصول إليها؛ فكبرت منزلته في عين أركاديوس، ورأى فيه الرجل الوحيد الذي لا غنًى عنه في تدبير السلطنة، وولد هذا الاحترام في قلب الخصي صلفًا وتيهًا.

وكان ثيودوسيوس قد أدخل إلى صفوف الجيش عددًا كبيرًا من القوط، ولا سيما في سلاح الخيالة، وكان بعضهم قد خدم الجيش بإخلاص وأبلى البلاء الحسن، فرقي من رتبة إلى رتبة، وكان بين هؤلاء غايناس القوطي، وكان غايناس يهتم بشئون القوط أبناء جنسه، ولم يكن عدد هؤلاء قليلًا في العاصمة، فأصبح غايناس أحد زعماء السياسة، وأصبحت سياسة العاصمة تطاحنًا مستمرًّا بين غايناس وبين أفتروبيوس، وكان لغايناس نسيب اسمه تربيجلد كان مستلمًا قيادة بعض الجيوش في آسية الصغرى، فوسوس إليه غايناس أن يجتاح برجاله القوط سهول فريجية مقوضًا وناهبًا، ففعل فتظاهر غايناس بالغيظ، واستأذن بالانطلاق لإطفاء نار الثورة والعصيان، فسار إلى آسية الصغرى، وجمع الكل تحت إمرته وزحف على القسطنطينية،[١٧] فانخلع قلب أركاديوس وفاوض غايناس، فكان من أهم شروط الصلح أن يترك الإمبراطور وزيره أفتروبيوس، ثم أمر الإمبراطور بنفي أفتروبيوس ثم بقتله، فالتجأ هذا إلى الكنيسة، وهرع إلى المذبح والتزق به! وتابعه الجنود لإلقاء القبض عليه، فصدهم الذهبي الفم. وفي اليوم التالي، بينما كان أفتروبيوس لا يزال بجانب المذبح، رقي الذهبي الفم المنبر، ووعظ عظته الأولى في حادث أفتروبيوس:[١٨]

> باطل الأباطيل كل شيء في هذه الدنيا باطل، أين قنصليتك وظروفها الباهرة، أين ذهبت تلك المشاعل الساطعة والرقص ووقع أرجل الراقصين، أين تلك الأعياد والمآدب، أين ذهبت ستائر المرسح وأكاليل الزهر، أين تصفيق المدينة وهتافات الملعب، أين إطراء المعاينين المتفرجين؟ الكل اضمحل؛ لقد عصفت

---

[١٧] Socrates, Hist. Ecc., VI, 6; Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 4; Théodoret, Hist. Ecc., V, 32.

[١٨] Patrologia Graeca, Vol. 52, Col. 391–414; Nicene and Post-Nicene Fathers, IX, 245–265.

> الزوبعة، فزعزعت الشجرة وذرت أوراقها وهددت بقطع عروقها. أين أصدقاؤك المداهنون المالقون؟ أين مآدبك وخمرك؟ أين أولئك الذين توددوا إليك وغازلوا سطوتك؟ هي أحلام تضاءلت وتلاشت عند الفجر، باطل الأباطيل كل شيء باطل. أين أولئك الذين كانوا آلةً في يد شهواتك؟ أين أولئك السائرون أمامك لتمهيد السبيل لقدميك في الطرق العمومية؟ لقد هربوا عند حلول الخطر وكفروا بنعمتك حرصًا على تخليص أنفسهم، أكذلك يا ترى صنع خدمة الكنيسة؟ إن الكنيسة التي اضطهدت أيام كنت مسلطًا تفتح ذراعيها اليوم لتعانقك وتحميك، وحذار أيها الشعب أن تفكروا أن غاية كلامي الشماتة على هذه السقطة، كلا لست أقصد فيها إلا تأييد الذين لم يسقطوا بعدُ، فعندما جاءوا من البلاط أمس ليجروه بالقوة هرع إلى الاعتصام بالآنية المقدسة، وقد امتقع وجهه حتى صار كالأموات، وكانت فرائصه ترعد، وجميع أعضائه ترتعش، واختنق صوته واعتقل لسانه، ولعلكم تقولون إنه بالشرائع البربرية التي سنها قد أغلق في وجهه أبواب هذا الملجأ، أفلا ترون أنه قد ضرب نفسه بالضربة عينها التي أتاها، وأنه هو نفسه كان أول مخترق لأحكامه الجائرة، وجاء الآن يكفر على مشهد من السماء عن قساوته عينها، ليكن لدينا عظيمًا هذا المذبح المقدس الذي يمسك ويحمي هذا الأسد المقيد.[١٩]

ورضي الإمبراطور وعفا عن أفتروبيوس، فخرج من حمى المذبح المقدس فاعتقل ونُقف عنقه.[٢٠]

الذهبي الفم وغايناس

وكان غايناس آريوسيًّا كمعظم القوط أبناء جنسه، فلما تغلب على أفتروبيوس دبَّ النشاط إلى الأوساط الآريوسية، وأخذوا يجتمعون في الليل أجواقًا يرتلون أناشيد آريوسية، فنظم الذهبي الفم أجواقًا أرثوذكسية، وجعلهم فئات يحيون الليل في الهياكل مرنمين لألوهية

[١٩] Stephens, W. R. W., Eutropius, Patrician and Consul, Hom. I, 1–5.

[٢٠] Zosime, Hist., V, 18; Philostorge, Hist. Ecc., XI, 6.

السيد ترانيم وأناشيد، وأدى هذا كله إلى الاشتباك وسفك الدماء في بعض الأحيان، ولكن غايناس واظب على احترام الذهبي الفم وتقديره وإجلاله، وكان من مظاهر هذا الاحترام أنه عفا عن أوريليانوس وسترنينوس إكرامًا للذهبي الفم،[٢١] وأنه امتنع عن مصادرة إحدى الكنائس في العاصمة للسبب نفسه، وكان بعض القوط أرثوذكسيين، فخصهم الذهبي الفم بعنايته، ورسم لهم كهنة منهم، وأفرد لهم كنيسة يتعبدون فيها بلغتهم.[٢٢]

أخصام الذهبي الفم

وخشي الوطنيون الروم مطامع غايناس، فعاهدوا قوطيًّا آخر فرافيتة، ولدى خروج غايناس من العاصمة في أوائل السنة ٤٠٠ هجم الوطنيون على مَن تبقَّى من عساكره في داخل المدينة وقتلوهم، وعبر غايناس الدانوب، ووقع أسيرًا في يد الهون، وقُتِلَ في أواخر السنة ٤٠٠.[٢٣]

وبزوال أفتروبيوس أولًا ثم غايناس، زالت هيبة السلطة، فجهر أخصام الذهبي الفم بمعارضةٍ أدَّتْ مع مرور الزمن إلى نفيه ووفاته، وشملت هذه المعارضة منذ البداية عناصر معينة من الرهبان والأرامل والأساقفة، وتزعم معارضة الرهبان إسحاق الراهب السوري، الذي كان قد أمَّ العاصمة في عهد والنس الإمبراطور، واشتهر بحق أو بغير حق بقداسة فائقة، وبجرأة في سبيل الأرثوذكسية أدت به إلى مصارحة والنس باقتراب أجله، وكان قد أسس لنفسه مقرًّا عند مدخل العاصمة أصبح أول الأديار فيها،[٢٤] ولم يرضَ إسحاق الراهب عن إصلاحات الذهبي الفم، فلما زالت سطوة البلاط بدأ يطعن في الأسقف القديس، فكان لكلامه ودعاياته أسوأ الأثر.[٢٥]

وانضم إلى الرهبان المعارضين عدد من الأرامل اللواتي حقدن على الأسقف القديس لأنه انتقد خفتهن جهارًا، وكان بينهن عدد من المقربات إلى البلاط كمرسة أرملة الجنرال

---

[٢١] Théodoret, Hist. Ecc., V, 33.

[٢٢] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 4.

[٢٣] Socrates, Hist. Ecc., VI, 6.

[٢٤] Pargoire, J., Les Débuts du Monachisme à Constantinople.

[٢٥] Bardy, G., Saint Jean de Constantinople, Fliche et Martin op. cit., IV, 133-134.

بروموتوس، وكستريكية أرملة القنصل سترنينوس، وإفغرافية Eugraphia التي قُدِّرَ لها أن تلعب دورًا هامًّا في الدس والمؤامرات في البلاط.[٢٦]

في أفسس (٤٠٠)

وتعبد أنطونينس أسقف أفسس للمال، فشكاه أفسابيوس أسقف ليدية إلى الذهبي الفم، فأرسل الذهبي الفم أسقفين إلى أفسس للبحث والتدقيق، وتوفي أنطونينس في غضون هذا البحث، فأقبلت الرعية تطلب إلى أسقف العاصمة أن يقوم إليها ليصلح شئونها، ففعل وعقد مجمعًا محليًّا وسام شماسه هرقليذس أسقفًا على أفسس، وأسقط ستة أساقفة كانوا قد رقوا إلى درجاتهم بالسيمونية.[٢٧]

الإخوة الأربعة الطوال (٤٠١–٤٠٣)

وكان ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية مطماعًا كلفًا بحشد الأموال، فطمع بثروة الرهبان، فاتهم بعضهم باتباع أوريجانس واضطهدهم، فهرب عدد منهم ولاذوا بأسقف أوروشليم، ثم سار خمسون منهم إلى القسطنطينية، يتقدمهم الأربعة الطوال ليرفعوا للإمبراطور شكواهم، وهؤلاء الأربعة هم: أمونيوس، وأفسابيوس، وأفثيميوس، وذيوسقوروس أسقف هرموبوليس،[٢٨] ولدى وصولهم إلى القسطنطينية ذهبوا توًّا لزيارة أسقفها القديس، وشكوا ما قاسوا من اضطهاد، فأنزلهم في بيت قريب من إحدى الكنائس، وسمح لهم بالصلاة مع سائر المؤمنين، ولكنه منعهم عن الاشتراك في ممارسة الأسرار المقدسة ريثما تنكشف الحقيقة، وكتب إلى ثيوفيلوس يناشده برابطة «المحبة الأخوية الجامعة» أن يصفح عن الإخوة الطوال، وأبان أنهم إذا كانوا مؤاخذين بذنب، فليرسل أيًّا شاء من المدعين عليهم إلى القسطنطينية، فخشي ثيوفيلوس المحاكمة في القسطنطينية، وأدرك أنه إذا تمَّتْ أخذ هو بجرائره ومظالمه، فاتهم يوحنا الذهبي الفم بقبول الإخوة الطوال بشركة الأسرار بدون فحص أو تدقيق، واعتبره شريكًا لهم في أضاليلهم الأوريجانية، ثم أرسل رسلًا إلى

---

[٢٦] Ibid.

[٢٧] Socrates, Hist. Ecc., VI, 11; Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 6.

[٢٨] Jerome, Adversus Rufinus, III, 18.

القسطنطينية، يطوون التهم والتقريعات على الأربعة الطوال، فاضطر هؤلاء أن يذكروا مساوئ ثيوفيلوس نفسه أمام زميله القديس يوحنا، فاستكبر الذهبي الفم هذا الأمر، وكتب ثانيةً إلى ثيوفيلوس يشير إلى الشكايات عليه، ويرجوه أن يكلفه بحسم المسألة، فأجاب ثيوفيلوس أن قوانين نيقية لا تسمح للأساقفة أن ينظروا في الدعاوي الخارجة عن حدود أبرشياتهم،[٢٩] ولم يتعجل الأمور ولم يذهب إلى القسطنطينية فورًا، بل إنه أوفد إليها القديس أبيفانيوس أسقف سلامينة قبرص (٤٠٣)، وكان هذا لا يطيق أوريجانس وتآويله، فلما قرأ رسالة ثيوفيلوس ضد الأربعة وأوريجانس أقلع حالًا إلى العاصمة، وأعلنها حربًا لا هوادة فيها على الأربعة وعلى الذهبي الفم أيضًا! فتدخلت السلطات في أمره، وطلبت إليه أن يعود إلى أبرشيته، ففعل وتوفي وهو في طريقه إليها.[٣٠]

ثيوفيلوس في القسطنطينية

وسئم الأربعة الطوال الصبر، وكتبوا العروض وأودعوها شيئًا من جرائم ثيوفيلوس، وذهبوا إلى كنيسة القديس يوحنا، وانطرحوا على أقدام الإمبراطورين، والتمسوا حضور ثيوفيلوس ليحاكم بإزاء الذهبي الفم، وأصابت هذه الشكوى أذنًا صاغية، فكتب أركاديوس إلى عامله في مصر أن اقبض على ثيوفيلوس وأرسله مخفَّرًا، فقام ثيوفيلوس إلى العاصمة، وأطلق إليها أيضًا جميع الأساقفة الخاضعين لكرسيه، ولما وصل إلى البوسفور أقام في خلقيدونية أيامًا، ثم جاء القسطنطينية، ومرَّ أمام كنيسة الرسل ولم يدخل إليها، وعلى الرغم من هذا فإن الذهبي الفم ذهب لاستقباله في القصر الذي أعدَّ له ودعاه للإقامة عنده، ولكن ثيوفيلوس أسفر بجفاء أنه لا يريد أن يرى الذهبي الفم، ولا أن يسمع صوته ولا أن يشاركه في الصلوات، وأنشأ ثيوفيلوس حزبًا قويًّا لعضده، فكان لديه تسعة وعشرون أسقفًا مصريًّا، وعدد من الأساقفة والرهبان الناقمين على الذهبي الفم، وشد أزره بحارة أسطول القمح، وكانوا جميعهم مصريين، ونثر ثيوفيلوس الذهب، فابتاع عددًا من الوجوه وكبار الموظفين، وأصبح صالون إفغرافية الأرملة مركز المشاغبة على الذهبي

---

[٢٩] Palladius, Dialog., VII, VIII; Batiffol, Siège Apostolique, 300.

[٣٠] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 14.

الفم، واقتنعت أفذوكسية الإمبراطورة أن الأسقف القديس عناها هي نفسها عندما أشار في إحدى عظاته إلى إيزابل.[٣١]

مجمع البلوطة (٤٠٣)

ولما تَمَّ اتفاق هذه العناصر واتحدت كلمتهم، خافوا أن تُحبَط مساعيهم إذا عقدوا اجتماعاتهم في العاصمة؛ لأن الذهبي الفم كان محبوبًا من عموم الشعب، موقرًا من جمهور الإكليروس، فاستحسنوا بلدة خلقيدونية على ضفة البوسفور الآسيوية، ونزلوا ضيوفًا على أسقفها كيرينوس المصري، وعقدوا اجتماعاتهم في قصر البلوطة، وانضم إليهم أكاكيوس أسقف حلب، وسويريانوس أسقف جبلة، وأنطيوخوس أسقف عكة،[٣٢] وماروطة أسقف ميافارقين، ومكاريوس أسقف مغنيسية، وأصغى الأساقفة المجتمعون في قصر البلوطة إلى جميع الاتهامات الواردة في سوء حال يوحنا الذهبي الفم، فبلغت شكايات الأرشدياكون يوحنا تسعًا وعشرين، وادَّعَى الأسقف إسحاق على الذهبي الفم أنه قبلَ في كنفه الرهبان الذين قالوا قول أوريجانس، وأنه لم يصغِ إلى الرهبان الذين مثلوا ثيوفيلوس، وأنه تدخل في شئون أبرشيات غيره من الأساقفة، وجاء الراهب إسحاق مقدمًا ثماني عشرة شكوى، منها «مزيد حنو القديس على الخطأة»!

وبينما كان ثيوفيلوس وأصحابه يفتلون الشر فتلًا ويحكمونه إحكامًا، قام غيرهم أربعون أسقفًا من إقليم القسطنطينية وغيرها ينظرون في ملافاة الخطر، أما الذهبي الفم فإنه طلب إلى هؤلاء الملتفين حوله ألَّا يدع أحد منهم كنيسته لأجله، ومما قاله: «هو ذا عاصفة شديدة تهب علينا، لكن لا تنخلعنَّ لها قلوبنا؛ إذ لا نخاف البتة من الغرق، فمهما جاش البحر فماذا يستطيع أن يصنع مع صخرة الكنيسة غير المتزعزعة التي نحن عليها راسخون.»

ثم كتب مجمع البلوطة إلى الذهبي الفم أن يبرر نفسه أمامهم، وأن يصحب معه الكاهنين سرابيون وتكريوس، فرَدَّ الأساقفة المجتمعون في القسطنطينية أن في هذا الطلب خروجًا على القوانين الموضوعة في المجمع النيقوي، وأنه يجب على أقلية مثلهم أن تخضع

---

[٣١] Palladius, Dialog., VIII; Bardy, G., Saint Jean, op. cit., IV, 136.

[٣٢] Zellinger, J., Studien zu Severian von Gabala, Munster, 1926.

لأكثرية مؤلفة من أربعين أسقفًا برئاسة سبعة مطارنة،[٣٣] وكتب الذهبي الفم إلى مجمع البلوطة يؤكد أن ضميره لا يبكته بشيء، وأنه مستعد أن يمثل أمام مجمع مؤلف من مائة أو ألف أسقف، ثم يقول: وإن شئتم أن أمثل في محفلكم، فبادروا إلى تطهيره من أعدائي الشخصيين، فثيوفيلوس الإسكندري قال في ليقية: «إني منطلق لعزل الأسقف يوحنا.» وقد أبى منذ دخوله هذه المدينة كل اشتراك معي، وأرفض أيضًا أكاكيوس مطران حلب الذي تجاسر في كنيستي نفسها أن يهددني، وأنطيوخوس وسويريانوس أسقفا عكا وجبلة سيجازيهما العدل الإلهي قريبًا، فإن أردتم أن أدافع أمامكم، فامحوا هذه الأسماء الأربعة من عِداد قضاة مجمعكم.[٣٤]

وأبى الذهبي الفم أن يمثل أمام قضاة البلوطة، فاتخذوا قرارًا بخلعه، وبعثوا به إلى البلاط، ونشروه في جميع كنائس العاصمة، ولم يُبنَ الحكم فيه إلا على أن المجمع دعاه أربع مرات فلم يحضر ليزكي نفسه،[٣٥] وقد ضاعت أعمال هذا المجمع ولم يبقَ منها سوى ما نقله فوطيوس العظيم عنها.[٣٦]

نفيه إلى بيثينية

واستغاث الذهبي الفم بالكنيسة الجامعة، وسأل عقد مجمع مسكوني، ولم يخضع فورًا لحكم قضاة البلوطة، بل ظل يواصل أعماله الرعائية يومين كاملين، وكان يقول: وما هي أفكارهم وآمالهم، أيظنون أنهم يخيفونني بتهديدات الموت، والموت عندي خير عظيم، أم بالمنفى والأرض بكمالها للرب الذي وقفت له حياتي، إن يسوع معي فماذا أخشى، ولا أنفكُّ أقول لتكن مشيئتك يا رب فها أنا ذا بين يدَيْك مستعِدٌّ لأعمل وأتحمل بسرور ما يجري من معين رحمتك، أو ما تأمر به إرادتك!

ولم يتجرأ عمال الإمبراطور أن ينفذوا حكم البلوطة بالقوة؛ لأن الشعب كان عازمًا على مقابلة القوة بالقوة، ثم رغب القديس حبًّا بالسلام أن يسلم نفسه بأيدي الجنود دون

---

[٣٣] Chrysostomos, J., Epist. ad Innocentium, (Palladius, Dialog. II).

[٣٤] Socrates, Hist. Ecc., VI, 15; Palladius, Dialog. VIII.

[٣٥] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 17; Socrates, Hist. Ecc., VI, 15; Palladius, Dialog., VIII.

[٣٦] Photius, Bibliotheka, Cod. 59.

علم الشعب، فنقل في الليل إلى مرفأ هيرون على البوسفور، فهام القديس على وجهه، وظلَّ تائهًا حتى وصل إلى بيت قروي قرب برينيت Prenetos في ساحل بيثينية فأوى إليه.[٣٧]

رجوعه معززًا

واستيقظ الشعب عند الصباح ولم يجد أسقفه فغضب، واكتظت الشوارع بالناس وأحاط بعضهم بالقصر من كل جانب، وصرخوا طالبين إرجاع أبيهم المنفي، وظلوا على هذا الحال حتى المساء، وفي أواسط الليل أرجفت الأرض وتزلزلت أركان القصر الإمبراطوري،[٣٨] فاشتد خوف الإمبراطورة، ورأت في ذلك انتقامًا ربَّانيًّا، فقالت لأركاديوس: إن لم يَعُدِ الأسقف فليس لنا تاج ولا سلطان. فوكل أركاديوس إليها أن تفعل ما تشاء، فكتبت بخط يدها تبدي عذرها، وأوفدت أحد خصيانها ليرجو العودة، فلما عبر البوسفور أبى العودة إلى كرسيه توًّا لئلا يخترق حرمة القانون الكنسي، فإن خروجه كان بحكم مجمعي، فكان لا بد من حكم مجمعي لعودته،[٣٩] ولكن الشعب لم يقبل له عذرًا، فسار بموكب عظيم إلى كنيسة الرسل وأوجز في الكلام، فبارك اسم الرب إلى الأبد: «أجل تبارك الله الذي يحبط المكايد ويقضي برجوع الراعي، تبارك الذي يثير العواصف، تبارك الذي يحلُّ جليد الشتاء ويقمع هيجان الرياح ليقوم مقامها الهدوء والصحو والسلام.»[٤٠] والتفت في كنيسة الحكمة الإلهية إلى كنيسته، فتراءت له متوجة بإكليل سموي، فهي العروس سارة العفيفة الطاهرة، التي سعَّرت طلعتها الجميلة نار الهوى في جوانح فرعون،[٤١] والإشارة هنا إلى ثيوفيلوس الإسكندري.

عودة ثيوفيلوس إلى مصر

ومال كوكب «فرعون» إلى الهبوط وكاد ينفضح أمره، واختلف الآباء المجتمعون في قصر البلوطة حول قضية هرقليذس أسقف أفسس واشتد بينهم الضجيج، وسمع الشعب

---

[٣٧] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 18; Socrates. Hist. Ecc., VI, 15.

[٣٨] Theodoret, Hist. Ecc., V, 34.

[٣٩] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 18; Socrates, Hist. Ecc., VI, 15.

[٤٠] Patrologia Graeca, Vol. 52, Col. 439–442.

[٤١] Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 18; Georges d'Alexandrie, l. G., Vol. 52, Col. 443–448.

المحدق بالقصر جلبتهم وتردد اسمي يوحنا وهرقليذس، فانتصروا لهما ولعنوا المجتمعين، فخاصمهم البحارة المصريون واشتد القتال وجرت الدماء،[٤٢] وسمع «فرعون» نفسه أنصارَ القديس يوحنا يطلبون طرحه في المياه،[٤٣] وعلم أن الإمبراطور يميل إلى دعوة مجمع مسكوني للبت في القضية الماثلة،[٤٤] فركب البحر مستصحبًا إسحاق الراهب وعاد إلى الإسكندرية.

التآمر على الذهبي الفم

وفي خريف السنة ٤٠٣ أقام أركاديوس لزوجته أفذوكسية تمثالًا من الفضة الخالصة فوق عمود من البورفير، وعلى قاعدة مزدانة بأجمل النقوش، ولا تزال هذه القاعدة محفوظة حتى يومنا هذا في متحف القديسة إيرينة وعليها كتابة الإهداء والتدشين باللغتين اليونانية واللاتينية،[٤٥] وجعل الإمبراطور محل هذا التمثال في أكبر باحات المدينة بحذاء مجلس الشيوخ وبإزاء كنيسة الحكمة الإلهية، وكان حاكم العاصمة آنئذٍ رجلًا مانويًّا يكره الذهبي الفم، فأقام لمناسبة الاحتفال بالتمثال ملعبًا للرقص والمصارعة أمام أبواب كنيسة الحكمة، فلم يستطع الذهبي الفم صبرًا، فذكَّرَ المؤمنين أن هذه الملذات من شأنها أن تجدد قبائح الديانات الوثنية، ولا يجوز الاشتراك فيها،[٤٦] ولم يأتِ الذهبي الفم على ذكر الإمبراطورة ولم يلمِّحْ، خلافًا لما قاله بعض المؤرخين وكما قلناه نحن سابقًا.[٤٧] ولا يُستبعَد أن تكون العظة «يوحنا المعمدان» التي لا تزال تُنسَب إلى الذهبي الفم ملفَّقة مزوَّرة،[٤٨] وخُيِّلَ لأفذوكسية أنها حُقرت فأرعدت وأزبدت، واغتاظ لغيظها الإمبراطور وحاشيته، فاستشاروا ثيوفيلوس الإسكندري، فأفتى بوجوب تبرير الذهبي الفم أمام مجمع كنسي،

---

٤٢ Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 19.

٤٣ Palladius, Dialog., IX.

٤٤ Chrysostomos, J., Epist, ad Innocent.

٤٥ C. I. L., III, 736; Gotwald, I, La Statue de l'Impératrice Eudoxia à Const., Echos d'Orient, 1907, 274.

٤٦ Socrates, Hist. Ecc., VI 18; Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 20.

٤٧ Socrates, Hist. Ecc., VI, 18.

٤٨ P. G., Vol. 59, Col. 485.

وانتدب ثلاثة من أعوانه، وأرسلهم إلى القسطنطينية، ولدى وصولهم دعا الإمبراطور أساقفة آسية وأنطاكية، فلبى الدعوة بعضهم وأبى آخرون خشيةَ اتساع الشقاق في الكنيسة، وكان بين الذين هرعوا إلى القسطنطينية أكاكيوس حلب، وسويريانوس جبلة، وأنطيوخوس عكة، وليونيتوس أنقيرة، وأمونيوس لاذقية بسيدية. وأطل عيد الميلاد، وبات المؤمنون ينتظرون قدوم الإمبراطور والحاشية لحضور الاحتفال، فاعتذر أركاديوس مبينًا أنه لا يشترك مع الذهبي الفم بشيء ما لم يُبرر أمام المجمع،[٤٩] واستمع أركاديوس إلى عشرة من الأساقفة الموالين ليوحنا وعشرة من الأساقفة أخصامهم، فلعب البيذس أسقف لاذقية سورية دوره المشهور، وطلب إلى أخصامه أن يوقعوا قانون أنطاكية، كأنه عمل أرثوذكسي قبل تطبيقه على يوحنا الذهبي الفم، فاحتاروا في أمرهم؛ لأنهم إن قبلوه تلطخوا بالآريوسية وإن أبوا سقطت حجتهم، فلاذوا بالكذب ووعدوا بالتوقيع ثم أخلفوا.[٥٠]

فصح السنة (٤٠٤)

ومضت أَشْهُر عشرة، والمدينة في قلق واضطراب والقديس لا يتزعزع، فاحتال أخصامه في إغلاق فيه وصوروا مجتمعاته مستوقدات للاضطراب والإخلال بالنظام، وسعوا في منع انعقادها، ثم طلبوا طرد الذهبي الفم قبل عيد القيامة (١٧ نيسان)؛ لأنه محجوج من المجمع، فأتى أركاديوس هذه المنكرة، وأوجب خروج الذهبي الفم من كنيسته، فقال الأسقف القديس: لقد استلمت الكنيسة من يسوع المسيح، ولا أستطيع أن أقصر في خدمتها، فإن أردت أن أترك هذه الحظيرة المقدسة فاطردني قهرًا. فطُرِد يوم سبت النور من الكنيسة طردًا، وحذر عليه الخروج من قلايته،[٥١] وطُرِد من الكنائس أيضًا جميع الكهنة الذين كانوا في شركة الأسقف القديس، وكانت العادة حينئذٍ تقضي بأن يبقى المسيحيون ساهرين بالصلوات حتى صياح الديك، معدين طالبي المعمودية إلى قبول هذه النعمة، فلجئوا جميعهم إلى الحمام الكبير الذي شيده قسطنطين وحولوه إلى كنيسة، فسعى المتآمرون في فض هذا الاجتماع، فدخل الجند الحمام والسيوف بأيديهم

---

[٤٩] .Socrates, Hist. Ecc., VI. 18; Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 20

[٥٠] .Palladius, Dialog., IX

[٥١] .Bardy, G., Saint Jean de Const., op. cit., IV. 141

مصلتة، واخترقوا الحشد حتى وصلوا إلى جرن المعمودية، فضربوا الكهنة والشيوخ والنساء واختلسوا الآنية المقدسة، فخرج المؤمنون خارج الأسوار، واحتفلوا بالتعميد، وأقاموا الذبيحة في ميدان قسطنطين.[٥٢]

نفي الذهبي الفم

وبعد العنصرة بخمسة أيام؛ أيْ في التاسع من حزيران سنة ٤٠٤، سار أكاكيوس وأعوانه إلى الإمبراطور وقالوا: إن الله لم يجعل في الأرض سلطانًا فوق سلطانك، وليس لك أن تتظاهر بأنك أكثر وداعة من الكهنة وأعظم قداسة من الأساقفة، وقد حملنا على رءوسنا وزر عزل الأسقف يوحنا، فحذار مما ينجم عن إهمال التنفيذ، فأوفد أركاديوس أحد كبراء البلاط إلى الذهبي الفم يسأله أن يهجر كنيسته ورعيته حبًّا بالراحة العمومية.[٥٣] فأصغى القديس، وقام إلى المنفى فالموت وصلى وودَّع «ملاك الكنيسة»، ثم ذهب إلى مصلى المعمودية ليودع الشماسات الفاضلات: أولمبياذة الأرملة القديسة، وبنتاذية، وبروكلة، وسلفينة، وقال لهن: لا تدعن شيئًا يخمد حرارة محبتكن للكنيسة.[٥٤]

وخرج القديس خفية، وقبض عليه الشرطة، وعبروا البحر به إلى نيقية حيث ألقوه في السجن، واستبطأ الشعب خروج راعيهم، فارتفعت جلبتهم في كنيسة الحكمة، وفيما هم على هذه الحال اتقدت نار تحت المنبر وحولته رمادًا، ثم امتد لهيبها إلى السقف وسرى خارج الكنيسة، ثم دفعته ريح شمالية إلى الجنوب، فبلغ قصر الشيوخ فقوَّضه، وأمست الكنيسة الكبرى قاعًا صفصفًا، ولم يسلم منها إلا آنية الأفخارستية![٥٥]

وأقام الذهبي الفم في نيقية أربعين يومًا أو أكثر، وعلى الرغم مما كان عليه من مضايق السجن وغلاظة الجنود، فإن نفسه ظلت تتوقد غيرةً على خلاص النفوس في سورية وفينيقية وتحطيم الوثنية وهياكلها، وكان صديقه قسطنديوس البار لا يزال يعمل في حقل الرب في تلال فينيقية وسهولها، متكبدًا أشد المصاعب من الوثنيين ومن

[٥٢] Epist. ad Innocent.; Palladius, Dialog., III.

[٥٣] Palladius, Dialog., X.

[٥٤] Socrates, Hist. Ecc., VI, 18; Tillemont, Mémoires, XI, 611.

[٥٥] Socrates, Hist. Ecc., VI, 18; Sozomène, Hist. Ecc., VIII, 22; Palladius, Dialog., X.

«الإخوة الكذبة»، فقيَّض الله للذهبي الفم راهبًا زاهدًا في نيقية، فاستقدمه الأسقف القديس إليه، واستمال قلبه إلى التبشير في فينيقية، وأرسله إلى صديقه قسطنديوس.[٥٦]

وفي الرابع من آب سنة ٤٠٤ قامت قوة من الحرس الإمبراطوري إلى نيقية لتنقل الذهبي الفم إلى منفاه، وقضى أمر النفي بوجوب مواصلة السفر نهارًا وليلًا إجهادًا وتعجيلًا، وما كاد الذهبي الفم يصل إلى مداخل قيصرية قبدوقية حتى وقع لا يعي حراكًا، فوقف حرَّاسه عن المسير وأذنوا له بشيء من الراحة، بَيْدَ أن فارتاريوس أسقف قيصرية شدد النكير، فاضطر الذهبي الفم أن «يخرج وينفض غبار رجليه»، وبعد سفر دام ستة وخمسين يومًا وصل الأسقف القديس في آخر أيلول إلى منفاه بلدة كوكوس في شمالي طوروس، وعلى الرغم من إقفارها وحقارتها فإن الذهبي الفم ابتهج بمرآها؛ لأنه أحب الانقطاع والراحة، ولأن أهلها كانوا قد أوفدوا الرسل إلى قيصرية يسألونه قبول دعوتهم في بيوتهم، ولأن أذلفيوس أسقف كوكوس كان على جانب من القداسة والطهارة، ولأن جماعته الفقراء في المادة كانوا أغنياء بالتقوى والكمال، ومما زاد في سروره أنه لاقى في كوكوس صديقه القديم القس قسطنديوس الأنطاكي، الذي اضطهد في أنطاكية لولائه وإخلاصه، وابتهج القديس ودهش أيضًا عندما رأى الشماسة سبينة تنتظر قدومه في كوكوس، فإنها على الرغم من تقدُّمها في السن تجشمت مشقة الأسفار، وسبقت راعيها إلى المنفى!

موقف أنطاكية ورومة

وكان فلافيانوس أسقف أنطاكية قد بلغ من العمر قرنًا كاملًا، فلم يقوَ على محاربة عقارب الحسد التي دبَّت في قلوب بعض الأساقفة أمثال: أكاكيوس حلب، وسويريانوس جبلة، وأنطيوخوس عكة، وفاليريوس طرسوس، فالذهبي الفم بلغ رتبةً تقاصر عنها هؤلاء، وشأوًا تقطعت دونه أعناقهم، فأصغوا إلى مفاسد ثيوفيلوس الإسكندري، وآثروا الإقامة في العاصمة والدس على الذهبي الفم على العمل المثمر في أبرشياتهم.[٥٧]

---

٥٦ Heiss, R., Monchtum, Seelsorge und Mission nach dem Heiligen Johannes Chrysostomus, (Lumen Caecis, Sainte-Odile, 1929), 1–23; Théodoret, Hist. Ecc., V, 29.

٥٧ Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 41.

وتوفي فلافيانوس في السادس والعشرين من أيلول سنة ٤٠٤، فهرع أكاكيوس وأعوانه إلى أنطاكية لانتخاب خلف يقول قولهم ويسعى سعيهم، فأيدوا بورفيريوس الكاهن الأنطاكي، وحاربوا قسطنديوس مرشح الشعب، وانتهزوا خروج الشعب إلى دفنة لمشاهدة الألعاب الأولمبية، فأتموا انتخاب بورفيريوس وسيامته، ثم تواروا عن الأنظار وتولت السلطات المدنية إخماد كل حركة مضادة. وفي الثامن عشر من تشرين الثاني صدرت إرادة إمبراطورية أوجبت الاعتراف بسلطة أرساكيوس في القسطنطينية، وثيوفيلوس في الإسكندرية، وبورفيريوس في أنطاكية،[٥٨] ونفذت هذه الإرادة السنية بشدة، فنُفِي كيرياكوس أسقف حمص إلى تدمر، وسُجِن كلٌّ من إلبيذيوس Elpidius أسقف اللاذقية، وببوس Pappus ثلاث سنوات متتالية.[٥٩]

وحرر ثيوفيلوس الإسكندري إلى أنوشنتيوس أسقف رومة في موضوع الذهبي الفم، وكتب يوحنا نفسه أيضًا إلى أسقف رومة يعلمه بالجريمة التي ارتُكِبت في القسطنطينية، ويقول: «ولما كان لا يجوز لنا أن نحزن، بل يجب علينا أن نعيد النظام، ونبحث عن الوسائل التي تمكننا من إيقاف هذه العاصفة، رأينا من الضروري أن نقنع السادة الجزيلي الشرف والتقوى، الأساقفة: ديمتريوس، وبانسوفيوس، وببوس، وأوجينيوس، أن يتركوا كنائسهم، ويجازفوا بأنفسهم، فيقوموا بهذه الرحلة البحرية الطويلة ويسرعوا لملاقاة محبتكم، وبعد اطلاعكم على كل شيء يتخذون الإجراءات اللازمة لمداواة الموقف بسرعة.»[٦٠] وأرسل الذهبي الفم مثل هذه الرسالة إلى كلٍّ من فينيريوس Venerius أسقف ميلان، وكروماتيوس Chromatius أسقف أكويلية، راجيًا المعونة لإنقاذ الموقف، فكتب أنوشنتيوس إلى كلٍّ من ثيوفيلوس والذهبي الفم يؤيد دوام الشركة، ويقترح عقد مجمع مسكوني يمثل الشرق والغرب للنظر في الأمر.[٦١]

ويلاحظ العلامة الأب غوستاف بردي أنه ليس في نصوص هذه الرسائل ما يخولنا القول إن الذهبي الفم لجأ إلى أسقف رومة ليستصدر حكمًا في القضية الماثلة بينه وبين

---

[٥٨] Cod. Theod., XVI, 4, 6.

[٥٩] Pat. Gr., Vol. 47, Col. 71.

[٦٠] Nicene and Post-Nicene Fathers, IX, 309.

[٦١] Palladius, Dialog., III.

أسقف الإسكندرية، ويضيف الأب بردي أن الذهبي الفم لم يخص أسقف رومة وحده بهذه «الشكوى»، فإنه كتب إلى أسقفي ميلان وأكويلية بمثل ما كتب إلى أسقف رومة.[٦٢] ويُلاحظ أيضًا لهذه المناسبة أن القديس أنوشنتيوس أسقف رومة أوصى بمجمع مسكوني للبت في هذه القضية، وألَحَّ بذلك.

وأيقن أنوشنتيوس أن دعوى ثيوفيلوس فارغة، فاندفع في سبيل الذهبي الفم، ولم يكترث لموقف القديس إيرونيموس الذي نقل كلام ثيوفيلوس إلى اللاتينية، فاتصل بأونوريوس أخي أركاديوس، فقر قرار الاثنين أن يدعى إلى مجمع مسكوني في تسالونيكية، وكتب أونوريوس إلى أخيه بذلك وتألف الوفد الروماني إلى المجمع المنتظر، وما كاد هذا الوفد يدخل داخل حدود إمبراطورية أركاديوس، حتى أُلقِي القبض على أعضائه وأُعِيدوا إلى الغرب.[٦٣]

وفاته (٤٠٧)

وتوفي أرساكيوس في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ٤٠٥،[٦٤] فتأمل الأرثوذوكسيون أن تعود الراحة بموته إلى مجراها، وأن يعود يوحنا إلى رعيته، ولكن المتآمرين أقاموا أتيكوس السبسطي أسقفًا على القسطنطينية، فأبى بعض الأساقفة الاشتراك معه وتنحى الشعب عنه، فاستشاط غيظًا، فنال من الإمبراطور أمرًا بنقل يوحنا من كوكوس إلى بيتوس على الساحل الشرقي من البحر الأسود، وعهد في إجراء هذا الأمر إلى بعض الجنود، فقطعوا به آسية الصغرى من غربيها الجنوبي إلى شرقيها الشمالي بعنف وصلابة وبدون راحة، ولما دنوا من كومانة كان قديسنا قد أضحى كالخيال، فتوفي على بُعد ستة أميال منها في الرابع عشر من أيلول سنة ٤٠٧، في كنسية أسقفها القديس باسيليكوس الشهيد.[٦٥]

---

[٦٢] Bardy, G., Saint Jean de Const., op. cit., IV, 145, n. 3; Batiffol, p., Siège Apostolique, 313–315.

[٦٣] Palladius, Dialog., III, IV, XX; Baur, C., Johannes Chrusostomus und seine Zeit, II, 336.

[٦٤] Socrates, Hist. Ecc., VI, 20.

[٦٥] Palladius, Dialog., XI, Socrates, Hist. Ecc., VI, 21; Delehaye, H., Légendes Grecques des Saints Militaires, 202–213.

مؤلفاته

وصنَّف الذهبي الفم كثيرًا، ولعله أكثر الآباء إنتاجًا، وكتب متأثرًا بنفحات إيمان حار، «فكان تارة يوشح خطبه البسيطة بثوب قشيب من الطلاوة الشعرية الظريفة، وطورًا يزينها بحلي التشابيه اللطيفة، فيسكر السامعين ويسترق ألبابهم».

ووعظ وأرشد فأبان ضرورة المعمودية للحصول على نعمة الله في الدنيا والسعادة في الآخرة، وأوجب مصارعة إبليس، فأنشأ ثلاث خطب في قدرة الأبالسة، وثلاثة كتب وجهها إلى ستاجير في «فوائد» التجارب وأخطارها، وأعد تسع خطب في التوبة والمحبة، واعتبر الوثنيون في أنطاكية تجسد ابن الله حلمًا من الأحلام، فردَّ قديسنا مبددًا أقاويلهم مبينًا اتفاق السماء والأرض في هذا العمل العظيم، وألَّفَ خطبتين في خيانة يهوذا بعد تناول جسد الرب، مبديًا إيمانه في سر الاستحالة:

> أيها الرب إلهي، أنا أعلم أني لست مستحقًّا ولا أهلًا أن تدخل تحت سقف نفسي؛ لأنها مقفرة ساقطة، وليس لك فيَّ موضع أهل لتسند إليه رأسك، لكن كما أنك من أجلنا تواضعت منحدرًا من العلاء، تنازَلَ الآن أيضًا إلى حقارتي … فلتصر لي جمرة جسدك الأقدس ودمك الكريم لتقديس وإنارة وتقوية نفسي وجسدي الحقيرين … ولئلا أمسي فريسةَ الذئب العقلي إذا ابتعدت جدًّا عن شركتك. (السواعي، المطاليبسي)

وشرح قيامة المسيح في خطبتين بليغتين، ورأى فيهما عربون قيامتنا، ولا نزال نقول معه: «لا يخافن أحد من الموت؛ لأن موت المخلص قد حررنا، أين شوكتك يا موت، أين ظفرك يا جحيم؟ قام المسيح وأنت غلبت، قام المسيح والملائكة يفرحون. قام المسيح واستقرت الحياة، قام المسيح وليس ميت في القبر؛ لأن المسيح بقيامته من الأموات قد صار مقدمة الراقدين.»

وحرِّض القديس على أعمال التقوى، ففي خطبته في شهداء مصر يوجب احترام ذخائر رجال الله المقدسة، وفي خطبه في حنة أم صموئيل وشاوول وداود، وفي خطبه الثماني في سفر التكوين يبين قديسنا لسلفائنا في هذه الكنيسة الأنطاكية المقدسة الأسباب الداعية لتكريم ذخائر الشهداء، وأهمية الصوم ومنفعة التوبة وفوائد الصدقة وطهارة القلب، ويطعن طعنًا عنيفًا في الملاعب العمومية، وألقى في كنيسة القديس بولس في أنطاكية

أيضًا ثمانيًا وثمانين خطبة في إنجيل يوحنا، فارتقى مع «التلميذ الحبيب» إلى البحث في الجوهر، وتولد الكلمة المتأنس وتساوي الآب والابن في الجوهر.

ولاقى القديس يوحنا أعداء النصرانية ببرهان كلامه وحسن سيرته، فخص الكهنوت بكتب ثلاثة كما سبق وأشرنا، وأنشأ ثلاثة كتب شديدة اللهجة في الدفاع عن الرهبان والرهبانية، ودبَّج خمس مقالات في طبيعة الله الغير المدركة، ردَّ بها على أفنوميوس وبدعته، وخصَّ اليهود بثماني خطب أبان لهم بها بطلان موقفهم من النصارى. وله إحدى وعشرون خطبة في ثورة أنطاكية سرد فيها رذائل عاصمة الشرق أنطاكية، وتخلي الله عنها وسقوطها في لجة الإثم، ثم أشار إلى كيفية التخلص، فأوجب الابتعاد عن السباب والتجديف والتمسك بالتوبة والفضيلة.

وعني الذهبي الفم منذ صبوته بتفسير الأسفار المقدسة، فخص سِفر التكوين بسبع وستين خطبة، ثم فسر الزبور، ولم يبقَ من هذا التفسير سوى ثماني وخمسين خطبة، وفسر أيضًا بعض ما جاء في أشعيا وآرميا ودانيال، وله في إنجيل متَّى تسعون خطبة، وفي رسالة بولس إلى أهل رومة اثنتان وثلاثون خطبة، وقد دحض فيها أضاليل بيلاجيوس وفظائع المانويين.

وأورع ما جاء على يد هذا الرجل البار أربع وأربعون خطبة في تفسير رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وشرح أيضًا الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس، وفسر رسالة الرسول إلى الغلاطيين ففنَّدَ أضاليل ماني ومرقيون وأنوميوس، وأنشأ أربعًا وعشرين خطبة في رسالة بولس إلى أهل أفسس، وثمانيًا وعشرين في رسالته إلى تيموثاوس، وأربعًا وثلاثين في الرسالة إلى العبرانيين، وقد اعتبرها من رسائل بولس.

وأقدم الطبعات لمؤلفات الذهبي الفم وأكملها طبعة الآباء البندكتيين التي ظهرت باليونانية واللاتينية في آن واحد في باريز سنة ١٧١٣ في ثلاثة عشر مجلدًا، وقد أعيد طبعها في البندقية سنة ١٧٣٤–١٧٤١، وفي باريز سنة ١٨٣٤–١٨٣٩. وفي السنوات ١٨٥٩–١٨٦٣ ظهرت طبعة مين Migne في ثلاثة عشر مجلدًا، وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى لغات عديدة منها اللغة الإنكليزية، والإشارات في متن كلامنا هي هذه الترجمة.[٦٦]

[٦٦] Schaff. P., Nicene and Post-Nicene Fathers, Saint Chrysostom, New york.

وقد يلذ للقارئ أن يعلم أن إراسموس الشهير عني بمصنف الذهبي الفم في الكهنوت، فنشره باليونانية في بازل سنة ١٥٢٥، وأن العالم الإنكليزي السر هنري سافيل Saville شغف بالذهبي الفم، فكرَّس معظم أوقات الفراغ له، ورصد للتفتيش عن مصنفاته ثمانية آلاف استرليني؛ فأقضَّ بذلك مضجع زوجته وأثار غيرتها، فهددت بحرق جميع ما جمع زوجها من آثار الذهبي الفم.

الفصل العشرون

الرُّهبان في القرنين الثالث والرابع

السوابق

وليس لنا أن نبحث مع كابلِّي ورايتزنشتاين[١] السوابق اليونانية في ضبط النفس وجمود القلب؛ لنستعين بها على تفهم الزهد والترهيب في النصرانية، ولا أن نجعل من الرهبانية حلقة من سلسلة تشمل نساك بوذة، وإسيني يوسيفوس،[٢] وثيرابيفتي فيلون،[٣] والأفلاطونيين الجدد أمثال: أفلوطين، وبورفيريوس الحوراني الصوري، ويمبليخوس العنجري.[٤]

الأصل

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو أن السيد المخلص نفسه عاش عيشة فقر وتيه ومسكنة، وأنه علم باقتراب النهاية، وأرسل تلاميذه ليكرزوا بملكوت الله، وأوصاهم ألا يحملوا شيئًا للطريق، «لا عصًا ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضة»،[٥] وألَّا يكون للواحد منهم

---

[١] Capelle, W., Altgriechische Askese; Reitzenstein, Hellenistische Wundererzaehlungen.

[٢] De Bello Judaico, II, 119–121.

[٣] «Therapeutes»: Vie Contemplative, VI, 49–71.

[٤] Keim, Th., Aus dem Urchristentum.

[٥] لوقا، ٩: ٣.

ثوبان. والواقع أيضًا أن يعقوب أخا الرب لم يأكل لحمًا ولم يشرب خمرًا ولم يقتنِ سوى رداءٍ واحد، وأن الرسل جميعًا حضوا المؤمنين على العفة والبتولية، وأجازوا الزواج لمن خشي العنت فقط.[٦]

وجاء الاضطهاد في القرون الثلاثة الأولى، ففرَّ المؤمنون إلى البراري والقفار، وعاشوا عيشة البؤس والطهارة والتقوى،[٧] واشتدت وطأة الحكم وكثرت الضرائب وتثاقلت، فتاه المؤمنون وتركوا القرى والمزارع محتجين على نظام المجتمع، حتى إذا أطل القرن الرابع، وجاء قسطنطين وخلفاؤه لم يكد يغير ذلك شيئًا من طريقة المؤمنين؛ إذ أصبحوا يقولون بوجوب الانكفاء والابتعاد عن العالم للتأمل والتفكير بالقيم الروحية والبشرية.

الرهبانية في أبرشيات أنطاكية

واعتكف أنطونيوس الكبير (٢٥٠–٣٥٦) على نفسه وذاع صيته في مصر، والتف الزهاد حوله متنسكين أفرادًا لا جماعات، وتقبل القديس باخوميوس (٢٩٠–٣٤٥) النصرانية وتنسك، فآثر أتباعه الرهبانية مجتمعين غير منفردين، وأقبل على القديسين المؤسسين مؤمنون أنطاكيون، فأخذوا عنهما وعادوا إلى فلسطين وسورية والرها والجزيرة وآسية الصغرى.

وأقدمُ الرهبان الأنطاكيين فيما يظهر هيلاريون غزة، فإنه بعد أن أخذ التقشف عن القديس أنطونيوس الكبير نفسه عاد إلى فلسطين في السنة ٣٠٧، واعتكف في برية غزة في اتجاه مصر، وبعد أن قضى عشرين سنة مفكرًا متأملًا، فاح عبير فضائله فالتف حوله وثنيون من مصر وسورية، وتقبلوا النعمة على يده، وثابروا على الزهد والتقشف، ونسج آخرون على منواله فانتشرت الرهبانية في فلسطين، وتعددت الأديار فيها، وأقام هيلاريون نفسه في أحد هذه الأديار، فاكتظ الرهبان حوله فتاقت نفسه إلى العزلة، فتركهم وشأنهم وعاد إلى البرية.[٨] ويُلاحَظ هنا أن شك إسرائيل[٩] وفاينغارتن[١٠] وغيرهما في صحة أخبار

---

[٦] ١ كو، ٧: ٨–٩.

[٧] Sozomène, Hist. Ecc., I, 11, 12.

[٨] Saint JérÔme, Vita Hilarionis, III, XIV, XXIV.

[٩] Zeitschrift fur Wissenschaftliche Theologie, 1880, 129–165.

[١٠] Weingarten, Realencyk. Prolest. Theol., X, 789.

هيلاريون واعتبارها أسطورة من الأساطير جاء متطرفًا مبالغًا فيها كل المبالغة،[١١] ويلاحظ أيضًا أن القديس أيرونيموس لم ينفرد في رواياته عن هيلاريون، وأن صوزومينس المؤرخ يؤيده في أكثر ما ذهب إليه،[١٢] وأن صفرونيوس نقل رواية إيرونيموس إلى اليونانية في النصف الثاني من القرن الخامس.

ويرى رجال الاختصاص أن الرهبانية في فلسطين اتخذت في القرن الرابع شكلين مختلفين، فبينما نرى الفلسطينيين وغيرهم من أبناء الأقطار المجاورة يزهدون فيتنسكون جماعات في ساحل فلسطين وبرية اليهودية، نلحظ عددًا من الحجاج الغربيين أيضًا يؤسسون الأديرة في أوروشليم وبيت لحم وغيرهما من الأماكن المقدسة، ويقيمون فيها معتكفين على الصلاة والصوم والزهد، والإشارة هنا إلى دير ميلاني للراهبات في أوروشليم، ودير روفينوس للرهبان على جبل الزيتون، وديرَيْ بفلا وأيرونيموس في بيت لحم، ويلوح لنا أن العذارى الصالحات آثرن في غالب الأحيان العيشة المنفردة، ولكنهن قمن بالصلاة مجتمعات.[١٣]

واعتكف مالك Malchus فيما يظهر في النصف الأول من القرن الرابع في برية قنسرين Chalcis، وروى ما قاساه من المتاعب والأخطار إلى القديس أيرونيموس في مارونية على بُعد ثلاثين ميلًا عن أنطاكية،[١٤] ويذكر صوزومينس المؤرخ أكثر من ثلاثين ناسكًا في براري سورية الشمالية وسورية الوسطى،[١٥] ويؤكد أنهم فاقوا نساك مصر في ممارسة «الفلسفة»، وزهد إبراهيم القيدوني لسبعة أيام من عرسه، واشتهر بالورع والتقوى، وقدر فضله أناس كثيرون، ولما فاضت روحه في السنة ٣٦٦ احتشد المؤمنون لتشييع جنازته، وتسابقوا لاقتطاع شيء من ثيابه تبركًا.[١٦] وذكر ثيودوريطس أسقف قورش ثلاثين زاهدًا أقاموا الصلاة، واجترحوا المعجزات في براري أبرشيته، وأشار أيضًا إلى

---

[١١] Labriolle, P., Débuts du Monachisme, Fliche et Martin, op. cit., III, 310.

[١٢] Sozomène, Hist. Ecc., V, 10, 15.

[١٣] Labriolle, P., op. cit., 346; Cavallera, F., Saint JérÔme, I, 127–128.

[١٤] Patrologia Latina, Vol. 23, Col. 29–54.

[١٥] Sozomène, Hist. Ecc., VI, 23–24; Baur, C., Chrysostomus und seine Zeit, I, 85 f.

[١٦] Martin, P., Zeit. fur Katolische Theologie, 1880, 426–437.

الدير الذي أنشأه الراهب ثيودوروس في أرسوز في ساحل سورية الشمالية، وإلى رهبانيات جسر شغور Seleucobelos وتوابعها.[١٧]

ويرى الأب هنري لامنس أن مدافن عدلون بين صيدا وصور أصبحت مناسك في أوائل عهد الرهبنة في ساحل لبنان، ففيها من شارات النصرانية والصهاريج ما يبرر هذا القول، وهذه المدافن مغاور مختلفة الحجم يربو عددها على المائتين، وفيها مراقٍ متقنة يصعد منها إلى طبقات المغاور العليا فتجمع بين القلالي، ولا يستبعد أن تكون أغوار وادي الفرزل التي تطل على البقاع قلالي أيضًا، ولا شك في أن مغارة الراهب عند نبع العاصي بالقرب من الهرمل هي أيضًا مجموعة من القلالي.[١٨]

ولنا في اسم مزرعة مندرة بالقرب من تعنايل البقاع أثر من آثار الرهبنة في أوائل عهدها في أبرشيات أنطاكية، ولا يخفى أن اللفظ اليوناني Mandra كان يعني حظيرة الغنم، ثم أطلق الرهبان هذا اللفظ على المكان الذي كانوا يجتمعون فيه، ومن هنا اللفظ أرشيمندريت الذي أُطلِق على رئيس الرهبان، فالأرشمندريت رئيس المندرة. ولنا في الاسم قنوبين أثر آخر من آثار الرهبنات الأولى، فبعض الرهبان الأولين أطلقوا على مكان اجتماعهم اللفظ اليوناني Choinobion ومعناه المنتدى أو المجتمع.

القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩–٣٧٩)

وعاد باسيليوس من أثينة مدينة العلم والنور إلى مسقط رأسه قيصرية قبذوقية في السنة ٣٥٧، فعلَّم الفصاحة والبيان ولقي ترحيبًا وتقديرًا، فخشي الكبرياء، فوزع ماله على الفقراء وسار إلى البرية للتعبد والصلاة.

ثم أشار عليه رئيسه الروحي الأسقف أفستاثيوس أن يرحل إلى مصر وسورية وما بين النهرين؛ لتفقد شئون الرهبان والنساك فيها، ففعل وعاد إلى بلاده في السنة ٣٥٩، فأنشأ ديرًا للرهبان على ضفة نهر الأيريس مقابل دير للراهبات كانت إميلية وشقيقته مكرينة قد أنشأتاه على الضفة الثانية، «وعاش باسيليوس مع رهبانه حياة قشفة، فكان يلبس قميصًا خشنًا في النهار، ويتمنطق فوقه بمنطقة من جلد، ويلبس المسح ليلًا فقط؛

[١٧] Théodoret, Hist. Ecc., X.

[١٨] تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، للأب هنري لامنس اليسوعي، ج١، ص١٠٩–١١٠.

لئلا يلحظه أحد في النهار فيسمو في عينيه، وكان لا يأكل إلا مرة واحدة في اليوم ويكتفي بالخبز والماء، ولا يسمح لنفسه بشيء من البقول إلا في أيام الأعياد، وكان يقضي أيامه في الصلاة والتأمل وعمل اليد، ويحيي لياليه ساهرًا مضحيًا إرادته على مذابح الصبر والاحتمال وطول الأناة، وكان إذا نام يفترش الأرض ويحتمل البرد إماتة لجسده».[١٩]

وأنشأ هذا القديس الكبير الدير بعد الدير حتى صار أبًا لمئات من الرهبان، ووضع قوانينه الكبرى والصغرى فعمت الشرق بأسره، وانتقلت في حينها إلى الغرب أيضًا، وتميزت الرهبانية الباسيلية عن الباخومية المصرية وغيرها بانتظامها وخضوع أفرادها خضوعًا تامًّا لرئيسهم ومدبر شئونهم، وبإصغاء هذا الرئيس إلى نصح الرهبان الشيوخ، فأصبح النذر مثلثًا يقضي بالطاعة والفقر والعفة، وخشي باسيليوس أثر الكسل في نفوس الرهبان، فحضهم على العمل اليدوي المشترك لمصلحة المجموع، وعلى مطالعة الكتاب المقدس والتأمل في محتوياته:[٢٠]

> هَبْ لنفوسنا انسحاقًا، ولأفكارنا اهتمامًا بفحص دينونتك الرهيبة العادلة، سمِّر أجسادنا بخوفك وأَمِتْ أعضاءنا التي على الأرض لكي نستنير في هدوء النوم بتأمل تدابيرك، أبعد عنا كل تصور لا يليق وكل شهوة مضرة، وأنهضنا في وقت الصلاة موطدين في الإيمان، وناجحين في وصاياك بمسرة وصلاح ابنك الوحيد الذي أنت مبارك معه ومع روحك القدوس الصالح والمحيي.

أفرام البار (٣٠٣–٣٧٩)

وعاصر باسيليوس الكبير أفرام البار «معزي الحزانى ومرشد الشبان وهادي الضالين». وُلِد أفرام في نصيبين من أبوين مسيحيين حوالي السنة ٣٠٣، ولحق بأسقفها القديس يعقوب الشهير «فسقاه من التقى والعلم لبانًا نقيًّا، وقرأ كتاب الله فأحكمه»، وترك الدنيا وما فيها، واعتكف فأخذ عن يوليانوس الناسك طريقته، فأكب على الصوم والصلاة والإماتة، ولم يأكل سوى خبز الشعير والبقول المجففة، ولم يشرب سوى الماء، فأصبح جسده على حد تعبير غريغوريوس النيصي هيكلًا عظميًّا كأنه تمثال من الفخار.

---

[١٩] Assaf, M., Synxarion, Jan. 1.

[٢٠] Patrologia Graeca, Vol. 31, Col. 619–1428; Clarke, W. K. L., St. Basil the Great; Murphy, Sister, St. Basil and Monasticism.

وعلَّم أفرام القديس في مدرسة نصيبين، فلما سقطت بيد الفرس سنة ٣٦٣ جلا عنها وسار إلى آمد فالرها، وارتاح إلى سكنى الرها، وأشرف على مدرستها، فظهر فيها على أهل البدع، ولقن الطلبة حقائق الدين القويم، وزار النساك المنتشرين في ضواحي الرها، وفاقهم بالكمال والقداسة، فذاع صيته وجاءه الكثيرون لاقتفاء أثره، فوعظ وهدى حتى أصبح أبًا للمئات من النساك والرهبان.

ويرى غبطة البطريرك أغناطيوس أفرام الأول أن هذا القديس البار هو إمام اللغة السريانية الأكبر، وفارس ميدانها الذي لا يُجَارى ولا يُطَاول، ويضيف غبطته أن أبرز مصنفات هذا القديس ميامره الشعرية على البحر السباعي في أسرار ربنا ومخلصنا، وفي البتولية والتوبة والإيمان والحياة المسيحية والكهنوت.[٢١]

مار مارون (٤١٠ +)

ويذكر ثيودوريطس أسقف قورش مارون الناسك في عداد نساك أبرشيته، ويقول إنه اعتكف على إحدى القمم بالقرب من هيكل وثني، وأنه قضى حياته بالصلاة والتوبة، وأن الله منَّ عليه بالقدرة على الشفاء، فتقاطر الناس إليه يتبركون ويلتمسون الدعاء، وأن بعض هؤلاء تتلمذ عليه واقتفى أثره.[٢٢] وكتب يوحنا الذهبي الفم إلى هذا «الكاهن الناسك» في أثناء محنته في أرمينية سنة ٤٠٥ يستخبر عن أمره ويلتمس دعاءه.[٢٣]

ولم يذكر ثيودوريطس سنة وفاة هذا القديس الناسك ولا ذكرها غيره، ولكننا نعلم أن الذهبي الفم التمس دعاء هذا الناسك القديس في السنة ٤٠٥، وأن ثيودوريطس بدأ يدون أخباره في السنة ٤٢٣، ومن هنا تعيين الوفاة في السنة ٤١٠ أو حواليها،[٢٤] ولا تزال الكنيسة الجامعة بفرعَيْها اليوناني واللاتيني تعيد لهذا القديس الأرثوذكسي حتى يومنا هذا.

---

[٢١] كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، تأليف البطريرك أغناطيوس أفرام الأول برصوم، ص١٩٦–٢٠٢؛ وله أيضًا الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، ص٥٢٣–٥٢٦.

[٢٢] Théodoret, Hist. Ecc., XVI, XXI, XXII, XXX.

[٢٣] Chrysostomus, Epist., XXXVI.

[٢٤] Dib. Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 41.

القديس أيرونيموس (٣٤٧-٤٢٠)

وأمَّ أنطاكية في السنة ٣٧٣ أيرونيموس الشاب السلوفيني الإيطالي، الذي أصبح فيما بعدُ أكبرَ رجال التفسير في الكنيسة الغربية. وُلِد أيرونيموس في سلوفينية من أبوين شرقيين مسيحيين تقيين،[٢٥] وفي الثانية عشرة أُرسِل إلى رومة، فدرس فيها الفصاحة والبيان، واستسلم حيناً لأهوائه، ثم قبل سر المعمودية على يد ليباريوس أسقف رومة سنة ٣٦٥، وعزم على التفرغ للعبادة، وسعى لاجتذاب أخته الصغيرة إلى حياة التبتل والتنسك، فغضبت عليه عمته وثارت في وجهه، فسافر إلى الشرق.

ولدى وصوله إلى أنطاكية حلَّ ضيفًا على إفاغريوس الكاهن[٢٦] يمين بفلينوس زعيم الأفستاثيين الأرثوذكسيين، وفي أثناء إقامته في عاصمة الشرق درس اليونانية والعبرية، وأصغى لكبار رجال التفسير واللاهوت، وشعر بالدعوة إلى التبتل والتنسك، فانفرد في برية خلقيس (قنسرين)، وأقام فيها مدة مثابرًا على الصوم والصلاة والسهر والإماتة، وفي السنة ٣٧٧ عاد إلى أنطاكية فسعى بفلينوس أسقف الأفستاثيين وأقنعه بقبول درجة الكهنوت، ثم رحل إلى القسطنطينية ليأخذ العلم واللاهوت عن غريغوريوس الثيولوغس، فلبث فيها سنتين، وفي السنة ٣٨١ أصبح بعلمه وفصاحته مقررًا للمجمع المسكوني الثاني، وفي السنة التالية رافق بفلينوس إلى رومة، فاتخذه دماسوس أسقفها كاتبًا له، ووكل إليه وضع ترجمة موحدة للكتب المقدسة.

وتوفي دماسوس (٣٨٤)، فأراد البعض أن يخلف أيرونيموس هامة الرسل في رومة، فثارت ألسن الحساد ورشقوا هذا الراهب المسكين بسهام «القلوب الدنيئة»، فحمل أيرونيموس صليبه بصبر، وحمل مكتبته وترك رومة (٣٨٥)، وقام إلى الشرق إلى أنطاكية وعكة ويافة فأوروشليم وبيت لحم، وجاء برفقته إلى هذه الديار أخوه بولنيانس، والكاهن منصور، والتقيتان بولا Paula، وإفستوكيوم Eustochium، وشيدت بولا ديرين في بيت لحم في جوار «المذود المقدس» واحدًا للرجال وآخر للنساء، وتسلَّمت هي رئاسة دير النساء، وأشرف أيرونيموس على إدارة دير الرجال، وعكف أيرونيموس على تقديس نفسه

[٢٥] Cavallera, F., Saint JérÔme, Sa Vie et Son CEuvre, 2 Vols., Louvain, 1922; Monceaux, P., Saint JérÔme, la Jeunesse, l'Etudiant, l'Ermite, Paris, 1932.

[٢٦] Morin, G., Qui est l'Ambrosiaster? Riv. Bib., 1914, I; Rev. Bénéd., 1928, 251.

في بيت لحم خمسة وثلاثين عامًا، وتوفي فيها (٤٢٠) ودُفِن بالقرب من المذود الشريف، ثم نُقِل جسده إلى رومة.

ونقل أيرونيموس خرونيقون أفسابيوس القيصري من اليونانية إلى اللاتينية، وأضاف إليه وأكمل أخباره حتى السنة ٣٧٨،[٢٧] وفي السنة ٣٩٢ أخرج مجموعته في مشاهير أدباء النصارى De Viris Illistribus، وكتب رسائل عديدة بعث بها إلى أكابر رجال عصره ردًّا على كتاباتهم أو رسائلهم، وفي السنة ٤٠٥ أنجز هذا القديس العظيم ترجمة الكتب المقدسة التي طلبها منه دماسوس أسقف رومة، فكانت الـ Vulgata التي لا تزال مقبولة في الأوساط الكنسية الغربية حتى يومنا هذا.

الوثنيون والرهبان

واعتبر الوثنيون المثقفون الرهبان أعداء ألداء لجميع المسرات الطبيعية وخونة، سخفاء الذمة لم يثبتوا على عهد الولاء للمجتمع المدني، وقالوا إنهم لا يدخلون المدن إلا لبذر الشقاق في المجتمع وإلحاق الضرر بهياكل الآلهة. وجاء في رسالة يوليانوس الجاحد التاسعة والثمانين أن في الرهبان أرواحًا نجسة تجعلهم يتغالظون ويشاكسون ثم يبتعدون عن الناس، وكتب ليبانيوس الفيلسوف الوثني الأنطاكي في السنة ٣٨٤ إلى ثيودوسيوس الإمبراطور، يطلب تدخله الفعال ضد «هؤلاء الذين يخربون الهياكل ويملئون الكهوف والمغاور، وليس لديهم من الزهد والتقشف سوى معاطفهم، هؤلاء الذين يرتدون الأسود، ولكنهم يأكلون أكثر من الفيلة، ويشربون أثناء الترتيل ما يتعب الأرقاء من كثرة السكب، يصفِّرون وجوههم ولكنهم يخبئون تحت هذا التصفير بلبلة وتشويشًا، هؤلاء أيها الإمبراطور هم الذين يهجمون على الهياكل عابثين بالقانون، حاملين الأخشاب لإضرام النار، والحجارة والحديد للتقويض والنهب».[٢٨]

الدولة والرهبان

ولم يرضَ والنس عن تدخُّل رهبان النطرون في قضية خلف أثناسيوس في الإسكندرية، فأصدر في السنة ٣٧٥ قانونًا قضى بإكراه الرهبان على القيام بالخدمة العسكرية، وهبَّ

[٢٧] Helm, R., Hieronymus Zusatze in Eusibius Chronik.

[٢٨] Libanius, Oratio, II, 32.

عماله في مصر والشرق يسوقون الرهبان والنساك فيعزرونهم ويهزءون بهم، وقضوا على عدد غير قليل منهم تحت ضرب السياط وسفع الحديد.[٢٩]

واضطر ثيودوسيوس على الرغم من ورعه وتقواه أن يصدَّ الرهبان ويمنع تدخلهم في الأمور المدنية، فإنه تألم من تدفُّقهم على أنطاكية في السنة ٣٨٧ كما سبق وأشرنا، ومن تهافتهم في الغرور في السنة ٣٨٨ في كلينيكوم في مقاطعة الرها، عندما انقضُّوا على فئة من الغنوسيين، فأحرقوا هيكلها وطمعوا في اليهود فخربوا كنيسهم، وأراد ثيودوسيوس أن يكره أسقف كلينيكوم على إعادة تعمير الكنيس على نفقة المسيحيين، ولكن تدخل القديس إمبروسيوس رفع عن زميله في كلينيكوم عبئًا ثقيلًا،[٣٠] فسنَّ الإمبراطور قانونًا في الثاني من أيلول سنة ٣٩٠ منع به الرهبان من الإقامة في المدن، وأجبرهم على البقاء في البراري الفسيحة،[٣١] وفي الثاني من نيسان سنة ٣٩٢ حرَّم الإمبراطور على الرهبان التدخل في الأحكام والتشفُّع أمام السلطات.[٣٢]

موقف الأوساط المسيحية

ولم يجمع المسيحيون على تقرير التبتل والزهد والتنسك، ولم يشاركوا كلهم الذهبي الفم في قوله إن رهبان الفيافي في مصر ملائكة في شكل بشري،[٣٣] فإنه قام من أبناء أنطاكية نفسها من المسيحيين من قرَّف بالرهبان وعدَّ تقشفهم ضربًا من الجنون، واستفرغ كل ما في وسعه لمنع الناس عن اقتفاء آثارهم.[٣٤] وإذا جاز لنا أن نأخذ بشهادة سالفيانوس قلنا معه: «إذا خرج رجال الله من أديرتهم في مصر أو من أماكن أوروشليم المقدسة أو من

٢٩ Saint JérÔme, Chron., 248; Orose, Adv. Pag., VII, 33; Théodoret, Hist. Ecc., IV, 19.

٣٠ Labriolle, P., Saint Ambroise, 109–125.

٣١ Cod. Theod., XVI, 3.

٣٢ Cod. Theod., XI, 36.

٣٣ In Mat. Hom., VIII; Baur, C., Chrysos. und seine Zeit, I, 91 ff.

٣٤ Chrysostomus, Contre les Détracteurs de la Vie Monastique, I, 2 f, II, 6 f, III, Trad. Legrand, (Paris, 1933), 89 ff.

البراري، وأموا المدن بوجوههم الصفر وشعورهم المجزوزة حتى الجلد، قُوبِلوا بالضحك والصفير والاستهزاء.»[٣٥]

الأساقفة والرهبان

وليس لنا أن نغالي مع مؤرخ الكنيسة لويس دوشان Duchesne، فنرى في مجرد التنسك انتقادًا للحياة الإكليريكية آنئذٍ، وليس لنا أيضًا أن نقول معه إن البقاء في الكنيسة في نظر نساك ذلك العصر أضحى مستحيلًا لمن أراد منهم أن يحيا حياة مسيحية حقيقية،[٣٦] بل يمكننا أن نقول إن الرهبانية، رغم بعض التطرف في التبتل والتعبد، كانت بمثابة تنفس للقوى الروحية الفائضة في الأفراد الذين اضطروا إلى الاعتزال لمتابعة الجهد الروحي، وتكشف المثل العليا دون الاعتداء على نظم الكنيسة وأوضاعها القائمة. والواقع أن تشريع والنس وثيودوسيوس وحده يثبت تدخل الرهبان والنساك في أمور الكنيسة، وأن أخبار ثيوفيلوس الإسكندري تؤكد أيضًا تعاونًا وثيقًا بين الأسقف وبين الرهبان،[٣٧] ويجب ألَّا ننسى أن مجمع أسنة Latopolis بحث ادِّعاء باخوميوس أنه «يرى ويقرأ الأرواح»،[٣٨] ولا يخفى أيضًا أن علاقات باخوميوس مع أساقفة مصر كانت حسنة، وأن عددًا كبيرًا من رهبانه تقبلوا درجة الكهنوت، وأن أثناسيوس يبين بوضوح تام احترام أنطونيوس الكبير للسلطة الدينية. ويُلاحَظ هنا أن العالمين الكبيرين هارناك وغروتزماخر الألمانيين تطرَّفَا في خروجهما عن المألوف، فاستحقَا نقْدَ زميلهما شيفيتز.[٣٩]

ويُلاحَظ أيضًا أن النساك المتبتلين من أبناء كنيسة أنطاكية ساهموا منذ القرن الرابع في أعمال الكنيسة الخيرية وفي التبشير أيضًا، فكان بعضهم يخرج من الصوامع عند اقتضاء الحاجة للعمل والتبشير، ثم يعود إلى العزلة بعد إنجاز المهمة، وقد أجاد الأب أولاف هندريك في إظهار هذه الناحية من الحياة الرهبانية الأنطاكية، ولكنه تطرَّفَ في الاستنتاج عندما رأى أن اشتراك هؤلاء في هذه الأعمال هدف بعد مجمع خلقيدونية إلى

---

٣٥ De Gubernatione Dei, VIII, 4.

٣٦ Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, II, 491.

٣٧ Baur, C., Chrysos. und Seine Zeit, II, 294.

٣٨ Labriolle, P., La Crise Montaniste, 126, 158, 320, 451.

٣٩ Schiwietz, Das Morgenlandische Monchtum, I, 303 ff.

الاستقلال عن بيزنطة، ولعله يقصد الرهبان الذين قالوا بالطبيعة الواحدة لا رهبان كنيسة أنطاكية، فهؤلاء ظلوا أبناء الكنيسة الأم الجامعة![٤٠]

تطرُّف في التبتُّل والتأبُّد

وتطرَّفَ بعض المؤمنين في موقفهم من لذات الجسد، ولا سيما في أمر الزواج، فافترق الزوجان ليلة العرس[٤١] أو حافظَا على العفة إلى ما شاء الله،[٤٢] أو ترك أحد الزوجين الآخر على الرغم من فائق المحبة وشدة التعلق،[٤٣] وعاد البعض إلى تمجيد التأبد والتبتل والدفاع عنهما دفاعًا عقليًّا منطقيًّا، ولا تخلو بعض مصنفات الآباء القديسين من التأسف الشديد على وجوب المحافظة على الجنس بالطريقة الجسدية المعروفة، وعلى ما يتبعها من عواقب «نجسة قذرة».[٤٤]

ويُستدَل من مقررات مجمع غنغرة المحلي الذي انعقد في منتصف القرن الرابع، أن المؤمنين في أبرشية سبسطية في أرمينية الصغرى اعتبروا المتزوجين منهم موبوئين لا خلاص لهم، وامتنعوا عن التعبد في الكنائس التي قام بالخدمة فيها كهنة متزوجون، وقالوا إن الأغنياء لن يدخلوا ملكوت السماوات، وحضوا الأرقاء على عدم الطاعة، وطالبوا بجزء كبير مما قُدِّم للكنيسة مدَّعين أنهم أحق بذلك من سواهم؛ نظرًا لمستواهم الأدبي العالي،[٤٥] فأوجب الآباء المجتمعون الابتعاد عن كل بدعة لا تقرها الأسفار المقدسة أو قوانين الكنيسة، وأكدوا احترامهم في الوقت نفسه للتنسك والعفة والطهارة.

والتأم في هذا القرن نفسه مجمع محلي آخر في لاذقية فريجية ضمَّ عددًا غير قليل من أساقفة آسية، ويتضح من خلاصة أعمال هذا المجمع أن الأساقفة المجتمعين حرَّموا

---

٤٠ Olaf Hendriks, Activité Apost. des Premiers Moines Syriens, Proche-Or. Chrét., 1958, 25.

٤١ Socrates, Hist. Ecc., IV, 23.

٤٢ Saint JérÔme, Epist. LXVI, 3.

٤٣ Palladius, Hist. Laus., LXI, 2.

٤٤ Saint Augustin, Soliloq., I, 9, 17, Conf., X, 30, De Civitate Dei, XIV, 16; Chrysostomus, Saint Jean, De Virgin, XIV.

٤٥ Mansi, II, Col. 1095 ff.; Socrates, Hist. Ecc., II, 34; Sozomène, Hist. Ecc., III, 14.

الربا على الكهنة، ومنعوا رجال الإكليروس من التردد إلى الفنادق، وأوجبوا خروجهم من العُرُسات قبل بدء الرقص، وابتعادهم عن الحمامات عند دخول النسوة إليها، وحرموا إقامة حفلات الأغبَّة في الكنائس، وأوجبوا على الكهنة ألا ينقلوا إلى بيوتهم فُضالة الموائد بعد هذه الحفلات، ثم منعوا النساء منعًا باتًّا من الاقتراب من المذبح، ولعلهم أوصوا بسيامة الشماسات خارج الكنيسة لا داخلها، ولم يرضوا فيما يظهر عن اشتغال الكهنة بالسحر والتنجيم، وعن إعداد التعويذات والأحراز لصيانة حاملها من الأمراض والأرواح النجسة.[٤٦]

[٤٦] Labriolle, P., Morale et Spiritualité, Fliche et Martin, Hist. de L'Eglise, III, 382–384.

الفصل الحادي والعشرون

كنيسة أنطاكية في الربع الأول من القرن الخامس

الهيرارخية

وتدل النصوص الباقية أن هيرارخية كنيسة أنطاكية شملت في الربع الأول من القرن الرابع، أي قبيل التئام المجمع المسكوني الأول، الأبرشيات الآتية: أبرشية فلسطين ومركزها قيصرية، وأبرشية فينيقية ومركزها صور، وأبرشية العربية ومركزها بصرى، وأبرشية سورية ومركزها أنطاكية، وأبرشية ما بين النهرين ومركزها الرها، وأبرشية قيليقية ومركزها طرسوس، وأبرشية أسورية ومركزها سلفكية.

وهناك ما يدل على أن هذه الأبرشيات أصبحت خمس عشرة في الربع الأول من القرن الخامس، فأبرشية فلسطين أصبحت ثلاثًا: فلسطين الأولى ومركزها قيصرية، وفلسطين الثانية ومركزها بيسان Scythopolis، وفلسطين الثالثة ومركزها البتراء، وقد أنشئت هذه في السنة ٣٥٧-٣٥٨، فشملت كل ما وقع جنوبي أرنون وبحر الميت.[١] ويجوز القول أيضًا إن أبرشية قيليقية قسمت إلى اثنتين ما بين المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) والمجمع الثالث (٤٣١)، فظهرت أبرشية قيليقية أولى مركزُها طرسوس، وأبرشية قيليقية ثانية مركزُها عين زربة، وجرى مثل هذا وفي الوقت نفسه في فينيقية فظهرت أبرشيتان فينيقيتان: فينيقية الساحلية ومركزها صور، وفينيقية اللبنانية ومركزها دمشق، وقضت ظروف الحدود الفارسية في السنة ٣٥٩ بتقسيم أبرشية سورية إلى أبرشيتين: سورية ومركزها

١ Devresse, R., Christianisme dans le Negeb, Rev. Sc. Relig., 1940, 235–237.

أنطاكية، والفرات ومركزها دولك، ثم ظهرت أبرشية الرها في السنة ٣٧١ فسورية الأولى ومركزها أنطاكية، وسورية الثانية ومركزها أبامية،[٢] ولم يرتبط عدد المطارنة بعدد الأبرشيات الإدارية المدنية، فإن أسقف بيروت أصبح متروبوليتًا منذ عهد ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨–٤٥٠)، وتمتع أسقف حلب بهذا اللقب في مجمع السنة ٥٣٦، وقُلِ الأمرَ نفسه عن حمص ودارا والرصافة Sergiopolis، فقد تمتَّعت جميعها باللقب متروبوليس في أوقات لم تكن هي فيها مراكز أبرشيات إدارية.[٣]

أسقف أنطاكية

وكفى أسقف أنطاكية فخرًا آنئذٍ أن يكون أسقف أنطاكية، ومن هنا في الأرجح هذا السكوت في المراجع الأولية عن ألقابه وعن صلاحياته قبل أيام يوستنيانوس الكبير، وجل ما نعلمه وتقره المصادر هو أن موافقة الأبرشيات الخاضعة له كانت ضرورية لارتقائه إلى منصب الرئاسة، وأنه لم يكن له حق التدخُّل في ترقية إكليروس هذه الأبرشيات من درجة إلى درجة.

متروبوليت الأبرشية

أما متروبوليت الأبرشية فإنه حفظ في يده حق ترقية رجال الإكليروس في داخل أبرشيته، وكان لا بد من موافقته وحضوره لسيامة الأساقفة الخاضعين له، وكان عليه أن يدعو إلى مجمع محلي جميع أساقفة أبرشيته مرتين في كل سنة، مرة في الأسبوع الثالث بعد الفصح، ومرة ثانية في منتصف تشرين الأول، وهي أمور نصَّتْ عليها قوانين مجمع التكريس في أنطاكية (١٩ و٢٠) ومجمع نيقية (٦).

ويستدل مما خلفه سويروس الأنطاكي أن انتخاب الأساقفة في الأبرشية كان يتم في غالب الأحيان باشتراك الشعب والسلطة الروحية، فيجتمع الوجهاء ويتخذون قرارًا Psephisma بثلاثة من أفضل المرشحين اللائقين بمقام الأسقفية، ثم يرفعون هذا القرار

---

[٢] Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 45–47.

[٣] Ibid., 121, n. 3, 4.

إلى متروبوليت الأبرشية أو إلى رئيس الكنيسة أسقف أنطاكية نفسه لينتقي الأفضل،[٤] وجاء بعد الأسقف الخور أسقف والبرديوت Periodeutes والكاهن والبرَمون Paramonaire.[٥]

الكنيسة والدولة

واتبع يوفيانوس بعد يوليانوس سياسة الحياد بين النصرانية والوثنية، وتبعه في ذلك فالنتنيانوس فاستحق شكر أميانوس ماركلينوس المؤرخ الوثني،[٦] وسكت والنس عن الوثنية ولم يضيق عليها، وجاء ثيودوسيوس فخرج من هذا الحياد الرسمي إلى تدخل فعلي في شقاق النصارى واختلافاتهم الداخلية، ثم أعلن في ربيع السنة ٣٨١ ما ينتظر النصراني الجاحد من عقوبات،[٧] وفي الخامس والعشرين من أيار السنة ٣٨٥ جدد تحريم الذبائح للعِرافة،[٨] ثم أرسل المدبر كينيغيوس Cynegius في جولة إدارية تفتيشية إلى إقليمَيْ سورية ومصر؛ ليقفل بإجراءات إدارية ما أمكنه من الهياكل الوثنية، ودامت رحلة كينيغيوس ثلاث سنوات (٣٨٥–٣٨٨) تمكَّنَ في أثنائها من إغلاق عدد غير قليل من هذه الهياكل،[٩] ثم دخل الإمبراطور ثيودوسيوس في مشادة عنيفة مع القديس إمبروسيوس[١٠] (٣٩٠)، فعطف على مشاهير الوثنيين وقرَّبهم إليه،[١١] وهكذا فإن ثيودوسيوس لم يحزم ولم يكن متوثِّقًا من سياسته الدينية وموقفه من النصرانية قبل السنة ٣٩١، ولا يخفى أن إنشاء الهياكل الوثنية في الشرق أو ترميمها أو تزيينها لم ينقطع طوال القرن الرابع؛ ففي السنة ٣٢٩ زين سكان عرنة حوران هيكلًا لزفس،[١٢] وفي السنة ٣٦٧-٣٦٨ رمَّمَ الوثنيون هيكل زفس في كوريفايوس (الحصن)،[١٣] وفي السنة ٣٨٩ أنشأ الحورانيون

---

٤ Brooks, E. W., Select Letters, 91, 94, 95.

٥ Syntagma Canonum, (Rhalli–Polti).

٦ Ammianus Marcellinus, XXX, 9.

٧ Cod. Theod., XVI, 7.

٨ Cod. Theod., XVI, 10.

٩ Rufin, Hist. Ecc., XI, 23; Théodoret, Hist. Ecc., V, 21; Rauschen, G., Jahrbucher, 228, 270.

١٠ Greenslade, S. L., Church and State, 71–85.

١١ Palanque, J. R., Cath. Rel. d’Etat, Fliche et Martin, op. cit., III, 516.

١٢ Fossey, BCH, 73.

١٣ Jalabert–Mouterde, 652.

معبدًا للإله ثياندريتس،[١٤] وجاءت السنة ٣٩١ فبدأ ثيودوسيوس تحريماته الشهيرة الأولى في رومة في ٢٤ شباط، والثانية في الإسكندرية في ١٦ حزيران، والثالثة بعد سنة وأكثر (٨ تشرين الثاني سنة ٣٩٢) في القسطنطينية، وقد حرمت هذه التدين بالوثنية في جميع أنحاء الإمبراطورية.[١٥]

وبعد السنة ٣٩٢ استغلت الكنيسة وحدها جميع الامتيازات التي كان قسطنطين الكبير قد منحها رجال الإكليروس ليساويهم بكهنة الوثنيين، وأهم هذه الامتيازات إعفاءات مالية معينة،[١٦] وصلاحيات قضائية، وحق حماية اللاجئ، وحق الاستقلال القضائي.[١٧]

واختلف الآباء القديسون في موقفهم من موضوع الكنيسة والدولة؛ فالقديس أثناسيوس الكبير قال إلى الإمبراطور قسطنديوس في السنة ٣٥٧: «إني لم أقاوم أوامر تقواكم، أعوذ بالله، إني لا أعارض أحكامَ والٍ من الولاة، فكيف أجرؤ على مقاومة أمير عظيم؟»[١٨] وعلَّم هذا القديس بوجوب طاعة الملوك؛ لأن سلطتهم مستمدة من الله، وبوجوب اهتمام هؤلاء بشئون الكنيسة وحمايتها، وعندما احتج دوناتوس على تدخل الإمبراطور في شئون الكنيسة، أجابه الأسقف أوبتاتوس: «إن الكنيسة جزء من الدولة، وليست الدولة جزءًا من الكنيسة.»[١٩] أما إمبروسيوس فإنه لم يخضع السماويات للأرضيات، وأكد للإمبراطور «أنه ليس رئيس الكنيسة»،[٢٠] Imperator intra ecclesiam non supra ecclesiam.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الرأي، ومن استمساك عدد من الأباطرة بالسلطة وتدخلهم في شئون الكنيسة، وتسخير هذه لأغراضهم الخاصة وسياساتهم الدنيوية، فإن تنصُّر الدولة أدَّى إلى خضوع الأباطرة لمبادئ الإنجيل الطاهر، وجعل منهم أداة للخير

[١٤] Waddington, 2046.

[١٥] Cod. Theod., XVI, 10.

[١٦] Cod. Theod., XIII, 1, XVI, 2, XII, 1.

[١٧] Privilegium Fori: Cod. Theod., XVI, 2, (17 Mai, 376); Const. Sirmond.; Lardé, G., Tribunal du Clerc, 23–26.

[١٨] Saint Athan., Apol. ad Const., 19.

[١٩] Optatus, III, 3.

[٢٠] Ambrosius, Epist. XX, XXI, Contra Auxentium, III, XXIV, XXXI.

في كثير من الأحيان. ولا يختلف اثنان في أن حكم الأباطرة المسيحيين كان أليق بالحرية والعدالة والمحبة من حكم سلفائهم الوثنيين.[٢١]

الآباء العلماء

وأنجبت كنيسة أنطاكية في الخمسين سنة التي تلت وفاة ملاتيوس عددًا من العلماء الأعلام، الذين دافعوا عن العقيدة القويمة في عصرٍ كثرت فيه البدع واشتد ضغط الهراطقة، وحافظوا على نصوص الأسفار المقدسة في زمن كثر فيه اختلاف المعاني الرمزية، والإشارة هنا إلى ديودوروس الطرسوسي[٢٢] وتلميذَيْه يوحنا الذهبي الفم وثيودوروس الموبسوستي.[٢٣]

رهط من كبار الأساقفة

وإذا ما ذكرنا بالإضافة إلى ديودوروس أسقف طرسوس، وثيودوروس أسقف موبسوستة، كلًّا من: أفلوغيوس أسقف الرها، ومركلوس الشهيد أسقف أبامية،[٢٤] وكيرلس ويوحنا أسقفي أوروشليم، وأبيفانيوس أسقف سلامينة قبرص؛[٢٥] نجد فلابيانوس رئيس الكهنة محاطًا بعدد غير قليل من الشخصيات القوية المحترمة.

بين اللاذقية وبيروت

ولا نعلم ماذا حلَّ بأبوليناريوس أسقف اللاذقية، الذي غالى في دفاعه عن لاهوت السيد المخلص ضد آريوس وأتباعه، فزعم أن لاهوت السيد قام مقام العقل فأصبح ناسوته ناقصًا. أما تلميذه فيتاليوس الأنطاكي فإنه توفي في السنة ٣٨٢، ووافق تلميذه الآخر

---

٢١ Palanque, J. R., Cath. Rel. d'Etat, op. cit., III, 524–525.

٢٢ Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirchlichen Lit., III, 304–312; Puech., A., Hist. Lit. Gr. Chrét. III, 447–457.

٢٣ Bardenhewer, O., op. cit., III, 312–324; Puech, A., op. cit., III, 567–583.

٢٤ Sozomène, Hist. Ecc., VII, 15.

٢٥ Bardenhewer, O., op. cit. III, 293–302; Puech, A., op. cit., III, 644–667.

تيموثاوس أسقف بيروت على مقررات المجمع المسكوني الثاني، فعاد إلى كرسيه مكرمًا وصنف بعض الرسائل ووضع تاريخًا كنسيًّا، فنفر منه بوليمون وابتعد ليصبح مغاليًا من الغلاة.[٢٦]

المصلون والراهب ألكسندروس

والمصلون Messaliens الذين ظهروا في الأبرشيات الأنطاكية الشمالية في الربع الأخير من القرن الرابع لزموا الصلاة، ولا سيما الذكسولوجية ورددوها دائمًا؛ لأنهم زعموا أن لكل إنسان شيطانًا لا يخرج إلا بالصلاة، «وامتهنوا النسك والصيام والسهر والشغل، ولازموا النوم وعاشوا بالصدقات»، وادعوا أنهم بالصلاة والتجرد عن الأموال يتحدون بالله اتحادًا شديدًا، ومن هنا اعتبارهم أنفسهم ملائكة وأنبياء ورؤساء ومسحاء، ومن هنا في الأرجح قول دوشان المؤرخ أنهم «دراويش النصرانية».[٢٧]

وأشهر هؤلاء المصلين الراهب ألكسندروس، بدأ حياته الرهبانية في سورية الشمالية وفي الجزيرة، فكان تارة يجول مبشرًا بالإنجيل وطورًا يجمع الرهبان ليقيم معهم في مسكن دائم، وأمَّ أنطاكية في أوائل القرن الخامس، فدارت حوله الشبهات فطُرِد منها طردًا، فذهب إلى القسطنطينية حيث أصبح مشكلة المشاكل في عهد أتيكوس أسقفها.[٢٨] ويختلف المؤرخون في موقفهم من هذا الراهب، فهو قديس عند بعضهم سابق ممهد بإتيان فرنسيس الأسيزي،[٢٩] وهو خارج عند غيرهم مبتدع مهرطق.[٣٠]

ذوات الأقراص

واهتمت نساء أبرشية بصرى بالسيدة العذراء، فأقمن لها احتفالًا خصوصيًّا، وصنعن لها عرشًا، وأعددن أقراصًا، واجتمعن حول العرش لأكل الأقراص وممارسة بعض الأعمال كأنهن من الكهنة.

---

[٢٦] Bardenhewer, O., op. cit., III, 292.

[٢٧] Duchesne, L., Hist. Anc. de l’Eglise, II, 583.

[٢٨] Bardy. G., Atticus de Constantinople, Fliche et Martin, op. cit., IV, 159–160.

[٢٩] Acta Sanctorum, Januarii, I, 1018–1029; Sloop, E., Patrologia Orientalis, VI, 5.

[٣٠] Pargoire, G., “Aeémétes”, Dict. Arch. Chrél., I, 307–321.

بورفيريوس (٤٠٤–٤١٤)

وتوفي فلافيانوس وخلا عرش أنطاكية فجاء بورفيريوس، وجل ما نعلمه عن بورفيريوس أنه وصل إلى السدة الأنطاكية بتواطؤ أكاكيوس وسويريانوس وأنطيوخوس أساقفة حلب وجبلة وعكة، وأنه تذرَّعَ بالإرادة السنية الإمبراطورية، فأنزل بأخصامه العذاب، ونفى معظمهم كما سبق وأشرنا، ولا نعلم مدى مدة رئاسته بالضبط، ولكننا نقرأ أنه اشترك في المفاوضات التي جرت في السنة ٤٠٩–٤١٠ مع كنيسة فارس.[٣١]

ألكسندروس (٤١٤–٤٢٤)

وتولى خلافة الرسولين بعد بورفيريوس ألكسندروس الراهب الوقور الذي تمكَّنَ بلطفه ودماثة أخلاقه أن يزيل الشقاق بين الأرثوذكسيين الشرعيين أتباع ملاتيوس وبين الأرثوذكسيين الأفستاثيين، وأن يجعل الطائفتين رعية واحدة لراعٍ واحد؛ فإنه قبِلَ الكهنة الأفستاثيين بين كهنته في الرتب نفسها التي تمتعوا بها، وقام بشخصه إلى كنيسة الأفستاثيين وجاء بهم إلى كنيسته مرتلًا مصليًا![٣٢] وبقيت بقية متعنتة من الأفستاثيين ولم ترضَ عن شيء من التفاهم والتعاون حتى عودة رفاة أفستاثيوس في عهد كالنذيون (٤٧٩–٤٨٣).

وكان ثيوفيلوس خصم الذهبي الفم قد ناشد أساقفة الشرق والغرب موجبًا رفع اسم خصمه من الذبتيخة، والذبتيخة مصحف يضم أسماء الذين يراد ذكرهم من شهداء وأبرار وقديسين أو من أساقفة وبطاركة عند تقديم الذبيحة الطاهرة، وكان قد أصرَّ على هذا العناد عدة سنين حتى أصبح ذكر الذهبي الفم في الذبتيخة من أهم مشاكل الكنيسة في الشرق ما بين السنة ٤٠٤ والسنة ٤١٤، وتوفي ثيوفيلوس في السنة ٤١٢، وخلف الرسولين في أنطاكية ألكسندروس التقي المسالم، وأحب أن يزيل النفور الذي كان قد دبَّ إلى قلوب «الحناويين» من أبناء رعيته، فدوَّن اسم يوحنا الذهبي الفم في الذبتيخة الأنطاكية، وقبل في الشركة ألبيذس أسقف اللاذقية وببوس وغيرهما ممَّن وقع تحت الاضطهاد من أصدقاء الذهبي الفم.

---

[٣١] Chabot, J. B., Synodicon Orientale, 255 ff.

[٣٢] Théodoret, Hist. Ecc., V, 35.

وقضى العرف الكنسي بتسطير رسالة سلامية إلى كبار الأساقفة خارج كنيسة أنطاكية، فكتب ألكسندروس إلى أنوشنتيوس أسقف رومة ينبئه بما جرى ويلتمس الشركة، وبعث بكتابه مع وفد صحبة الكاهن كاسيانوس تلميذ الذهبي الفم، فتهللت نفس القديس الروماني، وأنفذ إلى ألكسندروس رسالة مجمعية مذيلة بتواقيع أربعة وعشرين أسقفًا إيطاليًّا قابلًا شركة كنيسة أنطاكية، وكتب أنوشنتيوس أيضًا كتابًا خصوصيًّا إلى ألكسندروس أعرب فيه عن حبه وتقديره، ودفع الرسالتين إلى وفد مؤلَّف من الكاهن بولس والشماس نقولا والشماس بطرس، وكان بورفيريوس قد كتب إلى أنوشنتيوس مسلمًا ولكن أسقف رومة لم يُجِبْ.[٣٣]

وفي هذه الأثناء عرف أكاكيوس أسقف حلب خطأه، فوضع اسم الذهبي الفم في الذبتيخة الحلبية، ولم يمضِ وقت يسير بعد هذا حتى اتحدت الكنيسة الأنطاكية على تكريم الذهبي الفم مفتخرة بكونه ابنها ورسولها، وأصرَّت كنيسة القسطنطينية على إنكاره وغمص جميله، فسار ألكسندروس أسقف أنطاكية إلى القسطنطينية، واستنفد الجهد في اجتذاب أتيكوس، فأخفق فاستفز حمية الشعب بتعداد فضائل الذهبي الفم، فتضرعوا إلى أتيكوس أن يقبل بتكريم سالفه، فأبى فعاد ألكسندروس إلى أنطاكية حابط السعي.

وكتب أكاكيوس إلى أتيكوس أسقف القسطنطينية وإلى كيرلس أسقف الإسكندرية، فاشتد اللغط في الأوساط الشعبية في العاصمة حتى خشي من شبوب ثورة، فاستشار أتيكوس الإمبراطور الشاب، ثم بادر إلى تسطير اسم سالفه يوحنا في الذبتيخة، ولم يسرَّ كيرلس من هذا الخبر، فكتب إلى زميليه القسطنطيني والحلبي يلومهما،[٣٤] ولكنه لم يثبت في ذلك طويلًا، ولعله وافق زملاءه أجمعين في إكرام الذهبي الفم قبل السنة ٤١٩.[٣٥]

ثيودوتوس (٤٢٤–٤٢٨)

وهو الثامن والثلاثون بعد الرسولين، واسمه يوناني ومعناه عطا الله Theodotos، ويختلف المؤرخون في تعيين مدة رئاسته؛ فقد تكون ٤٢٤–٤٢٨، وقد تكون أيضًا

[٣٣] Palladius, Dialog., XVI; Jaffé-Wattenbach, Regesta Pontificum Romanorum, 305, 306.

[٣٤] Cyrille, Epist. LXXV, LXXVI.

[٣٥] Bardy, G., Atticus et Cyrille, (Fliche et Martin), op. cit., IV, 158.

٤١٧–٤٢٩،[٣٦] وقد تكون أيضًا ٤١٨–٤٢٧ كما جاء في تاريخ قسطنديوس البطريرك القسطنطيني،[٣٧] وأفضل ما يُعزَى إليه أنه حاول رد الأبوليناريين عن ضلالهم، فعاد إلى الأرثوذكسية حوالي نصفهم،[٣٨] ويُعزَى إليه أيضًا أنه اتخذ موقفًا حازمًا من بيلاجيوس Pelagius وأتباعه، فعقد مجمعًا أنطاكيًّا وخطَّأ هؤلاء وحرَّم عليهم الوصول إلى الأماكن المقدسة.[٣٩]

---

[٣٦] Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 117; Musset, H., Hist. du Christ., I, 163.

[٣٧] Constantius, Patriachs of Antioch, 43.

[٣٨] Théodoret, Hist. Ecc., V, 37.

[٣٩] Mercator, Commonit. Caelest. (Mansi, IV, Col. 296).

الفصل الثاني والعشرون

نسطوريوس والمجمع المسكوني الثالث

٤٢٨–٤٤١

شغور الكرسي القسطنطيني

وتوفي أتيكوس أسقف القسطنطينية في خريف السنة ٤٢٥، فترشح للخلافة كلٌّ من بروكلوس سكرتير أتيكوس، وفيليبوس أحد كهنة العاصمة، وقد عرف هذا بشغفه بالآثار وباهتمامه بتاريخ النصرانية، ولكن الشعب آثر سيسينيوس Sisinnius أحد كهنة الضواحي، الذي اشتهر بمحبة المسيح وبتواضعه وزهده وعطفه على الفقراء، فتم انتخابه في الثامن والعشرين من شباط سنة ٤٢٦،[١] ثم اختار الله له ما عنده، فاصطفاه لجواره في ليلة عيد الميلاد سنة ٤٢٧، فعاد كلٌّ من بروكلوس وفيليبوس إلى سابق نشاطهما، ولكن ثيودوسيوس الثاني آثر التفتيش عن خلف لسيسينيوس خارج العاصمة، فاتجهت أنظاره نحو أنطاكية نحو الراهب نسطوريوس رئيس أحد أديارها، الذي كان قد اشتهر بفضله وفصاحته.

نسطوريوس

وُلِد نسطوريوس في ضواحي مرعش في الربع الأخير من القرن الرابع من أبوين سوريين أو فارسيين، وهو ابن عم ثيودوريطس المؤرخ أسقف قورش،[٢] ودرس اليونانية ومبادئ

---

١ Socrates, Hist. Ecc., VII, 26.

٢ Nau, F., Naissance de Nestorius, Rev. Or. Chrét., 1909, 424–426.

العلوم في مرعش، ثم انتقل منها إلى أنطاكية حيث أخذ العلوم الدينية عن ثيودوروس الموبسوستي، وقدم النذر والتجأ إلى دير أفبريبيوس Euprepios في ضواحي أنطاكية، ثم سيم كاهنًا على مذابح كنيستنا الرسولية، وكُلِّف بتفسير الأسفار المقدسة لتفوقه في اللغة والأسلوب ولجمال صوته.[٣]

وشغر الكرسي القسطنطيني واشتد نشاط المرشحين وأصحاب المصالح، فوقع اختيار السلطات على نسطوريوس، فقام إلى القسطنطينية في أوائل السنة ٤٢٨، وجاء في أسطورة سريانية أن نسطوريوس عرَّج وهو في طريقه إلى القسطنطينية على معلمه القديم الأسقف ثيودوروس، فأقام عنده في موبسوستي يومين كاملين، وأن ثيودوروس شيعه حتى مشهد القديسة تقلا، وقال له عند الوداع: «إني أعرفك يا بُني، لم تلد امرأة رجلًا أشد حماسًا منك، فعليك بالاعتدال إن رمت النجاح في معالجة الاختلافات في الرأي.» فأجاب نسطوريوس: «ولو عشت أنت يا سيد في زمن السيد المسيح لقيل لك وأنت أيضًا ذاهب.»[٤]

واحتفل بتتويج نسطوريوس أسقفًا على القسطنطينية في العاشر من نيسان سنة ٤٢٨، فخاطب الإمبراطور على مسمع من جمهور المحتفلين قائلًا: «أعطني بلادًا خالية من الهراطقة، أقدم لك السموات بديلة، واستأصِل الهراطقةَ لنا نستأصِل الفرس معك.»[٥]

حمية نسطوريوس واندفاعه

واندفع نسطوريوس في سبيل الإيمان القويم، فاستصدر أمرًا بإغلاق كنيسة الآريوسيين في القسطنطينية في الأسبوع الأول من رئاسته، وفي الثلاثين من أيار أي في الأسبوع الثامن لرئاسته صدرت إرادة سنية إمبراطورية تستأصل الهرطقة في جميع مظاهرها، فشملت في حكمها: الآريوسيين، والمقدونيين، والأبوليناريين، والنوفاتيين، والأفنوميين، والفالنتينيين، والمونتانيين، والمركيونيين، والبوربوريين، والمصلين، والأفخيتيين، والدوناتيين، والبولسيين،

[٣] Nau, F., Analyse du Traité écrit Par Denys bar Saliby contre les Nestoriens, Rev. Or. Chrét., 1909, 302.

[٤] Brière, M., Légende Syriaque de Nestorius, 19; Nau. F., Héraclide de Damas, VI.

[٥] Socrates, Hist. Ecc., VII. 29; Loofs, F., Nestoriana, 171.

والمركلوسيين، والمانويين، وغيرهم.[٦] ونُفِّذت هذه الإرادة بحزم فأُغلِقت كنائس هؤلاء المبتدعين، وأدى إغلاقها إلى استعمال العنف في بعض الأحيان، وإلى خسائر في الأرواح.

والدة الإله

وكان الشقاق لا يزال مستحكمًا في العاصمة بين أتباع آريوس وأتباع أبوليناريوس، وكان من الطبيعي أن يشترك في الجدل بين هذين المعسكرين بعض الكهنة والشمامسة الأرثوذكسيين، ويُستدَل مما جاء في بعض المراجع الأولية[٧] أن كاهنًا أنطاكيًّا من ناحية نسطوريوس يُدعَى أنستاسيوس تدخل في الجدل القائم وقال إن مريم بشر، وكبشر لا يمكنها أن تلد إلهًا؛ ولذا فإنه لا يجوز القول عنها إنها والدة الإله Theotokos. وتضيف هذه المراجع نفسها أن نسطوريوس أبى أن يلوم أنستاسيوس، وأنه تحاشى هو بدوره استعمال التعبير «والدة الإله». وجاء في مخلفات المجمع المسكوني الثالث أن دوروثيوس أسقف مركيانوبوليس حرم استعمال الاصطلاح والدة الإله، وأن نسطوريوس سكت عن هذا التحريم ولم يقطع دوروثيوس من الشركة.[٨]

والاصطلاح «والدة الإله» قديم العهد فيما يظهر، فألكسندروس الإسكندري استعمله بدون تكلُّف، وغريغوريوس النزينزي لعن مَن لا يعتبر مريم أم الله.[٩]

ورأى نسطوريوس أن هذا الاصطلاح لم يَرِد في الأسفار المقدسة، وأن الآباء لم يستعملوه في نيقية،[١٠] وذكر القول النيقاوي «إن ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء.» فرأى في هذا اعترافًا بطبيعتين: طبيعة ابن الله المساوي للآب في الجوهر، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء، فرأى في الاصطلاح «والدة الإله» خلطًا بين اللاهوت والناسوت، واقترح القول «والدة المسيح».[١١]

[٦] Cod. Théod., XVI, 5; Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, Fliche et Martin, op. cit., IV, 166.

[٧] Socrates, Hist. Ecc., VII, 32; Evagrius, Hist. Ecc., I, 2; Liberatus. Breviar., IV.

[٨] Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, op. cit., IV, 170.

[٩] Epist. ad Cledonium.

[١٠] Nestorius, Epist. Fraternas.

[١١] Nestorius, Epist. Saepe Scripsi.

اللاهوت والناسوت

وعلَّمت الكنيسة منذ البدء أن مخلصنا الوحيد إله كاملٌ، وإنسان كامل، رب واحد لمجد الله الآب، فقام آريوس وأنكر على الكنيسة الاعتقاد بطبيعة لاهوت الكلمة المتأنس، فعقدت المجمع المسكوني الأول وحكمت عليه وعلى تعليمه، وقررت حقيقة كمال لاهوت المخلص؛ ثم قام أبوليناريوس وقال بنقص في طبيعة المسيح البشرية، فعلَّم أن اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الإنسان، فعقدت الكنيسة المجمع المسكوني الثاني وحكمت على أبوليناريوس، وقررت حقيقة كمال ناسوت المخلص. ولكن الكنيسة لم تعين بعبارات محدودة مضبوطة وجه العلاقة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية، ووجه الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، فأدى هذا إلى تفاوت في فهم التعبير، ونشأ عنه اختلاف في التعليم وخصام ونزاع أفضى إلى الانشقاقين النسطوري والأوطيخي.

الإسكندرية وأنطاكية

وتزعمت الإسكندرية الفكر المسيحي مدة من الزمن وشاطرتها أنطاكية هذه الزعامة، وكان لكلٍّ من هذين المركزين نهجٌ خصوصي في التعليم، واصطلاحٌ في التعبير كثيرًا ما خالف اصطلاح المركز الآخر في تأدية المعنى الواحد.[١٢]

وقالت الإسكندرية بكمال الطبيعة البشرية في شخص المخلص وبكمال الطبيعة الإلهية، ولكنها لم تعين وجه اتحاد الطبيعتين، فقالت مثلًا بالاتحاد الطبيعي والاتحاد الشخصي والاتحاد الجوهري بين الطبيعتين، وبعضهم نظر إلى الطبيعة الإلهية بنوع خصوصي، فقال بطبيعة واحدة متجسدة، وما عني بذلك سوى الاتحاد الحقيقي بين لاهوت الكلمة وناسوته، وأن الإله المتأنس شخص واحد وليس اثنين؛ لأن كلمة طبيعة كانت عندهم بمعنى الشخص والأقنوم، ولكن أحدًا منهم لم ينكر الطبيعتين بمعنى الجوهر اللاهوتي والعنصر البشري، ونظرًا لامتداد بدعة آريوس ووجوب محاربتها كان كلام الإسكندريين في لاهوت المخلص أكثر من كلامهم في ناسوته، وهكذا فإنهم سموا سيدتنا مريم والدة الإله، وقالوا إنها ولدت إلهًا وإن الإله وُلِد وتألَّم وصُلِب.

---

[١٢] Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, op. cit., IV, 169-170.

وأما مدرسة أنطاكية فإنها توخت البساطة والإيضاح، فميزت بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح الواحد، ومع أنها كانت تعتقد بأن المسيح واحد وليس اثنين، فإنها كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزاج بين الطبيعتين، وكانت تعتبر اتحادهما إضافيًّا بمعنى السكنى والارتباط حفظًا لكمال الطبيعة البشرية، التي زعم أبوليناريوس أسقف اللاذقية الأنطاكية أنها كانت ناقصة، وكانت تنكر على الناسوت خواص اللاهوت كالحضور في كل مكان، والقدرة على كل شيء، وما شاكَلَ ذلك، كما أنها أنكرت على اللاهوت أهواء الناسوت وآلامه كالولودة والتألم والموت؛ ولهذا السبب ابتعد الأنطاكيون عن كل تعبير يؤدي على زعمهم إلى مثل المعنى، كتسمية العذراء والدة الإله وغيرها من العبارات التي عيَّنتها الكنيسة بعد ذلك صيانةً للتعليم القويم. وقالوا بوجوب كمال الطبيعة البشرية؛ لأن لوقا يقول إن يسوع «كان ينمو في الحكمة والقامة.» وأوجبوا السجود للناسوت؛ لأنه متحد بالكلمة، ومن هنا قولهم: «إنما نسجد للأرجوان من أجل المتردي به، وللهيكل من أجل الساكن فيه، ولصورة العبد من أجل صورة الله، وللحمل من أجل رئيس الكهنة، وللمُتَّخذ من أجل الذي اتخذه، وللمكوَّن في بطن البتول من أجل خالق الكل.» ولا يجوز القول إن الأنطاكيين علموا بأقنومين، فإنهم قالوا بأقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين، بلا انمزاج ولا اختلاط ولا تشويش.[١٣]

وهكذا فإن أساتذة المدرستين علموا تعليمًا مستقيمًا، ولكن بمناهج مختلفة وبانتقاء عبارات معينة قضت باستعمالها ظروفهم الخصوصية، فالمصريون الإسكندريون توخوا العبارات التي أوضحت كمال اللاهوت حذرًا من بدعة آريوس، والأنطاكيون طلبوا إيضاح كمال الناسوت حذرًا من بدعة أبوليناريوس، وآريوس إسكندري وأبوليناريوس لاذقي أنطاكي!

وقام في الكنيستين والمدرستين أناس تطرفوا فسقطوا في الضلال، فإن نسطوريوس الأنطاكي تطرف في التعليم بالطبيعتين إلى حدٍّ قال عنده بشخصين أو أقنومين، وأوطيخة الإسكندري كما سنرى تطرف في التعليم باتحاد الطبيعتين إلى حدٍّ قال عنده باختلاطهما طبيعة واحدة لا يميز بعدها بين اللاهوت والناسوت، وهاتان البدعتان أدتا إلى عقد المجمع

[١٣] عن ثيوذوروس الطرسوسي كما جاء في كتابه ضد الأبوليناريين، وفي كلامه في الروح القدس، وعن ثيوذوروس الموبسوستي في شرح رسالة رومية؛ تاريخ الانشقاق لجراسيموس متروبوليت بيروت، ج١، ص١٩٩–٢٠٢.

المسكوني الثالث للنظر في بدعة نسطوريوس، وعقد المجمع المسكوني الرابع للبت في بدعة أوطيخة، وعقد المجمع المسكوني السادس للنظر في بدعة المشيئة الواحدة التي تفرعت عن بدعة الطبيعة الواحدة.

نسطوريوس وإكليروس القسطنطينية

ومع أن نسطوريوس كان أنطاكي المذهب، فإن رهبان الكرسي القسطنطيني وإكليروسه كانوا إسكندريين يعملون ضد آريوس والآريوسية، فلما قاوَمَ نسطوريوس القول باتحاد الطبيعتين اتحادًا طبيعيًّا وجوهريًّا، ونهى عن تسمية السيدة العذراء والدة الإله؛ وقع تعليمه موقع الاستغراب في جميع الأوساط الأرثوذكسية في العاصمة، ثم وصمه المحامي أفسابيوس باتباع بولس السميساطي،[١٤] واحتج الرهبان لديه فأمر بضربهم وحبسهم، فاضطر الشعب أن يلجأ إلى الإمبراطور،[١٥] فعقد الأسقف مجمعًا سنة ٣٢٩ وحرم جميع الذين لم يقبلوا تعليمه.[١٦]

كيرلس ونسطوريوس

ولم يلبث خبر نسطوريوس أن ظهر وشاع، فانتشر بريده في الأنحاء ووصل إلى الإسكندرية، وكان كيرلس قد خلف خاله ثيوفيلوس في كرسي الأسقفية (٤١٢)، وورث عنه شيئًا من المنافسة بين الإسكندرية والقسطنطينية التي كانت قد دبَّت إلى الصدور بعد المجمع المسكوني الثاني، عندما أصبح أسقف القسطنطينية الثاني بعد أسقف رومة في الكرامة.[١٧] وإذا كان الحاسد يغتاظ على مَن لا ذنب له، فكيف به والذنب خروج على الدين القويم، وهكذا فإن كيرلس تكلم في منشوره الفصحي للسنة ٤٢٩ في تعليم الكنيسة عن الطبيعتين، وحارب تعليم نسطوريوس دون أن يذكر اسمه،[١٨] ثم كتب إلى نسطوريوس

[١٤] Socrates, Hist. Ecc., VII, 31.

[١٥] Mansi, II, Col. 1101–1108.

[١٦] Socrates, Hist. Ecc., VII, 32.

[١٧] Baynes, N. H., Alexandria and Constantinople, Journ. of Eg. Arch. 1926, 145–156.

[١٨] Cyrille, Epist. I, Mansi, IV, Col. 588.

يوضح الاصطلاح والدة الإله، ويفسر أن هذا الاصطلاح لا يعني أن مبدأ اللاهوت منها، وإنما أن المولود منها كان إلهًا كاملًا وإنسانًا كاملًا،[١٩] فأجابه نسطوريوس بعبارات مبهمة غامضة، ولامه على جفاف العبارة وقلة المودة الأخوية،[٢٠] وعقد كيرلس مجمعًا محليًّا، وعرض عليه الرسائل المتبادلة فاستصوب المجمع رأيه وحكم بصحته.

كيليستينوس ونسطوريوس

وكتب نسطوريوس إلى كيليستينوس Celestinus أسقف رومة، وإلى كثير من الأساقفة الغربيين لتعزيز موقفه وتكثير أنصاره، ولكن كيليستينوس أنكر على نسطوريوس بقاء بعض الأساقفة البيلاجيين في القسطنطينية، واعتمد في رأيه على مشورة يوحنا كاسيانوس Jean Cassien الذي عرف الشرق جيدًا، وبلغ كيرلس اتصال نسطوريوس برومة، فكتب هو أيضًا لكيليستينوس وأفاد أن الإيمان القويم معرض لخطر عظيم، وأرسل هذه الرسالة مع مخصوص اسمه بوسيذونيوس وأوصاه أن يلاحظ ويفهم، فإذا كان نسطوريوس قد كتب فيقدم الرسالة، وعلم بوسيذونيوس أن نسطوريوس كتب فدفع هو أيضًا رسالة كيرلس، فعقد كيليستينوس مجمعًا محليًّا في صيف السنة ٤٣٠ واعتبر تعليم نسطوريوس غير قويم، وكتب بذلك إلى كيرلس الإسكندري ويوحنا الأنطاكي وغيرهما من رؤساء الكهنة في الشرق، وأوجب التراجع عن الضلال في العشرة الأيام الأولى التي تلي التبليغ وهدد بالقطع،[٢١] وكتب أسقف رومة إلى نسطوريوس نفسه أيضًا وإلى رعيته بمثل ما تقدَّمَ.[٢٢]

وكتب كيرلس أيضًا إلى رؤساء الكهنة في الشرق راجيًا التدخل لهدي نسطوريوس وردِّه عن الضلال، وكان بين هؤلاء الذين كتب كيرلس إليهم أكاكيوس أسقف حلب، وقد زاد سنه على المائة، فكتب هذا الشيخ إلى كيرلس يرجوه أن يجتهد في إطفاء نار الخصومة ضنًّا براحة الكنيسة.

---

[١٩] Cyrille, Epist. II.

[٢٠] Cyrille, Epist. III.

[٢١] Jaffé-Wattenbach, Regesta Pontificum Romanorum, 372, 373; Morin, G., Etudes, Textes Découverts, I, 341.

[٢٢] Jaffé-Wattenbach, op. cit., 347-375.

البنود الاثنا عشر

وكان أسقف رومة قد أوجب على نسطوريوس إظهار إيمانه كتابة، فكتب كيرلس رسالة لنسطوريوس «يعلمه فيها كيف يجب أن يؤمن»، وأضاف إليها اثني عشر بندًا يشتمل كل واحد منها على قضية، وحرم ضد مَن يعلم غير ذلك وكلفه أن يوقع هذه البنود! ووصل الوفد الإسكندري إلى العاصمة في السابع من كانون الأول، وأموا دار الأسقفية في أثناء خدمة القداس الإلهي، وطلبوا مواجهة نسطوريوس فأرجأ الأسقف المقابلة إلى الغد، ولما اطلع على الرسالة والبنود رفض مقابلة الوفد الإسكندري، ولم يكتب نسطوريوس ضد كل بند بندًا كما شاع بعد ذلك، وما يُنسَب إليه من هذا القبيل هو من قلم أحد المعجبين به من المتأخرين،[٢٣] ولكنه أخبر يوحنا أسقف أنطاكية بالبنود الاثني عشر، وما إن اطلع هذا على نص هذه البنود حتى وصمها بالأبولينارية، وشجع علماء الكرسي الأنطاكي على درسها والرد عليها، فكتب ثيودوريطس أسقف قورش اثني عشر فصلًا، كما صنف مؤلفًا آخر في تجسد الكلمة، ووضع إيبا أسقف الرها رسالة دافع بها عن نسطوريوس، وألَّف أندراوس أسقف سميساط أيضًا كتابًا ضد كيرلس وبنوده.[٢٤] وهكذا فإن الاختلاف في الاصطلاح واندفاع كلٍّ من نسطوريوس وكيرلس وانتفاخهما وتسرعهما، قسَّمَ الكنيسة في ظرف سنوات ثلاث إلى شطرين: رومة وآسية وأوروشليم والإسكندرية في الجهة الواحدة، وأنطاكية ونسطوريوس في الجهة الأخرى.

الدعوة إلى مجمع أفسس (٤٣٠)

واتصل نسطوريوس بالإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، وأطلعه على واقع الحال، ورجاه أن يأمر بدعوة الأساقفة إلى مجمع مسكوني للنظر في القضية القائمة بينه وبين كيرلس، وكان ثيودوسيوس يعطف على أسقف عاصمته، فأمر في ١٩ تشرين الثاني سنة ٤٣٠ بدعوة جميع «مطارنة» الإمبراطورية إلى مجمع مسكوني يُعقَد يوم عيد العنصرة في

[٢٣] Schwartz, E., Die Sogenannten Gegenanathematismen des Nestorius, (Sitzungsberichte der bayerischen Akademie der Wissenschaften), Philol, Hist. Kl., 1922, 1–29.

[٢٤] Pat. Graeca, Vol. 76, Col. 316, 385; Cyrille, Epist. 44.

السابع من حزيران سنة ٤٣١، وشملت هذه الدعوة كيليستينوس أسقف رومة وأوغوسطينوس وغيرهما من كبار أساقفة الغرب.[٢٥]

وتوافدت الوفود على أفسس، وشمل الوفد الإسكندري خمسين أسقفًا وعددًا كبيرًا من الشمامسة والرهبان، ولم يعبأ كيرلس بنص الدعوة الإمبراطورية، ووجوب الاكتفاء بعدد قليل من الأساقفة، وجاء نسطوريوس إلى أفسس تصحبه حاشية مخلصة صادقة، وكان من أعضاء هذه الحاشية القومس إيريناوس أحد كبار رجال البلاط الإمبراطوري، وفي الثاني عشر من حزيران أطل أسقف أوروشليم على رأس وفد مؤلف من خمسة عشر أسقفًا، ولا يخفى أن يوبيناليوس Juvenal الأوروشليمي كان مشاغبًا من الدرجة الأولى وطماعًا كبيرًا، وكان همه الوحيد أن يصطاد في الماء العكر ليرفع عن رأسه سلطة أنطاكية، ويستقل بأبرشيات فلسطين،[٢٦] ولم يرضَ ممنون أسقف أفسس ومائة غيره من أساقفة آسية عن تدخل أسقف العاصمة في أمورهم، فوقفوا إلى جانب كيرلس، وناصروه مناصرة فعالة نظرًا لكثرة عددهم، وأوفد كيليستينوس أسقف رومة الأسقفين: أركاذيوس وبرويكتوس Projectus والقس فيليبوس، وأوجب عليهم التقيد برأي كيرلس أسقف الإسكندرية،[٢٧] وكان أوغوسطينوس قد توفي قبل صدور الدعوة إلى المجمع في الثامن والعشرين من آب سنة ٤٣٠. أما كابريولوس Capreolus أسقف قرطاجة ورئيس كنيسة أفريقية، فإنه اعتذر عن الحضور بداعي هجوم الوندال، وأوفد الشماس بسولة Bessula ليمثله في المجمع.

وترأس يوحنا أسقف أنطاكية (٤٢٨-٤٤١) الوفد الأنطاكي، وتألف هذا الوفد من أربعة وثلاثين أسقفًا: يوحنا أسقف أنطاكية، وألكسندروس أسقف أبامية، ويوحنا أسقف دمشق، وإيلاذيوس أسقف طرسوس، وألكسندروس أسقف منبج Hierapolis، ومكسيموس أسقف عين زربة، وذكسيانوس أسقف سلفكية، وكيروس أسقف صور، وأستيريوس أسقف آمد، وأنطيوخوس أسقف بصرى، وثيودوريطس أسقف قورش، وبولس أسقف حمص، ومكاريوس أسقف اللاذقية، وأبرنجيوس Apringios أسقف قنسرين Chalcis، وجيرونتيوس أسقف كلوديابوليس أسورية، وكيرلس أسقف أدنة،

---

[٢٥] Mansi, IV, Col. 1112–1116; Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, op. cit., IV, 175, n. 1.

[٢٦] Bardy, G., Début du Nestorianisme, op. cit., IV, 178.

[٢٧] Jaffé-Wattenbach, op. cit., 379; Collectio Veronensis, VII; Bardy, G., op. cit., 177.

وكيروس أسقف مركوبوليس الرها Marcoupolis، وأوسونيوس أسقف هيميرية الرها Himeria، وأوريليوس أسقف أيرينوبوليس Irenopolis أسورية، وبوليخروتيوس أسقف حماة، وملاتيوس أسقف قيصرية الجديدة، وموسايوس Musaeus أسقف أرواد وطرطوس، وأيلاذيوس أسقف عكة، وهيسيخيوس أسقف كستبالة بودروم قيليقية، وتريانوس أسقف أوغوسطة، وسلوستوس أسقف كوريكوس، وفالنتينوس أسقف ملوس، وزوسيس أسقف أسبوس، ويوليانوس أسقف شيزر Larissa، وديوجينس أسقف جسر شغور Seleucobelos، وإلياس أسقف بلقيس Zeugma بالقرب من بيرة جك، وبلاكوس أسقف اللاذقية، ومركلوس أسقف عرقة، ورابولا أسقف الرها.[٢٨]

ونهض الوفد الأنطاكي إلى أفسس، ولم تخلُ رحلتهم هذه من المتاعب وبعض الحوادث، ولا سيما وأنهم سافروا برًّا، فأوفدوا مَن سبقهم إلى أفسس؛ ليؤكد وصولهم إليها بعد حين ويرجو انتظارهم، ورأى رأي هؤلاء ثمانية وستون أسقفًا وأوصوا كيرلس بالانتظار،[٢٩] ووافقهم على هذه النصيحة القومس كنديديانوس ممثل الإمبراطور، وكان الوفد الروماني في طريقه إلى أفسس، ولكن حسد كيرلس وحقده الموروث وخوفه من مناقشة بنوده أمام المجمع بكامله وطمع يوبيناليوس، أوقع الكنيسة الجامعة في مأزق كان من الممكن تجنبه.[٣٠]

الجلسات

وفي الثاني والعشرين من حزيران سنة ٤٣١ اجتمع في كنيسة السيدة في أفسس مائة وخمسون أسقفًا برئاسة كيرلس أسقف الإسكندرية، فهرع ممثل الإمبراطور إلى هذه الكنيسة يؤكد أن الإمبراطور لا يرضى عن مجامع ناقصة، ويرجو الانتظار ريثما يصل وفد أنطاكية، فامتنع الآباء عن الإصغاء، وكادوا يطردون ممثل الإمبراطور طردًا من الكنيسة، فاضطر هذا الممثل أن يدوِّن احتجاجه ويعلنه للجمهور.

---

[٢٨] Gerland-Laurent, Corpus Nolitiarum Episcopatuum, I, 1936, fasc. II, 74-78; Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 131-133.

[٢٩] Nestorius, Heraclide, I, 2; Tillemont, Mémoires, XIV, 393.

[٣٠] Galtier, P., Centenaire d'Ephèse, Rech. Sc. Relig., 1931, 275; Alès, A., Le Dogme d'Ephèse, 139; Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, III, 349, n. 1.

ثم دُعي نسطوريوس إلى الحضور فلم يحضر، فدعي ثانية وثالثة فلم يحضر، فحكم عليه بالقطع، ثم تليت رسائل كيرلس وبنوده الاثنا عشر ورسالة البابا كيليستينوس إلى نسطوريوس وأساقفة الشرق وقرار مجمع رومة المحلي، فصدَّق المجمع على هذه كلها واعتبرها أرثوذكسية، وكتب كيرلس باسم المجمع إلى الإمبراطور وإلى إكليروس العاصمة وشعبها، منبئًا بما تمَّ في أفسس، واحتج نسطوريوس وعشرة أو سبعة عشر من مؤيديه على خروج كيرلس ومجمعه على النظام، ورفعوا احتجاجهم إلى الإمبراطور.[٣١]

وفي الرابع والعشرين من حزيران وصل يوحنا أسقف أنطاكية ووفد كنيسته، فأرسل المجمع مَن أفاد بقطع نسطوريوس، فأسف يوحنا واعتبر عمل المجمع ظاهرة من ظواهر الرعونة والاستبداد، ثم عقد يوحنا مجمعًا مؤلفًا من ثلاثة وأربعين أسقفًا حكم فيه بالقطع على كيرلس وممنون لظلمهما، وحكم أيضًا بمثل ذلك على سائر الأساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بدون فحص ولا تروٍّ[٣٢] إلى أن يجتمعوا ثانيةً ويلغوا ما قرروه ويحرموا بنود كيرلس الاثني عشر، وكتب يوحنا بهذا كله إلى الإمبراطور والمجلس الأعلى والإمبراطورة والإكليروس والشعب.[٣٣]

ثم وصل وفد رومة، فاجتمع مجمع كيرلس في دار الأسقفية في العاشر من تموز، فتُليت تحارير كيليستينوس الجديدة وأعمال الجلسة الأولى، وفي الحادي عشر وافق أعضاء الوفد على مقررات هذا المجمع، ثم عقد كيرلس وأتباعه جلستين في السادس عشر والسابع عشر من تموز، ودُعِي يوحنا أولًا وثانيًا وثالثًا، فأرسل رئيس شمامسته فلم يقبل المجمع، فحكم حالًا بقطعه وقطع أربعة وثلاثين أسقفًا معه،[٣٤] وكتب يوحنا إلى الإمبراطور ضد كيرلس ووافقه في ذلك ممثل الإمبراطور، فأمر ثيودوسيوس الثاني بتكدير كيرلس وتوبيخه وببقاء جميع الأساقفة في أفسس ليجتمعوا مجمعًا جديدًا واحدًا.[٣٥]

---

[٣١] Loofs, E., Nestoriana, 186–190.

[٣٢] Schwartz, E., Acta Concil. Œcumen., I, 4; Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, op. cit., IV, 183, n. 1.

[٣٣] Mansi, IV, Col. 1260–1277, 1380–1392.

[٣٤] Alès, A., Dogme d'Ephèse, 167–170.

[٣٥] Mansi, IV, Col. 1377–1380.

دستور الإيمان

وبحث مجمع كيرلس في جلسته السادسة في الثاني والعشرين من تموز أمر دستور إيمان كان قد فُرِض في فيلادلفية على بعض التائبين من الهراطقة، فحرم المجمع كل محاولة لإعداد دستور إيمان غير ذلك الذي أقره الآباء في نيقية بإلهام الروح القدس.[٣٦]

استقلال كنيسة قبرص

وشملت ولاية الشرق قبرص، فخضعت هذه الجزيرة لأنطاكية في شئونها المدنية، واعتبرت كنائس قبرص كنيسة أنطاكية كنيسة مؤسسة، فنشأت مرتبطة بالكنيسة الأم خاضعة لها. وكان ما كان من أمر آريوس والآريوسية، ودبَّ الشقاق إلى صفوف المؤمنين في أنطاكية، فتشاغلوا عن شئون قبرص وتركوها رهن الطوارق، وقيَّضَ الله لقبرص في النصف الثاني من القرن الرابع راعيًا صالحًا عالمًا وَرِعًا، فوحَّدَ صفوف المؤمنين فيها وزادهم ثقة في النفس وإحساسًا بالعزة والكرامة، والإشارة هنا إلى القديس أبيفانيوس صاحب كتاب علبة الأدوية البيناريون، وكتاب الإنكيروتس «الثابت في مرساه»، وكتاب الأدوية ضد البدع، وفيه محاولة لدحض ثمانين بدعة وهرطقة. وقد يفيد أن يعلم أن أبيفانيوس وُلِد في بيت جبرين وتنسك في بيت صدوق، وأنه ذاع صيت علمه وقداسته؛ فعُيِّن أسقفًا على مدينة قسطنسية (سلامينة) سنة ٣٦٧، وبقي حتى وفاته في السنة ٤٠٣، والواقع أن احترام أبيفانيوس أدى إلى ممارسة الاستقلال قبل الاعتراف به. وفي السنة ٤١٥ نرى الجدال محتدمًا بين ترويئيلوس متروبوليت الجزيرة وبين ألكسندروس رئيس كنيسة أنطاكية، ونرى هذا الأخير يستعين بزميله الروماني أنوشنتيوس الأول، فيؤكد أسقف رومة وجوب الاعتراف بسلطة أسقف أنطاكية في جميع أنحاء ذيقوسية الشرق، ويضيف أن هذا التقدم عائد إلى أمرين: أولهما أن أنطاكية كانت مقر الرسول بطرس وأنها كانت عظيمة،[٣٧] ولكن أساقفة قبرص لم يكترثوا بشيء من هذا كله، فلما كان ما كان من أمر نسطوريوس ومجمع أفسس، سأل أسقف أنطاكية يوحنا والي ذيقوسية الشرق

---

[٣٦] Mansi, IV, Col. 1361.

[٣٧] Jaffé-Wattenbach, Regesta Pont. Roman., 307; Batiffol, P., Siège Apost., 330–332; Tillemont, Mémoires, XIV, 444–447.

أن يأمر بتأجيل انتخاب خلف للمتروبوليت ثيودوروس في قبرص إلى أن يرفضَّ مجمع أفسس، ولكن رجينيوس المتروبوليت الجديد كان قد انتخب فأقلع للحال إلى أفسس ومعه أسقفان، وبات رجينيوس ينتظر فرصةً مناسبةً لإثارة قضيته، فلما توترت العلاقات بين يوحنا وكيرلس تقدَّمَ متروبوليت قبرص بطلب رسمي إلى المجمع في جلسته السابعة في الحادي والثلاثين من تموز سنة ٤٣١ يرجو به منح قبرص استقلالها، فكان له ذلك، ولا يجوز القول إن هذا تمَّ في الثلاثين من آب.[٣٨]

بيان إمبراطوري

وفي أوائل آب أطلَّ على الآباء المجتمعين المختلفين أحدُ كبار رجال البلاط يوحنا قومس العطايا المقدسة وبيده براءة إمبراطورية، ولدى وصوله أَمَرَ الحزبين المتنافرين أن يجتمعا في مكان واحد، ثم قرأ عليهم البراءة، وفيها خلع نسطوريوس وكيرلس وممنون ووجوب الاستمساك بنص الدستور النيقاوي والعودة إلى الأوطان.[٣٩]

ووافق الوفد الأنطاكي على مضمون هذا البيان، وأعلن استمساكه بالدستور النيقاوي واعتقاده بصحة الاصطلاح «والدة الإله»، ولم يأتِ الوفد على ذكر نسطوريوس؛ والواقع أنه منذ وصول الوفد إلى أفسس ونقطة الدائرة في البحث هي بنود كيرلس الاثنا عشر، أما الوفد الإسكندري ومن شد أزره فإنهم صعقوا صعقًا، وراحوا يسعون للدفاع عن كرامة كيرلس وممنون، وعاد كيرلس إلى أساليب خاله ثيوفيلوس فنثر الذهب في العاصمة، ولا سيما في البلاط، ووزَّع الهدايا على أنواعها،[٤٠] فأصغى الإمبراطور إليه وقال بالتسوية.

في خلقيدونية

واستقال نسطوريوس من منصبه وآثر العودة إلى الدير في أنطاكية، ولم يطلب شيئًا سوى إبطال بنود كيرلس الاثني عشر، ووافق الوالي أنطيوخوس فعاد نسطوريوس إلى

---

٣٨ Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 49, n. 4; Bardy, G., Débuts du Nestorianisme, op. cit., IV, 186, n. 4.

٣٩ Gerland-Laurent, op. cit., 55-56.

٤٠ Batiffol, P. Les Présents de Saint Cyrille à la Cour de Const., Études de Liturgie et d'Arch. Chrét. 1919, 154–179.

دير أفبريبيوس،[٤١] ودعا الإمبراطور ممثلين عن الحزبين المختلفين إلى خلقيدونية، واستمع إلى أقوالهما وأمر بإعادة كيرلس وممنون إلى منصبَيْهما، ونصَّب على كرسي القسطنطينية مكسيميانوس الكاهن الوقور المحب المحترم،[٤٢] ولكن هذا وحده لم يكفِ لإعادة السلم والوئام إلى الصفوف، فبنود كيرلس الاثنا عشر كانت لا تزال موضع جدل عنيف بين أنطاكية والإسكندرية.

ورجع الأساقفة إلى أوطانهم وهم على شقاق لا على سلام واتفاق، وبعد رجوعهم عقد الأنطاكيون مجمعين أحدهما في طرسوس والآخر في أنطاكية، وأعادوا حرم كيرلس وبنوده.

مهمة أرسطولاوس

فساء هذا كله في نظر الإمبراطور، فشاور مكسيميانوس في الأمر، فأشار بدعوة كل من كيرلس ويوحنا إلى اجتماع خصوصي يُعقَد بينهما وحدهما في نيقوميذية، فاستدعى الإمبراطور القائد أرسطولاوس Aristolaus ودفع إليه بإرادة سنية قضت بقيام كلٍّ من كيرلس ويوحنا إلى نيقوميذية لأجل التفاهم، وبامتناعهما عن خلع الأساقفة وسيامتهم حتى وصولهما إلى الصلح والاتحاد، ولدى وصول أرسطولاوس إلى أنطاكية رأى من المفيد جدًّا أن يتصل بعميد الأساقفة، وشيخهم الوقور أكاكيوس متروبوليت حلب، ففعل وحمل إليه أيضًا جواب أساقفة أنطاكية، وكان هؤلاء قد أكدوا للإمبراطور أرثوذكسيتهم واستمساكهم بدستور نيقية وبنص رسالة أثناسيوس إلى أبيكتيش، ولكنهم أعلنوا عدم استعدادهم لتقبل أية إضافة إلى التعاليم الموروثة.[٤٣]

ورأى أكاكيوس أن يطلع كيرلس على جواب أساقفة أنطاكية، فأوصى أرسطولاوس بذلك، فكتب كيرلس إلى أكاكيوس مبينًا شروط التفاهم المنشود، وأهمها الاعتراف بخلع نسطوريوس وتحريم بدعته، وأما سائر الأمور المعلقة، ولا سيما البنود، فإن كيرلس لم يقصد بها سوى نسطوريوس وعقيدته، فلمس الأسقف الشيخ استعدادَ كيرلس

٤١ Synodicon, XXIV–XXV; Neue Aktenstücke, 13–14.

٤٢ Socrates, Hist. Ecc., VII, 37.

٤٣ Synodicon, 35.

للمصالحة، فكتب إلى ثيودوريطس قورش وألكسندروس منبج يبيِّن شروط كيرلس، وينصح بقبولها ويرجو التفضل بالرد،[٤٤] فرفض ألكسندروس منبج هذا النصح، وأيَّده في الرفض عدد من زملائه الأساقفة، وأجمعوا أن فيما يقوله كيرلس شيئًا من الأبولينارية، أما ثيودوريطس قورش وأندراوس سميساط، فإنهما لمسا تقرُّبًا في رد كيرلس، ولكنهما رفضا ذم نسطوريوس والحكم عليه.[٤٥]

بولس أسقف حمص

وكتب يوحنا أسقف أنطاكية كتابًا كريمًا إلى زميله الإسكندري، جاء فيه أنه لا يطلب إلا السلام، وأنه يغتبط لتمسك زميله برسالة أثناسيوس لأبيكتيتس؛ لأنه هو أيضًا مستمسك بها،[٤٦] فرأى أكاكيوس أن يوفد صديقه بولس أسقف حمص إلى الإسكندرية لينقل رسالة يوحنا ويفاوض كيرلس في التفاهم والاتحاد.[٤٧]

وصل بولس إلى الإسكندرية فوجد كيرلس مريضًا، ثم لمس شيئًا من الدس يزرعه البلاط الإمبراطوري طمعًا بالمال، فطالت إقامة الرسول الأنطاكي، ونثر كيرلس الذهب مرة ثانية فسكتت القسطنطينية، ثم استأنف الفريقان التفاوض فاتفقَا على أن يعلن بولس اعترافه بقانونية انتخاب مكسيميانوس وبصحة التعبير «والدة الإله»، وأن يخطِّئ نسطوريوس فيما ذهب إليه، فيدخله عندئذٍ كيرلس في شركته، واعترف بولس بهذا كله، فاشترك في الذبيحة الإلهية في الإسكندرية مرتين متتاليتين؛ في ٢٥ كانون الأول سنة ٤٣٢، وفي أول كانون الثاني سنة ٤٣٣.[٤٨]

اتفاق وسلام

وكان أرسطولاوس قد عرَّج على أنطاكية حاملًا رسالة بيَّن فيها كيرلس موقفه النهائي من المسألة، وقد أوجب فيها قطع نسطوريوس ونبذ تعاليمه، ولم يُشِرْ بشيء إلى بنوده

---

[٤٤] Mansi, V, Cot. 830; Alès, A., Dogme d’Ephèse, 207.

[٤٥] Synodicon, 60.

[٤٦] Synodicon, 80.

[٤٧] Neue Aktenstucke, 67–68.

[٤٨] Mansi, V, 293–301.

الاثني عشر، فقبل يوحنا وأرسل إلى كيرلس نص اعتراف كان قد حرره ثيوذوريطس في أفسس، فوافق كيرلس عليه وتم التفاهم بين الإسكندرية وأنطاكية، وإليك أهم ما جاء في هذا الاعتراف:

> نؤمن بأن سيدنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد، هو إله تام وإنسان تام من نفس ناطقة وجسد ... وأنه قام به اتحاد طبيعتين، وأنه مسيح واحد، وابنٌ واحد، ورب واحد، وأن البتول بحسب هذا الاتحاد العادم الاختلاط هي والدة الإله؛ لأن الإله الكلمة تجسد وتأنس منها، ومن بدء الحبل اتحد بذاته الهيكل المأخوذ منها ... إلخ.[٤٩]

وصدر عن أنطاكية وعن الإسكندرية رسائل سلامية إلى كلٍّ من سيكستوس أسقف رومة، ومكسيميانوس أسقف القسطنطينية، وثيودوسيوس الإمبراطور؛ تنبئ بالحادث السعيد.[٥٠]

اختلاف الكلمة في أنطاكية

واختلف الأساقفة الأنطاكيون في أمر هذا الاعتراف، فاعتبره ألكسندروس منبج انتصارًا لكيرلس واندحارًا ليوحنا وأتباعه، وقال هذا القول معظم أساقفة قيليقية الأولى والثانية كما يتبين من مقررات مجمع عين زربة في ربيع السنة ٤٣٣، وتفرقت الطرق بأساقفة وادي الفرات، فبعضهم أيد ألكسندروس والبعض الآخر عاد إلى الشركة مع يوحنا رئيس الكنيسة، وبين هؤلاء أندراوس أسقف سميساط ويوحنا أسقف مرعش.

وتوفي مكسيميانوس أسقف القسطنطينية في ربيع السنة ٤٣٤، وحل محله بروكلوس، وقد سبقت الإشارة إليه، وظل ألكسندروس منبج، وإيلاذيوس طرسوس، ومكسيميانوس عين زربة، وملاتيوس موبسوستي، وثيودوريطس قورش؛ مستبدين برأيهم منفردين به، فأطلت عليهم السلطات المدنية، وأكدت لهم أن الوقت قد حان للتواضع والتعقل، وضغطت

---

٤٩ Mansi, V, 781–783; Cyrille, Epist. 38; Alès, A., Dogme d'Ephèse, 296–312.

٥٠ Jaffé-Wattenbach, Regesta, 391.

بشكل خصوصي على ثيودوريطس أعلم الأساقفة وأبعدهم أثرًا، فبعثت بسمعان العمودي ويعقوب وغيرهما من مشاهير الرهبان إليه؛ ليتوسلوا إليه بوجوب المحافظة على الاتحاد، وشجعت السلطات وجهاء رعية هذا الأسقف القديس على مطالبته بالأمر نفسه، وتعددت رسائل زملائه الأساقفة للغاية نفسها، فقبل ثيودوريطس أن ينهض إلى أنطاكية لمقابلة رئيس الكنيسة يوحنا، ولدى وصوله إليها اشترك بالذبيحة مع يوحنا ووقع الاعتراف وكتب إلى كيرلس بذلك، ولم يطلب إليه أن يقطع نسطوريوس،[٥١] وتبع ثيودوريطس في هذا عددٌ غير قليل من أساقفة القيليقيتين وأسورية، وأصرَّ ألكسندروس منبج على غيِّه وأمعن في تيهه فنُفِي إلى مناجم مصر، وهام في أودية الضلال حتى وافته المنية، وعميت وجوه الرشد على خمسة عشر أسقفًا آخرين فخُلِعوا وأُبعِدوا، وأشهر هؤلاء: ملاتيوس موبسوستي، وأنستاسيوس تنذوس.[٥٢]

إبعاد نسطوريوس

وكان نسطوريوس لا يزال مقيمًا في ديره في أنطاكية منذ أواخر السنة ٤٣١، يرقب سير الحوادث ويجمع المواد اللازمة للرد على خصومه، ورأى كيليستينوس في ذلك ضررًا على الإيمان والوحدة، فكتب بإبعاده عن أنطاكية في السنة ٤٣٢،[٥٣] ثم خشي يوحنا نفسه أثر بقاء نسطوريوس في كنفه، فكتب إلى الإمبراطور بإبعاده، فأُبعِد إلى البتراء أولًا، ثم إلى الواحدة الكبرى في صحراء ليبية، وبقي فيها حتى وفاته ولا نعلم تاريخ وفاته، ولم يعلم سقراط المؤرخ، الذي كان يدون تاريخه في السنة ٤٣٩، ما إذا كان نسطوريوس قد مات فعلًا أو أنه كان لا يزال حيًّا.[٥٤]

وفي الثالث من آب سنة ٤٣٥ صدر قانون إمبراطوري قضى بتحريم تعاليم نسطوريوس وحرق كتبه،[٥٥] واضطهد الولاة أتباعه وخصوا صديقَيْه القومس إيريناوس

---

٥١ Devresse, R., Le Retour des Orientaux à l'Unité (433–437), Échos d'Orient, 1931, 271–292; Tillemont, Mémoires, XIV, 585–590.

٥٢ Tillemont, Mémoires, XIV, 596–903.

٥٣ Jaffé-Wattenbach, 385.

٥٤ Socrates, Hist. Ecc., VII, 34.

٥٥ Cod. Theod. XVI, 5.

والكاهن فوتيوس بعنايتهم، فنزعوا عنهما الألقاب والرتب وصادروا أملاكهما ونفوهما إلى البتراء.[٥٦]

فاتحة الفصول الثلاثة

وانتمى نسطوريوس إلى مدرسة أنطاكية، فنزع إلى أستاذته فيها إلى ثيودوروس الموبسوستي وديودوروس الطرسوسي، ولكن أحدًا من الباحثين في قضيته في أفسس والإسكندرية لم يُثر هذا النسب العلمي، ولا سيما وأن كلًّا من ثيودوروس وديودوروس كان قد توفي على إيمان وتقوى.

وكانت الكنيسة في أرمينية في نهضة مباركة، وكان آباؤها قد آثروا نقل مؤلفات الآباء اليونانيين إلى الأرمنية على التصنيف من جديد، فتعرفوا إلى أقوال ثيودوروس وديودوروس وغيرهما من الآباء الأنطاكيين ونقلوها إلى الأرمنية، وشاء القدر أن تتاخم أبرشيتا أكاكيوس ملاطية ورابولة الرها البلاد الأرمنية، وكان كل من هذين الأسقفين كيرلسيًّا حساسًا، فكتبا إلى إخوانهما في الرب أساقفة أرمينية، يرشدانهم إلى الابتعاد عن مصنفات ثيودوروس الموبسوستي؛ لأنه «أبو النسطرة»، وكانت العقائد الأبولينارية أيضًا قد تسربت إلى بعض الأوساط الأرمنية، فقام أنصارها يعارضون الاعتماد على مصنفات الآباء الأنطاكيين، فعقد الأرمن مجمعًا محليًّا للنظر في هذا الأمر، وأوفدوا كاهنين إلى القسطنطينية ليعرضا القضية على بروكلوس ويستبصرا برأيه.[٥٧]

ورحَّب بروكلوس بالوفد الأرمني ودرس نصوص ثيودوروس المحمولة إليه، فألفاها تتطرف في التفريق بين «ابن الله» و«ابن الإنسان» إلى درجة يصعب عندها القول بوحدانية الأقنوم، فشجبها ودوَّن «اعترافًا» خصوصيًّا عُرف باسمه، ودفع بهذا النتاج كله إلى الوفد الأرمني موصيًا بوجوب قبوله وتوقيعه.

ولم يقف بروكلوس أسقف القسطنطينية عند هذا الحد، فإنه بعث بمثل ما خص الأرمن به إلى الآباء الأنطاكيين، وأوجب شجب بعض الأقوال التي نُسِبت إلى ثيودوروس،

---

٥٦ Synodicon, 188–189.

٥٧ Mansi, IX, Col. 240; Liberatus, Breviarium, X.

وأرفق هذا كله بإرادة إمبراطورية توصي يوحنا رئيس كنيسة أنطاكية وزملاءه الأساقفة بالابتعاد عن كل ما من شأنه الإخلال بالسلام والمحبة.[٥٨]

ودُهش يوحنا ولفيف الأساقفة الأنطاكيين لهذا التجرُّم والتجني، فكتبوا إلى بروكلوس يشجبون نسطوريوس والنسطرة، ويؤكدون استمساكهم بالدستور النيقاوي، ولكنهم رفضوا شجب ثيودوروس «كي لا يشجبوا أثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس وثيوفيلوس وغيرهم ممَّن علَّم المبادئ نفسها».[٥٩] وكتب يوحنا إلى الإمبراطور بالمعنى نفسه، ولفت نظره بالإضافة إلى الخطر الذي يتحتم وقوعه من جرَّاء محاكمة آباء سبق رقادهم على إيمان وتقوى،[٦٠] وحرر إلى كيرلس أيضًا يوجب تسكين هذا اللهيب وإطفاء جمره،[٦١] وكان كيرلس يُعِدُّ كتابًا في الرد على علماء أنطاكية، ولكنه أحب السلام فيما يظهر، فكتب إلى بروكلوس يذكره أن مجمع أفسس شجب قولًا عُزي إلى ثيودوروس، ولكنه لم يذكر اسمًا واحدًا عند شجب هذا القول، وأضاف أنه يجدر به ألا يتطلَّب أمورًا كثيرة من أساقفة الشرق.[٦٢]

وسكت الأساقفة الكبار الثلاثة، ولكن أسقف الرها خلفَ رابولة لم يسكت، وكان يدعى إيبا Ibas، فإنه شنها حربًا شعواء على بروكلوس في سبيل الدفاع عن ثيودوروس الموبسوستي وديودوروس الطرسوسي المعلمين الأنطاكيين، وعرف فيما بعدُ برسالة امتدح فيها هذين المعلمين، ووجهها إلى ماري أحد أتباع ملك الفرس في سلفكية.[٦٣]

وفاة يوحنا وكيرلس وبروكلوس

وتوفي يوحنا أسقف أنطاكية في السنة ٤٤١ أو ٤٤٢ وخلفه ابن أخته دومنوس، ثم لحق بيوحنا كيرلس أسقف الإسكندرية (٤٤٤)، فتولى الرئاسة بعده الأرشدياكون

---

[٥٨] Synodicon, 219.

[٥٩] Synodicon, 196, 197.

[٦٠] Synodicon, 200.

[٦١] Schwartz, E., Konzilstudien, 62–66.

[٦٢] Mansi, IX, Col. 409.

[٦٣] Labourt, J., Le Christianisme dans l'Empire Perse sous la Dynastie Sassanide, 133 n. 6; Devresse, R., Lettre d'Ibas et Tome de Proclus, Rev. Sc. Relig., 1931, 543–565.

ديوسقوروس. وفي السنة ٤٤٦ انتقل بروكلوس أسقف القسطنطينية، فرقي سدة الرئاسة بعده فلافيانوس الكاهن، وبوفاة هؤلاء الثلاثة أصبح ثيودوريطس أسقف قورش زعيم الكنيسة الأوحد في الشرق كله.

ثيودوريطس (٣٩٣–٤٥٧)

وُلِد في أنطاكية ونشأ فيها، وأخذ عن أساتذتها شطرًا وافرًا من العلوم الدنيوية، ثم نقل عن آبائها تفسير الأسفار المقدسة واللاهوت، وقبل النذر فالتجأ إلى أحد الأديار بالقرب من أبامية،[٦٤] واشتهر بالعفة والطهارة والتقوى فسيم أسقفًا على قورش في السنة ٤٢٣.

وكانت أبرشية قورش كبيرة، ولكنها لم تكن غنية ولم تخلُ من الوثنيين والهراطقة، فكرَّسَ ثيودوريطس سنواته الأولى (٤٢٣–٤٣٠) لمكافحة الوثنية والهرطقة بالوعظ والكتابة والتأليف، ويُجمِع رجال الاختصاص اليومَ على أن مصنفه الـ Curatio في الدفاع عن المسيحية ظهر في هذه الحقبة الأولى من أسقفيته،[٦٥] وأن عددًا كبيرًا من رسائله الضائعة التي رشق بها الآريوسيين والمركيونيين والأفنوميين والمقدونيين تعود إلى هذه الحقبة نفسها أيضًا،[٦٦] وصادر ثيودوريطس في أثناء حربه هذه أكثر من مائتي نسخة من دياتسرون Diatessaron تاتيانوس، وأحل محلها نسخًا من الأناجيل المفردة؛ حرصًا على سلامة النص، وأعاد الأسقف إلى حظيرة الخلاص أكثر من عشرة آلاف ضالٍّ،[٦٧] وواصل الأسقف أبناءه الروحيين حيثما كانوا في المدن وفي القرى والمزارع، وأصغى إلى شكاواهم ودافَعَ عن حقوقهم، ولا سيما أمام الجباة والشرطة.[٦٨]

ووصل نسطوريوس إلى السدة القسطنطينية، وحلَّت العاصفة ووضع كيرلس الإسكندري بنوده الاثني عشر، وهبَّت أنطاكية تدافع عن موقفها العلمي اللاهوتي، فوكل أسقفها يوحنا أمر هذا الدفاع إلى ثيودوريطس، فصنَّفَ كتابًا أسماه «الرد على اللعنات»،

---

[٦٤] Epist., 119; Azema, y., Correspondance (Théodoret de Cyr), 14–15.

[٦٥] Canivet, P., Précisions sur la Date de la Curatio, Rech. Sc. Relig., 1949, 585–593.

[٦٦] Azema, Y., op. cit., 16.

[٦٧] Théodoret, Haeret. Fabul. Compend., I, 20.

[٦٨] Azema, Y., op. cit., 44–56; Bardy, G., L’Acte d’Union, Fliche et Martin, op. cit., IV, 209–210.

وقد ضاع هذا المؤلَّف ولا نعلم عن محتوياته شيئًا سوى ما جاء في معرض الرد عليها في رسائل كيرلس.[٦٩] ومثَّل ثيودوريطس رئيسه ألكسندروس منبج في اجتماع خلقيدونية المنبثق عن مجمع أفسس، وتولى الكلام باسم كنيسة أنطاكية، وما فتئ يدافع عن مدرسة أنطاكية حتى كان ما كان من أمر التفاهم بين يوحنا وكيرلس، فطغت محبة المسيح على نعرة إقليمية، ووقَّع ثيودوريطس ما أدى إلى توحيد الصفوف في الكنيسة الجامعة.

[٦٩] Pat. Gr., Vol. 77, Col. 316, 385.

الفصل الثالث والعشرون

أوطيخة والمجمع المسكوني الرابع

٤٤١–٤٥١

أوطيخة (٣٧٨–٤٥٥)

وراجت تعاليم كيرلس الإسكندري في الأوساط الرهبانية في القسطنطينية، وتزعم هذه الأوساط بعد وفاة القديس دلماتوس (٤٤٠) الراهب أوطيخة أو إفتيشيس Eutyches، وكان أوطيخة راهبًا زاهدًا وَرِعًا محترمًا، وقد تقدَّم جميع رهبان العاصمة وبرز تبريزًا، وكان الإمبراطور يجله كما كان الخصي خريسافيوس ابنه في المعمودية يحترمه ويستشيره في جميع المشاكل الإدارية الدينية.[١]

واهتم أوطيخة للجدل بين كيرلس ونسطوريوس، وكان يكره نسطوريوس فقال قول كيرلس، ثم تمادى فقال إن الطبيعة الإنسانية في المسيح امتزجت بالطبيعة الإلهية حتى تلاشت فيها «تلاشي نقطة خمر وقعت في بحر ماء»، فالمسيح والحالة هذه أقنوم واحد وطبيعة واحدة.[٢] وراجت هذه التعاليم في القسطنطينية وخارجها؛ نظرًا لروابط الصداقة التي كانت تربط أوطيخة بأصدقاء كيرلس وأتباعه، ونظرًا لبراعة أوطيخة في وضع الخطط ونصب المكايد، فإنه تودد إلى أورانيوس أسقف هيميرية في منطقة الرها ليحارب به إيبا الأسقف الشهير، وتحبَّبَ إلى الناسك برصوم ليشاغب به على دومنوس أسقف أنطاكية وثيودوريطس أسقف قورش في سورية وفي العاصمة.[٣]

---

١ Bardy, G., Brigandage d’Ephèse, Fliche et Martin, op. cit., IV, 212.

٢ Tixeront, J., Hist. des Dogmes, III, 84-85.

٣ Duchesne, L., Hist. Anc. de l’Église, III, 398 ff.

دومنوس أسقف أنطاكية (٤٤١–٤٤٩)

هو دومنوس الثاني Domnos، وُلِد في أنطاكية ونشأ فيها وأخذ العلم عن أساتذتها، ثم عكف على الصلاة والتأمل في جوار القديس أفثيميوس الكبير في ساحل أريحا، وكان بإمكانه أن يلجأ إلى دير أفبريبيوس؛ حيث تقبل النذر خاله يوحنا أسقف أنطاكية ونسطوريوس أيضًا، ولكنه آثر طهر أفثيميوس وقفار أريحا، فأطل على هذا القديس في السنة ٤٢٨ وتقبَّلَ النذر على يده، ثم هاله موقف خاله من كيرلس في السنة ٤٣١، فأَحَبَّ أن يعود إلى أنطاكية ليقنع خاله بوجوب تأييد العقيدة القويمة كما رآها معلمه ومرشده، فنهاه أفثيميوس عن ذلك، مبينًا أنه إذا عاد إلى أنطاكية، فإنه لا يستفيد شيئًا، وأنه سيبقى هناك وسيقام أسقفًا ليخلف خاله في كرسي الرسولين، ولكن المنافقين سيحطونه من مقامه. والواقع أن القديس الكبير أفثيميوس عرف دومنوس حق معرفة، فقدر فيه طهره وقداسته وتواضعه وحسن نواياه، ولكنه لمس فيه «بساطة» وضعفًا في تقدير الرجال لم يؤهِّلاه للزعامة والرئاسة.[٤]

دومنوس وأوطيخة

ولم يرضَ دومنوس عن تعليم أوطيخة، ولم يخشَ خريسافيوس الخصي ولا سيده الإمبراطور، فرأى رأي ثيودوريطس، ورضي عن تصنيف كتاب يرد به على أوطيخة، فظهر في أواخر السنة ٤٤٧ إيرانيستيس Eranistes ثيودوريطس أي كتابه «الشحاذ»، وراج هذا الكتاب في الأوساط الرسمية والدينية، فوجد المؤمنون فيه رسالة متينة تثبت أن الله لا يتغير ولا يتألم، وأن الطبيعتين وجدتا معًا في المسيح بدون امتزاج، ورصَّع ثيودوريطس فقراته بمقتطفات من كلام الآباء القديسين، ولم يستهدف شخصًا معينًا، ولكنه لم يترك لقرائه مجالًا للشك في أنه إنما يقصد أوطيخة و«الأوطخة». وفي مطلع السنة ٤٤٨ كتب دومنوس إلى الإمبراطور نفسه يلفت نظره إلى خروج أوطيخة وهرطقته.[٥]

---

[٤] Tillemont, Mémoires, XV, 581–582; Génier, F. R., Vie de Saint Euthyme le Grand, 152–156.

[٥] Facundus d’Hermiane, Pro Defensione Trium Capitulorum, XII, 5.

الإمبراطور يدافع عن أوطيخة

ولم يرضَ الإمبراطور عن هذه الشكوى، فأجاب في السادس عشر من شباط سنة ٤٤٨ بإرادة إمبراطورية قضت بتحريم مصنفات بورفيريوس ونسطوريوس، وجميع المصنفات التي لم تتفق ونصوص قرارات نيقية وأفسس و«بنود كيرلس»! وأمر أيضًا بعزل إيريناوس أسقف صور من منصبه،[٦] فاتخذ لنفسه بعمله هذا صلاحيات لم يسبقه إليها قسطنديوس من قبلُ، ولا يخفى أن القومس إيريناوس كان أحد أصدقاء نسطوريوس، وأنه نُفِي إلى البتراء ثم أُطلِق سراحه بعد وفاة كيرلس، وأن أساقفة فينيقية الساحلية ألحوا بوجوب سيامته أسقفًا على صور، فوافق بروكلوس نفسه على ذلك، وقام بفروض السيامة ثيودوريطس أسقف قورش.[٧]

وذاع خبر هذه الإرادة السنية، ودبت عقارب أوطيخة وخريسافيوس بين القوم، فخاض عملاؤهما في الأخبار الكاذبة إيقادًا للفتنة، فأمَّ أنطاكية من الرها مَن شكا الأسقف إيبا إلى رئيسه دومنوس، فاحتار دومنوس في أمره وأجل وسوَّف، فرفع المتذمرون شكواهم إلى القسطنطينية والإسكندرية، وشكوا دومنوس نفسه وثيودوريطس،[٨] فصدرت إرادة جديدة تقضي بوجوب بقاء ثيودوريطس ضمن حدود أبرشيته، وحصر اهتمامه بأبنائه الروحيين، وكتب ديوسقوروس إلى دومنوس كتابًا ناشفًا، أشار فيه إلى تأخُّر دومنوس عن سيامة خلف لإيريناوس في صور واهتمامه بأعداء الأرثوذكسية ومعاونته لهم،[٩] فاحتج دومنوس على تدخل ديوسقوروس في شئون غيره ولكن دون جدوى.[١٠]

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ٤٤٨ صدر أمر سني إلى القائد دمسكيوس Damascius بوجوب نقل كلٍّ من إيبا الرها ودانيال حران ويوحنا الرسينة إلى فينيقية؛ لإجراء محاكمتهم أمام هيئة روحية مؤلَّفة من: أورانيوس أسقف هيميرية،

[٦] Cod. Justin., I, 1.

[٧] Mansi, V, Col. 417–420; Martin, P., Actes du Brigandage d'Ephèse, 163. For English edition, see Perry, S. G. F., Second Synod of Ephesus, Dartford, 1881.

[٨] Epist., 83.

[٩] Martin, P., Actes, 163.

[١٠] Martin, P., op. cit., 142; Théodoret, Epist., 92.

وفوطيوس أسقف صور، وأفستاثيوس أسقف بيروت،[١١] ومثل المتهمون أمام الهيئة الحاكمة في صور أولًا ثم في بيروت، وترافع الطرفان فنصحت الهيئة الحاكمة بالصلح والمسالمة، فتم ذلك في بيروت في ربيع السنة ٤٤٩.[١٢]

فلابيانوس وأوطيخة

وفي الثامن من تشرين الثاني سنة ٤٤٨ أثار أفسابيوس أسقف دورلة قضية أوطيخة أمام المجمع القسطنطيني، وكان أفسابيوس قد نبَّه أوطيخة إلى ضلاله فلم يصغِ، واضطر فلابيانوس أن يأمر الأرشمندريت أوطيخة بالمثول أمام المجمع المقدس للإجابة عمَّا يُوجَّه إليه من أسئلة تتعلق بتعاليمه، فلم يحضر ولم يمتثل إلا بعد التهديد. وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني خرج أوطيخة من ديره، يحف به عدد كبير من الرهبان والموظفين واتجه نحو الأسقفية، ومثل أمام الأساقفة في المجمع وأصرَّ على القول بالطبيعة الواحدة، فحكم عليه المجمع بالهرطقة، وقطعه من كل رتبة كهنوتية ومن الشركة ومن رئاسة الدير، وكان بين الأساقفة الجالسين أربعة أنطاكيون: باسيليوس سلفكية، وسابا «بلدة» Paltos عند مصب نهر السن بين بانياس وجبلة، وبروكلوس أذرح، وذيفرنطيوس Diapherontios حلبان في شرقي حماة.[١٣] ولم يرضخ أوطيخة، وأكد أنه سيرفع أمره إلى مجامع رومة والإسكندرية وأوروشليم وتسالونيكية.[١٤]

لاوون وأوطيخة

وكتب أوطيخة إلى لاوون أسقف رومة، وبطرس أسقف رابينة، وغيرهما من الشخصيات الكبيرة؛ راجيًا إنصافه،[١٥] فكتب لاوون إلى الإمبراطور يفيد أن فلافيانوس لم يكتب إليه

---

[١١] Schwartz, Ed., Acta, Session XI, 378.

[١٢] Ibid., Session X, 373–375.

[١٣] Schwartz, Ed., Acta, Session I, 145-146.

[١٤] Mansi, VI, Col. 817.

[١٥] Bardy, G., Brigandage d'Ephèse, op. cit., IV, 217.

بشيء مما جرى، وأنه بناء على ما أفاد به أوطيخة نفسه لا يرى ما يستعاب به للبتِّ في الأمر.[١٦]

تلصص في أفسس (٤٤٩)

وكتب خريسافيوس الخصي إلى ديوسقوروس أسقف الإسكندرية يطلب معونته، فعقد ديوسقوروس مجمعًا محليًّا، وحلَّ أوطيخة من القطع واعتبره أرشمندريتًا على ديره، ثم طلب إلى القيصر أن يدعو إلى مجمع سكوني للنظر في قضية أوطيخة، وبمداخلة خريسافيوس وأفذوكية زوجة الإمبراطور وغيرهما من رجال البلاط انتصر الإمبراطور لأوطيخة، وكتب إلى لاوون أسقف رومة يلمح بوجوب النظر في قضية أوطيخة أمام مجمع مسكوني، فكتب لاوون إلى فلابيانوس بعناية الإمبراطور في الحق والعدل واستعلم منها ما جرى، فأرسل فلابيانوس أعمال المجمع القسطنطيني الذي حكم على أوطيخة، فعقد لاوون مجمعًا محليًّا، ودقق هذه الأعمال فوافق عليها، وكتب إلى الإمبراطور يعتذر عن حضور المجمع بشخصه، ويفيد أن يوليوس أسقف بوزولة سيرأس الوفد الروماني إلى المجمع، وأنَّ ليوليانوس أسقف كوس الحقَّ بتمثيله أيضًا.[١٧]

ودعا الإمبراطور إلى مجمع في أفسس يبدأ أعماله في أول آب سنة ٤٤٩، وأكد الإمبراطور أنه لا يجوز اشتراك ثيودوريطس في هذا المجمع إلا إذا طلب ذلك الأساقفة المجتمعون، وأمر أيضًا بأن يمثل الزهاد والنساك في الشرق الأرشمندريت برصوم (عدو ثيودوريطس)، وأوجب الإمبراطور على إلبيذيوس Elpidios وإفلوجيوس Eulogios من رجال المعية أن يمثلاه في المجمع، وأعلن مسبقًا أن رئاسة هذا المجمع ستكون لديوسقوروس أسقف الإسكندرية، يعاونه فيها كلٌّ من يوبيليانوس أسقف أوروشليم، وثلاسيوس Thalasios أسقف قيصرية.

ومثَّل كنيسة أنطاكية في هذا المجمع دومنوس رئيسها وواحد وعشرون أسقفًا بينهم: ملاتيوس شيزر، وفوطيوس صور، وثيودوروس دمش، وأفستاثيوس بيروت، وإسطفانوس عين زربة، وثيودوروس طرسوس، وروفينوس سميساط، وسمعان آمد،

---

[١٦] Jaffé-Wattenbach, Regesta, 421.

[١٧] Saint Léon, Epist., 34, 35; Jaffé-Wattenbach, Regesta, 423-429.

وبوليكاربوس جبلة،[18] ومنع ثيودوريطس كما مرَّ بنا، وأُلقِي القبض على إيبا أسقف الرها في أواخر حزيران، وتجاذبته أيدي الشرطة مدةً من الزمن.[19]

طوموس القديس لاوون

وحمل الوفد الروماني عددًا من الرسائل، منها واحدة للمجمع بكامله، وثانية للإمبراطور، وغيرها للإمبراطورة، ورابعة لرهبان العاصمة، وأهمها طوموس القديس لاوون، وهي رسالته إلى زميله فلابيانوس أسقف القسطنطينية، وفيها أيد موقف فلابيانوس ضد أوطيخة، وشرح تعليم الكنيسة بالطبيعتين في الأقنوم الواحد شرحًا مدققًا واضحًا:[20]

> لقد جلست أيها المجيد على كرسي الكهنوت، وأبكمت بعقائد الثالوث الموقر أفواه الأسد الناطقة، وأنرت رعيتك بنور معرفة الله، فلذلك مجدت يا مقرًّا إلهيًّا لنعمة الله.
>
> السواعي
> ١٨ شباط

المجمع اللصوصي

ودعا ديوسقوروس الوفود إلى الاجتماع في كنيسة السيدة في أفسس في الثامن من آب سنة ٤٤٩، فلبَّى الدعوة مائة وثلاثون أسقفًا أو أكثر، وافتتح ديوسقوروس الأعمال بتلاوة أوامر الإمبراطور، وعند الانتهاء من تلاوتها طلب إليه ممثل رومة الأسقف يوليوس أن يقرأ رسائل رئيسه، فتناولها ديوسقوروس ولكنه أمر بتلاوة ما تعلَّقَ بمهمة الأرشمندريت برصوم، ثم طلب إلى أوطيخة أن يعترف بالإيمان، فأكد هذا الراهب أن إيمانه هو إيمان الآباء، ثم لعن جميع الهرطقات، ولا سيما تلك التي ادَّعت بأزلية جسد المسيح. واحتج على قطعه وطلب

---

[18] Schwartz, Ed., Acta II, 77–82, 183–186, 192–195; Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 135–136.

[19] Martin, Actes, 4–5.

[20] Saint Léon, Epist. 28; Tixeront, J., Hist. des Dogmes, III, 86; Bardy, G., Brigandage, op. cit., IV, 219–220.

إنصافه، فأشار فلابيانوس بوجوب استماع أفسابيوس أسقف دورلة، ولكن البيذيوس ممثل الإمبراطور رفض ذلك، ولم يسمح أيضًا بقراءة رسائل أسقف رومة، ثم بدءوا بتلاوة أعمال المجمع القسطنطيني الذي حكم على أوطيخة بالقطع، وعندما بلغ القارئ إلى العبارة: «إن أفسابيوس الدورلي قد بذل جهده في حمل أوطيخة على الإقرار بأن في المسيح طبيعتين.» هتف عدد كبير من الحاضرين: «فَلْيُحرَق أفسابيوس حيًّا وَلْيُقطع؛ لأنه أراد أن يقسم المسيح.» ثم طرح ديوسقوروس قضية أوطيخة للتصويت، فقال باستقامة رأيه مائة وأربعة عشر أسقفًا، أولهم دومنوس أسقف أنطاكية، ويوبيليانوس أسقف أوروشليم، وآخِرهم ديوسقوروس![٢١] فشهر أوطيخة أرثوذكسيًّا وأُعيد إلى مقامه ورئاسة ديره.

وذكَّر ديوسقوروس بعد هذا الأعضاءَ الجالسين بموقف المجمع المسكوني الثالث، ممَّن يجسر على مخالفة دستور نيقية، وطلب إدانة فلابيانوس وأفسابيوس على هذا الأساس، فاحتج فلابيانوس وصرخ الشماس الروماني هيلاريوس باللاتينية: Contradicitur، وتقدم بعض الأساقفة نحو ديوسقوروس ورجوه التبصر والتريث، فادعى أسقف الإسكندرية بأنهم هددوه، وطلب المعونة من ممثلي الإمبراطور، ففتح هؤلاء أبواب الكنيسة، وأدخلوا إليها الجند والرهبان والبحارة المصريين وغيرهم من عناصر الغوغاء، وعبثًا حاول فلابيانوس الالتجاء إلى قدسية المذبح، فإن الرهبان جروه جرًّا، فوقع على الأرض فداسه ديوسقوروس وجماعة برصوم، وأُخرِج خارجًا وسُجِن وتوفي بعد ثلاثة أيام وهو في طريقه إلى المنفى،[٢٢] واتهم ديوسقوروس بقتله قتلًا.[٢٣] أما أفسابيوس أسقف دورلة فإنه كان أسعد حظًّا، فتمكَّنَ من الفرار والالتجاء إلى رومة.[٢٤]

وعقد هذا المجمع جلسته الثانية في الثاني والعشرين من آب من السنة نفسها، فنظر في قضية إيبا أسقف الرها، فاستمع إلى أعمال المجمع الأنطاكي وقرار محكمة بيروت وإفادات قاضي الرها Chereas، فحطَّه عن مقامه الأسقفي، ونزع عنه ممارسة السلطات الكهنوتية، وأكرهه على «إعادة الذهب المسروق».[٢٥]

---

[٢١] Mansi, VI. Col. 839.

[٢٢] Mansi, VI. Col. 691, 1017, VII, Col. 68.

[٢٣] Jaffé-Wattenbach, Regesta, 496; Silva-Tarouca, C., S. Leonis Magni Epist. cont. Eutychis, II, 34–38.

[٢٤] Libellus Appellationis (Ed. Mommsen), Neues Archiv. 1886, 362–367.

[٢٥] Théodoret, Epist. 132; Martin, Actes, 69–76.

ونظر المجمع أيضًا في قضية دانيال أسقف حران، فاعتبره غير أهل لأن يكون كاهنًا.[٢٦] وحرم المجمع إيريناوس أسقف صور وأكلينوس Aclynos أسقف جبيل، وكان هذا قد سيم أسقفًا على يد إيريناوس، وطلب المجمع إلى فوطيوس أسقف صور الجديد أن يرسم أسقفًا آخَر على جبيل.[٢٧] وجاء دور صفرونيوس أسقف قسطنطينة، وكان قد اتُّهِم بالسحر والعرافة وبكسر الصوم والاشتراك في الأكل والقصف مع يهودي معين، فقرر المجمع إحالة ملف صفرونيوس إلى عهدة متروبوليت الرها.[٢٨]

ثم تُلِيت بعض فقرات من مصنفات ثيودوريطس أسقف قورش، فاتُّهِم بالنسطرة، وأوجب ديوسقوروس حرق هذه المصنفات، وخلع صاحبها من كرسي الأسقفية وإبعاده، ولفت ديوسقوروس نظر دومنوس إلى هذه الأمور، فوافق دومنوس على هذه الاقتراحات، وخرج بذلك على الإيمان القويم؛ ومن هنا في الأرجح امتناع المجمع الخلقيدوني من إعادة النظر في قضيته،[٢٩] واستجار ثيودوريطس بأسقف رومة وأساقفة الغرب[٣٠] ولكن دون جدوى، وترجى أن يُسمَح له بالعودة إلى ديره القريب من أبامية،[٣١] فكان له ذلك.[٣٢]

وكان دومنوس قد وعد مسبقًا بأنه يوافق على جميع الإجراءات التي تُتَّخَذ ضد النساطرة،[٣٣] ولكن هذا لم يكفِ لغضِّ النظر عنه، فإنه كان في نظر ديوسقوروس وأعوانه صديق فلابيانوس أسقف القسطنطينية وثيودوريطس وحامي النساطرة، فحكم المجمع عليه بالخلع،[٣٤] فعاد إلى فلسطين إلى ساحل أريحا وجاوَرَ معلمه الكبير أفثيميوس،[٣٥] وخلف فلابيانوس في كرسي القسطنطينية أناتوليوس ممثل ديوسقوروس في العاصمة، وخلف دومنوس في أنطاكية مكسيموس (٤٤٩–٤٥٥) عدو يوحنا وصديق الإسكندرية.

---

[٢٦] Martin, Actes, 77–82.

[٢٧] Martin, Actes, 82–89.

[٢٨] Martin, Actes, 89–94.

[٢٩] Tillemont, Mém., XV, 581–583; Martin, Actes, 95–129.

[٣٠] Théodoret, Epist. 113, 116.

[٣١] Devresse, R., Patriarcat, 60, n. 7.

[٣٢] Azema, Y., Corresp., 24.

[٣٣] Martin, Actes, 11.

[٣٤] Martin, Actes, 132–172.

[٣٥] Tillemont, Mém., XV, 582.

رومة تحتَجُّ

ولم يرضَ لاوون الكبير عن هذا التلصص ولم يسكت، فإنه كتب في خريف السنة ٤٤٩ إلى الإمبراطور والإمبراطورة والإكليروس والشعب، يعترض على ما جرى، ويوجب انعقاد مجمع مسكوني لإعادة النظر، ولكن ثيودوسيوس لم يكترث ولم يُجِبْ، فحرر الأسقف الروماني مرة ثانية يوم عيد الميلاد، ثم وصل إلى رومة في مطلع السنة ٤٥٠ كلٌّ من فالنتنيانوس الثالث وأمه بلاكيدية Placidia وزوجته أفذوكسية، فتوسَّلَ لاوون بالدموع إليهم أن يكتبوا إلى ثيودوسيوس، فكتبوا ولكن ثيودوسيوس أجاب أن ما جرى كان كافيًا، وأنه لا حاجة إلى عقد مجمع آخر.[٣٦]

بلشيرية ومركيانوس

ووقع ثيودوسيوس عن حصانه، ومات في الثامن والعشرين من تموز سنة ٤٥٠، ولم يكن له ولد فاستلمت بلشيرية أخته زمام الأمور، ثم تزوجت من قائد جيشها مركيانوس، شرط أن تبقى عذراء، وأن تقتصر الزيجة على الاشتراك في إدارة الإمبراطورية.

وكان مركيانوس رجلًا حازمًا عادلًا يتمتع بتأييد الجيش، فوُفِّقت فيه رومة الجديدة إلى حاكم مناسب، وأعلن مركيانوس انتهاء الظلم والفوضى بإعدام خريسافيوس الخصي وإبعاد مستشاره أوطيخة،[٣٧] فسعى الأساقفة المظلومون لديه وأسقف رومة أيضًا، فأرجع المنفيين من منافيهم، ووافق لاوون في الدعوة إلى مجمع مسكوني جديد ينظر في أمر أوطيخة ويصلح ما هدَّمه ديوسقوروس، ولكنه لم يرضَ أن يلتئم هذا المجمع في أرض إيطالية كما رغب في ذلك لاوون.

المجمع المسكوني الرابع

وفي السابع عشر من أيار سنة ٤٥١ صدرت عن بلاط مركيانوس دعوة إلى مجمع مسكوني يفتتح في اليوم الأول من أيلول، ولبَّى هذه الدعوة خمسمائة أسقف، وتلاقوا

[٣٦] Inter Epistolas Leonis, Epist. 4, 56, 57, 58.

[٣٧] Théodore le Lecteur, Hist. Ecc., I, 1.

في القسطنطينية ليقوموا منها إلى نيقية في الموعد المعين، وقضت ظروف عسكرية بتأخر مركيانوس عن الحضور، فتأجل انعقاد المجمع مدة وجيزة، وانتهز ديوسقوروس هذه الفرصة للدس والتخريب، فسعى سعيًا حثيثًا لقطع لاوون أسقف رومة،[٣٨] ولكنه لم يلقَ آذانًا صاغية خارج أوساط الأساقفة المصريين، واعترف في هذه الآونة نفسها بمكسيموس أسقفًا على أنطاكية.[٣٩]

ثم رغب مركيانوس أن تُعقد جلسات المجمع في خلقيدونية لقربها من العاصمة، وأمر بإخراج رهبانها منها لتأمين السلام والصفاء فأُخرِجوا، وبدأ المجمع المسكوني الرابع أعماله في الثامن من تشرين الأول سنة ٤٥١ في خلقيدونية.

الوفد الأنطاكي

وتألَّفَ الوفد الأنطاكي من مائة وثلاثين أسقفًا، وذلك على الوجه التالي:

(١) أساقفة سورية الأولى: مكسيموس أسقف أنطاكية، وماراس أسقف خناصير Anasartha (إلى جنوبي حلب وشرقيها، وعلى بُعْد ستين كيلومترًا عنها)، وثيوكتيستوس أسقف حلب، ورومولوس أسقف قنسرين Chalcis، وبوليكاربوس أسقف جبلة، وبطرس أسقف الجبُّول Gabboula، ومكاريوس أسقف اللاذقية، وسابا أسقف بلدة Paltos، وجيرونتيوس أسقف سلفكية.

(٢) أساقفة سورية الثانية: دومنوس أسقف أبامية، ومرقس أسقف الرستن Arethusa، وتيموثاوس أسقف بانياس Balanée، وأفتيخيانوس أسقف حماة، وملاتيوس أسقف شيزر، وبولس أسقف مريمين إلى شرقي المشتى، ولمباذيوس Lampadios أسقف رفنية Raphania، وأفسابيوس أسقف جسر شغور Seleucobelos.

(٣) أساقفة أسورية: وهم اثنان وعشرون، أولهم باسيليوس أسقف سلفكية الساحلية، ويأتي بعده يعقوب أسقف أنيموريون، وأكاكيوس أسقف أنطاكية.

(٤) أساقفة قيليقية الأولى: ثيودوروس أسقف طرسوس، وفيليبوس أسقف أدنة، وثيودوروس أسقف أوغسطة، وخمسة آخرون.

---

[٣٨] Mansi, VI, Col. 1097; Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, III, 428, n. 1.

[٣٩] Bardy, G., Concile de Chalcédoine, op. cit., IV, 228.

(٥) أساقفة قيليقية الثانية: كيروس أسقف عين زربة، ويوليانوس أسقف الإسكندرية، وباسيانوس أسقف موبسوستي، ويوليانوس أسقف أرسوز Rhosos، وخمسة آخرون.

(٦) أساقفة الفرات: إسطفانوس أسقف منبج Hierapolis، وقوزمة أسقف بالس Barbalisos (بين منبج والرقة وقبل صفين)، وثيودوريطس أسقف قورش، وتيموثاوس أسقف دولك Doliché، وداود أسقف جرابلس Europos، ويوحنا أسقف مرعش، وبتريقيوس أسقف صفين Neocesaria، وماراس أسقف روم قلعة Ourima، وأثناسيوس أسقف بيرين Perrhé، وماريانوس أسقف الرصافة Sergiopolis، وروفينوس أسقف سميساط، وأورانيوس أسقف سورية أو سورة على الفرات، وإيفولغيوس Evolcios أسقف بلقيس Zeugma.

(٧) أساقفة الرها: نونوس أسقف مدينة الرها، ودانيال أسقف بيرة جك Birtha وأحيانًا Macedonopolis، ودميانوس أسقف الرقة Callinicum، وإبراهيم أسقف كيراسيوم Ciresium، ولعلها قرقيسيون عند مصب الخابور في الفرات، وصفرونيوس أسقف قسطنطينة، ويوحنا أسقف حرَّان Carrhes، وقيومة أسقف مركوبوليس وهي مجهولة الموقع، ويوحنا أسقف العرب Sarracènes.

(٨) أساقفة ما بين النهرين: سمعان أسقف آمد، وماراس أسقف غزة (وهي مجهولة الموقع)، وقيومة أسقف أنجل، ونوح أسقف كيفا، وزبنوس أسقف ميافارقين Martyropolis، وأفسابيوس أسقف صوفانة.

(٩) أساقفة العربية: قسطنطين أسقف بصرى، وبروكلوس أسقف درعة، ومالك أسقف مسمية Phaena، وثيودوسيوس أسقف القنوات Canatha، وسُليم أسقف قسطنطينة اللجا، وماراس أسقف السويدا Dionysias، ويوحنا أسقف الصنمين Erès، وزوسيس أسقف حسبان Esbos، وأناستاسيوس أسقف حران Eutimia، وبلانكوس أسقف جرش، وغيانوس أسقف مادبا، وسويروس أسقف شقة Maximianopolis، وخيلون أسقف خان النيلة Neapolis، وأيوب أسقف نوي Nevé، وغوطوس أسقف مشنف Neela، وأفلوجيوس أسقف عمان Philadelphia، وهورميداس أسقف شحبة Philippopolis، ونونوس أسقف أذرح Zerabene.

(١٠) أساقفة فينيقية الأولى أو الساحلية: فوطيوس أسقف صور، وألكسندروس أسقف طرطوس Antarados، وبولس أسقف أرواد، وإيراقليطس أسقف عرقة Arce، وأفستاثيوس أسقف بيروت، وبورفيريوس أسقف البترون Botrys، وبطرس أسقف جبيل Byblos، وفوسفوروس أسقف عرطوز Orthosia، وأوليمبوس أسقف بانياس، وتوما

أسقف النبي يونس Porphyreon، وبولس أسقف عكة Ptolemais، ودميانوس أسقف صيدا، وثيودوروس أسقف طرابلس.

(١١) أساقفة فينيقية الثانية أو اللبنانية: ثيودوروس أسقف دمشق، ويردانوس أسقف سوق وادي بردي Abila، وإبراهيم أسقف حرلانة في الغوطة، وذاذاس أسقف قارة أو كناكر Chonacara، وبطرس أسقف جيرود Corada، وثيودوروس أسقف مهين Danaba، وأورانيوس أسقف حمص، وتوما أسقف حوارين Evaria، ويوسف أسقف بعلبك Heliopolis، وأفسابيوس أسقف يبرود، وفاليريوس أسقف قطينة Laodicia، ويوحنا أسقف تدمر، وأفستاثيوس أسقف العرب.[٤٠]

الوفود الأخرى

وتألف الوفد الروماني من الأسقفين باسكاسينوس Paschasinus ولوشنتيوس Lucentius، والقسين بونيفاتيوس وباسيليوس، وانضم إليهم يوليانوس أسقف جزيرة كوس للمرة الثانية، وجاء ديوسقوروس ووراءه سبعة عشر أسقفًا، وانضم إلى هؤلاء أساقفة آسية وتراقية واليونان والبرية وأفريقية، ومثَّلَ الدولة الرومانية أناتوليوس القائد الكبير، وبلاذيوس برايفكتوس الشرق، وتاتيانوس برايفكتوس العاصمة، وخمسة عشر موظفًا.

الجلسة الأولى: وافتُتِحت أعمال المجمع في الثامن من تشرين الأول في كنيسة القديسة أفيمية[٤١] في خلقيدونية، بحضور هذا العدد الكبير من الأساقفة، ووجود عدد من وجهاء الدولة في صدر المجمع أمام الباب الملوكي، وعن يسارهم: نوَّاب رومة القديمة، وأناتوليوس أسقف رومة الجديدة، فمكسيموس أسقف أنطاكية، وعن يمينهم: ديوسقوروس أسقف الإسكندرية، ويوبيناليوس أسقف أوروشليم، ثم سائر الأساقفة من الجهتين، ويتضح من هذا الترتيب أن رئاسة المجمع المسكوني الرابع كانت في يد السلطة.[٤٢]

---

٤٠ Schwartz, Ed., Acta, op. cit., II, 56–64, 326–335, 337–351; Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 136–140.

٤١ Evagrius, Hist. Ecc., II, 3.

٤٢ Batiffol, P., Siège Apostolique, 539.

وبعد الافتتاح قام باسكاسينوس ووقف في وسط المجمع وقال لعظماء الدولة: «إن أسقف مدينة الرومانيين الرسولي الجزيل الغبطة رأس جميع الكنائس، أمرنا أن نخاطبكم بألَّا يجلس معنا ديوسقوروس أسقف الإسكندرية، فإما أن يخرج هو وإما أن نخرج نحن.» فرأى ممثلو السلطة أن يجلس ديوسقوروس في وسط المجمع فجلس، ثم وقف أفسابيوس أسقف دورلة، ودفع للمجمع كتابًا مضمونه ملخص ما جرى من التلصص في أفسس، وتُلِيت بعد ذلك أعمال المجمع اللصوصي، ثم أعمال المجمع القسطنطيني قبله، وبعد أخذ ورد شديدين اقترح ممثلو السلطة قطع كلٍّ من ديوسقوروس الإسكندرية، ويوبيناليوس أوروشليم، وثلاسيوس قيصرية، وأفسابيوس أنقيرة، وأفستاثيوس بيروت، وباسيليوس سلفكية؛ باعتبارهم زعماء التلصص في أفسس، ثم ارتفعت الجلسة فخرج الآباء يرددون: «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، ارحمنا.» وهي أول مرة يرد فيها ذكر التريصاجيون في تاريخ الكنيسة، وهتفوا بعد هذا التقديس قائلين: «لتكن سنو الإمبراطور عديدة! المسيح أسقف ديوسقوروس القاتل! قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، ارحمنا.»

الجلسة الثانية: وعاد الآباء إلى العمل في العاشر من تشرين الأول، وظل ديوسقوروس ويوبيناليوس وسائر المتهمين بأعمال التلصص في أفسس خارج المجمع، فطلب ممثلو السلطة إلى الآباء المجتمعين أن ينظروا في أمر الإيمان، وأن يتفقوا على صيغة تصبح هي المعول عليها، فذكر الآباء أن المجمع المسكوني الثالث حرم أي تعديل في قانون الإيمان النيقاوي، ولكن نظرًا لإلحاح السلطة فإن الآباء أصغوا إلى نصوص رسائل كيرلس إلى نسطوريوس ويوحنا، وإلى «الطوموس» رسالة لاوون إلى فلابيانوس، فهتف معظم الآباء قائلين: «هذا هو إيمان الآباء، هذا إيمان الرسل، جميعنا هكذا نؤمن، الأرثوذكسيون هكذا يؤمنون، محروم مَن لا يؤمن هكذا، بطرس نادى بهذا التعليم بواسطة لاوون، كيرلس هكذا علم، محروم مَن لا يؤمن هكذا.» وتردَّدَ أساقفة فلسطين، وطلبوا شرح الطوموس، ولم يتخذ أساقفة مصر موقفًا معينًا نظرًا لتغيُّب رئيس وفدهم ديوسقوروس، وقبيل ارفضاض الجلسة هتف بعض الإليريين للأساقفة المتهمين.

الجلسة الثالثة: والتأم المجمع في جلسة ثالثة في الثالث عشر من تشرين الأول، وفي كنيسة مجاورة لكنيسة القديسة أفيمية تضم رفاة بعض الشهداء، وتغيب ممثلو السلطة فتسلم تسيير دفة الأمور الأسقف باسكاسينوس ممثل أسقف رومة، ونهض أفسابيوس أسقف دورلة وقرأ مذكرة جديدة بيَّن فيها هفوات ديوسقوروس وذنوبه،

ثم تلاه أربعة إكليريكيين إسكندريين انتقدوا ديوسقوروس من حيث موقفه من أسرة سلفه كيرلس وقساوته وظلمه، ومن حيث طمعه بالمال وجشعه في جمعه، فدعا المجمع ديوسقوروس ثلاث مرات فلم يحضر، فقال باسكاسينوس: «لقد دعي ديوسقوروس ثلاث مرات ولم يحضر، فماذا يستحق هذا الذي يزدري بالمجمع؟» فقال المجمع: «يستحق جزاء العصاة.» ثم قال لوقيانوس أسقف بيزا ونائب أسقف هرقلية: «لقد أجرى المجمع المسكوني السابق أعمالًا ضد نسطوريوس، فَلْنقف على إجراءاته وَلْنعمل بموجبها.» فقال باسكاسينوس: «أتأمرون أن نطبق في حقه عقوبات كنسية؟» فقال المجمع: «إننا نوافق على ما هو حسن.» وخاطب الأسقف يوليانوس وفد رومة وطلب إلى رئيسه باسكاسينوس أن يبين القصاص المعين في القوانين، فقال باسكاسينوس: «إني أكرر ماذا تستحسنون؟» فقال مكسيموس أسقف أنطاكية العظمى: «كل ما يستحسنه بركم نوافق عليه.» فاقترح باسكاسينوس قطع ديوسقوروس؛ لأنه برَّأ أوطيخة وقبله في الشركة قبل اجتماع أفسس، ولأنه لم يسمح بقراءة رسالة لاوون إلى المجمع، ولأنه أَصَرَّ على قطع العلاقة مع الأرثوذكسيين، فقال أناتوليوس أسقف رومة الجديدة: «إني أعتقد في كل شيء مثل الكرسي الرسولي، وأوافق على قطع ديوسقوروس.» وقال مكسيموس أسقف أنطاكية: «إني أضع ديوسقوروس تحت العقاب الكنسي الذي فاه به لاوون أسقف رومة القديمة وأناتوليوس أسقف رومة الجديدة.» ووافَقَ كثيرون آخرون، فحُكِم على ديوسقوروس بالقطع، أما الأساقفة الباقون من المتهمين فإنهم قدموا ندامةً ونالوا الصفح.

الجلسة الرابعة والخامسة: وبحث الآباء في الجلستين الرابعة والخامسة أمر العقيدة، فنظروا في طوموس لاوون على ضوء دستور الإيمان الذي سُنَّ في المجمعين المسكونيين الأول والثاني، وعلى ضوء تحديدات القديس كيرلس كما جاءت في أعمال المجمع المسكوني الثالث.

وقدم ثلاثة عشر أسقفًا مصريًّا لائحة إيمان أثبتت تعلقهم بإيمان الآباء منذ عهد مرقس الإنجيلي حتى أيام كيرلس، وشجبوا آريوس وفنوميوس وماني ونسطوريوس، ولكنهم سكتوا عن أوطيخة، فوبخهم المجمع فقالوا إنهم يعملون بموجب القانون النيقاوي السادس؛ إذ لا يجوز لهم أن يقطعوا رأيًا بدون موافقة أسقف الإسكندرية.

وحاول برصوم أن يدافع عن ديوسقوروس ولكنه لم يُفلح، فإنه ما كاد يُطل على الآباء المجتمعين حتى تعالت الأصوات بوجوب خروجه، فقال البعض: «إلى الخارج

أيها القاتل، إلى المرسح المدرَّج، إلى الوحوش الضارية.» فخرج برصوم والوفد الرهباني الذي كان يرافقه.

وألفت لجنة تمثل جميع الآراء في المجمع لتعد صورة اعتراف يبتُّ في قضية الطبيعة الواحدة التي أثارها أوطيخة، فقامت هذه اللجنة بالمهمة الموكولة إليها خير قيام، وتقدمت من المجمع في جلسته الخامسة بمشروع اعترافٍ هذا نصه:

> إننا نعلم جميعنا تعليمًا واحدًا تابعين الآباء القديسين، ونعترف بابن واحد هو نفسه ربنا يسوع المسيح، وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت، إله حقيقي وإنسان حقيقي، وهو نفسه من نفس واحدة وجسد، مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت، وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت، مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة، مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت، وهو نفسه في آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا، ومعروف هو نفسه مسيحًا وابنًا وربًّا ووحيدًا واحدًا بطبيعتين، بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال، من غير أن يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد، بل إن خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة، تؤلفان كلتاهما شخصًا واحدًا وأقنومًا واحدًا لا مقسومًا ولا مجزَّأً إلى شخصين، بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح، كما تنبأ عنه الأنبياء من البدء، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه، وكما سلمنا دستور الآباء.[٤٣]

الجلسة السادسة: وفي هذه الجلسة في الخامس والعشرين من تشرين الأول حضر الإمبراطور بشخصه، وخطب في الآباء، فحضَّهم على استقامة الرأي والسلام، وتلا تحديدَ المجمع فأمضى عليه الآباء وصدَّق الإمبراطور.

صور وبيروت

ونظر الآباء في الجلسة الرابعة في الدعوى التي أقامها فوطيوس أسقف صور على أفستاثيوس أسقف بيروت، وخلاصة هذه الدعوى أن أناتوليوس أسقف القسطنطينية

---

[٤٣] .Mansi, VII, Col. 116; Hahn, A., Bibliothek der Symbole, 146

وهب أفستاثيوس أسقف بيروت لمناسبة ارتقائه إلى رتبة متروبوليت؛ الرئاسةَ على أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وعرطوز وعكار وطرطوس، وذلك بعد أن كانت هذه جميعها خاضعة لمتروبوليت صور، فلام المجمع أناتوليوس على هذا التعدي، وحكم بإرجاع هذه الأسقفيات إلى متروبوليت صور.

ثيودوريطس وإيبا

وفي الجلسة الثامنة فاه ثيودوريطس أسقف قورش لأول مرة بقطع نسطوريوس «وكل مَن لا يدعو مريم العذراء والدة الإله، ويجعل من الابن الوحيد اثنين»، وحذا حذوه كلٌّ من صفرونيوس أسقف قسطنطينة الرها، ويوحنا أسقف مرعش، فعرف المجمع جميع هؤلاء أرثوذكسيين، وفي الجلسة العاشرة تبرَّأ إيبا.

كنيسة أوروشليم

وكان الآباء القديسون المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني الأول قد خصوا أسقف أوروشليم بامتيازات معينة نجهلها، وحافظوا في الوقت نفسه على حقوق متروبوليت الأبرشية أسقف قيصرية، وكان يوبيناليوس منذ أن تسلَّمَ عكاز الرعاية قد بدأ يمارس صلاحيات أوسع بكثير مما سمح به العرف والتقليد؛ فإنه تشوَّف إلى ممارسة السلطة في العربية وفي فينيقية، فسام الأساقفة في هاتين الأبرشيتين، وزوَّر الوثائق وأبرزها في أفسس ليثبت حقًّا لم يعترف به أحد، واعترض كيرلس سبيله وكشف أمره، فسكت وبات ينتظر فرصة مؤاتية، فلما تعكَّر الجو واجتمع الآباء لينظروا في أمر أوطيخة، عاد يوبيناليوس إلى سابق مطلبه. وفي الجلسة السابعة من جلسات المجمع الخلقيدوني المنعقدة في السادس والعشرين من تشرين الأول سنة ٤٥١، تفاهم الأسقفان الأنطاكي والأوروشليمي، فاعترف مكسيموس بسلطة يوبيناليوس على أمهات المدن بيسان وقيصرية والبتراء، وامتنع يوبيناليوس عن المطالبة بأية صلاحية في فينيقية أو العربية.

أسقف رومة الجديدة

وفي الجلسات الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة حلَّت مسائل تتعلق بأساقفة آسية، وفي الجلسة الخامسة عشرة سنَّ المجمع ثلاثين قانونًا لا تزال سارية المفعول، وجاء في القانون

التاسع أنه إذا وقع خلاف بين إكليريكي وبين متروبوليت الأبرشية، يُرفَع إلى إكسرخوس الولاية أو إلى الجالس على كرسي القسطنطينية، وجاء مثل هذا في القانون السابع عشر، ونص القانون الثامن والعشرون بالمساواة في الكرامة بين أسقفي رومة الجديدة ورومة القديمة، فاعترض الوفد الروماني على هذه المساواة.

انتهاء الأعمال

وصدَّق الإمبراطور على القرارات والقوانين، وحلَّ المجمع المسكوني الرابع، ومنع أتباع أوطيخة عن إقامة الحفلات الدينية، ونفى أوطيخة فتوفي بعد ذلك بقليل، ونفى أيضًا ديوسقوروس فجعل إقامته جبريةً في كنغريس أفلاغونية.

الفصل الرابع والعشرون

النزاع الخريستولوجي

٤٤١–٥١٨

الأباطرة

وتوفيت بلشيرية في السنة ٤٥٣ وتبعها مركيانوس في السنة ٤٥٧، ولم يكن لهما وارث، فاتجهت الأنظار إلى قائد الجيش أسبار، فوجد آلانيًّا آريوسيًّا فوقع الاختيار على وكيل خرجه لاوون، فتربَّعَ على عرش القسطنطينية حتى السنة ٤٧٤، واصطنع لاوون منافسًا ينافس أسبار، فأنشأ حرسًا إمبراطوريًّا من الأسوريين، وأتى بزعيمهم زينون وأزوجه من بنته أرياذنة (٤٦٧)، وبطش زينون بأسبار وحرسه (٤٧١)، ونشب خلاف بين لاوون وفيروز شاه الفرس حول مصير إمارة لازقة على شاطئ البحر الأسود، وتدفق القوط الشرقيون على شاطئ الأدرياتيك الشرقي، فعاد لاوون إلى دفع الإعانة المالية السنوية إليهم.

وتوفي لاوون الأول في السنة ٤٧٤، فتولى العرش بعده حفيده لاوون الثاني ابن بنته أريانذة، وكان لا يزال في السادسة من عمره، فأشرك الولد والده زينون في الحكم (٤٧٤–٤٩١)، ثم توفي بعد بضعة أشهر، فعظم أمر الآريوسيين في الدولة.

وفي إيطالية أصبحت السلطة محصورة بيد العسكريين البرابرة، فكانوا ينصبون الأباطرة ويعزلونهم حسب أهوائهم، وخلعوا في السنة ٤٧٦ آخر الأباطرة، ونصبوا مكانه أحدهم أودواكر، واستقل هذا بالحكم ولم يكترث لصاحب السلطة الشرعي زينون إمبراطور الشرق، فالتفت زينون شطر القوط الشرقيين في البلقان الغربي ووجههم شطر

إيطالية، فزحف ملكهم ثيودوريكوس على إيطالية واستولى على رابينة، ثم على رومة، وخلع أودواكر وجلس مكانه (٤٩٣) ملكًا على مملكة قوطية شرقية ذات حول وطول.

مركيانوس ينفذ

وفي السابع من شباط سنة ٤٥٢ شرع مركيانوس بالتنفيذ، فأمر بتطبيق جميع مقررات المجمع الخلقيدوني، ونهى عن التردد في قبولها وتطبيقها، ثم عاد فكرر هذه الأوامر في الثالث عشر من آذار من السنة نفسها، وفي الثامن والعشرين من تموز أعلن عدم الرضى الإمبراطوري على أوطيخة وأتباعه.

بلبلة في فلسطين

وكانت أفذوكية أرملة ثيودوسيوس الثاني قد استقرت في فلسطين منذ السنة ٤٤٢، بعد أن دبَّ الخلاف بينها وبين بلشيرية شقيقة زوجها وزوجها أيضًا، وأنفقت هذه الإمبراطورة بسخاء في سبيل الدين في فلسطين، فاكتسبت عطف الرهبان وجمهور المؤمنين، وقالت أفذوكية بالطبيعة الواحدة؛ لأنها توهمت أن الإيمان الصحيح يقضي بذلك، ولأن بطانتها أكدت لها أن القول بالطبيعة الواحدة هو قول كيرلس الإسكندري، وارتاحت نفس الإمبراطورة الأرملة إلى القول بالطبيعة الواحدة؛ لأن بلشيرية وزوجها مركيانوس قالا بالطبيعتين.[١]

وكان قد أمَّ فلسطين عدد كبير من النساك والرهبان الذين قالوا بالطبيعة الواحدة؛ لأنهم توهموا أن في ذلك مجاراة لاعتقاد الآباء الأطهار، وأن في القول بالطبيعتين خروجًا على التقليد، وكثر عدد هؤلاء حتى أصبحوا في السنة ٤٥١ أكثرية ساحقة بين الرهبان، وغدا معظم رؤساء الرهبان أمثال: البيذيوس، وجيرونتيوس، وررومانوس، ومركيانوس؛ من أقحاح الأوطيخيين، وجارى الرهبانَ في قولهم هذا نصفُ الأحبار الأساقفة، واضطر يوبيناليوس أسقف أوروشليم أن يصرح قبل قيامه إلى خلقيدونية في السنة ٤٥١: «إن مَن يؤيِّد طومس لاوون أسقف رومة، فَلْيتبوأ مقعده بالقرب من سمعان الساحر ويهوذا الخائن، وَلْيختتن اختتان اليهود أنفسهم.»

١ Abel, F. M., Hist. de la Palestine, II, 334–337, 338–340, Génier, F. R., Vie de Saint Euthyme, 198–220.

ثيودوسيوس الراهب

وقُدِّر لثيودوسيوس — أحد هؤلاء الرهبان الفلسطينيين أو الموجودين في فلسطين — أن يتزعم القول بالطبيعة الواحدة ويدافع عنه. ويُستدَل من بعض المراجع الأولية أن ثيودوسيوس هذا كان مشاغبًا من الطراز الأول، وأنه كان يجمع في شخصه صفتين قلما اجتمعتا في شخص واحد: المالقة والوقاحة، وأن صلابة وجهه كانت قد دفعته للتواقح على ديوسقوروس في الإسكندرية، فأمر به فجُلِد وأركب الأجرب الأعرَّ![٢]

فلما دعي الأساقفة إلى خلقيدونية في السنة ٤٥١ أسرع ثيودوسيوس السير وأقام في خلقيدونية يترقب أخبار الآباء الأعضاء ويتجسسها أحيانًا، وعند ارفضاض المجمع سبق يوبيناليوس إلى فلسطين، فحدَّثَ بما جرى ولامَ الآباء الأساقفة، وشدد عليهم النكير مدَّعيًا أنهم خانوا كيرلس وأيدوا نسطوريوس، فاغتاظ الرهبان وقبَّحوا وأنكروا، ثم تمادوا في اللوم بعد أن تزعمت هذه الحركة المعارضة أفذوكية الإمبراطورة الأرملة المقيمة في فلسطين.[٣]

وعاد يوبيناليوس إلى أوروشليم فخيَّره الرهبان المعارضون بين الموافقة على موقفهم من المجمع الخلقيدوني وبين الاستقالة والعزلة، فرفض يوبيناليوس فأحاط الرهبان به من كل جانب، وهددوه بالقتل واغتالوا سويريانوس أسقف بيسان، وفرَّ يوبيناليوس إلى القسطنطينية، فسام بعض الأساقفة المعارضين ثيودوسيوس أسقفًا على أوروشليم، ورأى ثيودوسيوس وأعوانه أن لا بد من الاستغناء عن خدمات الأساقفة الأرثوذكسيين واستبدالهم بغيرهم ممن يقول بالطبيعة الواحدة، فأقاموا بطرس الكرجي[٤] أسقفًا على مايومة، وثيودوتوس أسقفًا على يافة.

واهتم الإمبراطور مركيانوس للأمر، فأنفذ القائد دوروثيوس إلى فلسطين على رأس قوة عسكرية للقضاء على المعارضة وإيصال يوبيناليوس إلى كرسيه في أوروشليم، فقاوم ثيودوسيوس والرهبان ولجئوا إلى العنف، فكانت معركة بالقرب من نابلس سقط فيها عدد كبير من الرهبان، وفرَّ ثيودوسيوس إلى سيناء وكذلك بطرس الكرجي، ووقع

[٢] Evagrius, Hist. Ecc., II, 5.

[٣] Bardy, G., Luttes Christologiques, op. cit., IV, 276–277.

[٤] Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirchlichen Lit., IV, 315–317.

ثيودوسيوس في أيدي الشرطة ونقل إلى القسطنطينية، وأكره على الإقامة في أحد أديارها، وما فتئ حتى توفي فيها في الثلاثين من كانون الأول سنة ٤٥٧، ونُقِل رفاته إلى جزيرة قبرص.[٥]

وظلت أفذوكية الإمبراطورة الأرملة في أوروشليم وتابعت نشاطها في المعارضة، وظل جمهور الرهبان ناقمًا ساخطًا، فلجأ الإمبراطور إلى الطرق السلمية وحرر هو وزوجته الإمبراطورة إلى رهبان سيناء ورهبان أوروشليم[٦] وإلى الراهبات في أوروشليم والمجمع المقدس ناشدين السلم للكنيسة،[٧] وحذا حذوهما أسقف رومة لاوون الكبير، فكتب إلى أفذوكية يحضها على إنقاذ الرهبان من الضلال.[٨]

اضطراب في مصر

وأوعز مركيانوس بانتخاب خلف لديوسقوروس وأوصى ببروتيريوس Proterios وكيل ديوسقوروس في الإسكندرية، فتم انتخابه وسلم العكاز واعتبر خليفة أرثوذكسيًّا لمرقص الإنجيلي، فثارت فتنة فتدخَّل الجند فأُكرِوها على اللجوء إلى السيرابيوم فأُحرِقوا أحياء، فمنعت الحكومة توزيع الحنطة وأقفلت الحمامات والملاهي.[٩]

وتوفي ديوسقوروس في الرابع من أيلول سنة ٤٥٤ ولم تقع حوادث هامة، ولكن لما توفي مركيانوس في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ٤٥٧ اعتبر تيموثاوس الهر Ailouros نفسه مرسلًا من السماء، ودعا إلى خلع بروتيريوس، وسيم أسقفًا وهجم على بروتيريوس وقتله وعرض جثته في قلب البلد، ثم أمر بجرها إلى محل سباق الخيل وهناك أحرقها،[١٠] وبعد ثبوته في الكرسي جمع مجمعًا وحرم المجمع الرابع المسكوني، وقطع أساقفة رومة والقسطنطينية وأنطاكية.[١١]

---

٥ Zacharie, Hist. Ecc., III, 9.

٦ Mansi, VII, Col. 483–484.

٧ Mansi, VII, Col. 505, 509, 513.

٨ Jaffé-Wattenbach, Regesta, 499.

٩ Evagrius, Hist. Ecc., II, 5.

١٠ Ibid., II, 8.

١١ Ibid., II, 10–11.

في أنطاكية

وفي أنطاكية خُلِع مكسيموس خلعًا في السنة ٤٥٥، فخلفه باسيليوس الأول، ثم أكاكيوس، فمرتيريوس Martyrios (٤٥٨–٤٧١).

وانتشر القول بالطبيعة الواحدة في وادي الفرات، وسار على أفواه النساك والرهبان وملأ الأسماع، وتولى زينون الأسوري قيادة الجيش في الشرق، فجاء أنطاكية يجر وراءه أخلاطًا من الناس بينهم راهب خلقيدوني قال بالطبيعة الواحدة وأبطل النذر، يُدعَى بطرس القصار،[١٢] وما كاد هذا القصار يستقر في أنطاكية حتى ألف عصبة من بقايا الأبوليناريين وهاجم بها مرتيريوس، فانطلق هذا إلى القسطنطينية يشكو زينون وصديقه القصار، فضغط زينون على بعض الأساقفة فساموا بطرس أسقفًا على أنطاكية وسلموه عكاز الرعاية في سلفكية الساحلية، ولدى عودة مرتيريوس فائزًا بعطف الإمبراطور توارى القصار وبات ينتظر فرصة ثانية، ثم عاد إلى المشاغبة، فيئس مرتيريوس واستقال، فجلس القصار مرة ثانية على سدة الرسولين في أنطاكية، فغضب الإمبراطور لكرامته وكرامة القانون فأصدر أمرًا بإبعاد بطرس، فابتعد فتبوَّأ يوليانوس الكرسي الرسولي.[١٣]

وفي مطلع السنة ٤٧٥ تغلب باسيليسكوس القائد على زينون، واستوى على عرش القسطنطينية وأصغى لأقوال الرهبان في مصر وآسية، فأعاد تيموثاوس إلى سدة الإسكندرية، وبطرس القصار إلى رئاسة أنطاكية، ثم أصدر برأيهما منشوره الشهير وأكره خمسمائة أسقف على تأييده، فأصبح القول بالطبيعة الواحدة قول الدولة، والقول بالمجمع الخلقيدوني وطومس لاوون قولًا منبوذًا،[١٤] ولم يَدُمْ حكم باسيليسكوس أكثر من عشرين شهرًا، وعاد زينون إلى سابق عزه (٤٧٧) بمعونة الخلقيدونيين، فاضطر أن يرضيهم فألغى شرائع باسيليكوس وخلع بطرس القصار من كرسي الرئاسة، وأجلس صديقه يوحنا الثاني محله Jean Codonat، وكان هذا لا يزال قائمًا في أنطاكية منذ سيامته؛ لأن أبرشيته أبت أن تعترف برئاسته، وهو الذي قطع في السنة ٤٧٨ بقرارٍ من مجمع روماني عقد برئاسة سيمبليكيوس أسقف رومة.[١٥] وفي هذه السنة نفسها عادت

[١٢] Théodore le Lecteur, Hist. Ecc., I, 20–22.

[١٣] Cod. Just., I, 3, 29; Duchesne, L, Hist. Anc. de l’Eglise, III, 495, n. 1.

[١٤] Evagrius, Hist. Ecc., III, 4; Bardy, G., Luttes Christologiques, op. cit., IV, 285, n. 2.

[١٥] Ibid., 287, n. 5.

السلطة الزمنية فأقصت يوحنا وأجلست إسطفانوس الثاني في كرسي الرئاسة (٤٧٧–٤٨١)، وليس لدينا في هذه الحقبة سوى إسطفان واحد هو إسطفان الثاني بدليل اتفاق النصوص.[١٦] ولم يرضَ أتباع أوطيخة عن أرثوذكسية إسطفانوس، فأوقعوا به وهو في طريقه إلى كنيسة الأربعين، وذلك بشكه بالقصب الحاد الذرِب،[١٧] فتدخلت العاصمة وانتقت كلانذيون Calendion وسامته أسقفًا على أنطاكية وأرسلته إليها (٤٨١–٤٨٥).[١٨]

كتاب الاتحاد (٤٨٢)

ولم يثمر حزم مركيانيوس ولاوون، ودام الشقاق في مصر وفلسطين وفي كنيسة أنطاكية أيضًا، وأصبح القوم لا تجمعهم جامعة، فاضطرب زينون لهذا التشعب في الآراء والتباين في المذاهب، فاستشار أكاكيوس أسقف العاصمة في ذلك، فاقترح هذا أن يصار إلى التراخي بانتهاج سبيل وسط، فأصدر زينون في السنة ٤٨٢ الأينوتيكون Henotikon كتاب الاتحاد، وهو إرادة سنية إمبراطورية موجهة إلى الأساقفة والإكليروس والرهبان والمؤمنين في الإسكندرية ومصر وليبية والمدن الخمس، وفيها يشجب زينون تعاليم نسطوريوس وأوطيخة معًا، ويقرُّ رأي كيرلس، ويجتنب الكلام في الطبيعة الواحدة والطبيعتين ليرفض بلباقة ما كان قد أقرَّه المجمع الخلقيدوني الأخير.[١٩]

ولكن الأينوتيكون بدلًا من أن يؤلف القلوب ويوحِّد الصفوف، سعَّر نار الشقاق والتفرقة؛ لأنه لم يرضِ الأرثوذكسيين ولا أصحاب الطبيعة الواحدة. وانشقَّ في مصر عن بطرس أسقف الإسكندرية قسمٌ من جماعته، فألفوا طائفة سموها الآكيفلي أي العادمة الرأس، وكتب الأرثوذكسيون إلى أكاكيوس يلومونه على مماشاة بطرس الإسكندري، فلم يكترث، بل أصر على القول بكتاب الاتحاد، فكتبوا إلى أسقف رومة فيلكس الثالث (٤٨٣)، ولكن هذا بدلًا من أن يراسل زميله القسطنطيني مستوضحًا حسب العادة القديمة والمحبة الأخوية، فإنه عقد مجمعًا محليًّا وحرم بطرس وأكاكيوس، فلما علم أكاكيوس بذلك محا اسم أسقف رومة من الذبتيخة، فنشب انشقاق دام أكثر من خمس وثلاثين سنة.

---

[١٦] Malalas, Chron., 381–382; Evagrius, Hist. Ecc., III, 10; Michel le Syrien, IX, 6.

[١٧] Evagrius, Hist. Ecc., III, 10.

[١٨] Ibid.

[١٩] Evagrius, Hist. Ecc., III, 14; Bardy, G., Luttes Christologiques, op. cit., IV, 291–292.

ولم يرضَ كلانذيون أسقف أنطاكية عن كتاب الاتحاد ولم يوقعه، وعلى الرغم من أرثوذكسيته ونجاحه في إنهاء الانشقاق الأفستاثيوسي بنقل رفاة أفستاثيوس إلى أنطاكية، فإنه اتهم بالمؤامرة على سلامة الإمبراطور وتأييد القائد لاونديوس مرشح البطريق أيلوس للعرش، فأُنزِل عن الكرسي الرسولي ونُفِي إلى الواحة الكبرى في أواخر السنة ٤٨٤، أو أوائل السنة ٤٨٥.

بطرس القصار (٤٨٥–٤٩٠)

وعاد بطرس القصار إلى الكرسي للمرة الرابعة والأخيرة، وكان قد تولى الرئاسة في أثناء غياب مرتيريوس، ثم بعد استقالته، ثم في أثناء حكم باسيليسكوس، ووقع بطرس كتاب الاتحاد ودعا المجمع الأنطاكي، فأرسل الرسائل السلامية ولا سيما إلى بطرس أسقف الإسكندرية، وحاول أن يرجع كنيسة قبرص إلى طاعة أنطاكية ولكنه لم يفلح.

وهو أول مَن أوجب تلاوة قانون الإيمان في أثناء القداس الإلهي، وأنشأ رتبة تكريس الماء ليلة عيد الظهور فضلًا عن تبريكه يوم العيد نفسه، وأضاف إلى التريصاجيون العبارة: «يا مَن صُلِبت لأجلنا»، كأنْ يُقال: قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، الذي صُلِب من أجلنا، ارحمنا.

ودخلت الكنيسة في دور من الفوضى، كثرت فيه سيامة الأساقفة زوجًا زوجًا، أرثوذكسيين ومونوفيسيين، في وقت واحد، ومدت الأيدي إلى الكراسي لخلع هذا وتنصيب ذاك، وكان من أهم أسباب هذه الفوضى سعي الأباطرة لاسترضاء مَن قال بالطبيعة الواحدة في مصر وسورية؛ لكثرة عددهم ولضعف هيبة السلطة إذ أحرجتها مشاغل أخرى، وظلت الحال على هذا المنوال حتى ظهرت كنائس مونوفيسية مستقلة في مصر وسورية وأرمينية.

الإمبراطور أنسطاسيوس الأول (٤٩١–٥١٨)

وكان زينون قد سعى لإجلاس أخيه لونجينوس على العرش بعده، ولكن زوجته الإمبراطورة أرياذنة لم ترَ في لونجينوس الكفاءة اللازمة، فانتقت أنسطاسيوس الموظف في التشريفات ورفعته إلى منصة الحكم، وكان أنسطاسيوس في الحادية والستين من عمره ورعًا تقيًّا، وعلى الرغم من ميله إلى القول بالطبيعة الواحدة، فإن الشعب قابل ارتقاءه

بالهتاف: «ليكن عهدك في الحكم كعهد مركيانوس، وكسيرتك أنت في حياتك الشخصية.» واشترط أوفيميوس العاقل أسقف القسطنطينية ألَّا يحيد الإمبراطور عن العقيدة الأرثوذكسية، وأن يكتب قبل التتويج تعهدًا بذلك، ففعل وتقبَّلَ تاجه من يد الأسقف القسطنطيني.

بلاذيوس وفيلوكينوس

وخلف بطرس القصار في رئاسة الكنيسة بلاذيوس Polladios (٤٩٠-٤٩١) أحد كهنة القديسة تقلا في سلفكية أسورية، الذين قالوا بالطبيعة الواحدة وشملهم عطف الإمبراطور أنسطاسيوس،[٢٠] فلما استتب له الأمر دعا رعاياه إلى قبول كتاب الاتحاد وتأييده، ووجد في شخص فيلوكسينوس Philoxenos أسقف منبج خير عون لتأدية هذه الرسالة.

وجاء في بعض المراجع أن فيلوكسينوس هذا كان رقًّا فارسيًّا اسمه أكسينائياس، ففر من بيت سيده وتزيًّا بزي قس ودخل أبرشية أنطاكية في أيام كلانذيون، وعلَّم بخلع الأيقونات من الكنائس وكان غير معمد فطرده كلانذيون، أما بطرس القصار فإنه سامه أسقفًا على منبج وسماه فيلوكسينوس، وعلم أنه غير معمد ولكنه قال: «لا بأس فالشرطونية تغنيه عن المعمودة.» واشتهر فيلوكسينوس بتعلقه بالطبيعة الواحدة، فجاب الأقطار مبشرًا ناشرًا المصنفات المونوفيسية حيثما حلَّ.[٢١]

وفيلوكسينوس هذا نفسه هو في نظر الكنيسة السريانية «علم من أعلام السريان وأقطاب الزمان، مع ديانة وصيانة وزهد ظاهر وورع معروف، بحث عن أصول الدين أتمَّ بحث وأبعد استقصاء؛ اقرأ كتابه في التثليث والتجسد تراه الملفان المتبحر، وتصفَّحْ رسائله تعلم أية نفس وثَّابة كان يحمل بين جنبيه ذلك الرجل العظيم، أقامه بطرس الثاني خوريًّا ثم مطرانًا، فبذل قصارى عنايته في حماية العقيدة الأرثوذكسية، وغلا في مناوأة النساطرة والخلقيدونية.»[٢٢]

---

[٢٠] Devresse, R., Patriarcat d'Antioche, 118, n. 2, 3.

[٢١] Bardy, G., Politique Relig. d'Anastase, op. cit., IV, 303–304.

[٢٢] كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، تأليف البطريرك أغناطيوس أفرام الأول برصوم، ص٢٢٦–٢٣٢.

تقلُّب أنسطاسيوس

وكان أنسطاسيوس كلما زاد سنًّا ازداد تعلقًا بالقول بالطبيعة الواحدة، فأدى تشبثه إلى مشاكل متتالية في العاصمة وفي أنطاكية والإسكندرية ورومة، وبدأت مشاكله عندما حاوَلَ أن يسترجع التعهُّد الذي كان قد كتبه قبيل تتويجه وسلمه إلى أسقف القسطنطينية، ولكن أوفيميوس الأسقف أبى فجمع الإمبراطور مجمعًا محليًّا سنة ٤٩٦، وقطع المجمع أوفيميوس ونفاه، وتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية مقدونيوس الثاني، وكان هذا نقي السيرة مستقيم العقيدة محبوبًا، فحاول مصالحة بعض الرهبان الذين تباعدوا عن كنيسته منذ ظهور الأينوتيكون فلم يستطع، فعقد مجمعًا محليًّا ثبت فيه قرارات المجمع المسكوني الرابع الخلقيدوني، ونوى أن يكتب بذلك إلى كنيسة رومة، فمنعه الإمبراطور وحاول إقناعه بوجوب شجب قرارات هذا المجمع الخلقيدوني، فلم يُجِبْ مقدونيوس طلبَه.

سويروس الأنطاكي

وفي نيسان السنة ٥٠٥ أنهى أنسطاسيوس الحرب الفارسية بعد إخماد ثورة الأسوريين وترتيب أمور الهون، فتمكن من اتباع سياسة إيجابية في معالجة الموقف الديني، فاستعان بسويروس وفيلوكسينوس الأنطاكيين.

وُلِد سويروس في سوزوبوليس من أعمال بسيدية في حدود السنة ٤٥٩، ودرس الأدب اليوناني والبيان في الإسكندرية والفقه الروماني في بيروت، وتقبَّلَ النعمة في دير الشهيد لاونديوس بالقرب من طرابلس في السنة ٤٨٨، واختار لنفسه الزهدَ فلجأ إلى برية بيت جبرين، ثم التحَقَ بدير رومانوس فحبسة Laura مايومة، وأنشأ ديرًا خصوصيًّا وأقام فيه مدة طويلة، وتقبل الكهنوت على يد أبيفانيوس أسقف مغيذوس في بمفيلية، وكان هذا قد أُخرِج من أبرشيته لقوله بالطبيعة الواحدة.

وكان سويروس من فحول علماء عصره، تضلَّع من البيان وعلوم اللغة، وتبحَّرَ في الفقه والمحاماة، ثم أوغل في بحث الأسفار المقدسة وأمعن في تنقيب التقليد؛ ليدحض طومس لاوون ويخرج على مقررات المجمع المسكوني الرابع الخلقيدوني، فيشتت بذلك صفوف المؤمنين ويشق الكنيسة، غير مكترث بدستور الإيمان الموروث وبنص الإنجيل الطاهر المبارك: «ليكونوا واحدًا مثلما نحن واحد.»

ويُلاحَظ لهذه المناسبة أن العلماء المؤرخين، الذين يعنون اليومَ بتاريخ هذه الحقبة، يرون أن كيرلس وديوسقوروس وتيموثاوس أيلوروس الإسكندريين وسويروس الأنطاكي لم يقولوا بمزج الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص السيد المخلص، ولم ينكروا العنصرين البشريين الجسد والنفس اللذين وُجِدَا فيه، وإنما قصدوا أن يُظهِروا وحدة العامل المتصرف الذي هو الله، وعبروا عن هذه الوحدة بالقول بطبيعة واحدة، وآثر الآباء الأرثوذكسيون الشرقيون والغربيون التعبير عن وحدة هذا العامل المتصرف بالقول بوحدة الأقنوم، وأصروا في الوقت نفسه على القول بطبيعتين إلهية وبشرية.[٢٣]

التهجُّم على فلابيانوس الثاني

وما كاد أنسطاسيوس ينهي الحرب الفارسية في ربيع السنة ٥٠٥، حتى أوعز إلى فيلوكسينوس أن يداعب فلافيانوس رئيسه ليحرجه فيخرجه، وكان فلافيانوس قد قضى مدة طويلة في القسطنطينية ممثلًا الحبر الأنطاكي فيها Apokrisis أمام السلطات العليا، فلما كانت السنة ٤٩٨ انتُخِب أسقفًا على أنطاكية، فهَبَّ يعمل بأمانة واستقامة، وكان أرثوذكسيًّا مستقيم الرأي، فتمَّ شيء من التفاهم والتعاون بينه وبين زميله مقدونيوس أسقف القسطنطينية وإيليا أسقف أوروشليم،[٢٤] فلما قضت الظروف بالعمل للطبيعة الواحدة، أعلنها فيلوكسينوس حربًا لا هوادة فيها على فلابيانوس مدعيًا أنه كان لا يزال يقول بالنسطرة،[٢٥] فتنصَّلَ فلابيانوس ولعن نسطوريوس والنسطرة، ولكن فيلوكسينوس لم يرضَ بذلك وأصرَّ على وجوب التراجع عن القول بالطبيعتين، وكتب فيلوكسينوس بهذا كله إلى مارون أناغنوسطوس عين زربة،[٢٦] وادَّعى الجهاد ودخوله في حرب ضد نسطوريوس وجميع علماء أنطاكية ديودوروس وثيودوروس وثيودوريطس وإيبا، وعاونه في ذلك كلٌّ من إلفسينوس Eleusinos أسقف ساسيمة قبدوقية، ونيقياس Nicias أسقف اللاذقية وغيرهما،[٢٧] وأعَدَّ فيلوكسينوس رسالة في مقومات الإيمان الصحيح ورفعها إلى

---

[٢٣] Lebon, J., Le Monophysisme Sévérien, (Louvain, 1919); Draguet, R., Julien d'Halicarnasse et sa Controverse avec Sévére d'Antioche, (Louvain, 1924).

[٢٤] Lebon, J., Monophysisme, 41.

[٢٥] Evagrius, Hist. Ecc., III, 31; Bardy, G., Pol. Rel. d'Anastase, op. cit., IV, 310, n. 1.

[٢٦] Lebon, J., Textes Inédits de Philoxène. Museum, 1930, 20 ff.

[٢٧] Evagrius, Hist. Ecc., III, 31; Liberatus, Breviarium, XIX.

البلاط الإمبراطوري، فأمر أنسطاسيوس بوجوب مثوله في القسطنطينية، فامتثل ومثل بين يدي الإمبراطور ولكن مقدونيوس لم يسمح له بالمثول أمامه لتقبيل يده، فاضطر فيلوكسينوس أن يفر من العاصمة تحت جناح الظلام.

سويروس يؤم القسطنطينية (٥٠٨–٥١١)

وما كاد فيلوكسينوس يخرج من العاصمة حتى دخلها سويروس على رأس مائتَيْ ناسك فلسطيني يحاربون نيفاليوس وغيره من الرهبان الذين قالوا بالطبيعتين، وأجيب طلب سويروس سريعًا، ولكنه بقي ثلاث سنوات متتالية في عاصمة الدولة يخطب ويجادل ويؤلف في سبيل القول بالطبيعة الواحدة، فردَّ على الخلقيدونيين بالفيلاليتة مبينًا أن ما نسبوه إلى كيرلس غير صحيح، ووجَّه رسالةً إلى أبيون وبولس البطريقين نافيًا ما نُسِب إليه من المانوية وغير ذلك،[٢٨] واجتمع حوله عدد لا يستهان به من أخصام مقدونيوس أسقف العاصمة، وافتروا أقوالًا وأفعالًا ونسبوها إلى مقدونيوس وهو براء منها، ثم تجرَّءوا على أكثر من هذا فجعلوا رهبان سويروس يسبحون التريصاجيون مضيفين إليها عبارتهم «المصلوب من أجلنا»، فأدى هذا إلى هياج شعبي عظيم جعل أنسطاسيوس يخشى سوء العاقبة ويستعد للفرار، وبات الإمبراطور يعدُّ العدة لخلع مقدونيوس وإبعاده، فاستمال بعض العناصر الإكليريكية وأمر بإقفال أبواب العاصمة في وجه الرهبان الداخلين إليها، ووزَّعَ العطايا على الجيش، وفي السادس من آب سنة ٥١١ أمر بخلع مقدونيوس وإبعاده، فتم ذلك بدون مقاومة،[٢٩] ثم أوعز الإمبراطور بتنصيب تيموثاوس الأول (٥١١–٥١٨) أسقفًا على القسطنطينية.

مجمع صيدا (٥١٢)

وعاد فيلوكسينوس إلى منبج مركز أبرشيته ليستأنف النزاع ضد رئيسه فلابيانوس، وشدد الخناق على فلابيانوس واضطره أن يوقع بيانًا شجب فيه تعاليم ديدوروس وثيودوروس

[٢٨] Zacharie, Vita Severi, 104; Jean, Vita Severi, 234; Lebon, J. Monophysisme, 123 f.

[٢٩] Evagrius, Hist. Ecc., III, 32; Théophane, Chron., 6004; Duchesne, L., L’Eglise au VI Siècle, 24–25.

وإيبا وغيرهم من الآباء الأنطاكيين،[٣٠] وما إن نال هذا القدر من الرئيس المسالم حتى طالب بأكثر، فإنه أكَّدَ أن لا بد من شجب أعمال المجمع الخلقيدوني، وشجب كلَّ مَن يقول إن في المسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة،[٣١] ودفع بوثيقة مهيأة لهذه الغاية Plerophoria، وطلب إلى فلابيانوس أن يوقعها لتعاد إلى القسطنطينية، فوقع فلابيانوس هذه الوثيقة أيضًا معترفًا بحكم المجمع الخلقيدوني على نسطوريوس وأوطيخة، ممتنعًا عن تأييد أي تحديد للعقيدة ورد في مقررات هذا المجمع.[٣٢]

وعاد فيلوكسينوس للمؤاخذة وشفاء الغيظ، فرأى فلابيانوس أن يدعو المجمع الأنطاكي للنظر في جميع الأمور التي أثارها فيلوكسينوس، ولا سيما قضيته الأخيرة، فاجتمع الآباء الأنطاكيون في صيدا في خريف السنة ٥١٢، وبلغ عددهم الثمانين، ومثل الإمبراطور بينهم القائد أفتروبيوس، ومشى في ركاب فيلوكسينوس كلٌّ من بطرس أسقف حلب، ونيقياس أسقف طرابلس، ومكسيموس أسقف بيروت، وسبعة آخرون؛ بحيث أصبح عدد المونوفيسيين عشرة فقط، وأيَّدَ فيلوكسنوس ووفدَه عددٌ كبير من الرهبان، فقدموا إلى المجمع طلبًا بشجب مقررات خلقيدونية وأردفوا طلبهم هذا بسبعة وستين فصلًا في تفنيد طومس لاوون وقرارات المجمع الخلقيدوني،[٣٣] فتدبَّرَ الآباء الأرثوذكسيون هذه الفصول وغيرها، وجادلوا خصومهم واستظهروا عليهم بدليل العقل والنقل، ثم استشهدوا بنصوص الآباء المونوفيسيين برسائل بطرس مونغوس وأثناسيوس الثاني، فثبتوا وجوب الاكتفاء بتوقيع الأينوتيكون،[٣٤] فأفحموا فيلوكسينوس وتركوه معتقل اللسان، وانتهت أعمال المجمع بانتصار الأرثوذكسية على المونوفيسية، ولا نرى ما يوجب القول بتدخل الإمبراطور لتعليل الإسراع في إنهاء الأعمال.[٣٥] وقبل الارفضاض وجه فلابيانوس أنطاكية وإيليا أوروشليم رسالةً إلى أنسطاسيوس الإمبراطور أكَّدَا فيها تأييدهما لنص الأينوتيكون.[٣٦]

---

٣٠ Lebon, J., Monophysisme, 47.

٣١ Evagrius, Hist. Ecc., III, 31; Brooks, L. W., Letters of Severus, II, 3 f.

٣٢ Evagrius, Hist. Ecc., III, 31.

٣٣ Zacharie le Rheteur, Hist. Ecc., VII, 11.

٣٤ Sévère, Epist. IV, 2.

٣٥ Diekamp, F., Die Origenistische Streitigkeiten, 21.

٣٦ Cyrille de Scythopolis, Vita Sabae.

خلع فلابيانوس وإبعاده (٥١٢)

وخرج فيلوكسينوس من مجمع صيدا ساخطًا حاقدًا، فجمع الرهبان من كل حدب وصوب واتصل بأساقفة أسورية، فأفسد بينهم وبين رئيسهم فلابيانوس، ثم أرسل رهبانًا إلى القسطنطينية يطالبون بخلع فلابيانوس وإبعاده، فتم لهم ذلك في أوائل تشرين الثاني سنة ٥١٢ بواسطة مجمع محلي عُقِد خصيصًا لهذه الغاية في مدينة اللاذقية، وأُبعِد فلابيانوس إلى البتراء.[٣٧]

سويروس أسقف أنطاكية (٥١٢–٥١٨)

وأوعز أنسطاسيوس بانتخاب سويروس خلفًا لفلابيانوس، فتمَّ ذلك في السادس من تشرين الثاني سنة ٥١٢، وسيم سويروس في أنطاكية نفسها على يد متروبوليتي طرسوس ومنبج وعشرة أساقفة محليين من أبرشيات الفرات وسورية الأولى،[٣٨] ووجه سويروس لمناسبة تسلُّمه عكازَ الرعاية خطابًا إلى الرهبان لا تزال ترجمته إلى السريانية محفوظة حتى يومنا هذا،[٣٩] وقد جاء في هذا البيان الرعائي تأكيدٌ باستمساك سويروس بما جاء في أعمال مجامع نيقية وأفسس، واعتراف بصحة ما تضمنه الأينوتيكون، ولكنه شجب نسطوريوس وأوطيخة والمجمع الخلقيدوني وطومس لاوون وجميع الذين قالوا بالطبيعتين.[٤٠] وفي السنة التالية (٥١٣) دعا إلى مجمع أنطاكي في أنطاكية نفسها، فأقرَّ هذا المجمع الرئيس في كل ما ذهب إليه، وشجب المجمع الخلقيدوني وطومس لاوون،[٤١] واعترض على هذه المقررات ولم يؤيدها كلٌّ من أبيفانيوس متروبوليت صور (أخي فلابيانوس الرئيس السابق)، ويوليانوس متروبوليت بصرى، وبطرس أسقف دمشق، وأساقفة الرستن وحماة وشيزر والرفنية.[٤٢]

---

٣٧ Evagrius, Hist. Ecc., III, 31, 32; Zacharie le Rheteur, Hist. Ecc., VII., 12; Sévère, Epist. v.

٣٨ Zacharie, Vita Severi, 110; Jean, Vita Severi, 321; Devresse, R., Patriarcat, 69, n. 7.

٣٩ Patr. Orient., II, 322.

٤٠ Patr. Orient., II, 322.

٤١ Brooks, L. W., op. cit. I, 97; Lebon, J., Monophysisme, 57.

٤٢ Evagrius, Hist. Ecc., III, 33, 34.

مجمع صور (٥١٤)

وادَّعَى سويروس أن أكثرية الأساقفة الساحقة تؤيده، فذكر في رسائله عددًا كبيرًا منهم،[٤٣] وادَّعَى خصومه غير ذلك، فدعا إلى مجمع في صور في السنة ٥١٤ فاشترك في أعماله أساقفة أنطاكية وأبامية ووادي الفرات والرها وما بين النهرين والعربية وفينيقية اللبنانية، وأيَّدَ هذا المجمع موقف سويروس السابق من مشكلة العقيدة، وفسر الأينوتيكون تفسيرًا معاكسًا لمقررات المجمع الخلقيدوني، فاضطرب معظم الأساقفة، وامتنع عدد من أساقفة أسورية عن الاعتراف بسلطة سويروس، وقطعه من الشركة أساقفة صور ودمشق وبصرى، وأنزله عن السدة الرسولية كلٌّ من سويريانوس الرستن وقوزمة حماة، وأرسلَا إليه نصَّ القرار المتخذ،[٤٤] ووافق هذا كله ظهور قرار مجمعي في الإسكندرية يوفق بين بنود كيرلس وطومس لاوون، ويحتجُّ كل الاحتجاج على مشاغبات سويروس وفيلوكسينوس؛[٤٥] فرأى سويروس أن لا بدَّ من اللجوء إلى العنف، فوكل أمر تهذيب الأساقفة إلى سويروس أبامية وبطرس رفيقه، فدعا سويروس الأبامي إكليروس الأبرشيات المجاورة إليه وحادثهم في موضوع الساعة، فبسط على بعضهم جناح الرحمة، وأعرض عن غيرهم واستبدلهم بآخرين ممَّن قالوا قول سويروس الأنطاكي ومجمع صور، ولم يقف الأبامي عند هذا الحد، فإنه صادر الذهب والفضة من فوق المذابح وأجران المعمودية، وتذوق بطرس رفيق هذا الأبامي الخشونة والغلاظة والفظاظة، فاستعان بالأسوريين على الزهاد والنساك فكانت معركة في شيزر، وسقط عدد من الرهبان دفاعًا عن الدين القويم.[٤٦]

أوروشليم

ولم يعترف إيليا أسقف أوروشليم بأسقفية سويروس الأنطاكي، ولم يذكره في الشركة لخروجه على العقيدة الأرثوذكسية، فكان لا بدَّ من خلعه وإجلاس غيره ليقول قول

[٤٣] Devresse, R., Patriarcat, 70, n. 3.

[٤٤] Evagrius, Hist. Ecc., III, 34.

[٤٥] Philoxène, Epist. ad Maron. Ok. Lebon, J., op. cit., 61.

[٤٦] Mansi, VII, 1038–1107; Schwartz, E., Acta, III, 52–99, 106–110; Collectio Avellana, 139; Guenther, O., Corpus, 565–571.

الإمبراطور ويتعاون مع أسقف أنطاكية، وفي السنة ٥١٦ قام أوليمبيوس حاكم فلسطين من مركز حكمه في قيصرية إلى أوروشليم على رأس قوة لخلع إيليا وتنصيب غيره، فاعترضه الرهبان فأطلعهم على بعض الوثائق الصادرة عن إيليا فأثبط عزمهم، ودخل أوروشليم بدون مقاوَمة وخلع إيليا ونفاه إلى أيلة عند خليج العقبة.[٤٧]

واختار أوليمبيوس الحاكم الشماس يوحنا «حامي الصليب المقدس» Stavrophylax خلفًا لإيليا، وكان هذا الشماس ابن مرقيانوس أسقف سبسطية وشقيق أنطونيوس أسقف عسقلان، وطلب إليه أوليمبيوس أن ينبذ طومس لاوون ويشجب قرارات المجمع المسكوني الرابع قبل تنصيبه، فوعد يوحنا بذلك، فحدد يوم التنصيب وعين المكان، فهرع الناس إلى كنيسة القديس إسطفانوس أكبر الكنائس آنئذٍ، وأمَّ أوروشليم ثمانية عشر ألفًا من الرهبان الأرثوذكسيين، وأطل يوحنا يواكبه القديسان سابا وثيودوسيوس، وهتفت الجماهير: «العن الهراطقة وأيد المجمع.» فلعن يوحنا كلًّا من نسطوريوس وأوطيخة وسويروس الأنطاكي وسوتيريخوس Soterichos قيصرية قبدوقية، وأيَّدَ في الوقت نفسه المجامع المسكونية الأربعة.[٤٨]

ضغط الإمبراطور وفشله

وكان تيموثاوس الأول أسقف القسطنطينية (٥١١–٥١٨) رجلًا متقلبًا، فحرَّم قرارات المجمع الرابع المسكوني، وتفاهم مع سويروس الأنطاكي ويوحنا النيقاوي الإسكندري، فاضطر متروبوليت تسالونيكية أن يماشي تيموثاوس خوفًا من الإمبراطور، فتظاهر الشعب ضد الإمبراطور والأساقفة، وعقد أربعون أسقفًا من البلقان وبلاد اليونان مجمعًا وقطعوا علاقاتهم مع تيموثاوس ودخلوا في شركة أسقف رومة.

وتتابع ضغط الإمبراطور على الأرثوذكسيين، فثار فيتاليانوس قائد فرقة بلغارية في الجيش واحتل وارنة على البحر الأسود، ثم تقدَّمَ نحو العاصمة مطالبًا بإلغاء التسبيح المونوفيسيتي، وبإعادة الأساقفة الأرثوذكسيين من منفاهم، وهاجم العاصمة برًّا وبحرًا، فصُدَّ ولكنه لم يُغلَب، فعاد برجاله إلى بورغاس وبقي فيها ثائرًا غاضبًا![٤٩]

---

٤٧ Diekamp, F., Die Origenistischen Streitigkeiten, 24 f.

٤٨ Bardy, G., Pol. Rel. d’Anastase, Fliche et Martin, op. cit., IV, 316.

٤٩ Jean d’Antioche, Fragm. Hist. Gr., V. 3; Evagrius, Hist. Ecc., III, 43.

وعلم سويروس في هذه الآونة أن عددًا كبيرًا من المؤمنين الأرثوذكسيين سيقصدون مقام سمعان العمودي؛ احتجاجًا على قساوة سويروس وهراطقته، فأرسل سويروس مَن كمن لهؤلاء وانقضَّ عليهم فقتَّل تقتيلًا.[٥٠]

وعلى الرغم من هذه القساوة وهذا الضغط المتزايد، فإن الشعب في آسية وتراقية والبلقان واليونان وفلسطين ظلَّ محافظًا على التقليد القويم، مستمسكًا بمقررات المجامع المسكونية، وظلَّ أساقفته بعيدين عن القول بالطبيعة الواحدة، وفي كنيسة أنطاكية كثر القائلون بالطبيعة الواحدة أساقفة وشعبًا، ولكنَّ الأرثوذكسيين ظلوا كثرًا أيضًا، ولا سيما بين الرهبان والنساك، أما في مصر فإن القول بالطبيعة الواحدة عمَّ القسم الأكبر من الشعب والإكليروس.

وفي ربيع السنة ٥١٨ توفي تيموثاوس الأول أسقف القسطنطينية، وتبعه أنسطاسيوس الإمبراطور فزهقت نفسه في التاسع من تموز من السنة نفسها، وانصرف إلى جوار ربه في التاسع عشر من تموز من السنة ٥١٨ أيضًا فلابيانوس الثاني أسقف أنطاكية المنفي وزميله إيليا أسقف أوروشليم. وفي خريف هذه السنة أيضًا نُفِي فيلوكسينوس إلى غنغرة ليُحبَس في بيت يُوقَد فيه وتُسَدُّ منافِذُه فيموت خنقًا.

---

٥٠ Hormisdas, Coll. Avellana, 139, 140.

الفصل الخامس والعشرون

يوستينوس ويوستنيانوس

٥١٨–٥٩٠

الإمبراطور يوستينوس

وتوفي أنسطاسيوس في التاسع من تموز سنة ٥١٨ بدون عقب، فتولى العرش بعده يوستينوس أحد قادة الحرس الإمبراطوري، وذلك بتدبير لا يزال غامضًا، وكان يوستينوس هذا وضيع الأصل، جاء العاصمة مغامرًا يمشي على القدمين من مقدونية، إلا أنه كان جنديًّا باسلًا فأُلحِق بالحرس الإمبراطوري، وظل يتقدم حتى أصبح قومس إحدى فرق الحرس، على أنه في الواقع لم يكن شيئًا غير جندي باسل، وقد رأى فيه المؤرخون المعاصرون له أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، متطفلًا على السياسة وأهلها، جاهلًا علم اللاهوت، ويقولون أيضًا إنه لولا مساندة ابن أخته يوستنيانوس له لناء بحمله وضاع في متاهات الإدارة والسياسة. وكان يوستينوس قد استقدم يوستنيانوس إليه في حداثته وعني بتثقيفه وتهذيبه، فأصاب يوستنيانوس شطرًا وافرًا من العلم في مدارس العاصمة، فلما تبوَّأ خاله عرش الأباطرة كان يوستنيانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلَّى بالنضج والاتزان.[١]

[١] Stein, E., Hist. du Bas Empire, II, 219–223; Bréhier, L., Byzance, 20–21.

العودة إلى الأرثوذكسية

وكان يوستينوس قد نشأ يتكلم اللاتينية ويقول قول أساقفة رومة، فلما أدرك أن المعارضة منوفيسية في الصميم، اضطر هو أن ينهج نهجًا أرثوذكسيًّا خالصًا،[٢] واندفع الشعب في سبيل هذا الإيمان القويم، فطالب الأسقف في الأحد الأول بعد وصول يوستينوس إلى العرش وفي كنيسة الحكمة الإلهية، أن يقوم إلى الأمبون Ambon وينادي بصحة أعمال الآباء في المجمع المسكوني الرابع ففعل، ثم طالبوا بذكر أفيميوس ومقدونيوس ولاوون في الذبيحة فذكر، وألحوا بلعنة سويروس الأنطاكي فلعن،[٣] وأوجبوا إعادة الإكليريكيين الأرثوذكسيين الذين أُبعِدوا عن مراكزهم، فالتأم مجمع محلي في العشرين من تموز، وأقر ذلك ورفع قراره إلى الإمبراطور،[٤] فصدرت إرادة سنية إمبراطورية فرضت الاعتراف بالمجمع الخلقيدوني فرضًا، وأوجبت إعداد نص جديد يحل محل الأينوتيكون، وقضت إرادة سنية أخرى بإبعاد الهراطقة المونوفسيين عن وظائف الدولة وصفوف الجيش.[٥]

وتجاوب الأرثوذكسيون فالتأم مجمع مقدس في أوروشليم في السادس من آب من هذه السنة نفسها، واتخذ القرارات نفسها التي اتخذها مجمع القسطنطينية في العشرين من تموز، وحذا الشاطئ اللبناني حذو القسطنطينية وأوروشليم، فاتخذ مجمع صور في السادس عشر من أيلول قرارات مماثلة، وتظاهر الشعب تظاهرًا كبيرًا في كنيسة صور الكتدرائية، وقام كيروس أسقف مريمينة المشتى في مجمع جمع زويلوس رفنية، وسويريانوس الرستن، وقوزمة حماة، وأفسابيوس شيزر، فطلب لعن أسقف أبامية وقطعه ففر بطرس فرارًا،[٦] وأمر الإمبراطور بإلقاء القبض على سويروس الأنطاكي وقطع لسانه، فلاذ سويروس بالفرار، فقام إلى سلفكية الساحل في التاسع والعشرين من أيلول وأقلع منها إلى الإسكندرية حيث أقام مدة طويلة.[٧]

---

[٢] Zacharie Rheteur, Hist. Ecc., VII, 15, VIII, 1.

[٣] Mansi, VIII, Col. 1057–1065.

[٤] Mansi, VIII, Col. 1041–1057.

[٥] Michel le Syrien, II, 180.

[٦] Mansi, VIII, Col. 578, 1068–1082, 1093–1138; Schwartz, E., Acta, III, 77–110; Maspero, J., Hist. des Patriarches d'Alexandrie, 69–71.

[٧] Maspero, J., op. cit., 70.

وخيَّر الأساقفة الأنطاكيون بين القول بالطبيعتين وبين الاستقالة، فآثر اثنان وثلاثون منهم الاستعفاء من الخدمة على الرضوخ والاعتراف بالمجمع الخلقيدوني، وكان بين هؤلاء: بولس الإسكندرونة، وقسطنطين اللاذقية، وأنطونيوس حلب، ونونوس سلفكية الساحل، وأيسيدوروس قنسرين، وبطرس أبامية، وتوما دمشق، وألكسندروس وادي بردي، وتوما يبرود، ويوحنا تدمر، ويوحنا حوارين (أسقف الرهبان العرب)، وفيلوكسينوس منبج، وسرجيوس قورش، وتوما مرعش، وبولس الرها، ويوحنا حران، وبولس الرقة، ومريون سورة، وماراس آمد، وتوما دارا.[٨]

واتُّخِذت إجراءات قاسية لإكراه الرهبان على القول بالطبيعتين، فطُرِدوا من أديرتهم شبانًا وشيوخًا، أصحاء ومرضى ومقعدين، في حر الصيف وبرد الشتاء.[٩]

بولس الثاني (٥١٩–٥٢١)

ولمست المقامات الأرثوذكسية في العاصمة كفاءةً في شخص الكاهن الأنطاكي بولس «مضيف الغرباء»، فأوصت به فسيم أسقفًا على أنطاكية، وما كاد يستلم أزمة الرئاسة حتى كاشف المونوفيسيين بالعداوة وجاهر بها، وخصَّ رهبانهم بشطر وافر من كرهه وحقده، ثم حامت نفسه على المال والمادة، فلجأ إلى البلص وما يتبعه، وكاد يمثل أمام القضاء، ولكنه استعفى من الخدمة (٥٢١)، فخلفه راهب فلسطيني اسمه إفراسيوس Euphrasios.[١٠]

إفراسيوس (٥٢١–٥٢٦)

وقال إفراسيوس بالطبيعة الواحدة حينما كان لا يزال قسيسًا في أوروشليم، ثم عدل عن هذا القول وأعلن تمسُّكه بالإيمان القويم، وتبوأ السدة الأنطاكية، فتابع التضييق

---

[٨] Michel le Syrien, IX, 13; Zacharie, Hist. Ecc., VIII, 5.

[٩] Michel le Syrien, IX, 14; Zacharie, Hist. Ecc., VIII, 5; Chron. d'Edesse, 90; Duchesne, L., L'Eglise au VI; Siècle, 70.

[١٠] Duchesne, L., L'Eglise au VI; Siècle, 66.

على المونوفيسيين فخنق فيلوكسينوس في غنفرة ٥٢٣،[١١] واقتلع بولس اقتلاعًا من كنيسة الرها، وطارد الرهبان فهاموا طالبين البادية وأسسوا فيها أديارًا جديدة.[١٢]

مصر ملجأ الهراطقة

وتشاغل الأباطرة عن مصر وسياستها، فأطمعوا أبناءها في هيبة الحكم وروعته فتطمَّعوا وراحوا يخادعون ويراوغون، ولولا الشقاق المزمن بين الفلاح والملتزم، لما تمكَّنَ الروم من البقاء في مصر حتى ظهور الإسلام،[١٣] ومن هنا التجاء سويروس ويوليانوس وغيرهما من كبار المونوفيسيين إلى وادي النيل، وإقامتهم فيه أعزاء الجانب لا ينالهم طالب ولا يطمع فيهم طامع، ومن هنا أيضًا هذه الصلابة التي دفعت سويروس إلى متابعة العمل في أنطاكية وأبرشياتها بعد خروجه منها،[١٤] ومن هنا كذلك أعمال يوحنا أسقف قسطنطينية الذي ظلَّ يمارس السلطة الروحية في مسقط رأسه الرقة بعد استعفائه من الخدمة وخروجه من أبرشيته.[١٥]

«وأقام سويروس في مصر عشرين سنة يدبر الكنيسة بنوَّابه ومراسلاته، ويحبِّر الكتاب إثرَ الكتاب نقضًا «للبدع ودحضًا للمضللين» بهمةٍ لا تعرف الملل، ولا تتعثر بأذيال الكلل، مجيبًا على مسائل السائلين، معطيًا الفتاوى السديدة في المشاكل الشرعية.»[١٦]

وأكمل سويروس في مصر كتابه ضد يوحنا النحوي القيصراني الذي بدأ به في أنطاكية،[١٧] ثم اختلف مع يوليانوس الإليكرناسوسي فيما إذا كان جسد المسيح قابلًا أو

[١١] Lebon, J., Monophysisme Sévérien, 68; Muséon, 1930, 149 ff, 163–165, 171–173, 197–199.

[١٢] Lebon, J., op. cit., 67–69; Maspero, J., op. cit., 71 f; Michel le Syrien, IX, 16, 20.

[١٣] Stein, E., op. cit. II, 161–162.

[١٤] Maspero, J., op. cit., 77–81.

[١٥] Vie de Jean de Tella par son disciple Elie, Corp. Script. Oriental., XXV, 23.

[١٦] كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، تأليف البطريرك أغناطيوس الأول برصوم، ص٢٣٩-٢٤٠.

[١٧] Lebon, J., op. cit., 147–163.

غير قابل الفساد، فانقسم المونوفيسيون في مصر إلى سويريين ويوليانيين، وما فتئوا حتى الفتح الإسلامي.[١٨]

زلزال أنطاكية (٥٢٦)

وتنوعت الكوارث الطبيعية في عهد يوستينوس واشتدت، فزُلزِلت الأرض في عين زربة،[١٩] وطفت المياه في الرها فغمرتها (٢٢ نسيان ٥٢٥)،[٢٠] وحلت صاعقة في بعلبك فأحرقت هيكلها،[٢١] وعمَّ الجفاف فلسطين بأسرها وطال أمده فحلَّ الجوع فيها، وفي التاسع والعشرين من أيار سنة ٥٢٦ دهمت زلزلة كبرى أنطاكية، فخربتها تخريبًا وقضت على خمسين ألفًا من السكان وعلى الأسقف إفراسيوس أيضًا.[٢٢]

يوستنيانوس (٥٢٧–٥٦٥)

هو فلافيوس بتروس سباتيوس يوستنيانوس ابن أخت يوستينوس، وُلِد في توريزيوم Tauresium مقدونية[٢٣] في السنة ٤٨٢، وقدم العاصمة في حداثته، فعني خاله الإمبراطور بتثقيفه وتهذيبه، فأصاب شطرًا وافرًا من العلم، ولما تبوأ خاله عشر القسطنطينية كان يوستنيانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلى بالنضج والاتزان، ويقول معاصروه إنه كان يميل إلى البساطة في العيش، لا يشرب الخمر ولا يأكل إلا القليل من الخضراوات، وكثيرًا ما كان يصوم ليلتين ونهارًا بينهما،[٢٤] وجاء أيضًا أنه كان يحب مجالسة الأساقفة والرهبان للبحث في العقيدة والدين، وأنه كان قد أخذ اللاهوت عن أكبر

---

[١٨] Stein, E., op. cit. II, 233–235; Draguet, Julien d'Halicarnasse, Rev. Hist. Ecc; 1937, 92–95.

[١٩] Malalas, 417 f.; Evagrius, Hist. Ecc., IV, 8.

[٢٠] Zacharie Rhet., Hist. Ecc., VIII, 4.

[٢١] Stein, E., op. cit., II, 242, n. 1.

[٢٢] Malalas, 419–421; Procopius, Bell. Pers., II 14.

[٢٣] Zeiller, J., Site de Justiniana Prima, Mélanges Charles Diehl, I, 299–304.

[٢٤] Diehl. Ch., Justinien, 14–22.

رجال عصره لاونديوس البيزنطي مؤسس اللاهوت البيزنطي السكولاستيكي،[٢٥] ويجوز القول إن مغامرات يوستنيانوس في اللاهوت نشأت في بعض هذه الجلسات التي أحياها الإمبراطور في قصره.[٢٦]

أهدافه

وأراد يوستنيانوس أن يعيد إلى الدولة الرومانية سابق وحدتها السياسية، وأن يضرب على أيدي الوثنيين واليهود والهراطقة؛ ليؤمن كنيسة واحدة جامعة،[٢٧] واعتبر نفسه مسئولًا أمام الله والناس عن الأمن والسلام في الدولة وفي الكنيسة، فتدخَّلَ في شئون هذه تدخُّلًا منتظمًا لم يسبقه إليه أحدٌ من قبلُ، فلا قسطنطين ولا ثيودوسيوس ولا غيرهما تدخل في أمور الكنيسة هذا التدخل المستمر المطلق الصلاحية، ولا هذا ولا ذاك حاول أن ينظر في جميع المشاكل الكبيرة والصغيرة التي اعترضت الأساقفة في علاقاتهم مع زملائهم ومع الإكليريكيين الخاضعين لسلطتهم؛ ومن هنا هذا الاشتراع الكبير في المسائل الإكليريكية الذي تركه يوستنيانوس للخلف الصالح، والذي لا يزال المرجع الرئيسي في القانون الكنسي حتى يومنا هذا.[٢٨] ولم يكتفِ هذا الرجل الفذ في تنفيذ قرارات المجامع المسكونية باقتباس نصوصها وجعلها جزءًا من إراداته السنية، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا، فاتخذ لنفسه صلاحية التفسير وكيفية التطبيق دون أن يستند في ذلك إلى أية سلطة كنسية.[٢٩]

يوستنيانوس وتقدُّم رومة

وكان يوستنيانوس شديد الإيمان بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، فما إن تبوأ خاله عرش الإمبراطورية حتى عمد إلى إزالة الانشقاق بين كنيسة رومة الجديدة وكنيسة رومة القديمة، واعترف يوستنيانوس ببطاركة خمسة: بطريرك لرومة القديمة، وآخَر لرومة

---

[٢٥] Loofs, Leontius von Byzanz; Tixeront, J., Hist. des Dogmes, III, 4–9, 152–158.

[٢٦] Duchesne, L., L’Eglise au VI; Siècle, 174.

[٢٧] Bréhier, L., Pol. Rel. de Justinien, Fliche et Martin, op. cit., IV, 439.

[٢٨] Batiffol, P., Empereur Justinien, 221–223.

[٢٩] Bréhier, L. Pol. Rel. de Justinien, Fliche et Martin, op. cit. IV, 439-440.

الجديدة، وثالث للإسكندرية، ورابع لأنطاكية، وخامس لأوروشليم،[٣٠] وخصَّ بطريرك رومة القديمة بلقب بابا، فخاطبه إما بهذا اللقب وحده أو باللقبين بابا وبطريرك، وجاء في أحد القوانين الصادرة عنه أن أبرشية رومة الجديدة تأتي بعد أبرشية رومة القديمة، واعتبر بابا رومة القديمة في إحدى الرسائل التي وجهها إليه «رئيس جميع الكنائس المقدسة» caput omnium sanctarum ecclesiarum،[٣١] ولكنه على الرغم من هذا كله ظل يعتبر نفسه مسئولًا عن الدولة والكنيسة، ورئيسًا لهذه كما كان لتلك.[٣٢]

ثيودورة

وحرص يوستنيانوس أن يعلم كل شيء، وأن يدقق في كل شيء، وأن يقر كل شيء، وكان شديد الإعجاب بمواهبه ومؤهلاته، لا يسمح لأحد من رجاله أن يعارضه في أمر، ولكنه على الرغم من التظاهر بالعزم والحزم والثبات فإنه كان في قرارة نفسه مترددًا شديد التأثر بآراء الحاشية، ولا سيما زوجته ثيودورة.[٣٣]

ويقول بروكوبيوس المؤرخ في كتابه عن أسرار هذه الحقبة إن ثيودورة هذه تلطخت منذ حداثتها بفساد المحيط حولها؛ لأنها نشأت في مسارح القسطنطينية ابنةً لمروِّض الدببة،[٣٤] ويقول شارل ديل الإفرنسي إن ثيودورة شغلت العاصمة فألهتها، لا بل فتنتها، ثم جرَّت الخزي عليها،[٣٥] ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن بروكوبيوس كتب ليحطم يوستنيانوس وزوجته، وأنه بالتالي راوٍ مغرض لا تُقبَل شهادته بدون تبصُّر وروية، ويجب ألا ننسى أيضًا أن ثيودورة ترصنت بعد طيشها، وأنها أخرجت زوجها في كثير من الأحيان من مآزق حرجة.

والمهم هنا هو أن نذكر ما كان لثيودورة من التأثير على زوجها، وألا ننسى أنها قالت بالطبيعة الواحدة وعطفت على مَن شاركها هذا القول، وأنها ربما عرفت

٣٠ Novelle, 131.

٣١ Knecht. A., Die Religions-Politik Kaiser Justinians, 62–65.

٣٢ Ostrogorsky, G., Hist. of Byzant. State, 71; Vasiliev, A. A., Byz Emp., 149.

٣٣ Stein, E, Bas Emp., II, 279-280.

٣٤ Procopios, Hist. Arcana, IX, 25.

٣٥ Diehl, Ch., Byz. Portraits, 54.

سويروس الأنطاكي قبل زواجها من الإمبراطور، وأننا نجدها «عظيمة» في جميع المراجع المونوفيسية.[٣٦]

اضطهاد غير المسيحيين

وأدى شعور يوستنيانوس بالمسئولية الدينية الملقاة على عاتقه بصفته إمبراطورًا مسيحيًّا أرثوذكسيًّا، إلى أن يأمر بالتضييق على رعاياه غير المسيحيين ليصيروا مسيحيين، وبدأ بهذا التضييق منذ أن شارك خاله يوستينوس في الحكم، فحرم الوثنيين والسامريين والهراطقة حق الانتفاع من إرث آبائهم وأجدادهم، وحق توريث مَن لم يكن أرثوذكسيًّا،[٣٧] ثم حرم الكفار واليهود حق الشهادة على الأرثوذكسيين أمام المحاكم،[٣٨] وحق استرقاق الأرثوذكسيين،[٣٩] وأردف هذا كله بقانون آخر منع به المانويين والوثنيين والسامريين من الاستفادة من أي حكم قانوني،[٤٠] ورأى ضروريًّا أن يقضي على عقائد الوثنيين وفلسفاتهم، فأمر في السنة ٥٢٩ بإقفال جامعة أثينة، فآثر دماسكيوس وزملاؤه الأساتذة النفي على التنصر، فأموا بلاط كسرى وعاشوا في كنفه، وما فتئوا حتى انتهت الحرب الفارسية (٥٣٢) فقبل يوستنيانوس بعودتهم إلى أوطانهم آمنين.[٤١]

ونفذ يوستنيانوس قوانينه هذه بشدة وقساوة، واستعان في الوقت نفسه بالرهبان لوعظ الوثنيين وتبشيرهم، فانتدب يوحنا الأفسسي أو الأسيوي لتبشير الوثنيين في جبال أزمير وأفسس، فأحرز يوحنا نجاحًا عظيمًا وهدى ثمانين ألفًا، وأنشأ تسعًا وتسعين كنيسة واثني عشر ديرًا.[٤٢]

---

٣٦ Jean d'Ephèse, Comment., 138, 154, 157, 160; Michel le Syrien, 11, 192–193.

٣٧ Cod. Just. I, 5, 15, 17, 18; Just. Nov. 115.

٣٨ Cod. Just., I, 5, 21; Just. Nov., 45.

٣٩ Cod. Just., I, 3, 54.

٤٠ Cod. Just., I, 5, 21.

٤١ Malalas., Chron., XVIII; Agathiae Historiae, II, 28–30; Bury, J. B., Later Roman Emp., II, 369–371; Bréhier, E., Hist. de la Philosophie, I, 476–486.

٤٢ Denis de Tell-Magré, Rev. Orient Chrét., 1897, 482 ff.

وُلِد يوحنا في الأرجح في بلدة أكل من ولاية آمد حوالي السنة ٥٠٧، وشارف الموت وهو طفل، فدعا له وشفاه مارون الناسك العمودي في دير أرعاربتا في أجل، فلما بلغ الرابعة أرسله أهله إلى الدير عملًا بأمر مارون، فأقام فيه حتى الخامسة عشرة، وتوفي الناسك فانضم يوحنا إلى رهبان مار يوحنا الأورطي، فدرس الأسفار وأجاد اللغتين اليونانية والسريانية، (وفي السنة ٥٢١) حين اضطهاد الرهبان وتشريدهم خرج يوحنا معهم.[٤٣] ثم أمَّ القسطنطينية لينال عطف ثيودورة وينضم إلى مار زعورا Zooras ورفاقه، والظريف اللطيف في هذا المبشر أنه لم ينقل إلى الموعوظين شيئًا من التعليم بالطبيعة الواحدة.[٤٤]

وعلى الرغم من التضييق والتبشير، فإن الوثنية ظلت عائشة مدة غير يسيرة، فالرها كانت وثنية في معظم سكانها في السنة ٥٤٠،[٤٥] والشرطة ضبطت في زوايا العاصمة في السنة ٥٦٢ عددًا من كتب السحر، فأوقفت خمسة من كهنة الأوثان؛ واحدًا من أثينة، واثنين من أنطاكية، واثنين من بعلبك، وشوَّهتهم ثم أركبتهم الجمال عراة، ودارت بهم في شوارع العاصمة وأحرقت كتبهم،[٤٦] ولدينا من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أن هياكل بعلبك بقيت وثنية تقام فيها الذبائح حتى السنة ٥٨٠،[٤٧] وأن شيئًا من الوثنية بقي لاحقًا بمصر حتى أوائل القرن السابع.[٤٨]

واحترم الإمبراطور يوستنيانوس حقوق اليهود المدنية، وأذن لهم بحرية العبادة وإقامة الشعائر الدينية، ولكنه لم يسمح لهم بالشهادة أمام المحاكم على المسيحيين الأرثوذكسيين، ولم يأذن لهم بشراء أي شيء له علاقة بالكنيسة والكنائس، وادَّعى أن عددًا كبيرًا من اليهود لا يفقهون العبرية، فأمر باستعمال الترجمة السبعينية أو ترجمة أكويلة Aquila، ثم تدخل في أمور العقيدة فحرَّم القول بالذفتيروسيس Deuterosis (نكران اليوم الآخر وقيامة الموتى)،[٤٩] وأمر بقطع مَن يقول هذا القول واعتباره وثنيًّا غير يهودي.

---

[٤٣] البطريرك أغناطيوس برصوم، المؤلف نفسه، ص٢٦٤.

[٤٤] Bréhier, L., Pol. Relig. Justinien, op. cit., IV, 443.

[٤٥] Stein, E., Bas Empire, II, 373.

[٤٦] Michel le Syrien, II, 207, 291; Malalas, J., Chron. XVIII.

[٤٧] Stein, E., Studien, 87, 100, n. s.

[٤٨] Maspero, J., Patriarches d’Alex., 34.

[٤٩] Novelle 146; Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 366.

واتخذ السامريون موقفًا معاديًا من المسيحيين ودولتهم واعتصموا بجبال فلسطين، فأمر يوستنيانوس بتدمير معابدهم،[٥٠] فثاروا في السنة ٥٢٩ ونادوا بيوليانوس إمبراطورًا،[٥١] فاضطر والي الشرق أن يجهز جيشًا لمحاربتهم، فاستعان بالقبائل العربية وطوقهم تطويقًا، وقتل منهم عشرين ألفًا وسجن عشرين ألفًا آخرين وأمر بيوليانوس فقطع رأسه،[٥٢] ثم ثاروا ثانية في السنة ٥٥٥ فذبحوا إسطفانوس برو قنصل فلسطين وعددًا من النصارى، ونجَّسوا الكنائس وأحرقوها، فأُخضِعوا ثانية وصُلِب زعماؤهم صلبًا.[٥٣]

التضييق على الهراطقة

أبعد يوستنيانوس الهراطقة عن الوظائف والمهن الحرة، ومنع اجتماعاتهم وأغلق كنائسهم كما سبق وأشرنا، وحرمهم حقوقهم المدنية قائلًا: «يكفي هؤلاء أن يؤذن لهم بالعيش.»

ولم ينجُ من هذا التضييق سوى المونوفيسيين ولا سيما السويريين منهم، فيوستينيانوس رأى التفاهم مع هؤلاء ممكنًا على أساس الاستمساك بنص الدستور النيقاوي وتفسيره على طريقة كيرلس الإسكندري، ولمس في الوقت نفسه قوتهم المتزايدة في مصر، فرهبانهم هناك ألَّفوا جيشًا متراصًّا مستعِدًّا لتنفيذ أوامر البطريرك. ولا يخفى أن يوستينيانوس كان مؤمنًا مخلصًا يقول بكنيسة واحدة جامعة، وأنه كان لاهوتيًّا واسع الاطلاع أخذ علمه هذا عن يد قطب أهل اللاهوت آنئذٍ وعميدهم لاونديوس الكبير،[٥٤] ومما تجب الإشارة إليه أن المؤرخين المونوفيسيين لمسوا إخلاص يوستينيانوس في معالجة قضيتهم، فلم يهملوا الإشارة إلى ورعه واهتمامه بالفقراء.[٥٥]

وزينت ثيودورة لزوجها وحسَّنت، فأشارت عليه منذ وصوله إلى العرش أن يسمح بعودة الرهبان المونوفيسيين والأساقفة من منافيهم إلى أوطانهم ففعل، وعاد

---

٥٠ Code Just., I, 5.

٥١ Malalas, Chron. XVIII; Cyritle de Scythopolis, Vit. Sabae, 70.

٥٢ Bury, J. B., Lat. Rom. Emp., II, 365–366; Maspero, J., Patr. d'Alex., 260.

٥٣ Michel le Syrien, II, 262; Malalas, Chron., XVIII; Lammens, H., Califat de Yazid I, Melanges Fac. Or. de Beyrouth, 1910–1913, 669–711.

٥٤ Brehier, L., Pol. Relig. de Justinien, op. cit., IV, 448–449.

٥٥ Maspero, J., Hist. des Pat. d'Alex., 109 ff.

منذ السنة ٥٣١ إلى آمد والرها جميع الرهبان المونوفيسيين الذين كانوا قد لجئوا إلى البادية،[٥٦] ثم حبَّبت إليه إقامة بعض الرهبان المونوفيسيين في العاصمة فسمح بهذا أيضًا، وأمَّ العاصمة أساقفة مونوفيسيون ثمانية وعدد كبير من الرهبان، وانتظم هؤلاء برعاية ثيودورة وإدارة مار زعورا Zooras في دير ما وراء القرن الذهبي أقيمت فيه الصلوات بحضور الإمبراطورة وحاشيتها.[٥٧]

مؤتمر في القسطنطينية (٥٣٣)

وركن المونوفيسيون إلى يوستنيانوس، فرفعوا إليه طلبًا ضمنوه بيانًا بمعتقدهم، فتراءى للإمبراطور أنه بإمكانه أن يعيدهم إلى الإيمان القويم بواسطة مؤتمر يضم ممثلين عنهم وعن الكنيسة الأم، ودعا الإمبراطور إلى هذا المؤتمر ستة أساقفة عن كل جانب، ووجه دعوة خصوصية إلى سويروس الأنطاكي زعيم المونوفيسيين، ولكن سويروس اعتذر ولم يحضر.

وعقد هذا المؤتمر جلساته في قصر الهورميزدة في السنة ٥٣٣ فترأس الجلستين الأولى والثانية قومس العطايا Comes Sacrarum Largitionum، وشرف الثالثة والأخيرة الإمبراطور بشخصه، ووافق الأساقفة الشرقيون المونوفيسيون زملاءهم ممثلي الكنيسة الأم على شجب أقوال أوطيخة، ووجوب دعوة المجمع المسكوني الرابع للنظر في البدعة في خلقيدونية، ثم اختلفوا في الجلسة الثانية حول القول بالطبيعتين، فأقام المونوفيسيون شهادة ديونيسيوس الآريوس باغوسي وأشاروا إلى مؤلفات نسبوها إليه لأول مرة في تاريخ الفكر اليوناني، ثم أبرزوا نصوصًا أخرى اعتبرها زملاؤهم الأرثوذكسيون مزورة، وعبثًا حاول يوستنيانوس في الجلسة الثالثة التقريب بين الطرفين، ولم يعترف بصحة موقف الكنيسة الأم من جميع الأساقفة المونوفيسيين سوى فيلوكسينوس أسقف دولك، وأصر الخمسة الآخرون على شجب تساهل المجمع الخلقيدوني في أمر إيبا وتيودوريطس.[٥٨]

---

[٥٦] Michel le Syrien, II, 177; Duchesne, L., Les Protégés de Théodora, Mélanges d’Arch. et d’Hist., 1915, 57–79.

[٥٧] Michel le Syrien, II, 197–203.

[٥٨] Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, II, 1120–1125.

أحد الثالوث تألم في الجسد Unus de Trinitate passus

وتابع الإمبراطور سعيه للتقريب بين المونوفيسيين والأرثوذكسيين، فأصدر في الخامس عشر من آذار سنة ٥٣٣ وفي السادس والعشرين من هذا الشهر نفسه أيضًا إرادتين سنيتين إمبراطوريتين أبان فيهما موقفه من النزاع القائم حول الطبيعة الواحدة والطبيعتين، فأهمل ذكر أي مجمع مسكوني وتحاشى الإشارة إلى «الطبيعتين»، وأكد وحدة شخص السيد المسيح على طريقة الرهبان السكيتيين الذين قالوا بتألم الإله Theopaschites،[٥٩] فأغضب الرهبان الذين «لا ينامون» Akoimetoi[٦٠] ولم يُرض المونوفيسيين!

ونظر البابا يوحنا الثاني في هذا النص اليوستنياني بناء على طلب الإمبراطور نفسه، وشاور الشماس الأفريقي فران Ferrand، ووافق على نص الإرادة الإمبراطورية ومضمونها، وشجب موقف الذين لا ينامون.[٦١]

سويروس ويوستنيانوس (٥٣٥)

وكدَّتْ ثيودورة للمونوفيسيين وسعت، فعلمت بقرب أجل تيموتاوس الثالث بطريرك الإسكندرية، فأرسلت في مطلع السنة ٥٣٥ أحد خدامها الخصي كالوتيخيوس Kalotychios إلى مصر، فحضَّ السلطات فيها على مساعدة ثيودوسيوس الشماس أحد تلاميذ سويروس الأنطاكي،[٦٢] وفي شهر حزيران توفي أبيفانيوس بطريرك القسطنطينية، فتدخلت ثيودورة وجعلت زوجها والأساقفة يوافقون على سيامة أنثيموس أسقف طرابزون بطريركًا على رومة الجديدة، وكان أنثيموس هذا يتظاهر بالأرثوذكسية ويُبطِن القول بالطبيعة الواحدة، فلما تبوأ العرش القسطنطيني وجه رسالته السلامية إلى سويروس

---

[٥٩] Cod. Just., I, 1, 6, 7.

[٦٠] Delehaye, H., Byzantine Monasticism, Byzantium, (Baynes and Moss), 144-145; Pargoire, J., Acémètes, Dict. d'Arch. Chrét., I, Col. 307-321.

[٦١] Brehier, L., Pol. Relig. de Justinien, op. cit. IV, 451; Stein, E., Bas Empire, II, 376-380.

[٦٢] Zacharie de Mytilène, Hist. Ecc., IX, 9; Maspero, J., Patr. d'Alex., 110 ff.

وثيودوسيوس معتبرًا كلًّا منهما أسقفًا شرعيًّا، متناسيًا خلع سويروس عن عرش أنطاكية، وقيام إفراميوس بطريركًا أرثوذكسيًّا على سدة الرسولين.[٦٣]

وكان يوستنيانوس قد دعا كلًّا من: سويروس الأنطاكي وتيموثاوس الإسكندري إلى التشاور في أمر الاختلاف القائم، فاستوفى تيموثاوس أنفاسه وطاحت روحه، وقام سويروس يلبي الدعوة في صيف السنة ٥٣٥، فنهض إلى القسطنطينية وأقام فيها سنة كاملة، واستصحب سويروس تلميذه بطرس أسقف أبامية للتعاون في الإقناع والتبشير، وبينما كان سويروس وبطرس يسعيان لاجتذاب الشخصيات الإكليريكية العالية، كان مار زعورا يُطلق لنفسه عنان هواه في الأوساط الشعبية، وغلا وجاوز الحد فعمد أبناء بعض العائلات المعروفة في يوم عيد الفصح في الثالث والعشرين من آذار السنة ٥٣٦،[٦٤] وطبع الله على بصيرة مونوفيسي آخر إسحاق الفارسي فتجرأ وثقب عيني الإمبراطور في إحدى صوره الزيتية؛ لأنه «لم يرضَ عن فتوره»![٦٥]

البابا أغابيتوس

وكان ثيوداتوس ملك القوط قد طلب إلى أغابيتوس بابا رومة أن يفاوض يوستنيانوس في سياسته ومطامعه في إيطالية، ووصل أغابيتوس إلى القسطنطينية في الثاني من شباط سنة ٥٣٦ فاستقبل استقبالًا حافلًا حارًّا، وآثر البابا الدين على السياسة، وكان رجلًا تقيًّا جليلًا، فعلم بما في الزوايا من خبايا، فدعا أساقفة القسطنطينية ومقدمي الكهنة فيها إلى مجمع محلي برئاسته، وقطع فيه أنثيموس ومَن شاركه رأيه، ثم انتخب الإكليروس والإمبراطور والشعب ميناس بطريركًا على القسطنطينية،[٦٦] وفرَّ أنثيموس ولجأ إلى القصر واختبأ فيه اثنتي عشرة سنة،[٦٧] وأصغى أغابيتوس إلى شكاوى رهبان العاصمة ورهبان سورية وفلسطين من سياسة سويروس واعتداءاته، فاقترح عقد مجمع ينظر في هذه

[٦٣] Zacharie de Mytilène, Hist. Ecc., IX, 15; Evagrius, Hist. Ecc., IV, II; Michel le Syrien, II, 208–220.

[٦٤] Diehl, Ch., Théodora, Impératrice de Byzance, 262–266.

[٦٥] Ibid., 266.

[٦٦] Liber Pontificalis, I, 287–288.

[٦٧] Kirsch, Agapet I, Dic. Hist. Géog. Ecc., I, Col. 887–890.

الشكاوى وفي قضية أنثيموس وغيرها، ووافق الإمبراطور، ولكن أغابيتوس انصرف إلى جوار ربه في الثاني والعشرين من نيسان.

قطع سويروس الأنطاكي

والتأم مجمع في القسطنطينية في الثاني من أيار سنة ٥٣٦ برئاسة ميناس البطريرك الجديد، وعضوية أساقفة الكرسي القسطنطيني، وأساقفة الوفد الروماني، ووكيلَيْ بطريرك أنطاكية وبطريرك أوروشليم. ودعا المجمع أنثيموس للدفاع عن نفسه أولًا وثانيًا وثالثًا، فلم يحضر، فجُرِّد من صلاحياته الروحية بما في ذلك صلاحيات الكهنوت وخُلع وقُطع، وبعد الاتصال بالإمبراطور قُطع سويروس الأنطاكي وأُبطِلت مصنفاته، وقُطع أيضًا بطرس أسقف أبامية السابق والراهب مار زعورا،[٦٨] وفرَّ سويروس والتجأ إلى مصر ثانيةً، فلم يرضَ اليوليانيون عنه، فاختبأ في إحدى القرى، وما فتئ أن لفظ أنفاسه في السنة ٥٣٨.[٦٩] وأصر مار زعورا وإخوانه الرهبان المونوفيسيون على البقاء في القسطنطينية، فطُرِدوا منها طردًا.[٧٠]

إفراميوس بطريرك أنطاكية (٥٢٧–٥٤٥)

وخلف إفراسيوس في الكرسي الأنطاكي إفراميوس الآمدي، وكان إفراميوس قومس الشرق فاضطر أن يتدخل في شئون أنطاكية السياسية في السنة ٥٢٥ ليقضي على مشادة عنيفة كانت قد نشبت بين الزرق والخضر، فأُعجِب الأنطاكيون باتزانه وعدله وجمال خلقه، وقام في سلفكية الساحلية (السويدية) أثر يشيد بفضل هذا القومس العادل،[٧١] ثم دُهمت أنطاكية بزلزال السنة ٥٢٦ وتهدمت بيوتها وأبنيتها العمومية وكنائسها، وتوفي أسقفها إفراسيوس تحت الأنقاض، فجاءها القومس إفراميوس مرة ثانية يُعينها على النهوض

---

٦٨ Mansi, VIII, Col. 873–1176; Hefelé-Leclercq. op. cii., I, 1145 ff.; Batiffol, P., Justinien et le Siège Apost., 228–231.

٦٩ Zacharie de Mytelène, Hist. Ecc., IX, 15; Michel le Syrien, II, 221–223.

٧٠ Diehl, Ch., Theodora, 261–263.

٧١ Stein, E., Bas Empire, II, 241, n. 1.

من كبوتها، فتعلق الناس به ورأوا في شخصه خلفًا صالحًا للرسولين، فسيم أسقفًا على أنطاكية في نيسان أو أيار السنة ٥٢٧،[٧٢] وكان إفراميوس أرثوذكسيًّا صادق العهد وفيًّا ملمًّا بالعلوم الإلهية مؤلفًا كاتبًا،[٧٣] فدافع عن الأرثوذكسية دفاعًا شديدًا.

وكان يوستنيانوس لا يزال ينفق في سبيل إنهاض أنطاكية من الكبوة التي حلت بها بعد زلزالَي السنة ٥٢٦ و٥٢٨، فلما قارب العمل النهاية اقترح القديس سمعان العمودي «الأصغر» على الإمبراطور أن يطلق على أنطاكية الاسم «مدينة الله» تعوذًا، فوافق يوستنيانوس على هذا الاقتراح، ولا تزال أنطاكية مدينة الله حتى يومنا هذا. وقام إفراميوس في السنة ٥٣١ ينفذ إرادة إمبراطورية يوستينية فطالَبَ بنفي مَن قال بالطبيعة الواحدة في أنطاكية، فقاومه العوام في ذلك وتدخلت السلطة فجرت حوادث مؤلمة،[٧٤] وما إن صدر قرار المجمع القسطنطيني بقطع سويروس وحرق مصنفاته في السنة ٥٣٦، حتى هبَّ إفراميوس ينفذ بالشدة التي عرف بها، فأعاد اضطهاد المونوفيسيين وتشريدهم، وجاب البلاد يفتش عن زعمائهم، ووصل إلى حدود فارس جادًّا في طلب ديونيسيوس أسقف قسطنطينة، فقيل له إنه عبر الحدود والتجأ إلى المرزبان في نصيبين، فاتصل إفراميوس بالمرزبان وتسلَّم ديونيسيوس وحبسه في دير على باب أنطاكية وشدَّد عليه، «فصبر هذا على مكروه عظيم» حتى انقضت أنفاسه.[٧٥] وجاء في بعض المراجع أن إفراميوس أمر بإحراق بعض مَن أصرَّ على غيِّه ومضى في طغيانه من هؤلاء المونوفيسيين.[٧٦]

ويقول ميخائيل المؤرخ السرياني إن إفراميوس سافر إلى الرها محاولًا إقناع أهلها بتقبل قرارات المجمع الخلقيدوني، وإنه توجَّهَ إلى بلاد فارس وسنجار للغاية نفسها فاجتذب كثيرين، وإنه قصد الحارث بن جبلة وحدثه في الموضوع نفسه ولكنه عجز عن إقناعه.[٧٧]

---

[٧٢] Evagrius, Hist. Ecc., IV, 6; Zacharie Rhet. Hist. Ecc., VIII, 4, 6.

[٧٣] Photios, Biblioth, 228, 229; Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirchlichen Literatur, V, 17 f.

[٧٤] Stein, E., Bas Empire, II, 377.

[٧٥] Jean d’Ephèse, Commentarium, 112; Maspero, J., Hist. des Patr. d’Alex., 122–123.

[٧٦] Zacharie Rhet., Hist. Ecc., X, 2.

[٧٧] Michel le Syrien, II, 274, 279, 283, 288, 310.

ونجد هذا البطريرك في مطلع السنة ٥٤٠ متعاونًا مع زميله بطرس الأوروشليمي وبيلاجيوس وكيل الحبر الروماني جالسًا في غزة فلسطين، ناظرًا في قضية بولس بطريرك الإسكندرية.[٧٨]

إسطفانوس بار صوديلي والأوريجينية الجديدة

وقام في الرها في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الراهب السرياني إسطفانوس بن صوديلي، يدعو إلى أوريجينية جديدة تستند إلى تعاليم أوريجينس الإسكندري وتقول بشيء من وحدة الوجود، فنبذه الرهاويون وطردوه، فلجأ إلى فلسطين إلى محابس الرهبان إلى رهبان من أهل مذهبه، وكان القديس سابا لا يزال في قيد الحياة فنهى الرهبان عن هذه الأقوال، وكاشف إسطفانوس بار صوديلي بالمقاومة، ورحل إلى القسطنطينية يطلب المعونة للقضاء على الأوريجينية الجديدة،[٧٩] ولكنه ما كاد يعود إلى فلسطين حتى انتقل إلى دار القرار (٥٣٢)، فضاعف الأوريجينيون جهودهم وبثوا دعايتهم في دير مار سابا نفسه، فقاومهم الساباويون وطردوا أربعين راهبًا من رهبانهم اتهموا بالأوريجينية (٥٣٩)، وشد أزر الأوريجينيين اثنان منهم كانا قد نالا حظوة في عيني يوستنيانوس (٥٣٦)، فأمر بترقيتهما إلى رتبة الأسقفية، وتدخل هذان الأسقفان ثيودوروس إسكيذاس أسقف قيصرية قبدوقية، ودوميتيانوس أسقف أنقيرة في الأمر، فقضت الإرادة السنية بوجوب إبعاد أشد الرهبان عداوة للأوريجينية عن دير القديس سابا، فخرج من هذا الدير ستة من كبار الرهبان عُرِفوا بعداوتهم لبار صوديلي وفلسفته.

والتجأ الستة الكبار إلى إفراميوس بطريرك أنطاكية فقبلهم، وعقد مجمعًا أنطاكيًّا وشجب الأوريجينية، فضغط الأوريجينيون في فلسطين (٥٤١) على بطرس بطريرك أوروشليم، موجبين حذف اسم إفراميوس الأنطاكي من الذبتيخة، فأرسل بطرس وفدًا إلى القسطنطينية يبين واقع الحال ويرجو اتخاذ موقف واضح من أورويجينس ومؤلفاته، فكان من ميناس بطريرك القسطنطينية أن عقد مجمعًا محليًّا بموافقة الإمبراطور حكم فيه على أوريجينس وتعاليمه.[٨٠]

---

[٧٨] Cyrille de Scythopolis, Vit. Sabae, 70, 85; Maspero, J., Hist. Patr. d’Alex; 145–151.

[٧٩] Diekamp, Die Origenistischen Streitigkeiten, 32–36; Bury, J. B., Lat. Rom. Emp. II, 381 f.

[٨٠] Diekamp, op. cit., 39–42, 46–50; Schwartz, Ed., Acta Concil., III, 189–214.

هيرارخية مونوفيسية

وتسابق سويروس الأنطاكي ويوحنا التلاوي إلى حياض المنية، فتوفي الأول في الثامن من شباط سنة ٥٣٨، وسبقه الثاني بيومين لا ثالث لهما،[٨١] وكان أنثيموس الطرابزوني لا يزال مختبئًا في حمى ثيودورة، وكذلك ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية السابق، فإنه كان مبعدًا في تراقية لا يستطيع القيام بأي عمل روحي، فلاحت بارقة أمل للإمبراطور وكبار رجال الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق والغرب معًا أن تتقطع حبال السلطة المونوفيسية، فيجيء يوم يصبح فيه المونوفيسيون بدون رؤساء روحيين يدبرون أمورهم.

ولكن ثيودورة ظلَّت تداهن وتصانع فتمكنت من نقل ثيودوسيوس الإسكندري من منفاه من ذركوسة تراقية إلى القسطنطينية، وتمكن هو من استصحاب يمينه الأسقف يوحنا (الراهب الفلسطيني)، وما إن تم لثيودورة هذا حتى دفعت بثيودوسيوس ويوحنا إلى الاهتمام برعاية المونوفيسيين في آسية، وسيامة الكهنة ورؤساء الكهنة لخدمتهم وتدبير أمورهم، والواقع أن يوحنا الفلسطيني هذا عبر البوسفور مرارًا مستترًا بداعي المرض، فجاب ولاية آسية بأسرها متفقدًا شئون المونوفيسيين ناظرًا في احتياجاتهم.[٨٢]

وتفيد المراجع الأولى أن الحارث بن جبلة الأمير الغساني اتصل بثيودورة سنة ٥٤٣ ورجاها أن تعيِّن أسقفًا يرعى شعبه، فأحالت الإمبراطورة طلبه على ثيودوسيوس الإسكندري، فسام هذا ثيودوروس رئيسًا على أساقفة بصرى، ويعقوب البرادعي أسقفًا على الرها ومتروبوليتًا مسكونيًّا.[٨٣]

ويرى ثيودور نولدكه مؤرخ الغساسنة أنه ليس ثمة من أساس تاريخي للعلاقة الأولى بين الحارث الغساني وبين يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة السريانية القائلة بالطبيعة الواحدة، التي تُدعَى أحيانًا كنيسة اليعاقبة؛ ومما يذهب إليه نولدكه أن بعض رجال الاختصاص صبغوا هذه العلاقة بمسحة من الإعجاز[٨٤] لا تتفق والواقع التاريخي،

---

[٨١] Michel le Syrien, II, 224, 243; Maspero, J., op. cit., 123.

[٨٢] Dnchesne, L., Protégés de Théodora, op. cit., 62 f; Stein, E., Bas Empire, II, 624.

[٨٣] Bréhier, L., Pol. Relig. de Justinien, op. cit., IV, 456.

[٨٤] Land, Anecd., II, 361–362; Kleyn, Jacobus Baradaeus, 41–42.

ويؤكد هذا العلامة أن الحارث بن جبلة لم يرحل إلى القسطنطينية في هذه الحقبة، وأن ما جاء من هذا القبيل في كلام المتقدمين والمتأخرين هو خطأ فاضح.[٨٥]

وُلِد يعقوب ابن القس ثيوفيلوس بن معنو في تل موزل، وترهب في دير فسيلتا القريب من مسقط رأسه، وأجاد السريانية واليونانية، وفي السنة ٥٢٨ رحل إلى القسطنطينية مع مَن رحل إليها من الرهبان المونوفيسيين، وهو في نظر غبطة بطريرك السريان «أشهر الأحبار ورعًا وطهرًا، وأكبر المجاهدين الرسوليين في نصرة المعتقد القويم ونخبة النساك الصوَّامين القوَّامين ذوي الصلاح والدين المتين».[٨٦]

وما كاد يعقوب البرادعي يصير أسقفًا على يد ثيودوسيوس، حتى طفق يطوف متنكرًا مرشدًا مشجعًا مؤسسًا، ومما يُروَى عنه أنه سام في رحلاته العديدة سبعة وعشرين أسقفًا وبضعة آلاف شماس وقس، وأنه زار مصر ورسم فيها اثني عشر أسقفًا، وشملت رحلاته آسية الصغرى وسورية وما بين النهرين وفارس ومصر وقبرص ورودوس وغيرهما من الجزر، وأعطى يعقوب المنوفيسيين بعمله هذا ملاكًا إكليريكيًّا خصوصيًّا، ولكنه مزَّق كنيسة أنطاكية إذ جعل من الأسقفية الواحدة أسقفيتين، ومن الكنيسة الواحدة كنيستين، وأقام على هذه الحال خمسًا وثلاثين سنة فاعتُبِر بحق أحد مؤسسي الكنيسة السريانية، ونُسِبت هذه إليه فدُعِيت يعقوبية وعُرِف أبناؤها باليعاقبة،[٨٧] وهذه أسماء خلفاء سويروس الأنطاكي حتى الفتح الإسلامي:

سويروس	٥١٢–٥٣٨
سرجيوس	٥٣٨–٥٦٢
بولس	٥٦٤–٥٨١
بطرس	٥٨١–٥٩١
يوليانوس	٥٩١–٥٩٤
أثناسيوس	٥٩٥–٦٣١
يوحنا	٦٣١–٦٤٩

[٨٥] أمراء غسان للدكتور ثيودور نولدكه، تعريب الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق، ٢١-٢٢هـ، ٥٧.

[٨٦] البطريرك أغناطيوس برصوم، المؤلف نفسه، ص٢٦٠-٢٦١.

[٨٧] Nicephorus Callistus, Hist. Ecc., XVIII, 52; Stein, E., Bas Empire, II, 626, n. 4.

الفصول الثلاثة (٥٤٤-٥٤٥)

واتفق أن كان في البلاط ثيودروس أسكيذاس أسقف قيصرية قبدوقية ودوميتيانوس أسقف أنقيرة، وهما الراهبان الفلسطينيان اللذان رحلا إلى القسطنطينية سنة ٥٣٦ ليدافعا عمَّن قال بالأوريجينية الجديدة من رهبان فلسطين، فنالا الحظوة لدى الإمبراطور ورقيَا إلى رتبة الأسقفية، وبقيَا بين العاصمة وآسية، وكان ثيودوروس لا يزال يحقد على بيلاجيوس ممثل رومة، وجيلاسينوس رئيس أخوية القديس سابا؛ لما أبدياه من النشاط في ملاحقة الرهبان الذين قالوا بالأوريجينية الجديدة في فلسطين، فرأى هذا الأسقف الأوريجيني «الباطني» أن يحقر سميه ثيودوروس المبسوستي مقابل تحقير أوريجنس لتعلق جيلاسينوس وأتباعه به وتعظيمهم له، ولا يخفى أن ثيودوروس المبسوستي كان قد انتقد أوريجينس وتفاسيره الرمزية.

واستدعت رومة بيلاجيوس عام ٥٤٣ فأضحى الأسقف ثيودوروس أشد المستشارين أثرًا في نفس الإمبراطور، وكانت ثيودورة لا تزال تداور زوجها وتدامله لتصلح بينه وبين جماعتها المونوفيسيين، فشجعت ثيودوروس على موقفه من سميه المبسوستي ونصحت إليه أن يطلع زوجها على رأيه، فانتهز ثيودوروس ظرفًا ملائمًا في إحدى سهراته في مكتبة القصر، ولفت نظر يوستنيانوس إلى إمكانية كسب المونوفيسيين بشجب مصنفات النساطرة الذين تبرَّءوا في المجمع الخقيدوني،[٨٨] فأصغى يوستنيانوس إليه، ثم شاور نفسه فصوَّب رأي ثيودوروس، وأصدر إرادة سنية جديدة حرَّم فيها تعاليم ثيودوروس الموبسوستي وثيودوريطس القورشي وإيبا الرهاوي.

وجاءت هذه الإرادة الإمبراطورية في ثلاثة فصول، ومن هنا القول الفصول الثلاثة، وقد ضاع نص هذه الإرادة ولم يبقَ منه سوى بعض شذرات منثورة هنا وهناك، ويعود الفضل في جمع هذه الشذرات إلى العلامة شوراتز الذي عانى مشقةً في مضاهاة النصوص الباقية وضمها بعضها إلى بعض ليؤلِّف منها مجموعًا موحدًا متسلسلًا متواصلًا.[٨٩]

ولا يخفى أن ثيودوروس الموبسوستي جعل من اتحاد الكلمة بالناسوت في المسيح مجرد سكنى وتلطف ومسرة eudoxia، لا اتحادًا في الجوهر ousia، فأصبحت السيدة في

[٨٨] Cum Theodorae Augustae favore (Liberatus, Breviarum XXIV); Duchesne, L., Eglise au VI Siècle, 174–175; Batiffol, P. Justinien et le Siège Apostol., 225 ff.

[٨٩] Schwartz, Ed., Silzungs. der Bayer. Akad., Philos. Hist. Abt. 1940, fasc. II, 73–81.

نظره أم إنسان anthropotoxos وأم إله theotoxos! وأهم ما أُخِذ على ثيودوريطس القورشي اعتراضه على البند الثاني عشر من بنود كيرلس الإسكندري، الذي نصَّ على أن «الله الكلمة تألَّمَ وصُلِب ومات في الجسد». أما إيبا الرهاوي فإنه نقل تعاليم ثيودوروس إلى السريانية، وفنَّد أعمال مجمع أفسس في رسالة وجَّهَها إلى ماري أسقف أردشير.[٩٠]

وطلب يوستنيانوس إلى جميع الأساقفة في الشرق والغرب معًا أن يوافقوه على شجب هذه المصنفات والأقوال، فتردد إفراميوس بطريرك أنطاكية مدةً ثم وافَقَ قبيل وفاته،[٩١] ولم يرضَ أساقفة الغرب عن هذه الفصول، وجاراهم في ذلك البابا فيجيليوس، وكتب أسقف قرطاجة إلى الإمبراطور أنه لا يجوز إيقاع الحرم بشخص بعد موته، واستخف المونوفيسيون بعمل الإمبراطور؛ لأن نص الإرادة بتحريم الفصول الثلاثة حوى أيضًا تحريمًا مماثلًا لَمن فكَّر في إبطال مقررات المجمع الخلقيدوني.[٩٢]

فاستدعى يوستنيانوس البابا إلى القسطنطينية، فحضر إليها وانتهى بالنزول عند إرادة الإمبراطور، فأنشأ رسالته المعروفة بالجوديكاتوم Jvdicatvm، وفيها شجب الفصول الثلاثة (٥٤٨)، ولكن أساقفته انتقضوا عليه وعينوا له وقتًا للندامة، فلبث فيجيليوس في القسطنطينية ورجع عن قوله في الجوديكاتوم، ثم أصدر يوستنيانوس أمرًا ثانيًا (٥٥١) بشجب الفصول الثلاثة وطلب الموافقة عليه، فأبى فيجيليوس ودخل كنيسة القديس بطرس في قصر الهورميزدا واحتمى بها مستمسكًا بعمود المائدة، فسحبه الجند بالقوة فانسحب العمود معه وسقطت المائدة.[٩٣]

دومنينوس البطريرك (٥٤٥–٥٥٩)

وتوفي إفراميوس في السنة ٥٤٥ فاهتم يوستنيانوس للأمر اهتمامًا بالغًا، وأخذ يبحث بنفسه عن خلف صالح للرسولين في أنطاكية، فتقدم عدد من الكهنة مرشحين أنفسهم لهذا المنصب الكبير، واتفق أنْ أَمَّ العاصمةَ آنئذٍ دومنينوس Domninos رئيس إحدى

---

[٩٠] Brehier, L., Pol. Relig. de Justinien, op. cit., IV, 461–462.

[٩١] Facundi Hermianensis, l. c. IV, 4; Delehaye, Les Saint Stylites, 252 f.

[٩٢] Stein, E., Bas Empire, II, 635–637.

[٩٣] Ibid. 638–654.

المؤسسات الخيرية في ليخنيذس Lychnidos في تراقية، وما إن تعرف الإمبراطور إلى شخص هذا الرجل الصالح الوقور، حتى أوعز بانتخابه بطريركًا على أنطاكية العظمى. وهو ذومنينوس لاذومنوس بدليل الكتابة اليونانية التي أُنشِئت في الجوَّانية لذكر هذا الراعي الصالح في السنة ٥٥٤،[٩٤] ولنا في كره السريان له واعتباره «أكولًا نهمًا لا يعمل شيئًا سوى ركوب الخيل والاضطهاد»، دليلٌ على اندفاعه الشديد في سبيل المحافظة على الإيمان القويم.[٩٥]

المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣)

ورأى يوستنيانوس أن يضع حدًّا للنزاع حول الفصول الثلاثة، فشاور في الدعوة إلى مجمع مسكوني خامس ينظر في هذا النزاع ويبتُّ فيه، وتوفي في أثناء المشاورة ميناس بطريرك القسطنطينية، فخلفه أفتيشيوس الراهب البونطي، وأعلن أفتيشيوس تسلمه عكاز الرعاية إلى البابا فيجيليوس المقيم في القسطنطينية (٦ كانون الثاني ٥٥٣)، وأرفق رسالته السلامية هذه ببيان بالإيمان موقَّع منه ومن أبوليناريوس بطريرك الإسكندرية، وذومنينوس بطريرك أنطاكية، وإيليا رئيس أساقفة تسالونيكية،[٩٦] ولمس فيجيليوس أرثوذكسية زملائه لمس اليد، فوافق على الدعوة إلى مجمع مسكوني ينعقد برئاسته لينظر في أمر الفصول الثلاثة.[٩٧]

وأحب بابا رومة أن يجتمع المجمع في صقلية أو إيطالية ليضمن أكثرية غربية أفريقية، ولكن يوستنيانوس أوجب المساواة بين البطريركيات الخمس ورومة القديمة ورومة الجديدة والإسكندرية وأنطاكية وأوروشليم، وذلك بإرسال عدد مماثل من الأساقفة من كلٍّ من هذه البطريركيات،[٩٨] واحتج البابا ولكن الإمبراطور لم يعبأ به.

---

[٩٤] Jalabert et Mouterde, Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie, II, 618, 620.

[٩٥] Michel le Syrien, II, 267.

[٩٦] Eustratios, Vie d'Eutychios, Pat. Gr., 86, 2296–2304; Monsi, IX, Col, 63, XI, Col. 186.

[٩٧] Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, III, I, 65 ff.

[٩٨] Brehier, L., Concile de Const., op. cit., IV, 471–472; Duchesne, L., Eglise au VI Siècle, 210.

واجتمع المجمع في القصر البطريركي في جوار كنيسة الحكمة الإلهية في الخامس من أيار سنة ٥٥٣ برئاسة أفتيشيوس البطريرك القسطنطيني، وعضوية كلٍّ من أبوليناريوس بطريرك الإسكندرية ودومنينوس بطريرك أنطاكية ومائة وخمسة وأربعين أسقفًا.

وتألَّفَ الوفد الأنطاكي من: دومنينوس البطريرك، ودوميتيوس قنسرين، وديونيسيوس سلفكية الساحلية، وتوما أبامية، وثيودوتوس سلفكية أسورية، وبولس أدراسوس، وبطرس دوميتيوبوليس، وبطرس طرسوس، وكبريانوس كوريكوس، وقوزمة مالوس، وإيثيريوس عين زربة، وباسكاسيوس إيجة، ونيقيطاس أبيفانية قيليقية، وثيودوروس منبج، ويوحنا قيصرية الجديدة التي على الفرات، ويوليانوس بلقيس Zeugma، وأمازون الرها، ويوليانوس سروج Batnae، وتوما قرقيسية، وتوما قسطنطينة، ونونوس دوسر، وسرجيوس هيميرية، وكيرياكوس آمد، وثيودوروس إنجل Ingel، ويوحنا بصرى، وذوريمانيوس درعة، وأفسابيوس صور، وزوسيموس طرطوس، وأسينكراتيوس أرواد، ولاونديوس عرقة، وإسطفانوس البترون، وثيودوسيوس جبيل، وجاورجيوس عكة، وأنسطاسيوس رخلة Rachlé، وأفستاثيوس دمشق، ويوحنا برقش (الغوطة)، وثيودوروس جيرود Gorada، وإفلوغيوس مهين Danaba، وثيودوروس اللاذقية، وإسطفانوس اللاذقية، وإسطفانوس بانياس الساحلية، وورومانوس جبلة، وإبراهيم الرصافة، وإسطفانوس دارا.[٩٩]

وتُلِيت رسالة يوستنيانوس وفيها استمزاج الأعضاء في أمر الفصول الثلاثة، وتلميح إلى أن معظم الأساقفة سبق لهم أن شجبوا تعاليم الأنطاكيين الثلاثة، ثم تقرر أن ينتقل وفد من الأساقفة إلى مقر البابا فيجيليوس ليدعوه باسم المجمع إلى الاشتراك في أعمال المجمع، فقام وفد مؤلف من البطاركة الثلاثة وعدد كبير من الأساقفة واتصلوا بفيجيليوس وأبلغوه قرار المجمع، فشكا البابا من مرض أَلَمَّ به واستمهل المجمع بعض الوقت قبل القبول أو الرفض، ثم أعاد الوفد الكرة في اليوم التالي فأجاب فيجيليوس أنه لا يشترك في أعمال المجمع ما لم يشترك معه أساقفة إيطاليون آخرون،[١٠٠] فترأس المجمع بطريرك القسطنطينية، وأقر جميع أعمال المجامع المسكونية السابقة، وفي الثاني عشر من أيار أو الثالث عشر دقق المجمع قضية الفصول الثلاثة.[١٠١]

[٩٩] Devresse, R., Patriarcat, 140-141.

[١٠٠] Mansi, IX, Col. 196.

[١٠١] Duchesne, L., Eglise au VI Siècle, 212.

وفي الرابع عشر من أيار قدم فيجيليوس بابا رومة إلى الإمبراطور مذكرة Constitutum[١٠٢] استعرض فيها موقفه من الفصول الثلاثة، منذ أن أُثِيرت قضيتها حتى اليوم الذي حرر فيه مذكرته، وأبان فيجيليوس في هذه المذكرة أشياء عديدة لام فيها ثيودوروس الموبسوستي، ولكنه امتنع عن شجب ثيودوروس بعد وفاته، ولا سيما وأنه توفي في حضن الكنيسة الجامعة، وامتنع أيضًا عن نبذ ثيودوريطس وإيبا؛ لأن المجمع المسكوني الرابع استمع إليهما وبرَّأهما من النسطرة،[١٠٣] ورفض يوستنيانوس تناول هذه الوثيقة الباباوية مدعيًا أنها عديمة الجدوى، مؤكدًا أن البابا سبق له أن نبذ الفصول الثلاثة، وأنه إذا دافع بوثيقته الجديدة عما نبذ من قبلُ يكون قد ناقض نفسه وأضعف حجته.[١٠٤]

وفي السابع عشر والتاسع عشر من أيار عاد المجمع يدقق قضية الفصول الثلاثة، وفي الثاني من حزيران في الجلسة الثامنة الأخيرة، أجمع الأعضاء على نبذ جميع مصنفات ثيودوروس الموبسوستي، وعلى استنكار موقف ثيودوريطس من مجمع أفسس وبنود كيرلس، وأبانوا بوضوحٍ كفرَ إيبا وإلحاده في الرسالة التي وجهها إلى ماري، واعتبر يوستنيانوس قرارات هذا المجمع مُلزِمة، وأكره الأساقفة على قبولها، ونفى حاشية فيجيليوس إلى صعيد مصر، وترأف بالبابا نفسه؛ لأنه كان يشكو من داء الحصى، فأبقاه في القسطنطينية ولم يبعده عنها، كما جاء في بعض المراجع،[١٠٥] وبعد ستة أشهر وافق فيجيليوس على قرار المجمع وحرر بذلك إلى زميله القسطنطيني، وأصدر مذكرة ثانية Constititum تنقض ما جاء في الأولى (شباط ٥٥٤)، وبقي فيجيليوس في القسطنطينية سنة أخرى ولم يبرحها قبل أن نال من الإمبراطور موافقته على نظام جديد لإيطالية، وأقلع إلى رومة ولكنه توفي في سرقوصة قبل أن يصل.

---

[١٠٢] Constitutum Vigilii Papae de III capitulis, Mansi, IX, Col. 61–106.

[١٠٣] Hefelé-Leclecq, Hist. des Conciles, III, I, 93–101; Tixeront, Hist. des Dogmes, III, 143–145.

[١٠٤] Batiffol, P., Justinien et le Siège Apostolique, 253–254.

[١٠٥] Liber Pontif. I, 299.

ضلال يوستنيانوس

وتوفيت ثيودورة بداء السرطان في السنة ٥٤٨، فانكشف أمر أنثيموس البطريرك المونوفيسي، وتبين أنه عند خلعه التجأ إلى الإمبراطورة فخبأته في قصرها، وتبين أيضًا أنها أوصت بإكرامه وإكرام غيره من الإكليروس المونوفيسي الذين كانوا قد التجئوا إليها وأقاموا في ظلها، وما إن أُدرجت وسُوِّي عليها التراب، حتى استدعى يوستنيانوس إليه كلًا من أنثيموس وثيودوسيوس البطريركين المونوفيسيين المبعدين، ظانًّا أن وفاة حاميتهما ستجعلهما أقل تصلفًا من ذي قبلُ، وأكثر استعدادًا للتفاهم مع الكنيسة الأم الجامعة، وتحدث الإمبراطور إلى البطريركين في هذه الأمور، وطلب إلى يوحنا الأفسسي أن يقوم إلى سورية ويجيء بعدد كبير من رهبان الإكليروس المونوفيسي للبحث في التفاهم والوئام، وامتنع يوحنا ولكن منوفيسيًّا آخر دفع بأكثر من أربعمائة راهب مونوفيسي سوري للقيام إلى العاصمة، وظل هؤلاء زهاء سنة كاملة من الزمن يدخلون العاصمة ويجادلون ثم يخرجون بدون جدوى، وفي السنة ٥٥٧ وصل إلى العاصمة يعقوب البرادعي ووراءه عدد من الرهبان السوريين،[١٠٦] ولكن شيئًا من التفاهم لم يتم!

وتوفي ثيودوروس سكيذاس أسقف قيصرية في السنة ٥٥٨، فتقرَّبَ أسقف يافة من يوستنيانوس، وأصبح هو صاحب الرأي في المسائل اللاهوتية عند الإمبراطور، ويرى بعض المدققين أن هذا الأسقف الفلسطيني كان مثل سلفه ثيودوروس أسكيذاس أوريجينيًّا في الباطن، وأنه اقترح على الإمبراطور إمكانية توحيد الصفوف بالتقرُّب من مونوفيسيين غير سويريين، فذكر اليوليانيين وشرح موقفهم من السويريين وأشار بإمكانية التفاهم معهم.[١٠٧]

وهكذا فإننا نرى يوستنيانوس يصدر في السنة ٥٦٢ إرادة إمبراطورية توجب القول بالطبيعتين، وتنذر المخالفين بأشد العقوبات، فيُطمِئن بها الإرثوذكسيين، ثم يعمل بنصيحة أسقف يافة، فيعمم في السنة ٥٦٤ البراءة الأفثرتوذوقية Aphthartodocetisme، ويؤكد مع اليوليانيين المونوفيسيين أن جسد المسيح لا يتعب ولا يتألم ولا يفسد! ويعتقد

[١٠٦] John of Ephesus, Lives of Eastsr Saints, ch. 47 f. (Patr. Orient. XVIII, 680).

[١٠٧] Stein, E., Bas Empire, II, 685–686.

فيما يظهر أنه بعمله هذا إنما يفسر الخريستولوجية الخلقيدونية على طريقة كيرلس الإسكندري.[١٠٨]

واضطرب أساقفة الكنيسة الجامعة وانزعجوا، فكتب أسقف ترير Trier من وادي الرين يؤنب الإمبراطور لسقوطه في أثناء الشيخوخة مع نسطوريوس وأوطيخة اللذين أنكرَا على السيد ألوهيته،[١٠٩] ولا نعلم موقف البابا يوحنا الثالث، ولكننا نعلم العلم اليقين أن أفتيشيوس بطريرك القسطنطينية لمس ضلال يوستنيانوس لمس اليد، وامتنع عن الموافقة على مضمون البراءة الإمبراطورية، فأمر الإمبراطور بحبسه وإبعاده، وأوعز بانتقاء وكيل البطريرك الأنطاكي المحامي يوحنا السرميني Sirimis خلفًا له، وكان هذا عالمًا فاضلًا وقانونيًّا قديرًا، وُلِد في سرمين في سورية الشمالية، وتلقَّى علومه في أنطاكية، ثم عُيِّن وكيلًا عن الكرسي الأنطاكي لدى البلاط الإمبراطوري، وقبل يوحنا السرميني الدعوة ولكنه اشترط في الموافقة على البراءة الأفثرتوذوقية موافقة البطاركة الآخرين، ولا سيما بطريرك أنطاكية موكله الكبير.[١١٠]

أنسطاسيوس بطريرك أنطاكية (٥٥٩–٥٧٠)

وكان ذومنينوس قد توفي في السنة ٥٥٩، فتولى السدة البطريركية بعده أنسطاسيوس الراهب السيناوي الذي كان وكيل البطريرك الإسكندري في أنطاكية، وكان أنسطاسيوس قد اشتهر بالورع والتقوى وصحة الإيمان والفضل، وكان قد أتقن أيضًا العلوم الدينية فبلغ منها موضعًا جليلًا، وأصبح عالم عصره يُرجَع إليه في المشكلات،[١١١] فلما صدرت الإرادة الأفثرتوذوقية سنة ٥٦٤، وطلبت الحكومة إلى الآباء تأييدها، اتجهت الأنظار إلى أنطاكية للفصل بين الحق والباطل، فدعا أنسطاسيوس في السنة ٥٦٥ إلى مجمع محلي في أنطاكية، فلبَّى الدعوة مائة وخمسة وتسعون أسقفًا، وأجمعوا على رفض الأفثرتوذوقية وعلى الكتابة بذلك إلى الإمبراطور، واستعد أنسطاسيوس للنفي وأعَدَّ عظةَ الوداع، ولكن

---

١٠٨ Evagrius, Hist. Ecc., IV, 39; Brehier, L., Concile de Const., op. cit., IV, 480–481.

١٠٩ Epist. Austras. 7, Monum. Germ. Epp. III, 118 f.

١١٠ Eustrat., Vit. Eutichii, 36–40, 56, 75–77.

١١١ Stein, E., Bas Empire, II, 689.

المنية عاجلت يوستنيانوس (٥٦٥) فظل أنسطاسيوس يدير دفة الأمور في كنيسة أنطاكية حتى السنة ٥٧٠ كما سيجيء بنا.[١١٢]

يوستينوس الثاني (٥٦٥–٥٧٨)

ولم يخلف يوستنيانوس عقبًا، ولم يشرك أحدًا معه في الأرجوان، ولكنه كان يثق بابن أخته يوستينوس ويستشيره في أمور الدولة، ولمس أعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستينوس، فعوَّلوا على انتخابه فور وفاة الإمبراطور الشيخ، وأدرك يوستنيانوس الثالثة والثمانين ومرض مرضه الأخير، ولم يَفُهْ بكلمة واحدة تنبئ عمَّن يريده خلفًا له في الحكم، وكاد يلفظ أنفاسه في ليلة من ليالي الخريف، فجلس يوستينوس وزوجته صوفية في إحدى نوافذ قصرهما التي تطل على البوسفور وباتا ينتظران، وعند الفجر أبلغهما الرسول وفاة الإمبراطور ورجاء مجلس الشيوخ أن يتوليَا دفة الأحكام، وقضت التقاليد بأن يرفض يوستينوس الرجاء ففعل، ثم قبل وذهب توًّا إلى القصر (١٤ تشرين الثاني، ٥٦٥)، وخرج منه مرتديًا الأرجوان، متزينًا بالجواهر التي اقتنصها بليساريوس من القوط، فرفعه الجند على الترس معلنين بذلك موافقتهم، ثم أيدته الكنيسة فباركه بطريرك العاصمة ووضع التاج على رأسه.[١١٣]

وكان يوستينوس نشيطًا مجتهدًا شجاعًا جريئًا، فامتنع عن أن يؤدي المنح السنوية للبرابرة، «وكانت قد بلغت ثلاثمائة ألف ليرة ذهبًا»، وأعاد العناية بالجيش واهتم بالمالية، وحاول محاولة صادقة في إزالة الهم والعناء عن جميع الرعايا، ولكن الحوادث تتالت قوية عنيفة فجاءت بما لم يشتهِ وكعمته كعمًا، وكان يوستينوس على مزاياه شامخًا متغطرسًا تعوزه الحيلة، وفي أواخر السنة ٥٧٣ أُصِيب في عقله إصابةً ظاهرة، فتصدَّتْ زوجته صوفية للقيام بأعباء الحكم، مستعينةً بقومس الحرس طيباريوس الأمين، ثم إن يوستينوس تبنَّى طيباريوس، وفي السابع من كانون الأول سنة ٥٧٤ أعلنه قيصرًا، فصرَّف طيباريوس الأمور باسم سيده أربع سنوات متتاليات، إلى أن قضى يوستينوس فانفرد بالحكم.

---

١١٢ Evagrius, Hist. Ecc., IV, 39–41: Michel le Syrien, II, 272–281; Duchesne, L., Eglise au VI Siècle, 272 f.

١١٣ Evagrius, Hist. Ecc., V, 1; Theophanes, a. 6058.

تثليث الآلهة

وأدّى الشقاق إلى التطرُّف فالضلال، فإن واحدًا من أبامية اسمه يوحنا أسكوصناغ Askusnagès علم في القسطنطينية في السنة ٥٥٧ بأن المسيح له طبيعة واحدة، وأن كل واحد من الأقانيم الثلاثة له طبيعة واحدة خاصة، فقُطع ونُفي وتوفي، وانقسم أتباعه فعلم يوحنا فيلوبونوس Philoponos الأستاذ الإسكندري بتثليث الآلهة Tritheisme، وقال بفناء جسد الإنسان بحسب الهيئة والمادة معًا، وعلم كونون Conon أسقف طرسوس بأن جسد الإنسان فانٍ بحسب الهيئة فقط، وذهب دميان أحد بطاركة الطبيعة الواحدة في الإسكندرية إلى القول بتربيع اللاهوت، أي إنه اعتبر وجودًا خاصًّا لكل واحد من الأقانيم الثلاثة، ووجودًا رابعًا عامًّا للثلاثة معًا.[١١٤]

يوستينوس الثاني والكنيسة

وعلى الرغم من فشل يوستنيانوس في سياسة التودد إلى مَن قال بالطبيعة الواحدة، فإن يوستينوس لم يغيِّر شيئًا من خطة خاله الكبير، فظل رائده توحيد الصفوف، وظلت وسيلته إما مساومة في العقيدة أو ضغطًا في الإدارة، ولم تختلف صوفية زوجته عن نسيبتها ثيودورة، فالاثنتان قالتَا بالطبيعة الواحدة على طريقة سويروس الأنطاكي، والاثنتان أيَّدَتَا المونوفيسيين بما أُوتِيتا من حكمة ودهاء ومقدرة.[١١٥]

وبدأ يوستينوس برنامجه الديني بإرجاع الأساقفة المنفيين إلى أوطانهم، ثم استقبل ثيودوسيوس البطريرك الإسكندري الذي كان لا يزال في المنفى بعيدًا عن أبرشيته، بحفاوة فائقة، ولدى وفاته في السنة ٥٦٦ أمر يوستينوس بدفنه دفنًا فخمًا عظيمًا،[١١٦] وتصبَّر فاستمع إلى المثلثين في العاصمة، وإلى أخصامهم المونوفيسيين؛ محاولًا الإصلاح وتوحيد الصفوف، ودعت صوفية إلى مؤتمر شبه دائم في القسطنطينية لتقرب وجهات النظر بين الآباء المتخاصمين المتجادلين، فجاء البرادعي وجاء غيره من كبار المونوفيسيين،

---

١١٤ Chabot, M., Documenta ad Origenes Monophysitarum; Illustrandas; Maspero, J., Patr. d'Alex., 194 ff.; Duchesne, L., Eglise au VI Siècle, 243–343.

١١٥ Duchesne, L., l'Eglise au VI Siècle, 347; Michel le Syrien, II, 306.

١١٦ Michel le Syrien, II, 282–285.

ودام الاحتكاك الشخصي سنة كاملة (٥٦٦)، ولكن بدون فائدة،[١١٧] فلجأ يوستينوس إلى البيانات والتحريم والضغط الإداري، وأصدر في السنة ٥٦٧ أينوتيكونًا قضى بنبذ الفصول الثلاثة، وقبول سويروس الأنطاكي، وتجاهل المجمع الخلقيدوني، ولكنَّ المونوفيسيين أصروا على وجوب الاعتراف جهرًا بالطبيعة الواحدة،[١١٨] فأمر يوستينوس سفيره في فارس البطريق يوحنا أن يعرج على سورية لدى عودته، ويحاول إقناع الآباء المونوفيسيين بقبول الأينوتيكون والعمل بموجبه، وهكذا فإننا نرى الآباء مجتمعين في الرقة Callinicum في السنة ٥٦٧ للتداول مع يوحنا البطريق في أمر الأينوتيكون، ويلين البرادعي وغيره، ولكن جمهور الآباء ظل مرتابًا في كل حلٍّ إمبراطوري من هذا النوع، وقام أحدهم وخطف الوثيقة الإمبراطورية من يد القارئ ومزَّقها، وعاد يوحنا إلى القسطنطينية مخفقًا.[١١٩]

وأعاد يوستينوس الكرة وألَحَّ على التفاهم، وأطلع كبار المنوفيسيين على نص تفاهم جديد قبل إصداره، وفي السنة ٥٧١ أبرز الأينوتيكون الثاني، وفيه اعتراف بطبيعة واحدة متجسدة، ولكن في الثيوريا theoria فقط، واعتراف بفرق بين طبيعتين إلهية وبشرية، مع اعتراف ضمني بالمجمع الخلقيدوني، واستمرار القطع الذي حل بسويروس الأنطاكي.[١٢٠]

طيباريوس وموريقيوس

وتسلَّم طيباريوس زمام الحكم في خريف السنة ٥٧٤، فأوقف ملاحة المنوفيسيين، وسمح للبرادعي بالخروج من منفاه والعودة إلى القسطنطينية، ولدى وفاة يوحنا بطريرك القسطنطينية أعاد أفتيشيوس من منفاه وسلَّمه عكاز الرعاية (٥٧٧)، وعاد أفتيشيوس إلى سابق حماسه في الضغط على المنوفيسيين والتضييق عليهم، فقال له طيباريوس قوله التاريخي: «تمهَّلْ فالبرابرة كُثُر ومحاربتهم أولى.»[١٢١]

واتبع موريقيوس هذه الخطة نفسها في موقفه من الكنيسة ومشاكلها، فإنه اتزن واعتدل فحافظ على أرثوذكسيته ولم يتطرف ولم يضيق على المنوفيسيين وغيرهم، وكان

---

[١١٧] Duchesne, L., op. cit. 348.

[١١٨] Evagrius, Aist. Ecc., V, 4; Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, III, I, 148.

[١١٩] Michel le Syrien, II, 287-290; Maspero, J., op. cit., 187-198.

[١٢٠] Evagrius, Hist. Ecc., V, 4; Maspero, J., op. cit., 168-169.

[١٢١] Michel le Syrien, II, 310.

قد صادق غريغوريوس الكبير بابا رومة عندما كان لا يزال وكيلًا عن رومة القديمة لدى البلاط الإمبراطوري في رومة الجديدة، فأبقى على هذه الصداقة وعزَّزها، واحترم موريقيوس غريغوريوس بطريرك أنطاكية، ويوحنا الصوام بطريرك القسطنطينية، وتعاون معهما تعاونًا وثيقًا، والغريب أن التقليد السرياني جعل من هذا الإمبراطور قديسًا.[١٢٢]

غريغوريوس بطريرك أنطاكية (٥٧٠–٥٩٣)

ولم يتعاون يوستينوس الإمبراطور مع أنسطاسيوس البطريرك الأنطاكي، ولعل السبب في ذلك أن أنسطاسيوس أخلص للعقيدة الأرثوذكسية كل الإخلاص، وأن تصلبه في الدين لم يتفق ومرونة يوستينوس في السياسة، وفي السنة ٥٧٠ اشتد الخلاف بين العاهلين فاتهم الإمبراطور البطريرك بالتفوُّه بما لا يليق بالحضرة السنية وبتبذير أموال الكنيسة، فاضطر أنسطاسيوس أن يغادر أنطاكية إلى أوروشليم، فأقيم مكانه غريغوريوس رئيس دير سيناء، فساس الرعية بالتقى وخوف الله حتى وفاته في السنة ٥٩٣، فأعيد أنسطاسيوس إلى خلافة الرسولين وظلَّ يرعى بالعزم والغيرة حتى الوفاة في السنة ٥٩٨.

الكنيسة السريانية والكنيسة الملكية

واعتدل خلفاء يوستنيانوس في موقفهم من المونوفيسيين، فتمكَّنَ هؤلاء من تنظيم شئونهم واستقروا في الربع الأخير من القرن السادس كنيسة مستقلة، وأطلقوا على الكنيسة الأم الجامعة اسمًا جديدًا شاع في أوساطهم، هو الكنيسة الملكية، أي إنها كنيسة الملك في القسطنطينية.[١٢٣]

---

١٢٢ Légende Syriaque de Maurice, Patr. Orient. V, 773–778.

١٢٣ Bréhier, L., Successeurs de Justinien, Fliche et Martin, op. cit., IV, 489.

الفصل السادس والعشرون

تنصُّر العرب

رسالة عالمية

وقال السيد له المجد: «ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» وقال بطرس الرسول: «وأما أنتم فشعب مختار وأمة مقدسة.» وهكذا فإنه بعد أن انتصرت النصرانية على الوثنية وعمَّتِ البلاد الرومانية بأسرها، اتجهت أنظار الأباطرة والبطاركة إلى ما وراء حدود الإمبراطورية لأداء الرسالة المقدسة وتنصير العالم.

ومن هنا هذا الاهتمام في القرن السادس بالعالم أجمع، وهذه الألقاب «المسكوني» و«المسكونية»، فرب الكون نفسه هو الملك والإمبراطور عبده يحمل رسالة «عالمية» لا بد من أدائها، والإمبراطور يوستينوس يحمي ذمار النصرانية في كل المسكونة، فيصغي لشكوى نصارى اليمن ويطلب إلى النجاشي المونوفيسي أن يتدخل في تلك البلاد النائية لينصر النصارى على اليهود،[1] ومن هنا أيضًا هذا التعاون بين الدولة والكنيسة لتبشير الوثنيين فيما وراء الحدود، وهذا الربط في ولاء الجماهير بين الأباطرة والنصرانية، فكل مَن اهتدى جعل عهد الله بينه وبين الإمبراطور، وضمن له من نفسه مودة وإخلاصًا.[2]

[1] الدكتور أسد رستم، الروم، ج١، ص١٦٧–١٦٨.

[2] Diehl, C., Justinien, 375–377.

النصرانية والعربية

والعربية في عرف رجال الكنيسة هي الولاية الرومانية العربية التي أُنشِئت في السنة ١٠٥ حول مدينة بصرى، فشملت كلَّ ما وقع بين وادي الحسا في الجنوب، واللجا في الشمال، وبين بحر الميت والأردن من الغرب، حتى أطراف البادية في الشرق.

وجاء في التقليد أن يوسي أخا يعقوب ويهوذا بشر في درعا واستشهد فيها، وأن طيمون أحد الشمامسة السبعة بشر في بصرى وتسقف عليها، وأن يوسف الرامي الذي تشرف بتجهيز الرب بشر في المدن العشر في شرقي الأردن.[٣]

وتنجلي الشكوك وينتفي الريب في مطلع القرن الثالث، فيرن صوت الإنجيل في بصرى، ويقوم أوريجينس الإسكندري إليها لينظر في بعض ما قاله أسقفها بيرلس، ويقول بولس السميساطي قولًا لعينًا، فيتوافد الأساقفة إلى أنطاكية للنظر في بدعته، فيمثل العربية زهاء سنوات أربع (٢٦٤–٢٦٨) مكسيموس أسقف بصرى، ولكن الإقبال على النصرانية يظل بطيئًا وتبقى الأكثرية الساحقة وثنيةً طوال القرن الرابع، فلا يؤم القسطنطينية في السنة ٣٨١ للاشتراك في أعمال المجمع المسكوني الثاني سوى خمسة أساقفة فقط؛ أساقفة بصرى ودرعة والسويدا وبراق وشيخ مسكين أو خان النيلة، ثم يرتفع عددهم في المجمع المسكوني الرابع (٤٥١) إلى سبعة عشر، فيجلس في خلقيدونية أساقفة درعة، وعينة، وقنوات، وبراق اللجا، والسويدا، وصنمين، وحسبان، وأفتيمية، وجرش، ومادبا، والشقا، وخان النيلة أو شيخ مسكين، ونوى، وعمان، والشهبا، وأذرع.[٤]

ويتبارى المؤمنون في العربية منذ منتصف القرن الخامس حتى الفتح الإسلامي في ميدان الإنشاء، فيحولون معابد جرش والقنوات وشقا وبصرى الحريري وأذرع إلى كنائس، وينهي بوليانوس متروبوليت بصرى في السنة ٥١٢ كتدرائية فخمة جليلة،[٥] ويندفع سرجيوس أسقف مادبا في سبيل الإنشاء، فيتم إنشاء كنيسة الرسل في السنة ٥٧٨، ويؤسس القس لاونديوس في السنة ٦٠٣ كنيسة جديدة في مادبا، ويكمل ما أنشأه سرجيوس في إليانة،[٦] ثم يلتفت إلى صياغة (الدير في الآرامية) فيُوفَّق إلى إكمال كنيستها

[٣] الدرر النفيسة، للبطريرك أغناطيوس برصوم، ص٨٢-٨٣، ٢١١–٢١٣.

[٤] Devresse, R., Patriarcat, 208–215.

[٥] Waddington, 1915.

[٦] Savignac, R., Nouv. Inscr, Gr. de Madaba, Rev. Bib., 1911, 437–440.

الكبيرة،[٧] ثم تنشأ الكنائس والأديار في كل مكان آخر في طول هذه الأبرشية العربية وعرضها.[٨]

عرب البادية

ولا نعرف المؤمن البدوي الأول، ولا نعلم متى بدأ عهد النصرانية في البداية، ولعل أقدم أخبار التنصر في البادية رواية نقلها القديس أيرونيموس، تُنبِئ باحترام عشائر البدو في منطقة غزة لشخص أيلاريون الناسك (٢٩١–٣٧١)، وتعلقهم به وتنصرهم على يده،[٩] ومن أقدم ما يُروَى من هذا القبيل خبر ماوية البدوية التي حاربت والنس (٣٦٤–٣٧٨) وأنزلت به الخسائر الفادحة، وحينما جاء دور الصلح والتفاهم اشترطت أن يكون «موسى» أسقفًا على عشيرتها، فوافق والنس وأمر بذلك، فنقل موسى الناسك إلى الإسكندرية ليسام أسقفًا على يد لوفيوس الإسكندري، فلم يرضَ موسى لتمسُّكه بالعقيدة الأرثوذكسية، فجيء بأسقف نيقاوي فسامه أسقفًا، فأقام في البادية يرعى شئون ماوية وعشائرها.[١٠]

ويقول سوزومينس المؤرخ إن راهبًا من الرهبان تضرَّع إلى الله أن يرزق زقومًا Zocomos شيخ إحدى العشائر الضاربة في البادية ابنًا ذكرًا، وإن الله استجاب طلبة هذا الراهب، فتنصَّرَ الشيخ زقوم وجميع أتباعه، وإن زقومًا وقومه أصبحوا أخلص القبائل العربية لرومة في نزاعها مع فارس.[١١]

وفي أخبار كيرلس البيساني[١٢] أن جماعة من البدو دخلوا على النساك في منطقة أريحا في أواخر السنة ٤٢٠، وأن النساك فزعوا وتوجسوا خوفًا، فطلب شيخهم الصبيبة Asdabet مقابَلَةَ رئيس النساك أفتيميوس الكبير، وكان له ولد مقعد «لم تنجح فيه حيل الأطباء ولا رقي الراقين المشعوذين»،[١٣] فبارك أفتيميوس الولد الكسيح فقام يمشي،

---

[٧] Saller, S., the Memorial of Moses on Mount Nebo, 2 Vols.

[٨] Devresse, R., Patriercat, 208–240.

[٩] Saint Jerome, Vita Hilarionis, XXV.

[١٠] Sozomène, Hist. Ecc., VI, 38; Rev. Bib., 1940, 205-206; Rufin, Hist. Ecc., XI, 6; Ammien Marcellin, Hist., XXXI, 16.

[١١] Sozomène, Hist. Ecc., VI, 38.

[١٢] Cyrille de Scythopolis, Vita S. Euthymii, (Cotelier), Ecctesiae Graecae Monumenta, IV.

[١٣] Assaf, Mgr. Michel. Synaxaire, I, 89.

فتنصر الصبيبة مع عشيرته، بل أضحى رسولًا عربيًّا بدويًّا يبشر باسم المسيح، وكلل الله عمله بالنجاح فسامه يوبيناليوس أسقف أوروشليم أسقفًا على المضارب (٤٢٨)، وكان قد اتخذ من بطرس الرسول شفيعًا له فسمي الأسقف بطرس، ومثل نصارى فلسطين في مجمع أفسس ووقع هكذا: «بطرس أسقف المضارب» Paremboles، وأصبح الكسيح طربون Terebon شيخًا على العشيرة وخلفه أولاده وأحفاده، وقُدِّر لأحد هؤلاء طربون الثاني أن ينقل هذه الرواية إلى كيرلس البيساني، فخلدت بخلود مصنفه،[١٤] وقدَّم النذر عدد من أبناء هذه العشيرة، بينهم ماري الذي ترأس المحبسة في أريحا وتوفي في السنة ٤٤٨، ولا يخفى أن القديس إلياس بطريرك أوروشليم كان هو أيضًا بدويًّا عربيًّا،[١٥] وهدى ننوس Nonnos أسقف بعلبك في هذا القرن نفسه ثلاثين ألف بدوي.[١٦]

الغساسنة

وجاء في الأنساب أن الغساسنة رحلوا من اليمن إلى تهامة، وأقاموا فيها بين بلاد الأشعريين وعك على ماءٍ يقال له غسان فنُسِبوا إليه، ونزلوا مشارف الشام وفيها الضجاعم من قضاعة، فغلبوهم على ما في أيديهم وأنشئوا لأنفسهم زعامةً في البلقاء وحوران في المنطقة التي دُعِيت العربية، وتنصروا تنصُّر سائر أبناء هذه المنطقة كما سبق وأشرنا.

وقضى الغسانيون زمنًا طويلًا والروم لا يكترثون لهم؛ لأنهم لم يحتاجوا إلى نصرتهم، واشتد ضغط البرابرة واستفرس الفرس، فشعر الروم بالضعف ورأوا الفرس يستنجدون عرب الحيرة، فاضطروا إلى استنصار عرب العربية وما جاورها، فاتجهت أنظارهم نحو الغساسنة، وأول مَن ذُكِر من أمراء غسان في خدمة الروم جبلة، وقد ورد عنه أنه أخمد ثورة فمنحوه رتبة فيلارخوس وجعلوه عاملًا على البتراء، وجبلة هذا هو في نظر ثيودور نولدكه والد الحارث بن جبلة أكبر ملوك غسان وأكثرهم ذِكْرًا في مراجع الروم، وحارَبَ الحارثُ الغساني المنذرَ ملك الحيرة سنة ٥٢٨، واستعانه الروم لإخماد ثورة السامريين ففاز بها، ثم عاون بليساريوس في محاربة الفرس سنة ٥٣١، فهابه الروم وأعجبوا

[١٤] Vita. op. cit. IV, 19 f.

[١٥] Bardy et Brehier, Expansion Chret., Fliche et Martin, op. cit., IV, 517, n. 2.

[١٦] Vailhé, S., Notes de Géog. Ecc., Echos d'Orient, 1900, 11–15.

بشجاعته وبالغوا في تقريبه وترقيته، فأصبح فيلارخوسًا عامًّا وبطريقًا، وفي السنة ٥٤١ حارب الحارث في العراق بجانب الروم، وعبر دجلة على رأس جماعته ثم ارتدَّ إلى مركزه السابق عن طريق غير الطريق التي اتبعها الروم، فشك بعض الروم في إخلاصه. وفي السنة ٥٦٣ سافر الحارث إلى القسطنطينية ليفاوض البلاط فيمَن يخلفه من أولاده، وما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو ملك الحيرة، فكان لما شاهده من مظاهر العظمة وقع عظيم في نفسه، وكذلك فإنه أحدث هو بدوره تأثيرًا قويًّا على سكان العاصمة، ولا سيما على يوستينوس نسيب يوستنيانوس، فلما أُصِيب يوستينوس هذا بعقله بعد تسنمه العرش كان أهل البلاط يخيفونه بالحارث العربي كلما بَدَا منه عصيان أو عربدة، فيقولون له: «تعقَّلْ سندعو الحارث.»

وناصر الحارث المونوفيسيين ولم يدَّخِر وسعًا في الدفاع عنهم وتحريرهم من الاضطهاد، وتمكَّنَ في السنة ٥٤٢-٥٤٣ من تحقيق رجائه لدى ثيودورة الإمبراطورة بتعيين يعقوب البرادعي ورفيقه ثيودوروس أسقفين في العربية أو غيرها، فتوطدت بذلك دعائم الكنيسة اليعقوبية. ويظهر من أقوال يوحنا الأفسسي أن الحارث سعى لحل المشاكل العقائدية والشخصية بين إكليروس اليعاقبة وإكليروس الكنيسة الجامعة ولكن بدون جدوى، ويرى العلَّامة ثيودور نولدكه أن الحارث لم يدرك حقيقة المسائل التي كانت تدور عليها تلك المنازعات، وإنما كان مدفوعًا بالعامل السياسي لمعاضدة المذهب الذي كانت تتبعه أكثرية الشعب في إمارته.[١٧]

ويجب ألَّا يغيب عن البال أن أمراء غسان لم يُجمِعوا على القول بالطبيعة الواحدة، فالدعاء للمنذر بن الحارث الذي وُجِد منقوشًا على حجر في إحدى نواحي تدمر أو النبك يشمل عبارةً هامة جدًّا تنصُّ بما يلي: «واهدِ الضالين من إخوته إلى معرفة الحق أيها الله تعالى.» فإذا ما ذكرنا أن هذا النص يتضمن أيضًا إشارة «إلى الأسقفين المحترمين القديسين» يعقوب البرادعي ورفيقه ثيودوروس، يتبين أن المقصود من ضلال إخوة المنذر انتماؤهم للكنيسة الأرثوذكسية الجامعة وقولهم معها بالطبيعتين.[١٨]

وتوفي الحارث بن جبلة في السنة ٥٦٩، أو في أوائل السنة ٥٧٠، فتسلم زمام الحكم بعده ابنه المنذر Alamundaros، فهبَّ لمحاربة قابوس ملك الحيرة؛ لأنه كان قد انتهز

[١٧] أمراء غسان، تعريب الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق، ٢١-٢٢.

[١٨] مجموعة نقوش رايت Wright رقم ٤٦٨.

فرصة وفاة الحارث للإغارة، فانتصر المنذر بن الحارث على قابوس عند عين أباغ في البادية في ربيع السنة ٥٧٠، ومما تحفظه لنا المراجع عن هذا الأمير الغساني أنه عقد في أوائل عهده مجمعًا محليًّا للنظر في بدعة المثلثين Tritheisme وحكم عليهم بالهرطقة، وكان ممَّن أمضى قراراته «كاهن البطريق المنذر الأمجد ومحب المسيح»، وهو فيما يظهر كاهن بلاط الأمير.[١٩] ولم يرضَ الإمبراطور يوستينوس عن المنذر لأسباب نجهلها، فأوعز إلى عامله البطريق مرقيانوس أن يحتال عليه ويقتله، وأحس المنذر بذلك فشقَّ عصا الطاعة، فأغار عرب الحيرة على أملاك الروم، فاسترضى الروم المنذر فلم يرضَ بالمفاوضة إلا عند قبر القديس سرجيوس في الرصافة لما تمتَّعَ به هذا القديس من الإجلال والاحترام عند السوريين.[٢٠] وفي الثامن من شباط سنة ٥٨٠ وصل المنذر مع اثنين من أبنائه إلى القسطنطينية، فاستُقبِل فيها استقبالًا حارًّا، وأنعم عليه الإمبراطور طيباريوس بالتاج بدلًا من الإكليل، وانتهز المنذر هذه الفرصة فسعى لنيل العفو عن اليعاقبة أصحاب مذهبه. ويرى مؤرخ الغساسنة العلَّامة ثيودور نولدكه أنه لا يجوز تعليق أهمية كبرى على قول يوحنا الأفسسي (٤: ٢١ و٣٦) إن قبائل العرب في سورية كانت متمسِّكة متعصبة لمذهب الطبيعة الواحدة؛ «لأن ذلك لم يكن ليحول دون دخول أكثرهم في الإسلام بعد خمسين أو ستين سنة».[٢١]

وفي السنة ٥٨٠ عزم موريقيوس قومس الأناضول أن يغزو بالاشتراك مع المنذر إحدى ولايات الفرس، وما إن فعل حتى وجد الجسر الكبير على الفرات مهدومًا، فارتدَّ خائبًا وعزا هذه الخيبة إلى خيانة المنذر وتواطئه مع العدو،[٢٢] وعلى الرغم من عودة المنذر إلى الغزو ووصوله إلى الحيرة وعودته غانمًا، فإن سلطات الروم ظلت حاقدة حائرة في أمر هذا الأمير، ولعل السبب في هذا يعود إلى الفارق المذهبي وتوتر الأعصاب؛ فالعاصمة وأمهات المدن حوت آنئذٍ جماعات كبيرة من كبار رجال الإكليروس والشعب، ونظرت شزرًا إلى سياسة التساهل مع اليعاقبة، وتاقت إلى تجريد كنائس هؤلاء من حماتها، فصدرت أوامر مشدَّدة إلى مغنوس Magnus حاكم سورية بالقبض على هذا الأمير العربي، فأرسل

---

[١٩] Z. D. M. G., XXIX, 419 f.

[٢٠] Jean d'Ephèse, op. cit., VI, 4.

[٢١] أمراء غسان، للدكتور نولدكه، المشار إليه، ص٢٧، هـ٣٩.

[٢٢] Jean d'Ephèse, op. cit., III, 40, VI, 16; Evagrius, Hist. Ecc. V, 20.

مغنوس إلى المنذر يدعوه إلى حوَّارين ليشترك في تدشين كنيستها، ولا سيما وأن البطريرك خليفة الرسولين سيرأس الحفلة، فلبَّى الأمير الدعوة، فأُلقِي القبض عليه وأُرسِل مخفورًا إلى العاصمة. ومن أغرب ما جاء في كلام يوحنا الأفسسي لهذه المناسبة أن الأمير أقام مع «إحدى نسائه» وابنين وبنت له في الأسر، ومما جاء لهذه المناسبة نفسها كلام الأمير الغساني: «ولقد كان في وسع عرب الفرس أن يأسروا نسائي وأولادي.»[٢٣] فهل يجوز القول إنه كان للمنذر عدة نساء، وأن الكنيسة لم تكن تبالي بذلك ما دامت زيجات الأمراء المتعددة غير كنائسية؟! وجرى هذا كله في أواخر عهد طيباريوس، فلما توفي هذا الإمبراطور وخلفه موريقيوس عدو المنذر نفاه ورجلًا آخَر من كبار الحاشية إلى جزيرة صقلية.[٢٤]

وتمرَّدَ أولاد المنذر على دولة الروم وأوغلوا في البادية بزعامة كبيرهم النعمان، وأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على أراضي الدولة، وألقوا الرعب في قلوب الحامية في بصرى، واضطروها أن تتخلى عن الذخائر الحربية وأموال أبيهم المحفوظة فيها، فاستعان موريقيوس بأحد إخوة المنذر «الأرثوذكسيين» وألقى القبض على النعمان وأخذه أسيرًا، وتصدعت أحوال العرب عند تخوم البادية (٥٨٤)، وتفككت عُرى الوحدة بينهم واختارت كل قبيلة أميرًا، ولحق بعضهم بالروم وعادوا إلى حضن الكنيسة.

سمعان العمودي والبدو

وقد يعود الفضل في بدء التبشير في شرقي البادية إلى بعض الأسرى المسيحيين الذي نقلوا إلى الحيرة وغيرها بأمر شابور في السنة ٢٦٠،[٢٥] ولكن الفضل الأعظم يعود فيما يظهر إلى العمودي الأكبر القديس سمعان الذي بهر نوره في النصف الأول من القرن الخامس، فأضاء البادية بأسرها.[٢٦]

وُلِد سمعان في قرية سيسان بين سورية وقيليقية في الربع الأخير من القرن الرابع، ونشأ راعيًا فألف الصمت والتأمل، وما لبث أن حمل عصاه وجرابه وذهب يطرق باب

---

[٢٣] Jean d'Ephèse, XI, 216, 217.

[٢٤] Evagrius, Hist. Ecc., VI, 2.

[٢٥] Labourt, J., Le Christianisme dans l'Empire Perse, 1–43.

[٢٦] Bardy et Brehier, Expansion Chrét., op. cit., IV, 519.

أحد الأديار القريبة، فتردد الرئيس في قبوله لحداثة سنه، ثم أخذ برصانته فقبله، وقضى سمعان الفتى سنتين في هذا الدير ثم انتقل إلى غيره طالبًا فقرًا أكبر وإماتة عظمى، فكان ما كان من أمر الحبل الذي شده على وسطه فأدماه وقرح جلده، وتفنَّنَ سمعان في أساليب القهر والإماتة، فطلب إليه رئيسه أن يترك الدير ويذهب حيث يشاء ليكون حرًّا في أساليبه ونفسه، فأقام سمعان في صومعة على سفح جبل لا يبعد كثيرًا عن أنطاكية، وهنا تعرَّفَ إلى الكاهن باسوس الذي كان يتفقد شئون النساك من قِبَل البطريرك الأنطاكي وينقل إليهم الأسرار الإلهية، ثم رغب سمعان في الصوم أربعين يومًا من غير طعام أو شراب، فردعه باسوس مؤكدًا أن الله لا يرضى عن الانتحار، فقبل سمعان النصيحة وأبقى في كوخه بعض الخبز والماء، وطلب إلى الكاهن أن يسد عليه باب الكوخ بالحجارة، ففعل الكاهن ومضى، وصام سمعان الأربعين بدون خبز أو ماء، وجاء الكاهن في أسبوع الآلام يحمل القربان المقدس فوجه على الأرض لا يتحرك، فعني به وناوله، ومارس سمعان هذا النوع من الصوم سنين كثيرة، ثم توغَّلَ في الجبل وبنى صومعة جديدة بلا سقف، وقيَّدَ نفسه بالحديد إلى إحدى زواياها، وأقام فيها عرضة لتقلبات الطقس، فمر به نائب بطريركي فدهش لطريقته ثم قال له مشيرًا إلى القيد: «مَن لم يكن إيمانه قيدًا له فلا ينفعه قيد.» فأذعن سمعان ونزع القيد من رجله.

وشرَّف الله سمعان بالعجائب فأقبلت الناس عليه تبركًا وإعجابًا، فخشي أن يضيع روح الصمت والصلاة، فتوغَّلَ بعيدًا وبنى لنفسه عمودًا وصعد إليه ليأمن شر الوحوش الضارية ويعيش في العراء، فجدَّ الناس في طلبه من جديد، فرأى في سعيهم إرادة العلي، فجعل عموده منبرًا يبشِّر منه ويردع باسم يسوع، وطار صيته فتوافدت الناس عليه زرافات وبينهم الأمراء والأساقفة طالبين نصيحة أو تعزية أو بركة أو شفاء، وكانوا ينتشرون حوله مشتركين في الصلاة، فيطل عليهم عند العصر مرشدًا معزيًا شافيًا، وأتاه يومًا خليفة الرسولين حاملًا القربان الأقدس، فناوله بيده وعاد معجبًا متخشعًا (بتصرُّف عن سنكسار المطران ميخائيل عساف).

ويُروَى أن أنطيوخوس بن سبينوس حاكم دمشق قال إن النعمان ملك الحيرة جاء بربعه وحلَّ في بادية دمشق ودعاه لتناول الطعام معه، فقام إليه وما إن استوى بهما المقام حتى سأله النعمان عن سمعان العمودي قائلًا: هل هو إله في نظر قومه أم بشر؟ فأجاب أنطيوخوس: إنما هو بشر مثلنا ولكنه يخدم الله. فقال النعمان: لقد طبق صيت هذا الرجل الآفاق، ولقد عظم شأنه بين عشائرنا؛ فإنهم ما فتئوا يفدون عليه زرافات

زرافات، وينقادون إلى وعظه وإرشاده، ويخشى شيوخنا أن تؤدي هذه الزيارات المتكررة إلى دخول قومنا في النصرانية وإلى موالاة الروم بدافع الدين، وقد اضطررت أنا بدافع المصلحة أن أحرم على قومي الاتصال بهذا الرجل، مهدِّدًا بعذاب الموت كلَّ مَن تخوله نفسه الالتجاء إلى سمعان والإصغاء إليه، ولكني رأيت في منامي رجلًا جليلًا يدخل عليَّ ممسكًا سيفًا ويأمر بجلدي، فيطبق بي خمسة من أعوانه ويجلدوني جلدًا، ثم سمعته يقول لي: حذارِ حذارِ لما منعت قومك عن زيارة سمعان، أولا تدري أني أقطعك إربًا إربًا. فألغيت المنع وسمحت باعتناق النصرانية، وقد انتشرَتِ النصرانية بيننا وأصبح لنا أساقفة وقساوسة.[٢٧]

وكان سمعان كلما ازداد الناس عليه إقبالًا ازداد هو لنفسه تعذيبًا وإذلالًا، وفوق تعذيبه افتقده الله بأمراض مؤلمة، وسمح بالحط من سمعته والنيل من قداسته، ولكنه كان يصبر ويسكت ويتواضع، بل كان يشكر لأولئك الذين أرادوه بسوء؛ لأنهم على رأيه كانوا يعاملونه كما تستحق آثامه ونقائصه، ثم فاضت روحه في السنة ٤٦٩، وظنه الناس يصلي فسجدوا حول عموده واشتركوا في الصلاة، وطالت عليهم صلاته يومين كاملين فصعدوا إليه فوجدوه جثة هامدة، فجعلوا ذخائره في كنيسة كاسياني ثم نقلوه إلى كنيسة الاتحاد بالتوبة، وبقي عموده مزارًا شهيرًا، وبنى الرهبان حوله ديرًا وكنيسة لا تزال آثارها تنطق بالعظمة حتى يومنا هذا.[٢٨]

أساقفة الحيرة

وتوفي النعمان ملك الحيرة في السنة ٤١٨ فتعاقب في الحكم بعده كلٌّ من المنذر الأول (٤١٨–٤٦٢)، والأسود (٤٦٢–٤٨٢)، والمنذر الثاني (٤٨٢–٤٨٩)، والنعمان الثاني (٤٩٩–٥٠٢)، فقاسى بعضهم شدةً لتنصُّر قومهم، وحمى آخرون النصارى في فارس عند الضيق ولا سيما المنذر الأول، واشترك أساقفة الحيرة في القرن الخامس في مجامع محلية ترأسها كثوليكوس سلفكية، ووافقوا على مقرراتها فأمسوا من النساطرة.[٢٩]

---

[٢٧] Nau, F., Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie, (Paris, 1933), 38.

[٢٨] Théodoret, Hist. Ecc., XXVI; Delahaye, H., Les Saints Stylites XXXI XXXII.

[٢٩] Synodicon Orientale (Chabot), 285 Lietzmann, H., Das Leben des Heiligen Symeon Stylites; Dawes, E. and Baynes, N. H., Three Byzantine Saints, (Oxford, 1948).

المونوفيسيون والحيرة

وفي مطلع القرن السادس نشط المونوفيسيون لبَثِّ دعوتهم في الحيرة، فأمَّها شمعون الأرشمي وأقام فيها ودعا إلى بدعته، فاستجاب له بعض النصارى وبنى أشرافهم كنيسة أو أكثر، «وكان غيورًا جدلًا حاذقًا دربًا»،[٣٠] ثم أوفد سويروس الأنطاكي أسقفين مونوفيسيين في السنة ٥١٣ إلى بلاط المنذر الثالث (٥٠٥–٥٥٤) ليدعواه إلى القول بالطبيعة الواحدة، ويُروَى أنه تظاهَرَ بالأسف الشديد عندما تناول حديثهما ميخائيل رئيس الملائكة، فلما سُئِل عن سبب تأسُّفه قال أولًا يُؤسَف لموت رئيس الملائكة، فطمأنه الأسقفان مؤكدين أن الملائكة لا تموت، فانتفض المنذر وقال متهكِّمًا: وهل يموت الإله المتحد بالمسيح بطبيعة واحدة على الصليب؟ فاكتفى الأسقفان وبقيت الحيرة نسطورية خالصة.[٣١]

وظلَّ المنذر الثالث هذا وثنيًّا يذبح للعزى ويقدم لها أفضل ما عنده، فقد جاء في بعض المراجع أن هذا المنذر قدَّمَ في السنة ٥٤٤ ذبيحة لهذا الغرنوق بن الحارث الغساني الذي وقع في يده أسيرًا في إحدى غزواته،[٣٢] وأنه ضحى بأربعمائة عذراء وقعن تحت براثنه في حمص لمناسبة دخوله إليها.[٣٣]

المنذر وخلفاؤه

ومات المنذر فتولَّى زمام الأمور ابنه عمرو (٥٥٤–٥٦٩) وكان مسيحيًّا، فأنشأت أمه هند الغسانية زوجة المنذر الميت ديرًا في الحيرة، ونقشت في صدره بموجب رواية ياقوت العبارات التالية:

> بَنَتْ هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده، في ملك ملك الأملاك خسرو أنوشروان، في زمن مار أفريم الأسقف، فالإله الذي بَنَتْ له هذا الدير

---

[٣٠] البطريرك أغناطيوس برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص٢٥١.

[٣١] Théodore le lecteur, Hist. Ecc., II, 35; Zonaras, Ep. Hist. XXVIII, 4.

[٣٢] Procope, De Bello Persico, III, 28.

[٣٣] Zacharie le Rhéteur, Hist. Ecc., VIII, 5; Michel le Syrien, II, 178-179.

يغفر لها خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها، ويقبل بها وبقومها إلى أمانة الحق، ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر.

ويستدل من هذا أن الملك عمرو بن المنذر كان نصرانيًّا؛ لأن النقش علا صدر الدير في أيام ملكه (٥٥٤-٥٦٩)، ويظهر أن النصرانية لم تثبت بعد عمرو، فلما مات رجع خليفته أو المنذر بن المنذر إلى الوثنية،[٣٤] ونشأ ابنه النعمان فيها يذبح للأصنام حتى تنصَّرَ على يد الكاثوليكوس صبر يشوع في السنة ٥٩٤، وجاء في تاريخ ابن خلدون (ج٢، ص١٧١) أنه تنصر على يد عدي بن زيد.[٣٥]

جزيرة تيران

ومما جاء في المراجع خبر أسقف تيران، وتيران جزيرة عند مدخل خليج العقبة اشتهرت في القرون الأولى بجماركها وسلطتها على التجارة البحرية عبر البحر الأحمر، ومما يُروَى عنها أنها سقطت في السنة ٤٧٠ في يد عربي اسمه امرؤ القيس Amorkesos قدم إليها من المناطق الخاضعة لفارس، فاحتلها وطرد موظفي الروم منها، ثم ما لبث أن أوفد أسقفًا اسمه بطرس إلى الإمبراطور لاوون ليقدم خضوعه، ولينال منه لقب فيلارخوس عرب البتراء. وتذكر المراجع أن الإمبراطور استدعى هذا الزعيم إليه ومنحه السلطة على جزيرة تيران ومناطق غيرها، ثم عادت الجزيرة إلى حكم الروم المباشر بنزول القائد رومانوس فيها عام ٤٩٨، ولكنها احتفظت بأسقفيتها، فإننا نقرأ في أعمال مجمع أوروشليم المحلي المنعقد عام ٥٣٦ عن أنسطاسيوس أسقف تيران، ولعله كان خاضعًا لكنيسة سيناء.[٣٦]

---

٣٤ Evagrius, Hist. Ecc., VI, 22.

٣٥ Aigraie, R., l'Arabin, Dict. Hist. Ecc., Géog. III, 1225–1233; Charles, H., le Christianisme des Arabes Nomades sur le Limès et dans le Désert Syro-Mesop. Aux Alentours de l'Hégire, (paris, 1936), 55 f.

٣٦ Bardy et Brehier, Expansion Chrétienne, op. cit., IV, 517-518; Lammens, H., Les Chrétiens à la Mecque à la Veille de l'Hejire, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1918, 191–231; Aigrain, R., Arabie, Dict. Arch. Hist. Ecc., III, col. 1253 f.

حِميَر

ولا نعلم بالضبط متى تسربت النصرانية إلى اليمن «والعربية السعيدة»، ولكننا نقرأ أن الإمبراطور قسطنديوس أوفد في السنة ٣٥٦ بعثة يرأسها الراهب الآريوسي ثيوفيلوس لتتفاوض في حرية الاتجار وحرية المعتقد، ولتنشر رسالة السيد المخلص، وأفلح ثيوفيلوس فيما يظهر وأنشأ كنيسة في عدن وكنيسة غيرها في ظفر، ولا نعلم بالضبط ما إذا كان هذا الراهب نجح في تأسيس كنيسة ثالثة في هرمز عند مدخل خليج الفارسي.[٣٧] ويؤكد ثيودوروس القارئ أن النصرانية لاقت نجاحًا في حمير في عهد أنسطاسيوس الإمبراطور (٤٩١–٥١٨)، وأن النصارى في هذا البلد البعيد خضعوا لأسقف يرشدهم ويدبر أمورهم،[٣٨] ولعل هذا الأسقف هو سلوانس عم يوحنا الذيكرينومينوس.[٣٩]

نجران

ولا يختلف اثنان فيما نعلم في أن نجران كانت أهم مواطن النصرانية في الجنوب، ولعلَّ الفضل في تنصُّر أهلها يعود إلى كنيسة أنطاكية، فقد جاء في كتاب السيرة لابن هشام (طبعة أوروبة، ٢٠–٢٢) وفي تاريخ الرسل والملوك للطبري (طبعة أوروبة ج١، ص٩١٩)، أن قافلة عربية أسرت راهبًا سوريًّا اسمه فيميون Phemion فنزلت به إلى نجران فهدى أهلها طريق الصواب، ويذكر ياقوت كعبة في نجران يقال لها البيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء الكعبة، فعظموها مضاهاة لكعبة مكة، وكان فيها أساقفة «معثمون».

وكانت اليهودية قد تسربت إلى بلاد اليمن من جراء خراب أوروشليم، وكان آخر ملوك حمير ذو نواس يهوديًّا، فاشتدت المنافسة بين النصارى واليهود وانقلبت عداءً مريرًا، وكان ذو نواس يرى في النصرانية ما يذكره بالأحباش ومطامعهم في اليمن، فأوقع بالنصارى في السنة ٥٢٣ مذبحة نجران، ثم جمع مَن نجا منهم وخيَّرهم بين القتل واليهودية، فاختاروا الموت استشهادًا، فخدَّ لهم أخدود النار، وروى بعض المحدثين أنه

[٣٧] Philostorge, Hist. Ecc., III, 4–6.

[٣٨] Théodore le Lecteur, Hist. Ecc., II, 58.

[٣٩] Miller, Fragments Inédits de Théodore le Lecteur, Rev. Arch., 1876, 400.

نزل في ذلك ما جاء في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾. ومما جاء في الطبري أيضًا أن دوس ذا ثعبان أفلت ولجأ إلى إمبراطور الروم يستنصره على ذي نواس، وأن يوستينوس قال له: «نأت بلادك عنا فلا نقدر أن نتناولها بالجنود، ولكني سأكتب إلى نجاشي الحبشة وهو أقرب ملوك النصرانية إلى بلادك.» ويُروَى أيضًا أن النجاشي انتصر على ذي نواس مرتين متواليتين في السنة ٥٢٣ وفي السنة ٥٢٥، وهنا رُبَّ معترضٍ يقول: كيف اضطهد يوستينيوس أصحاب الطبيعة الواحدة في بلاده، ثم تعاوَنَ معهم في الحبشة واليمن؟ والجواب أن صاحب القسطنطينية كان يعتبر نفسه حامي ذمار النصرانية في كل المسكونة.[٤٠]

[٤٠] Vasiliev, A. A., Justin I and Abyssinia, Byzant, Zeit., 1933, 67–77; Simeon de Beit Arscham à Simeon de Gabboula, Atti della R. Accademia dei Lincei, 1881.

الفصل السابع والعشرون

القوانين والنظم والطقوس والأعمال الخيرية في القرن السادس

يوستنيانوس والقانون الكنسي

عُنِيَ الآباء في القرنين الرابع والخامس بجمع القوانين المسكونية والمحلية، ولكنهم لم يُوفَّقوا إلى درسها وتمحيصها وتنسيقها وتبويبها، وكان بعض هذه القوانين قد وُضِع لمناسبات خصوصية انتهى أمرها، فزالت فائدة القانون بزوال الظرف الذي دعا إلى وجوده، ونشأت ظروف جديدة تطلَّبَتْ عودةً إلى الاجتهاد والتشريع.

وكان يوستنيانوس يرى في نفسه رئيسًا للدولة وحاميًا للكنيسة في آن واحد، فأمر بجمع القوانين الكنسية ودرسها وإلغاء الباطل منها، وسنَّ ما تقضي به الظروف الجديدة، فظهر بإرادته السنية قانون الإكليروس (Nov. 123) وقانون الأديرة (Nov. 133) وغيرهما.

نوموقانون يوحنا المحامي

والنوموقانون اصطلاح يوناني مركب مؤلف من كلمتي نوموس الشرع المدني وقانون الشرع الكنسي، ويوحنا المحامي هو البطريرك يوحنا القسطنطيني (٥٦٥–٥٧٧) الذي نشأ محاميًا في أنطاكية، ثم تولى تمثيل الكرسي الأنطاكي في القسطنطينية، فلما شغر الكرسي القسطنطيني كما سبق وأشرنا شرطن يوحنا كاهنًا ثم رقي إلى السدة البطريركية،

وما إن استتب له الأمر حتى بادر لجمع القوانين المدنية التي تتعلق بالإكليروس والكنيسة، وأضاف إليها جميع القوانين الكنسية، ثم نسق ما جُمِع وبوَّبه لتسهيل الوصول إلى محتوياته، فظهر ما يُعرَف في تاريخ الكنيسة بنوموقانون يوحنا المحامي.

ويستدل مما تبقى من آثار هذا الحبر الفقيه الجليل أنه استعان بمجموعة من نوع مجموعته صُنِّفت في السنة ٥٣٤، وأنه اعتمد قوانين الرسل وقوانين المجامع المسكونية الأربعة الأولى ومجامع أنقيرة وقيصرية الجديدة وسرديكة وأنطاكية وغنغرة واللاذقية، وببعض قوانين القديس باسيليوس الكبير، وقد استخرجها من رسائله وعددها ثمانية وستون قانونًا، وانتقى هذا البطريرك أيضًا من اثني عشر قانونًا يوستنيانيًّا مدنيًّا ما تعلَّق بأمور الكنيسة، فنسَّقه تنسيقًا ونُشِر في سبعة وثمانين فصلًا.[١]

البنتارخية

وتبنى يوستينانوس قرارات المجامع المسكونية السابقة، فاعتبر الكنيسة الجامعة مؤلفة من خمس بطريركيات Pentarchia لا سادسة لها، وهي: بطريركية رومة القديمة، وبطريركية رومة الجديدة، وبطريركية الإسكندرية، وبطريركية أنطاكية، وبطريركية أوروشليم، وعمل بالتقليد الموروث وبقرارات المجامع؛ فقدم بطريرك رومة القديمة على سائر البطاركة، وجعل بطريرك رومة الجديدة الثاني بعده، وأعطى المرتبة الثالثة في الكرامة لبطريرك الإسكندرية، والرابعة لبطريرك أنطاكية، والخامسة والأخيرة لبطريرك أوروشليم، وشملت سلطة بطريرك رومة القديمة بموجب هذا الترتيب كل الغرب وذيقوسية أليرية الشرقية، وضمت بطريركية رومة الجديدة ذيقوسيات تراقية وآسية والبونط، وخضعت مصر وصعيدها وليبية والقيروان لسلطة بطريرك الإسكندرية، واعتبر بطريرك أنطاكية بطريركًا على ذيقوسية الشرق ما عدا فلسطين الأولى والثانية والثالثة، وتبعت هذه الفلسطينيات الثلاث بطريرك أوروشليم المدينة المقدسة، وظلت كنيسة قبرص تتمتع باستقلالها عملًا بقرار مجمع أفسس، وأصبح هذا الترتيب كله قانونًا شرعيًّا بموجب

١ Pargoire, J., l'Eglise Byzantine de 527 à 847, 78-79; Zacharie Von Lingenthal, Uber den Verfasser und die Quellen des Nomokanon in XIV Titlen.

النوفليتين المائة والثالثة والعشرين، والمائة والحادية والثلاثين، وهذه هي المرة الأولى التي ورد فيها لقب بطريرك في معاملات رسمية.

واللقب بطريرك لفظ يوناني، وهو مركب من الكلمة اليونانية Patria أي العشيرة، والكلمة اليونانية archi أي الرئيس، فيصبح البطريرك شيخ العشيرة، وجاء لبلصامون في رسالته في امتيازات البطاركة أن أول مَن أُطلِق عليه هذا اللقب رئيس عشائر اليهود،[٢] فإن اليهود بعد خراب أوروشليم وتشتتهم، اصطلحوا أن يقيموا عليهم رؤساء أسموهم بطاركة، وجعلوا لهؤلاء البطاركة مساعدين أطلقوا عليهم لقب رسول، وعلى هذا الأساس لُقِّب أسقف أنطاكية بطريركًا؛ لأنه اعتُبر كبير الأمة أو الطائفة المسيحية في أنطاكية وزعيمها المطاع، وجاء في رسالةٍ كتبها بطرس الثالث البطريرك الأنطاكي إلى رئيس أساقفة إكيليا أن البطريرك الأنطاكي وحده اختص منذ القِدَم باللقب بطريرك، وأن البطاركة الآخرين لقبوا بهذا اللقب جوازًا لا وجوبًا، وأن لقب الحبرين الروماني والإسكندري هو بابا، ولقب زميلَيْهما في رومة الجديدة وأوروشليم هو رئيس أساقفة.[٣]

وفي الثامن من حزيران سنة ٥٣٣ كتب يوستنيانوس إلى البابا يوحنا الثاني يفيد أنه سيوافيه بجميع ما يتعلق بأحوال الكنائس؛ لأنه هو رئيسها وأنه سوف يُسرع في إخضاع أحبار الشرق وضمهم إليه.[٤] وجاء في قانون صدر في هذه السنة نفسها أن على أبيفانيوس بطريرك رومة الجديدة أن ينبئ بطريرك رومة القديمة بجميع المسائل الدينية؛ لأن رومة القديمة ما فتئت تدحض الهرطقات الشرقية.[٥] وجاء في النوفيلة التاسعة أن أحدًا من الناس لا يشك في عظمة حبر رومة وجلاله.[٦] كتب يوستنيانوس هذا كله وأكثر منه، ولكنه تدخل في شئون أحبار رومة تدخلًا إجباريًّا، فضيَّق على فيجيليوس مثلًا ولم يتورع عن مخالفته في أمر العقيدة، ولعله ذهب إلى أبعد من هذا فاعتبر نفسه سيد الباباوات والبطاركة وصاحب القول الفصل في إدارة الكنيسة وفي معتقدها.[٧]

---

[٢] Balsamon, Pat. Gr., Vol. 138.

[٣] Patrologia Graeca, Vol. 120, Col. 757.

[٤] Patrologia Latina, Vol. 66, Col, 15; Code I, 1, 8.

[٥] Code, I, 7.

[٦] Zachariae, I, 12.

[٧] Alivisatos, H., Die Kirchliche Gesetzgebung des Kaisers, Justinian I, Berlin, 1913; Ostrogorsky, G., Hist. of Byz. State, (OXford, 1956), 71.

وتبادل البطاركة الخمسة الرسالات السلامية وبيَّنوا معتقداتهم فيها عند وصولهم إلى العرش، وتبادلوا ذكر أسمائهم في ذيبتيخة الأحياء، فقرأها شماس علنًا في أثناء القداس وأوفدوا إلى عاصمة الدولة وكلاء يمثلونهم أمام البلاط، وتبادلوا هؤلاء الوكلاء apocrisarios بين بعضهم في بعض الأحيان، وكان بين هؤلاء رجال أفذاذ؛ فغريغوريوس العظيم بابا رومة قضى مدة في القسطنطينية قائمًا بأعمال أبوكريساريوس رومة ومثله يوحنا المحامي، فإنه قبل تسنمه العرش القسطنطيني كان أبوكريساريوس الكرسي الأنطاكي في القسطنطينية.[٨]

نظام الأسقفية

وقضت قوانين يوستنيانوس بحصر حق انتخاب الأساقفة في أيدي الوجهاء والإكليروس، فكان على هؤلاء أن يتفقوا على ثلاثة من المرشحين، فيرفعوا أسماءهم إلى البطريرك أو المتروبوليت أو مجمع الأساقفة المحلي لانتقاء واحد منهم ورفعه إلى رتبة الأسقف،[٩] وكان للإمبراطور في الواقع أو لممثِّله المحلي القولُ الفصل في هذا أيضًا.

وحاوَلَ يوستنيانوس الإصلاح، فوضع حدًّا أدنى لسِن المرشح وجعله خمسة وثلاثين سنة، وعالج السيمونية بأن عيَّنَ المبلغ الذي توجب دفعه إلى الأساقفة المنتخبين، وأوجب بقاء كل أسقف في أبرشيته، ومنع تغيُّبه عنها أكثر من سنة واحدة، ومنع أيضًا مجيء الأساقفة إلى عاصمة الدولة بدون موافقة المتروبوليت.[١٠]

وأحاط بالبطاركة والمطارنة عددٌ من الموظفين، وأهم هؤلاء في القرن السادس السنكليوس Syncellios، وهو المستشار الأكبر والوكيل الذي يقوم مقام البطريرك أو المطران في أثناء غيابه، وجاء في المصادر ما يدل على أن بعض المطارنة أوفدوا وكلاء عنهم إلى العاصمة وإلى المقر البطريركي، وأن هؤلاء كانوا يدعون أبوكريساريوسيين أيضًا، وفي المصادر إشارات إلى الرفرنذاريوس Referendarios وهو المستشار العادي، وأطلق على

---

[٨] Brehier, L., Normal Relations between Rome and the Churches of the East before the Schism of the Eleventh Centory, Constructive Quarterly, 1917.

[٩] Novelles, CXXIII, CXXXVII.

[١٠] Code, I, 3; Novelles, VI, LXVII, CXXIII, CXXXVII.

مدير أوقاف الكنيسة وأمين ممتلكاتها لقب أيكونوموس Economos، وعُنِي سكيلاريوس Sacellarios بمراقبة الأديرة والرهبان، كما أشرف ذيذاسكاليوس Didaskalios على تلقين المؤمنين قواعد الإيمان.[١١]

وتمتع الأساقفة في هذا القرن بصلاحيات قضائية واسعة، فكان لهم وحدهم حق النظر في خروج الإكليريكيين على أنظمة الكنيسة،[١٢] ومنحهم يوستنيانوس حق النظر أيضًا في الدعاوي التي أقامها العلمانيون على رجال الإكليروس، ولكنه حفظ لأولئك حق استئناف هذه الأحكام أمام المحاكم المدنية،[١٣] وظل المتداعون العلمانيون يترافعون أمام المحاكم الأسقفية في الدعاوي المدنية، ووافق يوستنيانوس على هذا الترافُع في جميع المدن ما عدا العواصم، واشترط أن يكون برضى الطرفين.[١٤]

وقضى قانون يوستنيانوس بتنظيم محاكم خصوصية مؤلفة من الأساقفة للنظر والبت في الدعاوي التي تقام على الأساقفة، ولكنه لم يعبأ بما أمر به، فإنه كثيرًا ما نظر هو بنفسه في بعض هذه الدعاوي؛ وحذا حذوه يوستينوس الثاني عندما عزل أنسطاسيوس البطريرك الأنطاكي (٥٧٠)؛ لأنه تفوَّه بما لا يليق عن شخص الإمبراطور، ولأنه اتُّهِم بتبذير أموال الكنيسة.[١٥]

ويرى رجال الاختصاص أن أساقفة هذا القرن تدخلوا في سير الأمور المدنية تدخلًا فعليًا، فرفعوا أصواتهم عند الحاجة ليمنعوا حاكمًا عن التحكُّم والتعسُّف، أو لينفذوا القانون ضد الفسق والفجور، أو ليقفوا سدًّا منيعًا في وجه الهرطقة،[١٦] وتطلَّبت ظروف مصر أكثر من هذا، فمنع الإمبراطور بطريركين من بطاركتها الأرثوذكسيين أبوليناريوس وأفلوغيوس صلاحيات مدنية وعسكرية مطلقة، أصبحا بموجبها نائبي الإمبراطور في مصر وقائدي جيوشه فيها.[١٧]

---

١١ Pargoire, J., op. cit, 63–65.

١٢ Novelle, LXXXIII.

١٣ Novelle, CXXIII.

١٤ Episcopali Audientia, Code I, 4; Bell. H. I., the Episcopalis in Byzantine Egypt, Byzantion, 1924, 157 ff.

١٥ Brehier, L., Vie Chrét. en Orient, Fliche et Martin, op. cit., IV, 539.

١٦ Ibid., 539–540; Bury, J. B., Later Roman Empire, II, 361.

١٧ Diehl, C., l'Egypte Chrétienne et Byzantine, (Hist. de la Nation Egyptienne), III, 534–535.

جمهور الإكليروس

ودخل تحت هذا التعبير في القرن السادس الكهنة والشمامسة والشماسات والأيبوذياكونات والقراء والمرتلين، وتوجَّبَ على المتقدمين من سر الكهنوت، وعلى العذارى والأرامل اللواتي رغبن في الخدمة كشماسات، أن يكونوا جميعهم قد بلغوا الأربعين من العمر، وافترض فيمَن طلب الرسامة كشماس أو أيبوذياكون أن يكون في الخامسة والعشرين أو ما فوق ذلك، وأصبح السن الأدنى للقراء والمرتلين ثمانية عشر عامًا، وجاز لجميع هؤلاء أن يكونوا متزوجين شرط أن يكون زواجهم قد تم قبل الرسامة، وحرم الزواج ثانيةً باستثناء القراء والمرتلين. ولا تخلو المراجع الأولية من الإشارة إلى رتبة الخور أسقف، فقد جاء في تاريخ بروكوبيوس الفلسطيني المعاصر أن خور أسقف الرصافة Sergiopolis تولَّى قيادة الحامية فيها، وفاوض الفرس في حصار السنة ٥٤٣.[١٨] ويرى العلامة غيلمان الألماني أن البريودفيتس Preiodeutes البرديوط الزائر بدأ في هذا القرن يحل محل الخور أسقف، وأنه كان خاضعًا تابعًا لأساقفة المدن،[١٩] وكثر عدد الإكليريكيين في هذا العصر فاضطر يوستنيانوس أن يحصر عددهم فجعلهم خمسمائة وخمسة وعشرين في كنيسة الحكمة الإلهية في القسطنطينية، وكان بين هؤلاء ستون كاهنًا ومائة شماس.[٢٠]

حق الأمان

وكان ثيودوسيوس الثاني قد وسع منطقة الحرم التي لا تهتك، فجعلها تشمل الكنيسة وما حواليها حتى مداخلها الخارجية،[٢١] وجاء لاوون الأول فأباح للمفلسين في الثامن والعشرين من شباط سنة ٤٦٦ حق الإحرام، وبرَّأ الكنيسة من كل التزام تجاه الدائنين،[٢٢] ولكن يوستنيانوس رأى في هذا كله توسُّعًا لا مبرر له، فأباح لعماله الدخول إلى مناطق الحرم

---

١٨ Procope, Bellum Persicum, II, 5; De Aedif., II, 9; Chapot, Resapha Sergiopolis, Bull. Corresp. Hellen., 1903, 288; Brehier, L., Vie Chrél., op. cit., IV, 540.

١٩ Gillmann, Das Institut der Chorbischofe im Orient, 146.

٢٠ Novelle, III, 1.

٢١ Mansi, V, Col. 437–445; Martroye, l'Asile et la Législation Impériale du IV au VI Siècle, Mem. Soc. Antig., 1919, 82, 82–90.

٢٢ Code Justinien, I, 12.

لإلقاء القبض على القتلة والزناة والخاطفين المغتصبين، كما سمح بجباية الأموال الأميرية في داخل الكنيسة وبتوقيف الممتنعين عن أدائها، وأوجب على الأسقف إن هو عارَض في شيء من هذا أن يتحمَّل بنفسه المبالغ المطلوبة، وأن يدفعها من جيبه الخاص.[٢٣]

الأوقاف

وشملت الأوقاف في هذا القرن الهبات على أنواعها (كالأراضي وبيوت السكن والمخازن والعائدات السنوية)، والضرائب الشرعية على ممتلكات الهراطقة والوثنيين والتركات غير الموصى بها، ولا سيما الإكليركية منها.[٢٤]

ووافق يوستنيانوس على هذا كله، ووسع حق انتفاع الكنيسة من مرور الزمن، ومنع نقل ملكية الأوقاف واحتباسها الدائم تحت مرتب معين، ونظَّم حقوق الواقف فأوجب عليه القيام بتعهداته واعترف بحقه في إدارة أوقافه، ولكنه لم يسمح له بفرض إكليريكي معين على الأسقف لخدمة هذه الأوقاف.[٢٥]

وكان المجمع الخلقيدوني قد أوجب في قانون السادس والعشرين تعيين مدبر أوقاف Economos لكل كنيسة، فحدَّد يوستنيانوس صلاحيات هذا المدبر وأوجب انتقاءه من بين رجال الإكليروس، ونظر الإمبراطور أيضًا في كيفية إنفاق أموال الكنائس، فعيَّن ما وجب دفعه إلى رجال الإكليروس وما جاز إنفاقه لممارسة الطقوس وصيانة الأملاك وإعاشة الفقراء.[٢٦]

الرهبان والأديرة

وتكاثَرَ الرهبان في القرنين الخامس والسادس، فأصبحوا ألوفًا وعشرات ألوف، ولم يؤثر القول بالطبيعة الواحدة في عددهم عند اليعاقبة، ولم تختلف نُظُم هؤلاء عن نُظُم الرهبان

---

٢٣ Novelles, XVII, XXXVII, CXXVIII.

٢٤ Knecht. System des Justinianischen Kirchen-Vermogensrechtes, 67–72; Code Justinien, I, 3.

٢٥ Novelles LVII (537), CXXII (546).

٢٦ Brehier, L., le Monde Byzantin, Institutions, 524–526.

الأرثوذكسيين، فظلَّ باسيليوس الكبير زعيم المعسكرين، وبقيت مثله العليا مثل الطرفين، وغصت تلال أنطاكية وأبامية وآمد والرها بالأديرة، وانتثرت الصوامع في بعض أنحاء البادية، وأثَّر هذا كله في نفس يوحنا أفسس، فصنف «سير النساك الشرقيين» ضمَّنه ثماني وخمسين ترجمة.[٢٧]

وتنوَّعت طرق الترهُّب واختلفت وسائل الأمانة، فقام إلى جانب الأديرة قلايات Kellia آوت كلٌّ منها ناسكًا واحدًا اشتهر بورعه وزهده وقداسته، فأطلقت له الحرية لقهر الجسم كيف شاء، واشتهر من هؤلاء في جهات أنطاكية الذين اختاروا رءوس الأعمدة مقرًّا لهم، فقضوا السنين الطوال عليها، وبين هؤلاء السمعانان الأكبر والأصغر، وقد سبقت الإشارة إلى الأكبر فَلْتراجع في محلها، ويذهب بعض رجال الاختصاص إلى أن عدد العموديين لم يكن قليلًا.[٢٨]

وقضت مقررات المجمع الخلقدوني بخضوع الرهبان للسلطات الإكليريكية، ولكن نصوصها بقيت حبرًا على ورق، وكثر عدد الرهبان التائهين Sarabaites الذين عاشوا متنقلين متسولين غير خاضعين لأية سلطة من السلطات الروحية، فحاوَلَ يوستنيانوس أن ينظم الحياة الرهبانية من الناحية الإدارية القضائية، فأخضع أديرة كل ذيقوسية إلى سلطة المتروبوليت، وأكره جميع الرهبان أن يعيشوا في أديرة معينة، وأجاز الانحباس شرط أن يتم في داخل الدير، وتوجَّبَ على الطالبين الجدد أن يمروا في دور «المبتدئ»، وأن يظلوا فيه ثلاث سنوات، ولا يقبلون نهائيًّا إلا بعد التثبُّت من أنهم ليسوا أرقاء هاربين، وحرم عليهم ترك الدير تحريمًا، وسنت قوانين خصوصية لتنظيم حياة الراهبات.

وكان على الرهبان في كل دير أن ينتخبوا رئيسًا لهم هيغومينوسًا Hegoumenos أو أرشمندريتًا[٢٩] يدبر أمورهم ويمثل رهبنتهم ما دام حيًّا قادرًا على العمل، وكان الهيغومينوس مطلق الصلاحية لا يستشير رهبانه إلا في بعض الأمور الهامة، كنقل الملكية واحتباسها بطريقة الحكر، ولكنه كان مقيَّدًا بالتيبيكون الذي حفظ قانون الرهبانية

---

[٢٧] Douwen et Land, Iohannis Episcopi Ephesini, Amsterdam, 1889.

[٢٨] Leclercq, H., Antioche, Dict. Arch. Chrét., I, Col. 2831–2832; Lietzmann et Hilgenfeld, Das Leben des Heiligen Symeon Stylites; Lassus, J., Images des Stylites, Bull. Inst. Fr. de Damas, II, 67–82.

[٢٩] Pargoire, J., Archimandrite, Dict. Arch. Chrét., I, Col. 2739 f.

وأشياء أخرى، ورأى يوستنيانوس أن الرقابة مفيدة، فأوجب تعميم نظام الإكسرخوس الذي كان سائدًا في بعض الأبرشيات، أي أنْ يعين كل متروبوليت أكسرخوسًا لزيارة الأديرة في الأبرشية والتثبت من انتظامها، وكان في استطاعة هذا الإكسرخوس أن ينتدب زائرين Stationarii لهذه الغاية نفسها، أما في القسطنطينية فإن هذا المفتش الزائر كان يُدعَى سكيلاريوسًا Sacellarios.[٣٠]

الأسكيم

وكان الأسكيم الرهباني يتألف من ثوب فضفاض من الصوف الخشن أو شعر الماعز، وكانوا يسمونه Kolobion وهو أصل اللفظ العربي «جلابية»، وتردى الرهبان فوق الجلابية جبة دعوها المنذية Mandya، أما غطاء الرأس فإنه كان قبعة عالية عُرِفت بالكملفكيون Kamelaukion، وتبع هذه لاطية دُعِيت كوكوليونًا Koukoulion، وشدَّ وسط الراهب زنار جلد، وزُيِّن الأسكيم بكامله بطرشيل دُعِي أنالافوسًا Analabos.[٣١]

الصوم والصلاة

وامتنع الرهبان عن اللحوم وتناولوا الطعام مرة واحدة في اليوم، وصاموا الصوم الكبير (سبعة أسابيع) وصوم الميلاد وصوم الرسل وصوم رقاد العذراء، وصلوا ست ساعات في كل يوم، ولكنهم كرَّسوا ليالي البارامون كلها للصلاة.

الليتورجية

وكانت لغة كنيسة أنطاكية لا تزال يونانية فجاءت ليتورجيتها باليونانية، ولم تكن سريانية أو عربية إلا في بعض القرى النائية في داخل البلاد.[٣٢] وصلى المؤمنون بموجب ليتورجية يعقوب أخي الرب، وكانت هذه في القرن السادس مسبوكة باللغتين اليونانية والسريانية،

---

[٣٠] Novelle CXXXIII, (539).

[٣١] Brehier, L., l'Art Chrélien, 118, 132–133; Diehl, C., Justinien, 500, Fig. 163.

[٣٢] Brehier, L., Vie Chrét. op. cit., IV, 547.

ولا بدَّ أن تكون قد نُقِلت إلى العربية أيضًا لكثرة المؤمنين العرب في ريف سورية وفلسطين وعند حدود البادية، أما في كنائس آسية وتراقية والبونط واليونان، فإن الليتورجية السائدة كانت إما الليتورجية التي تُدعَى باسم ليتورجية الذهبي الفم أو باسيليوس الكبير.[٣٣]

البناء

وكانت معظم كنائس هذا القرن بسيليكات في طرازها، والبسيليكة بناء مستطيل الشكل شيد في العصور اليونانية القديمة للاجتماعات العمومية، وتميَّزَ هذا البناء عن سواه في أنه حوى صفين من الأعمدة، قُسمت أرضه إلى ثلاثة أقسام مستطيلة متساوية، وأنه أفسح في منتصف جداره الرئيسي محلًّا خصوصيًّا في شكل حنية لتمثال الإله، وأن النور كان يدخل إليه من نوافذ فوق رءوس الأعمدة ودُعِي مجموعًا منورًا، واحتفظ الآباء في هذا القرن نفسه بالأبنية المدورة والمثمنة والمصلبة للتعميد أو لدفن الشهداء، وكنتَ إذا قصدتَ الدخول إلى إحدى الكنائس، تمر في صحن كبير مفتوح تحيط به أروقة معمدة، فإذا ما انتهيتَ منه وجدتَ نفسك في النرثكس Narthex، وهو غرفة خارجية لاصقة ببناء الكنيسة عند مدخلها الرئيسي.

وقامت المائدة عند رأس هذا البناء مقابل الحنية، وخصص ما يجاورها إلى الأسقف والكهنة، وأُقِيم للأسقف عرش في الحنية وراء المائدة، وقُسِّم البهو كله إلى قسمين غير متساويين أصغر وأكبر، وفُصِل الأصغر القريب من المائدة عن الأكبر وراءه بحاجز مزين وخصص للخوروس، وانتصب المؤمنون للصلاة في القسم الأكبر الباقي من البهو، أما الموعوظون فإنهم وقفوا إما وراء المؤمنين عند مدخل البهو الرئيسي، أو في الطبقة الثانية من البهو التي أقيمت في جانبي الكنيسة فوق الأعمدة وأطلت على البهو والخوروس، وكان الإيقونوستاسيس Iconostasis لا يزال مجهولًا،[٣٤] ولا تزال كنيسة القديس أندراوس في القسطنطينية (خوجه مصطفى جامعي) تحفظ هذا الترتيب حتى يومنا هذا.

---

[٣٣] Pargoire, J., op. cit., 97–99; Placide de Meester, Liturgies Grecques, Dict. Arch. Chrét. Lit., VI, Col. 1591–1662; Stefanescu, Illustation des Liturgies dans l'Art de Byzance et de l'Orient, Bruxelles, 1936.

[٣٤] Ebersolt, J., Monuments d'Architecture, Byzantine, Paris, 1934; Vincent et Abel, Bethlehem, Paris, 1914; Brehier, L., Anciennes Clotures, Congrés des Etudes Byzantines, Paris, 1936.

الأواني

ولنا في الرسوم التي تزين بعض الصواني الفضية الأنطاكية الباقية ما يحفظ لنا أشكال مذابح ذلك العصر وموائده، وما استعمل من الأواني كالبوتيريون Poterion والمراوح Rhiphidia وملاعق الأفخاريستية وحقاق الميرون والمباخر،[٣٥] ولا نزال نتبرك بأناجيل تعود إلى ذلك العهد، وقد كُتبت بماء الذهب على الرق. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض كتب الخدمة كان لا يزال بهيئة دروج ملفوفة لفًّا.[٣٦]

وتتميز الملابس الحبرية في هذا القرن أكثر من قبلُ، فيظهر الأسقف مكسيميانوس مثلًا في فسيفساء رابينة (٥٤٧) مرتديًا القميص والصاكوس فوقها، وواضعًا الأوموفوريون على كتفيه وحاملًا الصليب بيده، ويواكبه الكاهن والشماس، وقد تردَّى كلٌّ منهما بقميص أبيض ذي أكمام واسعة.

الصلوات

وقضى قانون يوستنيانوس[٣٧] على إكليروس كل كنيسة بالصلاة اليومية، وكانت هذه الصلاة قد قسمت في مصر إلى ثلاثة أقسام: صلاة نصف الليل Mesonyktikou، وصلاة السَّحَر Orthos، وصلاة الغروب Lykhnikon، أما في القسطنطينية وفي سائر الولايات فإنها أقيمت في السبع التي انتهت بالإسبيرينوس Hesperinos والأبوذيبنون Apodeipnon صلاة النوم، وتليت مقتطفات من الأسفار المقدسة وأضيف إليها ترانيم منظومة ملحنة، وأتحفت كنيسة بيروت في هذا العصر الكنيسة الجامعة رومانوس المرتل، وكان يهوديًّا حمصيًّا فاهتدى ونبغ في النظم والتلحين وأمَّ العاصمة فأصبح مرتل الكنيسة اليونانية الأكبر.[٣٨]

---

[٣٥] Bréhier, L., Les Trésors d'Argenterie d'Antioche; Diehl, C., l'Ecole Artistique d'Antioche, Syria, 1921; Ibid., Un Nouveau Trésor d'Argenterie Syrienne, Syria, 1926.

[٣٦] Diehl, C., Manuel d'Art Byzantin, I, 245–261; Ebersoll, J., La Miniature Byzantine, Paris, 1926.

[٣٧] Code I, 3.

[٣٨] Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 653–705; Maas, Die Chronologie der Hymnen des Romanos, Byz. Zeit., 1906, 1–44.

الأسرار

وأصر آباء هذا القرن السادس على ممارسة سر المعمودية في الكنائس دون سواها، ولام الآباء المجتمعون في القسطنطينية في السنة ٥٣٦ مَن قال بالطبيعة الواحدة على التعميد في المنازل الخصوصية،[٣٩] وعمد الآباء بالتغطيس ثلاث مرات، وآثروا إجراءه لمناسبة الأعياد الكبيرة كعيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد الفصح وعيد الصعود، وألحقوا التثبيت بالتعميد، وعمدوا الأطفال في اليوم الأربعين بعد الولادة وتساهلوا حتى السنتين.

تناول المؤمنين

ويُستدَل من رسوم صينية الكأس التي وُجِدت في ريحة، أن المؤمنين في كنيسة أنطاكية في هذا العهد تقدموا من جسد الرب ودمه مغطين اليدين، وأنهم تناولوا الخبز أولًا ثم الخمر من الكأس نفسه، وجرت المناولة بعد الأصوام الأربعة، ولمناسبة أعياد الميلاد والرسل والفصح والعذراء، وهنالك ما يدل على أن البعض تناولوا يوميًّا، وأن آخرين استأذنوا للمناولة في بيوتهم.[٤٠]

خدمة القداس

ويرى رجال الاختصاص أن آباء القرن السادس لم يبدءوا الخدمة بتقديم المقدمة إلى المائدة كما نفعل اليوم، وهم يؤكدون أن قداس الموعوظين بدأ بالأيصوذن الصغير وبالتريصاغون والبخور، وأنه بعد تبادل المحبة بين الكاهن المصلي والشعب كانت تُقرَأ مقتطفات من النبوات والرسائل والإنجيل، وبعد هذا كله كان على أحد الشمامسة أن ينادي: «أيها الموعوظون اخرجوا.» لأنهم كانوا لا يزالون غير معمدين، ولدى خروجهم كان أحد الشمامسة يقدم الطلبات السلامية. ثم يُتلَى دستور الإيمان (لأول مرة في السنة ٥١١ كما أشرنا)، ويجيء الأيصوذن الكبير فيحمل الشمامسة المقدمة إلى المائدة، ويرتل الشعب التسبحة الكروبية، وبعد البركة وقبلة السلام تقرأ ذيبتيخة الأحياء والأموات، والذيبتيخة دفتان مرتبطتان تصفحان وتغلقان، كُتِب عليهما أسماء الذين عمروا الكنيسة

---

[٣٩] Novelles LVIII, LXI; Mansi, VIII, Col. 895–899.

[٤٠] Bréhier, L., Vie Chrét., op. cit., IV, 550.

وغيرهم من الأحياء والأموات، ثم يتبع الأنافور والتسبيح الأفخاريستي وذكر أسرار الفداء فالأبيكليسيس Epiclesis (الابتهال إلى الروح القدس)، ويعود الشماس إلى الطلبات السلامية، ثم يتم تبادل المحبة ويُكسَر الخبز وتجري المناولة ويرفع الشكر ويصار إلى الحل Apolysis.[٤١]

الأيقونات

وشاع في هذا القرن تكريم الأيقونات، ففاخرت الرها بتلك التي قالت إن السيد المخلص نفسه أرسلها إلى أبجر ملك الرها،[٤٢] وبالمنديل الذي انطبع عليه شكل وجهه، واعتبرت هذين الرسمين من يدٍ غير بشرية، فدعيا Acheiropoietes،[٤٣] واشتهرت صورة العذراء التي نُسِبت إلى لوقا الإنجيلي نفسه، فنقلتها الإمبراطورة بلشيرية إلى القسطنطينية، وأقدم ما لدينا من أيقونات القرن السادس ما وجده في سيناء العلامة الروسي بورفيريوس أوسبنسكي، وهي تمثِّل القديسين سرجيوس وباخوس وبين هالتيهما صورة مصغرة للسيد المسيح، وهي من محفوظات متحف كيف Kiev، ومن أيقونات هذا القرن صورة السيدة حاملة الطفل في متحف الإمبراطور فريدريك في برلين، وصورة يوحنا المعمدان في متحف كيف أيضًا،[٤٤] وجميع هذه مصورة بالألوان المزوجة بشمع العسل لحمايتها من الرطوبة، وقد ظهرت فيها العينان جاحظتين كأنهما تنظران من دار البقاء.

الذخائر

واشتدت العناية بما تبقى من آثار القديسين، فلم تخلُ منها كنيسة من الكنائس، وقضى العرف في هذا القرن بأن يُنقَل إلى كل كنيسة مستجدة أثرٌ من آثار القديسين الأبرار

---

[٤١] Ibid. 547–548; Moreau, Les Anophores des Liturgies de Saint Jean Chrysostome et de Saint Basile, Paris, 1927.

[٤٢] Runciman, S., Some Remarks on the Image of Edessa, Cam. Hist. Journ., 1931, 238–252.

[٤٣] Brehier, L., Icones non faites de main d'homme, Rev. Arch., 1932, 68–77.

[٤٤] Bréhie, L., Les Icones dans l'Histoire de l'Art, Mélanges Ouspensky, 1933, 150–173; Wulf et Alpatov, Denkmaeler der Ikonenmalerei, Dresden, 1925; Baynes, N. H., Idolatry and the Early Church, (Byzantine Studies, London, 1955), 116–134.

تبركًا واستشفاعًا، ومما يُروَى من هذا القبيل أنه عند تجديد بناء كنيسة الحكمة الإلهية في القسطنطينية بعد ثورة السنة ٥٣٢، نقلت إليها قطعة من الصليب المقدس وحجارة بئر السامرية وأبواق أريحا، وأن البطريرك ميناس نقل في السنة ٥٤٧ إلى كنيسة الرسل الأطهار بقايا القديس أندراوس، وقد سبقت الإشارة إلى ما جرى من هذا القبيل في بعض كنائس الكرسي الأنطاكي، فَلْتراجع في محلها.

وعُنِيَ الأباطرة عناية كبيرة بجمع الذخائر وحفظها، فوضعت بلشيرية يد الشهيد الأول اليمني في الكنيسة التي شيدت على اسمه في قصر القديس إسطفانوس في دفنة، وفي السنة ٥٧٤ نقلت قطعة من عود الصليب من أبامية إلى القصر في القسطنطينية. ويُروَى عن يوستينوس الثاني أنه اعتبر الذخائر أفضل ما يهدي إلى أصدقائه، ولا سيما عود الصليب، فأرسل شيئًا منه إلى البابا وإلى الملكة راديغوند لدى دخولها إلى الدير في بواتية في السنة ٥٦٩.[٤٥]

الحج

وبدأ الأتقياء بزيارة الأماكن المقدسة في أوروشليم وبيت لحم والناصرة وغيرها من مقامات فلسطين منذ أوائل القرن الرابع، وتقاطروا زرافات من جميع أنحاء العالم المسيحي للوصول إليها والتضرُّع فيها، وذلك لمناسبة عيد القيامة أو عيد رفع الصليب، ولم يقتصر الحجاج في حجهم على زيارة هذه الأماكن، بل قصدوا غيرها في سورية ومصر، وأشهر محجات الكرسي الأنطاكي في هذا القرن مقام سمعان العمودي؛ حيث قامت كنائس أربع حول صحن مخمس حوى في وسطه عمود سمعان.[٤٦]

الأعمال الخيرية

وكانت الكنيسة قد عنيت منذ نشأتها بالفقير والمريض واليتيم وابن السبيل، فلما انتصرت على الوثنية وأصبحت كنيسة الدولة كثر دخلها واشتد ساعدها، فتنوعت أعمالها وظهرت

---

٤٥ Ebersolt, J., Sanctuaires de Byzance, Paris, 1921.

٤٦ Evagrius, Hist. Ecc., I, 14; Ebersolt, J., Monuments, 173; Diehl, C., Art Byzantin, I, 35–38; Leclercq, H., Dict. Arch. Chrét., Col. 2380–2388.

الملاجئ والمياتم والفنادق والمستشفيات، وقام بهذه الأعمال جميعها رهبان أتقياء وراهبات صالحات وأرامل متعبدات.

وجاء يوستنيانوس فأحيا قانون السنة ٣٨٢ ومنع التسول،[٤٧] ثم اعتبر جميع المؤسسات الخيرية شخصيات معنوية قضائية، فضمن أموالها وراقب أعمالها، وسمح للواقف أو الأسقف أن يعين مدراءها، ولكنه أوجب خضوعها للأسقف، ومنح هذا حق التدخل في أمورها وملاحقة مدرائها أمام محكمته، وسمح لهؤلاء بحق الاستئناف أمام مجلس المتروبوليت،[٤٨] وأنشأ الإمبراطور دائرة أوقاف رسمية إكليريكية وأصبح رئيسها الأورفانوتروفوس الأعظم مدير الإسعاف العام.[٤٩]

العلم والتعليم

واحتفظت الكنيسة الجامعة بحقها في تعليم المؤمنين قواعد الإيمان، فخلت جامعة القسطنطينية وغيرها من مؤسسات الدولة من أي كرسي لهذه الغاية، وظل تدريس اللاهوت وتوابعه منوطًا بالأساقفة ومَن يستعينون به لهذا الغرض، وتابعت مدرسة أنطاكية سيرها في هذا السبيل، أما مدرسة الرها فإنها أقفلت بأمر من الإمبراطور زينون سنة ٤٨٩، وانتقل أساتذتها إلى داخل الحدود الفارسية واستقروا في نصيبين. ويرجح العلماء وجود المدارس في الأديرة؛ ذلك أن يوستنيانوس أوجب على الرهبان مطالعة الأسفار المقدسة وتعاليق يوحنا الأفسسي.[٥٠]

والجدير بالذكر هنا أن آباء القرن السادس حذوا حذو سلفائهم رجال القرن الرابع أمثال باسيليوس الكبير، فاطلعوا على المصنفات الكلاسيكية وغرفوا غير خائفين، وذهبوا إلى أبعد من هذا فأجازوا الاستعارة من مصنفات الوثنيين في بعض ما ورد من نقوش على أنصاب القبور.[٥١]

---

[٤٧] Code Justinien XI, 26; Novelle LXXX.

[٤٨] Novelles, CXXIII CXXXI.

[٤٩] Diehl, C. Justinien, 530.

[٥٠] Novelles, CXXXIII; Jean d'Ephèse, De Beatis Orientalibus, CIII, CYI.

[٥١] Waltz, P., l'Inspiration Païenne et le Sentiment Chrétien dans les Epigrammes Funéraires du VI Siècle, Paris, 1931.

وأشهر علماء هذا القرن لاونديوس البيزنطي؛ وُلِد في القسطنطينية سنة ٤٨٥ وتلقَّى علومه فيها، وبعد أن زار رومة في السنة ٥١٩ أمَّ فلسطين ليقضي الباقي من حياته في دير القديس سابا، فدخل بعمله هذا في نطاق بحثنا لشدة أثر هذا الدير في الفكر الأنطاكي، وأهمية مصنفاته في تاريخ الفكر الكنسي تعود إلى المحاولة التي قام بها للتوفيق بين العقيدة الأرثوذكسية وفلسفة أرسطو، وكان من الطبيعي أن يبحث لاونديوس في النسطرة والطبيعة الواحدة، وأن يرد على الاثنتين، وهو أول مَن استعان باللفظ اليوناني Enhypostasis لتبيان العلاقة بين الطبيعتين في الابن.[٥٢]

وعاصَرَ لاونديوس عالم سرياني جنح إلى القول بوحدانية الوجود هو أسطفان بار صوديلي؛ وُلِد في الرها في منتصف القرن الخامس ورحل إلى مصر، فقال إن كل طبيعة مساوية في الجوهر للذات الإلهية والجوهر الإلهي. ومات ابن الصوديلي في السنة ٥١٠.[٥٣]

وديونيسيوس الكاذب Pseudo Dionysios، ذاك الذي انتحل اسم ديونيسيوس تلميذ الرسول بولس، وأول أساقفة أثينة، هو من كتَّاب هذا العصر أيضًا؛ وُلِد وثنيًّا في سورية الشمالية وقال بالأفلاطونية الجديدة، ثم تنصَّرَ وصنف ليربط التصوف باللاهوت، فضلَّ وأضلَّ في الشرق والغرب معًا طوال ألف سنة.[٥٤]

وأنجبت كنيسة أنطاكية في القرن السادس محاميًا وواليًا ومؤرخًا هو إيفاغريوس Evagrios الأنطاكي؛ وُلِد في أنطاكية في السنة ٥٣٦ وتلقى علومه فيها، واستوظف فعُيِّن في المالية في عهد طيباريوس وأصبح واليًا في زمن موريقيوس، وعني بالتاريخ الكنسي فصنف كتبًا ستة عالج فيها تاريخ الكنيسة منذ مجمع أفسس في السنة ٤٣١ حتى السنة ٥٩٣، فأكمل أعمال سلفائه المؤرخين سقراط وسوزومينس وثيودوريطس، وتوفاه الله بعد السنة ٥٩٣ وقبل السنة ٦٠٠.

---

٥٢ Bury, J. B., Later Roman Empire, II, 373–375; Ruegamer, Leontius Von Byzanz; Tixeront, J., Dogmes, III, 4–9, 152–158.

٥٣ البطريرك أغناطيوس برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص٢١٦-٢١٧.
Fotheringam, Stephen Bar Sudaili the Syrian Mystic and the Book of Hierotheos, Lyden, 1886.

٥٤ Bardy, G, Autour de Denis l'Aréopagite, Rech. Sc. Rel., 1931, 201–204; Echos d'Orient, 1932, 466–469; Stein, E., Sur le Pseudo-Denis de Tellmahré, Bas Empire, II, 827–831.

وأخيرًا لا بدَّ من الإشارة إلى المؤرخ يوحنا ملالا Malalas، فإنه أبصر النور في أنطاكية ونشأ فيها، وكتب في تاريخ العالم منذ أقدم العصور حتى أوائل عهد يوستنيانوس أو أواخره،[٥٥] وذلك باللهجة اليونانية الدارجة «ليكون كتابه في متناول العامة من مدنيين وإكليريكيين»، وكتابه هذا محشوٌّ بالترهات والمغالطات؛ فقد جاء فيه على سبيل المثال أن قائدًا رومانيًّا اسمه بيبلوس أسَّس بيبلوس على الساحل الفينيقي فدُعِيت باسمه، ومن مغالطاته أنه عطف على المونوفيسيين ومالأهم، ولكنه على ضعفه لا يخلو من الفائدة لكثرة أخباره وتنوُّعها، ولشدة تأثيره على بعض المؤرخين المتأخرين.[٥٦] ويُستدل من تضاعيف هذا الكتاب أن معظمه دُوِّن في أنطاكية، وأن القسم الأخير منه فقط صُنف في القسطنطينية، والقول إنه من آثار البطريرك القسطنطيني يوحنا الثالث قول ضعيف.[٥٧]

---

[٥٥] Bury, J. B., Later Roman Empire, II, 435.

[٥٦] Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 326; Olmstead, A. T., Malalas, Chicago Theol. Seminary Register, 1942, 22.

[٥٧] Stein, E., Bas Empire, II, 703-704.

الفصل الثامن والعشرون

فوقاس وهرقل

٦٠٢–٦٤١

وصول فوقاس إلى الحكم

وتمرَّدَ الجند في خريف السنة ٦٠٢، وعبروا الدانوب بإمرة فوقاس أحد ضباطهم، واتجهوا نحو عاصمة الدولة، وكانت القسطنطينية خالية من الجند، فحشد موريقيوس متطوعة من سكان العاصمة ودفع بهم إلى الأسوار، وكان قسم كبير من السكان قد سئم كبرياء الإمبراطور وأساليبه الأرستقراطية، وجشع أصحاب الأملاك الكبيرة والأموال الوافرة الذين عززهم الإمبراطور، فلما اقترب فوقاس والجند من العاصمة شعر موريقيوس بتذمر الجمهور، وخشي ممالأة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس للجند، فأمر بإلقاء القبض على جرمانوس، فنفر الشعب وأخلى المتطوعة مراكزهم على الأسوار، ففر الإمبراطور بعائلته عبر البوسفور إلى نيقوميذية، فنادى الشيوخ والشعب في الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٦٠٢ بفوقاس إمبراطورًا، فدخل هذا في اليوم التالي ناثرًا الذهب نثرًا، ثم وجَّهَ إلى نيقوميذية مَن ذبح موريقيوس وعائلته ذبحًا.

هجوم الفرس

وكان موريقيوس قد كتب إلى أبرويز شاه الفرس يستنجده، وسمع أبرويز أيضًا بالثورة التي أعلنها نرسيس القائد في السنة ٦٠٣ في الرها، فرأى أن يستغل فرصة مناسبة، فزحف

بنفسه إلى الرها وحاصرها، ثم تغلب على الروم بين الرها ونصيبين في السنة ٦٠٤، وفي السنة ٦٠٥ سقطت دارا بيده، فاتجه أبرويز نحو سورية وأرمينية، واحتل قائده شاهين أرضروم Theodosiopolis، وأرمينية الصغرى في السنة ٦٠٥-٦٠٦، وغزا الأناضول فوصلت طلائع جيشه إلى خلقيدونية في السنة ٦١٠، وقام قائد آخر اسمه شهربراز فاحتل ماردين وآمد والرها والرقة، وفي السنة ٦١٠ أمسى الفرات الحد الفاصل بين الدولتين.[١]

فوقاس وكنيسة أنطاكية

واتخذ فوقاس موقفًا حازمًا من الشقاق، الذي كان قد حل بكنيسة أنطاكية بين المنوفيسيين اليعاقبة والأرثوذكسيين أبناء الكنيسة الجامعة، فأيَّدَ هؤلاء تأييدًا تامًّا، ومنع اجتماعات اليعاقبة وضيِّق على بطريركهم أثناسيوس الجمال في مقره في القبة بين حلب ومنبج،[٢] ولكن اليعاقبة تذامروا وتشجعوا، فعقدوا اجتماعاتهم وتشاوروا، وتوافد رؤساؤهم على أنطاكية، واجتمعوا في إحدى كنائسها؛ فاضطرت السلطات أن تفرقهم بالقوة، فامتنعوا فأُكرِهوا إكراهًا وكثرت ضحاياهم.[٣]

ووصل إلى أنطاكية في السنة ٦٠٨ أنسطاسيوس بطريرك الأقباط المنوفيسيين، واجتمع بزميله أثناسيوس الجمال، فخالف بعمله هذا أوامر الإمبراطور واستهدف جزاءه، فنهض القائد بونوسيوس إلى أنطاكية وأمر بفض الاجتماع، فثار اليعاقبة في وجهه فأخضعهم بالقوة، وتناولت سيوف جنوده عددًا كبيرًا منهم فكانت مجزرةً مؤلمةً.[٤]

ويقول ثيوفانس المؤرخ إن فوقاس رغب في تنصير اليهود، فأمر بتعميدهم فثاروا في أنطاكية، فجرد بونوسيوس قوة عليهم فذبحهم تذبيحًا،[٥] ولكن كولاكوفسكي المؤرخ

---

[١] .Diehl, C., Le Monde Oriental, Serie Glotz, 140–141

[٢] Michel le Syrien, II, 375–377; Nau, F., Athanase, Dict. Hist, Géog. Ecc., IV, Col. 1363-1364.

[٣] .Jean de Nikiou, (Zotenberg), 540

[٤] .Ibid; Michel le Syrien, II, 378; Saint Theodore de Sykae, Acta Sanctorum, III, 66

[٥] .Theophanes, a. 6101

الروسي، الذي بحث هذا الأمر بحثًا دقيقًا يرى أن ثيوفانس يخلط في أمر تعميد اليهود بين فوقاس وهرقل، ويؤكد أن الذين ثاروا على فوقاس هم اليعاقبة لا اليهود، ويأخذ كولاكوفسكي برواية أنطيوخوس القائد،[٦] فيرى أن اليهود استغلوا الموقف فأيدوا السلطات في نزاع سياسي بينها وبين الخضر، فأوقعوا باليعاقبة خسائر في الأرواح كبيرة.[٧]

مصرع البطريرك الأنطاكي

وتقدم الفرس، واحتلوا في السنة ٦٠٨-٦٠٩ منبج وخلقيس وحلب، وكان فوقاس لا يزال منهمكًا في توطيد سلطته، فلم يعطِ الخضر شيئًا مما وعد، فقاموا عليه وأهانوه علانية في الهيبودروم، فاشتد النزاع بينهم وبين الزرق، وعَمَّ معظم المدن الكبرى، وحدث مثل هذا في أنطاكية، فاستغل اليهود الظرفين الداخلي والخارجي، وتدخلوا في مشادة الأحزاب في أنطاكية، فأوقعوا بالمسيحيين خسائر في الأرواح جسيمة.[٨]

وكان أنسطاسيوس الأول قد توفي في أواخر السنة ٥٩٨، فخلفه على كرسي الرسولين أنسطاسيوس الثاني (٥٩٩–٦١٠) الراهب السيناوي المحامي، الذي نقل إلى اليونانية مصنف البابا غريغوريوس Regula Pastoralis، القوانين الرعوية، فلما دخل الفرس الشهباء، واشتد الضجيج في أنطاكية، استغلَّ اليهود الظرف فيها، وحاكموا أنسطاسيوس الثاني محاكمة اعتباطية، وتفنَّنوا في تعذيبه وإعدامه.[٩] ويقول برنيقيوس إن اليعاقبة دبَّروا المكيدة، ولكنه قول ضعيف،[١٠] ودبَّر اليهود تدبيرًا مماثلًا في صور، ولكن مطرانها أفسد عليهم الخطة، فخسروا بدورهم خسارة كبيرة.[١١]

---

[٦] Antiochus le Stratege, (Trad. Russe), Vizantijski Vremennik, 1914, 8–9.

[٧] Koulakovsky, Critique du Témoignage de Théophanes sur les Derntères Années du Regne de Phocas, Istoria Vizantijski Vremennik, 1914, 1–14; Brehier, L., Rome et Const., Fliche et Martin, op. cit., V, 74–75.

[٨] Devresse, R., La Fin Inédite d'une Lettre de S. Maxime, Rev. Sc. Relig., 1937, 3–4.

[٩] Theophanes, Chron. a. 6101.

[١٠] Pernice, Eraclio, 23; Duchesne, L., l'Eglise au VI, Siècle, 372–373.

[١١] Eutichios, Annales, Patr. Gr., Vol. III, Col. 1084.

اللقب بطريرك المسكونة

وعظم قدر لاوون بابا رومة في منتصف القرن الخامس، وارتفعت منزلة زميله ديوسقوروس بابا الإسكندرية، واستوكف برهما، فعظما باللقب «المسكوني»، ولعل أوليمبوس أسقف إفازة Evaza هو أول مَن استعمل هذا اللقب، فإنه خص ديوسقوروس به في مجمع التلصص في أفسس سنة ٤٤٩،[١٢] وحذا حذوه ثيودورس الشماس الإسكندري عندما خاطب لاوون لمناسبة المجمع الخلقيدوني في السنة ٤٥١،[١٣] وجاء مثل هذا أيضًا في الرسالة التي وجهها رؤساء الأديار في القسطنطينية إلى البابا أغابيتوس في السنة ٥٣٥.[١٤]

وأعلن زينون كتابه الأينوتيكون، فأيَّدَه فيه أكاكيوس بطريرك العاصمة (٤٧٢–٤٨٨)، واعترض سمبليكيوس بابا رومة، فحلَّ الشقاق بين الحبرين فاتخذ بطريرك القسطنطينية لقب بطريرك المسكونة وتبعه في ذلك خلفاؤه، وفي السنة ٥١٨ وجهت الأوساط الإكليريكية الأنطاكية رسالةً إلى البطريرك القسطنطيني يوحنا الثاني (٥١٨–٥٢٠) فاعتبرته بطريركًا مسكونيًّا،[١٥] وكتب هذا البطريرك إلى زميله الأوروشليمي ووقع متخذًا اللقب «البطريرك المسكوني».[١٦]

وجاء يوستنيانوس بقوانينه وشرائعه، فاعتبر كل بطريرك قسطنطيني بطريركًا مسكونيًّا، وأشار إلى حبر رومة بما يجوز تعريبه هكذا: صاحب القداسة رئيس أساقفة المدينة الأولى رومة وبطريركها Sanctissimos Archispiscapus Almae Urbis Romae et Patriarcha.[١٧] وفي أعمال المجمع المسكوني الخامس ما يؤيِّد هذا كله، فالإشارة إلى بطريرك القسطنطينية مقرونة باللقب بطريرك المسكونة.[١٨]

---

[١٢] Mansi, VI, Col. 855.

[١٣] Mansi, VI, Col. 1005.

[١٤] Mansi, VIII, Col. 895.

[١٥] Mansi, VIII, Col. 1038.

[١٦] Mansi, VIII, 1066–1067.

[١٧] Code I, 1.

[١٨] Gelzer, H., Der Streit uber den Titel des Aekumenischen Patriarchats, Iahrbucher fur Prot. Theol., XIII, 549 ff.; Vailhe, S., Le Titre de Patriarche Oecuménique, Echos d'Orient, 1908, 65–69.

بيلاجيوس الثاني يحتج

وعلمت رومة بهذا كله، فتغاضت عنه ولم تُعِرْه اهتمامًا، ثم نشبت مشادة بين غريغوريوس الأول بطريرك أنطاكية، وبين أستيريوس والي الشرق، فعقد بسبب هذه المشادة مجمع في القسطنطينية في السنة ٥٨٧، وتألف هذا المجمع من أساقفة ومطارنة وبطاركة وقضاة، وترأس جلساته يوحنا الصوام بطريرك القسطنطينية، وخرج غريغوريوس نقي الثوب بريئًا،[١٩] ولكن بيلاجيوس الثاني بابا رومة (٥٧٩–٥٩٠) اعترض على عقد المجمع بدون علمه، وعلى اللقب «بطريرك المسكونة» الذي ورد في أعمال المجمع مقرونًا باسم بطريرك القسطنطينية،[٢٠] وشدد بيلاجيوس على وكيله في عاصمة الدولة ألَّا يشترك مع يوحنا ما دام مستمسكًا بلقبه، أما الصوام فإنه لم يكترث لهذا كله، ولم يعبأ بتهديدات بيلاجيوس، فاكتفى بيلاجيوس بأن شكا أمره إلى زميلَيْه الآخَرين بطريركَيِ الإسكندرية وأنطاكية.[٢١]

غريغوريوس يشدِّد النكير

وخلف بيلاجيوس على سدة رومة غريغوريوس الكبير (٥٩٠–٦٠٤)، وكان ورعًا تقيًّا فرأى في إقدام زملائه القسطنطينيين على التلقُّب بالمسكوني خطرًا يهدد وحدة الكنيسة، فكتب إلى يوحنا في السنة ٥٩٥ رسالةً جاء فيها:

> أذكر أن سلام الكنيسة يشوش بترفعك الأحمق، فيا أيها الأخ الحبيب أحب من كل قلبك التواضع الذي يحفظ اتفاق جميع الإخوة ووحدة الكنيسة المقدسة الجامعة، فإن بولس لما سمع بعضًا يقولون: أنا لبولس وأنا لابولس اضطرب من تجزئة جسم المسيح فصرخ: ألعل بولس صُلِب لأجلكم أو باسم بولس اعتمدتم![٢٢]

---

[١٩] Evagrius, Hist. Ecc., VI, 7; Mansi, IX, Col. 213–217.

[٢٠] Saint Grégoire, Reg. Greg. V, 44.

[٢١] Bréhier, L., Rome et Const., op. cit., V, 64–65.

[٢٢] Jaffé-Wattenbach, 1352, 1357, 1360.

وتوفي الصوام في الثاني من أيلول من هذه السنة نفسها ٥٩٥، متميزًا بالصوم والتقوى والعلم والتصنيف، محرزًا «بالتواضع رفعة وبالمسكنة غنًى».[٢٣] وتبوأ السدة القسطنطينية بعده كيرياكوس، فكتب رسائل السلام إلى الكنائس، وفي طليعتها كنيسة رومة القديمة، فأجابه غريغوريوس عنها مهنئًا، ثم كتب له أن يترك لقب «البطريرك المسكوني» إذا كان يرغب في السلام، وكتب إلى وكيله سبنيانوس ألا يخدم القداس معه ما لم يترك اللقب.

وكان غريغوريوس قد كتب إلى أنسطاسيوس بطريرك أنطاكية في آذار السنة ٥٩٣، يهنئه بالعودة إلى السدة البطريركية بعد وفاة سلفه غريغوريوس ويهدي إليه مفاتيح الرسول،[٢٤] فلما بدأت المشادة بينه وبين يوحنا الصوام وجَّه رسالتين: إحداهما إلى أنسطاسيوس، والأخرى إلى بطريرك الإسكندرية، موجبًا الابتعاد عن تلقيب أحد بلقب رئيس كهنة مسكوني، مؤكدًا أن الإمبراطور يخاف الله، وأنه لا يفعل شيئًا ضد الإنجيل والقوانين، متأسفًا أن يصبح يوحنا المتواضع متكبرًا، راجيًا إبقاءَ الكنائس على ما كانت عليه، وحفْظَ الأساقفة الخاضعين لهما من الفساد، مختتمًا بالعبارة: «فصلُّوا من أجلي لكي توافق أعمالي أقوالي.»[٢٥] وعلم موريقيوس بما تمكن من ألفة بين أنسطاسيوس الأنطاكي وبين غريغوريوس، فطلب إلى الحبر الأنطاكي في السنة ٥٩٧ أن يبرد غيظ حبر رومة ويسكن غضبه، فكتب أنسطاسيوس كتابًا لطيفًا إلى صديقه غريغوريوس، ورجاه ألا يفسح المجال للشر، وأن يعود إلى اللطف والملاينة، فلامه غريغوريوس على تهاونه، وأطلعه على مضمون الرسائل التي تبودلت بينه وبين كيرياكوس.[٢٦]

فوقاس واللقب المسكوني

وتمرَّد فوقاس وذبح موريقيوس وأولاده، فالتجأت أمهم قسطندية وبناتها الثلاث إلى ديرٍ أقمن فيه، فطلب فوقاس إلى البطريرك المسكوني تسليم البنات وأمهن، فأبى كيرياكوس

---

[٢٣] Orologion, Sep. 2.

[٢٤] Reg. Greg., I, 25.

[٢٥] Reg. Greg., V, 41.

[٢٦] Reg. Greg., VII, 24; Jaffé-Wattenbach, 1470.

وويَّخ فوقاس على ظلمه،[٢٧] وكتب غريغوريوس إلى فوقاس مهنئًا متملقًا، ثم توفي في السنة ٦٠٤، فخلفه سبنيانوس فمات بعد بضعة أشهر، فتولى بونيفاتيوس الثالث. وتابَعَ بونيفاتيوس سياسةَ التملُّق، فأمر فوقاس في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ٦٠٧ بأن تعتبر كنيسة رومة زعيمة جميع الكنائس Caput omnium ecclesiarum،[٢٨] ثم منع كيرياكوس من استعمال اللقب المسكوني.[٢٩]

الفتح الفارسي (٦١١–٦١٤)

وركل هرقلُ فوقاسَ برجله، ونادى الشيوخ بهرقل إمبراطورًا، فكتب هرقل إلى أبرويز يُعلِمه بالقصاص الذي أنزله بفوقاس، ويؤكد له أن إعادة السلم بين الدولتين أصبح ميسورًا، ولكن أبرويز لم يُجِب، وكانت جيوشه قد قطعت الفرات، واحتلت قرقيسية عند مصب الخابور والرقة إلى شماليها، ثم تقدَّمَ شهربراز وتوغَّل في سورية الشمال، فاحتل أبامية وأنطاكية في ربيع السنة ٦١١، ثم زحف على حمص فاستولى عليها، ودخل دمشق في السنة ٦١٣، وعاد هرقل إلى المفاوضة فلم يفلح، فرأى أن يجابه الفرس في جبهتين في آنٍ واحد، فأنفذ فيليبيقوس بجيش إلى أرمينية، وقام هو وأخوه ثيودوروس إلى سورية الشمالية؛ ليصدَّا أبرويز عن لبنان وفلسطين ومصر، فالتقى الجيشان واشتبكا في السنة ٦١٣ حول أسوار أنطاكية، فدحر الروم وتراجعوا إلى مداخل قيليقية، فغلبوا فيها أيضًا، واحتل الفرس طرطوس وقيليقية بأكملها،[٣٠] وفي السنة ٦١٤ تابع الفرس زحفهم إلى الجنوب بقيادة شهربراز، وزحفوا من قيصرية فلسطين إلى أوروشليم، وهي البلد المقدس عند أعدائهم، فحاصروها عشرين يومًا ثم دخلوها عنوةً، فقتلوا جموعًا غفيرة من النصارى؛ سبعة وخمسين ألفًا، وأسروا خمسة وثلاثين ألفًا، وأحرقوا الكنائس، وألقوا القبض على البطريرك زخريا، واستولوا على عود الصليب وأرسلوه إلى فارس،[٣١] ولكنهم

---

[٢٧] Patrono, Conflitti, 72.

[٢٨] Doelger, Reg., XIII, 41; Jaffé-Wattenbach, 1906.

[٢٩] Liber Pontificalis (Duchesne), I, 316.

[٣٠] Pernice, Eraclio, 61–63.

[٣١] Antiochus le Stratège, 9–15; Couret, La Prise de Jernsalem par les Perses en 614; Vincent et Abel, Jerusalem Nouvelle, II. 926–930.

أبقوا على كنيسة المهد لما شاهدوا في فسيفسائها من تكريم للمجوس،[٣٢] وكان شهربراز قد حالف اليهود على النصارى، فلما تم له ما أراد نفى من المدينة المقدسة جميعَ اليهود، ثم أمر بترميم الكنائس، وفي ربيع السنة ٦١٧ عاد شهربراز إلى الفتح، فزحف على مصر وأدخلها في طاعة الشاه.

الفرس والكنيسة

واستعان أبرويز بالكنيسة الفارسية، فاذخر عددًا من أساقفتها وقساوستها النساطرة والمونوفيسيين، وألحقهم بجيشه الفاتح، وأحلهم محل الأرثوذكسيين حيثما حل، فخلت جميع الأبرشيات الأنطاكية الشرقية من إكليروس الكنيسة الجامعة، وشغر الكرسي الأنطاكي بعد مقتل أنسطاسيوس الثاني مدة من الزمن، وجاء في تاريخ ميخائيل السرياني أن هذا الكرسي ظل شاغرًا ثمانية وثلاثين عامًا،[٣٣] ولكن جاء أيضًا في لائحة قسطنديوس البطريرك المسكوني أن غريغوريوس الثاني تولى من السنة ٦١٠ حتى السنة ٦٢٠، وأن أثناسيوس الثالث خلفه حتى السنة ٦٢٨، ثم مقدونيوس حتى السنة ٦٤٠، فجاورجيوس حتى السنة ٦٥٦،[٣٤] ويوافق هذا الترتيب درج الأسماء نفسها في لائحة الأرج الزكي (بعبدا ١٨٩٩).

مجمع طيسفون (٦١٤)

وشقَّت على أبرويز علة النصارى، وكانوا دخلوا في طاعته ألوفًا ألوفًا، فتعهدهم برعايته الشخصية، ودعا رؤساءهم إلى الاجتماع في قصره في طيسفون في السنة ٦١٤ للتداول والتشاور والاتفاق،[٣٥] فتوافدوا على العاصمة أساقفة و«فلاسفة» أي رهبانًا، وكان بينهم فيما يظهر زخريا بطريرك أوروشليم الذي سيق إلى طيسفون أسيرًا، وترأس اجتماعهم بأمر الشاه كلٌّ من سمباد البغرتوني الأرمني وطبيب الشاه، واشترك أبرويز في أعمال

[٣٢] Duchesne, L., Roma 1913, 283.

[٣٣] Duchesne, L., l'Eglise au VI Siècle, 371–375.

[٣٤] Neale, J. M., History of the Holy Eastern Church, 167.

[٣٥] Sebeos, 113–116.

هذا المجمع بشخصه، وبحث المجتمعون قرارات مجامع نيقية والقسطنطينية وأفسس وخلقيدونية، ويُستدَل من نص المؤرخ سيبيوس أن أبرويز تكلم في الطبيعة والطبيعتين، وأنه لم يوافق على موقف النساطرة، فأمر بإخراجهم من المجمع، ثم أقر الأرمن في موقفهم، وأصبح القول بالطبيعة الواحدة في نظر السلطات الفارسية قولًا مشروعًا.[٣٦]

هرقل الصليبي الأول

وكان هرقل قد استشفع إلى العذراء في السنة ٦٠٩ عندما بدأ يستعد للحملة على القسطنطينية، فعاد إليها مستشفعًا في شتاء السنة ٦٢١، واعتزل الرياضة الروحية تأهبًا للقيام بواجب مقدس؛ واجب الدفاع عن الدولة والكنيسة والدين. وفي الرابع من نيسان من السنة ٦٢٢ تقدَّم من المائدة المقدسة متناولًا جسد الرب ودمه، وفي الخامس من الشهر نفسه دعا إليه كلًّا من البطريرك المسكوني سرجيوس والحاكم بونوس والشيوخ وكبار الموظفين والوجهاء والأعيان، والتفت إلى البطريرك وقال: «إني أعهد إلى الله وإلى والدته وإليك بهذه المدينة وبابني من بعدي.» وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الإلهية والابتهال والتوسُّل، تسلَّم أيقونة السيد المخلص وأقلع بجنوده إلى خليج نيقوميذية، ثم إلى غلاطية وقبدوقية لإكمال التعبئة والتموين، ومن هنا القول إن هرقل أول الصليبيين.

وقام هرقل بحركة التفاف واسعة النطاق واتجه بجيشه شرقًا مهددًا مواصلات العدو في آسية الصغرى وطرق تموينه، فحاول شهربراز أن يصرف هرقل عن خطته فغزا قيليقية، ولكن هرقل لم يُعِرْه انتباهًا، فاضطر القائد الفارسي أن ينقلب إلى الشرق ليحول بين هرقل وهدفه، وتواقع الخصمان في أرمينية في السنة ٦٢٢، فدارت الدائرة على الفرس وسجَّلَ هرقل نصرًا مبينًا، وانسحب الفرس من قبدوقية والبونط، وعاد هرقل إلى القسطنطينية لينظر في أمر الآفار، وفي ربيع السنة ٦٢٣ استأنف الهجوم في الشرق، فقطع أرمينية واحتلَّ دوخان ونشقفان، ثم توغَّل في أذربيجان واتجه نحو تبريز (كنزاكه) ليفاجئ أبرويز في قصره فيها؛ ففرَّ أبرويز من المدينة ودخلها الروم فأحرقوا معبدها الكبير وتعقبوا الفرس الهاربين وهم ينهبون ويدمرون، ثم رجع هرقل خوفًا من حركةٍ التفافية خشي أن يقوم بها شهربراز أو شاهين أو الاثنان معًا، وبانتصاراته هذه تسنَّى

---

[٣٦] Marquart, Osteuropaeische und Ostasiatische, Streifzuge, Leipzig, 1903.

لهرقل أن يستمد من شعوب القوقاس المسيحية ما عبَّأ به الصفوف، وكرَّ كرة أخرى إلى الميدان في السنتين ٦٢٤ و٦٢٥، فضرب شهربراز عند بحيرة وان، ثم ضربه في قيليقية عند نهر ساروس، فاضطر القائد الفارسي أن يتراجع إلى الشرق، وعدل هرقل إلى البونط لتمضية فصل الشتاء، ثم نوى أن يتحرك من البونط بجيش عظيم في السنة ٦٢٦ ليستأنف انتصاره على الفرس، ولكن تقدُّم الآفار في البلقان وحصارهم القسطنطينية، اضطرَّاه أن يؤجل قصده هذا حتى السنة ٦٢٧. وفي صيف السنة ٦٢٧ قام الخزر حلفاء هرقل بحصار تفليس، وهبَّ هو إلى محاربة أبرويز، فانحدر إلى وادي الزاب ونازل خصمه في الثاني عشر من كانون الأول عند أطلال نينوى، فأوقع به هزيمة شنعاء، ثم عبر الزاب متجهًا شطر طيسفون عاصمة الفرس، فاحتل المقر الملوكي في دستجرد، وانتزع منه ثلاثمائة لواء رومي كان الفرس قد استحوذوا عليها في انتصارات سابقة، وأطلق سراح ألوف من الأسرى، ولما كان جيش شهربراز لا يزال كاملًا سالمًا، وكانت خطوط الدفاع عن طيسفون قوية منيعة، آثَرَ هرقل التربص لعدوه في تبريز، فقطع جبال الزاغروس في إبَّان الشتاء وبلغ إلى تبريز سالمًا في الحادي عشر من آذار سنة ٦٢٨.

وكان شيرويه بن أبرويز قد تمرد على والده وتسنم العرش في الثامن والعشرين من شباط من السنة ٦٢٨، فكتب إلى هرقل يطلب الصلح، فصالحه الإمبراطور على شروط أهمها: العودة إلى الحدود القديمة، وإطلاق الأسرى، وإرجاع الصليب المقدس. وقبل شيرويه بهذه الشروط فاتصل هرقل بشهربراز لتنفيذها، وكان هذا القائد لا يزال مستوليًا على شطر وافر من أملاك الروم في آسية، وبعد مفاوضات طويلة اجتمع هرقل وشهربراز في أرابيسوس في آسية الصغرى في حزيران من السنة ٦٢٩، وعرف هرقل كيف يحدث شهربراز بما كان يراود نفس هذا القائد، وكان شهربراز يطمع بعرش الفرس فعلَّله هرقل بالأمل، فأسرع القائد إلى تنفيذ المعاهدة وأجلى جيوشه عما كان يحتله من أراضي الروم.

الصليب المقدس

وجاء في تاريخ أنطيوخوس القائد أن أبرويز أودع الصليبَ زوجته المسيحية، فحفظته في مكان أمين في طيسفون،[٣٧] وجاء لميخائيل المؤرخ السرياني أن الفرس سلَّموا الصليب

[٣٧] Antiochus le Stratège dans Koulakovsky, op. cit., 38.

المقدس إلى الروم في منبج، وأنه نقل منها إلى حلب فحمص فدمشق فطبرية، وأن هرقل نفسه تسلمه في طبرية، وقام به إلى أوروشليم،[٣٨] وجاء لسيبيوس أن هرقل أدخل الصليب إلى المدينة المقدسة في موكب باهر الجلالة ظاهر الأبهة، ملأت هيبته الصدور وتخشعت أمامه العيون.[٣٩] ويضيف ثيوفانس أن هرقل أمر بإخراج اليهود من المدينة قبل وصوله إليها، وأن البطريرك زخريا اشترك في هذا الموكب المهيب،[٤٠] وتدل القرائن والنصوص أن وصول هرقل إلى أوروشليم تمَّ في الحادي والعشرين من آذار سنة ٦٣٠، وأن الاحتفال برفع الصليب إلى مكانه جرى في يوم الأحد التالي.[٤١]

الأكاثيسطون (٦٢٦)

وفي السنة ٦١٧ عبَرَ الدانوبَ جمْعٌ غفير من الصقالبة، ناقلين معهم عيالهم وأمتعتهم، فانتشروا في البلقان وجزر إيجة وشواطئ آسية، وعاثوا في البلاد فسادًا، وطوقوا تسالونيكية وحاصروها شهرًا كاملًا، ولم تكد تنجلي المحنة وينقضي عامان، حتى كرَّ الصقالبة كرةً أخرى جارين وراءهم الآفار، وما زالوا حتى بلغوا إلى ضواحي القسطنطينية، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا، ولم يتراجعوا إلا بعد أن زاد لهم هرقل الإتاوة.

وقضت الحرب الفارسية بتغيب الإمبراطور عن العاصمة ثلاث سنوات متتالية، فعاد الآفار إلى سابق سيرتهم، وأرادوا هذه المرة اقتحام العاصمة نفسها في السنة ٦٢٦، وتقدم الفرس في الحرب حتى خلقيدونية، فنكث خاقان الآفار بعهده واندفع بجموعه إلى أسوار العاصمة، وكان الإمبراطور قد أقام البطريرك المسكوني سرجيوس وصيًّا على ابنه ونائبه في الحكم، فهبَّ البطريرك بفصاحته وشجاعته يثير الهمم ويشدد العزائم، فيطوف العاصمة بالشعائر الدينية، ويعلو بنفسه الأسوار ومعه أيقونة المخلص وأيقونة العذراء، فأصبح على تعبير أحد المعاصرين خوذةَ العاصمة ودرعها وسيفها، ويقول معاصر آخر: «إن البطريرك ما فتئ يواجه قوات الظلمة والفساد بأيقونتَيِ المخلص والعذراء حتى أدب

[٣٨] Michel le Syrien, II, 427.

[٣٩] Sebeos, 90–91.

[٤٠] Theophanes, Chron., a. 6020.

[٤١] Vincent et Abel, op. cit., 191, 205.

في قلوبهم الرعب والخوف، فكانوا كلما عرض البطريرك من الأسوار أيقونة الشفيعة حامية العاصمة، أعرضوا هم عن النظر إليها.»[٤٢]

وجمع الفرس أسطولًا، وحاولوا الوصول إلى الشاطئ الأوروبي عبر البوسفور، ولكنهم أخفقوا؛ لأن مراكب الروم بدَّدت شملهم عند القرن الذهبي، «فصبغت المياه بدمهم وغطت البحر بجثثهم»، وانقض خاقان الآفار بجموعه على الأسوار لآخر مرة في العاشر من تموز، فارتد خائبًا وهو يقول: «إني رأيت امرأة متوشحة بأثمن الأثواب تطوف الأسوار من أولها إلى آخرها!»

وهكذا نجت العاصمة من هذا الخطر الداهم، فعزا سكانها انتصارهم على الفرس والآفار إلى السيدة العذراء حامية المدينة وشفيعتها، ونظم البطريرك سرجيوس تسبيحته الشهيرة الأكاثسطون، التي لا نزال نرددها ونرنمها باللحن الرابع حتى يومنا هذا مساء كل جمعة من الأسابيع الخمسة الأولى من الصوم الكبير:

إني أنا مدينتك يا والدة الإله،
أكتب لك رايات الغلبة يا جندية محامية،
وأقدم لك الشكر كمنقذة من الشدائد،
لكن بما أن لك العزة التي لا تحارب،
أعتقيني من صنوف الشدائد
حتى أصرخ إليك.
افرحي يا عروسًا لا عروس لها.[٤٣]

والأكاثيسطون لفظ يوناني معناه «الذي لا يجلس فيه»، أي إنه لا يجوز الجلوس عند تلاوته، وقد اختلف العلماء رجال الاختصاص اختلافًا كبيرًا في الناظم وتاريخ النظم؛ فقال بعضهم ما قلناه أعلاه،[٤٤] وقال آخرون غير ذلك، فأرجئوا النظم حتى أيام لاوون الثالث (٧١٧–٧٤١) ولم يعينوا الناظم،[٤٥] ولمس غير هؤلاء تشابهًا شديدًا بين هذا المديح

---

٤٢ Pisides, G., Bell. Acaricum, V, 371.

٤٣ Orologion.

٤٤ Diehl, C. et Marçais, G., le Monde Oriental, 148; Krumbacher, K., Gesch. der Bys. Lit., 671–673; Baumstark, Bys. Zeit, 1907, 656–658.

٤٥ Brehier, L., Vie de l'Eglise, Fliche et Martin, op. cit., V, 496–497.

وبين بعض ما ورد للقديس أفرام السرياني، فقدموا النظم حتى القرن الرابع، وقالوا بإضافة أبيات إليه تعبِّر عن النصر عند القسطنطينية.[٤٦]

تنصُّر اليهود

وكانت قلوب اليهود قد دمنت على رومة منذ خراب أوروشليم وتشتيت الشمل، فجاشت صدورهم عليها بالغل، فلما تنصرت الدولة الرومانية، وأصبحت النصرانية دينها الرسمي، أضمر اليهود العداوة للدولة وخاتلوا،[٤٧] وكان ما كان من أمر الفوضى في عهد فوقاس، فنصب اليهود الحبائل الخفية، وضربوا النصارى ضربات مؤلمة، وعاونوا الفرس على الفتح.[٤٨]

وقد سبقت الإشارة إلى موقف يوستنينوس من اليهود فَلْتراجع في محلها. وإذا جاز لنا اعتماد روايةٍ انفرَدَ بها راوٍ واحد، قلنا مع أغابيوس المنبجي إن موريقيوس طرد اليهود من أنطاكية،[٤٩] ولا يجوز القول مع ثيوفانس، كما سبق وأوضحنا، إن فوقاس أمر بتعميد اليهود.[٥٠]

وبدا لهرقل من اليهود ما دعا إلى التحذر من كيدهم، وأوجب التيقظ من مكرهم، ولكنه لم ينكر عليهم أفعالهم ولم يظهر لهم سوء صنيعهم إلا بعد انتهاء الحرب الفارسية؛ فقد جاء في تاريخ سيبيوس الأرمني أنه عند انتهاء الحرب الفارسية جاء ثيودوروس أخو هرقل بجيشه إلى الرها، وحاول الدخول إليها فمنعه يهودها، فحاصرها وكاد يفتك بهم لولا تدخُّل هرقل، وأن الإمبراطور أمر بخروجهم من المدينة، ففروا من وجهه والتجئوا إلى عرب البادية،[٥١] وقام هرقل إلى فلسطين معيدًا الصليب المقدس، ووصل إلى طبرية فحلَّ ضيفًا على بنيامين اليهودي أحد وجوه البلدة، ثم استنكف لما علم أن هذا

---

٤٦ Krypiakiewicz, p. F., De Hymne Acathisti, Dyz. Zeit., 1909, 357–382.

٤٧ Chapot, La Frontière de l’Euphrate, 22–23; Pargoire, J., L’Eglise Byzantine, 172–174.

٤٨ Andreades, Les Juifs dans l’Empire Byzantin, Annuaire, de la Soc. des Etudes Byzant., 1929, 23 ff.

٤٩ Agapius de Maboug, Patr. Or., VIII, 3.

٥٠ Theophanes, Chron., a. 6101.

٥١ Sebeos, 94–95.

اليهودي الكبير اشترك في اضطهاد النصارى، فخرج من بيته، واستقر عند أفستاثيوس النابلسي المسيحي، وأكره بنيامين على التنصُّر ففعل.[٥٢]

وجاء في حوليات أفتيخيوس أن يهود الجليل أوفدوا إلى طبرية مَن رحب بالإمبراطور المنتصر، وقدَّموا له الهدايا وطلبوا الأمان، فأمنهم ببراءة رسمية حملت الخاتم الإمبراطوري،[٥٣] ولكنه بعد أن دخل المدينة المقدسة أبعد اليهود عنها إلى مسافة ثلاثة أميال احترامًا للصليب المقدس،[٥٤] وجاء في حوليات أفتيخيوس أيضًا أن نصارى أوروشليم رووا لهرقل ما أنزله بهم يهود المدينة من تعذيب وتقتيل، وأن رهبان المدينة المقدسة حضوا الإمبراطور على التنكيل باليهود؛ جزاء ما فعلوا، فأمر بهم فذبحوه، ولكنه قول ضعيف لا يجوز الأخذ به.[٥٥]

وظل الإمبراطور آخذًا بقانون يوستنيانوس في معاملة اليهود حتى السنة ٦٣٤، وفيها زحفت القبائل العربية على فلسطين، فلم يقوَ سرجيوس على الصمود في وجهها فتراجع أمامها، وما كاد يبدأ بالانسحاب حتى تطوَّع اليهود لخدمة العرب، فتجسسوا لحسابهم ونقلوا إليهم المعلومات الضرورية، وسمسروا لهم فاشتروا منهم ما غنموا من مال ومتاع وأسرى.[٥٦] ومما يُرْوَى من هذا القبيل أنه عندما استولى العرب على جزيرة رودوس أسقطوا صنمها المشهور، إحدى العجائب السبع، فتقدَّمَ اليهود منهم وابتاعوا نحاس الصنم.[٥٧]

فامتلأ هرقل غيظًا وثار ثائره، فأصدر في السنة ٦٣٤ أمرًا عامًّا بوجوب تنصير اليهود أينما كانوا وحيثما حلوا،[٥٨] وأرسل الرسل إلى ملوك الإفرنج والقوط مبيِّنًا الضرر من بقاء اليهود على دينهم، موجبًا تنصيرهم بالقوة.[٥٩]

---

٥٢ Theophanes, a. 6120.

٥٣ Eutychius, Annales, Pat. Gr., Vol. 111. Col. 1089–1090.

٥٤ Theophanes, Chron. a. 6120.

٥٥ Eutychius, Annales, Pat. Gr., Vol. 111, Col. 1089–1090.

٥٦ Jean de Nikiou, op. cit., 569–575; Theophanes, Chron., a. 6135, 6145.

٥٧ Sebeos, XXX; Les Méfaits des Juifs, Trad, Macler, 102–103.

٥٨ Michel le Syrien, op. cit., II, 414–417.

٥٩ Doelger, Reg. 207; Fredegaire, IV, 95; Gesta Dagoberti, XXIV; Leclercq, H., L'Espagne Chrétienne, 342–344; Bardy. G., Trophées de Damas, Introduction, Patr. Or., XV.

فعل واحد ومشيئة واحدة

وأدَّى استيلاء الفرس على أرمينية وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة، إلى اضطهاد أبناء الكنيسة الجامعة لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائد الكنيسة الجامعة، كما كان طبيعيًّا أن يؤدي ذلك إلى تنشيط اليعاقبة وكلِّ مَن قال بالطبيعة الواحدة. والواقع أنه لما عاد هرقل إلى هذه الأقطار، وجد أن جميع البطاركة هم من أتباع الطبيعة الواحدة، فعاد إلى معالجة هذا الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خصوصًا لأن الأخطار كانت لا تزال تحيط بالإمبراطورية وتهدد كيانها.

وكان طبيعيًّا أيضًا أن يشعر البطريرك سرجيوس صديق هرقل الأمين بالضعف الذي نجم عن هذا الاختلاف في العقيدة؛ ذلك بأن البطريرك كان سوري المولد يعقوبي النشأة،[٦٠] وأنه كان يمارس الحكم ويطلع على خفايا الأمور في أثناء الحرب الفارسية.

ويرى بعض الباحثين أن القول بفعل Energeia واحد، كان قد بدأ في مصر في بعض الأوساط القبطية منذ أوائل القرن السابع، وأن القول بالطبيعة الواحدة جرَّ هؤلاء إلى القول بالفعل الواحد. وكان أفلوغيوس بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسي قد حارب هذا القول بشدة وحزم.[٦١]

فلما تسلَّمَ هرقل أزمة الحكم، وبدأ التعاون بينه وبين سرجيوس البطريرك المسكوني، تراءى لهذا أنه بإمكانه أن يجد مخرجًا سليمًا من الأزمة اللاهوتية المستحكمة، ووسيلةً لتوحيد الصفوف، فقال بالطبيعتين مع آباء المجمع الخلقيدوني، ولكنه خرج من القول بأقنوم واحد إلى القول بفعل واحد، وادَّعى أن سلفه ميناس قال قوله من قبلُ في رسالةٍ وجَّهَها إلى زميله فيجيليوس بابا رومة.[٦٢]

ولا يخفى على أي أرثوذكسي أن هذا القول لا يتفق والعقيدة الصحيحة، فالمسيح في نظرنا إله كامل وإنسان كامل، وطبيعته البشرية لا يمكن أن تكون كاملة وهي ناقصة الإرادة والفعل؛ وبالتالي فالقول بالطبيعتين يلزمه الاعتقاد بالفعلين والمشيئتين باتحاد وبلا انفصال، فيسوع لم يرد ولم يفعل شيئًا من حيث هو إله فقط، ولا من حيث هو إنسان فقط، بل كإله وإنسان معًا بدون اختلاط أو انقسام.

---

[٦٠] Teophanes, Chron., a. 6121.

[٦١] Bardenhewer uber Trinitat und Incarnation, Theol. Quart., 1896.

[٦٢] Mansi, XI, Col. 225, 528.

وهام سرجيوس في أودية الضلال، وجرَّه القول بالفعل الواحد إلى القول بالمشيئة الواحدة، وليَّنَ ومهد في مصر أولًا، فاتصل في بادئ عهده بفرقها الضعيفة الصغيرة بالهرمسيين والأكيفاليين وبثَّ الدعاية بينهم، فوافقه بعضهم فاضطر الراهب أنسطاسيوس السيناوي أن يرد عليه بين السنة ٦١٥ والسنة ٦٣٠ مبيِّنًا ضلاله، وذلك في كتابه «المرشد» Hodegos،[٦٣] واتصل سرجيوس في السنة ٦١٥ بثيودوروس أسقف فارانة Pharan سيناء، وأوضح له رأيه فقال ثيودورس قول البطريرك المسكوني، وأمَّ القسطنطينية لزيادة البحث والتنقيب.[٦٤] وفي السنة ٦١٧ قبل الدعوة الجديدة جاورجيوس أرساس رئيس فرقة البولسيين، وأراد البطريرك الإسكندري يوحنا الرحوم أن يعاقب جاورجيوس على ضلاله، فلم يَرَ إلى ذلك سبيلًا لدخول مصر في طاعة الفرس.[٦٥]

ولما كانت السنة ٦٢٣ التقى هرقل في أرمينية ببولس أسقف الأرمن في قبرص، فتحدث إليه في رأي سرجيوس، وأرسل سرجيوس إلى بولس نصَّ رسالة ميناس إلى فيجيليوس، وكتب هرقل إلى أركاديوس متروبوليت قبرص محذرًا التعليم بالمشيئتين،[٦٦] وفي السنة ٦٢٦ انتهز هرقل فرصة إقامته في لازقة ففاوض كيروس Cyrus أسقف فاسيس في بلاد الأكراد، ونصح إليه أن يكتب إلى سرجيوس، فقبل كيروس وكتب إلى سرجيوس[٦٧] فأجابه هذا[٦٨] بأنه وجد بين رسائل أحد أسلافه ميناس رسالةً وجَّهها إلى فيجيليوس بابا رومة، أشار فيها إلى فعل واحد ومشيئة واحدة،[٦٩] وأضاف أنه لا يعرف أحدًا من الآباء يؤيد القول بالمشيئتين؛ وهكذا قال كيروس بالمشيئة الواحدة.

مؤتمر منبج

وسرَّ هرقل بكيروس وازداد شجاعة، ودخل الرها في السنة ٦٣٠، وأخرج النساطرة من كتدرائيتها وحوَّلها إلى اليعاقبة، وفي يوم الميلاد أمَّ هذه الكنيسة للصلاة، وتقدم من المائدة

[٦٣] Patr. Gr. Vol. 89, Maspero. J., Patriarches d’Alexandrie, 336–339.

[٦٤] Eckenstein, Lina, Hist. of Sinai (1921), 131.

[٦٥] Maxime le Confesseur, P. G., XCI, Col. 332.

[٦٦] Hefélé-Leclercq, op. cit., III, 333-334.

[٦٧] Mansi, XI, Col. 525–627.

[٦٨] Mansi, XI, Col. 560.

[٦٩] Jean de Nikiou, op. cit., 520–521.

المقدسة، فامتنع الأسقف أشعيا عن مناولة الإمبراطور، مشترطًا رفض طومس لاوون وقرارات المجمع الخلقيدوني، فغضب هرقل وطرد الأسقف واستعاض عنه بغيره،[٧٠] وفي أثناء وجوده في الرها فاوض هرقل أثناسيوس الجمال بطريرك اليعاقبة في أمر المشيئة الواحدة،[٧١] وأشار على سرجيوس أن يكتب إليه أيضًا.[٧٢]

ثم رأى الإمبراطور أن يتصل بالجمال، فالتقيا في منبج في أثناء السنة ٦٣١، واصطحب الجمال اثني عشر أسقفًا بينهم أشعيا بطل رواية الرها، وتفاوض الكبيران فاعترف الإمبراطور ببطريركية أثناسيوس على أنطاكية مقابل اعتراف البطريرك بالمجمع الخلقيدوني، فقبل الجمال، ثم استدعى الإمبراطور كيروس، وطلب إليه أن يوضح قضية المشيئة الواحدة ففعل، فقال البطريرك قول كيروس، وتبعه في ذلك عدد من الأساقفة والرهبان، وظل أثناسيوس بطريركًا على أنطاكية وحده حتى وفاته في السادس والعشرين من تموز سنة ٦٣١.[٧٣]

وروى ابن العبري اليعقوبي عن ديونيسيوس التلمحري ما ترجمته: وإذ بلغ الملك «هرقل» إلى منبج مثل لديه البطريرك أثناسيوس ومعه اثنا عشر أسقفًا، وطلبهم منهم جميعًا صورة إيمانهم، وإذ تلاها أوسعها مدحًا، ولكنه لم يغفل عن تكليفهم بقبول المجمع الخلقيدوني، وإذ أبوا غضب الملك عليهم، وكتب إلى كل المملكة أن مَن لا يسلم بالمجمع الخلقيدني يُجدع أنفه وتُصلم أذناه ويُؤخذ بيته.[٧٤] وهو قول ضعيف لا يقبله الثقاة.[٧٥]

وجاء إلى الجزيرة كاثوليكوس الأرمن أزر، فقابل الإمبراطور فيها، وبحث معه أمر المشيئة الواحدة فقال بها، ثم تناولا معًا وعاد الكاثوليكوس إلى أسز يبشر بالعقيدة الجديدة.[٧٦]

---

٧٠ Michel le Syrien, II, 411-412.

٧١ Ibid., II, 402-403.

٧٢ Doelger, Regesta, 204.

٧٣ Chronica Minara, Scryptoirs Syri, 112.

٧٤ Michel le Syrien, II, 411-412; Bar-Hebraeus, Chron. Ecc., I, Col. 261-275.

٧٥ Duchesne, L., L'Eglise, au VI Siècle, 497; Brehier, L., La Nouvelle Crise Relig., Fliche et Martin, op. cit., V, 115-116.

٧٦ Doelger, Reg. 203; Sebeos, op. cit., 91-92; Laurent, J., L'Arménie entre Byzance et l'Islam, 137.

رهبان بيت مارون

وانتقل هرقل من الجزيرة إلى سورية الشمالية، فزار أنطاكية ولم يعين خلفًا لأثناسيوس الجمال،[٧٧] ثم قصد المدن والأديار، فاستُقبِل فيها استقبالًا حسنًا حافلًا، ولدى وصوله إلى حمص هرع رهبان بيت مارون إلى الترحيب بقدومه، فأكرم وفادتهم وأقطعهم أراضي واسعة،[٧٨] وقبلوا دعوته فيما يظهر وأيدوه، وكيف لا يؤيدونه وهو الملك وهم الملكيون، «ولو شاءوا لجابهوا المبتدعين (اليعاقبة) بالشدة لا باللين، ولكن بما أن الملك أخذ باللين، فهل على الملكيين إلا السير على الخطة عينها!»[٧٩] ومن هنا قول ميخائيل السرياني: «أما رهبان الموارنة في منبج وحمص وفي البلدان القبلية فقد أظهروا كيدهم، وقبل المجمع عدد كبير منهم، واستولوا على أكثر الكنائس والأديار.»[٨٠] والمجمع المشار إليه في هذا النص هو المجمع الخلقيدوني، عقدة العقد في نظر ميخائيل واليعاقبة، والمعنى المقصود هو أن رهبان دير القديس مارون قبلوا الحل الذي حمله هرقل؛ أيْ قبلوا القول بالطبيعتين مع المجمع الخلقيدوني، وبالمشيئة الواحدة مع سرجيوس وهرقل،[٨١] فأظهروا كيدهم واستولوا على أكثر الكنائس والأديار، ولا يخفى أن رهبان القديس مارون كانوا قد قبلوا قرار المجمع الخلقيدوني منذ ظهوره، وأنهم كانوا قد ضحوا في سبيل هذا القبول بثلاثمائة وخمسين راهبًا شهيدًا،[٨٢] فإذا كان ميخائيل يعني بنصه هذا أن رهبان القديس مارون قبلوا القول بالطبيعتين فقط؛ يصبح ترحيبهم بهرقل في حمص ضربًا من المجاملة لا يستحق «إقطاع الأراضي الواسعة»، ولا يخولهم «الاستيلاء على أكثر الكنائس والأديار»، فهرقل أراد تسوية واسعة وتوحيد الصفوف، فعرض القول بمشيئة واحدة وبطبيعتين لاسترضاء اليعاقبة والأرمن والأقباط.

ولا يجوز الجزم في شيء مما تقدَّم ذكره؛ لأن جميع مراجعنا متأخرة؛ فديونيسيوس التلمحري الذي أخذ عنه ميخائيل السرياني، من أعيان القرن التاسع (٨١٥–٨٤٥)، وقد

---

[٧٧] Chronica Minora, op. cit., 112.

[٧٨] Eutichius, Annales, Patr. Gr., Vol, 111, Col 1039.

[٧٩] Doumit, Mgr. M., Les Maronites, 5.

[٨٠] Michel le Syrien, op. cit., II, 412.

[٨١] Brehier, L., La Nouvelle Crise, Fliche et Martin, op. cit., V, 116.

[٨٢] Dib, Mgr. P., L'Eglise Maronite, 51–61.

ضاع مصنفه ولم يبقَ منه سوى ما اختصره ميخائيل السرياني وغيره، وميخائيل هذا وُلِدَ في ملاطية سنة ١١٢٦، وترهَّبَ في دير مار برصوم، وسيم بطريركًا على اليعاقبة في السنة ١١٦٦، وتوفي في خريف السنة ١١٩٩. وأفتيخيوس هو سعيد ابن البطريق بطريرك الإسكندرية منذ السنة ٩٣٣ حتى السنة ٩٤٠، وإذا كان لا يجوز الجزم في صحة هذه الروايات «المستلقة المتآلفة»، فإنه لا يجوز أيضًا إغفالها جميعها أو بعضها كما فعل بعض الآباء الأحبار وغيرهم ممَّن عُنِيَ بتاريخ الموارنة، وسنعود إلى هذا عند الكلام عن ظهور بطريركية مارونية مستقلة.

فارس وأرمينية ومصر

وليس من العلم بعد هذا كله أن نقول مع المطران يوسف دريان (١٣٧) «أنه لم يكن للمونوثيلية أثر بشكلها المعروف في كل سورية قبل الفتح العربي، وأنه لم يبقَ مجال لدخولها بعد الفتح»، وقد يفيد هنا أن نذكر اندفاع أحد أساقفة دمشق في سبيل هذه المونوثيلية نفسها، وذهابه إلى فارس قبل الفتح العربي للتبشير فيها بالحل الجديد،[٨٣] فإنه بينما كان هرقل لا يزال في حلب مثل أمامه وفد فارسي مؤلف من الكاثوليكوس وبعض الأساقفة، وبيَّن للإمبراطور أسس الإيمان في فارس فرضي الإمبراطور، واشترك مع الوفد في الصلاة والمناولة،[٨٤] وأكمل هرقل جولته في سورية، وعاد إلى جزيرة فعلم في الرها أن الأوساط الأرمنية لا تجمع على تأييد الكاثوليكوس في موقفه الجديد من المجمع الخلقيدوني، فأوعز الإمبراطور إلى الكاثوليكوس أن يدعو الأساقفة إلى مجمع جديد يبتُّ في الأمر، فاجتمع الأساقفة في كارين (أرض روم) في السنة ٦٣٣ وكرروا تأييدهم لرئيس كنيستهم.[٨٥]

واستغل المونوفيسيون في مصر الظرف الفارسي، فاستأثروا بقيصرية الإسكندرية وجلس بطريركهم فيها، وسيم جاورجيوس بطريركًا على الإسكندرية في السنة ٦٢١، ولكنه لم يتمكن من الوصول، فبقي في القسطنطينية وتوفي فيها في السنة ٦٣١، وأعجب هرقل بمواهب كيروس وباندفاعه في سبيل الفعل الواحد والمشيئة الواحدة، فجعله بطريركًا

٨٣ Bar Nebraeus, op. cit., II, 110.

٨٤ Thomas de Marr, The Book of Governors, II, II, 124–126; Labourt, Le Christianisme dans l'Empire Perce, 242–243.

٨٥ Patr. Gr., Vol. 132, Col. 1251; M., The Church of Armenia, (London, 1955), 33.

وواليًا على مصر،[٨٦] وما كاد يصل إليها في خريف السنة ٦٣١ حتى فرَّ بنيامين بطريرك المونوفيسيين واختبأ،[٨٧] فخلا الجو لكيروس، فكتب اعترافًا بإيمانه بالمشيئة الواحدة، ودعا المونوفيسيين للموافقة عليه، فقبله السويريون فورًا فلاينهم البطريرك، ورفضه اليوليانيون فضيَّق البطريرك عليهم، ففروا واستشرفوا في حركة الفتح الإسلامي نوعًا من الإنقاذ.[٨٨]

البطريرك صفرونيوس

وكانت كنيسة دمشق قد أنجبت شابًّا غيورًا مؤمنًا مندفعًا هو صفرونيوس العظيم، وكان صفرونيوس قد تعلَّمَ البيان وعلمه، واتخذ لنفسه لقب الحكيم، ثم قدم النذر في الإسكندرية ولبس الأسكيم فيها والتحق بإحدى رهبانياتها، ووضع مواهبه بعد ذلك تحت تصرُّف بطاركتها المستقيمي الرأي، فعاون كلًّا من أفلوغيوس وثيودوروس ويوحنا الرحوم في سعيهم لهدي المونوفيسيين، ولدى وصول الفرس إلى مصر خرج صفرونيوس منها، واتجه نحو قرطاجة ورومة، ثم عاد الصليب إلى أوروشليم فعاد صفرونيوس إلى الشرق، إلى فلسطين نفسها، وانعكف متأملًا في دير القديس ثيودوسيوس بالقرب من بيت لحم.

وقُدِّرَ لكيروس أن ينجح في مصر، كما سبق وأشرنا، فذاع خبر نجاحه في فلسطين، وعم الأوساط الرهبانية وطرق مسامع صفرونيوس فأقضَّ مضجعه، فعول على القيام بذاته إلى مصر للاتصال بكيروس وإنقاذه من الضلال، ولم يعبأ صفرونيوس بمشاق السفر، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين، فقام إلى مصر وذهب توًّا إلى الإسكندرية، وارتمى على أقدام بطريركها راجيًا العدول عن القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة،[٨٩] ولكن كيروس لم يَرَ رأيه، فأعلن الراهب الشيخ عزمه على السفر إلى القسطنطينية لمناقشة سرجيوس نفسه في الأمر، فزوَّده كيروس بنسخة عمَّا وزع في موضوع الاتحاد، ورجاه عرضها على زميله القسطنطيني.

---

[٨٦] Sévère d’Aschmounein, Vie de Beojamin, Patr. Or., I, 489–492; Theophanes, Chron., a. 6121; Butler, Arab Conqucst of Egypt, 508 ff.

[٨٧] Vie de Benjamin, Catr. Or., I, 490.

[٨٨] Mansi, XI, Col, 561–564.

[٨٩] Patr. Gr. Vol. 91. 91, Col. 112–143; XI, Col. 532–533.

ووصل صفرونيوس إلى العاصمة واتصل ببطريركها وناقشه، فاتفق الاثنان على تدوين ما يقولان حصرًا للمعنى، وعرضه على المجمع الدائم في القسطنطينية، ونظر المجمع فيما دُوِّنَ، فقال بوجوب الابتعاد عن المشاحنات الكلامية والاستمساك بقرارات المجامع، فوعد سرجيوس أنه سيكتب لكيروس أن يكف عن البحث في الموضوع،[٩٠] وعاد صفرونيوس إلى ديره في بيت لحم.

ولدى عودة الشيخ الوقور إلى مقره في بيت لحم أثيرت قضية خلافة يعقوب أخي الرب، وكان الكرسي لا يزال شاغرًا منذ وفاة موذيستوس في أواخر السنة ٦٣٠، فلما لمع صفرونيوس في دفاعه عن الإيمان القويم انتُخِب بطريركًا على أوروشليم، وقد اختلف العلماء في تاريخ هذا الانتخاب، فقال العلامة الأب فان سان الدومينيكي بأنه تمَّ في السنة ٦٣٦،[٩١] وخالفه آخرون فحددوا السنة ٦٣٤ تاريخًا لهذا الانتخاب؛[٩٢] ومما جاء عن هذا الموعد أن تسليم العكاز تم قبيل عيد الميلاد، وأن البطريرك الجديد لم يتمكن من قيادة المؤمنين إلى بيت لحم لظهور العرب في ضواحيها وقلة الأمن.[٩٣]

وقضى العرف والتقليد بأن يوجه البطريرك الجديد ومجمعه رسائل سلامية إلى سائر البطاركة تنبئ بالانتخاب الجديد، وتنقل بيانًا بإيمان البطريرك المنتخب، فدعا صفرونيوس المجمع الأوروشليمي، وأطلع أعضاءه على نص إيمانه، ثم وجَّه الرسائل إلى البطاركة، وجاء في رسالته السلامية إلى سرجيوس كلام واضح في الثالوث والتجسد، وقول ناصع بالمشيئتين والطبيعتين، ورجاء بإيفاد أبوكريساريوس يحمل الجواب ويمثل البطريرك في أوروشليم.[٩٤]

سرجيوس وأونوريوس

ونادى مكسيموس القسطنطيني بمثل ما نادى به صفرونيوس، فخاف سرجيوس واضطرب، ومنع جماعته عن المذاكرة في الموضوع، وكتب للبابا أونوريوس يستوضح

---

[٩٠] Grumel, Recherches sur l’Histoire du Monothélisme, Echos d’Orient, 1929, 21–23.

[٩١] Vincent et Abel, Jérusalem Nouvelle, II, 930.

[٩٢] Brehier L., Nouvelle, Crise Relig., op. cit., V, 120–121.

[٩٣] Patr. Gr. Vol. 87, Col. 3201 f.

[٩٤] Patr. Gr., Ibid., Col. 3148; Mansi, XI, Col. 831–843; Grumel, op. cit., Echos d’Orient, 1929, 24 f.

رأيه، فأجابه البابا أنه من حيث المشيئة يعترف بمشيئة واحدة في المسيح — Unde et unam voluntatem fatemur[٩٥] — ومن حيث الفعل لا يسمح أن يذكر أحد لا فعلًا ولا فعلين،[٩٦] وعقد صفرونيوس المجمع الأوروشليمي، ودفع برسائله السلامية إلى البطاركة، فاضطرب البابا أونوريوس، وكتب له والبطاركة بمعنى رسالته الأولى،[٩٧] فأيَّدَ هرقل موقف أونوريوس وسرجيوس وكيروس من قضية الفعلين، فأصدر إرادة سنية في السنة ٦٣٤-٦٣٥ حرَّمَ فيها البحث في الفعل الواحد والفعلين.[٩٨]

الإكثيسيس (٦٣٨)

واستهال هرقل أمر العرب وغزواتهم وكاد ينشق صدره، ورغب رغبة أكيدة في توحيد الصفوف، وظن أن مثل هذا التوحيد يتم بمجرد صدور إرادة ملكية، وتوفي صفرونيوس في السنة ٦٣٨ سنة دخول العرب إلى المدينة المقدسة، فأصدر الإمبراطور بيانًا Ekthesis بالإيمان الصحيح في أواخر السنة ٦٣٨، وأوجب قبوله والعمل بموجبه.[٩٩]

وأهم ما جاء في الإكثيسيس قول المجمع الخلقيدوني بالثالوث والتجسد الإلهي، وتحريم البحث في الفعل أو الفعلين، ووجوب القول بمشيئة واحدة وبطبيعتين بدون اختلاط أو انفصال.

وعقد سرجيوس مجمعًا محليًّا في السنة ٦٣٨ وصدَّق الإكثيسيس ثم مات،[١٠٠] فخلفه بيروس، وكان هذا قد اشترك في إعداد نص الإكثيسيس، فوافق عليه موافقة سلفه

---

[٩٥] "Aussi ne reconnaissons-nous qu'une seule volonté de Notre-Seigneur Jésus-Christ, car notre nature a été évidemment Prise par la divinilé, et prise en état d'innocence, telle qu'elle était avant la chute ...": Mansi, XI. Col. 547–544; Liber Pontificalis, (Duchesne), .I, 323–328

[٩٦] .Hefelé-Leclercq, III, 347, n. 1, 356, n. 1

[٩٧] Brehier, L., Nouvelle Crise Relig., op. cit., V, 122-123; Duchesne, L., l'Fglise au VJ, Siècle, .407–412; Tixeront, Hist. des Dogmes, III, 166–170

[٩٨] .Dolger, Reg. 205; Theophanes, Chron., a. 6121

[٩٩] .Mansi, X, Col. 991–998; Hefelé-Leclercq, III, 338 ff

[١٠٠] .Mansi, X, Col. 999

سرجيوس.[١٠١] وخلف صفرونيوس في الكرسي الأوروشليمي سرجيوس اليافاوي فقال بالمشيئة الواحدة، وكان مقدونيوس البطريرك الأنطاكي لا يزال مقيمًا في القسطنطينية؛ نظرًا لاضطراب الأحوال في سورية وسائر ولاية الشرق، فأيد الإكثيسيس وقال بالمشيئة الواحدة.[١٠٢]

وحمل نص الإكثيسيس إلى الإسكندرية ورابينة الماجيستروس أفستاثيوس فابتهج كيروس وهلل، وتوفي أونوريوس في خريف السنة ٦٣٨، فخلفه في الكرسي الرسولي سويرينوس، وأوفد سويرينوس أبوكريساريوسًا إلى القسطنطينية، ينبئ البلاط والبطريركية بانتخابه، ويرجو الإمبراطور تصديق الانتخاب والسماح بتسليم العكاز، فاشترط هرقل الاعتراف بمضمون الإكثيسيس قبل التصديق، وتوفي هذا البابا في السنة ٦٤٠ ولم يحرِّم القول بالمشيئة الواحدة، أما خلفه يوحنا الرابع (٦٤٠–٦٤٢) فإنه عقد مجمعًا محليًّا وحرَّم القول بالمشيئة الواحدة.[١٠٣]

---

[١٠١] Mansi, X, Col. 1002–1004; Lheodhanes, Chron., a. 6121.

[١٠٢] Hefelé-Leclercq, III, 360–391.

[١٠٣] Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 328–329; Theophanes, Chro., a. 6121; Patr. Gr., Vol. 90, Col. 125.

الفهارس

سلسلة البطاركة

٣٤–٦٣٤

(١) بطرس الرسول.

(٢) إفوذيوس Evodios.

(٣) أغناطيوس ثيوفورس المتوشح بالله: ولعله توفي بين السنة ١٠٦ والسنة ١٠٨، أو في السنة ١١٥.

(٤) هيرون Hirona.

(٥) كرنيليوس: ولعله تولى في السنة ١٢٨.

(٦) إيروتوس Eroutos: ولعله ترأس في السنة ١٤٢.

(٧) ثيوفيلوس: توفي بعد آذار السنة ١٨١ أو ١٨٢ أو ١٨٥.

(٨) مكسيمينوس: توفي في آذار السنة ١٩٠ أو ١٩١.

(٩) سرابيون: ١٩١–٢١٢.

(١٠) أسقليبياذس: ٢١٢–٢١٨.

(١١) فيليطوس: ٢١٨–٢٣١.

(١٢) زيبنوس Zebennos: ٢٣١–٢٣٨.

(١٣) بابيلاس (بابولا): ٢٣٨–٢٥٠.

(١٤) فافيوس (فابيوس): ٢٥٠–٢٥٢.

(١٥) ديمتريانوس: شتاء السنة ٢٥٢-٢٥٣، حتى السنة ٢٦٠-٢٦١.

(١٦) بولس السميساطي: ٢٦٠–٢٦٨.

(١٧) دومنوس: ٢٦٨–٢٧١.
(١٨) تيمايوس Timaios: ٢٧١–٢٧٩.
(١٩) كيرلس: ٢٧٩–٣٠٣.
(٢٠) تيرانوس Tyrannos: ٣٠٤–٣١٤.
(٢١) فيتاليوس: ٣١٤–٣١٩.
(٢٢) فيلوغونوس Philogonos: ٣١٩–٣٢٤.
(٢٣) إفستاسيوس Eustathios: ٣٢٥–٣٣٠.
(٢٤) بافلينوس Paulinos: ٣٣٠-٣٣١.
(٢٥) إفلاليوس Evlalios: مدة قصيرة غير محددة حسب رواية ثيودوريطس.
(٢٦) إفرونيوس Euphronios: ٣٣٢-٣٣٣.
(٢٧) فلاكيلوس Flacillos: ٣٣٣–٣٤٤.
(٢٨) إسطفانوس: ٣٤٢–٣٤٤.
(٢٩) لاونديوس Leontios: ٣٤٤–٣٥٨.
(٣٠) أفذوكسيوس: ٣٥٨-٣٥٩.
(٣١) أنيانوس Annianos: ٣٥٩.
(٣٢) ملاتيوس: ٣٦٠-٣٦١.
(٣٣) إفظويوس Euzoios: ٣٦١–٣٧٦، ثم دوروثيوس.
(٣٤) ملاتيوس: ٣٧٨–٣٨١.
(٣٥) فلافيانوس: ٣٨١–٤٠٤، وبافلينوس، وإيفاغريوس.
(٣٦) بورفيروس: ٤٠٤–٤١٤.
(٣٧) ألكسندروس: ٤١٤–٤٢٤.
(٣٨) ثيودوتوس Theodotos «عطا الله»: ٤٢٤–٤٢٨.
(٣٩) يوحنا: ٤٢٨–٤٤١، وخلفه ابن أخته.
(٤٠) دومنوس الثاني: ٤٤١–٤٤٩.
(٤١) مكسيموس: ٤٥١–٤٥٥، خلع خلعًا.
(٤٢) باسيليوس: ٤٥٧-٤٥٨.
(٤٣) أكاكيوس: ٤٥٨-٤٥٩.
(٤٤) مرتيريوس: ٤٥٨–٤٧١.
(٤٥) بطرس القصار: ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، و٤٧٥-٤٧٦، و٤٨٥–٤٩٠.

(٤٦) يوليانوس: ٤٧١.

(٤٧) يوحنا الثاني: ٤٧٧.

(٤٨) إسطفانوس الثاني: ٤٧٧–٤٨١، وهو هو الذي يُدعَى أيضًا الثالث.

(٤٩) كالانذيون: ٤٨١–٤٨٥.

(٥٠) بالاذيوس: ٤٩٠–٤٩٨.

(٥١) فلافيانوس الثاني: ٤١٨–٥١٢، خُلِع ونُفِي إلى البتراء.

(٥٢) سويروس الأنطاكي: ٥١٢–٥١٨، فرَّ إلى مصر.

(٥٣) بولس الثاني: ٥١٩–٥٢١، أُكرِه على التنازل.

(٥٤) إفراسيوس: ٥٢١–٥٢٦، تُوفِي في أثناء الزلزال.

(٥٥) إفرام: ٥٢٧–٥٤٥، قومس الشرق سابقًا.

(٥٦) ذومنينوس لا ذومنوس: ٥٤٥–٥٥٩.

(٥٧) أنسطاسيوس السينايتي: ٥٥٩–٥٧٠، لجأ إلى القسطنطينية.

(٥٨) غريغوريوس: ٥٧٠–٥٩٣.

(٥٩) أنسطاسيوس ثانية: ٥٩٣–٥٩٨.

(٦٠) أنسطاسيوس الثاني: ٥٩٩–٦٠٩، استشهد على يد اليهود.

(٦١) غريغوريوس الثاني: ٦١٠–٦٢٠.

(٦٢) أنسطاسيوس الثالث: ٦٢٠–٦٢٨.

(٦٣) مقدونيوس: ٦٢٨.

(٦٤) أثناسيوس الجمال اليعقوبي، الذي وافق على برنامج هرقل.